

إعداد
إبراهيم شمس الدين

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ١١ ـ ٩٤٢٤ بيروت ـ لبنان

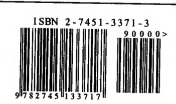
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3371-3



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

من المعروف أن التاريخ السياسي، هو بشكل رئيسي تاريخ الصراعات والحروب والأيّام. يقول ابن خلدون في مقدّمته: «أمّا بعد، فإنّ فنّ التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشدّ إليه الركائب والرجال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأنفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهّال؛ إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدُّوَل، والسوابق من القرون الأُوَل، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيه الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصّها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلّبت بها الأحوال، واتّسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمّروا الأرض حتى نادى بهم الترحال وحان منهم الزّوال. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات، ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لهذا أصيل في الحكمة عريق...».

فالتاريخ بناء على ما تقدّم، هو دراسة الحوادث، أو هو الحوادث نفسها، والحادث من وجهة نظر المؤرّخ هو كل ما يطرأ من تغيير على حياة البشر، وكل ما يطرأ من تغيير على الأرض أو في الكون يكون متصلاً بحياة البشر، وفي أكثر الأحيان الحادث يكون مفاجئًا وعنيفًا، كوقوع زلازل تهدم المدن، ووقع الحروب والصراعات الدموية.

وسواء أكانت الحوادث صغيرة أم كبيرة، قصيرة الأمد أو طويلة، فإن الجامع بينها هو أن الحال قبلها يختلف عنه بعد وقوعها. وإذا أردنا أن نتبيّن أهمية حدث ما، فنحن نقارن الأحوال قبله وبعده. والحقيقة أنّه لا توجد حوادث صغيرة وأخرى كبيرة؛ لأن الحوادث الكبيرة إنما هي تجمّع حوادث صغيرة بعضها إلى بعض في نطاق مكاني وزماني محدّد.

استنادًا إلى ما تقدَّم، فإن قراءة أيّام وحروب العرب في الجاهلية والإسلام، هو نفسه قراءة تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام. وبالإضافة إلى كون أيّام العرب مصدرًا أساسيًا من مصادر التاريخ، فإنّها أيضًا ينبوع من ينابيع الأدب، ونوع طريف من أنواع القصص، بما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث، وما رُوِيَ في أثنائها من نثرٍ وشعر، وما قيل من خلالها من مأثور الحكم وبارع الحيل، ومصطفى القول ورائع الكلام، فهي توضح شيئًا من العلاقات التي كانت قائمة بين قبائل العرب نفسها، وبين العرب وغيرهم من اللأمم؛ كالفرس والروم، وهي في أسلوبها القصصي وبيانها الفنّي مرآة صافية لأحوال العرب وعاداتهم وشأنهم في الحرب والسلم والاجتماع والفرقة والفداء والأَسر، وهي أيضًا تظهر فضائلهم وشِيَمهم؛ كالدفاع عن الحريم، والوفاء بالعهد، والانتصار للعشيرة، وحماية الجار والصبر في القتال.

هذا الكتاب «أيّام العرب في الجاهلية والإسلام» هو محاولة متواضعة لقراءة تاريخ العرب من خلال أيّامهم وحروبهم، وقد وضعناه في قسمين:

القسم الأول: أيّام العرب في الجاهلية، وفيه ٧١ يومًا ووقعة وغزوة وحرب.

القسم الثاني: أيّام العرب في الإسلام، وفيه ١٠٧ أيام ووقعة وغزوة وحرب.

وقد جمعنا مادّة الكتاب من بطون كتب التاريخ المُعتبرة، مثل: تاريخ الأُمم والملوك، لابن جرير الطبري المسمّى بتاريخ الطبري. والمنتظم في تاريخ الملوك والأُمم لابن الجوزي، والكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري، وتاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان، والبداية والنهاية لابن كثير الدمشقيّ، وتاريخ غزوات العرب لشكيب أرسلان، وغيرهم،

وقد اقتصرنا في اختيارنا على الأيام المشهورة التي وصل إلينا تفصيل حوادثها وذكر أسبابها ورواية أشعارها وقصائدها. أمّا الأيام التي لم يقع في الكتب إلّا ذكر عنوانها مجرّدة من الحوادث وذكر الأسباب، فقد تجاوزناها.

وأخيرًا، نرجو أن يكون عملنا هذا خالصًا لوجهه تعالى، ولله الكمال وحده، وهو وليُّ التوفيق.

إبراهيم شمس الدين

القسم الأول

أيام العرب في الجاهلية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ غزوة بختنصّر للعرب

قيل: أوحى الله إلى برخيا بن حنانيا يأمره أن يقول لبختنصّر: ليغزو العرب فيقتل مقاتلتهم ويسبي ذراريهم ويستبيح أموالهم عقوبةً لهم على كفرهم.

فقال برخيا لبختنصر ما أُمر به، فابتدأ بمن في بلاده من تجّار العرب فأخذهم وبنى لهم حران[1] بالنجف، وحبسهم فيه، ووكل بهم وانتشر الخبر في العرب، فخرجت إليه طوائف منهم مستأمنين فقبلهم وعفا عنهم فأنزلهم السواد فابتنوا الأنبار[2]، وخلّى عن أهل الحيرة[2] فاتّخذوها منزلًا حياة بختنصر، فلما مات انضموا إلى أهل الأنبار، وهذا أول سكنى العرب السواد بالحيرة والأنبار، وسار إلى العرب بنجد والحجاز، فأوحىٰ الله إلى برخيا وأرميا يأمرهما أن يسيرا إلى معدّ بن عدنان[3]، فيأخذاه ويحملاه إلى حَرّان، وأعلمهما أنه يخرج من نسله محمّد ﷺ الذي يُختم به الأنبياء.

فسارا تُطْوَى لهما المنازل والأرض حتى سبقا بختنصر إلى معد، فحملاه إلى حرّان في ساعتهما ولمعد حينئذ اثنتا عشرة سنة، وسار بختنصّر فلقي جموع العرب

---

(١) النجف بظهر الكوفة كالمسناة تمنع مَسِيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها، وبالقُرْب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

(٢) مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية النعمان بن المنذر وآباؤه.

(٣) تفيد عبارة المؤلف أن معد بن عدنان كان موجودًا في عهد بختنصّر وهذا بعيد؛ لأنه يقتضي أنْ يتناسل عشرون طبقة في ألفي ومائتي سنة، ويلزم منه أنْ لا يولد للرجل إلّا بعد مُضِيّ ستين سنة من عمره على توالي عشرين شخصًا، ولا يخفىٰ ما فيه. (منيريّة).

فقاتلهم فهزمهم، وأَكْثَرَ القتلَ فيهم، وسارَ إلى الحجاز، فجمع عدنان العرب، والتقى هو وبختنصّر بذات عرق، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فانهزم عدنان وتَبِعَهُ بختنصر إلى حُصونٍ هناكَ، واجتمع عليه العرب وخندق كُلُّ واحدٍ مِنَ الفريقين على نفسه وأصحابه، فكمن بختنصّر كمينًا، وهو أول كمين عُمل، وأخذتهم السيوف، فنادوا بالويل، ونهى عدنان عن بختنصر، وبختنصّر عن عدنان، فافترقا، فلمّا رجع بختنصر خرج معد بن عدنان مع الأنبياء حتّى أتى مكّة، فأقام أعلامها وحَجَّ وحَجَّ معه الأنبياء، وخرج معد حتى أتى ريشوب وسأل عمّن بَقِيَ من ولد الحرْث بن مضاض الجرهمي، فقيل له: بقي جوشم بن جلهمة فتزوّج معد ابنته معانة، فولدت له نزار بن معدّ.

٢ ـ غزوة أهل الفيل لمكّة المكرّمة

لما دام مُلك أبرهة باليمن وتمكّن به بنى القليس بصنعاء، وهي كنيسة لم يُرَ مثلها في زمانها بشيءٍ من الأرض، ثم كَتَبَ إلى النجاشيّ: إنّي قد بنيتُ لك كنيسة لم يُرَ مثلها، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حاجّ العرب.

فلمّا تحدثت العرب بذلك غضب رجلٌ من النساة من بني فقيم، فخرج حتى أتاها فقعد فيها وتغوّط، ثم لحق بأهله، فأخبر بذلك أبرهة، وقيل له: إنه فِعْل رجلٍ من أهل البيت الذي تحجّه العرب بمكّة غضب لما سمع أنك تريد صرف الحجّاج عنه، ففعل هذا. فغضب أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت فيهدمه، وأمر الحبشة فتجهّزت وخرج معه بالفيل واسمه «محمود»، وقيل: كان معه ثلاثة عشر فيلًا وهي تتبع محمودًا، وإنّما وحّد الله سبحانه الفيل؛ لأنه عنى كبيرها محمودًا. وقيل في عددهم غير ذلك.

فلمّا سار سمعت العرب به فأعظموه ورأوا جهاده حقًّا عليهم، فخرج عليه رجلٌ من أشراف اليمن يقال له «ذونفر» وقاتله، فهزم ذونفر وأُخِذَ أسيرًا فأراد قتله ثم تركه محبوسًا عنده، ثم مضى على وجهه فخرج عليه نُفَيْل بن حبيب الخثعمي فقاتله، فانهزم نُفَيْل وأُخذ أسيرًا، فضمن لأبرهة أنْ يدلّه على الطريق فتركه وسار حتى إذا مَرَّ على الطائف بعث معه ثقيف «أبا رغال» يدلّه على الطريق حتى أنزله بالمغمس، فلما نزله مات أبو رغال، فَرَجَمَتْ العرب قبره، فهو القبر الذي يُرجم.

وبعث أبرهة الأسود بن مقصود إلى مكّة فساق أموال أهلها وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، ثم أرسل أبرهة حناطة الحميري إلى مكّة، فقال: سَلْ

عن سيّد قريش وقل له: إني لم آتِ لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت، فإنْ لم تمنعوا عنه فلا حاجة لي بقتالكم.

فلما بلغ عبد المطلب ما أمره، قال له: والله ما نريد حربه، هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه فهو يمنع بيته وحَرَمه، وإن يخلّ بينه وبينه فوالله ما عندنا مِنْ دَفْعٍ، فقال له: انطلق معي إلى الملك، فانطلق معه عبد المطلب حتى أتى العسكرَ، فسأل عن ذي نفرٍ، وكان له صديقًا، فدلَّ عليه وهو في محبسه، فقال له: هل عندك غناء فيما نزل بنا.

فقال: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أنْ يقتله، ولكن أنيس سائس الفيل صديقٌ لي فأُوصيه بك وأعظِّم حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلِّمه بما تريد ويشفع لك عنده إن قدر، قال: حسبي.

فبعث ذو نفر إلى أنيس فحضره وأوصاه بعبد المطّلب وأعلمه أنه سيّد قريش، فكلّم أنيس أبرهة، وقال: هذا سيد قريش يستأذن فَأْذَنْ له، وكان عبد المطلب رجلًا عظيمًا جليلًا وسيمًا، فلما رآه أبرهة أَجَلَّهُ وأكرمه ونزل عن سريره إليه وجلس معه على بساط، وأجلسه إلى جنبه، وقال لترجمانه: قُلْ له ما حاجَتُك، فقال له الترجمان ذلك، فقال عبد المطّلب: حاجتي أن يردَّ عليّ مائتي بعير أصابها لي.

فقال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلّمتني، أتكلّمني في إبلك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه.

قال عبد المطّلب: أنا ربّ الإبل وللبيت ربّ يمنعه. قال: ما كان ليمنع منّي، وأمر بردّ أبله، فلما أخذها قَلَّدَهَا وجعلها هَدْيًا وَبَثَّها في الحَرَم لكي يصاب منها شيء، فيغضب الله.

وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج معه من مكّة والتحرُّز في رؤوس الجبال خوفاً مِنْ مَعَرَّةِ الجيش.

ثم قام عبد المطلب، فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة، فقال عبد المطلّب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

يا ربِّ لا أرجو لهما سواكا   يا ربِّ فامنع منهم حِمَاكا
إنَّ عدوَّ البيت مَنْ عاداكا   أمنعهم أن يخرِّبوا فِنَاكا

وقال أيضاً:

لَا هُـمّ إنّ الـعـبـدَ يـمـ ـنُـع رَحْـلَهُ فـامـنـع رِحَـالَك

لا يـغـلـبَـنّ صَـلِـيـبُـهُـم ومـحـالـهـم عـدوًا مـحـالـك

ولأن فَـعَـلْتَ فَـإنّـهُ أمـرٌ تـتـمّ بـه فِـعـالـك

أنـت الَّذي إنْ جـاء بـا غ نـرتـجـيـك لـه فـذالـك

ولوا ولـم يـحـووا سـوى خـزيّ وتـهـلـكـهـم هـنـالـك

لـم أسـتـمـع يـومًـا بـأر جس مـنـهـم يـبـغـوا قـتـالـك

جـرّوا جـمـوعَ بـلادهـم والـفـيـلَ كـي يَـسْـبُـوا عـيـالـك

عـمـدوا حـمـاك بـكـيـدهـم جـهـلًا ومـا رقـبـوا جـلالـك

إن كـنـت تـاركـهـم وكـعـبـتـنـا فـأمـر مـا بـدا لـك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرّزوا فيها ينتظرون ما يفعل أبرهة بمكّة إذا دخل، فلما أصبح أبرهة تَهَيأ لدخولِ مكّة وَعَبّى[1] جيشه وهيّأ فِيلَه وكان اسمه محمودًا، وأبرهةُ مُجْمِعٌ لهدم البيت والعَوْد إلى اليمن، فلمّا وَجّهُوا الفيل أقبل نفيل بن حبيب الخثعمي فمسك بأُذنِهِ، وقال: «أَرْجِع محمود أرجع راشداً من حيث جئت، فإنّك في بلد الله الحرام».

ثم أرسل أذنه فألقى الفيلُ نفسه إلى الأرض واشتدّ نُفيل فصعد الجبل فضربوا الفيل فأبى، فوجّهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول، ووجّهوه إلى الشام ففعل كذلك، ووجّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى مكّة فسقط إلى الأرض.

وأرسل الله عليهم طيراً أبابيل من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طَيْرٍ منها ثلاثة أحجارٍ تحملها، حجرٌ في منقاره، وحجران في رجليه، فقذفتهم بها وهي مثل الحمّص والعَدَس لا تصيب أَحَدًا منهم إلّا هَلَك؛ وليس كلّهم أصابت، وأرسل الله سَيْلًا ألقاهم في البحر، وخرج من سلم مع أبرهة هاربًا يبتدرون الطريق الذي جاؤوا منه، ويسألون عن نُفيل بن حبيب ليدلّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نُفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أيـنَ الـمـفـرّ والإلـه الـطـالـبُ والأشرمُ المغلوبُ غيرُ الغالب

---

(١) عبّأ.

وقال أيضاً:

ألا حييت عنّا يا ردينا	نعمناكم مع الأصباح عينا
أتانا قابسٌ منكم عشاء	فلم يقدر لقابسكم لدينا
ردينة لو رأيت ولا تريه	لدى جنب المحصب ما رأينا
إذًا لعذرتني وحمدت رأيي	ولم تأسَ لما قد فات بينا
حمدت اللّه إذ عاينت طيرًا	وخفت حجارة تلقى علينا
وكلّ القوم يسأل عن نُفَيْل	كأنّ عليّ للحبشان دَينا

فخرجوا يتساقطون بكل منهل، وأصيب أبرهة في جسده فسقطت أعضاؤه عضوًا عضوًا، حتى قَدِموا به صنعاء، وهو مثل الفرخ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه.

فلما هلك مَلَك ابنه يكسوم بن أبرهة، وبه كان يُكَنّى، وذلّت حمير واليمن له، ونكحت الحبشة نساءَهم، وقتلوا رجالهم، واتّخذوا أبناءهم تراجمة بينهم وبين العرب.

ولما أهلك الله الحبشة، وعادَ مَلِكُهم ومعه من سَلِمَ منهم، ونزل عبد المطلب من الغد إليهم لينظر ما يصنعون، ومعه أبو مسعود الثقفيّ لم يسمعا حِسًّا، فدخل معسكرهم فرأيا القوم هلكى، فاحتفر عبد المطلب حفرتين ملأهما ذهبًا وجوهرًا له ولأبي مسعود، ونادى في الناس فتراجعوا فأصابوا من فضلهما شيئًا كثيرًا، فبقي عبد المطلب في غِنَى من ذلك المال حتى مات، وبعث الله السَّيْل فألْقى الحبشة في البحر.

وقال كثيرٌ من أهل السِّيَر: إنّ الحصبة والجدري أوّل ما رُؤِيا في العرب بعد الفيل، وكذلك قالوا إنّ العشر والحرمل والشيح لم تُعرف بأرض العرب إلّا بعد الفيل.

وهذا مما لا ينبغي أن يعرج عليه، فإن هذه الأمراض والأشجار قبل الفيل مذ خلق الله العالم، ولما ردَّ الله الحبشة عن الكعبة وأصابهم ما أصابهم عَظَّمَت العَرب قريشًا، وقالوا أهل الله قاتل عنهم.

ثم مات يكسوم، وملك بعده أخوه مسروق.

٣ ـ حرب زهير بن جناب الكلبي مع غطفان وبكر وتغلب وبني القين

كان زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة الكلبي أحدَ من اجتمعَتْ عليه قُضَاعَة، وكان يُدعى الكاهن لصحَّة رأيه، وعاش مائتين وخمسين سنة أوقع فيها مائتي وقعة ـ وقيل: عاش أربعمائة وخمسين سنة ـ وكان شجاعًا، مظفرًا، ميمون النقيبة.

وكان سبب غزاته غطفان: أنّ بني بغيض بن ريث بن غطفان حين خرجوا من تُهَامة ساروا بأجمعهم، فتعرّضَتْ لهم صداء وهي قبيلة من مذحج، فقاتلوهم وبنو بغيض سائرون بأهليهم وأموالهم، فقاتلوهم عن حريمهم فظهروا على صداء وفتكوا فيهم، فعزَّت بغيض بذلك وأثرت وكثرت أموالها، فلما رأوا ذلك قالوا: والله لنتخذنّ حرمًا مثل مكة لا يُقتل صيده ولا يُهاج عائذُه، فبنوا حَرَماً ووَلِيَهُ بنو مُرَّة بن عوف. فلمّا بلغ فِعْلُهم وما أجمعوا عليه زهيرَ بن جناب قال: «والله لا يكون ذلك أبدًا وأنا حيّ، ولا أخلي غطفان تتّخذ حَرَمًا أبدًا»، فنادى في قومه فاجتمعوا إليه، فقام فيهم فذكر حال غطفان وما بلغه عنهم.

وقال: إنّ أعظم مأثرة يدخرها هو وقومه أنْ يمنعوهم من ذلك.

فأجابوه، فغزا بهم غطفان وقاتلهم أبرح قتال وأشدَّه، وظفر بهم زُهَيْر وأصاب حاجته منهم، وأخذ فارساً منهم في حرمهم فقتله وعطّل ذلك الحَرَم، ثم مَنَّ على غطفان ورَدَّ النساء وأخذ الأموال، وقال زُهير في ذلك:

فلم تصبر لنا غطفان لما	تلاقينا وأحرزت النساء
فلولا الفضل منّا ما رجعتم	إلى عذراء شيمتها الحياء
فدونكم ديونًا فاطلبوها	وأوتارًا ودونكم اللّقاء
فأنا حيث لا يخفى عليكم	ليوثٌ حين يحتضر اللّواء
فقد أضحى لحي بني جناب	فضاء الأرض والماء الرّواء
نفينا نخوة الأعداء عنّا	بأرماحٍ أسنَّتها ظماء
ولولا صبرنا يوم التقينا	لقينا مثل ما لقيت صداء
غداةَ تضرَّعوا لبني بغيضٍ	وصدق الطعن للنوكى شفاء

وأمّا حربه مع بكر وتغلب ابني وائل، فكان سببها أنّ أبرهة حين طلع إلى نجد أتاه زهير فأكرمه وفضّله على من أتاه من العرب، ثم أمَّره على بكر وتغلب ابني وائل، فوَلِيَهُم حتى أصابهم سِنَة فاشتدّ عليهم ما يطلب منهم من الخراج، فأقام بهم زهير في الحرب، ومنعهم من النجعة حتى يؤدّوا ما عليهم، فكادَتْ مواشيهم تهلك.

فلما رأى ذلك ابن زيابة أحد بني تيم الله بن ثعلبة، وكان فاتكًا أتى زهيرًا وهو نائم، فاعتمد التيمي بالسيف على بطن زهير فمرّ فيها حتى خرج من ظهره مارقًا بين الصفاق، وسلمت أمعاؤه وما في بطنه، وظنّ التيمي أنّه قد قتله، وعَلِمَ زهير أنّه قد سَلِمَ فلم يتحرّك لئلّا يجهز عليه فسكت، فانصرف التيمي إلى قومه، فأعلمهم أنه قتل زهيرًا، فسرَّهم ذلك ولم يكن مع زهير إلّا نفر من قومه، فأمرهم أنْ يُظهروا أنّه ميِّت وأنْ يستأذنوا بكرًا وتغلب في دفنه، فإذا أذنوا دفنوا ثياباً ملفوفة وساروا به مُجِدِّين إلى قومهم، ففعلوا ذلك، فأذنت لهم بكر وتغلب في دفنه، فحفروا وعمَّقوا ودفنوا ثيابًا ملفوفة لم يشكّ مَنْ رآها أنَّ فيها ميتًا، ثم ساروا مجدّين إلى قومهم، فجمع لهم زهيرُ الجموع وبلغهم الخبر، فقال ابن زيابة:

طعنة ما طعنت في غبش الليـ ... ـل زهيرًا وقد توافى الخصوم
حين يحمى له المواسم بكر ... أين بكرٍ وأين منها الحلوم؟
خانني السيف إذ طعنت زهيراً ... وهو سيف مضلل مشؤوم

وجمع زهير مَنْ قَدِرَ عليه من أهل اليمن، وغزا بكرًا وتغلب وكانوا علموا به، فقاتلهم قتالًا شديدًا انهزمت به بكر، وقاتلت تغلب بعدها فانهزمت أيضًا، وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة، وأخذت الأموال وكَثُرت القتلى في بني تغلب، وأسر جماعة من فرسانهم ووجوههم، فقال زهير في ذلك من قصيدة:

أين أين الفرار من حذر المو ... ت إذ يتّقون بالأسلابِ؟
إذ أسرنا مهلهلًا وأخاه ... وابن عمرو في القيد وابن شهاب
وسَبَيْنا من تغلبٍ كلّ بيضا ... ء رقود الضحى برودَ الرضاب
حين يدعو مهلهلًا يالبكر ... ها أهذي حفيظة الأحساب
وَيْحَكم وَيْحَكم أُبيح حماكم ... يا بني تغلب أنا ابن رضاب
وهم هاربون في كلّ فجٍّ ... كشريد النّعام فوق الروابي

واستدارت رحى المنايا عليهم بليوثٍ من عامرٍ وجناب
فهم بين هاربٍ ليس يألو وقتيلٍ معفّر في التُّراب
فضلُ العزِّ عزّنا حين نسمو مثل فضلِ السماءِ فوق السَّحاب

وأمّا حربه مع بني القَيْن بن جسر، فكان سببها أنّ أختًا لزهير كانت متزوّجة فيهم، فجاء رسولها إلى زهير ومعه صرّة فيها رمل وصرّة فيها شوك قتاد. فقال زهير: إنّها تخبركم أنه يأتيكم عدوٌّ كثير ذو شوكة شديدة فاحتملوا. فقال الجلاح بن عوف السحميّ: لا نحتمل لقول امرأة، فظعن زهير وأقام الجلاح وصَبَّحه الجيش فقتلوا عامّة قوم الجلاح، وذهبوا بأموالهم وماله، ومضى زهير، فاجتمع مع عشيرته من بني جناب، وبلغ الجيش خبره فقصدوه فقاتلهم وصَبَرَ لهم، فهزمهم، وقتل رئيسهم فانصرفوا عنه خائبين، ولما طال عمر زهير وكبر سنّه استخلف ابن أخيه عبد الله بن عُلَيْم، فقال زهير يوماً: ألَا إنّ الحيّ ظاعن، فقال عبد الله: ألَا إنّ الحيَّ مقيم، فقال زهير: من هذا المخالف عليّ؟

فقالوا: ابن أخيك عبد الله بن عليم. فقال: أعدى الناس للمرء ابن أخيه، ثم شرب الخمر صِرْفًا[1] حتى مات. وممن شرب الخمر صرفًا حتى مات عمرو بن كلثوم التغلبيّ، وأبو عامر ملاعب الأسنّة العامريّ.

٤ ـ يوم البردان

كان من حديثه أن زياد بن الهبولة ملك الشام، وكان من سَلِيح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة أغار على حُجْر بن عمرو بن معاوية بن الحارث الكندي ملك عرب بنجد ونواحي العراق ـ وهو يلقّب آكل المرار[2] ـ وكان حُجْر قد أغار في كندة وربيعة على البحرين، فبلغ زيادًا خبرَهم فسار إلى أهل حجر وربيعة وأموالهم وهم خلوف ورجالهم في غزاتهم المذكورة، فأخذ الحريم والأموال وسبى منهم هند بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية، وسمع حجر وكندة وربيعة بغارة زياد فعادوا عن غزوهم في طلب ابن الهبولة، ومع حجر أشراف ربيعة عوف بن ملحم بن ذهل بن شيبان، وعمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان وغيرهما، فأدركوا عمرًا بالبردان دون عين أباغ وقد أمن الطلب، فنزل حجر في سفح جبل ونزلت بكر وتغلب

(١) هي الخمر الخالص التي لم تُشَبْ بماء. (٢) المُرَار: شجر واحده مُرَارة.

وكندة مع حجر دون الجبل بالصَّحْصَحَان[١] على ماءٍ يقال له: «حفير»، فتعجّل عوف بن ملحم وعمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، وقالا لحجر: «إنا متعجّلان إلى زياد لعلنا نأخذ منه بعض ما أصاب منّا»، فسار إليه، وكان بينه وبين عوف إخاء فدخل عليه، وقال له: يا خير الفتيان أُردد عليّ أمرأتي أمامة فردّها عليه، وهي حامل، فولدت له بنتًا أراد عوف أنْ يئدها فاستوهبها منه عمرو بن أبي ربيعة، وقال: لعلّها تلد أُناسًا فسمّيت أم أُناس، فتزوّجها الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار، فولدت عَمْرًا ويعرف بابن أم أُناس.

ثم إنّ عَمْرو بن أبي ربيعة قال لزياد: يا خيرَ الفتيان أُردد عليّ ما أخذتَ من إبلي فرَدَّها عليه وفيها فحلها فنازعه الفحل إلى الإبل فَصَرعه عمرو.

فقال له زياد: يا عمرو لو صرعتم يا بني شيبان الرجال كما تصرعون الإبل لكنتم أنتم أنتم. فقال له عمرو: لقد أعطيتَ قليلًا وسمّيت جليلًا وجررت على نفسك وَيْلًا طويلًا ولتجدنّ منه ولا والله لا تبرح حتى أروي سناني من دمك.

ثم ركض فرسه حتى صار إلى حجر، فلم يوضح له الخبر، فأرسل سدوس بن شيبان بن ذهل وصليع بن عبد غنم يتجسّسان له الخبر ويعلمان علم العسكر، فخرجا حتى هجما على عسكره ليلًا وقد قسم الغنيمة، وجيء بالشمع فأطعم الناس تمرًا وسمنًا، فلما أكل الناس نادى من جاء بحزمة حطب فله قدرة تمر، فجاء سدوس وصليع بحطب، وأخذا قدرتين من تمر، وجلسا قريبًا من قبّته ثم انصرف صليع إلى حجر، فأخبره بعسكر زياد وأراه التمر، وأمّا سدوس فقال: لا أبرح حتى آتيه بأمرٍ جليٍّ؛ وجلس مع القوم يتسمّع ما يقولون وهند امرأة حجر خلف زياد، فقالت لزياد: إن هذا التمر أهدى إلى حجر من هجر والسمن من دومة الجندل، ثم تفرّق أصحاب زياد عنه فضرب سدوس يده إلى جليسٍ له، وقال له: من أنت؟ مخافة أنْ يستنكره الرجل، فقال: أنا فلان بن فلان ودنا سدوس من قبّة زياد بحيث يسمع كلامه؛ ودنا زياد من امرأة حجر فقبّلها وداعبها، وقال لها: ما ظنّك الآن بحجر؟ فقالت: ما هو ظن ولكنه يقين، إنه والله لن يدع طلبك حتى تعاين القصور الحمر، يعني قصور الشام، وكأني به في فوارس من بني شيبان يذمرهم ويذمّرونه، وهو شديد الكلب تزبد شفتاه كأنه بعير أكل مرارًا، فالنجاء فالنجاء، فإن وراءك طالباً حثيثًا، وجمعًا كثيفًا، وكيدًا متينًا، ورأيًا صليبًا.

---

(١) موضع بين حلب وتَدْمُر.

فرفع يده فلطمها، ثم قال لها: ما قلت هذا إلّا من عجبك به وحبك له.

فقالت: والله ما أبغضت أحدًا بغضي له؛ ولا رأيت رجلًا أحزم منه نائمًا ومستيقظًا، إنْ كان لتنام عيناه فبعض أعضائه مستيقظ. وكان إذا أراد النوم أمرني أن أجعل عنده عسًّا من لبن، فبينا هو ذات ليلة نائم وأنا قريب منه أنظر إليه إذ أقبل أسود[١] سالخ إلى رأسه فنحى رأسه، فمال إلى يده فقبضها، فمال إلى رجله فقبضها، فمال إلى العسّ فشربه ثم مجّه، فقلت: يستيقظ فيشربه فيموت فأستريح منه فانتبه من نومه فقال: عليَّ بالإناء فناولته فشمّه ثم ألقاه فهريق، فقال: أين ذهب الأسود، فقلت: ما رأيتُهُ، فقال: كذبتِ والله، وذلك كلّه يسمعه سدوس، فسار حتى أتى حجرًا فلما دخل عليه، قال:

أتـاك الـمـرجـفـون بـأمـر غـيـب ... عـلـى دهـش وجـئـتـك بـالـيـقـيـن
فـمـن يـكُ قـد أتـاك بـأمـرِ لـبـس ... فـقـد آتـي بـأمـر مـسـتـبـيـن

ثم قصَّ عليه ما سمع، فجعل حجر يعبث بالمُرَار ويأكل منه غضبًا وأسفًا ولا يشعر أنه يأكله من شدّة الغضب، فلما فرغ سدوس من حديثه وجد حجر المُرار فسمِّيَ يومئذ آكل المرار، والمرار نبت شديد المرارة لا تأكله دابّة إلّا قتلها.

ثم أمر حجر فنُودي في الناس وركب، وسار إلى زياد فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فانهزم زياد وأهل الشام، وقتلوا قتلًا ذريعًا، واستنقذت بكر وكندة ما كان بأيديهم من الغنائم والسبي، وعرف سدوس زيادًا فحمل عليه فأعتنقه وصَرَعه وأخذه أسيرًا، فلما رآه عمرو بن أبي ربيعة حسده، فطعن زيادًا فقتله فغضب سدوس، وقال: قتلت أسيري ودِيَتُهُ دِيَةُ مَلِك!

فتحاكما إلى حجر، فحكم على عمرو وقومه لسدوس بدية ملك، وأعانهم مِنْ ماله. وأخذ حجر زوجته هندًا فربطها في فرسين ثم ركضهما حتى قطعاها، ويقال: بل أحرقها، وقال فيها:

إنّ مَـنْ غَـرَّهُ الـنـسـاءُ بـشـيءٍ ... بـعـد هـنـدٍ لـجـاهـل مـغـرور
حُـلـوة الـعـيـنِ والـحـديـث ومـرّ ... كـل شـيءٍ أجـن مـنـهـا الـضـمـيـر
كـل أنـثـى وإن بـدى لـك مـنـهـا ... آيـة الـحـب حـبـهـا خـيـتـعـور

ثم عاد إلى الحيرة.

(١) يريد: ثعبانًا.

٥ ـ قتل حجر أبي امرئ القيس
والحروب الحادثة بمقتله إلى أن مات امرؤ القيس

نذكر أولًا سبب ملكهم العرب بنجد، ونسوق الحادثة إلى قتله وما يتّصل به، فنقول:

كان سفهاء بكر قد غلبوا على عقلائها وغلبوهم على الأمر[١]، وأكل القوي الضعيف؛ فنظر العقلاء في أمرهم فرأوا أنْ يملكوا عليهم ملكًا يأخذ للضعيف من القوي؛ فنهاهم العرب، وعلموا أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم؛ لأنه يطيعه قوم ويخالفه آخرون، فساروا إلى بعض تبابعة اليمن، وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين، وطلبوا منه أن يملك عليهم ملكًا، فملّك عليهم حجر بن عمرو آكل المرار، فقدم عليهم ونزل ببطن عاقل، وأغار ببكر فانتزع عامة ما كان بأيدي اللخميّين من أرض بكر، وبقي كذلك إلى أن مات فدفن ببطن عاقل، فلما مات صار عمرو بن حجر آكل المرار وهو المقصور ملكًا بعد أبيه، وإنّما قيل له: المقصور لأنه قصر على ملك أبيه، وكان أخوه معاوية وهو الجون على اليمامة، فلما مات عمرو ملك بعده ابنه الحارث، وكان شديد الملك بعيد الصوت، فلما ملك قباذ بن فيروز الفرس خرج في أيّامه مزدك فدعا الناس إلى الزندقة كما ذكرناه، فأجابه قباذ إلى ذلك، وكان المنذر بن ماء السماء عاملًا للأكاسرة على الحيرة ونواحيها، فدعاه قباذ إلى الدخول معه فامتنع، فدعا الحارث بن عمرو إلى ذلك فأجابه فاستعمله على الحيرة، وطرد المنذر عن مملكته، وقيل: في تمليكه غير ذلك، وقد ذكرناه أيّام قباذ.

فبقوا كذلك إلى أن ملك كسرى أنو شروان بن قباذ بعد أبيه، فقتل مزدك وأصحابه، وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى ولاية الحيرة، وطلب الحارث بن عمرو ـ وكان بالأنبار وبها منزله ـ فهرب بأولاده وماله وهجانه، وتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء، فلحق بأرض كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجانه، وأخذت تغلب ثمانية وأربعين نفسًا من بني آكل المرار، فيهم عمرو ومالك ابنا الحارث، فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا، وفيهم يقول عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وابنا بالملوك مصفدينا

(١) لا يخفى ما في هذه العبارة من القلق.

وفيهم يقول امرؤ القيس:

ملوك من بني حجر بن عمرو ... يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركةٍ أصيبوا ... ولكن في ديار بني مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل ... ولكن في الدماء مرمَّلينا
تظلّ الطير عاكفةً عليهم ... وتنتزع الحواجب والعيونا

وأقام الحارث بديار كلب فتزعُم كلب أنهم قتلوه، وعلماء كندة تزعم أنه خرج يتصيّد فتبع تيسًا[1] من الظباء فأعجزه فأقسم أن لا يأكل شيئًا إلّا من كبده، فطلبته الخيل فأُتي به بعد ثلاثة وقد كاد يهلك جوعًا فشوي له بطنه فأكل فلذة من كبده حارّة فمات.

ولمّا كان الحارث بالحيرة أتاه أشراف عدّة قبائل من نزار، فقالوا: إنَّا في طاعتك وقد وقع بيننا من الشرّ بالقتل ما تعلم ونخاف الفناء فوجِّه معنا بنيك ينزلون فينا فيكفّون بعضنا عن بعض، ففرّق أولاده في قبائل العرب فملك ابنه حجرًا على بني أسد بن خزيمة وغطفان، وملك ابنه شرحبيل وهو الذي قتل يوم الكلاب على بكر بن وائل بأسرها وعلى غيرها، وملك ابنه مَعديكرب ـ وهو غلفاء، وإنما قيل له غلفاء لأنه كان يغلّف رأسه بالطيب ـ على قيس غيلان وطوائف غيرهم، وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن قاسط وبني سعد بن زيد مناة من تميم، فبقِيَ حجر في بني أسد وله عليهم جائزة وأتاوة كلّ سنة لما يحتاج إليه فبقي كذلك دهرًا، ثم بعث إليهم مَنْ يجبي ذلك منهم وكانوا بتُهامة وطردوا رسله وضربوهم، فبلغ ذلك حجرًا فسار إليهم بجندٍ من ربيعة وجند من جند أخيه من قيس وكنانة فأتاهم فأخذ سرواتهم وخيارهم، وجعل يقتلهم بالعصا، وأباح الأموال، وسَيَّرَهم إلى تهامة، وحبس منهم جماعة من أشرافهم منهم عَبِيد بن الأبْرَص الشاعر[2]، فقال شعرًا يستعطفه لهم فرقَّ لهم وأرسل مَنْ يردّهم.

---

(١) التَّيس: الذَّكَر من المعز والظِّباء والوعول إذا أتى عليه حَوْل، جمعه تُيُوس، وتِيَسَة.

(٢) عَبِيد بن الأبرص (٢٥ ق.هـ ـ ٦٠٠ م). هو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم السعدي، الأسدي، أبو زياد: شاعر من دُهاة الجاهلية وحكمائها، عاصر امرأ القيس، وله معه مناظرات ومناقضات، وعمّر طويلاً حتى قتله النعمان بن المنذر وقد وفد عليه في يوم بؤسه، له ديوان. انظر: الزركلي: الأعلام (٣٣٩/٤ ـ ٣٤٠)، حاجي خليفة: كشف الظنون (١٠٤٨)، كرم البستاني: مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص.

فلما صاروا على يوم منه تكهّن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي، فقال لهم: من الملك الصلهب، الغلاب غير المغلب، في الإبل كأنها الربرب، هذا دمه يتثعب، وهو غدا أول من يستلب.

قالوا: ومن هو؟ قال: لولا يجيش نفس خاشية لأخبرتكم أنه حجر ضاحية، فركبوا كل صعب وذلول حتى بلغوا إلى عسكر حجر فهجموا عليه في قبّته فقتلوه، وطعنه علباء بن الحارث الكاهلي فقتله، وكان حجر قتل أباه فلما قتل قالت بنو أسد: يا معشر كنانة وقيس أنتم إخواننا وبنو عمّنا والرجل بعيد النسب منّا ومنكم وقد رأيتم سيرته وما كان يصنع بكم هو وقومه، فانتهبوهم فشدّوا على هجانه فانتهبوها، ولفوه في ربطة بيضاء وألقوه على الطريق، فلما رأته قيس وكنانة انتهبوا أسلابه، وأجار عمرو بن مسعود عياله.

وقيل: إن حجرًا لما رأى اجتماع بني أسد عليه خافهم، فاستجار عويمر بن شجنة أحد بني عطارد بن كعب بن زيد مناة بن تميم لبنته هند بنت حجر وعياله، وقال لبني أسد: إنْ كان هذا شأنكم فإني مرتحل عنكم ومخليكم وشأنكم. فودّعوه على ذلك وسار عنهم وأقام في قومه مدّة؛ ثم جمع لهم جمعًا عظيمًا وأقبل إليهم مدلًا بمن معه، فتآمرت بنو أسد وقالوا: والله لئن قهركم لَيُحْكمَنَّ عليكم حكم الصبي، فما خير العيش حينئذٍ فموتوا كرامًا.

فاجتمعوا وساروا إلى حجر فلقوه فاقتتلوا قتالًا شديدًا، وكان صاحب أمرهم علباء بن الحارث، فحمل على حجر فطعنه فقتله، وانهزمت كندة ومن معهم، وأسر بنو أسد من أهل بيت حجر وغنموا حتى ملأوا أيديهم من الغنائم، وأخذوا جواريه ونساءه وما معهم، فاقتسموه بينهم.

وقيل: إن حجرًا أُخذ أسيرًا في المعركة وجعل في قبّة فوثب عليه ابن أخت علباء فضربه بحديدة كانت معه؛ لأن حجرًا كان قتل أباه، فلما جرحه لم يقضِ عليه، فأوصى حجر ودفع كتابه إلى رجل، وقال له: انطلق إلى ابني نافع، وكان أكبر أولاده، فإن بكى وجزع فأتركه واستَقْرِهِما[1] واحدًا واحدًا حتى تأتي أمرأ القيس وكان أصغرهم، فأيّهم لم يجزع فأدفع إليه خيلي وسلاحي ووصيّتي ـ وقد كان بَيَّن في وصيّته مَن قتله وكيف كان خبره ـ.

(١) أي: استعرضهم.

فأنطلق الرجل بوصيّته إلى ابنه نافع، فوضع التراب على رأسه، ثم أتاهم كلّهم ففعلوا مثله، حتى أتى امرأ القيس، فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلعب معه بالنّرد، فقال: «قُتِل حجر»، فلم يلتفت إلى قوله وأمسك نديمه. فقال له امرؤ القيس: اضربْ، فضرب، حتى إذا فرغ قال: ما كنتُ لأفسد دستك.

ثم سأل الرسول عَنْ أمر أبيه كله فأخبره، فقال له: الخمر والنساء عَلَيَّ حرام حتى أقتل مِنْ بني أسد مائة وأطلق مائة.

وكان حجر قد طرد امرأ القيس لقوله الشعر وكان يأنف منه، وكانت أمّ امرئ القيس فاطمة بنت ربيعة بن الحارث أخت كليب بن وائل، وكان يسير في أحياء العرب يشرب الخمر على الغدران ويتصيّد فأتاه خبر قَتْل أبيه وهو بدمّون[1] من أرض اليمن، فلما سمع الخبر قال:

تطاول الليل علينا دمون دمون إنا معشر يمانون وإننا لقومنا محبّون

ثم قال: «ضيّعني صغيرًا وحمّلني دمه كبيرًا. لأصحو اليوم ولأسكر غدًا. اليوم خمر وغدًا أمر»، فذهبت مثلًا.

ثم ارتحل حتى نزل ببكر وتغلب فسألهم النصر على بني أسد فأجابوه، فبعث العيون إلى بني أسد فنذروا به فلجأوا إلى بني كنانة وعيون امرئ القيس معهم، فقال لهم علباء بن الحارث: اعلموا أنّ عيون امرئ القيس قد عادوا إليه بخبركم، وإنكم عند بني كنانة فارحلوا بليلٍ، ولا تُعلموا بني كنانة.

فارتحلوا وأقبل أمرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب وغيرهم حتى انتهى إلى بني كنانة، وهو يظنّهم بني أسد فوضع السلاح فيهم وقال: يا لثارات المَلِك، يا لثارات الهمام. فقيل له: أبيت اللعن لسنا لك بثأر، نحن بنو كنانة، فدونك ثارك فاّطلبهم، فإنّ القوم قد ساروا بالأمس. فتبع بني أسد ففاتوه ليلتهم، فقال في ذلك:

ألا يا لهف هند إثر قوم همُوا كانوا الشفاء فلم يُصَابوا
وقاهم جدّهم ببني أبيهم وبالأشقين ما كان العقاب
وأفلتهنّ علباء جريضًا ولو أدركته صفر الوطاب

---

(١) يوجد بهذا الاسم بلدان أحدهما قرب تريم بحضرموت، وليست مُراده هنا، والأخرى في بلاد كندة وهي التي يقصدها امرؤ القيس، وقال صاحب القاموس: وكتنور موضع.

يعني ببني أبيهم: كنانة، فإنّ أسدًا وكنانة ابني خزيمة هما أخوان. وقوله: ولو أدركته صفر الوطاب، قيل: كانوا قتلوه واستاقوا إبله فصفرت وطابه من اللبن، أي: خلت. وقيل: كانوا قتلوه فخلا جلده وهو وطابه من دمه بقتله.

فسار امرؤ القيس في آثار بني أسد، فأدركهم ظُهْرًا وقد تقطّعت خيله وهلكوا عطشًا، وبنو أسد نازلون على الماء فقاتلهم حتى كثرت القتلى بينهم وهربت بنو أسد، فلما أصبحت بكر وتغلب أبَوْا أن يتبعوهم وقالوا: قد أصبتَ ثأرك.

فقال: لا والله، فقالوا: بلى ولكنك رجلٌ مشؤوم، وكرهوا قتلهم بني كنانة، فانصرفوا عنه.

ومضى إلى أزد شنوءة يستنصرهم فأبوا أنْ ينصروه؛ وقالوا: إخواننا وجيراننا، فسار عنهم ونزل بقيل يدعى مرثد الخير بن ذي جدن الحميري، وكان بينهما قرابة فاستنصره على بني أسد، فأمدَّه بخمسمائة رجل من حمير، ومات مرثد قبل رحيل امرئ القيس، وملك بعده رجل من حِمْيَر يقال له: قرمل، فزوّد امرأ القيس، ثم سيَّر معه ذلك الجيش وتبعه شُذَّاذٌ من العرب واستأجر غيرهم من قبائل اليمن، فسار بهم إلى بني أسد وظفر بهم.

ثم إنّ المنذر طلب امرأ القيس ولجَّ في طلبه ووجَّه الجيوش إليه، فلم يكن لامرئ القيس بهم طاقة وتفرّق عنه من كان معه من حِمْير وغيرهم، فنجا في جماعة من أهله ونزل بالحارث بن شهاب اليربوعي، وهو أبو عتيبة بن الحارث، فأرسل إليه المنذر يتوعّده بالقتال إن لم يسلِّمهم إليه فسلَّمهم، ونجا امرؤ القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث وابنته هند ابنة امرئ القيس وأدراعه وسلاحه وماله؛ فخرج ونزل على سعد بن الضباب الأيادي سيّد قومه، فأجاره، ومدحه امرؤ القيس، ثم تحوّل عنه ونزل على المعلى بن تيم الطائي فأقام عنده واتّخذ إبلًا هناك، فعدا قوم من جديلة يقال لهم: بنو زيد عليها فأخذوها فأعطاه بنو نبهان معزى يحلبها، فقال:

إذا لم تكن إبل فمعزى ... كأن قرون جِلّتها العصيّ[1]

---

(١) تمامه:

إذا ما قام حالبها أرنت ... كأنّ القوم صبحهم نعي

فتملأ بيتنا قطًا وسمنًا ... وحسبك من غنى شبع وري

الأبيات. ثم رحل عنهم ونزل بعامر بن جوين، فأراد أن يغلب امرأ القيس على ماله وأهله، فعلم امرؤ القيس بذلك، فانتقل إلى رجل من بني ثُعل يقال له حارثة بن مر، فاستجاره فأجاره، فوقعت بين عامر بن جوين والثعلي حرب، وكانت أمور كبيرة، فلما رأى امرؤ القيس أنّ الحرب قد وقعت بين طيئ بسببه خرج مِنْ عندهم، فقصد السموأل بن عادياء اليهودي[1]، فأكرمه وأنزله، فأقام عنده امرؤ القيس ما شاء الله؛ ثم طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني ليوصله إلى قيصر ففعل ذلك، وسار إلى الحارث وأودع أهله وأدراعه عند السموأل، فلما وصل إلى قيصر أكرمه، فبلغ ذلك بني أسد فأرسلوا رجلًا منهم يقال له الطماح، كان امرؤ القيس قتل أخًا له، فوصل الأسدي وقد سيَّر قيصر مع امرئ القيس جيشًا كثيفًا فيهم جماعة من أبناء الملوك، فلما سار امرؤ القيس قال الطماح لقيصر: إنّ امرأ القيس غَوِيّ عاهر، وقد ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها، وقال فيها أشعارًا أشهرها بها في العرب.

فبعث إليه قيصر بحُلَّة وشي منسوجة بالذهب مسمومة، وكتب إليه: إني أرسلتُ بحلّتي التي كنت ألبسها تكرمةً لك فالبسها وكتب إليّ بخبرك مِنْ منزلٍ منزل. فلبسها امرؤ القيس وسرَّ بذلك فأسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سمّي «ذا القروح»، فقال امرؤ القيس في ذلك:

لقد طمح الطماح من نحو أرضه ليلبسني مما يلبس أبؤسا[2]
فلو أنها نفس تموت سويَّة ولكنها نفس تساقط أنفسا

فلمّا وصل إلى موضع من بلاد الروم يقال له «أنقرة» احتُضِر بها، فقال: رب خطبة مسحنفره وطعنة مثعنجره وجفنة مستحيره حلّت بأرض أنقره.

ورأى قبر امرأة من بنات ملوك الروم وقد دفنت بجنب عسيب وهو جبل، فقال:

أجارتنا إنّ الخطوب تنوب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان هٰهنا وكل غريبٍ للغريب نسيب

---

(١) يُذكر أن امرأ القيس قصد قبل ذلك عمرو بن درماء فأجاره، وإلى هذا يشير صاحب اللُزوميات بقوله:

ويصبح الصقر في الدّرماء معتقدًا رأي امرئ القيس في عمر بن درماء

(٢) ويروى: ليلبسني من ردائه ما تلبسا.

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة فقبره هناك.

ولمّا مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبي شمر الغساني إلى السموأل بن عادياء، وطالبه بأدراع امرئ القيس، وكانت مائة درع وبما له عنده، فلم يعطه فأخذ الحارث ابنًا للسموأل، فقال: إما أن تسلم الأدراع وإما قتلتُ ابنك، فأبى السموأل أنْ يسلم إليه شيئًا فقتل ابنه، فقال السموأل في ذلك:

وفيت بأدرع الكنديّ إني ... إذا ما ذمّ أقوام وفيت
وأوصى عاديًا يومًا بأن لا ... تهدم يا سموأل ما بنيت
بنى لي عاديًا حصنًا حصينًا ... وماء كلما شئت استقيت[1]

وقد ذكر الأعشى هذه الحادثة، فقال:

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرار
إذ سامه خطّتي خسف فقال له ... قل ما تشاء فإني سامع حار
فقال: غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر فما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له: ... اقتل أسيرك إني مانعٌ جاري

٦ ـ يوم خزاز

كان من حديثه: أن ملكًا من ملوك اليمن كان في يديه أسارى من مضر وربيعة وقضاعة، فوفد عليه وفد من وجوه بني معد منهم: سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة، وعوف بن ملحم بن ذهل بن شيبان، وعوف بن عمرو بن جشم بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان، وجشم بن ذهل بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان، فلقيهم رجل من بهراء يقال له: عبيد بن قراد ـ وكان في الأسارى وكان شاعرًا ـ فسألهم أن يدخلوه في عدَّة مَنْ يَسألون فيه، فكلّموا الملك فيه وفي الأسارى فوهبهم لهم، فقال عبيد بن قراد البهراوي:

نفسي الفداء لعوف الفعال ... وعوف ولابن هلال جشم
تداركني بعد ما قد هويـ ... ـت مستمسكًا بعراقي[2] الوذم

(١) ويوجد بتيماء بئران عظيمتان يقال لإحداهما: هداج، وللأخرى: وداج، إحداهما بظاهر تيماء والأخرىٰ داخلها، ويقول عبد الحميد سعيد أنه رأى تسعًا وتسعين ساقية على الداخلة.

(٢) جمع عرقوة، وإنما هما عرقوتان في الدلو.

ولـولا سـدوس وقـد شـمـرت بي الحرب زلت بنعلي القدم
ونـاديـت بـهـراء كـي يـسـمـعـوا ولـيـس بـآذانـهـم مـن صـمـم
ومـن قـلـبـهـا عـصـمـت قـاسـط مـعـدًا إذا مـا عـزيـز أزم

فاحتبس الملك عنده بعض الوفد رهينة، وقال للباقين: ائتوني برؤساء قومكم لآخذ عليهم المواثيق بالطاعة لي، وإلّا قتلت أصحابكم.

فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم الخبر، فبعث كليب وائل إلى ربيعة فجمعهم، واجتمعت معد عليه، وهو أحد النفر الذين اجتمعت عليهم معد على ما نذكره في مقتل كليب، لما اجتمعوا عليه سار بهم، وجعل على مقدمته السفاح التغلبي، وهو سلمة بن خالد بن كعب بن زهير بن تيم بن أسامة بن مالك بن بكر بن حُبيب بن تغلب وأمرهم أن يوقدوا على خزاز نارًا ليهتدوا بها ـ وخزاز: جبل بطخفة ما بين البصرة إلى مكة، وهو قريب من سالع، وهو جبل أيضًا ـ وقال له: إنْ غشيك العدوُّ فأوقد نارَيْن، فبلغ مذحجًا اجتماع ربيعة ومسيرها فأقبلوا بجموعهم واستنفروا مَنْ يليهم من قبائل اليمن وساروا إليهم، فلما سمع أهل تهامة بمسير مذحج انضمّوا إلى ربيعة.

ووصلت مذحج إلى خزاز ليلًا، فرفع السفاح نارين، فلما رأى كليب النارين أقبل إليهم بالجموع فصبَّحهم، فالتقوا بخزاز فاقتتلوا قتالًا شديدًا أكثروا فيه القتل، فانهزمت مذحج وانفضّت جموعها، فقال السفاح في ذلك:

ولـيـلة بـتّ أوقـد فـي خـزاز هـديـت كـتـائـبًـا مـتـحـيّـرات
ضـللن مـن الـسّـهـاد وكـنّ لـولا سـهـاد الـقـوم أحـسـب هـاديـات

وقال الفرزدق يخاطب جريرًا ويهجوه:

لـولا فـوارس تـغـلـب ابـنـة وائـل دخـل الـعـدوُّ عـلـيـك كـلّ مـكـان
ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا نـاريـن أشـرفـتـا عـلـى الـنـيـران

وقيل: إنه لم يعلم أحد من كان الرئيس يوم خزاز؛ لأن عمرو بن كلثوم وهو ابن ابنة كليب يقول:

ونـحـن غـداة أوقـد فـي خـزاز رفـدنـا فـوق رفـد الـرافـديـنـا

فلو كان جدّه الرئيس لذكره ولم يفتخر بأنه رفد، ثم جعل من شهد خزازًا متساندين، فقال:

فكنّا الأيمنين إذا التقينا ... وكأن الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولةً فيمن يليهم ... وصلنا صولةً فيمن يلينا

فقالوا له: استأثرت على إخوتك، يعني مضر، ولما ذكر جدّه في القصيدة قال:

ومنّا قبله الساعي كليب ... فأيّ المجد إلّا قد ولينا؟

فلم يدع به الرياسة يوم خزاز، وهي أشرف ما كان يفتخر له به.

٧ ـ حرب البسوس

كان من حديث الحرب التي وقعت بين بكر وتغلب ابني وائل بن هنب بن أفصى بن دعميّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان بسبب قتل كليب، واسمه وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حُبَيْب بن عمرو بن غنم بن تغلب، وإنما لُقّب كليبًا لأنه كان إذا سار أخذ معه جَرْو[1] كلب، فإذا مَرّ بروضة أو موضع يعجبه ضربه ثم ألقاه في ذلك المكان وهو يصيح ويعوي، فلا يسمع عواءه أحد إلّا تجنّبه ولم يقربه وكان يقال له كليب وائل، ثم اختصروا فقالوا: كليب، فغلب عليه.

وكان لواء ربيعة بن نزار للأكبر فالأكبر من ولده، فكان اللواء في عنزة بن أسد بن ربيعة، وكانت سنتهم أنهم يوفرون لحاهم ويَقصّون شواربهم، فلا يفعل ذلك من ربيعة إلّا من يخالفهم ويريد حربهم.

ثم تحوّل اللواء في عبد القيس بن أفصى بن دعميّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، وكانت سنّتهم إذا شُتِموا لطموا من شتمهم، وإذا لُطِموا قتلوا مَنْ لطمهم. ثم تحوّل اللواء في النمر بن قاسط بن هنب، وكان لهم غير سنة من تقدّمهم، ثم تحول اللواء إلى بكر بن وائل فساؤوا غيرهم في فرخ طائر كانوا يوثقون الفرخ بقارعة الطريقة، فإذا علم بمكانه لم يسلك أحد ذلك الطريق ويسلك مَنْ يريد الذهاب والمجيء عن يمينه ويساره. ثم تحوّل اللواء إلى تغلب فوليه وائل بن ربيعة،

---

(١) الجَرْو: الصغير من ولد الكلب والأسد والسّباع. (جمعه): جِرَاء، أَجْرٍ.

وكانت ستّته ما ذكرناه من جرو الكلب، ولم تجتمع معدٌ إلّا على ثلاثة نفر، وهم: عامر بن الظرب بن عمرو بن بكر بن يشكر بن الحارث وهو عدوان بن عمرو بن قيس عيلان، وهو الناس بن مضر - بالنون - وهو أخو الياس بن مضر، وكان قائد معد حين تمذحجت مذحج وسارت إلى تهامة، وهي أول وقعة كانت بين تهامة واليمن.

والثاني: ربيعة بن الحارث بن مرة بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن كلب، وكان قائد معد يوم السلان بين أهل اليمامة واليمن.

والثالث: وائل بن ربيعة، وكان قائد معد يوم خزاز، ففضّ جموع اليمن وهزمهم، وجعلت له معد قسم الملك وتاجه وطاعته وبقي زمانًا من الدهر، ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه حتى بلغ مِنْ بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يُرْعَى حماه، وكان يقول: وحش أرض كذا في جِوَاري فلا يُصاد، ولا يورد أحدٌ مع إبله، ولا يوقد نارًا مع ناره، ولا يمرّ أحدٌ بين بيوته، ولا يُحْتَبى في مجلسه.

وكانت بنو جشم وبنو شيبان أخلاطًا في دار واحدة إرادة الجماعة ومخافة الفرقة، وتزوّج كليب جليلة بنت مرة بن شيبان بن ثعلبة وهي أخت جسّاس بن مرة، وحمى كليب أرضًا من العالية في أوّل الربيع، وكان لا يقربها إلّا محارب، ثم إنّ رجلًا يقال له: سعد بن شميس بن طوق الجرمي نزل بالبسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرّة، وكان للجرمي ناقة اسمها سراب ترعى مع نوق جساس، وهي التي ضربت العرب بها المثل، فقالت: أشأم من سراب، وأشأم من البسوس، فخرج كليب يومًا يتعهد الإبل ومراعيها فأتاها وتردّد فيها؛ وكانت إبله وإبل جساس مختلطة، فنظر كليب إلى سراب فأنكرها، فقال له جساس وهو معه: هذه ناقة جارنا الجرمي، فقال: لا تعد هذه الناقة إلى هذا الحمى. فقال جساس: لا ترعى إبلي مرعى إلّا وهذه معها.

فقال كليب: لئن عادتْ لأضعن سهمي في ضرعها. فقال جساس: لئن وضعتَ سهمك في ضرعها لأضعنّ سنان رمحي في لَبَّتِك[1].

ثم تفرّقا، وقال كليب لامرأته: أترين أنّ في العرب رجلًا مانعًا مني جاره. قالت: لا أعلمه إلّا جساسًا، فحدثها الحديث، وكان بعد ذلك إذا أراد الخروج إلى

---

(١) اللَّبة: موضع القلادة من العنق - في أسفل العنق من كل شيء.

الحمى منعته وناشدته الله أنْ لا يقطع رحمه، وكانت تنهى أخاها جساسًا أن يسرح إبله.

ثم إنّ كليبًا خرج إلى الحمى وجعل يتصفّح الإبل، فرأى ناقة الجرمي فرمى ضرعها فأنفذه فولّت ولها عجيج حتى بركت بفناء صاحبها، فلما رأى ما بها صرخ بالذلّ، وسمعت البسوس صراخ جارها فخرجت إليه، فلما رأت ما بناقته وضعت يدها على رأسها، ثم صاحت: واذلّاه، وجساس يراها ويسمع، فخرج إليها، فقال لها: اسكتي ولا تُرَاعِي، وسكن الجرمي. وقال لهما: إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة، سأقتل غلالاً ـ وكان غلال فحل إبل كليب لم يُرَ في زمانه مثله، وإنما أراد جسّاس بمقالته كليبًا ـ وكان لكليب عين يسمع ما يقولون، فأعاد الكلام على كليب، فقال: لقد اقتصر من يمينه على غلال، ولم يزل جساس يطلب غرّة كليب، فخرج كليب يومًا آمنًا، فلما بَعُد عن البيوت ركب جسّاس فرسه وأخذ رمحه وأدرك كليبًا فوقف كليب، فقال له جسّاس: يا كليب الرمح وراءك.

فقال: إنْ كنت صادقًا فأقبل إليّ من أمامي، ولم يلتفت إليه فطعنه فأرداه عن فرسه، فقال: يا جسّاس أغثني بشربة من ماء. فلم يأتِهِ بشيء، وقضى كليبٌ نحبه.

فأمر جسّاس رجلاً كان معه اسمه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان، فجعل عليه أحجارًا لئلا تأكله السباع، وفي ذلك يقول مهلهل بن ربيعة أخو كليب:

قتيل ما قتيل المرء عمرو ... وجسّاس بن مرة ذي صريم
أصاب فؤاده بأصم لدن ... فلم يعطف هناك على حميم
فإن غدًا وبعد غدٍ لرهن ... لأمرٍ ما يقام له عظيم
جسيمًا ما بكيت به كليبًا ... إذا ذكر الفعال من الجسيم
سأشرب كأسها صرفًا وأسقى ... بكأس غير منطقة مليم

ولما قتل جسّاس كليبًا انصرف على فرسه يركضه، وقد بدت ركبتاه فلما نظر أبوه مرّة إلى ذلك، قال: لقد أتاكم جسّاس بداهية، ما رأيته قطّ بادي الركبتين إلى اليوم.

فلما وقف على أبيه قال: ما لك يا جساس، قال: طعنت طعنةً يجتمع بنو وائل غدًا لها رقصًا. قال: ومَنْ طعنت؟ لأمك الثكل، قال: قتلت كليبًا. قال: أفعلت؟

قال: نعم، قال: بئس والله ما جئت به قومك، فقال جساس:

تأهّب عنك أهبة ذي امتناع فإن الأمر جلّ عن التلاحي
فإني قد جنيت عليك حربًا تغصّ الشيخ بالماء القراح

فلما سمع أبوه قوله خاف خذلان قومه لما كان من لائمته إيّاه، فقال يجيبه:

فإن تك قد جنيت عَلَيّ حربًا تغصّ الشيخ بالماء القراح
جمعت بها يديك على كليب فلا وكل ولا رث السلاح
سألبس ثوبها وأذود عني بها عار المذلّة والفضاح

ثم إن مُرّة دعا قومه إلى نصرته فأجابوه وجَلُوا الأسنّة، وشحذوا السيوف، وَقَوّموا الرماح، وتهيّأوا للرحلة إلى جماعة قومهم.

وكان همام بن مُرّة أخو جسّاس، ومهلهل أخو كليب في ذلك الوقت يشربان، فبعث جساس إلى همام جارية لهم تخبره الخبر، فانتهت إليهما وأشارت إلى همام، فقام إليها فأخبرته، فقال له مهلهل: ما قالت لك الجارية؟ ـ وكان بينهما عهد أن لا يكتم أحدهما صاحبه شيئًا ـ فذكر له ما قالت الجارية وأحبّ أن يعلمه ذلك في مداعبة وهزل، فقال له مهلهل: أست أخيك أضيق من ذلك، فأقبلا على شربهما.

فقال له مهلهل: اشرب فاليوم خمر وغدًا أمر، فشرب همام وهو حذر وخائف.

فلما سكر مهلهل عاد همام إلى أهله، فساروا مِنْ ساعتهم إلى جماعة قومهم، وظهر أمر كليب فذهبوا إليه فدفنوه، فلما دُفِن شُقَّت الجيوب وخُمِّشت الوجوه، وخرجت الأبكار وذات الخدور العواتق إليه، وقمن للمأتم، فقال النساء لأخت كليب: أخرجي جليلة أخت جساس عنافان قيامها فيه شماتة وعار علينا، وكانت امرأة كليب كما ذكرنا.

فقالت لها أخت كليب: اُخْرُجي عن مأتمنا فأنت أخت قاتلنا وشقيقة واترنا. فخرجت تجرّ عطافها فلقيها أبوها مُرّة، فقال لها: ما وراءك يا جليلة؟ فقالت: ثكل العدد وحزن الأبد وفقد خليل، وقتل أخ عن قليل، وبين هذين غرس الأحقاد، وتفتّت الأكباد. فقال لها: أو يكف ذلك كرم الصفح، وإغلاء الديّات؟ فقالت: أمنية مخدوع وربّ الكعبة، أَلِبُدْن تَدَعُ لك تغلب دم ربّها!

ولما رحلت جليلة، قالت أخت كليب: رحلة المعتدي وفراق الشامت، ويل غدًا لآل مُرّة من الكرّة بعد الكرّة.

فبلغ قولها جليلة، فقالت: وكيف تشمت الحرّة بهَتْك سترها وترقّب وترها! أسعد الله أختي ألّا قالت: نفرة الحياء وخوف الأعداء. ثم أنشأت تقول:

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا	تعجلي باللّوم حتى تسألي
فإذا ما أنت تبيَّنت الذي	يوجب اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت امرئ ليمت على	شفق منها عليه فافعلي
جلّ عندي فعل جسّاس فيا	حسرتا فيما انجلت أو تنجلي
فعل جساس على وجدي به	قاطع ظهري ومُدْنٍ أجلي
لو بعين فقئت عين سوى	أختها فانفقأت لم أحفل
تحمل العين قذى العين كما	تحمل الأمّ أذى ما تفتلي[1]
يا قتيلاً قوَّض الدهر به	سقف بيتيّ جميعًا من عَلِ
هدم البيت الذي استحدثته	وانثنى في هدم بيتي الأوّل
ورماني قتله من كثب	رمية المصمى به المستأصل
يا نسائي دونكنّ اليوم قد	خصَّني الدهر برزء معضل
خصَّني قتل كليب بلظى	من ورائي ولظى مستقبل
ليس من يبكي ليوميه كمن	إنما يبكي ليوم مُقْبل
يشتفي المدرك بالثأر وفي	دركي ثأري ثكل المثكل
ليته كان دمًا فاحتلبوا	دررًا منه دمي من أكحل
إنني قاتلة مقتولة	ولعلّ الله أن يرتاح لي

وأما مهلهل واسمه عديّ ـ وقيل: امرؤ القيس ـ وهو خال امرئ القيس بن حجر الكندي، وإنما لُقّب مهلهلاً لأنه أوّل من هلهل الشعر، وقَصَّد القصائد، وأوّل من كذَّب في شعره، فإنه لما صحا لم يرعه إلّا النساء يصرخن ألَا إنّ كليبًا قُتِل، فقال ـ وهو أول شعرٍ قيل في هذه الحادثة ـ:

كنّا نغار على العواتق أن ترى	بالأمس خارجةً عن الأوطان

(١) تفتلي أي: تفطم، فلا الصبي والمهر فلوًا وفلاء عزله عن الرّضاع أو فطمه، كأفلاه وافتلاه.

فخرجن حين توى كليب حسرًا مستيقنات بعده بهوان
فترى الكواعب كالظباء عواطلًا إذ حان مصرعه من الأكفان
يخمشن من أدم الوجوه حواسرًا من بعده ويعدن بالأزمان
متسلّبات نكدهن وقد ورى أجوافهن بحرقة ورواني
ويقلن من للمستضيف إذا دعا أم من لخضب عوالي المران؟
أم لا تساربًا لجزور إذا غدا ريح يقطع معقد الأشطان
أم من لا سباق الديات وجمعها ولفادحات نوائب الحدثان؟
كان الذخيرة للزمان فقد أتى فقدانه وأخلّ ركن مكاني
يا لهف نفسي من زمان فاجع ألقى عليّ بكلكل وجران
بمصيبة لا تستقال جليلة غلبت عزاء القوم والنسوان
هدّت حصونًا كنّ قبل ملاوذًا لذوي الكهول معًا وللشبّان
أضحت وأضحى سورها من بعده متهدّم الأركان والبنيان
فأبكين سيّد قومه واندبنه شدّت عليه قباطي الأكفان
وابكين للأيتام لما أقحطوا وأبكين عند تخاذل الجيران
وأبكين مصرع جيده متزمّلًا بدمائه فلذاك ما أبكاني
فلأتركنّ به قبائل تغلب قتلي بكل قرارة ومكان
قتلى تعاورها النسور أكفّها ينهشنها وحواجل الغربان

ثم انطلق إلى المكان الذي قتل فيه كليب فرأى دمه وأتى قبره فوقف عليه، ثم قال:

إنّ تحت التراب حزمًا وعزمًا وخصيمًا ألدّ ذا معلاق
حيّة في الوجار أربدّ لا ينـ ـفع منه السليم نفث الراقي

ثم جزّ شعره، وقصّر ثوبه، وهجر النساء، وترك الغزل، وحرّم القمار والشراب، وجمع إليه قَوْمَه، وأرسل رجالًا منهم إلى بني شيبان.

فأتوا مُرّة بن ذهل بن شيبان وهو في نادي قومه، فقالوا له: إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كليبًا بناقة، وقطعتم الرحم، وانتهكتم الحرمة، وإنا نعرض عليك خلالًا أربعًا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع:

إمّا أنْ تحيي لنا كليبًا، أو تدفع إلينا قاتله جسّاسًا فنقتله به أو همامًا فإنه كفء له، أو تمكّننا من نفسك فإنَّ فيك وفاء لدمه.

فقال لهم: أمّا إحيائي كليبًا فلستُ قادرًا عليه، وأمّا دفعي جساسًا إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عَجَلٍ وركب فرسه فلا أدري أيَّ بلاد قصد، وأمّا همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعمّ عشرة كلّهم فرسان قومهم فلن يسلّموه بجريرة غيره، وأمّا أنا فما هو إلّا أن تجول الخيل جولة فأكون أوّل قتيل فما أتعجّل الموت. ولكن لكم عندي خصلتان: أمّا إحداهما فهؤلاء أبنائي الباقون فخذوا أيّهم شئتم فاْقتلوه بصاحبكم، وأمّا الأخرى فإني أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حُمُر الوبر.

فغضب القوم، وقالوا: قد أسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب.

ونشبت الحرب بينهم ولحقت جليلة زوجة كليب بأبيها وقومها، واعتزلت قبائل بكر الحرب وكرهوا مساعدة بني شيبان على القتال وأعظموا قتل كليب فتحوّلت لحيم ويشكر، وكفّ الحارث بن عباد عن نصرهم ومعه أهل بيته، وقال مهلهل عدّة قصائد يرثي كُلَيْبًا، منها:

كليب لا خير في الدنيا ومَنْ فيها ... إذ أنت خليتها فيمن يخليها
كليب أي فتى عزّ ومكرمة ... تحت السقائف إذ يعلوك سافيها؟
نعى النّعاة كُلَيْبًا لي فقلت لهم ... مالَت بنا الأرض أو زالت رواسيها
الحزمُ والعزمُ كانا من صنيعته ... ما كلّ آلائه يا قوم أُحصيها
القائد الخيل تردى في أعنّتها ... رهوًا إذا الخيل لجّت في تعاديها
من خيل تغلب ما تلقى أسنّتها ... إلّا وقد خضبوها من أعاديها
يهزهزون من الخطيّ مدمجة ... صمًّا أنابيبها زرقًا عواليها
ليت السماء على من تحتها وقعت ... وانشقَّت الأرض فانجابت بمَنْ فيها
لا أصلح اللّه منّا مَن يصالحكم ... ما لاحت الشمس في أعلى مجاريها

٨ ـ يوم عنيزة

فالتقوا أوّل قتال كان بينهم في قولٍ يوم عنيزة وهي عند فلج، وكانا على السواء، فقال مهلهل:

كأنّا غدوة وبني أبينا ... بجنب عنيزة رحيا مدير
ولولا الريح أسمع أهل حجر ... صليل البيض تقرع بالذكور

فتفرّقوا، ثم بقوا زمانًا.

ثم إنهم التقوا بماءٍ يقال له النهي كانت بنو شيبان نازلة عليه، ويروى أنها أوّل وقعة كانت بينهم، وكان رئيس تغلب مهلهل، ورئيس شيبان الحارث بن مُرّة، وكانت الدائرة لبني تغلب، وكانت الشوكة في بني شيبان، واستحرّ القتال فيهم إلّا أنّه لم يقتل ذلك اليوم أحد من بني مُرّة.

٩ ـ يوم الذنائب

ثم التقوا بالذنائب، وهي أعظم وقعة كانت لهم، فظفرت بنو تغلب، وقتلت بكرًا مقتلة عظيمة، وقُتِل فيها شراحيل بن مُرّة بن همام بن ذهل بن شيبان، وهو جدّ الحوفزان وجدّ معن بن زائدة، وقتل الحارث بن مُرّة بن ذهل بن شيبان، وقُتل من بني ذهل بن ثعلبة عمرو بن سدوس بن شيبان بن ذهل وغيرهم من رؤساء بكر.

١٠ ـ يوم واردات

ثم التقوا يوم واردات، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فظفرت تغلب أيضًا، وكَثُر القتل في بكر، فقتل همام بن مُرّة بن ذهل بن شيبان أخو جسّاس لأبيه وأمّه، فمرّ مهلهل فلما رآه قتيلًا قال: «والله ما قتل بعد كليب أعزّ عليّ منك، وتالله لا تجتمع بكر بعدكما على خيرٍ أبدًا».

وقيل: إنما قتل يوم القصيبات، وقيل: يوم قضة قتله ناشرة، وكان همام قد التقطه وربّاه وسمّاه ناشرة، وكان عنده فلما شبَّ علم أنه تغلبي، فلما كان هذا اليوم جعل همام يقاتل، فإذا عطش جاء إلى قربة له يشرب منها فتغفّله ناشرة فقتله، ولحق بقومه تغلب، وكاد جساس يؤخذ فسلم، فقال مهلهل:

لو أن خيلي أدركتك وجدتهم ... مثل اللّيوث بستر غب عرين

ويقول فيها:

ولأوردن الخيل بطن أراكة ... ولأقضين بفعل ذاك ديوني

ولأقتلن جحاجحًا من بكركم ... ولأبكينّ بها جفون عيون

حتى تظلّ الحاملات مخافةً ... من وقعنا يقذفن كل جنين

وقيل في ترتيب الأيام: غير ما ذكرنا، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وكان أبو نويرة التغلبي وغيره طلائع قومه، وكان جساس وغيره طلائع قومهم.

والتقى بعض الليالي جساس وأبو نويرة، فقال له أبو نويرة: أختر إمّا الصراع، أو الطعان، أو المسايفة. فاختار جساس الصراع فاْصطرعا وأبطأ كلُّ واحدٍ منهما على أصحاب حَيِّهِ وطلبوهما فأصابوهما وهما يصطرعان، وقد كاد جساس يصرعه، ففرّقوا بينهما، وجعلت تغلب تطلب جساسًا أشدّ الطلب، فقال له أبوه مرّة: الحق بأخوالك بالشام، فاْمتنع فألَحَّ عليه أبوه فسَيَّرَه سرًا في خمسة نفر، وبلغ الخبر إلى مهلهل، فندب أبا نويرة ومعه ثلاثون رجلًا من شجعان أصحابه فساروا مجدّين فأدركوا جساسًا فقاتلهم، فقتل أبو نويرة وأصحابه ولم يبقَ منهم غير رجلين، وجُرح جساس جرحًا شديدًا مات منه وقُتل أصحابُه، فلم يسلم غير رجلين أيضًا، فعاد كل واحد من السالمين إلى أصحابه، فلما سمع مُرّة قَتْل ابنه جسّاس، قال: إنما يحزنني إنْ كان لم يَقْتل منهم أحدًا.

فقيل له: إنه قَتَل بيده أبا نويرة رئيس القوم، وقتل معه خمسة عشر رجلًا ما شركه منّا أحد في قتلهم، وقتلنا نحن الباقين.

فقال: ذلك مما يسكّن قلبي عن جساس.

وقيل: إن جساسًا آخِرَ مَنْ قُتِلَ في حرب بكر وتغلب، وكان سبب قتله أن أخته جليلة كانت تحت كليب وائل، فلما قتل كليب عادت إلى أبيها وهي حامل ووقعت الحرب، وكان من الفريقين ما كان، ثم عادوا إلى الموادعة بعد ما كادت الفئتان تتفانى، فولدت أخت جساس غلامًا فسمّته هجرسًا، وربّاه جساس، وكان لا يعرف أبًا غيره فزوّجه ابنته، فوقع بين هجرس وبين رجل من بكر كلام، فقال له البكري: ما أنت بمنتهٍ حتى نلحقك بأبيك.

فأمسك عنه، ودخل إلى أمّه كئيبًا حزينًا فأخبرها الخبر، فلما نام إلى جنب امرأته رأت مِنْ همّه وفكره ما أنكرته، فقصت على أبيها جساس قصته، فقال: تأثر وربّ الكعبة، وبات على مثل الرضف حتى أصبح، فأحضر الهجرس، فقال له: إنما أنت ولدي وأنت مني بالمكان الذي تعلم وزوجتك ابنتي، وقد كانت الحرب في أبيك زمانًا طويلًا وقد اصطلحنا وتحاجزنا، وقد رأيتُ أنْ تدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح، وأن تنطلق معي حتى نأخذ عليك مثل ما أُخذ علينا.

فقال الهجرس: أنا فاعل. فحمله جساس على فرسٍ فركبه ولبس لأمَته[١]، وقال: مثلي لا يأتي أهله بغير سلاحه.

---

(١) اللأْمَةُ: أداة الحرب كلّها من رمح، وبيضة، ومِغْفَر، وسيف، ودرع.

فخرجا حتى أتيا جماعة مِنْ قومهما فقصَّ عليهم جساس القصة، وأعلمهم أن الهجرس يدخل في الذي دخل فيه جماعتهم وقد حضر ليعقد ما عقدتم، فلما قرَّبوا الدم وقاموا إلى العقد أخذ الهجرس بوسط رمحه ثم قال: وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وغراريه لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه. ثم طعن جساسًا فقتله، ولحق بقومه وكان آخر قتيل في بكر، والأول أكثر.

ونرجع إلى سياقة الحديث.

فلما قُتِلَ جساس أرسل أبوه مُرَّة إلى مهلهل: إنك قد أدركتُ ثارك وقتلت جساسًا فاْكفُف عن الحرب ودَع اللّجاج والإسراف وأصلح ذات البَيْن فهو أصلح للحيَيْن وأنكأ لعدوّهم، فلم يجب إلى ذلك.

وكان الحارث بن عُباد قد اعتزل الحرب فلم يشهدها، فلما قتل جسّاس وهمام ابنا مُرّة حمل ابنه بجيرًا وهو ابن عمرو بن عُباد أخي الحٰرث بن عباد، فلما حمله على الناقة كتب معه إلى مهلهل: إنك قد أسرفت في القتل وأدركت ثارك سوى ما قتلت من بكر، وقد أرسلتُ ابني إليك فإمّا قتلته بأخيك وأصلحت بين الحيَيْن، وإمّا أطلقته وأصلحت ذات البَيْن، فقد مضى من الحيَيْن في هذه الحروب مَنْ كان بقاؤه خيرًا لنا ولكم.

فلما وقف على كتابه أخذ بجيرًا فقتله، وقال: بؤ بشسع نعل كليب[1].

فلما سمع أبوه بقتله ظنّ أنه قد قتله بأخيه ليصلح بين الحيَيْن، فقال: نِعْم القتيل قتيلاً أصلح من بني وائل.

فقيل: إنه قال بؤ بشسع نعل كليب، فغضب عند ذلك الحارث بنُ عُبَاد، وقال:

قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال
قربا مربط النعامة مني شاب رأسي وأنكرتني رجالي
لم أكن من جناتها علم اللّـ ـه وإني بحرّها اليوم صالي

فأتوه بفرسه النعامة ولم يكن في زمانها مثلها فَرَكِبَها، وولى أمر بكر وشهد حربهم، وكان أول يوم شهده يوم قضة وهو يوم تحلاق اللّمم، وإنما قيل له تحلاق

(١) أي: أُقْتَل بدل شسع النعل، وهو سير يمسك النعل بأصابع القدم.

اللمم: لأن بكرًا حلقوا رؤوسهم ليعرف بعضهم بعضًا إلّا جحدر بن ضبيعة بن قيس أبو المسامعة، فقال لهم: أنا قصير فلا تشينوني وأنا أشتري لِمّتي منكم بأول فارس يطلع عليكم، فطلع ابن عناق فشدّ عليه فقتله؛ وكان يرتجز ذلك اليوم ويقول:

ردّوا عليّ الخيل أن ألمت إن لم أقاتلهم فجزّوا لمتي

وقاتل يومئذ الحارث بنُ عُبَاد قتالًا شديداً، فقتل في تغلب مقتلة عظيمة، وفيه يقول طرفة:

سائلوا عنّا الذي يعرفنا بقوانا يوم تحلاق اللّمم

يوم تبدي البيض عن أسوقها وتلفّ الخيل أفواج النعم

وفي هذا اليوم أسر الحارث بن عُباد مهلهلًا واسمه عدي وهو لا يعرفه؛ فقال له: دلّني على عديّ وأنا أُخَلّي عنك.

فقال له المهلهل: عليك عهد الله بذلك إنْ دللتك عليه؟

قال: نعم. قال: فأنا عدي فَجَزَّ ناصيته وتركه، وقال في ذلك:

لهف نفسي على عدي ولم أعـ ـرف عديًا إذ أمكنتني اليدان

وكانت الأيام التي اشتدّت فيها الحرب بين الطائفتين خمسة أيام: يوم عنيزة تكافؤوا فيه وتناصفوا، ثم اليوم الثاني: يوم واردات كان لتغلب على بكر، ثم اليوم الثالث: الحنو كان لبكر على تغلب، ثم اليوم الرابع: يوم القصيبات أصيب بكر حتى ظنّوا أنهم لن يستقيلوا، ثم اليوم الخامس: يوم قضة وهو يوم التحالق؛ وشهده الحارث بن عُباد.

ثم كان بعد ذلك أيام دون هذه منها النَّقِيَّة[1]، ويوم الفصيل لبكر على تغلب، ثم لم يكن بينهما مزاحفة، إنما كان مغاورات ودامت الحرب بينهما أربعين سنة.

ثم إن مهلهلًا قال لقومه: قد رأيتُ أن تُبْقُوا على قومكم فإنهم يحبّون صلاحكم، وقد أتت على حربكم أربعون سنة، وما لمتكم على ما كان من طلبكم بوتركم، فلو مرّت هذه السنون في رفاهية عيش لكانت تملّ من طولها، فكيف وقد فني الحيّان، وثكلت الأمّهات، ويُتم الأولاد، ونائحة لا تزال تصرخ في النواحي،

(١) قرية من قرى البحرين لبني عامر بن عبد القيس.

ودموع لا ترقأ، وأجساد لا تدفن، وسيوف مشهورة، ورماح مشرّعة! وإن القوم سيرجعون إليكم غدًا بمودّتهم ومواصلتهم، وتتعطّف الأرحام حتى تتواسوا في قتال القتل، فكان كما قال.

ثم قال مهلهل: أمّا أنا فما تَطِيب نفسي أن أُقيم فيكم ولا أستطيع أن أنظر إلى قاتل كليب، وأخاف أنْ أحمّلكم على الاستئصال، وأنا سائر إلى اليمن. وفارقهم وسار إلى اليمن، ونزل في جنب وهي حيّ من مذحج، فخطبوا إليه ابنته فمنعهم فأجبروه على تزويجها وساقوا إليه صداقها جلوداً من أُدم، فقال في ذلك:

أعزز على تغلب بما لقيت ... أخت بني الأكرمين من جشم
أنكحها فقدها الأراقم في ... جنب وكان الحباء من أُدم
لو بأبا نين[1] جاء يخطبها ... ضرج ما أنف خاطب بدم

الأراقم: بطن من جشم بن تغلب، يعني حيث فقدت الأراقم وهم عشيرتها تزوّجها رجل من جنب بأدم.

ثم إن مهلهلًا عاد إلى ديار قومه، فأخذه عمرو بن مالك بن ضبيعة البكري أسيرًا بنواحي هجر فأحسن إساره، فمرّ عليه تاجر يبيع الخمر قدم بها من هجر، وكان صديقًا لمهلهل فأهدى إليه وهو أسير زقًّا من خمر، فاجتمع إليه بنو مالك فنحروا عنده بكرًا، وشربوا عند مهلهل في بيته الذي أفرد له عمرو، فلما أخذ فيهم الشراب تغنّى مهلهل بما كان يقوله من الشعر ينوح به على أخيه كليب، فسمع منه عمرو ذلك، فقال: إنه لريان والله لا يشرب عندي ماء حتى يرد زبيب - وهو فحل كان له لا يردّ إلّا خمسًا في حمارّة القيظ -، فطلب بنو مالك زبيبًا وهم حراص على أنْ لا يهلك مهلهل، فلم يقدروا عليه حتى مات مهلهل عطشًا.

وقيل: إن ابنة خال مهلهل وهي ابنة المجلل التغلبي كانت امرأة عمرو، وأرادت أن تأتي مهلهلًا وهو أسير، فقال يذكرها:

طفلة ما ابنة المجلل بيضا ... ء لعوب لذيذة في العناق
فأذهبي ما إليك غير بعيد ... لا يؤاتي العناق من في الوثاق
ضربت صدرها إليّ وقالت: ... يا عديًا لقد وَقَتْكَ الأواقي

---

(١) هما جبلان في البادية أبيض وأسود، فالأبيض لبني أسد، والأسود لفزارة.

وهي أبيات ذوات عدد، فنقل شعره إلى عمرو بن مالك فحلف عمرو أنْ لا يسقيه الماء حتى يرد زبيب، فسأله الناس أن يورد زبيبًا قبل وروده، ففعل وأورده وسقاه حتى يتحلّل من يمينه، ثم إنه سقى مهلهلًا من ماء هناك هو أوخم المياه، فمات مهلهل.

١١ ـ حرب الحارث الأعرج وبني تغلب

قال أبو عبيدة: إنّ بكرًا وتغلب ابني وائل اجتمعت للمنذر بن ماء السماء، وذلك بعد حربهم، وكان الذي أصلح بينهم قيس بن شراحيل بن مُرّة بن همام، فغزا بهم المنذر بني آكل المِرار، وجعل على بني بكر وتغلب ابنه عَمْرو بن هند، وقال: أغز أخوالك. فغزاهم، فاقتتلوا، فانهزم بنو آكل المرار وأُسِرُوا وجاؤوا بهم إلى المنذر فقتلهم، ثم انتقضت تغلب على المنذر ولحقت بالشام، ونحن سنذكر سبب ذلك في أخبار شيبان إن شاء الله.

وعادت الحرب بينهم وبين بكر، فخرج مَلِك غسان بالشام وهو الحارث بن أبي شمر الغسّاني، فمرّ بأفاريق من تغلب فلم يستقبلوه، وركب عمرو بن كلثوم التغلبي، فلقيه، فقال له: ما منع قومك أن يتلقَّوْني؟

فقال: لم يعلموا بمرورك. فقال: لئن رجعت لأغزونهم غزوة تتركهم أيقاظًا لقدومي. فقال عمرو: ما استيقظ قوم قط إلّا نبل رأيهم وعزَّت جماعتهم، فلا توقظن نائمهم. فقال: كأنك تتوعدني بهم، أمَا والله لتعلمن إذا نالت[1] غطاريف غسان الخيل في دياركم أنْ أيقاظ قومك سينامون نومة لا حلم فيها تجتثّ أصولهم وتنفي، فلهم إلى اليابس الجدد، والنازح الثمد.

ثم رجع عمرو بن كلثوم عنه وجمع قومه، وقال:

ألا فـاْعـلـم أبـيـت الـلـعـن أنّـا ... أبـيـت الـلـعـن نـأبـى مـا تـريـدَ
تـعـلـم أنّ مـحـمـلـنـا ثـقـيـل ... وأنّ دبـار كـبـتـنـا[2] شـديـد
وإنـا لـيـس حـي مـن مـعـد ... يـقـاومـنـا إذا لـبـس الـحـديـد

(١) هذه الكلمة ليس لها موقع، ولو وضع بدلها (أجالت) لكان المعنى مستقيمًا (م).

(٢) دبار الدشيء: آخره وعاقبته، والكَبة: الدفعة في القتال، وفي الأغاني «زناد كتبتنا» (م).

فلما عاد الحارث الأعرج غزا بني تغلب، فاقتتلوا واشتدّ القتال بينهم، ثم انهزم الحارث وبنو غسان، وقتل أخو الحارث عدد كثير، فقال عمرو بن كلثوم:

هلا عطفت على أخيك إذا دعا بالثكل ويل أبيك يا بن أبي شمر
فذُق الذي جشمت نفسك واعترف فيها أخاك وعامر بن أبي حجر

١٢ ـ يوم عين أباغ

وهو بين المنذر بن ماء السماء وبين الحارث بن الأعرج أبي شمر جبلة ـ وقيل: أبو شمر عمرو بن جبلة بن الحرث بن حجر بن النعمان بن الحٰرث الأيهم بن الحٰرث بن مارية الغساني، وقيل: في نسبه غير هذا ـ وقيل: هو أزدي تغلب على غسان، والأول أكثر وأصح، وهو الذي طلب أدراع امرئ القيس من السموأل بن عادياء، وقتل ابنه، وقيل: غيره، والله أعلم.

وسبب ذلك أنّ المنذر بن ماء السماء ملك العرب سار من الحيرة في معد كلها حتى نزل بعين أباغ بذات الخيار، وأرسل إلى الحارث الأعرج بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو، مزيقياء بن عامر الغساني ملك العرب بالشام: إمّا أن تعطيني الفدية فأنصرف عنك بجنودي، وإمّا أنْ تأذن بحرب.

فأرسل إليه الحارث: أنظرنا ننظر في أمرنا، فجمع عساكره وسار نحو المنذر، وأرسل إليه يقول له: إنّا شيخان فلا تهلك جنودي وجنودك، ولكن يخرج رجل من ولدي ويخرج رجل من ولدك فمن قتل خرج عوضه آخر، وإذا فني أولادنا خرجت أنا إليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك، فتعاهدا على ذلك، فعمد المنذر إلى رجل من شجعان أصحابه فأمره أن يخرج فيقف بين الصفّين ويظهر أنه ابن المنذر، فلما خرج أخرج إليه الحارث ابنه أبا كرب، فلمّا رآه رجع إلى أبيه، وقال: إنّ هذا ليس بابن المنذر إنما هو عبده أو بعض شجعان أصحابه.

فقال: يا بني أجزعت من الموت! ما كان الشيخ ليغدر.

فعاد إليه وقاتله فقتله الفارس وألقى رأسه بين يدي المنذر وعاد، فأمر الحارث ابنًا له آخر بقتاله والطلب بثأر أخيه، فخرج إليه فلما واقفه رجع إلى أبيه؛ وقال: يا أبتِ هذا والله عبد المنذر.

فقال: يا بني ما كان الشيخ ليغدر.

فعاد إليه فشدّ عليه فقتله، فلما رأى ذلك شمر بن عمرو الحنفي، وكانت أمّه غسانيّة وهو مع المنذر، فقال: أيّها الملك إن الغدر ليس من شِيَم الملوك ولا الكرام، وقد غدرت بابن عمّك دفعتين، فغضب المنذر وأمر بإخراجه فلحق بعسكر الحارث فأخبره، فقال له: سَلْ حاجتك.

فقال له: حلتك وخلّتك، فلما كان الغد عَبَّى الحارث أصحابه وحرّضهم، وكان في أربعين ألفًا، واصطفّوا للقتال، فاقتتلوا قتالًا شديدًا؛ فقُتل المنذر وهزمت جيوشه فأمر الحارث بابنيه القتيلين فحُمِلا على بعيرٍ بمنزلة العدلين، وجعل المنذر فوقهما فردًا وقال: يا لعلاوة دون العدلين، فذهبت مثلاً.

وسار إلى الحيرة فأنهبها وأحرقها ودفن ابنيه بها، وبنى الغربين عليهما في قول بعضهم، وفي ذلك اليوم يقول ابن الرِعلاء الضبابي:

كم تركنا بالعين عين أباغ ... من ملوك وسوقة أكفاءِ
أمطرتهم سحائب الموت تترى ... إنّ في الموت راحة الأشقياءِ
ليس مَنْ مات فاستراح بميّتٍ ... إنما الميِّت ميِّتُ الأحياءِ

١٣ ـ يوم مرج حليمة وقتل المنذر بن المنذر بن ماء السماء

لما قتل المنذر بن ماء السماء على ما تقدم، مَلَك بعده ابنه المنذر وتلقّب الأسود، فلما استقرّ وثبت قدمه جمع عساكره، وسار إلى الحارث الأعرج طالبًا بثأر أبيه عنده، وبعث إليه: إنني قد أعددت لك الكهول على الفحول. فأجابه الحارث: قد أعددت المُرْد على الجُرْد.

فسار المنذر حتى نزل بمرج حليمة، فتركه مَنْ به من غسان للأسود، وإنما سُمّي مرج حليمة بحليمة ابنة الحارث الغسّاني، وسنذكر خبرها عند الفراغ من هذا اليوم.

ثم إن الحارث سار فنزل بالمرج أيضًا، فأمر أهل القرى التي في المرج أنْ يصنعوا الطعام لعسكره، ففعلوا ذلك وحملوه في الجفان، وتركوه في العسكر، فكان الرجل يقاتل فإذا أراد الطعام جاء إلى تلك الجفان فأكل منها، فأقامت الحرب بين الأسود والحارث أيّامًا ينتصف بعضهم من بعض، فلما رأى الحارث ذلك قعد في قصره، ودعا ابنته هندًا وأمرها فاتّخذت طيبًا كثيرًا في الجفان وطيّبت به أصحابه، ثم نادى: يا فتيان غسّان من قتل ملك الحيرة زوّجته ابنتي هند.

فقال لبيد بن عمرو الغسّاني لأبيه: يا أبتِ أنا قاتل مَلِك الحيرة أو مقتول دونه لا محالة، ولست أرضى فرسي فأعطني فرسك الزيتية فأعطاه فرسه.

فلما زحف الناس واقتتلوا ساعة شدَّ لبيد على الأسود فضربه ضربة فألقاه عن فرسه، وانهزم أصحابه في كلِّ وجهٍ، ونزل فاحتزّ رأسه وأقبل به إلى الحارث وهو على قصره ينظر إليهم، فألقى الرأس بين يديه، فقال له الحارث: شأنك بابنة عمك فقد زوّجتكها.

فقال: بل أنصرف فأولي أصحابي بنفسي، فإذا انصرف الناس انصرفتُ.

فرجع فصادف أخا الأسود قد رجع إليه الناس وهو يقاتل وقد اشتدّت نكايته، فتقدم لبيد فقاتل فقتل، ولم يقتل في هذه الحروب بعد تلك الهزيمة غيره، وانهزمت لخم هزيمة ثانية وقتلوا في كل وجه، وانصرفت غسان بأحسن ظفر.

وذكر أن الغبار في هذا اليوم اشتدّ وكثر حتى ستر الشمس وحتى ظهرت الكواكب المتباعدة عن مطالع الشمس لكثرة العساكر؛ لأن الأسود سار بعرب العراق أجمع، وسار الحارث بعرب الشام أجمع، وهذا اليوم من أشهر أيّام العرب، وقد فخر به بعض شعراء غسّان، فقال:

يوم وادي حليمة وازدلفنا ... بالعناجيج والرماح الظماءِ[1]
إذ شحنّا أكفّنا من رقاق ... رقٍّ من وقعها سنا السحناء[2]
وأتت هندٌ بالخلوق إلى مَنْ ... كان ذا نجدةٍ وفضل غناء
ونصبنا الجفان في ساحة المر ... ج فملنا إلى جفان ملاء

وقيل في قتله غير ما تقدّم ونحن نذكره، قال بعض العلماء: وكان سببه أن الحارث بن أبي شمر جبلة بن الحارث الأعرج الغساني خطب إلى المنذر بن المنذر اللّخمي ابنته، وقصد انقطاع الحرب بين لخم وغسّان، فزوّجه المنذر ابنته هندًا، وكانت لا تريد الرجال فصنعت بجلدها شبيهًا بالبرص، وقالت لأبيها: أنا على هذه الحالة، وتهديني لملك غسان!

---

(١) العناجيج: جياد الخيل والإبل.

(٢) السحناء: ليِّنة البشرة، والنعمة، والهيئة، واللون، ويكون المعنى: إنّ وَقْع هذه السيوف غير النعمة على الأعداء أو غيَّر هيأتهم ولونهم (م).

فندم على تزويجها فأمسكها، ثم إن الحارث أرسل يطلبها فمنعها أبوها واعتلَّ عليه، ثم إن المنذر خرج غازيًا فبعث الحارث بن أبي شمر جيشًا إلى الحيرة فانتهبها وأحرقها، فانصرف المنذر من غزاته لما بلغه من الخبر، فسار يريد غسان، وبلغ الخبر الحارث فجمع أصحابه وقومه فسار بهم، فتوافقوا بعين أباغ فاصطفّوا للقتال فاقتتلوا، واشتدّ الأمر بين الطائفتين فحملت ميمنة المنذر على ميسرة الحارث وفيها ابنه فقتلوه، وانهزمت الميسرة، وحملت ميمنة الحارث على ميسرة المنذر فانهزم مَن بها وقُتِل مقدمها فروة بن مسعود بن عمرو بن أبي رُبيعة بن ذهل بن شيبان، وحملت غسّان من القلب على المنذر فقتلوه، وانهزم أصحابه في كل وجهٍ، فقتل منهم بَشَر كثير وأُسِر خلق كثير منهم من بني تميم، ثم من بني حنظلة مائة أسير، منهم شأس بن عبدة، فوفد أخوه علقمة بن عَبْدة الشاعر(١) على الحارث يطلب إليه أن يطلق أخاه ومدحه بقصيدته المشهورة التي أوّلها:

طحا بك قلب في الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيبُ
تكلّفني ليلى وقد شطَّ أهلها ... وعادت عواد بيننا وخطوب

يقول فيها:

فإن تسألوني بالنساء فإنّني ... بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قلَّ ماله ... فليس له في ودّهن نصيب
يردن ثراء الماء حيث وجدنه ... وشرخُ الشباب عندهنّ عجيب
وخالد من غسان أهل حفاظها ... وهند وناس ما صنعت يشيب(٢)
تخشخش أبدان الحديد عليهم ... كما خشخشت بين الحصاد جنوب
فلم ينج إلّا شطبة بلجامها ... وإلّا طمر كالقناة نجيب
وإلّا كمي ذو حفاظ كأنّه ... بما ابتلَّ من حدِّ الظبات خضيب

---

(١) هو علقمة بن عَبْدَة بن النعمان بن ناشرة بن قيس (ت ح٢٠ ق.هـ - ٦٠٣ م)، شاعرٌ جاهليٌّ من بني تميم، كان معاصرًا لامرئ القيس، وله معه مساجلات، وله ديوان شعر. انظر: الزركلي: الأعلام (٥/٤٨)، حاجي خليفة: كشف الظنون (٨٠٢)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (خ) (١١/ ٤٠٠/٢).

(٢) كذا في الأصول والذي في ديوانه:
وقاتل من غسان أهل حفاظها ... وهنب وفاس جالدت وشبيب (م)

وفي كل حَيٍّ قد خبطت بنعمة فحقّ لشأس من نداك ذنوب
فلا تحرمني نائلًا عن جناية فإني امرؤٌ وسط القباب غريب

فلما بلغ إلى قوله: (فحُقَّ لشأس من نداك ذنوب)، قال الملك: أي والله وأذنبة، ثم أطلق شأسًا، وقال له: إن شئت الحباء وإن شئت أسراء قومك. وقال لجلسائه: إن اختار الحباء على قومه فلا خير فيه.

فقال: أيها الملك ما كنت لأختار على قومي شيئًا.

فأطلق له الأسرى من تميم وكساه وحباه، وفعل ذلك بالأسرى جميعهم وزوّدهم زادًا كثيرًا، فلما بلغوا بلادهم أعطوا جميع ذلك لشأس، وقالوا: أنت كنت السبب في إطلاقنا فاستعن بهذا على دهرك، فحصل له مال كثير من إبل وكسوة وغير ذلك.

١٤ ـ قتل مضرط الحجارة

وهو عمرو بن المنذر بن ماء السماء اللّخمي صاحب الحيرة، وكان يلقّب «مضرط الحجارة» لشدّة ملكه وقوّة سياسته، وأمّه هند بنت الحارث بن عمرو المقصور بن آكل المرار، وهي عمّة امرئ القيس بن حجر بن الحارث، وكان سبب قتله أنه قال يومًا لجلسائه: هل تعلمون أن أحدًا من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمّه أمي؟

قالوا: ما نعرفه إلّا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي، فإن أمّه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة وعمّها كليب وائل، وزوجها كلثوم وابنها عمرو.

فسكت مضرط الحجارة على ما في نفسه، وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمّه ليلى أمّ نفسه هند بنت الحارث، فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان من بني تغلب، ومعه أمّه ليلى، فنزل على شاطئ الفرات، وبلغ عمرو بن هند قدومه، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فصنع لهم طعامًا، ثم دعا الناس إليه، فقُرِّب إليهم الطعام على باب السرادق، وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخواص أصحابه في السرادق، ولأمّه هند قبّة في جانب السرادق وليلى أمّ عمرو بن كلثوم معها في القبّة، وقد قال مضرط الحجارة لأمّه: إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبقَ إلّا الطرف فنحّي خدمك عنك فإذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها فلتناولك الشيء بعد الشيء، ففعلت هند ما

أمرها به ابنها، فلما استدعى الطرف، فقالت هند لليلى: ناوليني ذلك الطبق. قالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فألحت عليها فقالت ليلى: واذلّاه يا آل تغلب.

فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه والقوم يشربون، فعرف عمرو بن هند الشرّ في وجهه، وثار ابن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذه، ثم ضرب به رأس مضرط الحجارة فقتله وخرج فنادى: يا آل تغلب فانتهبوا ماله وخيله وسبوا النساء وساروا فلحقوا بالحيرة، فقال أفنون التغلبي:

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا ... لتخدم ليلى أمّه بموفقِ
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتًا ... وأمسك من ندمانه بالمخنق

١٥ ـ يوم الكُلاب الأوّل

قال ابن الكلبي: أوّل من اشتدّ ملكه من كندة حجر آكل المِرار بن عمرو بن معاوية بن الحارث الكندي، فلما هلك مَلَك بعد أبيه عمرو مثل ملك أبيه فسمّي المقصور؛ لأنه قصُر على مُلك أبيه، فتزوّج عمرو أمّ إياس بنت عوف بن محلم الشيباني؛ فولدت له الحارث فملك بعد أربعين سنة، وقيل: ستين سنة، فخرج يتصيّد فرأى عانة، وهي حُمُر الوحش، فشدَّ عليها فانفرد منها حمار فتتبَّعه وأقسم أنْ لا يأكل شيئًا قبل كبده وهو بمسحلان، فطلبته الخيل ثلاثة أيام حتى أدركته فأُتِيَ به، وقد كاد يموت من الجوع فشوى على النار وأُطعم من كبده وهي حارّة فمات، وكان الحارث فرَّق بنيه في قبائل معد، فجعل حجرًا في بني أسد وكنافة وهو أكبر ولده، وجعل شرحبيل في بكر بن وائل وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم وبني أسيد بن عمرو بن تميم والرِّباب، وجعل سلمة وهو أصغرهم في بني تغلب والنمر بن قاسط وبني سعد بن زيد مناة بن تميم، وجعل ابنه معديكرب ويعرف بغلفاء في قيس عيلان، وقد تقدم هذا في قتل حجر أبي امرئ القيس، وإنما أعدناه هٰهنا للحاجة إليه.

فلما هلك الحارث تشتّت أمر أولاده وتفرّقت كلمتهم، ومشى بينهم الرجال وكانت المغاورة بين الأحياء الذين معهم وتفاقم أمرهم حتى جمع كل واحدٍ منهم لصاحبه الجموع وزحف إليه بالجيوش، فسار شرحبيل فيمن معه من الجيوش،

فنزل الكلاب وهو ماء بين البصرة والكوفة، وأقبل سلمة فيمن معه وفي الصنائع أيضًا وهم قوم كانوا مع الملوك من شذاذ العرب، فأقبلوا إلى الكرب، وعلى تغلب السفاح بن خالد بن كعب بن زهير فاقتتلوا قتالًا شديدًا وثبت بعضهم لبعض، فلما كان آخر النهار من ذلك اليوم خذلت بنو حنظلة وعمرو بن تميم والرباب بكر بن وائل وانهزموا، وثبتت بكر وانصرفت بنو سعد ومن معها عن تغلب، وصبرت تغلب ونادى منادي شرحبيل: من أتاني برأس سلمة فله مائة من الإبل، ونادى منادي سلمة: من أتاني برأس شرحبيل فله مائة من الإبل، فاشتدّ القتال حينئذ كلٌّ يطلب أن يظفر لعلَّه يصل إلى قتل أحد الرجلين ليأخذ مائة من الإبل، فكانت الغلبة آخر النهار لتغلب وسلمة ومضى شرحبيل منهزمًا، فتبعه ذو السنينة التغلبي، فالتفت إليه شرحبيل فضربه على ركبته فأطنّ رجله، وكان ذو السنينة أخا أبي حنش لأمّه، فقال لأخيه: قتلني الرجل وهلك ذو السنينة، فقال أبو حنش لشرحبيل: قتلني والله إن لم أقتلك وحمل عليه فأدركه، فقال: يا أبا حنش اللبن اللبن، يعني الدّيَة.

فقال: قد هرقت لبنًا كثيرًا. فقال: يا أبا حنش أملكًا بسوقة؟ فقال: إن أخي ملكي. فطعنه فألقاه عن فرسه، ونزل إليه فأخذ رأسه وبعث به إلى سلمة مع ابن عمٍّ له، فأتاه به وألقاه بين يديه، فقال سلمة: لو كنت ألقيته أرفق من هذا، وعرفت الندامة في وجه سلمة، والجزع عليه، فهرب أبو حنش منه، فقال سلمة:

ألا أبلغ أبا حنش رسولًا ... فمالك لا تجيء إلى الثواب؟
لتعلم أن خير الناس طرًّا ... قتيل بين أحجار الكلاب
تداعت حوله جشم بن بكر ... وأسلمه جعاسيس الرباب

فأجابه أبو حنش، فقال:

أحاذر أن أجيئك ثم تحبو ... حباء أبيك يوم ضبيعات
وكانت غدرة شنعاء تهفو ... تقلّدها أبوك إلى الممات

وكان سبب يوم ضبيعات أن ابنًا للحارث كان مسترضعًا في تميم وبكر ولدغته حيَّة فمات، فأخذ خمسين رجلًا من تميم وخمسين رجلًا من بكر فقتلهم به، ولما قتل شرحبيل قام بنو زيد مناة بن تميم دون أهله وعياله فمنعوهم، وحالوا بين الناس وبينهم حتى ألحقوهم بقومهم ومأمنهم، ولما بلغ خبر قتله أخاه

معديكرب وهو غلفاء، قال يرثيه:

إن جنبي عن الفراش لنابي كتجافي الأسرّ[١] فوق الظرابِ[٢]
من حديث نمى إليّ فما تر قأ عيني ولا أسيغ شرابي
مُرّة كالذعاف أكتمها النـ ـاس على حرّ مَلّة[٣] كالشهاب
منْ شرحبيل إذ تعاوره الأر ماح من بعد لذّة وشباب
يا بن أمّي ولو شهدتك إذ تد عو تميمًا وأنت غير مُجاب
ثم طاعنت من ورائك حتّى يبلغ الرحب أو تبزّ ثيابي
أحسنت وائل وعادتها الإحـ ـسان بالحبو[٤] يوم ضرب الرّقاب
يوم فرّت بنو تميم وولّت خيلهم يتّقين بالأذناب

وهي طويلة، ثم إنّ تغلب أخرجوا سلمة من بينهم، فلجأ إلى بكر بن وائل وانضمّ إليهم، ولحقت تغلب بالمنذر بن امرئ القيس اللخمي.

١٦ ـ يوم أوارة الأول

وهو يوم كان بين المنذر بن امرئ القيس وبين بكر بن وائل وكان سببه أن تغلب لما أخرجت سلمة بن الحارث عنها ٱلتجأ إلى بكر بن وائل كما ذكرناه آنفًا، فلما صار عند بكر أذعنت له وحشدت عليه، وقالوا: لا يملكنا غيرك فبعث إليهم المنذر يدعوهم إلى طاعته فأبوا ذلك، فحلف المنذر ليسيرنّ إليهم فإن ظفر بهم فليذبحنّهم على قلّة جبل أُوارة حتى يبلغ الدم الحضيض، وسار إليهم في جموعه، فالتقوا بأُوارة فاقتتلوا قتالاً شديدًا وأجلت الواقعة عن هزيمة بكر، وأسر يزيد بن شرحبيل الكندي فأمر المنذر بقتله فقتل، وقتل في المعركة بشر كثير، وأسر المنذر من بكر أسرى كثيرة، فأمر بهم فذبحوا على جبل أُوارة، فجعل الدم يجمد، فقيل له:

---

(١) الأسر: داء في سرّة البعير إذا برك تجافى، فيقال: بعير أسر، وناقة سراء، وأورد مثله عن أبي عمرو، وابن الأعرابي، واستشهد بالبيت نفسه (م).

(٢) الظراب: جمع ظَرِب ـ كَكَتِف ـ: ما نتأ من الحجارة وحدّ طرفه أو الجبل المنبسط أو الصغير.

(٣) المَلّة: الجمر.

(٤) ليست بالباء وإنما هي بالنون الموحدة من فوق، قال في القاموس: الحِنْو كل ما فيه اعوجاج من البدن كعظم الحجاج واللّحى والضلع والحني ومن غيره كالقلف، والحقف، وهذا هو المراد هنا، وهذا البيت لم يورده صاحب الأغاني ضمن الأبيات (م).

أبيت اللعن لو ذبحت كل بكري على وجه الأرض لم تبلغ دماؤهم الحضيض، ولكن لو صببت عليه الماء ففعل فسال الدم إلى الحضيض، وأمر بالنساء أن يحرقن بالنار، وكان رجل من قيس بن ثعلبة منقطعًا إلى المنذر فكلّمه في سبي بكر بن وائل فأطلقهنّ المنذر، فقال الأعشى يفتخر بشفاعة القيسي إلى المنذر في بكر:

ومنّا الذي أعطاه بالجمع ربّه   على فاقة وللملوك هباتُها
سبايا بني شيبان يوم أُوارة   على النار إذ تجلى به فتياتها

١٧ - يوم أُوارة الثاني

كان عمرو بن المنذر اللخمي قد ترك ابنًا له اسمه أسعد عند زرارة بن عدس التميمي، فلما ترعرع مرّت به ناقة سمينة فبعث بها فرمى ضرعها فشدّ عليه ربُّها سويد أحد بني عبد الله بن دارم التميمي فقتله، وهرب فلحق بمكة فحالف قريشًا، وكان عمرو بن المنذر غزا قبل ذلك ومعه زرارة فأخفق، فلما كان حيال جبلي طيىء قال له زرارة: أي ملك إذا غزا لم يرجع ولم يصب فمل على طيىء فإنك بحيالها، فمال إليهم فأُسر وقتل وغنم فكانت في صدور طيىء على زرارة، فلما قتل سويدٌ أسعد وزرارة يومئذ عند عمرو، فقال له عمرو بن ملقط الطائي يحرّض عمرًا على زرارة:

من مبلغ عمرًا بأن   المرء لم يخلق صبارِه
ها أن عجزة أمّه   بالسفح أسفل من أُواره
فاقتل زرارة لا أرى   في القوم أوفى من زُراره

فقال عمرو: يا زرارة ما تقول! قال: كذب قد علمت عداوتهم فيك. قال: صدقت.

فلما جنّ الليل سار زرارة مجدًّا إلى قومه ولم يلبث أن مرض، فلما حضرته الوفاة قال لابنه: يا حاجب ضم إليك غلمتي في بني نهشل، وقال لابن أخيه عمرو بن عمرو: عليك بعمرو بن ملقط فإنه حرّض عليّ الملك. فقال له: يا عمّاه لقد أسندت إليّ أبعدهما شقة وأشدّهما شوكة.

فلما مات زرارة تهيّأ عمرو بن عمرو في جمع وغزا طيئًا، فأصاب الطريفين طريف بن مالك وطريف بن عمرو وقتل الملاقط، فقال علقمة بن عبدة في ذلك:

ونحن جلبنا من ضرية خيلنا   نجنبها حدّ الأكام قطاقطا
أصبنا الطريف والطريف بن مالك   وكان شفاء لو اصبين الملاقطا

فلما بلغ عمرو بن المنذر وفاة زُرارة غزا بني دارم، وقد كان حلف ليقتلن منهم مائة فسار يطلبهم حتى بلغ أُوارة، وقد أنذروا به فتفرّقوا فأقام مكانه؛ وبثّ سراياه فيهم فأتوه بتسعة وتسعين رجلاً سوى من قتلوه في غاراتهم فقتلهم، فجاء رجل من البراجم شاعر ليمدحه، فأخذه ليقتله ليتمّ مائة، ثم قال: إن الشقيّ وافد البراجم، فذهبت مثلاً، وقيل: إنه نذر أن يحرقهم، فلذلك سمّي محرقاً، فأحرق منهم تسعة وتسعين رجلاً واجتاز رجل من البراجم فشم قتار اللجم؛ فظنّ أن الملك يتّخذ طعامًا فقصده، فقال: من أنت؟ فقال: أبيت اللعن أنا وافد البراجم، فقال: إن الشقي وافد البراجم، ثم أمر به فقذف في النار، فقال جرير للفرزدق:

أين الذين بنار عمرو أُحرقوا ... أم أين أسعد فيكم المسترضع

وصارت تميم بعد ذلك يعيّرون بحب الأكل لطمع البرجمي في الأكل، فقال بعضهم:

إذا ما مات ميّت من تميم ... فسرك أن يعيش فَجِيء بزادِ
بخبزٍ أو بلحمٍ أو بتمرٍ ... أو الشيء الملفّف في البجاد[1]
تراه ينقب البطحاء حولاً ... ليأكل رأس لقمان بن عاد

قيل: دخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبي سفيان، فقال له معاوية: ما الشيء الملفّف في البجاد يا أبا بحر؟ قال: السخينة يا أمير المؤمنين.

والسخينة[2] طعام تعيّر به قريش كما كانت تعيّر تميم بالملفف في البجاد. قال: فلم يُرَ متمازحان أوقَر منهما.

١٨ ـ يوم الرحرحان

كان زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس العبسي هو والد قيس بن زهير صاحب حرب داحس والغبراء سيّد قيس عيلان، فتزوّج إليه ملك الحيرة وهو النعمان بن امرئ القيس جدّ النعمان بن المنذر لشرفه وسُؤدده، فأرسل النعمان إلى زهير يستزيره بعض أولاده فأرسل ابنه شأسًا، وكان أصغر ولده فأكرمه وحباه، فلما انصرف إلى أبيه كساه حللاً وأعطاه مالاً طيبًا، فخرج شأس يريد قومه فبلغ ماء من مياه غنى بن أعصر، فقتله رباح بن الأشل الغنوي وأخذ

(١) البِجاد ـ كَكِتَاب ـ: كساء مخطّط. (٢) السخينة: طعام رقيق يتّخذ من دقيق.

ما كان معه، وهو لا يعرفه، وقيل لزهير: إن شأسًا أقبل من عند الملك وكان آخر العهد به بماء من مياه غني، فسار زهير إلى ديار غني وهم حلفاء في بني عامر بن صعصعة فاجتمعوا عنده، فسألهم عن ابنه فحلفوا أنهم لم يعلموا خبره، قال: لكني أعلمه، فقال له أبو عامر: فما الذي يرضيك منّا؟ قال: واحدة من ثلاث: إما تحيون ولدي، وإما تسلمون إليّ غنيًا حتى أقتلهم بولدي، وإمّا الحرب بيننا وبينكم ما بقينا وبقيتم.

فقالوا: ما جعلت لنا في هذه مخرجًا. أمّا إحياء ولدك فلا يقدر عليه إلّا الله، وأمّا تسليم غنيٍّ إليك فهم يمتنعون مما يمتنع منه الأحرار، وأمّا الحرب بيننا فوالله إننا لنحب رضاك ونكره سخطك، ولكن إن شئت الدية وإنْ شئت تطلب قاتل ابنك فنسلّمه إليك أو تهب دمه فإنه لا يضيع في القرابة والجوار.

فقال: ما أفعل إلّا ما ذكرت. فلما رأى خالد بن جعفر بن كلاب تعدّي زهير على أخواله من غَنِي[1]، قال: والله ما رأينا كاليوم تعدّي رجل على قومه.

فقال له زهير: فهل لك أن تكون طلبتي عندك وأترك غنيًا؟ قال: نعم، فانصرف زهير وهو يقول:

فلولا كلاب قد أخذت قرينتي
بردّ غني أعبدًا ومواليا
ولكن حمتهم عصبة عامرية
يهزّون في الأرض القصار العواليا
مساعير في الهيجا مصاليت في الوغى[2]
أخوهم عزيز لا يخاف الأعاديا
يقيمون في دار الحفاظ تكرّمًا
إذا ما فُنِي[3] القوم أضحت خواليا

(١) بفتح العين المعجمة والنون المكسورة والياء المشدّدة ـ كعَليّ ـ: حيّ من غطفان.
(٢) المساعير: جمع مُسَعِّر وهو موقد النار، والمصاليت: الماضون، والهيجاء، والوغى: الحرب.
(٣) جمع فناء.

ثم إنه أرسل امرأة وأمرها أن تكتم نسبها، وأعطاها لحم جزور سمينة وسيَّرها إلى غني لتبيع اللحم بطيب وتسأل عن حال ولده، فانطلقت المرأة إلى غني وفعلت ما أمرها، فانتهت إلى امرأة رباح بن الأشل وقالت لها: قد زوّجت بنتًا لي وأبغي الطيب بهذا اللحم. فأعطتها طيبًا وحدّثتها بقتل زوجها شأسًا، فعادت المرأة إلى زهير، وأخبرته فجمع خيله، وجعل يغير على غَني حتى قتل منهم مقتلة عظيمة؛ ووقعت الحرب بين بني عبس وبني عامر، وعظم الشر.

ثم إن زهير أخرج في بنيته وأهل بيته في الشهر الحرام إلى عكاظ، فالتقى هو وخالد بن جعفر بن كلاب، فقال له خالد: لقد طال شرّنا منك يا زهير. فقال زهير: أمَا والله ما دامت لي قوّة أدرك بها ثأرًا فلا انصرام له، وكانت هوازن تؤتي زهير بن جذيمة الأتاوة كل سنة بعكاظ، وهو يسومها الخسف وفي أنفسها منه غيظ وحقد، ثم عاد خالد وزهير إلى قومهما، فسبق خالد إلى بلاد هوازن فجمع إليه قومه وندبهم إلى قتال زهير، فأجابوه وتأهّبوا للحرب وخرجوا يريدون زهيرًا وهم على طريقه، وسار زهير حتى نزل على أطراف بلاد هوازن، فقال له ابنه قيس: اُنجُ بنا من هذه الأرض، فإنّا قريب من عدوّنا.

فقال له: يا عاجز، وما الذي تخوّفني به من هوازن وتتّقي شرَّها؟ فأنا أعلم الناس بها.

فقال ابنه: دَعْ عنك اللجاج وأطعني وسِرْ بنا فإني خائف عاديتهم، وكانت تماصر بنت الشريد بن رباح بن يقظة بن عصية السلمية أم ولد زهير، وقد أصاب بعض إخوتها دمًا فلحق ببني عامر وكان فيهم، فأرسله خالد عينًا ليأتيه بخبر زهير، فخرج حتى أتاهم في منزلهم، فعلم قيس بن زهير حاله وأراد هو وأبوه أن يوثقوه ويأخذوه معهم إلى أن يخرجوا من أرض هوازن، فمنعت أخته فأخذوا عليه العهود أن لا يخبر بهم وأطلقوه، فسار إلى خالد ووقف إلى شجرة يخبرها الخبر، فركب خالد ومن معه إلى زهير وهو غير بعيد منهم فاقتتلوا قتالاً شديدًا، والتقى خالد وزهير فاقتتلا طويلاً ثم تعانقا فسقطا على الأرض، وشدّ ورقاء بن زهير على خالد وضربه بسيفه فلم يصنع شيئًا لأنه قد ظاهر بين ذرعين، وحمل جندح بن البكاء وهو ابن امرأة خالد على زهير فقتله، وهو وخالد يعتركان، فثار خالد عنه، وعادت هوازن إلى منازلها، وحمل بنو زهير أباهم إلى بلادهم، فقال

ورقاء بن زهير في ذلك:

رأيت زهيرًا تحت كلكل خالد[١] فأقبلت أسعى كالعجول أبادرُ[٢]
إلى بطلين يعتران كلاهما[٣] يريد رياش السيف والسيف نادر
فشلّت يميني يوم أضرب خالدًا ويمنعه مني الحديد المظاهر[٤]
فيا ليت أني قبل أيام خالد وقبل زهير لم تلدني تماضر
لعمري لقد بشّرت بي إذ ولدتني فماذا الذي ردّت[٥] عليك البشائر
فلا يدعني قومي صريخًا بحرّة لأن كنت مقتولاً ويسلم عامر
فطر خالد إن كنت تسطيع طيرة ولا تقعا إلّا وقلبك حاذر
أتتك المنايا إن بقيت بضربة تفارق منها العيش والموت حاضر

وقال خالد يمنّ على هوازن بقتله زهيرًا:

أبلغ هوازن كيف تكفر بعدما أعتقتهم فتوالدوا أحرارا
وقتلت ربّهم زهيرًا بعدما جدع الأنوف وأكثر الأوتارا
وجعلت مهر نسائهم وديّاتهم عقل الملوك هجائنا وبكارا[٦]

وكان زهير سيّد غطفان، فعلم خالد أن غطفان ستطلبه بسيّدها، فسار إلى النعمان بن امرئ القيس بالحيرة، فاستجاره فأجاره فضرب له قبّة، وجمع بنو زهير لهوازن، فقال الحارث بن ظالم المري: أكفوني حرب هوازن فأنا أكفيكم خالد بن جعفر، وسار الحارث حتى قدم على النعمان فدخل عليه وعنده خالد، وهما يأكلان تمرًا، فأقبل النعمان يسائله فحسده خالد، فقال النعمان: أبيت اللعن هذا رجل لي عنده يد عظيمة قتلت زهيرًا وهو سيّد غطفان فصار هو سيِّدها، فقال الحارث: سأجزيك على يدك عندي، وجعل الحارث يتناول التمر ليأكله فيقع من بين أصابعه من الغضب، فقال عروة لأخيه خالد: ما أردت بكلامه وقد عرفته فتّاكًا، فقال خالد: وما يخوّفني منه؟ فوالله لو رآني نائمًا ما أيقظني.

---

(١) الكلكل: الصدر. (٢) العجول: الثكلى من النساء وغيرهنّ.
(٣) يعتران: يضطربان، والعتر: اشتداد الرمح واضطرابه.
(٤) المظاهر: من لبس درعًا فوق درع. (٥) أي: نفعتك به.
(٦) عقل: الدية.

ثم خرج خالد وأخوه إلى قبَّتهما فشرجاها عليهما، ونام خالد وعروة عند رأسه يحرسه، فلما أظلم الليل انطلق الحارث إلى الخالد فقطع شرج القبَّة ودخلها، وقال لعروة: لئن تكلَّمت قتلتك. ثم أيقظ خالدًا، فلما استيقظ قال: أتعرفني؟ قال: أنت الحارث، قال: خذ جزاء يدك عندي. وضربه بسيفه المعلوب فقتله، ثم خرج من القبَّة وركب راحلته وسار، وخرج عروة من القبَّة يستغيث، وأتى باب النعمان فدخل عليه وأخبره الخبر، فبثّ الرجال في طلب الحارث، قال الحارث: فلما سرت قليلاً خفت أن أكون لم أقتله، فعدت متنكِّرًا واختلطت بالناس ودخلت عليه، فضربته بالسيف حتى تيقَّنت أنه مقتول وعدت فلحقت بقومي، فقال عبد الله بن جعدة الكلابي:

يا حار لو نبّهته لوجدته	لا طائشًا رعشًا ولا معزالاً[١]
شقَّت عليه الجعفرية جيبها	جزعًا وما تبكي هناك ضلالا
فانعوا أبا بحرٍ بكل مجرّب	حران يحسب في القناة هلالا
فليقتلن بخالد سرواتكم	وليجعلنّ لظالم تمثالا

فأجابه الحارث:

تالله قد نبّهته فوجدته	رخو اليدين مواكلاً عسقالا
فعلوته بالسيف أضرب رأسه	حتى أضلّ بسلحه السربالا[٢]

فجعل النعمان يطلبه ليقتله بجاره وهوازن تطلبه لتقتله بسيّدها خالد[٣]، فلحق بتميم فاستجار بضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم، فأجاره على النعمان وهوازن، فلما علم النعمان ذلك جهّز جيشًا إلى بني دارم عليهم ابن الحمس التغلبي، وكان يطلب الحارث بدم أبيه لأنه كان قتله، ثم إن الأحوص بن جعفر أخا خالد جمع بني عامر وسار بهم، فاجتمعوا هم وعسكر النعمان على بني دارم وساروا، فلما صاروا بأدنى مياه بني دارم رأوا امرأة تجني الكمأة ومعها جمل لها فأخذها رجل من غني وتركها عنده، فلما كان الليل نام فقامت إلى جملها فركبته

(١) المعزال: الراعي المنفرد والنازل ناحية من السفر، ومَنْ لا رمح معه ـ والأخير أنسب للمعنى.
(٢) أي أن سرباله ضلّ في سلحه لكثرة ذلك منه.
(٣) لم يكن خالد بن جعفر من هوازن ولكنه من بني عامر إلّا إذا كان يريد أنه بقتله زهيرًا صار سيّد هوازن؛ لأنه أعتقهم منه وإنْ لم يكونوا قومه.

وسارت حتى صبحت بني دارم، وقصدت سيّدهم زُرارة بن عدس فأخبرته الخبر، وقالت: أخذني أمس قوم لا يريدون غيرك ولا أعرفهم.

قال: فصفّيهم لي.

قالت: رأيت رجلاً قد سقط حاجباه فهو يرفعهما بخرقة صغير العينين وعن أمره يصدرون.

قال: ذاك الأحوص وهو سيِّد القوم. قالت: ورأيت رجلاً قليل المنطق إذا تكلّم اجتمع القوم كما تجتمع الإبل لفحلها أحسن الناس وجهًا ومعه ابنان له يلازمانه. قال: ذاك مالك بن جعفر وابناه عامر وطفيل. قالت: ورأيت رجلاً جسيمًا كأن لحيته محمرّة معصفرة. قال: ذاك عوف بن الأحوص. قالت: ورأيت رجلاً هلقامًا[1] جسيمًا. قال: ذاك ربيعة بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب.

قالت: ورأيت رجلاً أسود أخنس قصيرًا. قال: ذاك ربيعة بن قرط بن عبد الله بن أبي بكر. قالت: ورأيت رجلاً أقرن الحاجبين كثير شعر السبلة يسيل لعابه على لحيته إذا تكلّم. قال: ذاك جندح بن البكاء. قالت: ورأيت رجلاً صغير العينين ضيِّق الجبهة يقود فرسًا له معه جَفير[2] لا يفارق يده. قال: ذاك ربيعة بن عقيل بن كعب. قالت: ورأيت رجلاً معه ابنان أصهبان إذا أقبلا رماهما الناس بأبصارهم فإذا أدبرا كانا كذلك. قال: ذاك الصعق بن عمرو بن خويلد بن نفيل وابناه يزيد وزرعة. قالت: ورأيت رجلاً لا يقول كلمة إلّا وهي أحدّ من شفرة. قال: ذاك عبد الله بن جعدة بن كعب. وأمرها زُرارة فدخلت بيتها وأرسل زرارة إلى الرعاء يأمرهم بإحضار الإبل ففعلوا، وأمرهم فحملوا الأهل والأثقال وساروا نحو بلاد بغيض، وفرّق الرسل في بني مالك بن حنظلة فأتوه فأخبرهم الخبر وأمرهم فوجّهوا أثقالهم إلى بلاد بغيض وباتوا معدين، وأصبح بنو عامر وأخبرهم الغنوي حال الظعينة وهربها فسُقِطَ في أيديهم، واجتمعوا يريدون[3] الرأي، فقال بعضهم: كأني بالظعينة قد أتت قومها فأخبرتهم الخبر فحذروا وأرسلوا أهليهم وأموالهم إلى بلاد بغيض وباتوا معدين لكم في السلاح، فاركبوا بنا في طلب نعمهم وأموالهم فإنهم لا يشعرون حتى نصيب حاجتنا وننصرف، فركبوا يطلبون ظعن بني دارم، فلما أبطأ القوم عن زُرارة قال لقومه: إن

(١) الهلقام: الضخم الطويل.
(٢) الجفير: جعبة من جلود لا خشب فيها.
(٣) لعله: يدبرون.

القوم قد توجّهوا إلى ظعنكم وأموالكم فسيروا إليهم، فساروا مجدّين فلحقوهم قبل أن يصلوا إلى الظعن والنعم، فاقتتلوا قتالًا شديدًا فقتلت بنو مالك بن حنظلة بن الحمس التغلبي رئيس جيش النعمان، وأسرت بنو عامر معبد بن زُرارة وصبر بنو دارم حتى انتصف النهار، وأقبل قيس بن زهير فيمن معه من ناحية أخرى، فانهزمت بنو عامر وجيش النعمان وعادوا إلى بلادهم ومعبد أسير مع بني عامر، فبقي معهم حتى مات، وفي تلك الأيام أيضًا مات زُرارة بن عدس.

وقيل في استجارة الحارث ببني تميم غير ذلك، وهو أنّ النعمان طلب شيئًا يغيظ به الحارث بعد قتل خالد وهربه، فقيل له: كان قصد الحيرة ونزل على عياض بن وهب التميمي وهو صديق له، فبعث إليه النعمان فأخذ إبلًا له فركب الحارث وأتى الحيرة متخفّيًا واستنقذ ماله من الرعاة وردَّه عليه، وطلب شيئًا يغيظ به النعمان، فرأى ابنه غضبان فضرب رأسه بالسيف فقتله، وبلغ النعمان الخبر فبعث في طلبه فلم يدركه، فقال الحارث في ذلك:

أخصى حمار بات يكدم نجمة ... أتؤكل جاراتي وجارك سالم؟

فإن تك أذوادًا أصبت ونسوةً ... فهذا ابن سلمى رأسه متفاقم

علوت بذي الحيَّات مفرق رأسه ... ولا يركب المكروه إلّا الأكارم

فتكت به كما فتكت بخالدٍ ... وكان سلاحي تحتويه الجماجم

بدأت بتلك وأنثنيت بهذه ... وثالثة تبيض منها المقادم

حسبت أبا قابوس أنك مخفري ... ولما تذق ثكلًا وأنفك راغم

كذا قال بعضهم، وقيل: إن المقتول كان شرحبيل بن الأسود بن المنذر، وكان الأسود قد ترك ابنه شرحبيل عند سنان بن أبي حارثة المرّي ترضعه زوجته، فمن هناك كان لسنان مال كثير، وكان ابنه هرم يعطى منه، فجاء الحارث متخفّيًا فاستعار سرج سنان، ولا يعلم سنان، ثم أتى امرأة سنان، فقال: يقول بعلك: ابعثي بشرحبيل بن الملك مع الحارث بن ظالم حتى يستأمن به ويتخفّر به وهذا سرجه علامة، فزيَّنته ودفعته إليه، فأخذه وقتله وهرب، فغزا الأسود بني ذبيان وبني أسد بشط أربل، فقتل فيهم قتلًا ذريعًا وسبى واستأصل الأموال، وأقسم ليقتلنّ الحارث، فسار الحارث متخفّيًا إلى الحيرة ليفتك بالأسود، فبينما هو في منزله إذ سمع صارخة تقول: أنا في جوار الحارث بن ظالم وعرف حالها، وكان الأسود قد أخذ لها صرمة من الإبل؛ فقال لها: انطلقي غدًا إلى مكان كذا. وأتاه الحارث فلما

وردت إبل النعمان أخذ مالها فسلّمه إليها وفيها ناقة تسمّى اللّقاع، فقال الحارث في ذلك:

إذ سمعتْ حنّة اللقاع فادعي أبا ليلى فَنِعْم الدَّاعي
يمشي بعضب صارم قطّاع يفري به مجامع الصداع

ثم أقبل يطلب مجيرًا فلم يجره أحد من الناس، وقالوا: مَنْ يجيرك على هوازن والنعمان وقد قتلت ولده! فأتى زُرارة بن عدس وضمرة بن ضمرة فأجاراه على جميع الناس، ثم إن عمرو بن الأطنابة الخزرجي لما بلغه قتل خالد بن جعفر، وكان صديقًا له، قال: والله لو وجده يقظان ما أقدم عليه ولوددت أني لقيته.

وبلغ الحارث قوله، وقال: والله لآتينه في رحله، ولا ألقاه إلّا ومعه سلاحه، فبلغ ذلك ابن الأطنابة فقال أبياتًا، منها:

أبلغ الحارث بن ظالم المو عد والناذر النذور عليا
إنما تقتل النيام ولا تقـ ـتل يقظان ذا سلاح كميا

فبلغ الحارث شعره، فسار إلى المدينة وسأل عن منزل ابن الأطنابة فلما دنا منه نادى: يا بن الأطنابة أغثني، فأتاه عمرو، فقال: من أنت؟ قال: رجل من بني فلان خرجتُ أريد بني فلان فعرض لي قوم قريبًا منك فأخذوا ما كان معي فاركب معي حتى نستنقذه. فركب معه ولبس سلاحه ومضى معه، فلما أبعد عن منزله عطف عليه، وقال: أنائم أنت أم يقظان؟ فقال: يقظان. فقال: أنا أبو ليلى وسيفي المعلوب، فألقى ابن الأطنابة سيفه، وقيل: رمحه، وقال: قد أعجلتني فأمهلني حتى آخذ سيفي. فقال: خذه، قال: أخاف أن تعجلني عن أخذه. قال: لك ذمّة ظالم لا أعجلك عن أخذه. قال: فوَذِمَّة الأطنابة لا آخذه. فانصرف الحارث وهو يقول أبياتًا منها:

بلغتنا مقالة المرء عمرو فالتقينا وكان ذاك بديا
فهممنا بقتله إذ برزنا ووجدناه ذا سلاح كميا
غير ما نائم يروّع بالفتـ ـك ولكن مقلّدًا مشرفيا
فمننا عليه بعد علوٍّ بوفاء وكنت قدمًا وفيًّا

ثم إن الحارث لما علم أن النعمان قد جدَّ في طلبه وهوازن لا تقعد عن الطلب بثأر خالد خرج متنكّرًا إلى الشام واستجار بيزيد بن عمرو فأكرمه وأجاره،

وكان ليزيد ناقة محماة في عنقها مدية وزناد وملح ليمتحن بذلك رعيّته، فوحمت زوجة الحارث واشتهت شحمًا ولحمًا، فأخذ الحارث الناقة فأدخلها شعبًا فذبحها وحمل إلى امرأته من شحمها ولحمها ورفع منه، وفقدت الناقة فطلبت فوجدت عقيرة بالوادي، فأرسل الملك إلى كاهن فسأله عنها، فذكر له أن الحارث نحرها فأرسل امرأة بطيب تشتري من لحمها من امرأة الحارث، فأدركها الحارث وقد اشترت اللحم فقتلها ودفنها في البيت، فسأل الملك الكاهن عن المرأة فقال: قتلها مَنْ نحر الناقة، وإذا كرهت أن تفتش بيته فتأمر الرجل بالرحيل، فإذا رحل فتّشت بيته ففعل ذلك؛ فلما رحل الحارث فتّش الكاهن بيته فوجد المرأة وأحسّ الحارث بالشرّ فعاد إلى الكاهن فقتله، فأُخِذَ الحارث وأحضر عند المالك فأمر بقتله، فقال: إنك قد أجرتني فلا تغدر بي.

فقال: إن غدرتُ بك مرة واحدة فقد غدرتَ بي مرارًا، فقتله.

١٩ ـ حرب داحس والغبراء
وهي بين عبس وذبيان

كان سبب ذلك أن قيس بن زهير بن جذيمة العبسي سار إلى المدينة ليتجهّز لقتال عامر والأخذ بثأر أبيه، فأتى أُحيحة بن الجلاح يشتري منه درعًا موصوفة، فقال له: لا أبيعها ولولا أن تذمني بنو عامر لوهبتها منك ولكن اشترها بابن لبون، ففعل ذلك وأخذ الدرع وتسمّى «ذات الحواشي» ووهبه أُحيحة أيضًا أدراعًا وعاد إلى قومه وقد فرغ من جهازه، فاجتاز بالربيع بن زياد العبسي فدعاه إلى مساعدته على الأخذ بثأره فأجابه إلى ذلك، فلمّا أراد فراقه نظر الربيع إلى عيبته[1]، فقال: ما في حقيبتك؟ قال: متاع عجيب لو أبصرته لراعك.

وأناخ راحلته، فأخرج الدرع من الحقيبة فأبصرها الربيع فأعجبته ولبسها، فكانت في طوله، فمنعها من قيس ولم يعطه إيّاها وتردّدت الرسل بينهما في ذلك، ولجّ قيس في طلبها ولجّ الربيع في منعها، فلما طالت الأيام على ذلك سيَّر قيس أهله إلى مكّة وأقام ينتظر غرّة الربيع، ثم إن الربيع سَيَّر إبله وأمواله إلى مرعى كثير الكلأ، وأمر أهله فظعنوا وركب فرسه وسار إلى المنزل، فبلغ الخبر قيسًا فسار في أهله وإخوته فعارض ظعائن الربيع وأخذ زمام أمه فاطمة بنت الخرشب وزمام

(١) العيبة: زبيل من أُدم، وما يُجعل فيه الثياب، ومن الرجل موضع سره.

زوجته، فقالت فاطمة أمّ الربيع: ما تريد يا قيس؟ قال: أذهب بكنّ إلى مكة فأبيعكن بها بسبب درعي. قالت: وهي من ضماني وخلّ عنّا. ففعل. فلما جاءت إلى ابنها قالت له في معنى الدرع، فحلف أنه لا يردّ الدرع، فأرسلت إلى قيس أعلمته بما قال الربيع، فأغار على نعم الربيع، فاستاق منها أربعمائة بعير. وسار بها إلى مكّة فباعها، واشترى بها خيلاً، وتبعه الربيع فلم يلحقه، فكان فيما اشترى من الخيل داحس والغبراء.

وقيل: إنّ داحسًا كان من خيل بني يربوع، وإنّ أباه كان أخذ فرسًا لرجل من بني ضبّة يقال له أنيف بن جبلة، وكان الفرس يسمّى السبط وكانت أمّ داحس لليربوعي، فطلب اليربوعي من الضبي أن ينزي فرسه على حجره فلم يفعل، فلما كان الليل عمد اليربوعي إلى فرس الضبي، فأخذه فأنزاه على فرسه، فاستيقظ الضبي فلم يرَ فرسه فنادى في قومه فأجابوه وقد تعلق باليربوعي فأخبرهم الخبر، فغضبت ضبّة من ذلك، فقال لهم: لا تعجلوا دونكم نطفة فرسكم فخذوها.

فقال القوم: قد أنصف. فسطا عليها رجل من القوم فدسّ يده في رحمها، فأخذ ما فيها، فلم تزد الفرس إلّا لقاحًا، فنتجت مهرًا فسمّي داحسًا بهذا السبب، فكان عند اليربوعي ابنان له. وأغار قيس بن زهير على بني يربوع فنهب وسبى، ورأى الغلامين أحدهما على داحس، والآخر على الغبراء، فطلبهما فلم يلحقهما فرجع وفي السبي أمّ الغلامين وأختان لهما وقد وقع داحس والغبراء في قلبه، وكان ذلك قبل أن يقع بينه وبين الربيع ما وقع، ثم جاء وفد بني يربوع في فداء الأسرى والسَّبْي، فأطلق الجميع إلّا أم الغلامين وأختيهما، وقال: إن أتاني الغلامان بالمهر والفرس الغبراء وإلّا فلا، فامتنع الغلامان من ذلك. فقال شيخ من بني يربوع كان أسيرًا عند قيس أبياتًا وبعث بها إلى الغلامين، وهي:

إن مهرًا فدا الرباب وحملا ... وسعاد الخير مهر أناسِ
ادفعوا داحسًا بهن سراعًا ... إنها من فعالها الأكياس
دونها والذي يحجّ له الناس ... سبايا يبعن بالأفراس
إن قيسًا يرى الجواد من الخيـ ... ـل حياة في متلف الأنفاس
يشتري الطرف بالجراجرة[1] الجـ ... ـلّة يعطي عفوًا بغير مكاس

---

(١) الجراجرة: جمع (جرجار) وهو من الإبل الكثير الصوت.

فلما انتهت الأبيات إلى بني يربوع قادوا الفرسين إلى قيس وأخذوا النساء، وقيل: إن قيسًا أنزى داحسًا على فرسٍ له فجاءت بمُهرة فسمّاها الغبراء، ثم إن قيسًا أقام بمكة فكان أهلها يفاخرونه، وكان فخورًا، فقال لهم: نَحُوا كعبتكم عنّا وحرمكم وهاتوا ما شئتم، فقال له عبد الله بن جدعان: إذا لم نفاخرك بالبيت المعمور وبالحرم الآمن، فَبِمَ نفاخرك؟ فملّ قيس مفاخرتهم وعزم على الرحلة عنهم، وسرَّ ذلك قريشًا لأنهم قد كانوا كرهوا مفاخرته، فقال لإخوته: ارحلوا بنا من عندهم أوّلًا وإلّا تفاقم الشرّ بيننا وبينهم، والحقوا ببني بدر فإنهم أكفّاؤنا في الحسب وبنو عمّنا في النسب وأشراف قومنا في الكرم، ومن لا يستطيع الربيع أن يتناولنا معهم، فلحق قيس وإخوته ببني بدر، وقال في مسيره إليهم:

أسيـر إلـى بنـي بـدر بـأمـرٍ ... هـم فـيـه عـلـيـنـا بـالـخـيـار
فـإن قـبـلوا الـجـوار فـخـير قـوم ... وإن كـرهـوا الـجـوار فـغـيـر عـار
أتينا الحارث الخير بن كعب ... بـنـجـران وأي لـجـا بـجـار
فـجـاورنـا الـذيـن إذا أتـاهـم ... غـريـب حـلّ فـي سـعـة الـقـرار
فـيأمـن فـيـهـم ويكـون مـنـهـم ... بـمـنـزلـة الـشـعـار مـن الـدّثـار
وإن نـفـرد بـحـرب بـنـي أبـيـنـا ... بـلا جـارٍ فـإن الـلّـه جـاري

ثم نزل ببني بدر، فنزل بحذيفة فأجاره هو وأخوه حمل بن بدر، وأقام فيهم وكان معه أفراس له ولإخوته لم يكن في العرب مثلها، وكان حذيفة يغدو ويروح إلى قيس فينظر إلى خيله فيحسده عليها، ويكتم ذلك في نفسه، وأقام قيس فيهم زمانًا يكرمونه وإخوته، فغضب الربيع ونقم ذلك عليهم وبعث إليهم بهذه الأبيات:

ألا أبـلـغ بـنـي بـدرٍ رسـولاً ... على ما كان من شنأ ووترٍ[1]
بـأنـي لـم أزل لـكـم صـديـقًـا ... أدافـع عـن فـزارة كـل أمـر
أُسـالـم سـلـمـكـم وأردّ عـنـكـم ... فـوارس أهـل نـجـران وحـجـر
وكـان أبـي ابـن عـمّـكـم زيـاد ... صـفـيّ أبـيـكـم بـدر بـن عـمـرو
فـألـجـأتـم أخـا الـغـدرات قـيـسًـا ... فـقـد أفـعـمـتـم إيـغـار صـدري
فـحـسـبـي مـن حـذيـفـة ضـمّ قـيـس ... وكـان الـبـدء مـن حـمـل بـن بـدر
فـأمـا تـرجـعـوا أرجـع إلـيـكـم ... وإن تـابـوا فـقـد أوسـعـت عـذري

(١) أي: مني عداوة وانتقام.

فلم يتغيّروا عن جوار قيس، فغضب الربيع وغضبت عبس لغضبه، ثم إن حذيفة كره قيسًا وأراد إخراجه عنهم، فلم يجد حجة وعزم قيس على العمرة، فقال لأصحابه: إني قد عزمت على العمرة فإيّاكم أن تلابسوا حذيفة بشيء، واحتملوا كل ما يكون منه حتى أرجع فإني قد عرفت الشرّ في وجهه، وليس يقدر على حاجته منكم إلّا أن تراهنوه على الخيل ـ وكان ذا رأي لا يخطئ فيما يريده ـ وسار إلى مكّة؛ ثم إن فتى من عبس يقال له: ورد بن مالك أتى حذيفة فجلس إليه، فقال له ورد: لو اتّخذت من خيل قيس فحلاً يكون أصلاً لخيلك، فقال حذيفة: خيلي خير من خيل قيس، ولجأ في ذلك إلى أن تراهنا على فرسين من خيل قيس وفرسين من خيل حذيفة والرهن عشرة أذواد، وسار ورد فقدم على قيس بمكّة فأعلمه الحال، فقال له: أراك قد أوقعتني في بني بدر ووقعت معي، وحذيفة ظلوم لا تطيب نفسه بحق ونحن لا نقرّ له بضيم.

ورجع قيس من العمرة فجمع قومه وركب إلى حذيفة وسأله أن يفكّ الرهن فلم يفعل، فسأله جماعة فزارة وعبس فلم يجب إلى ذلك، وقال: إن أقرّ قيس أن السبق لي وإلّا فلا، فقال أبو جعدة الفزاري:

آل بـدر دعـوا الـرهـان فـإنّـا ... قد مللنا اللجاج عند الرهانِ
ودعـوا الـمـرء فـي فـزارة جـارًا ... إن مـا غـاب عـنـكـم كـالـعـيـان
ليت شعري عن هاشم وحصين ... وابـن عـوف وحـارث وسـنـان
حـيـن يـأتـيـهـم لـجـاجـك قـيـسًـا ... وأيُّ صـاحٍ أتـيـت أم نـشـوان

وسأل حذيفة إخوته وسادات أصحابه في ترك الرهان ولجَّ فيه، وقال قيس: علام تراهنّي؟ قال: على فرسك داحس والغبراء وفرسيّ الخطار والحنفاء. وقيل: كان الرهن على فرسي داحس والغبراء، قال قيس: داحس أسرع، وقال حذيفة: الغبراء أسرع، وقال لقيس: أريد أن أعلمك أن بصري بالخيل أثقب من بصرك، والأوّل أصح.

فقال له قيس: نفس في الغاية وأرفع في السبق، فقال حذيفة: الغاية من إبليّ إلى ذات الآصاد وهو قدر مائة وعشرين غلوة والسبق مائة بعير، وضمروا الخيل، فلما فرغوا قادوا الخيل إلى الغاية، وحشدوا ولبسوا السلاح، وتركوا السبق على يد عقال بن مروان بن الحكم القيسي، وأعدّوا الأمناء على إرسال الخيل؛ وأقام حذيفة رجلاً من بني أسد في الطريق وأمره أنْ يلقي داحسًا في وادي ذات الآصاد إنْ مرَّ به

سابقًا فيرمي به إلى أسفل الوادي، فلما أُرسلت الخيل سَبَقها داحس سبقًا بَيِّنًا والناس ينظرون إليه، وقيس وحذيفة على رأس الغاية في جميع قومهما، فلما هبط داحس في الوادي عارضه الأسدي، فلطم وجهه فألقاه في الماء فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلّا وقد فاتته الخيل، وأمّا راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ وعاد إلى الطريق واجتمع مع فرسي حذيفة ثم سقطت الحنفاء وبقي الغبراء والخطار، فكانا إذا أحزنا سبق الخطار وإذا أسهلا سبقت الغبراء، فلما قربا من الناس وهما في وعث من الأرض تقدم الخطار، فقال حذيفة: سبقتك يا قيس. فقال: رويدك يعلونّ الجدد، فذهبت مثلًا؛ فلما استوت بهما الأرض قال حذيفة: خدع والله صاحبنا. فقال قيس: ترك الخداع من أجرى من مائة وعشرين، فذهبت مثلاً.

ثم إن الغبراء جاءت سابقة وتبعها الخطار فرس حذيفة ثم الحنفاء له أيضاً، ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله فأخبر الغلام قيسًا بما صنع بفرسه، فأنكر حذيفة ذلك وادّعى السبق ظُلمًا، وقال: جاء فرساي متتابعتين، ومضى قيس وأصحابه حتى نظروا إلى القوم الذين حبسوا داحسًا واختلفوا؛ وبلغ الربيع بن زياد خبرهم فسرَّه ذلك؛ وقال لأصحابه: هلك والله قيس وكأنّي به إن لم يقتله حذيفة، وقد أتاكم يطلب منكم الجوار، أمَا والله لئن فعل ما لنا من ضمّه من بدٍّ.

ثم إن الأسدي ندم على حبس داحس، فجاء إلى قيس واعترف بما صنع فَسَبَّه حذيفة، ثم إن بني بدر قصَّروا بقيسٍ وإخوته وآذوهم بالكلام فعاتبهم قيس فلم يزدادوا إلّا بغيًا عليه وبذاءً له؛ ثم إن قيسًا وحذيفة تناكرا في السبق حتى هَمّا بالمؤاخذة فمنعهما الناس، وظهر لهم بغي حذيفة وظلمه ولجّ في طلب السبق، فأرسل ابنه ندبة إلى قيس يطالبه به، فلما أبلغه الرسالة طعنه فقتله وعادت فرسه إلى أبيه.

ونادى قيس: يا بني عبس الرحيل فرحلوا كلهم، ولما أتت الفرس حذيفة علم أنّ ولده قُتِلَ، فصاح في الناس وركب فيمن معه وأتى منازل بني عبس فرآها خالية، ورأى ابنه قتيلًا فنزل إليه وقبَّل بين عينيه ودفنوه؛ وكان مالك بن زهير أخو قيس متزوّجًا في فزارة وهو نازل فيهم، فأرسل إليه قيس: إني قد قتلت ندبة بن حذيفة ورحلت فألحق بنا وإلّا قُتِلْتَ، فقال: إنما ذنب قيس عليه ولم يرحل. فأرسل قيس إلى الربيع بن زياد يطلب منه العود إليه والمقام معه؛ إذ هم عشيرة وأهل فلم يجبه

ولم يمنعه وكان مفكّرًا في ذلك، ثم إن بني بدر قتلوا مالك بن زهير أخا قيس، وكان نازلاً فيهم، فبلغ مقتله بني عبس والربيع بن زياد فاشتدّ ذلك عليهم، وأرسل الربيع إلى قيس عينًا يأتيه بخبره، فسمعه يقول:

أينجو بنو بدر بمقتل مالكٍ ... ويخذلنا في النائبات ربيع
وكان زياد قبله يتّقي به ... من الدهر أن يوم ألم فظيع
فقل لربيع يحتذي فعل شيخه ... وما الناس إلا حافظ ومضيع
وإلّا فما لي في البلاد إقامة ... وأمر بني بدر عليَّ جميع

فرجع الرجل إلى الربيع فأخبره فبكى الربيع على مالك، وقال:

منع الرقاد فما أغمض ساعةً ... جزعًا من الخبر العظيم الساري
أفبعد مقتل مالك لمضيعة ... يرجو النساء عواقب الأطهار
من كان محزونًا بمقتل مالكٍ ... فليأتِ نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسرًا يندبنه ... ويقمن قبل تبلّج الأسحار
يضربن حرّ وجوههنّ على فتًى ... ضخم الدسيعة غير ما خوّار
قد كنَّ يكنن الوجوه تستّرًا ... فاليوم حين برزن للنظار

وهي طويلة.

فسمعها قيس فركب هو وأهله وقصدوا الربيع بن زياد وهو يصلح سلاحه، فنزل إليه قيس وقام الربيع فاعتنقا وبكيا وأظهرا الجزع لمصاب مالك، ولقي القوم بعضهم بعضًا فنزلوا، فقال قيس للربيع: إنه لم يهرب منك مَن لجأ إليك ولم يستغنِ عنك مَن استعان بك، وقد كان لك شرّ يوميّ فليكن لي خير يوميك، وإنّما أنا بقومي وقومي بك وقد أصاب القوم مالكًا لست أهم بسوء لأني إن حاربت بني بدر نَصَرتهُم بنو ذبيان، وإنْ حاربتني خَذلني بنو عبس إلّا أن تجمعهم عليّ وأنا والقوم في الدماء سواء قتلت أبنهم وقتلوا أخي، فإن نصرتَني طمعتَ فيهم، وإن خذلتني طمعوا فيّ.

فقال الربيع: يا قيس إنه لا ينفعني أن أرى لك من الفضل ما لا أراه لي، ولا ينفعك أن ترى لي ما لا أراه لك، وقد مال عليّ قتل مالك وأنت ظالم ومظلوم، ظلموك في جوادك، وظلمتهم في دمائهم وقتلوا أخاك بابنهم فإن يبوء الدم بالدم فعسى أن تلقح الحرب أقم معك وأحبّ الأمرين إليّ مسالمتهم ونخلو بحرب هوازن،

وبعث قيس إلى أهله وأصحابه، فجاؤوا ونزلوا مع الربيع، وأنشدهم عنترة بن شداد مرثيته في مالك:

فلله عينا من رأى مثل مالكٍ عقيرة قوم إن جرى فرسانِ
فليتهما لم يطعما الدهر بعدها وليتهما لم يجمعا لرهانِ
وليتهما ماتا جميعًا ببلدة وأخطاهما قيس فلا يريان
لقد جلبا جلبًا لمصرع مالكٍ وكان كريمًا ماجدًا لهجان
وكان إذا ما كان يوم كريهة فقد علموا أني وهو فتيان
وكنّا لدى الهيجاء نحمي نساءنا ونضرب عند الكرب كل بنان
فسوف ترى إن كنت بعدك باقيًا وأمكنني دهري وطول زماني
فأقسم حقًّا لو بقيت لنظرة لقرّت بها العينان حين تراني

وبلغ حذيفة أنّ الربيع وقيسًا اتّفقا، فشقّ ذلك عليه واستعدّ للبلاء، وقيل: إن بلاد عبس كانت قد أجدبت فانتجع أهلها بلاد فزارة وأخذ الربيع جوارًا من حذيفة وأقام عندهم، فلما بلغه مقتل مالك قال لحذيفة: لي ذمّتي ثلاثة أيام، فقال حذيفة: ذلك لك. فانتقل الربيع من بني فزارة، فبلغ ذلك حمل بن بدر فقال لحذيفة أخيه: بئس الرأي رأيت قتلت مالكاً وخلّيت سبيل الربيع، والله ليضرمنّها عليك نارًا.

فركبا في طلب الربيع ففاتهم، فعلما أنه قد أضمر الشرّ، واتّفق الربيع وقيس، وجمع حذيفة قومه وتعاقدوا على عبس، وجمع الربيع وقيس قومهما واستعدّوا للحرب. فأغارت فزارة على بني عبس فأصابوا نعمًا ورجالاً، فحميت عبس وأجتمعت للغارة، فنذرت بهم فزارة فخرجوا إليهم فالتقوا على ماءٍ يقال له العذق، وهي أوّل وقعة كانت بينهم، فاقتتلوا قتالاً شديدًا وقتل عوف بن يزيد قتله جندب بن خلف العبسي، وانهزمت فزارة وقتلوا قتلاً ذريعًا، وأُسر الربيع بن زياد حذيفة بن ندبة وكان حرّ بن الحارث العبسي قد نذر إنْ قدر على حذيفة أن يضربه بالسيف وله سيف قاطع يسمّى الأصرم، فأراد ضربه بالسيف لما أسر وفاء بنذره، فأرسل الربيع إلى امرأته، فغيّبت سيفه ونهوه عن قتله وحذّروه عاقبة ذلك، فأبى إلّا ضربه فوضعوا عليه الرجال فضربه فلم يصنع السيف شيئًا، وبقي حذيفة أسيرًا، فأجتمعت غطفان وسعوا في الصلح فأصطلحوا على أنْ يهدروا دم بدر بن حذيفة بدم مالك بن زهير، ويعقلوا عوف بن بدر، ويعطوا حذيفة عن ضربته التي ضربه حرّ مائتين من الإبل وأن يجعلوها عشارًا كلها وأربعة أعبد، وأهدر حذيفة دماء من قتل من فزارة في الوقعة وأطلق من

الأسر، فلما رجع إلى قومه ندم على ذلك، وساءت مقالته في بني عبس، وركب قيس بن زهير وعمارة بن زياد، فمضيا إلى حذيفة وتحدّثا معه، فأجابهما إلى الاتفاق، وأن يردّ عليهما الإبل التي أخذ منهما، وكانت توالدت عنده، فبينما همُ في ذلك إذ جاءهم سنان بن أبي حارثة المري، فقبح رأي حذيفة في الصلح، وقال: إنْ كنتَ لا بدّ فاعلاً فأعطهم إبلاً عجافًا مكان إبلهم واْحبس أولادها، فوافق ذلك رأي حذيفة، فأبْى قيس وعمارة ذلك، وقيل: إن الإبل التي طلبوها منه هي إبل كان قد أخذها سبقًا من قيس، وقيل أيضًا: إن مالك بن زهير قتل بعد هذه الوقعة المذكورة، قال حميد بن بدر في ذلك:

قتلنا بعوفٍ مالكًا وهو ثارنا ومن يبتدع شيئًا سوى الحق يظلم

وجعل سنان يحثّ حذيفة على الحرب فتيسّروا لها، ثم إن الأنصار بلغهم ما عزموا عليه فاتّفق جماعة من رؤسائهم وهم عمرو بن الأطنابة، ومالك بن عجلان، وأُحيحة بن الجلاح، وقيس بن الخطيم وغيرهم، وساروا ليصلحوا بينهم، فوصلوا إليهم وتردّدوا في الاتفاق، فلم يجب حذيفة إلى ذلك وظهر لهم بغيه، فحذروه عاقبته، وعادوا عنه، وأغار حذيفة على عبس، وأغارت عبس على فزارة وتفاقم الشرّ، وأرسل حذيفة أخاه حملاً فأغار وأسر ريان بن الأسلع بن سفيان وشدّه وثاقًا، وحمله إلى حذيفة فأطلقه ليرهنه ابنيه وجيّر ابن أخيه عمرو بن الأسلع ففعل ريان ذلك، ثم سار قيس إلى فزارة فلقي منهم جمعًا! فيهم مالك بن بدر، فقتله قيس وانهزمت فزارة، فأخذ حينئذ حذيفة ولدي ريان فقتلهما وهما يستغيثان يا أبتاه حتى ماتا، وأمّا ابن أخيه فمنعه أخواله.

ولما قتل مالك والغلامان، اشتدّت الحرب بين الفريقين وأكثرها في فزارة ومَنْ معها، ففي بعض الأيام التقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا دامت الحرب بينهم إلى آخر النهار، وأبصر ريان بن الأسلع زيد بن حذيفة فحمل عليه فقتله وانهزمت فزارة وذبيان، وأدرك الحارث بن بدر فقتل، ورجعت عبس سالمة لم يصب منها أحد، فلما قتل زيد والحارث، جمع حذيفة جميع بني ذبيان، وبعث إلى أشجع وأسد بن خزيمة فجمعهم، فبلغ ذلك بني عبس فضمّوا أطرافهم، وأشار قيس بن زهير بالسبق إلى ماء العقيقة ففعلوا ذلك، وسار حذيفة في جموعه إلى عبس، ومشى السفراء بينهم، فحلف حذيفة أنه لا يصلح حتى يشرب من ماء العقيقة، فأرسل إليه قيس منه في سقاء، وقال: لا أترك حذيفة يخدعني، واصطلحوا على أنْ تعطي بنو عبس حذيفة

ديّات من قُتِل له، ووضعوا الرهائن عنده إلى أن يجمعوا الديات وهي عشر: وكانت الرهائن ابنًا لقيس بن زهير وابنًا للربيع بن زياد، فوضعوا أحدهما عند قطبة بن سنان والآخر عند رجل من بكر بن وائل أعمى، فعيّر بعض الناس حذيفة بقبول الدية، فحضر هو وأخوه حمل عند قطبة بن سنان والبكري، وقال: ادفعا إلينا الغلامين لنكسوهما ونسرحهما إلى أهلهما، فأما قطبة فدفع إليهما الغلام الذي عنده وهو ابن قيس، وأمّا البكري فأمتنع من تسليم مَنْ عنده، فلما أخذا ابن قيس عادا فلقيا في الطريق ابنًا لعمارة بن زياد العبسي وابن عم له فأخذاهما وقتلاهما مع ابن قيس.

فلما بلغ ذلك بني عبس أخذوا ما كانوا جمعوا من الديات، فحملوا عليه الرجال واشتروا السلاح، ثم خرج قيس في جماعة فلقوا ابنًا لحذيفة ومعه فوارس من ذبيان فقتلوهم، فجمع حذيفة وسار إلى عبس وهم على ماء يقال له «عراعر» فاقتتلوا، فكان الظفر لفزارة ورجعت سالمة، وجد حذيفة في الحرب وكرهها أخوه حمل وندم على ما كان، وقال لأخيه في الصلح فلم يجب إلى ذلك، وجمع الجموع من أسد وذبيان وسائر بطون غطفان وسار نحو بني عبس، فاجتمعت عبس وتشاوروا في أمرهم، فقال لهم قيس بن زهير: إنه قد جاءكم ما لا قِبَلَ لكم به، وليس لبني بدر إلّا دماؤكم والزيادة عليكم، وأمّا من سواهم فلا يريدون غير الأموال والغنيمة والرّأي أننا نترك الأموال بمكانها ونترك معها فارسين على داحس وعلى فرس آخر جواد، ونرحل نحن ونكون على مرحلة من المال، فإذا جاء القوم إلى الأموال سار إلينا الفارسان، فأعلمانا وصولهم، فإن القوم يشتغلون بالنهب وحيازة الأموال، وإن نهاهم ذوو الرأي عن ذلك، فإن العامة تخالفهم وتنتقض تعبيتهم، ويشتغل كلُّ إنسان بحفظ ما غنم، ويعلّقون أسلحتهم على ظهور الإبل ويأمنون، فنعود نحن إليهم عند وصول الفارسين فندركهم، وهم على حال تفرّق وتشتّت فلا يكون لأحدهم همّة إلّا نفسه، ففعلوا ذلك. وجاء حذيفة ومن معه فاشتغلوا بالنهب، فنهاهم حذيفة وغيره فلم يقبلوا منه، وكانوا على الحال التي وصف قيس وعادت بنو عبس، وقد تفرّقت أسد وغيرهم، وبقي بنو فزارة في آخر الناس، فحملوا عليهم من جوانبهم، فقتل مالك بن سبيع التغلبي سيّد غطفان، وانهزمت فزارة وحذيفة معهم، وانفرد في خمسة فوارس وجدَّ في الهرب، وبلغ خبره بني عبس فتبعه قيس بن زهير والربيع بن زياد وقرواش بن عمرو بن الأسلع وريان بن الأسلع الذي قتل حذيفة ابنيه وتبعوا أثرهم في الليل، وقال قيس: كأني بالقوم وقد وردوا جفر الهباءة ونزلوا فيه، فساروا ليلتهم كلّها حتى أدركوهم مع طلوع الشمس

في جفر الهباءة في الماء، وقد أرسلوا خيولهم فأخذوا بجمعها فحال قيس وأصحابه بينهم وبينها، وكان مع حذيفة في الجفر أخوه حمل بن بدر وابنه حصن بن حذيفة وغيرهم، فهجم عليهم قيس والربيع ومن معهما، وهم ينادون: لبّيكم لبّيكم، يعني أنهم يجيبون نداء الصبيان لما قتلوا ينادون يا أبتاه، فقال لهم قيس: يا بني بكر كيف رأيتم عاقبة البغي، فناشدوهم الله والرّحم فلم يقبلوا منهم، ودار قرواش بن عمرو حتى وقف خلف ظهر حذيفة فضربه فدقّ صلبه، وكان قرواش قد ربَّاه حذيفة حتى كبر عنده في بيته، وقتلوا حملاً أخاه وقطعوا رأسيهما، واستبقوا حصن ابن حذيفة لصباه، وكان عدد من قتل في هذه الوقعة من فزارة وأسد وغطفان ما يزيد على أربعمائة قتيل، وقُتِل من عبس ما يزيد على عشرين قتيلاً، وكانت فزارة تسمّي هذه الوقعة «البوار»، وقال قيس بن زهير:

أقام على الهباءة خير ميت ... وأكرمه حذيفة لا يريم
لقد فجعت به قيس جميعًا ... موالي القوم والقوم الصميم
وعمَّ به لمقتله بعيد ... وخصَّ به لمقتله حميم

وهي طويلة، وقال أيضًا:

ألم ترَ أن خير الناس أمسى ... على جفر الهباءة لا يريم
فلولا ظلمه ما زلت أبكي ... عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر ... بغى والبغي مرتعه وخيم

وأكثروا القول في يوم الهباءة.

ثم إن عبسًا ندمت على ما فعلت يوم الهباءة، ولام بعضهم بعضًا، فاجتمعت فزارة إلى سنان بن أبي حارثة المري، وشكوا إليه ما نزل بهم فأعظمه وذمّ عبسًا وعزم على أن يجمع العرب ويأخذ بثأر بني بدر وفزارة وبثّ رسله، فاجتمع من العرب خلقٌ كثير لا يُحْصَوْن، ونهى أصحابه عن التعرّض إلى الأموال والغنيمة وأمرهم بالصبر وساروا إلى بني عبس، فلمّا بلغهم مسيرهم إليهم قال قيس: الرأي أننا لا نلقاهم، فإننا قد وترناهم فهم يطالبوننا بالذحول والطوائل[1]، وقد رأوا ما نالهم بالأمس باشتغالهم بالنهب والمال فهم لا يتعرّضون إليه الآن، والذي ينبغي أن نفعله أننا نرسل

(١) الذحول: جمع ذحل ـ الثأر. الطوائل: جمع طائلة ـ الوتر، فيقال: فلان يطلب بني فلان بطائلة أي بوتر، كأنّ له فيهم ثأرًا فهو يطلبه بدم قتيله.

الظعائن والأموال إلى بني عامر، فإن الدم لنا قبلهم فهم لا يتعرّضون لكم ويبقى أُولو القوة والجلد على ظهور الخيل ونماطلهم القتال، فإن أبوا إلّا القتال كنّا قد أحرزنا أهلينا وأموالنا وقاتلناهم وصبرنا لهم، فإن ظفرنا فهو الذي نريد، وإن كانت الأخرى كنّا قد احترزنا ولحقنا بأموالنا ونحن على حامية، ففعلوا ذلك وسارت ذبيان ومن معها فلحقوا بني عبس على ذات الجراجر، فاقتتلوا قتالًا شديداً يومهم ذلك وافترقوا.

فلما كان الغد عادوا إلى اللقاء، فاقتتلوا أشدّ من اليوم الأول، وظهرت في هذه الأيام شجاعة عنترة بن شداد[1]، فلما رأى الناس شدَّة القتال وكثرة القتلى لاموا سنان بن أبي حارثة على منعه حذيفة عن الصلح، وتطيّروا منه، وأشاروا عليه بحقن الدماء ومراجعة السلم فلم يفعل،وأراد مراجعة الحرب في اليوم الثالث فلما رأى فتور أصحابه وركونهم إلى السلم رحل عائدًا فلمّا عاد عنهم رحل قيس وبنو عبس إلى بني شيبان بن بكر وجاوروهم وبقوا معهم مدة، فرأى قيس من غلمان شيبان ما يكرهه من التعرض لأخذ أموالهم فرحلوا عنهم، فتبعهم جمع من شيبان فلقيتهم بنو عبس واقتتلوا، فانهزمت شيبان وسارت عبس إلى هجر ليحالفوا ملكهم، وهو معاوية بن الحارث الكندي، فعزم معاوية على الغارة عليهم ليلًا فبلغهم الخبر فساروا عنه مجدّين وسار معاوية مُجِدًّا في أثرهم فتاه بهم الدليل على عَمْدٍ لئلّا يدركوا عبسًا إلّا وهم قد لحقهم ودوابّهم النصب، فأدركوهم بالفَرُوق[2] فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم معاوية وأهل هَجَر وتبعتهم عَبْس، فأخذت من أموالهم وقتلوا منهم ما أرادوا ورجعوا سائرين، فنزلوا بماء يقال له «عرعر» عليه حيّ من كليب، فركبوا ليقاتلوا بني عبس، فبرز الربيع وطلب رئيسهم فبرز إليه واسمه مسعود بن مصاد، فاقتتلا حتى سقطا إلى الأرض وأراد مسعود قتل الربيع، فانحسرت البيضة عن رقبته فرماه رجل من بني عبس بسهم فقتله، فثار به الربيع فقطع رأسه وحملت عبس على كلب والرأس على الرمح،

---

(١) هو عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية العبسي (ت نحو ٢٢ ق.هـ ـ ٦٠٠ م)، شاعرٌ شهير، من فرسان العرب في الجاهلية، من أهل نجد، أُمّه حبشية، سرىٰ إليه السواد منها، وكان من أحسن العرب شيمة، ومن أعزّهم نفسًا، يوصف بالحُلم على شدَّة بطشه، وكان مغرمًا بابنة عمّه عبلة، واجتمع في شبابه بامرئ القيس الشاعر، وشهد حرب داحس والغبراء، وعاش طويلًا، وقتله الأسد الرهيص، وجبار بن عمرو الطائي، ينسب إليه ديوان شعر. انظر: المرزباني: معجم الشعراء (١٥١)، كشف الظنون (٨٠٣)، الزركلي: الأعلام (٥/ ٢٦٩).

(٢) الفروق: عقبة دون هجر إلى نجد.

فانهزمت كلب وغنمت عبس أموالهم وذراريهم، فساروا إلى اليمامة فحالفوا أهلها من بني حنيفة وأقاموا ثلاث سنين، فلم يحسنوا جوارهم وضيَّقوا عليهم فساروا عنهم، وقد تفرّق كثير منهم وقتل منهم وهلكت دوابّهم، ووترهم العرب فراسلتهم بنو ضبة وعرضوا عليهم المقام عندهم ليستعينوا بهم على حرب بتيم، ففعلوا وجاوروهم.

فلما انقضى الأمر بين ضبّة وتميم تغيّرت ضبة لعبس وأرادوا اقتطاعهم، فحاربتهم عبس فظفرت وغنمت من أموال ضبة، وسارت إلى بني عامر وحالفوا الأحوص بن جعفر بن كلاب فَسُرَّ بهم ليقوى بهم على حرب بني تميم؛ لأنه كان بلغه أن لقيط بن زُرارة يريد غزو بني عامر والأخذ بثأر أخيه معبد، فأقامت عبس عند بني عامر، فقصدتهم تميم، وكانت وقعة شعب جبلة، وسنذكره إن شاء الله.

ثم إنّ ذبيان غزوا بني عامر بن صعصعة وفيهم بنو عبس فاقتتلوا فهزمت عامر، وأُسِرَ قرواش بن هنى العبسي ولم يُعرف، فلما قدموا به الحَيّ عرفته امرأة منهم، فلما عرفوه سلموه إلى حصن بن حذيفة فقتله، ثم رحلت عبس عن عامر ونزلت بتميم الرباب، فبغت تيم عليهم فاقتتلوا قتالاً شديدًا وتكاثرت عليهم تيم، فقتلوا من عبس مقتلة عظيمة ورحلت عبس وقد ملّوا الحرب، وقلّت الرجال والأموال وهلكت المواشي، فقال لهم قيس: ما ترون؟ قالوا: نرجع إلى إخواننا من ذبيان، فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم.

فساروا حتى قدموا على الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، وقيل: على هروم بن سنان بن أبي حارثة ليلاً، وكان عند حصن بن حذيفة بن بدر، فلما عاد ورآهم رَحَّب بهم، وقال: من القوم؟

قالوا: إخوانك بنو عبس، وذكروا حاجتهم. فقال: نَعَم وكرامة، أعلم حصن بن حذيفة، فعاد إليه وقال: طرقت في حاجة. قال: أعطيتها، قال: بنو عبس وجدتُ وفودهم في منزلي. قال حصن: صالِحُوا قومكم، أما أنا فلا أدي ولا أتدي[1] قد قَتَل آبائي وعمومتي عشرين من عبس، فعاد إلى عبس وأخبرهم بقول حصن وأخذهم إليه، فلما رآهم قال قيس والربيع بن زياد: نحن ركبان الموت. قال: بل ركبان السلم إن تكونوا اختللتم إلى قومكم، فقد اختلّ قومكم إليكم. ثم خرج معهم حتى أتوا سنانًا

(١) أي: لا أدفع الدية.

فقال له: قُمْ بأمر عشيرتك وأصلح بينهم فإني سأعينك، ففعل ذلك وتمّ الصلح بينهم وعادت عبس.

وقيل: إن قيس بن زهير لم يَسِرْ مع عبس إلى ذبيان، وقال: لا تراني غطفانية أبدًا وقد قتلتُ أخاها أو زوجها أو ولدها أو ابن عمّها، ولكني سأتوب إلى ربي.

فتنصّر وساح في الأرض حتى انتهى إلى عمان، فترهّب بها زمانًا، فلقيه حوج بن مالك العبدي فعرفه فقتله، وقال: لا رحمني الله إن رحمتُك. وقيل: إن قيسًا تزوّج في النمير بن قاسط لما عادت عبس إلى ذبيان وولد له ولد اسمه فضالة، فقدم على النبيّ ﷺ وعقد له على من معه من قومه وكانوا تسعة وهم عاشرهم. انقضى حرب داحس والغبراء والحمد لله.

٢٠ ـ يوم شِعْب جبلة

كان لقيط بن زُرارة قد عزم على غزو بني عامر بن صعصعة للأخذ بثأر أخيه معبد بن زُرارة ـ وقد ذكرنا موته عندهم أسيرًا ـ فبينما هو يتجهّز أتاه الخبر بحلف بني عبس وبني عامر، فلم يطمع في القوم وأرسل إلى كل من كان بينه وبين عبس ذحل يسأله الحلف والتظافر على غزو عبس وعامر، فاجتمعت إليه أسد وغطفان وعمرو بن الجون ومعاوية بن الجون، واستوثقوا واستكثروا وساروا، فعقد معاوية بن الجون الألوية، فكان بنو أسد وبنو فزارة بلواء مع معاوية بن الجون، وعقد لعمرو بن تميم مع حاجب بن زُرارة؛ وعقد للرباب مع حسان بن همام، وعقد لجماعة من بطون تميم مع عمرو بن عدس، وعقد لحنظلة بأسرها مع لقيط بن زُرارة، وكان مع لقيط ابنته دختنوس وكان يغزو بها معه ويرجع إلى رأيها، وساروا في جمع عظيم لا يشكون في قتل عبس وعامر وإدراك ثأرهم، فلقي لقيط في طريقه كرب بن صفوان بن الحباب السعدي، وكان شريفًا، فقال: ما منعك أن تسير معنا في غزاتنا؟

قال: أنا مشغول في طلب إبلٍ لي. قال: لا، بل تريد أن تنذر بنا القوم، ولا أتركك حتى تحلف أنك لا تخبرهم.

فحلف له، ثم سار عنه وهو مغضب، فلما دنا من عامر أخذ خرقة فصرّ فيها حنظلة وشوكًا وترابًا وخرقتين من يمانية وخرقة حمراء وعشرة أحجار سود، ثم رمى بها حيث يسقون ولم يتكلّم، فأخذها معاوية بن قشير فأتى بها الأحوص بن جعفر وأخبره أن رجلاً ألقاها وهم يسقون.

فقال الأحوص لقيس بن زهير العبسي: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: هذا من صنع الله لنا هذا رجل قد أخذ عليه عهد على أن لا يكلّمكم فأخبركم أنّ أعداءكم قد غزوكم عدد التراب وأنّ شوكتهم شديدة، وأمّا الحنظلة فهي رؤساء القوم، وأمّا الخرقتان اليمانيتان فهما حيّان من اليمان معهم، وأمّا الخرقة الحمراء فهي حاجب بن زُرارة، وأمّا الأحجار فهي عشر ليال يأتيكم القوم إليها قد أنذرتكم، فكونوا أحرارًا، فاْصبروا كما يصبر الأحرار الكرام.

قال الأحوص: فإنّا فاعلون وآخذون برأيك، فإنه لم تنزل بك شدّة إلّا رأيت المخرج منها. قال: فإذ قد رجعتم إلى رأيي فأدخلوا نعمكم شعب جبلة ثم أظمئوها هذه الأيام ولا توردوها الماء، فإذا جاء القوم أخرجوا عليهم الإبل وانخسوها بالسيوف والرماح فتخرج مذاعير عطاشًا، فتشغلهم وتفرّق جمعهم، واْخْرُجُوا أنتم في آثارها واْشفوا نفوسكم.

ففعلوا ما أشار به وعاد كرب بن صفوان فلقي لقيطًا، فقال له: أنذرت القوم؟ فأعاد الحلف له أنه لم يكلّم أحدًا منهم فخلّى عنه. فقالت دختنوس ابنة لقيط لأبيها: رُدَّني إلى أهلي ولا تعرضني لعبس وعامر، فقد أنذرهم لا محالة.

فاْستحمقها وساءه كلامها وردَّها وسار حتى نزل على فم الشِّعْب بعساكر جرارة كثيرة الصواهل وليس لهم همّ إلّا الماء فقصدوه، فقال لهم قيس: أخرجوا عليهم الآن الإبل، ففعلوا ذلك فخرجت الإبل مذاعير عطاشًا وهم في أعراضها وأدبارها فخبطت تميمًا ومن معها وقطعتهم، وكانوا في الشِّعْب وأبرزتهم إلى الصحراء على غير تغبية وشغلوا عن الاجتماع إلى ألويتهم، وحملت عليهم عبس وعامر فاقتتلوا قتالاً شديدًا وكثرت القتلى في تميم، وكان أوّل مَنْ قُتِلَ من رؤسائهم عمرو بن الجون وأُسِرَ معاوية بن الجون وعمرو بن عمرو بن عدس زوج دختنوس بنت لقيط، وأُسر حاجب بن زُرارة، واْنحاز لقيط بن زُرارة فدعا قومه وقد تفرّقوا عنه، فاْجتمع إليه نفر يسير فتحرّز برايته فوق جرف، ثم حمل فقتل فيهم ورجع وصاح أنا لقيط، وحمل ثانية فقتل وجرح وعاد فكثر جمعه فاْنحط الجرف بفرسه، وحمل عليه عنترة فطعنه طعنة قصم بها صلبه، وضربه قيس بالسيف فألقاه متشحّطًا في دمه، فذكر ابنته دختنوس فقال:

يا ليت شعري عنك دختنوس	إذا أتاها الخبر المرموس
أتحلق القرون أم تميس	لا بل تميس إنها عروس

ثم مات وتمّت الهزيمة على تميم وغطفان، ثم فَدُوا حاجبًا بخمسمائة من الإبل وفَدُوا عمر بن عمرو بمائتين من الإبل وعاد من سلم إلى أهله، وقالت دختنوس ترثي أباها قصائد، منها:

عـشـر الأغـرّ بـخـيـر خنـ	ـدف كـهـلها وشـبـابـهـا
وأضـرهـا لـعـدوّهـا	وأفـكّـهـا لـرقـابـهـا
وقـريـعـهـا ونـجـيـبـهـا	فـي الـمـطـبـقـات ونـابـهـا
ورئـيـسـهـا عـنـد الـمـلو	ك وزيـن يـوم خـطـابـهـا
وأتـمّـهـا نـسـبًـا إذا	رجـعـت إلـى أنـسـابـهـا
فـرعـى عـمـودًا لـلـعشـ	ـيـرة رافـعًـا لـنـصـابـهـا
ويـعـولـهـا ويـحـوطـهـا	ويـذبّ عـن أحـسـابـهـا
ويـطـأ مـواطـن لـلعـد	و وكـان لا يـمـشـي بـهـا
فـعـل الـمـدلّ مـن الأسـو	د لـحـيـنـهـا وتـبـابـهـا
كـالـكـوكـب الـدرّيّ فـي	سـيـمـاء لا يـخـفـى بـهـا
عـبـث الأغـرّ بـه وكـ	ـل مـنـيـة لـكـتـابـهـا
فـرّت بـنـو أسـد فـرا	ر الـطـيـر عـن أربـابـهـا
وهـوازن أصـحـابـهـم	كـالـفـأر فـي أذنـابـهـا

[رواية ابن إسحاق]:

وذكر محمد بن إسحاق في يوم جبلة غير ما ذكرنا، قال: كان سببه أنّ بني خندف كان لهم على قيس أكل تأكله القعدد من خندف، فكان ينتقل فيهم حتى انتهى إلى تميم، ثم من تميم إلى بني عمرو بن تميم وهم أقلّ بطنًا منهم وأذلّه، فأبَتْ قيس أنْ تعطي الأكل وامتنعت تميم وحالفت غيرها من العرب وساروا إلى قيس، فذكر القصة نحو ما تقدم، وخالف في البعض فلا حاجة إلى ذكره.

وفي هذا اليوم وُلد عامر بن الطفيل العامري.

وقد قال بعض العلماء: إن المجوسية كان يدين بها بعض العرب بالبحرين، وكان زُرارة بن عدس وابناه حاجب ولقيط والأقرع بن حابس وغيرهم مجوسًا، وأنّ لقيطًا تزوّج ابنته دختنوس وسمّاها بهذا الاسم الفارسي وأنه قتل وهي تحته،

فقال في ذلك:

يا ليت شعري عنك دختنوس

الأبيات. والأوّل أصح، والله أعلم.

٢١ ـ يوم ذات نُكيف

كان بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة مبغضين لقريش مضطغنين عليهم ما كان من قصي حين أخرجهم من مكّة مع من أخرج من خزاعة حين قسمها رباعًا وخططًا بين قريش، فلمّا كانوا على عهد عبد المطلب همّوا بإخراج قريش من الحَرَم وأن يقاتلوهم حتى يغلبوهم عليه، وعَدَت بنو بكر على نعم لبني الهون بن خزيمة فاطردوها، ثم جمعوا جموعهم وجمعت قريش جموعهم واستعدّت، وعقد عبد المطلب للحِلْف بين قريش والأحابيش وهم بنو الحارث بن عبد مناة وبنو الهون بن خزيمة بن مدركة وبنو المصطلق من خزاعة، فلقوا بني بكر ومَن انضمّ إليهم، وعلى الناس عبد المطلب فاقتتلوا بذات نُكيف فأنهزم بنو بكر وقُتِلُوا قَتْلاً ذريعًا، فلم يعودوا لحرب قريش. قال ابن شعلة الفهري:

فللّه عينًا مَنْ رأى مِنْ عصابة غوت غَيَّ يوم ذات نُكَيْف

أناخوا إلى أبنائنا ونسائنا فكانوا لنا ضيفًا بشرِّ مضيف

فقتل يومئذ عبد بن السفاح القارئ من القارة قتادة بن قيس أخا بلعاء بن قيس، واسم بلعاء مساحق، ويومئذ قيل: قد أنصف القارة من راماها، والقارة من ولد الهون بن خزيمة وهو من ولد عضل بن الديش. قال رجل منهم:

دعونا قارة لا تنفرونا فنجفل مثل أجفال الظليمِ

وقيل بهذا البيت سموا قارة، وكان يقال للقارة: رماة الحدق.

٢٢ ـ يوم الفجار الأول

قال ابن إسحاق: كان الفجار الأول بين قريش ومن معها من كِنانة كلّها وبين قيس عيلان.

وسببه أنّ رجلاً من كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن فأعدم الكناني فوافى النصري سوق عكاظ بقرد، وقال: من يبيعني مثل هذا بما لي على فلان الكناني؟ فعل ذلك تعييرًا للكناني وقومه، فمرّ به رجل من كنانة فضرب

القرد بالسيف فقتله أنفة مما قال النصري، فصرخ النصري في قيس وصرخ الكناني في كنانة، فاجتمع الناس وتحاوروا حتى كاد يكون بينهم القتال، ثم اصطلحوا.

وقيل: كان سببه أنّ فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من بني عامر وهي وضيئة عليها برقع، فقالوا لها: أسفري لننظر إلى وجهك، فلم تفعل؛ فقام غلام منهم، فشقّ ذيل درعها إلى ظهرها ولم تشعر، فلما قامت انكشفت دبرها فضحكوا، وقالوا: مَنَعْتِينا النظر إلى وجهك فقد نظرنا إلى دبرك. فصاحت المرأة: يا بني عامر فُضِحْتُ.

فأتاها الناس واشتجروا حتى كاد يكون قتال، ثم رأوا أن الأمر يسير فاصطلحوا.

وقيل: بل قعد رجل من بني غفار ويقال له أبو معشر بن مكرز، وكان غازيًا منيعًا في نفسه، وكان بسوق عكاظ فمدّ رجله ثم قال:

نحن بنو مدركة بن خِندف — من يطعنوا في عينه لا يطرف
ومَنْ يكونوا قومه يغطرف[1] — كأنه لُجَّة بحر مسرف

أنا والله أعزّ العرب، فمن زعم أنه أعزّ مني فليضربها بالسيف، فقام رجل من قيس يقال له أحمر بن مازن، فضربها بالسيف فخدشها خدشًا غير كثير فاختصم الناس، ثم اصطلحوا. بنو نصر بالنون.

٢٣ ـ يوم الفجار الثاني

كان بعد الفيل بعشرين سنة وبعد موت عبد المطلب باثنتي عشرة سنة، ولم يكن في أيّام العرب أشهر منه ولا أعظم، وإنّمَا سُمِّيَ الفجار لما استحلّ الحيّان كنانة وقيس فيه مِنَ المحارم، وكان قبله يوم جَبَلة وهو مذكور من أيام العرب والفجار أعظم منه، وكان سببه أنّ البرّاض بن قيس بن رافع الكناني ثم الضمري؛ وكان رجلاً فاتكًا خليعًا قد خلعه قومه لكثرة شَرّه، وكان يُضرب المثل بفتكه، فيقال: أفتك من البرّاض، قال بعضهم:

والفتى من تعرفته الليالي — فهو فيها كالحية النضناضِ
كل يوم له بصرف الليالي — فتكة مثل فتكة البرّاض

(١) يغطرف: أي يسود.

خرج حتى قدم على النعمان بن المنذر، وكان النعمان يبعث كل عام بلطيمة[1] للتجارة إلى عكاظ تباع له هناك، وكان عكاظ وذو المجاز ومجنة أسواقًا تجتمع بها العرب كل عام إذا حضر الموسم، فيؤمن بعضهم بعضًا حتى تنقضي أيّامها، وكانت مجنة بالظهران، وكان عكاظ بين نخلة والطائف. وكان ذو المجاز بالجانب الأيسر إذا وقفت على الموقف، فقال النعمان وعنده البرّاض وعروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب المعروف بالرحال ـ وإنما قيل له ذلك لكثرة رحلته إلى الملوك ـ:

من يجيز لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ؟

فقال البرّاض: أبيت اللعن أنا أجيزها على كنانة، فقال النعمان: إنما أُريد من يجيزها على كنانة وقيس، فقال عروة: أكلب خليع يجيزها لك ـ أبيت اللعن ـ أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد. فقال البرّاض ـ وغضب ـ: وعلى كنانة تجيزها يا عروة؟ قال عروة: وعلى الناسِ كلّهم.

فدفع النعمان اللطيمة إلى عُرْوةِ الرحال، وأمره بالمسير بها وخرج البرّاض يتبع أثره، وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه، حتى إذا كان عروة بين ظَهْرَي قومه بوادٍ يقال له تيمن بنواحي فدك أدركه البرّاض بن قيس، فأخرج قداحه يستقسم بها في قتل عروة، فمرّ به عروة فقال: ما تصنع يا برّاض؟ فقال: أستقسم في قتلك أيؤذن لي أم لا؟ فقال عروة: استك أضيق من ذلك. فوثب إليه البرّاض بالسيف فقتله، فلما رآه الذين يقومون على العير والأحمال قتيلاً انهزموا، فأستاق البرّاض العير وسار على وجهه إلى خيبر وتبعه رجلان مِنْ قيس ليأخذاه، أحدهما غنوي، والآخر غطفاني، اسم الغنوي أسد بن جوين، واسم الغطفاني مساور بن مالك، فلقيهما البرّاض بخيبر أوّل الناس، فقال لهما: مَن الرجلان؟ قالا: من قيس قَدِمْنا لنقتل البرّاض، فأنزلهما وعقل راحلتيهما ثم قال: أيّكما أجرأ عليه وأجود سيفًا؟ قال الغطفاني: أنا، فأخذه ومشى معه ليدلّه بزعمه على البرّاض. فقال للغنوي: احفظ راحلتيكما. ففعل، وأنطلق البرّاض بالغطفاني حتى أخرجه إلى خربة في جانب خيبر خارجًا من البيوت، فقال للغطفاني: هو في هذه الخربة إليها يأوي فأمهلني حتى أنظر أهو فيها. فوقف ودخل البرّاض، ثم خرج؛ فقال: هو فيها وهو نائم، فأرني سيفك حتى أنظر إليه أضارب هو أم لا.

---

(١) اللطيم: من مات أبواه وهو صغير.

فأعطاه سيفه فضربه به حتى قتله ثم أخفى السيف وعاد إلى الغنوي، فقال له: لم أرَ رجلاً أجبن من صاحبك تركته في البيت الذي فيه البرّاض وهو نائم فلم يقدم عليه، فقال: انظر لي من يحفظ الراحلتين حتى أمضي إليه فأقتله، فقال: دعهما وهما عليّ، ثم انطلقا إلى الخربة فقتله وسار بالعير إلى مكّة فلقي رجلاً من بني أسد بن خزيمة فقال له البرّاض: هل لك إلى أنّ أجعل لك جُعْلاً على أنْ تنطلق إلى حَرْب بن أمية وقومي فإنهم قومي وقومك، لأنّ أسد بن خزيمة من خندف أيضًا فتخبرهم أنّ البرّاض بن قيس قتل عروة الرحال فليحذروا قيسًا، وجعل له عشرًا من الإبل، فخرج الأسدي حتى أتى عكاظ وبها جماعة الناس، فأتى حرب بن أمية فأخبره الخبر، فبعث إلى عبد الله بن جدعان التيمي وإلى هشام بن المغيرة المخزومي وهو والد أبي جهل وهما من أشراف قريش وذوي السنّ منهم، وإلى كل قبيلة من قريش أحضر منها رجلاً، وإلى الحليس بن يزيد الحرثي وهو سيد الأحابيش فأخبرهم أيضًا فتشاوروا، وقالوا: نخشى من قيس أن يطلبوا ثأر صاحبهم منّا، فإنهم لا يرضون أنْ يقتلوا به خليعًا من بني ضمرة.

فأتفق رأيهم على أنّ يأتوا أبا براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب مُلاعب الأسنّة وهو يومئذ سيِّد قيس وشريفها، فيقولوا له: إنه قد كان حدث بين نجد وتهامة وأنه لم يأتنا علمه فأجز بين الناس حتى تعلم وتعلم، فأتوه وقالوا له ذلك، فأجاز بين الناس وأعلم قومه ما قيل له، ثم قام نفر من قريش فقالوا: يا أهل عكاظ إنه قد حدث في قومنا بمكة حَدَث أتانا خبره ونخشى إنْ تَخَلَّفْنَا عنهم تفاقم الشَّرُّ فلا يروعنّكم تحملنا، ثم ركبوا على الصعب والذلول إلى مكّة، فلما كان آخر اليوم أتى عامر بن مالك ملاعب الأسنّة الخبر، فقال: غدرت قريش وخدعني حرب بن أمية، والله لا تنزل كنانة عكاظ أبدًا، ثم ركبوا في طلبهم حتى أدركوهم بنخلة فأقتتل القوم فاشتعلت قيس، فكادت قريش تنهزم إلّا أنها على حاميتها تبادر دخول الحرم ليأمنوا به، فلم يزالوا كذلك حتى دخلوا الحرم مع الليل، وكان رسول الله ﷺ معهم وعمره عشرون سنة.

وقال الزهري: لم يكن معهم، ولو كان معهم لم ينهزموا.

وهذه العلّة ليست بشيء لأنه قد كان بعد الوحي والرسالة ينهزم أصحابه ويقتلون، وإذا كان في جمع قبل الرسالة وانهزموا فغير بعيد.

ولما دخلت قريش الحرم عادت عنهم قيس، وقالوا لهم: يا معشر قريش إنّا لا نترك دم عروة وميعادنا عكاظ في العام المقبل. وانصرفت إلى بلادها يحرص بعضها بعضًا ويبكون عروة الرحال.

ثم إنّ قيسًا جمعت جموعها ومعها ثقيف وغيرها، وجمعت قريش جموعها منهم كنانة جميعها والأحابيش وأسد بن خزيمة، وفرّقت قريش السلاح في الناس، فأعطى عبد الله بن جدعان مائة رجل سلاحًا تامًا وفعل الباقون مثله، وخرجت قريش للموعد على كل بطن منها رئيس، فكان على بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه رسول الله ﷺ وإخوته، أبو طالب، وحمزة، والعباس بنو عبد المطلب، وعلى بني أمية وأحلافها حرب بن أمية، وعلى بني عبد الدار عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وعلى بني أسد بن عبد العزى خويلد بن أسد، وعلى بني مخزوم هشام بن المغيرة أبو أبي جهل، وعلى بني تيم عبد الله بن جدعان، وعلى بني جمح معمر بن خبيب بن وهب، وعلى بني سهم العاص بن وائل، وعلى بني عدي زيد بن عمرو بن نفيل والد سعيد بن زيد، وعلى بني عامر بن لؤي عمرو بن عبد شمس والد سهيل بن عمرو، وعلى بني فهر عبد الله بن الجراح والد أبي عبيدة، وعلى الأحابيش الحليس بن يزيد وسفيان بن عويف هما قائداهم.

والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة وعضل والقارة والديش من بني الهون بن خزيمة والمصطلق بن خزاعة سموا بذلك لحلفهم بني الحارث، والتحبّش والتجمّع، وعلى بني بكر بلعاء بن قيس، وعلى بني فراس بن غنم من كنانة عمير بن قيس جذل الطعان، وعلى بني أسد بن خزيمة بشر بن أبي حازم، وكان على جماعة الناس حرب بن أمية لمكانه من عبد مناف سنًّا ومنزلة.

وكانت قيس قد تقدّمت إلى عكاظ قبل قريش، فَعَلى بني عامر ملاعب الأسنّة أبو براء، وعلى بني نصر وسعد وثقيف سبيع بن ربيع بن معاوية، وعلى بني جشم الصمة والددريد، وعلى غطفان عوف بن أبي حارثة المري، وعلى بني سليم عباس بن زعل بن هنى بن أنس، وعلى فهم وعدوان كِدام بن عمرو.

وسارت قريش حتى نزلت عكاظ وبها قيس، وكان مع حرب بن أمية إخوته سفيان، وأبو سفيان، والعاص، وأبو العاص، بنو أمية؛ فعقل حرب نفسه وقيّد سفيان وأبو العاص نفسيهما وقالوا: لن يبرح رجل منّا من مكانه حتى نموت أو نظفر، فيومئذ سمّوا العنابس، والعنبس: الأسد. واقتتل الناس قتالاً شديدًا فكان الظفر أوّل

النهار لقيس، وانهزم كثير من بني كنانة وقريش، فانهزم بنو زهرة وبنو عدي، وقتل معمر بن خبيب الجمحي، وانهزمت طائفة من بني فراس، وثبت حرب بن أمية وبنو عبد مناف وسائر قبائل قريش، ولم يزل الظفر لقيس على قريش وكنانة إلى أن انتصف النهار، ثم عاد الظفر لقريش وكنانة فقتلوا من قيس فأكثروا، وحمي القتال واشتدّ الأمر، فقتل يومئذ تحت راية بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة مائة رجل وهم صابرون، فانهزمت قيس وقتل من أشرافهم عباس بن زعل السلمي وغيره. فلما رأى أبو السيد عم مالك بن عوف النصري ما تصنع كنانة من القتل، نادى: يا معشر بني كنانة أسرفتم في القتل، فقال ابن جدعان: أنا معشر يسرف، ولما رأى سبيع بن ربيع بن معاوية هزيمة قبائل قيس عقل نفسه واضطجع وقال: يا معشر بني نصر: قاتلوا عني أو ذروا، فعطفت عليه بنو نصر وجشم وسعد بن بكر وفهم وعدوان وانهزم باقي قبائل قيس، فقاتل هؤلاء أشدّ قتال رآه الناس، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح، فاصطلحوا على أن يعدّوا القتلى فأيّ الفريقين فضل له قتلى أخذ ديّتهم من الفريق الآخر، فتعادّوا القتلى فوجدوا قريشًا وبني كنانة قد أفضلوا على قيس عشرين رجلًا، فرهن حرب بن أمية يومئذ ابنه أبا سفيان في ديّات القوم حتى يؤدّيها ورهن غيره من الرؤساء وانصرف الناس بعضهم عن بعض، ووضعوا الحرب وهدموا ما بينهم من العداوة والشرّ، وتعاهدوا على أن لا يؤذي بعضهم بعضًا فيما كان من أمر البرّاض وعروة.

٢٤ ـ يوم ذي نجب

كان من حديث يوم ذي نجب أنّ بني عامر لما أصابوا من تميم ما أصابوا يوم جبلة رجوا أن يستأصلوهم، فكاتبوا حسان بن كبشة الكندي، وكان ملكًا من ملوك كندة وهو حسان بن معاوية بن حجر، فدعوه إلى أن يغزو معهم بني حنظلة من تميم، فأخبروه أنهم قد قتلوا فرسانهم ورؤساءهم، فأقبل معهم بصنائعه ومن كان معه، فلما أتى بني حنظلة خبر مسيرهم، قال لهم عمرو بن عمرو: يا بني مالك إنّه لا طاقة لكم بهذا الملك وما معه من العدد، فانتقلوا من مكانكم.

وكانوا في أعالي الوادي مما يلي مجيء القوم، وكانت بنو يربوع بأسفله فتحوّلت بنو مالك حتى نزلت خلف بني يربوع وصارت بنو يربوع تلي الملك، فلما رأوا ما صنع بنو مالك استعدّوا وتقدّموا إلى طريق الملك، فلمّا كان وجه الصبح، وصل ابن كبشة فيمن معه، وقد استعدّ القوم فاقتتلوا، فلما رآهم بنو مالك وصبرهم

في القتال ساروا إليهم وشهدوا معهم القتال، فاَقتتلوا مَلِيًّا فضرب جشيش بن نمران الرياحي بن كبشة الملك على رأسه فصرعه فمات، وقتل عبيدة بن مالك بن جعفر وانهزم طفيل بن مالك على فرسه قُرزل، وقتل عمرو بن الأحوص بن جعفر وكان رئيس عامر، وانهزمت بنو عامر وصنائع ابن كبشة، قال جرير في الإسلام يذكر اليوم بذي نجب:

بـذي نـجـب ذدنـا وواكـل مـالـك أخًا لم يكن عند الطعان بواكل

وكان يوم ذي نجب بعد يوم جبلة بسنة، وبقي الأحوص بعد ابنه عمرو يسيرًا وهلك أسفًا عليه.

٢٥ ـ يوم نعف قشاوة

وهو يوم لشيبان على تميم.

قال أبو عبيدة: أغار بسطام بن قيس على بني يربوع من تميم وهو بنعف قشاوة، فأتاهم ضحى وهو يوم ريح ومطر، فوافق النعم حين سرح فأخذه كلّه، ثم كَرّ راجعًا وتداعت عليه بنو يربوع فلحقوه وفيهم عمارة بن عتيبة بن الحارث بن شهاب، فكرَّ عليه بسطام فقتله، ولحقهم مالك بن حطان اليربوعي فقتله، وأتاهم أيضًا بجير بن أبي مُليل فقتله بسطام، وقتلوا من يربوع جمعًا وأسروا آخرين، منهم مليل بن أبي مليل وسلموا وعادوا غانمين، فقال بعض الأسرى لبسطام: أيسرّك أنّ أبا مليل مكاني؟ قال: نعم، قال: فإنّ دللتك عليه أتطلقني الآن؟ قال: نعم، قال: فإنّ ابنه بجيرًا كان أحبَّ خلق الله إليه وستجده الآن مكبًّا عليه يقبّله فخذه أسيرًا. فعاد بسطام فرآه كما قال، فأخذه أسيرًا وأطلق اليربوعي، فقال له أبو مليل: قتلت بجيرًا وأسرتني وابني مليلاً والله لا أطعم الطعام أبدًا وأنا موثق فخشي بسطام أن يموت فأطلقه بغير فداء على أن يفادي مليلاً وعلى أن لا يتبعه بدم ابنه بجير ولا يبغيه غائلة ولا يدلّ على عورة ولا يغير عليه ولا على قومه أبدًا وعاهده على ذلك، فأطلقه وجَزّ ناصيته، فرجع إلى قومه وأراد الغدر ببسطام والنكث به فأرسل بعض بني يربوع إلى بسطام بخبره فحذره، وقال متمّم بن نويرة:

أبـلغ شـهـاب بـني بـكـر وسيِّدهـا عنى بذاك أبا الصهباء بسطاما
أروي الأسنّة من قومي فأنهلها فأصبحوا في بقيع الأرض نوّاما
لا يـطـبـقـون إذا هـبَّ الـنـيـام ولا في مرقد يحلمون الدهر أحلاما

أشجى تميم بن مرّ لا مكايدة حتى استعادوا له أسرى وأنعاما
هلّا أسيرًا فدتك النفس تطعمه مما أراد وقِدمًا كنت مطعاما

وهي أبيات عدّة.

٢٦ ـ يوم الغبيط

وهو يوم كانت الحرب فيه بين بني شيبان وتميم أُسِرَ فيه بسطام بن قيس الشيباني، وسبب ذلك أن بسطام بن قيس والحوفزان بن شريك وفروق بن عمرو ساروا في جمعٍ من بني شيبان إلى بلاد تميم، فأغاروا على ثعلبة بن يربوع، وثعلبة بن سعدِ بن ضبة، وثعلبة بن عدي بن فزارة، وثعلبة بن سعد بن ذبيان، وكانوا متجاورين بصحراء فلج، فاقتتلوا فانهزمت الثعالبة وقُتل منهم مقتلة عظيمة وغنم بنو شيبان أموالهم ومرّوا على بني مالك بن حنظلة من تميم وهم بين صحراء فلج وغبيط المدرة، فاستاقوا إبلهم فركبت إليهم بنو مالك يقدمهم عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي وفرسان بني يربوع، وساروا في أثر بني شيبان ومعه من رؤساء تميم الأحيمر بن عبد الله وأُسيد بن جباة وحرّ بن سعد ومالك بن نويرة، فأدركوهم بغبيط المدرّة، فقاتلوهم وصبر الفريقان؛ ثم انهزمت شيبان واستعادت تميم ما كانوا غنموه من أموالهم، وقتلت بنو شيبان أبا مرحب ربيعة بن حصية، وألحّ عتيبة بن الحارث على بسطام بن قيس فأدركه، فقال له: استأسر أبا الصهباء فأنا خير لك من الفلاة والعطش. فاستأسر له بسطام بن قيس، فقال بنو ثعلبة لعتيبة: إنّ أبا مرحب قد قتل وقد أسرت بسطامًا وهو قاتل مُليل، وبجير ابني أبي مُليل، ومالك بن حطان، وغيرهم فاقتله. قال: إني معيل وأنا أحبّ اللبن. قالوا: إنك تفاديه فيعود فيحربنا ما لنا، فأبى عليهم وسار إلى بني عامر بن صعصعة لئلّا يؤخذ فيقتل، وإنما قصد عامرًا لأن عمّته خولة بنت شهاب كانت ناكحًا فيهم، فقال مالك بن نويرة في ذلك:

لله عتاب بن ميّة إذ رأى إلى ثأرنا في كفّه يتلدّدُ
أتحيي أمرءًا أردى بجيرًا ومالكًا وأتوى حريثًا بعدما كان يقصد
ونحن ثأرنا قبل ذاك ابن أمّه غداة الكلابيين والجمع يشهد

فلما توسّط عتيبة بيوت بني عامر، صاح بسطام: وأشيباناه، ولا شيبان لي اليوم؛ فبعث إليه عامر بن الطفيل: إنّ استطعت أن تلجأ إلى قبّتي فافعل فإني سأمنعك وإن لم تستطع فاقذف نفسك في الركا فإني عتيبة تابعه من الجنّ، فأخبره بذلك فأمر

ببيته فقوّض فركب فرسه وأخذ سلامه ثم أتى مجلس بني جعفر وفيه عامر بن الطفيل الغنوي فحيّاهم، وقال: يا عامر قد بلغني الذي أرسلت به إلى بسطام فأنا مخيّرك فيه خصالاً ثلاثًا، فقال عامر: وما هي؟ قال: إنْ شئت فأعطني خلعتك وخلعة أهل بيتك حتى أطلِقه لك فليست خلعتك وخلعة أهل بيتك بشرٍّ من خلعته وخلعة أهل بيته. فقال عامر: هذا لا سبيل إليه، قال عتيبة: ضَعْ رجلك مكان رجله فليست عندي بشرٍّ منه. فقال: ما كنت لأفعل. قال عتيبة: تتبعني إذا جاوزت هذه الرابية فتقارعني عنه على الموت. فقال عامر: هذه أبغضهنّ إليّ. فأنصرف به عتيبة إلى بني عبيد بن ثعلبة فرأى بسطام مركب أم عتيبة رثًا، فقال: يا عتيبة، هذا رَحْل أمّك؟ قال: نعم، قال: ما رأيت رحل أم سيِّد قط مثل هذا. فقال عتيبة: واللات والعزّى لا أُطْلِقُك حتى تأتيني أمك بهودجها، وكان كبيرًا ذا ثمن كثير. وهذا الذي أراد بسطام ليرغب فيه فلا يقتله فأرسل بسطام فأحضر هودج أمّه، وفادى نفسه بأربعمائة بعير، وقيل: بألف بعير وثلاثين فرسًا وهودج أمّه وحَدجها[1]، وخلص من الأسر، فلما خلص من الأسر أذكى العيون على عتيبة وإبله، فعادت إليه عيونه فأخبروه أنها على أراب، فأغار عليها وأخذ الإبل كلّها ومالهم معها.

(عتيبة): بالتاء فوقها نقطتان والياء تحتها نقطتان ساكنة وفي آخرها باء موحدة.

٢٧ ـ يوم لشيبان على بني تميم

قال أبو عبيدة: خرج الأقرع بن حابس وأخوه فراس التميميان وهما الأقرعان في بني مجاشع من تميم وهما يريدان الغارة على بكر بن وائل ومعهما البروك أبو جعل، فلقيهم بسطام بن قيس الشيباني وعمران بن مرّة في بني بكر بن وائل بزُبالة[2]، فأقتتلوا قتالاً شديدًا ظفرت فيه بكر وانهزمت تميم، وأسر الأقرعان وأبو جعفر وناس كثير، وأفتدى الأقرعان نفسيهما من بسطام وعاهداه على إرسال الفداء فأطلقهما فبعدا ولم يرسلا شيئًا، وكان في الأسرى إنسان من يربوع فسمعه بسطام بن قيس في الليل يقول:

فدى بوالدة عليّ شفيقة ... فكأنها حرض على الأسقامِ
لو أنها علمت فيسكن جأشها ... أني سقطت على الفتى المنعام

(١) بكسر أوّله الحمل ومركب من مراكب النساء.
(٢) منزل بطريق مكّة من الكوفة.

إنّ الـذي تـرجـيـن ثـم إيـابـه ... سـقـط الـعـشـاء بـه عـلى بـسـطـام
سـقـط الـعـشـاء بـه عـلى مـتـنـعّـمٍ ... سـمـح الـيـديـن مـعـاود الأقـدام

فلما سمع بسطام ذلك منه قال له: وأبيك لا يخبر أمك عنك غيرك وأطلقه.
وقال ابن رميض العنزي:

جاءت هدايا من الرحمٰن مرسلة ... حتى أُنيخت لدى أبيات بسطامِ
جيش الهذيل وجيش الأقرعين معًا ... وكـبـة الـخـيـل والأزواد فـي عـام
مـسـوم خـيـله تـعـدو مـقـانـبـه ... عـلى الـذوائـب من أولاد هـمـام

وقال أوس بن حَجر:

وصـبـحـنـا عـار طـويـل بـنـاؤه ... نسب به ما لاح في الأفق كوكبُ
فـلم أرَ يـومًـا كـان أكـثـر بـاكـيًـا ... ووجهًا ترى فيه الكآبة تجنب
أصابوا البروك وابن حابس عنوةً ... فظلّ لهم بالقاع يوم عصبصب[1]
وإن أبا الصهباء في حومة الوغى ... إذا ازورت الأبطال ليث مجرب

وأبو الصهباء: هو بسطام بن قيس، وأكثر الشعراء في هذا اليوم وفي مدح بسطام بن قيس تركنا ذكره اختصارًا.

(حجر): بفتح الحاء والجيم.

٢٨ ـ يوم مبايض

وهو لشيبان على بني تميم، قال أبو عبيدة: حج طريف بن تميم العنبري التميمي وكان رجلاً جسيمًا يلقب مجدعًا وهو فارس قومه ولقيه حَمِيصَة[2] بن جندل الشيباني من بني أبي ربيعة وهو شابٌّ قوي وشجاع وهو يطوف بالبيت فأطال النظر إليه، فقال له طريف: لم تشدّ نظرك إليّ. قال حميصة: أريد أن أثبتك لعلّي أنْ ألقاك في جيش فأقتلك. فقال طريف: اللّهمّ لا تحول الحول حتى ألقاه ودعا حميصة مثله، فقال طريف:

أوَ كـلـمـا وردت عـكـاظ قـبـيـلة ... بـعـثـوا إلـيّ عـريـفـهـم يـتـوسّـم

(١) أي: شديد الشر.
(٢) على وزن: سفينة.

لا تـنـكـرونـي إنـنـي داء لـكـم ... شاكي السلاح[١] في الحوادث معلم
حـولـي فـوارس مـن أسـيـد جـمّـة ... وبني الهجيم وحول بيتي خضم[٢]
تـحتي الأغـر وفـوق جلدي نـثـرة ... زغف ترد السيف وهو مثلم[٣]

في أبيات.

ثم إن بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان وبني مرة بن ذهل بن شيبان كان بينهم شرّ وخصام، فاْقتتلوا شيئًا من قتال ولم يكن بينهم دم، فقال هانئ بن مسعود رئيس بني أبي ربيعة لقومه: إنّي أكره أن يتفاقم الشرّ بيننا فارتحل بهم، فنزل على ماء يقال له مبايض وهو قريب من مياه بني تميم، فأقاموا عليه أشهرًا، وبلغ خبرهم بني تميم، فأرسل بعضهم إلى بعض وقالوا: هذا حيّ منفرد وإن اصطلمتموهم أوهنتم بكر بن وائل، واجتمعوا وساروا على ثلاثة رؤساء، أبو الجدعاء الطهوي على بني حنظلة، وابن فدكي المنقري على بني سعد، وطريف بن تميم على بني عمرو بن تميم، فلما قاربوا بني أبي ربيعة بلغهم الخبر فاستعدّوا للقتال، فخطبهم هانئ بن مسعود وحثّهم على القتال، فقال: إذا أتوكم فقاتلوهم شيئًا من قتال، ثم انحازوا عنهم فإذا اشتغلوا بالنهب فعودوا إليهم، فإنكم تصيبون منهم حاجتكم، وصبحهم بنو تميم والقوم حَذِرون، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وفعلت بنو شيبان ما أمرهم هانئ فاْشتغلت تميم بالغنيمة، ومرّ رجل منهم باْبنٍ لهانئ بن مسعود صبي فأخذه وقال: حسبي هذا من الغنيمة، وسار به وبقيت تميم مع الغنيمة والسبي، فعادت شيبان عليهم فهزموهم وقتلوهم وأسروهم كيف شاؤوا ولم تصَب تميم بمثلها لم يفلت منهم إلّا القليل. ولم يلوِ أحدٌ على أحد، وانهزم طريف فاتّبعه حَمِيصَة فقتله، واستردّت شيبان الأهل والمال وأخذوا مع ذلك ما كان معهم، وفادى هانئ بن مسعود ابنه بمائة بعير، وقال بعض شيبان في هذا اليوم:

ولقد دعوت طريف دعوةَ جاهلٍ ... غـرٌ وأنـت بـمـنـظـر لا تـعـلـمُ
وأتيت حيًا في الحروب محلهم ... والـجيش بأسم أبيـهـم يستهزم
فوجدتهم يرعون حول ديارهم ... بـسـلاً إذا حـام الـفـوارس أقـدموا

(١) وفي رواية: سلاحي.
(٢) رواية العقد الفريد:
حـولـي أسـيـد والـهـجـيـم ومـازن ... وإذا حللت فحول بيتي خضم
(٣) النثرة: الدرع، والزغف: الدرع الليّنة الواسعة المحكمة أو الرقيقة الحسنة السلاسل.

وإذا اعتزّوا بأبي ربيعة أقبلوا — بكتيبة مثل النجوم تلملم
سامُوكَ درعك والأغرّ كليهما — وبنو أُسيد أسلموك وخضم

وقال عمرو بن سواد يرثي طريفًا:

لا تبعدن يا خير عمرو بن جندب — لعمري لمن زار القبور ليبعدا
عظيم رماد النار لا متعبّس — ولا مؤيسًا منها إذا هو أوقدا
وما كان وقافًا إذا الخيل أحجمت — وما كان عيطانًا إذا ما تجرّدا

٢٩ ـ يوم الزويرين

قال أبو عبيدة: كانت بكر بن وائل قد أجدبت بلادهم، فأنتجعوا بلاد تميم بين اليمامة وهَجَر، فلما تدانوا جعلوا لا يلقى بكريّ تميميًا إلّا قتله ولا يلقى تميميّ بكريًّا إلّا قتله إذا أصاب أحدهما مال الآخر أخذه حتى تفاقم الشرّ وعَظُم، فخرج الحوفزان بن شريك والوادِك بن الحارث الشيبانيّان ليغيرا على بني دارم، فأتفق أنّ تميمًا في تلك الحال اجتمعت في جمعٍ كثير من عمرو بن حنظلة والرباب وسعد وغيرها، وسارت إلى بكر بن وائل وعلى تميم أبو الرئيس الحنظلي، فبلغ خبرهم بكر بن وائل فتقدّموا وعليهم الأصم عمرو بن قيس بن مسعود أبو مفروق، وحنظلة بن سيار العجلي، وحمران بن عبد عمرو العبسي؛ فلما تلقوا جعلت تميم والرباب بعيرين وجلّلوهما وجعلوا عندهما من يحفظهما وتركوهما بين الصفين معقولين وسمّوهما زويرين، يعني إلٰهين، وقالوا: لا نفرّ حتى يفرّ هذان البعيران. فلما رأى أبو مفروق البعيرين سأل عنهما فأُعلم حالهما، فقال: أنا زويركم وبرك بين الصفين، وقال: قاتلوا عني ولا تفرّوا حتى أفرّ.

فأقتتل الناس قتالاً شديدًا فوصلت شيبان إلى البعيرين فأخذوهما فذبحوهما واشتدّ القتال عليهما، فأنهزمت تميم، وقتل أبو الرئيس مقدمهم ومعه بشرٌ كثير، واجترفت بكر أموالهم ونساءهم وأسروا أسرى كثيرة، ووصل الحوفزان إلى النساء والأموال وقد سار الرجال عنها للقتال، فأخذ جميع ما خلفوه من النساء والأموال وعاد إلى أصحابه سالمًا، وقال الأعشى في ذلك اليوم:

يا سلم لا تسألي عنّا فلا كشف
عند اللّقاء ولا سود مقاريفِ

نحن الذين هزمنا يوم صبحنا
يوم الزويرين في جمع الأحاليف
ظلّوا وظلّت تكرّ الخيل وسطهم
بالشيب منّا وبالمرد الغطاريف
تستأنس الشرف الأعلى بأعينها
لمح الصقور علت فوق الأظاليف[١]
انسلّ عنها نسيل الصيف فانجردت
تحت اللبون متون كالزحاليف[٢]

وقد أكثر الشعراء في هذا اليوم لا سيما الأغلب العجلي، فمن ذلك أرجوزته التي أوّلها:

إنْ سرَّك العزّ فجحجح بجشم

يقول فيها:

جاؤوا بزوريهم وجئنا بالأصم شيخٌ لنا كاللّيث من باقي إرم
شيخٌ لنا معاود ضرب اليهم[٣] يضرب بالسيف إذا الرمح انقصم
هل غير غارصك غارًا فانهزم

الغاران: بكر وتميم، وله الأرجوزة التي أوّلها:

يا رب حرب ثرّة الأخلاف

يذكر فيها هذا اليوم.

٣٠ ـ يوم مسحلان

قال أبو عبيدة: غزا ربيعة بن زياد الكلبي في جيش من قومه، فلقي جيشًا لبني شيبان عامّتهم بنو أبي ربيعة فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فظفرت بهم بنو شيبان وهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ولك يوم مسحلان، وأسروا ناسًا كثيرًا وأخذوا ما كان

(١) جمع أظلوفة ـ بالضم ـ: أرض فيها حجارة حداد كأن خلقتها خلقة جبل.
(٢) جمع زحلوفة وهي آثار تزلج الصبيان من فوق التل إلى أسفل، أو مكان منحدر مملس.
(٣) بالياء المثناة التحتية، أي: الشجاع، والإيهمان: السيل والجمل الهائج.

معهم، وكان رئيس شيبان يومئذ حيان بن عبد الله بن قيس المحلمي، وقيل: كان رئيسهم زياد بن مرثد من بني أبي ربيعة، فقال شاعرهم:

ربيعة سائل حيث حلّ بجيشه ... مع الحيّ كلب حيث نبت[١] فوارسه
عشية ولى جمعهم فتتابعوا ... فصار إلينا نهبه وعوانسه[٢]

ثم إن الربيع بن زياد الكلبي نافر قومه وحاربهم فهزموه، فاعتزلهم وسار حتى حلَّ ببني شيبان، فاستجار برجلٍ اسمه زياد من بني أبي ربيعة، فقتلهم بنو أسعد بن همام، ثم إن شيبان حملوا ديته إلى كلب مائتي بعير فرضوا.

٣١ ـ حرب لسليم وشيبان

قال أبو عبيدة: خرج جيش لبني سليم عليهم النصيب السلمي، وهم يريدون الغارة على بكر بن وائل، فلقيهم رجل من بني شيبان اسمه صليع بن عبد غنم وهو مُحْرِم على فرسٍ له يسمّى البحراء، فقال لهم: أين تذهبون؟ قالوا: نريد الغارة على بني شيبان، فقال لهم: مهلاً فإني لكم ناصح إيّاكم وبني شيبان، فإني أقسم لكم بالله لتأتينّكم على ثلاثمائة فرس خصي سوى الفحول والإناث.

فأبوا إلّا الغارة عليهم، فدفع صليع فرسه ركضًا حتى أتى قومه؛ فأنذرهم فركبت شيبان واستعدّوا، فأتاهم بنو سليم وهم معدّون، فاقتتلوا قتالاً شديدًا؛ فظفرت شيبان وانهزمت سليم وقُتِل منهم مقتلة كثيرة وأُسر منهم ناس كثير ولم ينجُ إلّا القليل، وأُسر النصيب رئيسهم أسره عمران بن مُرّة الشيباني فضرب رقبته، فقال صليع:

نهيت بني زعل غداة لقيتهم ... وجيش نصيب والظنون تطاع
وقلت لهم: إن الحريب[٣] وراكسًا ... به نعم ترعى المرار رتاع
ولكنّ فيه الموت يرتع سربه ... وحقّ لهم أن يقبلوا ويطاعوا
متى تأته تلقى على الماء حارثًا ... وجيشًا له يوفي بكل بقاع[٤]

---

(١) نَب ينب نبًا ونبايا ـ بالضم ـ ونبنب: صاح عند الهياج.
(٢) جمع عانس، وهي البنت التي طال مكثها في أهلها ولم تتزوج حتى خرجت من عداد الأبكار.
(٣) هو اسم وادٍ.
(٤) وفي هذا البيت إقواء حيث رفع المجرور.

٣٢ ـ يوم جدود

وهو يوم بين بكر بن وائل وبني مِنقر من تميم، وكان من حديثه أنّ الحوفزان واسمه الحارث بن شريك الشيباني كانت بينه وبين بني سليط بن يربوع موادعة، فهمّ بالغدر بهم، وجمع بني شيبان وذهلاً واللّهازم وعليهم حمران بن عبد عمرو بن بشر بن عمرو، ثم غزا وهو يرجو أن يصيب غرّة من بني يربوع، فلما انتهى إلى بني يربوع نذر به عتيبة بن الحارث بن شهاب فنادى في قومه فحالوا بين الحوفزان وبين الماء، وقال لعتيبة: إني لا أرى معك إلّا رهطك، وأنا في طوائف من بني بكر فلئن ظفرت بكم قلّ عددكم وطمع فيكم عدوّكم، ولئن ظفرتم بي ما تقتلون إلّا أقاصي عشيرتي وما إيّاكم أردت، فهل لكم أن تسالمونا وتأخذوا ما معنا من التمر، ووالله لا نروع يربوعًا أبدًا؟

فأخذا ما معهم من التمر وخلّى سبيلهم، فسارت بكر حتى أغاروا على بني رُبَيْع بن الحارث وهو مقاعس بجدود ـ وإنما سمّي «مقاعسًا» لأنه تقاعس عن حلف بني سعد ـ فأغار عليهم وهم خلوف فأصاب سبيًا ونعمًا، فبعث بنو ربيع صريخهم إلى بني كليب فلم يجيبوهم فأتى الصريخ بني منقر بن عبيد فركبوا في الطلب، فلحقوا بكر بن وائل وهم مقاتلون فما شعر الحوفزان وهو في ظل شجرة إلّا بالأهتم بن سمي بن سنان المنقري واقفًا على رأسه فركب فرسه فنادى الأهتم: يا آل سعد، ونادى الحوفزان: يا آل وائل، ولحق بنو منقر فقاتلوا قتالاً شديدًا، فهزمت بكر وحلوا السبي والأموال، وتبعتهم منقر فمن قتيل وأسير، وأسر الأهتم حِمْران بن عبد عمرو، ولم يكن لقيس بن عاصم المنقري همّة إلّا الحوفزان فتبعه على مُهْرٍ والحوفزان على فرسٍ فارج، فلم يلحقه وقد قاربه، فلما خاف أن يفوته حفزه بالرمح في ظهره فاحتفز بالطعنة ونجا فسمّيَ يومئذ الحوفزان، وقيل غير هذا، وقال الأهتم في أسره حِمْران:

نيطت بحمران المنية بعد ما ... حشاه سنان من شراعة أزرق
دعا يا لـ قيس واعتزيت لمنقر ... وكنت إذ لاقيت في الخيل أصدق

وقال سوّار بن حيان المنقري يفتخر على رجل من بكر:

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنةٍ ... كسته نجيعًا من دم البطن أشكلا
وحمران قسرًا أنزلته رماحنا ... فعالج غلّاً في ذراعيه مثقلا

فيا لك من أيام صدق نعدّها كيوم جؤاثى والنباج ونبتلا[١]
قضى اللّه أنّا يوم تقتسم العلا أحقّ بها منكم فأعطى فأجزلا
فلست بمستطيع السماء ولم تجد لعزّ بناه اللّه فوقك منقلا

(منقر): بكسر الميم وسكون النون وفتح القاف. (وربيع): بضم الراء وفتح الباء الموحّدة.

٣٣ - يوم الإياد وهو يوم أعشاش ويوم العظالى

وإنما سُمّي يوم العظالى لأن بسطام بن قيس وهانئ بن قبيصة ومفروق بن عمرو تعاظلوا على الرياسة، وكانت بكر تحت يد كسرى وفارس؛ وكانوا يقرونهم ويجهّزونهم فأقبلوا من عند عامل عين التمر في ثلاثمائة متساندين، وهم يتوقّعون انحدار بني يربوع في الحزن، فاجتمع بنو عتيبة وبنو عبيد وبنو زبيد في الحزن، فحلّت بنو زبيد الحديقة وحلّت بنو عتيبة وبنو عبيد روضة الثمد، فأقبل جيش بكر حتى نزلوا حضبة الحصى، فرأى بسطام السواد بالحديقة وثم غلام عرفه بسطام، وكان قد عرف غلمان بني ثعلبة حين أسره عتيبة، فسأله بسطام عن السواد الذي بالحديقة، فقال: هم بنو زبيد. قال: كم هم من بيت؟ قال: خمسون بيتًا. قال: فأين بنو عتيبة وبنو عبيد؟ قال: هم بروضة الثمد وسائر الناس بخفاف، وهو موضع، فقال بسطام: أتطيعونني يا بني بكر؟ قالوا: نعم. قال: أرى لكم أن تغنموا هذا الحيّ المتفرّد بني زبيد وتعودوا سالمين. قالوا: وما يغني بنو زبيد عنّا؟ قال: إنّ في السلامة إحدى الغنيمتين. قالوا: إن عتيبة بن الحارث قد مات، وقال مفروق: قد انتفخ سحرك[٢] يا أبا الصهباء، وقال هانئ: اخسأ. فقال: إن أُسيد بن جباة لا يفارق فرسه الشقراء ليلاً ونهارًا فإذا أحسّ بكم ركبها حتى يشرف على مليحة، فينادي يا آل ثعلبة فيلقاكم طعن ينسيكم الغنيمة ولم يبصر أحد منكم مصرع صاحبه وقد عصيتموني وأنا تابعكم وستعلمون. فأغاروا على بني زبيد وأقبلوا نحو بني عتيبة وبني عبيد فأحسّت الشقراء فرس أُسيد بوقع الحوافز فنخست بحافرها، فركبها أُسيد وتوجّه نحو بني يربوع بمليحة، ونادى: يا سوء صباحاه يا آل ثعلبة بن يربوع، فما ارتفع الضحى حتى تلاحقوا فاقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزمت شيبان بعد أن قتلت من تميم جماعة من

---

(١) هو اسم لحصن في البحرين، والنباج ككتاب بلدة في البادية، ونبتل موضع أيضًا، وهذه الثلاث مواضع حصلت فيها حروب كان بنو منقر الغالبين فيها.

(٢) أي ملئت خوفًا.

فرسانهم، وقتل من شيبان أيضًا. وأُسر جماعة منهم هانئ بن قبيصة ففدى نفسه ونجا. فقال متمم بن نويرة في هذا اليوم:

لعمري لنعم الحيّ أسمع غدوة ... أُسيد وقد جدّ الصراخ المصدقُ
وأسمع فتيانًا كجنة عبقر ... لهم رَيِّق[1] عند الطعان ومصدق
أخذن بهم جنبي أفاق وبطنها ... فما رجعوا حتى أرقّوا وأعتقوا

وقال العوام في هذا اليوم:

قبح الإلـٰه عصابة من وائل ... يوم الأفاقة أسلموا بسطاما[2]
ورأى أبو الصهباء دون سوامهم ... طعنًا يسلي نفسه وزحاما
كنتم أسودًا في الوغا فوجدتم ... يوم الأُفاقة في الغبيط[3] نعاما

وأَكْثَرَ العوامُ الشِّعْر في هذا اليوم، فلما ألحّ فيه أخذ بسطام إبله، فقالت أمّه:

أرى كل ذي شعر أصاب بشعره ... خلا أنّ عوّامًا بما قال عيلَا[4]
فلا ينطقن شعرًا يكون جوازه ... كما شعر عوام أعام وأرجلَا[5]

٣٤ ـ يوم الشقيقة وقتل بسطام بن قيس

هذا يوم بين بني شيبان وضبة بن أُدّ قتل فيه بسطام بن قيس سيِّد شيبان، وكان سببه أن بسطام بن قيس بن مسعود بن خالد بن عبد الله ذي الجدّين غزا بني ضبّة، ومعه أخوه السليل بن قيس، ومعه رجل يزجر الطير من بني أسد بن خزيمة يسمّى نقيدًا، فلما كان بسطام في بعض الطريق رأى في منامه كأنّ آتيًا أتاه، فقال له: الدلو تأتي الغرب[6] المزله. فقصّ رؤياه على نقيد فتطيَّر وقال: ألَا قلت ثم تعود باديًا مبتله. فتفرط عنك النحوس، ومضى بسطام على وجهه فلما دنا من نقا[7] يقال له الحسن في بلاد ضبة صعده ليراه، فإذا هو بنعم قد ملأ الأرض فيه ألف ناقة لمالك بن المنتفق الضبي من بني ثعلبة بن سعد بن ضبة قد فقأ عين فحلها، وكذلك كانوا

---

(١) الرَّيِّق: الجواد بالنفس عند الموت. (٢) الأفاقة ـ ككناسة ـ: موضع بالكوفة.
(٣) الغبيط كأمير المركب الذي مثل أكفّ البخاتي، الغبيط البخاتي أو رحل قتبه وأنحاؤه واحدة.
(٤) أي صار ذا عيلة وفقر.
(٥) من قولك: أعامه الله أي تركه من غير لبن فأعام.
(٦) الغرب: الدلو العظيمة. (٧) النقا: الرمل الكثير.

يفعلون في الجاهلية إذا بلغت إبل أحدهم ألف بعير فقأوا عين فحلها لتردّ عنها العين وهي إبل مرتبعة، ومالك بن المنتفق فيها على فرسٍ له جواد.

فلما أشرف بسطام على النقا تخوف أن يروه فينذروا به فاْضطجع وتدهدى حتى بلغ الأرض، وقال: يا بني شيبان لم أرَ كاليوم قط في الغرة وكثرة النعم ونظر نقيد إلى لحية بسطام معفّرة بالتراب لما تدهدى فتطيّر له أيضًا، وقال: إن صدقت الطير فهو أوّل من يُقتل، وعزم الأسدي على فراقه فأخذته رعدة تهيّبًا لفراقه والانصراف عنه، وقال له: أرجع يا أبا الصهباء فإني أتخوّف عليك أن تُقتل فعصاه ففارقه نَقيد وركب بسطام وأصحابه وأغاروا على الإبل واطّردوها وفيها فحل لمالك يقال له أبو شاعر، وكان أعور، فنجا مالك على فرسه إلى قومه من ضبة حتى إذا أشرف على تعشار نادى: يا صباحاه، وعاد راجعًا وأدرك الفوارس القوم وهم يطردون النعم، فجعل فحله أبو شاعر يشذّ من النعم ليرجع، وتتبعه الإبل فكلما تبعته ناقة عقرها بسطام، فلما رأى مالك ما يصنع بسطام وأصحابه قال: ماذا السفه يا بسطام؟ لا تعقرها فإمّا لنا وإما لك، فأبى بسطام، وكان في آخريات الناس على فرسٍ أدهم يقال له الزعفران يحمي أصحابه، فلما لحقت خيل ضبة، قال لهم مالك: ارموا روايا القوم، فجعلوا يرمونها فيشقّونها، فلحقت بنو ثعلبة وفي أوائلهم عاصم بن خليفة الصباحي، وكان ضعيف العقل، وكان قبل ذلك يعقب قناة له فيقال له: ما تصنع بها يا عاصم؟ فيقول: أقتل عليها بسطامًا فيهرعون منه.

فلما جاء الصريخ ركب فرس أبيه بغير أمره ولحق الخيل، فقال لرجل من ضبة: أيّهم الرئيس؟ قال: صاحب الفرس الأدهم، فعارضه عاصم حتى حاذاه ثم حمل عليه فطعنه بالرمح في صماخ أذنه أنفذ الطعنة إلى الجانب الآخر، وخرّ بسطام على شجرة يقال لها الألاءة، فلما رأت ذلك شيبان خلوا سبيل النعم وولّوا الأدبار فمن قتيل وأسير، وأسر بنو ثعلبة نجاد بن قيس أخا بسطام في سبعين من بني شيبان، وكان عبد الله بن عنمة الضبي مجاورًا في شيبان، فخاف أن يُقتل، فقال يرثي بسطامًا:

لامُ الأرض ويــل مــا أجـنــت ... غداة أضر بالحسن السبيل
يقسم ماله فينا وندعو ... أبا الصهباء إذ جنح الأصيل
أجدكِ لن تريه ولن نراه ... تخب به عذافرة ذمول[1]

---

(١) الذمول المسرعة في مشيها.

حقيبة بطنها بدن وسرج ... تعارضها مزببة دؤل[1]
إلى ميعاد أرعن مكفهرٍ ... تضمر في جوانبه الخيول
لك المرباع منها والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول[2]
لقد صمت بنو زيد بن عمرو ... ولا يوفي ببسطام قتيل
فخرّ على الألاءة لم يوسد ... كأن جبينه سيف صقيل
فإن يجزع عليه بنو أبيه ... فقد فجعوا وفاتهم جليل
بمطعامٍ إذا الأشوال راحت ... إلى الحجرات ليس لها فصيل

فلم يبقَ في بكر بن وائل بيت إلّا وألقى لقتله لعلوّ محله.

وقال شمعلة بن الأخضر بن هبيرة الضبي يذكره:

ويوم شقيقة الحَسَنَيْن لاقت ... بنو شيبان آجالاً قصارا
شككنا بالرماح وهنّ زور ... صماخى كبشهم حتى استدارا
وأوجرناه[3] أسمر ذا كعوب ... يشبه طوله مسدًا مغارا

(الشقيقة): أرض صلبة بين جبلي رمل. (والحسنان): نقوا رمل كانت الوقعة عندهما. وقالت أم بسطام بن قيس ترثيه:

لبيك ابن ذي الجدين بكر بن وائل
فقد بان منها زينها وجمالها
إذا ما غدا فيهم غدوا وكأنهم
نجوم سماء بينهنّ هلالها
فلله عينا من رأى مثله فتًى
إذا الخيل يوم الروع هبّ نزالها

---

(١) مزببة أي كثيرة الشعر، وفي رواية ابن عبد ربه:
حقيبةُ رحلها بدن سرج ... يعارضها مرتبة دؤل
ولعلّها زؤل وهي التي تسير سَيْر الذئب، وإلاّ فلا معنى لها.

(٢) المرباع: ربع الغنيمة ويكون للرئيس. والنشيطة: ما أُصيب من المال قبل اللّقاء، ما لا يقبل القسمة، حقوق الرئاسة.

(٣) أوجره بالرمح: طعنه به في فيه.

عـزيـز الـمـكـرّ لا يـهـد جـنـاحـه
ولـيـث إذا الـفـتـيـان زلّت نـعـالـهـا
وحـمّـال أثـقـال وعـائـد مـحـجـر
تـحـلّ إلـيـه كـل ذاك رحـالـهـا
سـيـبـكـيـك عـان[1] لـم يـجـد مـن يـفـكـه
ويـبـكـيـك فـرسـان الـوغـى ورجـالـهـا
وتـبـكـيـك أسـرى طـالـمـا قـد فـكـكـتـهـم
وأرمـلـة ضـاعـت وضـاع عـيـالـهـا
مـفـرج حـومـات الـخـطـوب ومـدرك الـحـ
ـروب إذا صـالـت وعـزّ صـيـالـهـا
تـغـشـى بـهـا حـيـنـًا كـذاك فـفـجـعـت
تـمـيـم بـه أرمـاحـهـا ونـبـالـهـا
فـقـد ظـفـرت مـنّـا تـمـيـم بـعـثـرة
وتـلـك لـعـمـري عـثـرة لا تـقـالـهـا
أصـيـبـت بـه شـيـبـان والـحـيّ يـشـكـر
وطـيـر يـرى إرسـالـهـا وحـبـالـهـا

(عَنَمة): بفتح العين المهملة والنون.

٣٥ ـ يوم النسار

النِّسَار: أجبل متجاورة وعندها كانت الوقعة وهو موضع معروف عندهم، وكان سبب ذلك اليوم أنّ بني تميم بن مر بن أُدّ كانوا يأكلون عمومتهم ضبة بن أد وبني عبد مناة بن أُد، فأصابت ضبة رهطًا من تميم فطلبتهم تميم، فأنزاحت جماعة الرباب وهم تيم وعدي وثور وأطحل وعكل بنو عبد مناة بن أُدّ وضبة بن أُد، وإنما سُمُّوا الرباب لأنهم غمسوا أيديهم في الرب حين تحالفوا ـ فلحقت ببني أسد وهم يومئذ حلفاء لبني ذبيان بن بغيض ـ فنادى صارخ بني ضبّة: يا آل خِندف فأصرختهم

[1] العاني: الأسير.

بنو أسد وهو أول يوم تخندفت فيه ضبّة، واستمدّوا حليفهم ظبيًا وغطفان، فكان رئيس أسد يوم النسار عوف بن عبد الله بن عامر بن جَذيمة بن نصر بن قعين، وقيل: خالد بن نَضلة، وكان رئيس الرباب الأسود بن المنذر أخو النعمان وليس بصحيح، وكان على الجماعة كلّهم حصن بن حذيفة بن بدر، وفيه يقول زهير بن أبي سُلْمٰى:

ومن مثل حصن في الحروب ومثله لأنداد ضيم أو لأمر يحاوله
إذا حلّ أحياء الأحاليف حوله بذي نجب هداته وصواهله

فلما بلغ بني تميم ذلك ٱستمدّوا بني عامر بن صعصعة فأمدّوهم، وكان حاجب بن زُرارة على بني تميم، وكان عامر بن صعصعة جوّابًا وهو لقب مالك بن كعب من بني أبي بكر بن كلاب؛ لأن بني جعفر كانوا جوّابين قد أخرجهم إلى بني الحارث بن كعب فحالفوهم، وقيل: كان رئيس عامر شُريح بن مالك القُشيريّ، وسار الجمعان فالتقوا بالنِّسار واقتتلوا، فصبرت عامر، واستحرّ بهم القتل وانفضّت تميم فنجت، ولم يصب منهم كثير، وقتل شريح القُشيري رأس بني عامر، وقُتل عبيد بن معاوية بن عبد الله بن كلاب وغيرهما، وأخذ عدَّة من أشراف نساء بني عامر، منهنّ؛ سلمى بنت المخلف، والعنقاء بنت همام وغيرهما، فقالت سلمٰى تعيّر جوّابًا والطفيل:

لحيّ الإله أبا ليلى بفرته يوم النِّسار وقنب العير جوّابا
كيف الفخار وقد كانت بمعتركٍ يوم النِّسار بنو ذُبيان أربابا
لم تمنعوا القوم إذا أشلّوا سوامكم ولا النِّساء وكان القوم أحرابا

وقال رجل يعيّر جوّابًا والطفيل بفراره عن امرأتيه:

وفرّ عن ضرّتيه وجه خارثة ومالك فرّ قنب العير جوّاب

(القنب): غلاف الذكر. وجوّاب لقب لأنه كان يجوب الآثار، واسمه مالك، وقال بشر بن أبي خازم في هزيمة حاجب:

وأفلت حاجب جوَّب العوالي على شقراء تلمع في السرابِ
ولو أدركن رأس بني تميم عفرن الوجه منه بالترابِ

وكان يوم النّسار بعد يوم جبلة، وقتل لقيط بن زُرارة.

٣٦ ـ يوم الجفار

لما كان على رأس الحول من يوم النِّسار اجتمع من العرب مَنْ كان شهد النِّسار، وكان رؤساؤهم بالجفار الرؤساء الذين كانوا يوم النِّسار إلَّا أن بني عامر، قيل: كان رئيسهم بالجفار عبد الله بن جعدة بن كعب بن ربيعة، فالتقوا بالجفار واقتتلوا، وصبرت تميم فعظم فيها القتل وخاصّة في بني عمرو بن تميم، وكان يوم الجفار يسمى «الصيلم» لكثرة من قُتِل به. وقال بشر بن أبي خازم في عصبة تميم لبني عامر:

عصبت تميم أنْ يُقتل عامر … يوم النِّسار فأعقبوا بالصيلم
كنّا إذا نفروا لحربٍ نفرةً … نشفي صداعهم برأس صِلدم
نعلو الفوارس بالسيوف ونعتري … والخيل مشعلة النحور من الدم
يخرجن من خلل الغبار عوابسًا … خبب السباع بكل ليث ضيغم

وهي عدّة أبيات، وقال أيضًا:

يوم الجفار ويوم النسا … ر كانا عذابًا وكانا غراما
فأما تميم بن مرّ … فألفاهم القوم روبى نياما
وأمّا بنو عامرٍ بالجفا … ر ويوم النِّسارِ فكانوا نِعاما

فلما أكثر بشر على بني تميم قيل له: ما لك ولتميم وهم أقرب الناس منك أرحامًا؟ فقال: إذا فرغت منهم فرغت من الناس ولم يبقَ أحد.

٣٧ ـ يوم الصفقة والكلاب الثاني

أمّا يوم الصفقة، وسببه فإن باذان نائب كسرى أبرويز بن هرمز باليمن أرسل إليه حملاً من اليمن، فلما بلغ الحمل إلى نطاع مِنْ أرض نجد أغارت تميم عليه وانتهبوه، وسلبوا رسل كسرى وأساورته فقدموا على هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة مسلوبين فأحسن إليهم وكساهم، وقد كان قبل هذا إذا أرسل كسرى لطيمة تباع باليمن يجهز رسله ويخفرهم ويحسن جوارهم، وكان كسرى يشتهي أن يراه ليجازيه على فِعْلِهِ، فلما أحسن أخيرًا إلى هؤلاء الرسل الذين أخذتهم تميم، قالوا له: إن الملك لا يزال يذكرك ويؤثر أن تَقْدَمَ عليه.

فسار معهم إليه، فلما قدم عليه أكرمه وأحسن إليه وجعل يحادثه لينظر عقله، فرأى ما سَرَّه فأمر له بمال كثير وتوجّه بتاج من تيجانه، وأقطعه أموالاً نهجر وكان هوذة نصرانيًا، وأمره كسرى أن يغزو هو والمكعبر[١] مع عساكر كسرى بني تميم، فساروا إلى هَجَر ونزلوا بالمشقر، وخاف المكعبر وهوذة أن يدخلا بلاد تميم لأنها لا تحتملها العجم وأهلها بها ممتنعون، فبعثا رجالاً من بني تميم يدعونهم إلى الميرة، وكانت شديدة[٢] فأقبلوا على كل صعبٍ وذلول فجعلوا المكعبر يدخلهم الحصن خمسة خمسة وعشرة عشرة وأقلّ وأكثر يدخلهم من باب على أنه يخرجهم من آخر، فكل من دخل ضرب عنقه. فلمّا طال ذلك عليهم ورأوا أن الناس يدخلون ولا يخرجون بعثوا رجالاً يستعلمون الخبر، فشدّ رجل من عبس فضرب السلسلة فقطعها وخرج من كان بالباب، فأمر المكعبر بغلق الباب وقتل كل من كان بالمدينة، وكان يوم الفصح فاستوهب هوذة منه مائة رجل فكساهم وأطلقهم يوم الفصح، فقال الأعشى من قصيدة يمدح هوذة:

بهم يقرب يوم الفصح ضاحية يرجو الإلٰه بما أسدى وما صنعا

فصار يوم المشقر[٣] مثلاً وهو يوم الصفقة لا صفاق الباب وهو إغلاقه، وكان يوم الصفقة وقد بعث النبيّ ﷺ وهو بمكّة بعدُ لم يهاجر. وأمّا يوم الكلاب الثاني فإن رجلاً من بني قيس بن ثعلبة قدم أرض نجران على بني الحارث بن كعب وهم أخواله، فسألوه عن الناس خلفه فحدّثهم أنه أصفق على بني تميم باب المشقر وقتلت المقاتلة وبقيت أموالهم وذراريهم في مساكنهم لا مانع لها، فاجتمعت بنو الحارث من مذحج وأحلافها من نهد وجرم بن زبان، فاجتمعوا في عسكرٍ عظيم بلغوا ثمانية آلاف ولا يعلم في الجاهلية جيش أكثر منه ومن جيش كسرى بذي قار، ومن يوم جبلة، وساروا يريدون بني تميم فحذّرهم كاهن كان مع بني الحارث، واسمه سلمة بن المغفل، وقال: إنكم تسيرون أعيانًا، وتغزون أحيانًا، سعدًا وريانًا، وتردون مياهها جيابًا، فتلقون عليها ضرابًا[٤]، وتكون غنيمتكم ترابًا، فأطيعوا أمري ولا تغزو تميمًا، فعصوه وساروا إلى عروة فبلغ الخبر تميمًا فاجتمع ذوو الرأي منهم إلى أكثم بن صيفي وله يومئذ مائة وتسعون سنة، فقالوا له: يا أبا حيدة حقّق هذا

---

(١) المكعبر: بكسر الباء العربي والعجمي ضد، وبفتح الباء: شاعران (القاموس).
(٢) لعلّ قوله: شديدة صفة لموصوفه محذوف تقديره (سنة).
(٣) المشقر ـ كمعظم ـ: حصن بالبحرين. (٤) مصدر ضارب، أي: جالد.

الأمر فإنّا قد رضيناك رئيسًا، فقال لهم:

وإن امرأً قد عاش تسعين حجة   إلى مائة لم يسأم العيش جاهل

مضت مائتان غير عشر وفاؤها   وذلك من عدّ الليالي قلائل

ثم قال لهم: لا حاجة لي في الرياسة ولكني أشير عليكم لينزل حنظلة بن مالك بالدهناء، ولينزل سعد بن زيد مناة والرباب وهم ضبة بن أُد وثور وعكل وعدي بنو عبد مناة بن أُدّ الكلاب فأي الطريقين أخذ القوم كفى أحدهما صاحبه، ثم قال لهم: احفظوا وصيّتي لا تحضروا النساء الصفوف، فإن نجاة اللّئيم في نفسه ترك الحريم، وأقلّوا الخلاف على أمرائكم، ودعوا كثرة الصياح في الحرب فإنه من الفشل: والمرء يعجز لا محالة، فإن أحمق الحمق الفجور، وأكيس الكيس التقى، كونوا جميعًا في الرأي، فإن الجميع معزّز للجميع، وإيّاكم والخلاف: فإنه لا جماعة لمن اختلف، ولا تلبثوا ولا تسرعوا، فإن أحزم الفريقين الركين، ورب عجلة تهب ريثًا: وإذا عزّ أخوك فهن، البسوا جلود النمور، وأبرزوا للحرب وادّرعوا الليل واتّخذوه جملاً فإن الليل أخفى للويل: والثبات أفضل من القوّة، وأهنأ الظفر كثرة الأسرى، وخير الغنيمة المال، ولا ترهبوا الموت عند الحرب: فإن الموت من ورائكم وحب الحياة لدى الحرب زلل، ومن خير أمرائكم النعمان بن مالك بن حارث بن جساس وهو من بني تميم بن عبد مناة بن أُدّ، فقبلوا مشورته.

ونزلت عمرو بن حنظلة الدهناء، ونزلت سعد والرباب الكلاب، وأقبلت مذحج ومن معها من قضاعة فقصدوا الكلاب وبلغ سعدًا والرباب الخبر فلما دنت مذحج نذرهم شميت بن زِنباع اليربوعي، فركب جمله وقصد سعدًا ونادى: يا آل تميم يا صباحاه، فثار الناس وانتهت مذحج إلى النعم، فانتهبها الناس وراجزهم يقول:

في كل عام نعم ننتباه   على الكلاب غيب أصحابه

يسقط في آثاره غلابه

فلحق قيس بن عاصم المنقري، والنعمان بن جساس، ومالك بن المنتفق في سرعان الناس، فأجابه قيس يقول:

عمّا قليل تلتحق أربابه   مثل النجوم حسرًا سحابه

ليمنعنّ النعم اغتصابه   سعد وفرسان الوغى أربابه

ثم حمل عليهم قيس، وهو يقول:

في كل عام نعم تحوونه | يلحقه قوم وينتجونه[1]
أربابه نوكى[2] فلا يحمونه | ولا يلاقون طعانًا دونه
أنعم الأبناء تحسبونه؟ | هيهات هيهات لما ترجونه

فاقتتل القوم قتالاً شديدًا يومهم أجمع، فحمل يزيد بن شدّاد بن قنان الحارثي على النعمان بن مالك بن جساس فرماه بسهم فقتله، وصارت الرياسة لقيس بن عاصم، واقتتلوا حتى حجز بينهم الليل وباتوا يتحارسون، فلما أصبحوا غدوا على القتال، وركب قيس بن عاصم، وركبت مِذحج واقتتلوا أشدّ من القتال الأول، فكان أوّل من انهزم من مذحج مدرج الرياح وهو عامر بن الجون بن عبد الله الجرمي، وكان صاحب لوائهم، فألقى اللواء وهرب فلحقه رجل من بني سعد فعَقَرَ به دابّته فنزل يهرب ماشيًا، ونادى قيس بن عاصم: يا آل تميم عليكم الفرسان ودعوا الرّجال فإنها لكم، وجعل يلتقط الأسارى وأسر عبد يغوث بن الحارث بن وقاص الحارثي رئيس مذحج فقُتِل بالنعمان بن مالك بن جساس، وكان عبد يغوث شاعرًا فشدّوا لسانه قبل قتله لئلّا يهجوهم، فأشار إليهم ليحلّوا لسانه ولا يهجوهم فحلّوه، فقال شعرًا:

ألا لَا تلوماني كفى اللوم ما بِيَا | فما لكما في اللّوم نفع ولا ليا
ألم تعلما أن الملامة نفعها | قليل وما لومي أخي من شماليا
فيا راكبًا إما عرضت فبلغن | نداماي من نجران أن لا تلاقيا
أبا كربُ وألا يهمين كليهما | وقيسًا بأعلى حضرموت اليمانيا
أقول وقد شدّوا لساني بنسعةٍ[3] | : معاشر تيم أطلقوا من لسانيا
كأني لم أركب جوادًا ولم أقل | لخيلي كرى كرة من ورائيا
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل | لإيسار صدقٍ عظموا ضوء ناريا
وقد علمت عرسي مليكة أنني | أنا اللّيث معدوًا عليه وعاديا
لحى اللّه قومًا بالكلاب شهدتهم | صميمهم والتابعين والمواليا

(١) صوابه: يلقحه قوم وتنتجونه.

(٢) جمع: أنوك ـ وهو الأحمق.

(٣) النسعة: قطعة من سير ينسج عريضًا تُشَدُّ به الرحال.

ولو شئت نجتني من القوم شطبة[١] ترى خلفها الكمت العتاق تواليا
وكنت إذا ما لخيل شمصها[٢] القنا لبيقًا بتصريف القناة بنانيا
فيا عاصٍ فك القيد عنّي فإنني صبور على مرّ الحوادث ناكيا[٣]
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيّداً وإن تطلقوني تحربوني ماليا

(أبو كرب): بشر بن علقمة بن الحارث.

(والأيهمان): الأسود بن علقمة بن الحارث والعاقب وهو عبد المسيح بن الأبيض، وقيس بن معديكرب فزعموا أن قيسًا قال: لو جعلني أوّل القوم لافتديته بكل ما أملك، ثم قتل ولم يُقبل له فدية.

(رباب): بالراء والباء الموحدة.

٣٨ ـ يوم ظهر الدّهناء

هو يوم بين طي وأسد بن خزيمة، وسبب ذلك أن أوس بن حارثة بن لأم الطائي كان سيّدًا مطاعًا في قومه وجوّادًا مقدامًا، فوفد هو وحاتم الطائي على عمرو بن هند، فدعا عمرو أوسًا، فقال له: أنت أفضل أم حاتم؟ فقال: أبيت اللعن إن حاتمًا أوحدها وأنا أحدها، ولو ملكني حاتم وولدي ولحمتي لوهبنا في غداة واحدة، ثم دعا عمرو حاتمًا فقال له: أنت أفضل أم أوس؟ فقال: أبيت اللعن إنما ذكرت أوسًا ولأحد ولده أفضل مني، فاستحسن ذلك منهما وحباهما وأكرمهما، ثم إن وفود العرب من كل حيٍّ اجتمعت عند النعمان بن المنذر وفيهم أوس، فدعا بحلّة من حلل الملوك، وقال للوفود: احضروا في غدٍ فإني ملبس هذه الحلة أكرمكم، فلما كان الغد حضر القوم جميعًا إلّا أوسًا فقيل له: لم تتخلف؟ فقال: إن كان المراد غيري فأجمل الأشياء بي أن لا أكون حاضرًا، وإن كنت المراد فسأُطلب، فلما جلس النعمان ولم يرَ أوسًا قال: اذهبوا إلى أوس، فقولوا له: احضر آمنًا مما خفت، فحضر فأُلبس الحلّة فحسده قوم من أهله، فقالوا للحطيئة: أهجه ولك ثلثمائة ناقة، فقال: كيف أهجو

---

(١) الشطبة: الفرس الطويلة السبطة اللحم. (٢) شمصها: طردها.
(٣) ناكياً ـ بالنون، أي: قاتلًا وجارحًا ـ ويحتمل باكيًا أي يبكي نفسه لا يهجوهم، وهذا البيت لا وجود له في مفضليات الضبي ولا في الأغاني، ولا في العقد الفريد في أثناء روايتهم القصيدة (م).

رجلاً لا أرى في بيتي أثاثًا ولا مالاً إلّا منه؟ ثم قال:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة ... من يهل لأم بظهر الغيب تأتيني

فقال لهم بشر بن أبي خازم: أنا أهجوه لكم فأعطوه النوق وهجاه فأفحش في هجائه وذكر أمّه سعدى، فلما عرف أوس ذلك أغار على النوق فاكتسحها وطلبه فهرب منه والتجأ إلى بني أسد عشيرته، فمنعوه منه ورأوا تسليمه إليه عارًا، فجمع أوس جديلة طيئ وسار بهم إلى أسد، فالتقوا بظهر الدهناء تلقاء تيم فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت بنو أسد وقتلوا قتلاً ذريعًا، وهرب بشر، فجعل لا يأتي حيًا يطلب جوارهم إلّا امتنع من إجارته على أوس ثم نزل على جندب بن حصن الكلابي بأعلى الصمان[1]، فأرسل إليه أوس يطلب منه بشرًا فأرسله إليه، فلما قدم به على أوس أشار عليه قومه بقتله فدخل على أمّه سعدى فاستشارها، فأشارت عليه أن يردّ عليه ماله ويعفو عنه ويحبوه فإنه لا يغسل هجاءه إلّا مدحه، فقبل ما أشارت به وخرج إليه، وقال: يا بشر ما ترى إني أصنع بك؟ فقال:

إني لأرجو منك يا أوس نعمةً ... وإني لأخرى منك يا أوس راهبُ

وإني لأمحو بالذي أنا صادقٌ ... به كلّ ما قد قلت إذ أنا كاذب

فهل نافعي في اليوم عندك أنني ... سأشكر إن أنعمت والشكر واجبُ

فدى لابنِ سعدى اليوم كل عشيرتي ... بني أسدٍ أقصاهمُ والأقارب

تداركني أوس بن سعدى بنعمةٍ ... وقد أمكنته من يديّ العواقب

فمنّ عليه أوس، وحمله على فرس جواد، وردّ عليه ما كان أخذ منه، وأعطاه من ماله مائة من الإبل، فقال بشر: لا جرم لا مدحت أحدًا حتى أموت غيرك، ومدحه بقصيدته المشهورة التي أوّلها:

أتعرف من هنيدة رسم دار ... بخرجي ذروة فإلى لواها

ومنها منزل ببراق خبت ... عفت حقبًا وغيرها بلاها

وهي طويلة.

---

(١) الصمان: كل أرض صلبة، وموضع بعالج.

٣٩ ـ يوم الوقيط

وكان من حديثه أن اللهازم تجمّعت: وهي قيس وتيم اللات ابنا ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ومعها عجل بن لجيم وعنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار لتغير على بني تميم وهم غارّون، فرأى ذلك الأعور وهو ناشب بن بَشامة العنبري، وكان أسيرًا في قيس بن ثعلبة، فقال لهم: أعطوني رجلاً أرسله إلى أهلي أوصيهم ببعض حاجتي، فقالوا له: ترسله ونحن حضور، قال: نعم، فأتوه بغلام مولد، فقال: أتيتموني بأحمق، فقال الغلام: والله ما أنا بأحمق، فقال: إني أراك مجنونًا، قال: والله ما بي جنون، قال: أتعقل، قال: نعم إني لعاقل، قال: فالنيران أكثر أم الكواكب؟ قال: الكواكب وكل كثيرة، فملأ كفه رملاً، وقال: كم في كفي؟ قال: لا أدري فإنه لكثير، فأومأ إلى الشمس بيده، وقال: ما تلك؟ قال: الشمس، قال: ما أراك إلّا عاقلاً اذهب إلى قومي فأبلغهم السلام، وقل لهم: ليحسنوا إلى أسيرهم فإني عند قوم يحسنون إليّ ويكرمونني، وقل لهم: فليعرّوا جملي الأحمر، ويركبوا ناقتي العيساء، وليرعوا حاجتي في بني مالك وأخبرهم أن العوسج قد أورق، وأن النساء قد اشتكت، وليعصوا همام بن بشامة فإنه مشؤوم مجدود، وليطيعوا هذيل بن الأخنس فإنه حازم ميمون، واسألوا الحارث عن خبري؛ وسار الرسول فأتى قومه فأبلغهم فلم يدروا ما أراد، فأحضروا الحارث وقصّوا عليه خبر الرسول، فقال للرسول: اقصص عليّ أوّل قصتك، فقصَّ عليه أول ما كلّمه حتى أتى على آخره، فقال: أبلغه التحية والسلام وأخبره أنا نستوصي بما أوصى به، فعاد الرسول ثم قال لبني العنبر أن صاحبكم قد بيَّن لكم أمّا الرمل الذي جعل في كفّه فإنه يخبركم أنه قد أتاكم عدد لا يحصى، وأمّا الشمس التي أومأ إليها فإنه يقول ذلك أوضح من الشمس، وأمّا جمله الأحمر فالصمان فإنه يأمركم أن تعروه يعني ترتحلوا عنه؛ وأمّا ناقته العيساء فإنه يأمركم أن تحترزوا في الدهناء، وأمّا بنو مالك فإنه يأمركم أن تنذروهم معكم، وأما إيراق العوسج فإن القوم قد لبسوا السلاح، وأمّا اشتكاء النساء فإنه يريد أن النساء قد خرزن الشكاء وهي أسقية الماء للغزو، فحذر بنو العنبر وركبوا الدهناء وأنذروا بني مالك فلم يقبلوا منهم، ثم إن اللهازم عجلاً وعنزة أتوا بني حنظلة فوجدوا عمرًا قد أجلت فأوقعوا ببني دارم بالوقيط، فاقتتلوا قتالاً شديدًا وعظمت الحرب بينهم، فأسرت ربيعة جماعة من رؤساء بني تميم منهم ضرار بن القعقاع بن معبد بن زُرارة فجزّوا ناصيته وأطلقوه، وأسروا عَثْجَل بن المأمون بن زُرارة وجويرة بن بدر بن عبد الله بن دارم ولم يزل

في الوثاق حتى رآهم يومًا يشربون فأنشأ يتغنّى يُسمعهم ما يقول:

وقـــائـــلة مـــا غـــالـــه أن يـــزورنـــا
وقـد كـنـت عـن تـلك الـزيـارة فـي شـغـلِ
وقـــد أدركـــتـــنـــي والـــحـــوادث جـــمّـــة
مـــخـــالـــب قـــوم لا ضـــعـــاف ولا عـــزّل
ســراع إلــى الــجــلى[١] بــطــاء عــن الــخــنــا
رزان[٢] لـدى الـبـاذيـن[٣] فـي غـيـر مـا جـهـل
لـــعـــلهـــم أن يـــمـــطـــرونـــي بـــنـــعـــمـــةٍ
كـمـا صـاب مـاء الـمـزن فـي الـبـلد الـمـحـل
فـــقـــد يـــنـــعـــش الـــلّه الـــفـــتـــي بـــعـــد ذلّة
وقـد تـبـتـنـي الـحـسـنـى سـراة بـنـي عـجـل

فلما سمعوا الأبيات أطلقوه وأسر أيضًا نعيم وعوف ابنا القعقاع بن معبد بن زُرارة وغيرهما من سادات بني تميم، وقتل حُكيم بن النهشلي، ولم يشهدها من نهشل غيره، وعادت بكر فمرّت بطريقها بعد الوقعة بثلاثة بجذيمة بن الأصيلع نفر من بني العنبر لم يكونوا ارتحلوا مع قومهم، فلما رأوهم طردوا إبلهم فأحرزوها من بكر. وأكثر الشعراء في هذا اليوم، فمن ذلك قول أبي مهوّش الفقعسي يعيّر تميمًا بيوم الوقيط:

فما قاتلت يوم الوقيطين نهشل   ولا الأنكد الشؤمي فقيم بن دارم
ولا قبضت[٤] عوف رجال مجاشع   ولا قشر الاستاه غير البراجم[٥]

وقال أبو الطفيل عمرو بن خالد بن محمود بن عمرو بن مرثد:

حكت تميم بركها لما التقت   راياتنا ككواسر العقبان
دهموا الوقيط بجحفل جم الوغى   ورماحها كنوازع الأشطان[٦]

---

(١) أي الأمور العِظام.   (٢) أي ثقال.
(٣) هم أصحاب البذاءة وفاحش القول.   (٤) أي: قطعت.
(٥) البراجم: قوم من تميم، قال أبو عبيدة: خمسة من أولاد حنظلة بن مالك بن عمرو بن تميم يقال لهم البراجم.
(٦) جمع: شطن، وهو حبل البئر.

٤٠ ـ يوم المرّوت

وهو يوم بين تميم وعامر بن صعصعة وكان سببه أنه التقى قعنب بن عتاب الرياحي، وبَحير بن عبد الله بن سلمة العامري بعكاظ، فقال بحير لقعنب: ما فعلت فرسك البيضاء؟ قال: هي عندي وما سؤالك عنها؟ قال: لأنها نجتك مني يوم كذا وكذا، فأنكر قعنب ذلك وتلاعنا وتداعيا أن يجعل الله ميتة الكاذب بيد الصادق فمكثا ما شاء الله، وجمع بحير بني عامر وسار بهم، فأغار على بني العنبر بن عمرو بن تميم بأرمّ الكلبة وهم خلوف، فاستاق السبي والنعم ولم يلق قتالًا شديدًا، وأتى الصريخ بني العنبر بن عمرو بن تميم، وبني مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وبني يربوع بن حنظلة، فركبوا في الطلب، فتقدّمت عمرو بن تميم فلما انتهى بحير إلى المروت قال: يا بني عامر انظروا هل ترون شيئًا؟ قالوا: نرى خيلًا عارضة رماحها على كواهل خيلها، قال: هذه عمرو بن تميم وليست بشيء، فلحق بهم بنو عمرو فقاتلوهم شيئًا من قتال ثم صدروا عنهم ومضى بحير، ثم قال: يا بني عامر انظروا هل ترون شيئًا؟ قالوا: نرى خيلًا ناصبة رماحها، قال: هذه مالك بن حنظلة وليست بشيء، فلحقوا فقاتلوا شيئًا من قتال ثم صدروا عنهم ومضى بحير، وقال: يا بني عامر انظروا هل ترون شيئًا؟ قال: نرى خيلًا ليست معها رماح وكأنما عليها الصبيان، قال: هذه يربوع رماحها بين آذان خيلها إياكم والموت الزؤام فاصبروا ولا أرى أن تنجو، فكان أوّل من لحق من بني يربوع الواقعة وهو نعيم بن عتاب ـ وكان يسمّي الواقعة لبليته ـ فحمل على المثلم القشيري فأسره، وحملت قشير على دوكس بن واقد بن حُوط، فقتلوه وأسر نعيم المصفى القشيري فقتله، وحمل كدام بن بجيلة المازني على بحير فعانقه ولم يكن لقعنب همّة إلّا بحير، فنظر إليه وإلى كدام قد تعانقا فأقبل نحوهما، فقال كدام: يا قعنب أسيري، فقال قعنب: ماز رأسك والسيف، يريد: يا مازني فخلّى عنه كدام وشدّ عليه قعنب، فضربه فقتله، وحمل قعنب أيضًا على صهبان وأم صهبان مازنية فأسره، فقالت بنو مازن: يا قعنب قتلت أسيرنا فأعطنا ابن أخينا مكانه، فدفع إليهم صهبان في بحير فرضوا بذلك، واستنقذت بنو يربوع أموال بني العنبر وسبيهم من بني عامر وعادوا.

(بَحِير): بفتح الباء الموحدة وكسر الحاء المهملة.

٤١ ـ يوم فيف الريح

وهو بين عامر بن صعصعة والحارث بن كعب، وكان خبره أن بني عامر كانت تطلب بني الحارث بن كعب بأوتار كثيرة، فجمع لهم الحصين بن يزيد بن شداد بن قنان الحارثي وهو ذو الغصة واستعان بجعفة زبيد، وقبائل سعد العشيرة ومراد وصدّاء، ونهد، وخثعم وشهران، وناهس. ثم أقبلوا يريدون بني عامر وهم منتجعون مكانًا يقال له: فيف الريح، ومع مِذْحِج النساء والذراري حتى لا يفرّوا، فاجتمعت بنو عامر، فقال لهم عامر بن الطفيل: أغيروا بنا على القوم، فإني أرجو أن نأخذ غنائمهم ونسبي نساءهم ولا تدعوهم يدخلون عليكم؛ فأجابوه إلى ذلك، وساروا إليهم فلما دنوا من بني الحارث ومِذْحِج ومن معهم أخبرتهم عيونهم، وعادت إليهم مشايخهم فحذروا، فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديدًا ثلاثة أيام يعاودونهم[١] القتال بفيف الريح، فالتقى الصميل بن الأعور الكلابي وعمرو بن صبيح النهدي فطعنه عمرو، فاعتنق الصميل فرسه وعاد، فلقيه رجل من خثعم فقتله وأخذ درعه وفرسه، وشهدت بنو نمير يومئذ مع عامر بن الطفيل فأبلوا بلاء حسنًا وسمّوا ذلك اليوم حريجة الطعان؛ لأنهم اجتمعوا برماحهم فصاروا بمنزلة الحرجة وهي شجر مجتمع. وسبب اجتماعهم أن بني عامر جالوا جولة إلى موضع يقال له العرقوب، والتفت عامر بن الطفيل فسأل عن بني نمير فوجدهم قد تخلّفوا في المعركة فرجع وهو يصيح: يا صباحاه يا نميراه ولا نمير لي بعد اليوم، حتى اقتحم فرسه وسط القوم، فقويت نفوسهم، وعادت بنو عامر وقد طعن عامر بن الطفيل ما بين ثغرة نحره إلى سرّته عشرين طعنة، وكان عامر في ذلك اليوم يتعهد الناس فيقول: يا فلان ما رأيتك فعلت شيئًا فمن أبلى فليرني سيفه أو رمحه، ومن لم يبل شيئًا تقدم فأبلى، فكان كل من أبلى بلاء حسنًا أتاه فأراه الدم على سنان رمحه أو سيفه، فأتاه رجل من الحارثيين اسمه مسهر، فقال له: يا أبا علي انظر ما صنعت بالقوم؟ انظر إلى رمحي فلما أقبل عليه عامر لينظر وجأه بالرمح في وجنته ففلقها وفقأ عينه وترك رمحه وعاد إلى قومه، وإنما دعاه إلى ذلك ما رآه يفعل بقومه، فقال: هذا والله مبير قومي، فقال عامر بن الطفيل:

أتونا بشهران العريضة كلها ... وأكلب طرافي جياد السنوّر[٢]

لعمري وما عمري عليّ بهيِّنٍ ... لقد شان حر الوجه طعنة مسهر

فبئس الفتى إن كنت أعور عاقرًا ... جبانًا وما أغنى لدى كل محضر

(١) وفي نسخة: يغادونهم.

(٢) السنور: لبوس من قد كالدرع وجملة السلاح.

وأسرت بنو عامر يومئذ سيد مراد جريحًا فلما برأ من جراحته أُطلق، وممن أبلى يومئذ أربد بن قيس بن حر بن خالد بن جعفر، وعبيد بن شريح بن الأحوص بن جعفر، وقال لبيد بن ربيعة ويقال إنها لعامر بن الطفيل:

أتونا بشهران العريضة كلها ... وأكلها في مثل بكر بن وائلِ
فبتنا ومن ينزل به مثل ضيفنا ... يبت عن قرى أضيافه غير غافل
أعاذل لو كان البداد لقوبلوا ... ولكن أتانا كل جنٍّ وخابل
وخثعم حي يعدلون بمِذْحج ... فهل نحن إلّا مثل إحدى القبائل

وأسرع القتل في الفريقين جميعًا، ثم إنهم افترقوا ولم يشتغل بعضهم عن بعض بغنيمة، وكان الصبر فيها والشرف لبني عامر.

٤٢ ـ يوم اليحاميم ويعرف أيضًا بقارات حوق

وهو بين قبائل طيىء بعضها في بعض، وكان سبب ذلك أن الحارث بن جبلة الغساني كان قد أصلح بين طيىء، فلما هلك عادت إلى حربها، فالتقت جديلة والغوث بموضع يقال له غرثان، فقتل قائد بني جديلة وهو أسبع بن عمرو بن لأم عم أوس بن خالد بن حارثة بن لأم وأخذ رجل من سنبس يقال له مصعب أذنيه فخصف بهما نعليه، وفي ذلك يقول أو سروة السنبسي:

نخصف بالآذان منكم نعالنا ... ونشرب كرهًا منكم في الجماجم

وتناقل الحيان في ذلك أشعارًا كثيرة وعظم ما صنعت الغوث على أوس بن خالد بن لأم وعزم على لقاء الحرب بنفسه، وكان لم يشهد الحروب المتقدمة هو ولا أحد من رؤساء طيىء؛ كحاتم بن عبد الله وزيد الخيل وغيرهم من الرؤساء، فلما تجهّز أوس للحرب وأخذ في جمع جديلة ولفّها، قال أبو جابر:

أقيموا علينا القصد يا آل طيىء ... وإلّا فإن العلم عند التحاسبِ
فمن مثلنا يومًا إذا الحرب شمّرت ... ومن مثلنا يومًا إذا لم نحاسب
فإن تقطعيني أو تريدي مساءتي ... فقد قطع الخوف المخوف ركائبي

وبلغ الغوث جمع أوس لها وأوقدت النار على مناع وهي ذروة أجأ، وذلك أول يوم توقد عليه النار، فأقبلت قبائل الغوث كل قبيلة وعليها رئيسها منهم زيد الخيل وحاتم، وأقبلت جديلة مجتمعة على أوس بن حارثة بن لأم، وحلف أوس أن لا

يرجع عن طيىء حتى ينزل معها جبليها أجأ وسلمى وتجبى له أهلها وتزاحفوا والتقوا بقارات حوق على راياتهم، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ودارت الحرب على بني كباد بن جندب فأبيروا، قال عدي بن حاتم: إني لو أقف يوم اليحاميم والناس يقتتلون إذ نظرت إلى زيد الخيل قد حضر ابنيه مكنفًا وحُريثًا في شعب لا منفذ له وهو يقول: أي ابني أبقيا على قومكما، فإن اليوم يوم التفاني، فإن يكن هؤلاء أعمامًا فهؤلاء أخوال، فقلت: كأنك قد كرهت قتال أخوالك، قال: فاحمرّت عيناه غضبًا وتطاول إليّ حتى نظرت إلى ما تحته من سرجه فخفته فضربت فرسي وتنحيت عنه واشتغل بنظره إليّ عن ابنيه فخرجا كالصقرين، وحمل قيس بن عازب على بحير بن زيد الخيل بن حارثة بن لأم فضربه على رأسه ضربة عنق لها بحير فرسه وولّى فانهزمت جديلة عند ذلك وقتل فيها قتل ذريع، فقال زيد الخيل:

يـجـيء بـنـي لأم جـيـاد كـأنـهـا عصائب طير يوم طل وحاصبِ
فإن تنج منها لا يزل بك شامة أناء حيًا بين الشجا والترائب
وفـرّ ابـن لأم واتّـقـانـا بـظـهـره يردعه بالرمح قيس بن عازب
وجاءت بنو معن كأن سيوفهم مصابيح من سقف فليس بآيب
وما فرّ حتى أسلم بن حُمارس لوقعة مصقول من البيض قاضب

فلم تبق لجديلة بقية للحرب بعد يوم اليحاميم، فدخلوا بلاد كلب فحالفوهم وأقاموا معهم.

٤٣ ـ يوم ذي طلوح

وهو يوم الصمد ويوم أود أيضًا وهو بين بكر وتميم، وكان من حديثه أن عميرة بن طارق بن أرقم اليربوعي التميمي تزوج مُريّة بنت جابر العجلي أخت أبجر، وسار إلى عجل ليبتني بأهله، وكان له في بني تميم امرأة أخرى تعرف بابنة النطف من بني تميم، فأتى أبجر أخته يزورها وزوجها عندها، فقال لها أبجر: إني لأرجو أن آتيك بابنة النطف امرأة عميرة، فقال له: ما أراك تبقى عليّ حتى تسلبني أهلي، فندم أبجر، وقال له: ما كنت لأغزو قومك ولكنني متأسر في هذا الحيّ من تميم، وجمع أبجر والحوفزان بن شريك الشيباني، الحوفزان على شيبان وأبجر على اللّهازم، ووكلا بعميرة من يحرسه لئلا يأتي قومه فينذرهم، فسار الجيش فاحتال عميرة على الموكل بحفظه، وهرب منه وجدّ السير إلى أن وصل إلى بني يربوع، فقال لهم: قد غزاكم الجيش من بكر بن وائل، فأعلموا بني ثعلبة بطنًا منهم، فأرسلوا طليعة منهم فبقوا

ثلاثة أيام، ووصلت بكر فركبت يربوع، والتقوا بذي طلوح، فركب عميرة ولقي أبجر فعرّفه نفسه والتقى القوم واقتتلوا، فكان الظفر ليربوع، وانهزمت بكر وأُسر الحوفزان وابنه شريك وابن عنمة الشاعر، وكان مع بني شيبان فأفتكه متمم بن نويرة وأسر أكثر الجيش البكري، وقال ابن عنمة يشكر متممًا:

جزى اللّه رب الناس عني متممًا ... بخير الجزاء ما أعف وأجودا
أُجيرت به أبناؤنا ودماؤنا ... وشارك في إطلاقنا وتفرّدا
أبا نهشل إني لكم غير كافر ... ولا جاعل من دونك المال سرمدا

٤٤ ـ يوم أقرن

قال أبو عبيدة: غزا عمرو بن عمرو بن عدس التميمي بني عبس، فأخذ إبلهم واستاق سبيهم وعاد حتى إذا كان أسفل ثنية أقرن نزل وابتنى بجارية من السبي، ولحقه الطلب، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقَتَلَ أنس الفوارس بن زياد العبسي عمرًا وابنه حنظلة، واستردّوا الغنيمة والسبي، فنعى جرير على بني دارم ذلك، فقال:

أتنسون عمرًا يوم برقة أقرن ... وحنظلة المقتول إذ هو يافعا

وكان عمرو أسلع أبرص وكان هو ومن معه قد أخطأوا ثنية الطريق في عودهم وسلكوا غير الطريق، فسقطوا في الجبل الذي سلكوه فلقوا شدّة، ففي ذلك يقول عنترة:

كأن السرايا يوم نيق وصارة ... عصائب طير ينتحين لمشربِ
شفى النفس مني أو دنا لشفائها ... تهوّرهم من حالق متصوّب
وقد كنت أخشى أن أموت ولم تقم ... مراتب عمرو وسط نوح مسلب

وكانت أم سماعة بن عمرو بن عمرو من عبس فزاره خاله فقتله بأبيه، فقال في ذلك مسكين الدارمي:

وقاتل خاله بأبيه منّا ... سماعة لم يبع نسبًا بخال

٤٥ ـ يوم السلان

قال أبو عبيدة: كان بنو عامر بن صعصعة حمسًا، والحمس قريش ومن له فيهم ولادة، والحمس متشدّدون في دينهم، وكانت عامرًا أيضًا لقاحًا لا يدينون للملوك فلما ملك النعمان بن المنذر ملّكه كسرى أبرويز، وكان يجهز كل عام

لطيمة، وهي التجارة لتباع بعكاظ عرضت بنو عامر لبعض ما جهّزه، فأخذوه فغضب لذلك النعمان، وبعث إلى أخيه لأمّه وهو وبرة بن رومانس الكلبي، وبعث إلى صنائعه ووضائعه ـ والصنائع من كان يصطنعه من العرب ليغزيه؛ والوضائع هم الذين كانوا شبه المشايخ ـ وأرسل إلى بني ضبّة بن أُد وغيرهم من الرباب وتميم، فجمعهم فأجابوه ـ فأتاه ضرار بن عمرو الضبي في تسعة من بنيه كلهم فوارس ومعه حبش بن دلف ـ وكان فارسًا شجاعًا ـ فاجتمعوا في جيش عظيم فجهز النعمان معهم عيرًا وأمرهم بتسييرها، وقال لهم: إذا فرغتم من عكاظ وانسلخت الحرم ورجع كل قوم إلى بلادهم، فاقصدوا بني عامر فإنهم قريب بنواحي السلان، فخرجوا وكتموا أمرهم، وقالوا: خرجنا لئلا يعرض أحد للطيمة الملك، فلما فرغ الناس من عكاظ علمت قريش بحالهم، فأرسل عبد الله بن جدعان قاصدًا إلى بني عامر يعلمهم الخبر، فسار إليهم وأخبرهم خبرهم، فحذروا وتهيّؤوا للحرب وتحرّزوا ووضعوا العيون، وعاد عامر عليهم عامر بن مالك ملاعب الأسنّة، وأقبل الجيش فالتقوا بالسلان، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فبينما هم يقتتلون إذ نظر يزيد بن عمرو بن خويلد الصعق إلى وبرة بن رومانس أخي النعمان فأعجبه هيئته فحمل عليه فأسره، فلما صار في أيديهم همَّ الجيش بالهزيمة، فنهاهم ضرار بن عمرو الضبي، وقام بأمر الناس فقاتل هو وبنوه قتالاً شديدًا، فلمّا رآه أبو براء عامر بن مالك وما يصنع ببني عامر هو وبنوه حمل عليه، وكان أبو براء رجلًا شديد الساعد، فلما حمل على ضرار اقتتلا فسقط ضرار إلى الأرض وقاتل عليه بنوه حتى خلصوه وركب، وكان شيخًا فلما ركب قال: من سرّه بنوه ساءته نفسه. فذهبت مثلاً، يعني من سرّه بنوه إذا صاروا رجالاً كَبُر وضعف، فساءه ذلك وجعل أبو براء يلح على ضرار طمعًا في فدائه وجعل بنوه يحمونه، فلما رأى ذلك أبو براء قال له: لتموتن أو لأموتن دونك، فأحلني على رجل له فداء، فأومأ ضرار إلى حبيش بن دلف، وكان سيّدًا فحمل عليه أبو براء فأسره، وكان حبيش أسود نحيفًا دميمًا فلما رآه كذلك ظنّه عبدًا وأن ضرارًا خدعه، فقال: إنّا لله أعزز سائر القوم إلّا في الشؤم وقعت، فلما سمعها حبيش منه خاف أن يقتله، فقال: أيّها الرجل إن كنت تريد اللبن، يعني الإبل، فقد أصبته، فافتدى نفسه بأربعمائة بعير، وهزم جيش النعمان فلما رجع الفل[1] إليه أخبروه بأسر أخيه وبقيام ضرار بأمر الناس وما جرى له مع أبي براء وافتدى وبرة بن رومانس نفسه بألف بعير وفرس من يزيد بن الصعق؛ فاستغنى يزيد وكان قبله

---

(١) أي: المنهزمون، يستوي فيه الواحد والجمع.

خفيف الحال، وقال لبيد يذكر أيام قومه:

إني امرؤ منعت أرومة عامر ضيمي وقد حنقت عليّ خصوم

يقول فيها:

وغداة قاع القريتين أتاهم رهوًا يلوح خلالها التسويم(١)

بكتائب رجح تعوّد كبشها نطح الكباش كأنهنّ نجوم

قوله: قاع القريتين، يعني يوم السلان.

(حبيس بن دلف): بضم الحاء المهملة وبالباء الموحدة وبالياء المثناة من تحتها نقطتان وآخره شين معجمة.

٤٦ - يوم ذي علق

وهو يوم التقى فيه بنو عامر بن صعصعة وبنو أسد بذي علق، فاقتتلوا قتالاً عظيمًا قتل في المعركة ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري أبو لبيد الشاعر، وانهزمت عامر فتبعهم خالد بن نضلة الأسدي وابنه حبيب والحارث بن خالد بن المضلل، وأمعنوا في الطلب فلم يشعروا إلّا وقد خرج عليهم أبو براء عامر بن مالك من وراء ظهورهم في نفر من أصحابه، فقال لخالد: يا أبا معقل إن شئت أجزتنا وأجزناك حتى نحمل جرحانا وندفن قتلانا، قال: قد فعلت، فتواقفوا، فقال له أبو براء: هل علمت ما فعل ربيعة؟ قال: نعم تركته قتيلاً، قال: ومن قتله؟ قال: ضربته أنا وأجهز عليه صامت بن الأفقم، فلما سمع أبو براء بقتل ربيعة حمل على خالد هو ومن معه، فمانعهم خالد وصاحباه وأخذوا سلاح حبيب بن خالد ولحقهم بنو أسد فمنعوا أصحابهم وحموهم، فقال الجميح:

سائل معدًا عن الفوارس لا أوفوا بجيرانهم ولا سلموا

يسعى بهم قرزل ويستمع النـ ـاس إليهم وتخفق اللمم

ركضًا وقد غادروا ربيعة في الآ ثار لما تقارب النسم

في صدره صعدة ويخلجه بالرمح حران باسلاً أضم

---

(١) الرهو: المكان المرتفع والمنخفض ضدّ.

قرزل: فرس الطفيل والد عامر بن الطفيل، وقال لبيد من قصيدة يذكر أباه:

ولا من ربيعة المقترين وريته بذي علق فاقني حياءكِ واصبري

٤٧ ـ يوم الرقم

قال أبو عبيدة: غزت عامر بن صعصعة غطفان مع بني عامر يومئذ عامر بن الطفيل شابًا لم يرأس بعدُ، فبلغوا وادي الرقم وبه بنو مرّة بن عوف بن سعد ومعهم قوم من أشجع بن ذئب بن غطفان وناس من فزارة بن ذبيان، فنذروا ببني عامر وهجمت عليهم بنو عامر بالرقم وهو واد بقرب تضرع، فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فأقبل عامر بن الطفيل فرأى امرأة من فزارة فسألها فقالت: أنا أسماء بنت نوفل الفزاري، وقيل: كانت أسماء بنت حصن بن حذيفة، فبينا عامر يسألها خرج عليه المنهزمون من قومه وبنو مرّة في أعقابهم، فلما رأى ذلك عامر ألقى درعه إلى أسماء وولى منهزمًا فأدّتها إليه بعد ذلك، وتبعتهم مرة وعليهم سنان بن حارثة بن أبي حارثة المري وجعل الأشجعيون يذبحون كلّ من أسروه من بني عامر لوقعة كانت أوقعتها بهم بنو عامر، فذلك البطن من بني أشجع يسمون بني مِذْحج، فذبحوا سبعون رجلاً منهم، فقال عامر بن الطفيل يذكر غطفان ويعرض بأسماء:

قد ساءلت أسماء وهي خفية لضحائها أطردت أم لم أطردِ
فلأبغينكم القنا وعوارضا ولأقبلن الخيل لابة ضرغد[1]
ولأبرزن بمالكَ وبمالكٍ وأخي المرورات الذي لم يسند

في أبيات عدّة، فلما بلغ شعره غطفان هجاه منهم جماعة، وكان نابغة بن ذبيان حينئذ غائبًا عند ملوك غسان قد هرب من النعمان، فلما آمنه النعمان وعاد سأل قومه عمّا هجوا به عامر بن الطفيل فأنشدوه ما قالوا فيه وما قال فيهم، فقال: لقد أفحشتم وليس مثل عامر يهجي بمثل هذا، ثم قال يخطئ عامرًا في ذكره امرأة من عقائلهم:

فإن يكُ عامر قد قال جهلاً فإن مطية الجهل الشبابُ
فإنك سوف تحلم أو تباهي إذا ما شئت أو شاب الغراب
فكن كأبيك أو كأبي براء توافقك الحكومة والصواب
فلا تذهب بحلمك طامثات[2] من الخيلاء ليس لهنّ باب

(١) جبل أو حرة لغطفان. (٢) أي فاسدات دنسات.

إلى آخرها، فلما سمعها عامر قال: ما هجيت قبلها[١].

٤٨ ـ يوم ساحوق

قال أبو عبيدة: غزت بنو ذبيان بني عامر وهم بساحوق وعلى ذبيان سنان بن أبي حارثة المرّي وقد جهزهم وأعطاهم الخيل والإبل، وزوّدهم فأصابوا نعمًا كثيرة وعادوا، فلحقتهم بنو عامر واقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم انهزمت بنو عامر وأصيب منهم رجال وركبوا الفلاة فهلك أكثرهم عطشًا، وكان الحرّ شديدًا وجعلت ذبيان تدرك الرجل منهم، فيقولون له: قف ولك نفسك وضَعْ سلاحك فيفعل، وكان يومًا عظيمًا على عامر وانهزم عامر بن الطفيل وأخوه الحكم، ثم إن الحكم ضعف وخاف أن يُؤسر فجعل في عنقه حبلاً وصعد إلى شجرة وشدّه ودلّى نفسه فاختنق[٢]، وفعل مثله رجل من بني غني، فلما ألقى نفسه ندم فاضطرب فأدركوه وخلصوه وعيَّروه بجزعه، وقال عروة بن الورد العبسي في ذلك:

ونحن صبحنا عامرًا في ديارها ... علالة أرماح وضربًا مذكرا[٣]
بكل رقاق الشفرتين مهنّد ... ولدن من الخطيّ قد طرا سمرا
عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم ... ومقتلهم إذ يلتقي[٤] كان أعذرا

٤٩ ـ ٥٠ ـ يوم أعيار ويوم النقيعة

كان المثلم بن المشجر العائذي ثم الضبي مجاورًا لبني عبس فتقامر هو وعمارة بن زياد، وهو أحد الكملة، فقمره عمارة حتى اجتمع عليه عشرة أبكر، فطلب منه المثلم أن يخلي عنه حتى يأتي أهله فيرسل إليه بالذي له، فأبى ذلك فرهنه ابنه شِرحاف بن المثلم، وخرج المثلم فأتى قومه فأخذ البكارة فأتى بها عمارة وأفتك ابنه، فلما انطلق بابنه قال في الطريق: يا أبتاه من معضال؟ قال: ذلك رجل من بني عمّك ذهب فلم يوجد إلى الساعة، قال شرحاف: فإني قد عرفت قاتله، قال أبوه: ومن هو؟ قال عمارة بن زياد: سمعته يقول للقوم يومًا وقد أخذ فيه الشراب أنه قتله ولم يلق له طالبًا، ولبثوا بعد ذلك حينًا وشبّ شِرْحاف، ثم إن

---

(١) وذكر ابن عبد ربّه أن قسمًا منهم قطع العطش أعناقهم، والحكم بن الطفيل شنق نفسه خشية المُثْلَة ـ وسيأتي ذكر المؤلف الحكاية في وقعة ساحوق.
(٢) قد علمت أن ابن عبد ربّه ذكر ذلك في وقعة الرقم.
(٣) العلالة ما حلب بعد الفيقة الأولى. (٤) وفي العقد: ومقتلهم تحت الوغىٰ كان أجدرا.

عمارة جمع جمعًا عظيمًا من عبس، وأغار بهم على بني ضبة فأخذوا إبلهم وركبت بنو ضبّة فأدركوهم في المرعى، فلما نظر شِرْحاف إلى عمارة، قال: يا عمارة أتعرفني؟ قال: من أنت؟ قال: أنا شِرْحاف أدّ إليّ ابن عمي معضالاً لا مثله يوم قتلته، وحمل عليه فقتله. واقتتلت ضبة وعبس قتالاً شديدًا واستنقذت ضبّة الإبل، وقال شِرْحاف:

ألا أبلغ سراةَ بني بغيض ... بما لاقت سراة بني زيادِ
وما لاقت جذيمة إذ تحامي ... وما لاقى الفوارس من بجادِ
تركنا بالنقيعة آل عبسٍ ... شعاعًا يقتلون بكل وادِ
وما إن فاتنا إلّا شريد ... يؤمّ الفقر في تيه البلادِ
فسَلْ عنّا عمارة آل عبسٍ ... وسَلْ وردًا وما كل بدادِ
تركتهم بوادي البطن رهنًا ... لسيّدان[1] القرارة والجلادِ

٥١ ـ يوم النباة

قال أبو عبيدة: خرجت بنو عامر تريد غطفان لتدرك بثأرها يوم الرقم ويوم ساحوق، فصادفت بني عبس وليس معهم أحد من غطفان، وكانت عبس لم تشهد يوم الرقم ولا يوم ساحوق مع غطفان ولم يعينوهم على بني عامر. وقيل: بل شهدها أشجع وفزارة وغيرهما من بني غطفان على ما نذكره، قال: وأغارت بنو عامر على نِعم بني عبس وذبيان وأشجع فأخذوها، وعادوا متوجهين إلى بلادهم فضلوا في الطريق فسلكوا وادي النباة فأمعنوا فيه ولا طريق لهم ولا مطلع حتى قاربوا آخره، وكاد الجبلان يلتقيان إذا هم بامرأة من بني عبس تخبط الشجر[2] لهم في قلّة الجبل فسألوها عن المطلع فقالت لهم: الفوارس المطلع، وكانت قد رأت الخيل قد أقبلت وهي على الجبل ولم يرها بنو عامر لأنهم في الوادي، فأرسلوا رجلًا إلى قلّة الجبل ينظر، فقال لهم: أرى قومًا كأنهم الصبيان على متون الخيل أسنّة رماحهم عند آذان خيلهم، قالوا: تلك فزارة، قال: وأرى قومًا بيضًا جعادًا كأنّ عليهم ثيابًا حمرًا، قالوا: تلك أشجع، قال: وأرى قومًا نسورًا قد قلعوا خيولهم ببدادهم كأنهما يحملونها حملًا بأفخاذهم آخذين بعوامل رماحهم يجرّونها، قالوا: تلك عبس أتاكم الموت الزؤام، ولحقهم الطلب بالوادي، فكان عامر بن

(١) جمع سِيد وهو الذئب.
(٢) أي تضرب الشجر بالعصا ليسقط ورقها.

الطفيل أوّل من سبق على فرسه الورد، ففات القوم وأعيا فرسه الورد وهو المربوق أيضًا، فعقره لئلّا تفتحله فزارة، واقتتل الناس ودام القتال بينهم وانهزمت عامر فقتل منهم مقتلة كبيرة قُتِل فيها من أشرافهم البراء بن عامر بن مالك وبه يكنى أبوه، وقتل نهشل، وأنس، وهزار بنو مرة بن أنس بن خالد بن جعفر وقتلوا عبد الله بن الطفيل أخا عامر قتله الربيع بن زياد العبسي وغيرهم كثير، وتمّت الهزيمة على بني عامر.

٥٢ ـ يوم الفرات

قال أبو عبيدة: أغار المثنى بن حارثة الشيباني وهو ابن أخت عمران بن مرّة على تغلب وهم عند الفرات وذلك قبيل الإسلام فظفر بهم، فقاتل من أخذ من مقاتلتهم، وغرق منهم ناس كثير في الفرات، وأخذ أموالهم وقسمها بين أصحابه، فقال شاعرهم في ذلك:

ومنّا الذي غشى الدليكة سيفه ... على حين أن أعيا الفرات كتائبه
ومنّا الذي شدَّ الركيّ ليستقي ... ويسقي محضًا غير ضاف جوانبه
ومنّا غريب الشام لم يُرَ مثله ... أفك لعان قد تناءى أقاربه

(الدليكة): فرس المثنى بن حارثة، والذي شدّ الركيّ مرة بن همام، وغريب الشام ابن القلوص بن النعمان بن ثعلبة.

٥٣ ـ يوم بارق

قال المفضل الضبي: إن بني تغلب والنمر بن قاسط وناسًا من تميم اقتتلوا حتى نزلوا ناحية بارق وهي من أرض السواد، وأرسلوا وفدًا منهم إلى بكر بن وائل يطلبون إليهم الصلح فاجتمعت شيبان ومن معهم، وأرادوا قصد تغلب ومن معهم، فقال زيد بن شريك الشيباني: إني قد أجرت أخوالي وهم النمر بن قاسط فأمضوا جواره وساروا وأوقعوا ببني تغلب وتميم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم تصب تغلب بمثلها، واقتسموا الأسرى والأموال، وكان من أعظم الأيام عليهم قتل الرجال ونهب الأموال وسبي الحريم، فقال أبو كلبة الشيباني:

وليلة بسعادي لم تدع سندًا ... لتغلبيٍّ ولا أنفًا ولا حسبا
والنمريّون لولا سرّ من ولدوا ... من آل مُرّة شاع الحيّ منتهبا

٥٤ ـ يوم طخفة

وهو لبني يربوع على عساكر النعمان بن المنذر، قال أبو عبيدة: وكان سبب هذه الحرب أن الردافة وهي بمنزلة الوزارة، وكان الرديف يجلس عن يمين الملك، كانت لبني يربوع من تميم يتوارثونها صغيرًا عن كبير؛ فلما كان أيّام النعمان، وقيل: أيام ابنه المنذر، سألها حاجب بن زُرارة الدارمي التميمي النعمان أن يجعلها للحارث بن بيبة بن قرط بن سفيان بن مجاشع الدارمي التميمي، فقال النعمان لبني يربوع في هذا وطلب منهم أن يجيبوا إلى ذلك فامتنعوا، وكان منزلهم أسفل طخفة فحيث امتنعوا من ذلك بعث إليهم النعمان قابوس ابنه وحسانًا أخاه ابني المنذر: قابوس على الناس، وحسان على المقدمة وضمّ إليهما جيشًا كثيفًا منهم الصنائع والوضائع وناس من تميم وغيرهم، فساروا حتى أتوا طخفة فالتقوا هم ويربوع واقتتلوا وصبرت يربوع وانهزم قابوس ومن معه وضرب طارق أبو عَميرة فرس قابوس فعقره وأسره، وأراد أن يجزّ ناصيته، فقال: إن الملوك لا تجزّ نواصيها فأرسله. وأمّا حسان فأسره بشر بن عمرو بن جوين فمنَّ عليه وأرسله، فعاد المنهزمون إلى النعمان؛ وكان شهاب بن قيس بن كياس اليربوعي عند الملك، فقال له: يا شهاب أدرك ابني وأخي، فإن أدركتهما حيَّين فلبني يربوع حكمهم وأردّ عليهم ردافتهم وأترك لهم من قتلوا وما غنموا وأعطيهم ألفَيْ بعير، فسار شهاب فوجدهما حيّين فأطلقهما، ووفى الملك لبني يربوع بما قال ولم يعرض لهم في ردافتهم، وقال مالك بن نويرة:

ونحن عقرنا مهر قابوس بعدما
رأى القوم منه الموت والخيل تلجب[1]

عليه دلّاص[2] ذات نسج وسيفه
جران من الهندي أبيض مقضب

طلبنا بها إنّا مداريك نيلها
إذا طلب الشأو البعيد المغرب

(١) تلجب: تصهل وتضطرب. (٢) أي: الدرع الملساء الليّنة.

٥٥ ـ يوم النباج وثيتل

قال أبو عبيدة: غزا قيس بن عاصم المنقري ثم التميمي مقاعس وهم بطون من تميم وهم: صريم، ورُبيع، وعبيد بنو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد، وغزا معه سلامة بن ظرب الحماني في الأحارث، وهم بطون من تميم أيضًا، وهم حمان، وربيعة، ومالك، والأعرج بنو كعب بن سعد، فغزوا بكر بن وائل فوجدوا اللّهازم وهم بنو قيس وتيم اللات أبناء ثعلبة بن عكاشة[1] بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ومعهم بنو ذهل بن ثعلبة، وعجل بن لجيم، وعنزة بن أسد بن ربيعة بالنباج وثيتل وبينهما روحة، فأغار قيس على النباج ومضى سلامة إلى ثيتل ليغير على مَنْ بها، فلما بلغ قيس إلى النباج سقى خيله ثم أراق ما معهم من الماء، وقال لمن معه: قاتلوا فالموت بين أيديكم والفلاة من ورائكم، فأغار على من به من بكر صبحًا، فقاتلوهم قتالاً شديدًا وانهزمت بكر وأصيب من غنائمهم ما لا يحد كثرة، فلما فرغ قيس من النهب عاد مسرعًا إلى سلامة ومن معه نحو ثيتل، فأدركهم ولم يغر سلامة على من به فأغار عليهم قيس أيضاً فقاتلوه وانهزموا؛ وأصاب من الغنائم نحو ما أصاب بالنباج، وجاء سلامة فقال: أغرتم على من كان لي فتنازعوا حتى كاد الشرّ يقع بينهم، ثم اتفقوا على تسليم الغنائم إليه، ففي ذلك يقول ربيعة بن طريف[2]:

فلا يبعدنك اللّه قيس بن عاصم   فأنت لنا عزّ عزيز ومعقلُ
وأنت الذي خويت بكر بن وائل   وقد عضلت بها النباج وثيتل

وقال قرّة بن زيد بن عاصم:

أنا ابن الذي شقّ المرار وقد رأى
بثيتل أحياء اللّهازم حضرا
فصبحهم بالجيش قيس بن عاصم
فلم يجدوا إلّا الأسنّة مصدرا
سقاهم بها الذيفان[3] قيس بن عاصم
وكان إذا ما أورد الأمر أصدرا

---

(١) كذا في الأصول وهو غلط، والصواب: عكابة.
(٢) كذا في الأصول، في العقد الفريد: ربيعة بن ظرب.
(٣) الذيفان: السم الناقع أو القاتل.

على الجرد يعلكن الشكيم عوابسًا
إذا الماء من أعطافهن تحدرا
فلم يرها الراؤون إلّا فجاءة
نثرن عجاجًا كالدواخن أكدرا
وحمران أدته إلينا رماحنا
فنازع غلافي ذراعيه أسمرا

(ثيتل): بالثاء المثلثة المفتوحة والياء المسكنة المثناة من تحتها والتاء المثناة من فوقها.

٥٦ ـ يوم فلج

قال أبو عبيدة: هذا يوم لبكر بن وائل على تميم، وسببه أن جمعًا من بكر ساروا إلى الصعاب، فشتوا بها فلما انقضى الربيع انصرفوا، فمروا بالدّو فلقوا ناسًا من بني تميم من بني عمرو وحنظلة، فأغاروا على نعم كثير لها ومضوا، وأتى بني عمرو وحنظلة، الصريخ فاستجاشوا لقومهم، فأقبلوا في آثار بكر بن وائل فساروا يومين وليلتين حتى جهدهم السير وانحدروا في بطن فلج وكانوا قد خلفوا رجلين على فرسين سابقين ربيئة ليخبراهم بخبرهم إن ساروا إليهم، فلما وصلت تميم إلى الرجلين أجريا فرسيهما وسارا مجدّين، فأنذرا قومهما، فأتاهم الصريخ بمسير تميم عند وصولهم إلى فلج، فضرب حنظلة بن يسار العجلي قبّته ونزل، فنزل الناس معه وتهيّؤوا للقتال معه، ولحقت بنو تميم فقاتلهم بكر بن وائل قتالًا شديدًا، وحمل عرفجة بن بجير العجلي على خالد بن مالك بن سلمة التميمي فطعنه وأخذه أسيرًا، وقتل في المعركة ربعي بن مالك بن سلمة، فانهزمت تميم وبلغت بكر بن وائل منها ما أرادت، ثم إن عرفجة أطلق خالد بن مالك وجزّ ناصيته، فقال خالد:

وجدنا الرفد رفد بني لجيم
إذا ما قلّت الأرفاد زادا
هموا ضربوا القباب ببطن فلج
وذادوا عن محارمهم ذيادا
وهم منّوا عليّ وأطلقوني
وقد طاوعت في الجنب القيادا
أليسوا خير من ركب المطايا
وأعظمهم إذا اجتمعوا رمادا
أليس همو عماد الحي بكرًا
إذا نزلت مجلّلة شدادا

وقال قيس بن عاصم يعيّر خالدًا:

لو كنت حرّاً يا بن سلمى بن جندل نهضت ولم تقصد لسلمى بن جندل
فما بال أصداء بفلج غريبة تنادي مع الأطلال يا لابن حنظل
صوادي لا مولى عزيز يجيبها ولا أسرة تسقي صداها بمنهل
وغادرت ربعيًا بفلج ملحبًا[1] وأقبلت في أولى الرعيل المعجل
تؤامل من خوف الردي لا وقيته كما نالت الكدراء من حين أجدل

يعيّره حيث لم يأخذ بثأر أخيه ربعي ومن قتل معه يوم فلج، ويقول: إن أصداءهم تنادي ولا يسقيها أحد على مذهب الجاهلية، ولولا التطويل لشرحناه أبين من هذا.

٥٧ ـ يوم الشيطين[2]

قال أبو عبيدة: كان الشيطان لبكر بن وائل، فلما ظهر الإسلام في نجد سارت بكر قِبَل السواد وبقي مقايس بن عمرو العائذي بن عائذة من قريش حليف بني شيبان بالشيطين، فلما أقامت بكر في السواد لحقهم الوباء والطاعون الذي كان أيام كسرى شيرويه، فعادوا هاربين فنزلوا لعلع وهي مجدبة، وقد أخصب الشيطان فسارت تميم، فنزلوا بها وبلغت أخبار خصب الشيطين إلى بكر فاجتمعوا، وقالوا: نغير على تميم، فإن في دين ابن عبد المطلب ـ يعنون النبيّ ـ أن من قتل نفسًا بها فنغير هذه الغارة، ثم نسلم عليها فارتحلوا من لعلع بالذراري والأموال ورئيسهم بشر بن مسعود بن قيس بن خالد، فأتوا الشيطين في أربع ليال والذي بينهما مسيرة ثمان ليال فسبقوا كل خبر حتى صبحوهم وهم لا يشعرون، فقاتلوهم قتالاً شديدًا، وصبرت تميم، ثم انهزمت، فقال رشيد بن رميض العنبري يفتخر بذلك:

وما كان بين الشيطين ولعلع لنسوتنا إلّا مناقل أربعُ
فجئنا بجمعٍ لم يرَ الناس مثله يكاد له ظهر الوديعة يطلع
بأرعن دهم تنسل البلق وسطه له عارض فيه المنية تلمع
صبحنا به سعدًا وعمرًا ومالكًا فظلّ لهم يوم من الشر أشنع

(١) الملحب ـ كمعظم ـ: الذي يوطأ ويداس. (٢) وهو تثنية شيط ـ ككيس ـ: موضع بالصمان.

وذا حسب من آل ضبّة غادروا يجري كما يجري الفصيل المفزع
تقصع يربوع بسرة أرضنا وليس ليربوع بها متقصع

ثم إنّ النبيّ ﷺ كتب إلى بكر بن وائل على ما بأيديهم.

(الشيطين): بالشين المعجمة والياء المشدّدة المثناة من تحتها وبالطاء المهملة آخره نون.

٥٨ ـ أيام الأنصار وهم الأوس والخزرج التي جرت بينهم

الأنصار لقب قبيلتي الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو بن مَزِيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لقبهم به رسول الله ﷺ ولمّا هاجر إليهم، ومنعوه ونصروه، وأمّ الأوس والخزرج قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد ولذلك يقال لهم أبناء قيلة، وإنما لقب ثعلبة العنقاء لطول عنقه، ولقب عمرو مزيقياء لأنه كان يمزق عنه كلّ يوم حلة لئلّا يلبسها أحد بعده، ولقب عامر ماء السماء لسماحته وبذله كأنه ناب مناب المطر، وقيل: لشرفه، ولقب امرؤ القيس البطريق لأنه أول من استعان به بنو إسرائيل من العرب بعد بلقيس فبطرقه رحبعم بن سليمان بن داود عليه السلام، فقيل له: البطريق[1]، وكانت مساكن الأزد بمأرب من اليمن إلى أن أخبر الكهّان عمرو بن عامر مزيقياء أن سيل العرم يخرّب بلادهم، ويغرق أكثر أهلها عقوبةً لهم بتكذيبهم رسل الله تعالى[2] إليهم، فلما علم ذلك عمرو باع ماله من مال وعقار، وسار عن مأرب هو ومن تبعه، ثم تفرّقوا في البلاد فسكن كل بطن ناحية اختاروها، فسكنت خزاعة الحجاز، وسكنت غسان الشام، ولما سار ثعلبة بن عمرو بن عامر فيمن معه اجتازوا بالمدينة، وكانت تسمى يثرب فتخلف بها الأوس والخزرج ابنا حارثة فيمن معهما، وكان فيها قرى وأسواق وبها قبائل من اليهود من بني إسرائيل وغيرهم، منهم: قريظة، والنضير، وبنو قينقاع وبنو ماسلة، وزعورا وغيرهم، وقد بنوا لهم حصونًا يجتمعون بها إذا خافوا، فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتنوا المساكن والحصون إلّا

---

(١) تسميته بالبطريق ليس من لغة اليهود، فلا بدّ أن تكون التسمية رومانية، والرومان لم يكن بينهم وبين الأوس والخزرج اتّصال، فكيف جاء هذا (م).

(٢) من هم أولئك الرسول؟ (م).

أن الغلبة والحكم لليهود إلى أن كان من الفطيون ومالك بن العجلان ما نذكره إن شاء الله تعالى، فعادت الغلبة للأوس والخزرج ولم يزالوا على حال اتفاق واجتماع إلى أن حدث بينهم حرب سمير على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غلبة الأنصار على المدينة
وضعف أمر اليهود بها وقتل الفطيون

قد ذكرنا أن الاستيلاء كان لليهود على المدينة لما نزلها الأنصار، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن ملك عليهم الفطيون اليهودي، وهو من بني إسرائيل، ثم من بني ثعلبة، وكان رجل سوء فاجرًا، وكانت اليهود تدين له بأن لا تزوج امرأة منهم إلّا دخلت عليه قبل زوجها، وقيل: إنه كان يفعل ذلك بالأوس والخزرج أيضًا، ثم إن أختًا لمالك بن العجلان السالمي الخزرجي تزوّجت، فلما كان زفافها خرجت عن مجلس قومها وفيه أخوها مالك، وقد كشفت عن ساقيها، فقال لها مالك: لقد جئت بسوء، قالت: الذي يراد بي الليلة أشدّ من هذا أدخل على غير زوجي، ثم عادت فدخل عليها أخوها، فقال لها: هل عندك من خبر؟ قال: نعم، فما عندك؟ قال: أدخل مع النساء فإذا خرجن ودخل عليك قتلته، قالت: أفعل، فلما ذهب بها النساء إلى الفطيون انطلق مالك معهنّ في زيِّ امرأة ومعه سيفه، فلما خرج النساء من عندها ودخل عليها الفطيون قتله مالك وخرج هاربًا، فقال بعضهم في ذلك من أبيات:

هل كان للفطيون عقر نسائكم؟ حكم النصيب فبئس حكم الحاكمِ
حتى حباه مالك بمرشة حمراء تضحك عن نجيع قاتم

ثم خرج مالك بن العجلان هاربًا حتى دخل الشام، فدخل على ملك من ملوك عمان يقال له أبو جبيلة واسمه عبيد بن سالم بن مالك بن سالم، وهو أحد بني غضب بن جُشم بن الخزرج، وكان قد ملكهم وشرف فيهم، وقيل: إنه لم يكن ملكًا، وإنما كان عظيمًا عند ملك غسان، وهو الصحيح؛ لأن ملوك غسان لم يعرف فيهم هذا وهو أيضًا من الخزرج على ما ذكر، فلما دخل عليه مالك شكا إليه ما كان من الفطيون وأخبره بقتله، وأنه لا يقدر على الرجوع، فعاهد الله أبو جبيلة أن لا يمس طيبًا ولا يأتي النساء حتى يذلّ اليهود ويكون الأوس والخزرج أعزّ أهلها، ثم سار من الشام في جمع كثير وأظهر أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة فنزل بذي حُرُض، وأعلم الأوس والخزرج ما عزم عليه، ثم أرسل إلى وجوه اليهود يستدعيهم إليه، وأظهر لهم

أنه يريد الإحسان إليهم فأتاه أشرافهم في حشمهم وخاصتهم، فلما اجتمعوا ببابه أمر بهم فأُدخلوا رجلاً رجلاً وقتلهم عن آخرهم، فلما فعل بهم ذلك صارت الأوس والخزرج أعزّ أهل المدينة فشاركوا اليهود في النخل والدور، ومدح الرمق بن زيد الخزرجي أبا جبيلة بقصيدةٍ منها:

وأبو جبيلة خير من	يمشي وأوفاه يمينا
وأبرّهم برًّا وأعـ	ـلمهم بهدى الصالحينا
أبقت لنا الأيام والـ	ـحرب المهمة تعترينا
كبشاله قرن يعـ	ـض حسامه الذكر السنينا

فقال له أبو جبيلة: عسل طيب في وعاء سوء، وكان الرمق رجلاً ضئيلاً، فقال الرمق: إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، ورجع أبو جبيلة إلى الشام.

(حرض): بضم الحاء والراء المهملتين وآخره ضاد معجمة.

٥٩ ـ حرب سمير

ولم يزل الأنصار على حال اتّفاق واجتماع، وكان أوّل اختلاف وقع بينهم وحرب كانت لهم حرب سمير، وكان سببها أنّ رجلاً من بني ثعلبة من سعد بن ذبيان يقال له: كعب بن العجلان نزل على مالك بن العجلان السالمي، فحالفه وأقام معه، فخرج كعب يومًا إلى سوق بني قينقاع، فرأى رجلاً من غطفان معه فرس، وهو يقول: ليأخذ هذا الفرس أعزّ أهل يثرب، فقال رجل فلان، وقال رجل آخر: أُحيحة بن الجلاح الأوسي، وقال غيرهما: فلان بن فلان اليهودي أفضل أهلها، فدفع الغطفاني الفرس إلى مالك بن العجلان، فقال كعب: ألم أقل لكم إن حليفي مالكًا أفضلكم؟ فغضب من ذلك رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف يقال له سمير، وشتمه وافترقا وبقي كعب ما شاء الله، ثم قصد سوقًا لهم بقباء، فقصده سمير ولازمه حتى خلا السوق فقتله، وأخبر مالك بن العجلان بقتله، فأرسل إلى بني عمرو بن عوف يطلب قاتله، فأرسلوا: أنّا لا ندري من قتله، وتردّدت الرسل بينهم: هو يطلب سميرًا، وهم ينكرون قتله؛ ثم عرضوا عليه الدية فقبلها، وكانت دية الحليف فيهم نصف دية النسيب منهم فأبى مالك إلّا أخذ دية كاملة، وامتنعوا من ذلك وقالوا: نعطي دية الحليف، وهي النصف ولجّ الأمر بينهم حتى أتى إلى المحاربة، فاجتمعوا والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا وافترقوا ودخل فيها سائر بطون الأنصار، ثم التقوا مرة

أخرى واقتتلوا حتى حجز بينهم الليل وكان الظفر يومئذ للأوس، فلما افترقوا أرسلت الأوس إلى مالك يدعونه إلى أن يحكم بينهم المنذر بن حرام النجاري الخزرجي جدّ حسان بن ثابت بن المنذر، فأجابهم إلى ذلك، فأتوا المنذر فحكم بينهم المنذر بأن يدوا كعبًا حليف مالك دية الصريح ثم يعودون إلى سُنّتهم القديمة، فرضوا بذلك وحملوا الدية وافترقوا وقد شبّت البغضاء في نفوسهم وتمكّنت العداوة بينهم.

٦٠ ـ ذكر حرب كعب بن عمرو المازني

ثم إن بني جَحْجَبا[١] من الأوس وبني مازن بن النجار من الخزرج وقع بينهم حرب كان سببها أن كعب بن عمرو المازني تزوّج امرأة من بني سالم، فكان يختلف إليها، فأمر أُحيحة بن الجلاح سيد بني جحجبا جماعة فرصدوه حتى ظفروا به فقتلوه فبلغ ذلك أخاه عاصم بن عمر فأمر قومه فاستعدوا للقتال وأرسل إلى بني جحجبا يؤذنهم بالحرب، التقوا بالرحابة فاقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزمت بنو جحجبا ومن معهم وانهزم معهم أُحيحة فطلبه عاصم بن عمرو فأدركه وقد دخل حصنه فرماه بسهم فوقع في باب الحصن، فقتل عاصم أخًا لأُحيحة، فمكثوا بعد ذلك ليالي فبلغ أُحيحة أن عاصمًا يتطلبه ليجد له غرة فيقتله، فقال أُحيحة:

نـبّـئـت أنـك جـئـت تـسـ ـري بـيـن داري والـقـبـابَـه
فلقد وجدت بجانب الضحـ ـيـان شـبـانًـا مـهـابـه
فـتـيـان حـرب فـي الـحـديـ ـد وشـامـريـن كـأُسـد غـابـه
هـم نـكـبـوك عـن الـطـريـ ـق فـبـتّ تـركـب كـل لابـه
أعـصـيـم لا تـجـزع فـإن الـ ـحـرب لـيـسـت بـالـدعـابـه
فـأنـا الـذي صـبـحـتـكـم بـالـقـوم إذ دخلوا الـرحـابـه
وقـتـلـت كـعـبًـا قـبـلـهـا وعـلـوت بـالـسـيـف الـذؤابـه

فأجابه عاصم:

أبـلغ أُحـيـحـة أن عـرضـ ـت بـداره عـنـي جـوابـه
وأنـا الـذي أعـجـلـتـه عـن مـقـعـد أُلـهـي كـلابـه
ورمـيـتـه سـهـمًـا فـأخـ ـطـأه وأغـلـق ثـمّ بـابـه

---

(١) كذا رسم هنا، وفي الأغاني بالألف، ورسمه صاحب القاموس بالياء وهم حيّ من الأنصار.

في أبيات. ثم إن أُحيحة أجمع أن يبيت بني النجار وعنده سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية، وهي أمّ عبد المطلب جدّ النبيّ ﷺ فما رضيت، فلما جنها الليل وقد سهر معها أُحيحة فنام، فلما نام سارت إلى بني النجار فأعلمتهم[1] ثم رجعت فحذروا وغدا أُحيحة بقومه مع الفجر فلقيهم بنو النجار في السلاح فكان بينهم شيء من قتال وانحاز أُحيحة، وبلغه أن سلمى أخبرتهم فضربها حتى كسر يدها وأطلقها، وقال أبياتًا منها:

لعمر أبيك ما يغني مكاني	من الحلفاء آكلة غفولُ
تؤومٌ لا تقلص مشمعلًا	مع الفتيان مضجعه ثقيل
تنزع للحليلة حيث كانت	كما يعتاد لقحته الفصيل
وقد أعددت للحدثان حصنًا	لو أن المرء ينفعه العقول
جلاء القين ثمت لم تخنه	مضاربه ولاطته فلول
فهل من كاهن آوى إليه	إذا ما حان من آل نزول
يراهنني ويرهنني بنيه	وأرهنه بنيّ بما أقول
فما يدري الفقير متى غناه	وما يدري الغني متى يعيل
وما تدري وإن أجمعت أمرًا	بأيّ الأرض يدركك المقيل
وما تدري وإن أنتجت سقيًا	لغيرك أم يكون لك الفصيل
وما أن أخوة كبروا وطابوا	بباقية وأمهم هبول
ستثكل أو يفارقها بنوها	بموت أو يجيء لهم قتول

٦١ ـ يوم السرارة

ثم إن بني عمرو بن عوف من الأوس وبني الحارث من الخزرج كان بينهما حرب شديدة، وكان سببها أن رجلًا من بني عمرو قتله رجل من بني الحارث، فعدا بنو عمرو على القاتل فقتلوه غيلة، فاستكشف أهله، فعلموا كيف قتل فتهيّؤوا

(١) وأورد صاحب الأغاني تفصيل ذلك بأنها شدّت ولدها عمرو بن أُحيحة حتى آلمته، فبقي يبكي وهي وأُحيحة ساهران عليه إلى معظم الليل فأرخت الشد فسكت الصبي، وادّعت وجع الرأس فعصب رأسها وفي آخر الليل وأعلمته أن صحتها تحسّنت، وقالت له: قم فنام، وعملت ذلك ليثقُل رأسه، فلما نام ربطت في الحصن حبلًا فتدلّت منه فسميت (المتدلّية).

للقتال وأرسلوا إلى بني عمرو بن عوف يؤذنونهم بالحرب، فالتقوا بالسرارة، وعلى الأوس حُضير بن سماك والد أُسيد بن حضير، وعلى الخزرج عبد الله بن سلول أبو الحباب الذي كان رأس المنافقين، فاقتتلوا قتالاً شديدًا صبر بعضهم لبعض أربعة أيّام؛ ثم انصرفت الأوس إلى دورها ففخرت الخزرج بذلك، وقال حسان بن ثابت في ذلك:

فدًى لبني النجار أمّي وخالتي ... غداة لقومهم بالمثقفة السمر
وصرم من الأحياء عمرو بن مالك ... إذا ما دعوا كانت لهم دعوة النصر
فواللّه لا أنسى حياتي بلاءهم ... غداة رموا عمرًا بقاصمة الظهر

وقال حسّان أيضًا:

لعمر أبيك الخير بالحق ما نبا ... عليّ لساني في الخطوب ولا يدي
لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي
فلا الجهد ينسيني حياتي وحفظتي ... ولا وقعات الدهر يفللن مبردي
أكثر أهلي من عيال سواهم ... وأطوى على الماء القراح المبرد

ومنها:

وإني لمنجاء المطي على الوجى ... وإني لنزّال لما لم أعوّد
وإني لقوّال لذي اللوث مرحبًا ... وأهلاً إذا ما ريع من كل مرصد
وإني ليدعوني الندى فأجيبه ... وأضرب بيض العارض المتوقّد
فلا تعجلن يا قيس وأربع فإنما ... قصاراك أن تلقى بكل مهنّد
حسام وأرماح بأيدي أعزّة ... متى ترهم يا بن الخطيم تلبد
أسود لدى الأشبال يحمي عرينها ... مداعيس بالخطى في كل مشهد

وهي أبيات كثيرة، فأجابه قيس بن الخطيم:

تروح عن الحسناء أم أنت مغتدي ... وكيف انطلاق عاشق لم يزوّد
تراءت لنا يوم الراحل بمقلتي ... شريد بملتف من السدر مفرد
وجيد كجيد الريم حال يزينه ... على النحر ياقوت وفصّ زبرجد
كأنّ الثريا فوق ثغرة نحرها ... توقد في الظلماء أي توقد
إلا أن بين الشرعبي وراتج ... ضرابًا كتجذيم السيال المعضد

لنا حائطان الموت أسفل منهما وجمع متى يصرخ بيثرب يصعد
ترى اللّابة السوداء يحمرّ لونها ويسهل منها كلُّ ربعٍ وفدفد
فإني لأغني الناس عن متكلّف يرى الناس ضلالاً وليس بمهتدِ
نشا غمرًا بورًا شقيًّا ملعنًا ألدّ كأن رأسه رأس أصيد
كثير المني بالزاد لا صبر عنده إذا جاع يومًا يشتكيه ضحى الغدِ
وذي شيمة عسراء خالف شيمتي فقلت له: دعني ونفسك أرشد
فما المال والأخلاق إلّا معارة فما اسطعت من معروفها فتزوّد
متى ما تقد بالباطل الحق يأبه فإن قدت بالحق الرواسي تنقد
إذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت تدخل من الباب تهتد

وهي طويلة. وقال عبيد بن ناقد:

لمن الديار كأنهنّ المذهب بليت وغيرها الدهور تقلب

يقول فيها في ذكر الوقعة:

لكن فرار أبي الحباب بنفسه يوم السرارة سيء منه الأقرب
وليّ وألقى يوم ذلك درعه إذ قيل جاء الموت خلفك يطلب
نجاك منّا بعد ما قد أشرعت فيك الرماح هناك شدّ المذهب

وهي طويلة أيضًا. وأبو الحباب هو عبد الله بن سلول.

٦٢ ـ حرب الحصين بن الأسلت

ثم كانت حرب بين بني وائل بن زيد الأوسيين وبين بني مازن بن النجار الخزرجيين، وكان سببها أن الحصين بن الأسلت الأوسي الوائلي نازع رجلاً من بني مازن فقتله الوائلي ثم انصرف إلى أهله فتبعه نفر من بني مازن فقتلوه، فبلغ ذلك أخاه أبا قيس بن الأسلت فجمع قومه وأرسل إلى بني مازن يعلمهم أنه على حربهم، فتهيّؤوا للقتال ولم يتخلّف من الأوس والخزرج أحد، فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعًا؛ وقتل أبو قيس بن الأسلت الذين قتلوا أخاه ثم انهزمت الأوس فلام وحوح بن الأسلت أخاه أبا قيس، وقال: لا يزال منهزم من الخزرج، فقال أبو قيس لأخيه ويكنى أبا حصين:

أبلغ أبا حصن وبعـ ض القول عندي ذو كباره

أن ابـن أم الـمـرء لـيـ ـس من الحديد ولا الحجاره
مـاذا عـلـيـكـم أن يـكـو ن لـكـم بـهـا رحـلاً عـمـاره
يـحـمـي ذمـار كـم وبـعـ ـض الـقـوم لا يـحـمـي ذمـاره
يـبـنـي لـكـم خـيـرًا وبـنـ ـيـان الـكـريـم لـه أثـاره

في أبياتٍ.

٦٣ ـ حرب ربيع الظفري

ثم كانت حرب بين بني ظفر من الأوس وبين بني مالك بن النجار من الخزرج، وكان سببها أن ربيعًا الظفري كان يمرّ في مال لرجل من بني النجار إلى ملك له، فمنعه النجاري فتنازعا فقتله ربيع، فجمع قومهما فاقتتلوا قتالاً شديدًا كان أشدّ قتال بينهم، فانهزمت بنو مالك بن النجار، فقال قيس بن الخطيم الأوسي في ذلك:

أجـد بـعـمـرة غـنـيـانـهـا فـتـهـجـر أم شـانـنـا شـانـهـا
فإن تـمـس شـطـت بـهـا دارهـا وبـاح لـك الـيـوم هـجـرانـهـا
فـمـا روضـة مـن ريـاض الـقـطـا كـأن الـمـصـابـيـح حـوذانـهـا
بـأحـسـن مـنـهـا: ولا نـزهـة ولـوج تـكـشـف أدجـانـهـا
وعـمـرة مـن سـروات الـنـسـا ء يـنـفـخ بـالـمـسـك أردانـهـا

منها:

ونـحـن الـفـوارس يـوم الـربـيـ ـع قـد عـلـمـوا كـيـف أبـدانـهـا
جـنـونًـا لـحـرب وراء الـصـريـ ـخ حـتـى تـقـصـد مـرانـهـا
تـراهـن يـخـلـجـن خـلـج الـدلا يـبـادر بـالـنـزع أشـطـانـهـا

وهي طويلة، فأجابه حسان بن ثابت الخزرجي بقصيدةٍ أوّلها:

لـقـد هـاج نـفـسـك أشـجـانـهـا وغـادرهـا الـيـوم أديـانـهـا

ومنها:

ويـثـرب تـعـلـم أنّـا بـهـا إذا الـتـبـس الـحـق مـيـزانُـهـا
ويـثـرب تـعـلـم أنّـا بـهـا إذا أقـحـط الـقـطـر نـوآنـهـا[1]

(١) نوآن جمع نو، وهو النجم مال إلى الغروب أو سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر=

ويثرب تعلم إذ حاربت ... بأنّا لدى الحرب فرسانها
ويثرب تعلم أن المبيـ ... ـت عند الهزاهز ذلانها

ومنها:

متى ترنا الأوس في بيضنا ... نهزّ القنا تخب نيرانها
وتعط المقاد على رغمها ... وتنزل من الهام عصيانها
فلا تفخرن والتمس ملجأ ... فقد عاود الأوس أديانها

٦٤ ـ حرب فارع

ومن أيّامهم يوم فارع، وسببه أن رجلاً من بني النجار أصاب غلامًا من قضاعة ثم من بلى، وكان عم الغلام جارًا لمعاذ بن النعمان بن امرئ القيس الأوسي والد سعد بن معاذ، فأتى الغلام عمه يزوره فقتله النجاري، فأرسل معاذ إلى بني النجار: أن ادفعوا إليّ دية جاري أو ابعثوا إليّ بقاتله أرى فيه رأيي، فأبوا أن يفعلوا، فقال رجل من بني عبد الأشهل: والله إن لم تفعلوا لا نقتل به إلّا عامر بن الأطنابة، وعامر من أشراف الخزرج، فبلغ ذلك عامرًا فقال:

ألا من مبلغ الأكفّاء عني ... وقد تهدى النصيحة للنصيح
فإنكمُ وما ترجون شطري ... من القول المزجي والصريح
سيندم بعضكم عجلاً عليه ... وما أثر اللسان إلى الجروح
أبت لي عزّتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإعطائي على المكروه مالي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعدُ عن عرض صحيح
بذي شطب كلون الملح صافٍ ... ونفس لا تقرّ على القبيح

فقال الربيع بن أبي الحقيق اليهودي في عراض قول عامر بن الأطنابة:

ألا من مبلغ الأكفاء عني ... فلا ظلم لديّ ولا افتراء
فلست بغائظ الأكفاء ظلمًا ... وعندي للملامات اجتزاء

= يقابله في ساعته من المشرق.

فلم أرَ مثل من يدنو لخسفٍ   له في الأرض سير واستواء
وما بعض الإقامة في ديار   يُهان بها الفتى إلّا عناء
وبعض القول ليس له علاج   كمحص الماء ليس له إناء
وبعض خلائق الأقوام داء   كداء الشح ليس له دواء
وبعض الداء ملتمس شفاه   وداء النوك ليس له شفاء
يحب المرء أن يلقى نعيمًا   ويأبى اللّه إلّا ما يشاء
ومن يك عاقلاً لم يلق بؤسًا   ينخ يومًا بساحته القضاء
تعاوره بنات الدهر حتى   تثلمه كما ثلم الأناء
وكل شدائد نزلت بحيٍّ   سيأتي بعد شدّتها رخاء
فقل للمتقي عرض المنايا   توقّ فليس ينفعك اتّقاء
فما يعطى الحريص غنى بحرصٍ   وقد ينمي لدى الجود الثراء
وليس بنافع ذا البخل مال   ولا مزرٍ بصاحبه الحباء
غنيّ النفس ما استغنى بشيءٍ   وفقر النفس ما عمرت شقاء
يودّ المَرْء ما تفد الليالي   وكان فناؤهنّ له فناء

فلما رأى معاذ بن النعمان امتناع بني النجار من الدية أو تسليم القاتل إليه تهيّأ للحرب وتجهّز هو وقومه؛ واقتتلوا عند فارع وهو أطم حسان بن ثابت، واشتدّ القتال بينهم ولم تزل الحرب بينهم حتى حمل ديته عامر بن الإطنابة؛ فلما فعل صلح الذي كان بينهم؛ وعادوا إلى أحسن ما كانوا عليه؛ فقال عامر بن الإطنابة في ذلك:

صرمت ظليمة خلّتي ومراسلي   وتباعدت ضنًّا بزاد الراحل
جهلاً وما تدري ظليمة أنني   قد أستقل بصرم غير الواصل
ذلل ركابي حيث شئت مشيعي   إني أروع قطا المكان العاقل
أظليم ما يدريك ربة خلّة   حسن مرغمها كظبي الحائل
قد بتّ مالكها وشارب قهوة   درياقة روّيت منها واغلي
بيضاء صافية يرى من دونها   قعر الإناء يضيء وجه الناهل
وسراب هاجرة قطعت إذا جرى   فوق الأكام بذات لون باذل

أجد[١] مراحلها كأن عفاءها[٢] سقطان من كتفي ظليم جافل
فلنأكلن بنا جزّ من مالنا ولنشربن بدين عام قابل
إني من القوم الذين إذا انتدوا بدأوا ببرّ الله ثم النائل
المانعين من الخنى جيرانهم والحاشدين على طعام النازل
والخالطين غنيّهم بفقيرهم والباذلين عطاءهم للسائل
والضاربين الكبش يبرق بيضه ضرب المهنّد عن حياض الناهل
والعاطفين على المصاف خيولهم والملحقين رماحهم بالقاتل
والمدركين عدوّهم بذحولهم والنازلين لضرب كل منازلِ
والقائلين معًا خذوا أقرانكم إن المنيَّة من وراء الوائل
خزر عيونهم إلى أعدائهم يمشون مشي الأسد تحت الوابل
ليسوا بأنكاسٍ ولا ميل إذا ما الحرب شبّت أشعلوا بالشاعل
لا يطبعون وهم على أحسابهم يشفون بالأحلام داء الجاهل
والقائلين فلا يُعاب خطيبهم يوم المقالة بالكلام الفاصل

وإنما أثبتنا هذه الأبيات وليس فيها ذكر الواقعة لجودتها وحسنها.

٦٥ ـ حرب حاطب

ثم كانت الوقعة المعروفة بحاطب: وهو حاطب بن قيس من بني أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسي وبينها وبين حرب سمير نحو مائة سنة. وكان بينهما أيام ذكرنا المشهور منها وتركنا ما ليس بمشهور، وحرب حاطب آخر وقعة كانت بينهم إلّا يوم بُعاث حتى جاء الله بالإسلام، وكان سبب هذه الحرب أن حاطبًا كان رجلاً شريفًا سيّدًا فأتاه رجل من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان فنزل عليه، ثم إنه غدا يومًا إلى سوق بني قينقاع فرآه يزيد بن الحارث المعروف بابن فُسحم[٣] وهي أمه وهو من بني الحارث بن الخزرج؛ فقال يزيد لرجل يهودي: لك ردائي إن كسعت[٤] هذا الثعلبي، فأخذ رداءه وكسعه كسعةً سمعَها مَن بالسوق، فنادى الثعلبي: يا لحاطب كسع ضيفك وفضح، وأُخبر حاطب بذلك فجاء إليه، فسأله من كسعه فأشار إلى اليهودي؛ فضربه

(١) الأجد: القوية.
(٢) العفاء: الشعر الطويل، يشبهه بريش ذكر النعام الساقط من كتفه إذ جفل.
(٣) على وزن: قنفذ. (٤) كسعه، أي: ضربه برجليه على دبره.

حاطب بالسيف فلق هامته فأخبر ابن فسحم الخبر، وقيل له: قتل اليهودي قتله حاطب، فأسرع خلف حاطب، فأدركه وقد دخل بيوت أهله، فلقي رجلاً من بني معاوية فقتله فثارت الحرب بين الأوس والخزرج واحتشدوا واجتمعوا والتقوا على جسر ردم بني الحارث بن الخزرج، وكان على الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي، وعلى الأوس حُضير بن سماك الأشهلي، وقد كان ذهب ذكر ما وقع بينهم من الحروب فيمن حولهم من العرب، فسار إليهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، وخيار بن مالك بن حماد الفزاري، فقدما المدينة، وتحدّثا مع الأوس والخزرج في الصلح، وضمنا أن يتحمّلا كل ما يدعي بعضهم على بعض فأبوا، ووقعت الحرب عند الجسر وشهدها عيينة وخيار، فشاهدا من قتالهم وشدّتها ما أيِسَا معه من الإصلاح بينهم، فكان الظفر يومئذ للخزرج، وهذا اليوم من أشهر أيّامهم، وكان بعده عدة وقائع كلها من حرب حاطب، فمنها:

٦٦ - يوم الربيع

ثم التقت الأنصار بعد يوم الجسر بالربيع، وهو حائط في ناحية السفح، فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى كاد يفني بعضهم بعضًا، فانهزمت الأوس وتبعها الخزرج حتى بلغوا دورهم وكانوا قبل ذلك إذا انهزمت إحدى الطائفتين فدخلت دورهم كفّت الأخرى عن اتّباعهم، فما تبع الخزرج الأوس إلى دورهم طلبت الأوس الصلح فامتنعت بنو النجار من الخزرج عن إجابتهم، فحصنت الأوس النساء والذراري في الآطام وهي الحصون، ثم كفّت عنهم الخزرج؛ فقال صخر بن سليمان البياضي:

ألا أبلغا عني سويد بن صامت ... ورهط سويد بلغا وابن الأسلت

بأنا قتلنا بالربيع سراتكم ... وأفلت مجروحًا به كل مفلت

فلولا حقوق في العشيرة إنها ... أدلت بحق واجب إن أدلت

لنالهمُ منّا كما كان نالهم ... مقانب خيل أهلكت حين حلّت

فأجابه سويد بن الصامت:

ألا أبلغا عني صخرًا رسالةً

فقد ذقت حرب الأوس فيها ابن الأسلت

قتلنا سراياكم بقتلى سراتنا

وليس الذي ينجو إليكم بمفلت

٦٧ ـ يوم البقيع

ثم التقت الأوس والخزرج ببقيع الغرقد، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فكان الظفر يومئذ للأوس، فقال عبيد بن ناقد الأوسي:

لـمـا رأيـت بـنـي عـوف وجـمـعـهـم
جـاؤوا وجـمـع بـنـي الـنـجـار قـد حـفـلوا
دعـوت قـومـي وسـهـلت الـطـريـق لـهـم
إلـى الـمـكـان الـذي أصـحـابـه حـللوا
جـادت بـأنـفـسـهـا مـن مـالـك عـصـب
يـوم الـلقـاء فـمـا خـافـوا ولا فـشـلوا
وعـاوروكـم كـؤوس الـمـوت إذ بـرزوا
شـطـر الـنـهـار وحـتـى أدبـر الأصـل
حـتـى اسـتـقـامـوا وقـد طـال الـمـراس بـهـم
فـكـلّـهـم مـن دمـاء الـقـوم قـد نـهـلوا
تـكـشـف الـبـيـض عـن قـتـلى أُولـي رحـم
لـولا الـمـسـالـم والأرحـام مـا نـقـلوا
تـقـول كـل فـتـاة غـاب قـيـمـهـا
أكـل مـن خـلـفـنـا مـن قـومـنـا قـتـلوا
لـقـد قـتـلـتـم كـريـمًـا ذا مـحـافـظـة
قـد كـان حـالـفـه الـقـيـنـات والـحـلل
جـزل نـوافـلـه حـلـو شـمـائـلـه
ريـان واغـلـه تـشـقـى بـه الإبـل

الواغل: الذي يدخل على القوم وهم يشربون، فأجابه عبد الله بن رواحة الحارثي الخزرجي:

لما رأيت بني عوف وأخوتهم كعبًا وجمع بني النجار قد حفلوا
قدما أباحوا حماكم بالسيوف ولم يفعل بكم أحد مثل الذي فعلوا

وكان رئيس الأوس يومئذ في رحب حاطب أبو قيس بن الأسلت الوائلي، فقام في حربهم وهجر الراحة فشحب وتغيّر، وجاء يومًا إلى امرأته فأنكرته حتى عرفته بكلامه، فقالت له: لقد أنكرتك حتى تكلّمت، فقال:

قالت ولم تقصد لقيل الخنى ... مهلًا فقد أبلغت أسماعي
واستنكرت لونًا له شاحبًا ... والحرب غول ذات أوجاع
من يذق الحرب يجد طعمها ... مُرًّا وتتركه بجعجاع[١]
قد حصت البيضة[٢] رأسي فما ... أطعم نومًا غير تهجاع
أسعى على جل بني مالك ... كل امرئ في شأنه ساعي
أعددت للأعداء موضونة[٣] ... فضفاضة كالنهي بالقاع
أحفزها[٤] عني بذي رونق ... مهنّد كاللمع قطّاع
صدق حسام وادق[٥] حدّه ... ومنحن أسمر قراع

وهي طويلة؛ ثم إن أبا قيس بن أسلت جمع الأوس، وقال لهم: ما كنت رئيس قوم قطّ إلا هزموا، فرئّسوا عليكم من أحببتم، فرأسوا عليهم حضير الكتائب بن السماك الأشهلي وهو والد أسيد بن حُضير لولده صحبة وهو بدري، فصار حضير يلي أمورهم في حروبهم، فالتقى الأوس والخزرج بمكانٍ يقال له الغرس[٦]، فكان الظفر للأوس ثم تراسلوا في الصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى فمن كان عليه الفضل أعطي الدية، فأفضلت الأوس على الخزرج ثلاثة نفر، فدفعت الخزرج ثلاثة غلمة منهم رهنًا بالديات فغدرت الأوس فقتلت الغلمان.

٦٨ ـ حرب الفجار[٧] الأول للأنصار

وليس بفجار كنانة وقيس، فلما قتلت الأوس الغلمان جمعت الخزرج وحشدوا

(١) الجعجاع: الموضع الضيّق الخشن.
(٢) حصت البيضة رأسي: أي حلقت البيضة وغطاء الرأس يتّخذ من حديد لوقايته من السلاح.
(٣) أي درعًا مأسورة بالوضين وهو القد من الجلد، والفضفاضة: الواسعة، والنهي: الماء القليل، والقاع: الأرض المتّسعة أي أن لون الدرع كلون الماء الذي يتخلّف بالقاع بعد المطر.
(٤) أحفزها: أي أدفعها، والضمير هنا يرجع للأعداء.
(٥) وادق: أي ممطر، والمراد أنه يقطر منه دم الأعداء.
(٦) الغرس: اسم بئر بالمدينة غسل منها رسول الله ﷺ يوم غسل لدفنه وموضع قرب فدك.
(٧) الفجار على وزن كتاب.

والتقوا بالحدائق[١]، وعلى الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول، وعلى الأوس أبو قيس بن الأسلت، فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى كان بعضهم يفني بعضًا، وسمّي ذلك اليوم يوم الفجار لغدرهم بالغلمان وهو الفجار الأول، فكان قيس بن الخطيم في حائط له فانصرف، فوافق قومه قد برزوا للقتال فعجز عن أخذ سلاحه إلى السيف ثم خرج معهم فعظم مقامه يومئذ وأبلى بلاءً حسنًا، وجرح جراحة شديدة فمكث حينًا يتداوى منها وأمر أن يحتمي عن الماء، فذلك يقول عبد الله بن رواحة:

رميناك أيام الفجار فلم تزل حميًا فمن يشرب فلست بشارب

٦٩ ـ يوم معبس ومضرّس[٢]

ثم التقوا عند معبس ومضرس، وهما جداران، فكانت الخزرج وراء مضرس، وكانت الأوس وراء معبس، فأقاموا أيامًا يقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم انهزمت الأوس حتى دخلت البيوت والآطام وكانت هزيمة قبيحة لم ينهزموا مثلها، ثم إن بني عمرو بن عوف وبني أوس مناة من الأوس وادعوا الخزرج، فامتنع من الموادعة بنو عبد الأشهل وبنو ظفر وغيرهم من الأوس، وقالوا: لا نصالح حتى ندرك ثأرنا من الخزرج، فألحّت الخزرج عليهم بالأذى والغارة حين وادعهم بنو عمرو بن عوف وأوس مناة، فعزمت الأوس إلّا من ذكرنا على الانتقال من المدينة، فأغارت بنو سلمة على مالٍ لبني الأشهل يقال له الرعل[٣]، فقاتلوهم عليه فجرح سعد بن معاذ الأشهلي جراحةً شديدة، واحتمله بنو سلمة إلى عمرو بن الجموح الخزرجي فأجاره، وأجار الرعل من الحريق وقطع الأشجار، فلمّا كان يوم بعاث جازاه سعد على ما نذكره إن شاء الله، ثم سارت الأوس إلى مكة لتحالف قريشًا على الخزرج وأظهروا أنهم يريدون العمرة، وكانت عادتهم أنه إذا أراد أحدهم العمرة أو الحج لم يعرض إليه خصمه ويعلق المعتمر على بيته كرانيف النخل، ففعلوا ذلك وساروا إلى مكّة فقدموها وحالفوا قريشًا وأبو جهل غائب، فلما قدم أنكر ذلك، وقال لقريش: أما سمعتم قول الأول: ويل للأهل من النازل أنهم لأهل عدد وجلد ولقلّما نزل قوم على قوم إلّا أخرجوهم من بلادهم وغلبوهم عليه، قالوا: فما المخرج من حلفهم؟ قال: أنا أكفيكموهم، ثم

---

(١) قرية من أعراض المدينة.

(٢) مضرس ـ كمحدث ـ: الأسد يمضغ لحم فريسته ولا يبتلعه، وكمعظم نوع من الوشي فيه صور كأنها أضراس والأول أنسب هنا، وقد سمّي به أحد الجدارين.

(٣) رَعْل: موضع، والرَّعْلة: القطعة من الخيل والعوالي من النخل.

خرج حتى جاء الأوس، فقال: إنكم حالفتم قومي وأنا غائب فجئت لأحالفكم وأذكر لكم من أمرنا ما تكونون بعده على رأس أمركم، إنّا قوم تخرج إماؤنا إلى أسواقنا، ولا يزال الرجل منّا يدرك الأمة فيضرب عجيزتها فإن طابت أنفسكم أن تفعل نساؤكم مثل ما تفعل نساؤنا حالفناكم، وإن كرهتم ذلك فردّوا إلينا حلفنا، فقالوا: لا نقرّ بهذا، وكانت الأنصار بأسرها فيهم غيرة شديدة فردّوا إليهم حلفهم، وساروا إلى بلادهم، فقال حسان بن ثابت يفتخر بما أصاب قومه من الأوس:

ألا أبلغ أبا قيس رسولاً ... إذا ألقى له سمع مبينُ
فلست بحاضرٍ إن لم يزركم ... خلال الدار مسبلة طحون
يدين لها العزيز إذا رآها ... ويسقط من مخافتها الجنين
تشيب الناهد العذراء منها ... ويهرب من مخافتها القطين[1]
يطوف بها من النجار أسد ... كأسد الغيل مسكنها العرين
يظل الليث فيها مستكينًا ... له في كلّ ملتفت أنين
كأن بهاءها للناظريها ... من الأسلات والبيض الفتين[2]
كأنهمُ من الماذي عليهم ... جمال حين يجتلدون جون
فقد لاقاك قبل بعاث قتل ... وبعد بعاث ذلّ مستكين

وهي طويلة أيضًا.

٧٠ ـ يوم الفجار الثاني للأنصار

كانت الأوس قد طلبت من قريظة والنضير أن يحالفوهم على الخزرج، فبلغ ذلك الخزرج فأرسلوا إليهم يؤذنونهم بالحرب، فقالت اليهود: لا نريد ذلك، فأخذت الخزرج رهنهم على الوفاء وهم أربعون غلامًا من قريظة والنضير، ثم إن يزيد بن قسحم شرب يومًا فسكر فتغنّى بشعر يذكر فيه ذلك:

هلمّ إلى الأحلاف إذ رقّ عظمهم ... وإذا أصلحوا مالاً لجذمان ضائعا
إذا ما امرؤٌ منهم أساء عمارة ... بعثنا عليهم من بني العير جادعا

(١) القطين: أي المقيم كذا في ديوانه، وفي الأصول: بالفاء وهو خطأ.
(٢) في القاموس الفتين: الحرة السوداء ولا يخفى أنه غير مناسب هنا، والأنسب أن يقال: فتين بمعنى مفتون، ويراد منه المعدن الذي صفي مما به من الخبث.

فأما الصريخ منهم فتحمّلوا	وأمّا اليهود فاتّخذنا بضائعا
أخذنا من الأولى اليهود عصابةً	لغدرهمُ كانوا لدينا ودائعا
فذلّوا لرهنٍ عندنا في حبالنا	مصانعة يخشون منّا القوارعا
وذاك بأنّا حين نلقى عدوّنا	نصول بضرب يترك العزّ خاشعا

فبلغ قوله قريظة والنضير فغضبوا، وقال كعب بن أسد: نحن كما قال: إن لم نُغر فحالف الأوس على الخزرج، فلما سمعت الخزرج بذلك قتلوا كلّ من عندهم من الرهن من أولاد قريظة والنضير، فأطلقوا نفرًا، منهم سليم بن أسد القرظي جدّ محمد بن كعب بن سليم، واجتمعت الأوس وقريظة والنضير على حرب الخزرج، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وسمّي ذلك الفجار الثاني لقتل الغلمان من اليهود.

وقد قيل في قتل الغلمان غير هذا، وهو أن عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي قال لقومه بني بياضة: إن أباكم أنزلكم منزلة سوء، والله لا يمسّ رأسي ماء حتى أنزلكم منازل قريظة والنضير أو أقتل رهنهم، وكانت منازل قريظة والنضير خير البقاع، فأرسل إلى قريظة والنضير: إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم، وإمّا أن نقتل الرهن، فهمّوا بأن يخرجوا من ديارهم، فقال لهم كعب بن أُسيد القرظي: يا قوم امنعوا دياركم وخلّوه يقتل الغلمان ما هي إلّا ليلة يضيب فيها أحدكم امرأة حتى يولد له مثل أحدهم، فأرسلوا إليهم أنّا لا ننتقل عن ديارنا، فانظروا في رهننا فعوالنا[1]، فعدا عمرو بن النعمان على رهنهم فقتلهم، وخالفه عبد الله بن أُبي بن سلول فقال: هذا بغي وإثم، ونهاه عن قتلهم وقتال قومه من الأوس وقال له: كأني بك وقد حملت قتيلاً في عباءة يحملك أربعة رجال فلم يقتل هو ومن أطاعه أحدًا من الغلمان وأطلقوهم. ومنهم سليم بن أسد جدّ محمد بن كعب، وحالفت حينئذ قريظة والنضير الأوس على الخزرج، وجرى بينهم قتال سمّي ذلك اليوم يوم الفجار الثاني، وهذا القول أشبه بأن يسمى اليوم فجارًا، وأمّا على القول الأول فإنما قتلوا الرهن جزاءً للغدر من اليهود، فليس بفجار من الخزرج إلّا أن يسمى فجارًا لغدر اليهود.

٧١ ـ يوم بُعاث

ثم إن قريظة والنضير جدّدوا العهود مع الأوس على الموازرة والتناصر، واستحكم أمرهم وجدّوا في حربهم، ودخل معهم قبائل من اليهود غير من ذكرنا،

(١) يظهر أن الكلمة ناقصة بعض الأحرف، وصحتها: فادفعوهم إلينا.

فلمّا سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت وراسلت حلفاءها من أشجع وجهينة، وراسلت الأوس حلفاءها من مزينة، ومكثوا أربعين يومًا يتجهّزون للحرب، والتقوا ببُعاث، وهي من أعمال قريظة، وعلى الأوس حضير الكتائب بن سماك والد أُسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، وتخلّف عبد الله بن أُبيّ بن سلول فيمن تبعه عن الخزرج، وتخلف بنو حارثة بن الحارث عن الأوس؛ فلما التقوا اقتتلوا قتالاً شديدًا وصبروا جميعًا، ثم إن الأوس وجدت مسَّ السلاح، فولّوا منهزمين نحو العريض، فلما رأى حضير هزيمتهم برك وطعن قدمه بسنان رمحه وصاح: واعقراه كعقر الجمل، والله لا أعود حتى أُقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فافعلوا، فعطفوا عليه وقاتل عنه غلامان من بني عبد الأشهل يقال لهما: محمود ويزيد ابنا خليفة حتى قتلا، وأقبل سهم لا يدرى من رمى به، فأصاب عمرو بن النعمان البياضي رئيس الخزرج فقاله، فبينا عبد الله بن أُبيّ بن سلول يتردّد راكبًا قريبًا من بُعاث يتجسّس الأخبار إذ طلع عليه بعمرو بن النعمان قتيلاً في عباءة يحمله أربعة رجال كما كان قال له، فلما رآه قال: ذُقْ وبال البغي، وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الأوس السلاح، فصاح صائح: يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب، فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم وإنما سلبهم قريظة والنضير، وحملت الأوس حضيرًا مجروحًا فمات، وأحرقت الأوس دور الخزرج ونخيلهم، فأجار سعد بن معاذ الأشهلي أموال بني سلمة ونخيلهم ودورهم جزاءً بما فعلوا له في الرعل وقد تقدّم ذكره. ونجى يومئذ الزبير بن إياس بن باطا ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي أخذه فجزّ ناصيته وأطلقه وهي اليد التي جازاه بها ثابت في الإسلام يوم بني قريظة وسنذكره، وكان يوم بُعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ثم جاء الإسلام واتّفقت الكلمة واجتمعوا على نصر الإسلام وأهله، وكفى الله المؤمنين القتال، وأكثرت الأنصار الأشعار في يوم بُعاث؛ فمن ذلك قول قيس بن الخطيم الظفري الأوسي:

أتعرف رسمًا كالطراز المذهب لعمرة ركبًا غير موقف راكب
ديار التي كانت ونحن على مني تحلّ بنا لولا رجاء الركائب
تبدّت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنَّت بحاجب[1]

(١) في بلوغ الأرب للألوسي: وبانت بدل وضنت، وتراءت عوض تبدّت.

ومنها:

وكـنـت امـرءًا لا أبـعـث الـحـرب ظـالـمًـا
فـلـمـا أبَـوْا شـعـلـتـهـا كـل جـانـب

أذنـت بـدفـع الـحـرب حـتـى رأيـتـهـا
عـن الـدفـع لا تـزداد غـيـر تـقـارُبِ

فـلـمـا رأيـت الـحـرب حـربًـا تـجـرَّدت[١]
لـبـسـت مـع الـبـرديـن ثـوب الـمـحـارب

مـضـعـفـة يـغـشـى الأنـامـل ريـعـهـا
كـأن قـتـيـريـهـا[٢] عـيـون الـجـنـادب

تـرى قـصـد[٣] الـمـران تـلـقـى كـأنـهـا
تـذرّع خـرصـان بـأيـدي الـشـواطـب

وسـامـحـنـي مـلـكًـا هـنـيـن ومـالـك
وثـعـلـبـة الأخـيـار رهـط الـمـصـائـب

رجـال مـتـى يـدعـوا إلـى الـحـرب يُـسـرعـوا
كـمَـشْـي الـجـمـال الـمـشـعـلات الـمـصـائـب

إذا مـا فـررنـا كـان أسـوأ فـرارنـا
صـدود الـخـدود وازْوِرار الـمـنـاكـب

صـدود الـخـدود والـقـنـا مـتـشـاجـر
ولا تـبـرح الأقـدام عـنـد الـتـضـارب

ظـأرنـا كـمـوا بـالـبـيـض حـتـى لأنـتـمـوا
أذلّ مـن الـسـقـبـان بـيـن الـحـلائـب

---

(١) الفقرة الأولى في بلوغ الأرب: ولما رأيت الحرب قد جدّ جدُّها.

(٢) الفتير: رؤوس مسامير الدروع وثناها لأنها تكون في الجانبين.

(٣) القصد: جمع قصدة وهي القطعة، والمراد نوع من الشجر تتّخذ منه الرماح، والخُرصان ـ جمع خرص وهو حلق الذهب والفضّة وعويد محدّد وهو المقصود. والشواطب: جمع مشاطب، وهي المرأة التي تفري الأديم بعدما حلقته، والمعنى: أن قصد المران كالأعواد التي في طرفها حديدة في أيدي النساء اللّاتي يقطّعن الأديم.

يجردن بيضًا كلّ يوم كريهة
ويرجعن حمرًا جارحات المضارب
لقيتكموا يوم الحدائق حاسرًا
كأن يدي بالسيف مخراق لاعب
ويوم بُعاث أسلمتنا سيوفنا
إلى حسب في جذم غسان ثاقب
قتلناكموا يوم الفجار وقبله
ويوم بُعاثٍ كان يوم التغالب
أتت عصب للأوس تخطر بالقنا
كمَشْي الأسود في رشاش الأهاضب

فأجابه عبد الله بن رواحة:

أشاقتك ليلى في الخليط المجانب
نعم فرشاش الدمع في الصدر غالب
بكى أثر من شطَّت نواه ولم يقم
لحاجةِ مخزون شكا الحب ناصب
لدن غدوة حتى إذا الشمس عارضت
أراحت له من لبِّه كل غارب
نحامي على أحسابنا بتلادنا
لمفتقرٍ أو سائلِ الحق واجب
وأعمى هَدَتْه للسبيل سيوفنا
وخصمٌ أقمنا بعد مانج ثاعب
ومعترك ضنك يرى الموت وسطه
مشينا له مشي الجمال المصاعب
برجلٍ ترى الماذي فوق جلودهم
وبيضًا نقيًا مثل لون الكواكب

وهـم حـسـرٌ لا فـي الـدروع تـخـالـهـم
أسـودًا مـتـى تـنـشـا الـرمـاح تـضـارب
مـعـاقـلـهـم فـي كـلِّ يـومِ كـريـهـة
مـع الـصـدق مـنـسـوب الـسـيـوف الـقـواضـب

وهي طويلة. وليلى التي شبب بها ابن رواحة هي أخت قيس بن الخطيم، وعمرة التي شبّب بها ابن الخطيم هي أخت عبد الله بن رواحة وهي أمّ النعمان بن بشير الأنصاري.

القسم الثاني
أيام العرب في الإسلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ سرية عبد الله بن جحش[1]

أمر رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح أن يتجهّز للغزو فتجهّز، فلما أراد المسير بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ، فبعث مكانه عبد الله بن جحش في جمادى الآخرة معه ثمانية رهط من المهاجرين، وقيل: اثنا عشر رجلاً وكتب له كتابًا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يكره أحدًا من أصحابه، ففعل ذلك ثم قرأ الكتاب وفيه يأمره بنزول نخلة بين مكّة والطائف فيرصد قريشًا ويعلم أخبارهم، فأعلم أصحابه، فساروا معه وأضلّ سعد بن أبي وقّاص، وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما يتعقّبانه: فتخلّفا في طلبه ومضى عبد الله ونزل بنخلة، فمرّت عير لقريش تحمل زبيبًا وغيره فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان، فأشرف لهم عُكاشة بن محصن وقد حلق رأسه فلما رأوه قالوا: عمّار لا بأس عليكم ـ وذلك آخر يوم من رجب ـ فرمى واقد بن عبد الله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان والحكم وهرب نوفل وغَنِم المسلمون ما معهم، فقال عبد الله بن جحش: إن لرسول الله ﷺ خمس ما غنمتم، وذلك قبل أن يُفرض الخمس، وكانت أول غَنِيمة غنمها المسلمون وأوّل خُمُس في الإسلام، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسرى إلى المدينة.

فلما قدموا قال لهم رسول الله ﷺ: «ما أمرتُكم بقتالٍ في الشهر الحرام»؟!

فوقف العير والأسيرين، فسقط في أيديهم وعنّفهم المسلمون، وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام.

---

(١) سنة ٢ من الهجرة.

وقالت اليهود: تفاءل بذلك على رسول الله ﷺ عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمر وعمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، وواقد وقدت الحرب، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧] الآية، فلما نزل القرآن وفرج الله عن المسلمين قبض رسول الله ﷺ العير، وكانت أول غنيمة أصابوها، وفَدَى رسول الله ﷺ الأسيرين. فأمّا الحكم، فأقام مع رسول الله ﷺ حتى قُتل يوم بئر معونة، وقيل: كان قتلهم عمرو بن الحضرمي وأخذ العير آخر يوم من الجمادى وأوّل ليلة من رجب.

٢ ـ وقعة بدر الكبرى[١]

كان سببها قتل عمرو بن الحضرمي وإقبال أبي سفيان بن حرب في عِيرٍ لقريش عظيمة من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلاً أو أربعون، وقيل: قريبًا من سبعين رجلاً من قريش منهم مخرمة بن نوفل الزهري، وعمرو بن العاص فلمّا سمع بهم رسول الله ﷺ ندب المسلمين إليهم، وقال: «هذه عِير قريش فيها أموالهم، فاْخرجوا إليها لعلّ الله أن ينفلكموها»، فاْنتدب الناس فخفَّ بعضهم وثقل بعضهم؛ وذلك لأنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا، وكان أبو سفيان قد سمع أن النبيّ ﷺ يريده فحذر، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكّة يستنفر قريشًا ويخبرهم الخبر، فخرج ضمضم إلى مكّة.

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليالٍ رؤيا أفزعتها، فقصّتها على أخيها العباس واستكتمته خبرها، قالت: رأيت راكبًا على بعيرٍ له واقفًا بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته: أن اْنفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، قالت: فأرى الناس قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد فمثل بعيره على الكعبة ثم صرخ مثلها، ثم مثل بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها، ثم أخذ صخرة عظيمة وأرسلها، فلمّا كانت بأسفل الوادي ارفضّت فما بقي بيت من مكّة إلّا دخل فلقة منها؛ فخرج العباس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان صديقه فذكرها له واستكتمه ذلك، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الخبر، فلقي أبو جهل العباس فقال له: يا أبا الفضل أقبل إلينا.

(١) في سابع عشرة رمضان سنة ٢ من الهجرة، وقيل في تاسع عشرة، وكانت يوم الجمعة.

قال: فلما فرغتُ من طوافي أقبلت إليه، فقال لي: متى حدثت فيكم هذه النبيّة؟

وذكر رؤيا عاتكة، ثم قال: ما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبّأ نساؤكم، فسنتربّص بكم هذه الثلاث فإن يكن حقًّا وإلّا كتبنا عليكم أنكم أكذب أهل بيت في العرب. قال العباس: فما كان مني إليه إلّا أني جحدت ذلك وأنكرته، فلما أمسيت أتاني نساء بني عبد المطلب، وقلن لي: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أنْ يقع في رجالكم وقد تناول نساءكم ولم تنكر عليه ذلك، قال: قلت: والله كان ذلك ولأتعرضن له فإن عاد كفيتكموه. قال: فغدوت اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا مغضب أحب أنْ أدركه فرأيته في المسجد فمشيت نحوه أتعرّض له ليعود فأوقع به فخرج نحو باب المسجد يشتدّ، قال: قلت: ما باله قاتله الله، أكلّ هذا فَرَقًا من أن أشاتمه؟ وإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفًا على بعيره قد جدّعه، وحوّل رحله وشقّ قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا أدري إنْ تدركوها، الغوث الغوث، فشغلني عنه وشغله عني، قال: فتجهّز الناس سراعًا ولم يتخلّف من أشرافهم أحد إلّا أبو لهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وعزم أميّة بن خلف الجمحي على القعود فإنه كان شيخًا ثقيلًا بطينًا، فأتاه عقبة بن أبي معيط بمجمرة فيها نار وما يتبخّر به، وقال: يا أبا عليّ استجمر، فإنما أنت من النساء. فقال: قبّحك الله وقبّح ما جئت به، وتجهّز وخرج معهم.

وعزم عتبة بن ربيعة أيضًا على القعود، فقال له أخوه شيبة: إنْ فارقنا قومنا كان ذلك سبّة علينا فامضِ مع قومك، فمشى معهم فلما أجمعوا على المسير ذكروا ما بينهم وبين بكر بن عبد مناة بن كنانة بن الحارث، فخافوا أنْ يؤتوا من خلفهم فجاءهم إبليس في صورة سراقة بن جعشم المدلجي وكان من أشراف كنانة، وقال: أنا جار لكم فأخرجوا سراعًا وكانوا تسعمائة وخمسين رجلًا، وقيل: كانوا ألف رجل، وكانت خيلهم مائة فرس فنجا منها سبعون فرسًا وغَنِم المسلمون ثلاثين فرسًا وكان مع المشركين سبعمائة بعير، وكان مسير رسول الله ﷺ لثلاث ليال خلون من شهر رمضان في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، وقيل: أربعة عشر، وقيل: بضعة عشر رجلًا، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: كانوا سبعة وسبعين من المهاجرين، وقيل: ثلاثة وثمانون والباقون من الأنصار؛ فقيل: جميع من ضرب له رسول الله ﷺ بسهم من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلًا، ومن الأوس أحد وسبعون رجلًا، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلًا.

ولم يكن فيهم غير فارسين أحدهما المقداد بن عمرو الكندي ولا خلاف فيه، والثاني قيل: كان الزبير بن العوّام، وقيل: كان مرثد بن أبي مرثد، وقيل: المقداد وحده.

وكانت الإبل سبعين بعيرًا، فكانوا يتعاقبون عليها، البعير بين الرجلين والثلاثة والأربعة، فكان بين النبيّ ﷺ وعليّ وزيد بن حارثة بعير، وبين أبي بكر وعمر وعبد الرحمٰن بن عوف بعير، وعليّ مثل هذا، وكان فرس المقداد اسمه «سبحة»، وفرس الزبير اسمه «السيل»، وكان لواؤه مع مصعب بن عمير بن عبد الدّار ورايته مع عليّ بن أبي طالب.

وعلى الساقة قيس بن أبي صعصعة الأنصاري، فلمّا كان قريبًا من الصفراء بعث بُسَيْس بن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء الجهنيين يتجسّسان الأخبار عن أبي سفيان.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وترك الصفراء يسارًا وعاد إليه بُسَيْس بن عمرو يخبره أنّ العِير قد قاربت بدرًا ولم يكن عند رسول الله ﷺ والمسلمين عِلْم بمسير قريش لمنع عِيرهم، وكان قد بعث عليًا والزبير وسعدًا يلتمسون له الخبر ببدر، فأصابوا راوية لقريش فيهم أسلم غلام بني الحجحاج، وأبو يسار غلام بني العاص، فأتَوْا بهما النبيّ ﷺ وهو قائم يصلّي فسألوهما، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكَرِه القوم خبرهما وضربوهما ليخبروهما عن أبي سفيان قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما، وفرغ رسول الله ﷺ من الصلاة، وقال: «إذا صدقاكم ضربتموها، وإذا كذباكم تركتموها»! صدقا أنهما لقريش أخبِرَاني أين قريش؟

قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعَدْوة القُصْوَى. فقال رسول الله ﷺ: «كم القوم»؟ قالا: كثير، قال: «كم عدَّتهم»؟ قالا: لا ندري، قال: «كم ينحرون»؟ قالا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا، قال: «القوم بين التسعمائة إلى الألف»، ثم قال لهما: «فمَنْ فيهم من أشراف قريش»؟ قالا: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، والوليد وأبو البختري بن هشام، وحَكيم بن حِزَام، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث، وزَمْعَة بن الأسود، وأبو جهل، وأُميّة بن خلف، ونُبَيْه ومُنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد وُدّ.

فأقبل رسول الله ﷺ على أصحابه، وقال: «هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

ثم استشار أصحابه، فقال أبو بكر فأحسن، ثم قال عمر فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امْضِ لِمَا أَمَرَكَ الله فنحنُ معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: الآية ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالّذي بعثك بالحق لو سِرْتَ بنا إلى بِرْك الغَمَاد[١] ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فدعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، وإنما يريد الأنصار لأنهم كانوا عدَّته للناس، وخاف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلّا ممن دهمه بالمدينة وليس عليهم أن يسير بهم، فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله.

قال: «أجل»، قال: قد آمنا بك، وصدّقناك، وأعطيناك عهودنا، فامْضِ يا رسول الله لِمَا أُمِرْتَ، فوالّذي بعثك بالحقّ إن استعرضت بنا هذا الخبر فخضته لنخوضنّه معك وما نكره أن تكون تلقى العدوّ بنا غدًا، إنا لصُبُرٌ عند الحرب صُدُقٌ عند اللّقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تَقَرُّ به عينُك فَسِرْ بنا على بَرَكةِ الله.

فسار رسول الله ﷺ، فقال: «أبشروا فإنّ الله قد وَعَدَنِي إحدى الطائفتين، والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم»، ثم انحطّ على بدر فنزل قريبًا منها.

وكان أبو سفيان قد ساحل[٢] وترك بدرًا يسارًا ثم سارع فنجا، فلما رأى أنه قد أحرز عِيرَه أرسل إلى قريش وهم بالجُحْفَة[٣]: إن الله قد نَجَّى عيركم وأموالكم فارجعوا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا ـ وكان بدر موسمًا من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوق كل عام ـ فنقيم بها ثلاثًا فننحر الجُزُرَ، ونُطْعِمَ الطعام، ونسقي الخمر، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا. فقال الأخنس بن شُرَيْق الثقفي وكان حليفًا لبني زهرة وهم بالجحفة: يا بني زُهْرَة قد نَجَّى الله أموالكم وصاحبكم فارجعوا، فرجعوا فلم يشهدها زُهْرِيّ ولا عَدَوِيّ وشهدها سائر بطون

---

(١) بِرْك الغماد: موضع وراء مكّة بخمس ليالٍ مما يلي البحر.

(٢) أي: سار محاذيًا لساحل البحر.

(٣) الجُحْفَة: كانت قرية كبيرة على طريق مكّة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مكّة والشام إنْ لم يمرّوا على المدينة، وسمّيت بالجحفة لأن السيل جَحفَها، بينها وبين البحر ستّة أميال.

قريش، ولما كانت قريش بالجحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا فقال: إني رأيتُ فيما يرى النائم رجلاً أقبل على فرسٍ ومعه بَعِير له، فقال: قتل عتبة، وشيبة، وأبو جهل - وغيرهم ممن قتل يومئذ - ورأيته ضرب لَبَّة بعيره ثم أرسَله في العسكر فما بقي خباء إلّا أصابه من دمه. فقال أبو جهل: وهذا أيضًا نبيّ من بني المطلب سيعلم غدًا مَن المقتول!

وكان بين طالب بن أبي طالب وهو في القوم وبين بعض قريش محاورة، فقالوا: والله قد عرفنا أنّ هواكم مع محمد، فرجع طالب إلى مكّة فيمن رجع، وقيل: إنما كان خرج كرهًا فلم يوجد في الأسرى ولا في القتلى ولا فيمن رجع إلى مكّة وهو الذي يقول:

يـا ربّ إمّـا يـغـزون طـالـب ... في مِقْنَب[1] من هذه المقانبِ

فليكن المسلوب غير السالب ... وليكن المغلوب غير الغالب

ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي وبعث الله السماء وكان الوادي دهسًا[2]، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منه ما لَبّد لهم الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشًا منه ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه، فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزله، فقال الحُبَاب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدّمه أو نتأخره؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة». قال: يا رسول الله فإنّ هذا ليس لك بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء سواه من القوم فننزله ثم نُغَوِّرُ ما وراءه من القُلُب[3] ثم نبني عليه حوضًا ونملأه ماء فنشرب ماء ولا يشربون ثم نقاتلهم، ففعل رسول الله ﷺ ذلك.

فلما نزل جاءه سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله نبني لك عريشًا[4] من جَريد فتكون فيه ونترك عندك ركائبك ثم نلقى عدوّنا، فإنْ أعزّنا الله وأظهرنا الله عليهم كان ذلك مما أحببناه، وإنْ كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقتَ بمن وراءنا من

(١) المِقْنَب: كمنبر - من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلاثمائة.
(٢) الدهس: المكان السهل ليس برمل ولا تراب.
(٣) القُلُب: جمع قَليب وهو البئر. (٤) العريش: ما يستظلّ به.

قومنا فقد تخلّف عنك أقوام ما نحن بأشدّ حبًا لك منهم ولو ظنّوا أنك تلقى حربًا ما تخلّفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويحاربون معك.

فأثنى عليه خيرًا، ثم بُنِيَ لرسول الله ﷺ عريش، وأقبلت قريش بخيلائها وفخرها، فلما رآها قال: «اللّهمّ هذه قريش قد أقبلتْ بخيلائها وفخرها، تحادُك[١] وتُكَذِّب رسولك، اللّهمّ فنصرك الذي وعدتني، اللّهمّ أحنهم[٢] الغداة».

ورأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر، فقال: إنْ يكن عند أحدٍ من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إنْ يطيعوهُ يُرشدوا. وكان خُفاف بن أيماء بن رحضة الغفاري أو أبوه أيماء بعث إلى قريش حين مرّوا به ابنًا له بجزائر أهداها لهم وعرض عليهم المدد بالرجال والسلاح.

فقال قريش: إنْ كنّا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف، وإنْ كنّا نقاتل الله كما زعم محمّد فما لأحدٍ بالله طاقة.

فلما نزلت قريش أقبل جماعة، منهم: حكيم بن حِزَام حتى وردوا حوض النبيّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «اُتركوهم»، فما شرب منه رجل إلّا قتل يومئذ إلّا حكيم نجا على فرسٍ يقال له: الوجيه، وأسلم بعد ذلك فحسُنَ إسلامه وكان يقول إذا اجتهد في يمينه: لا والذي نجّاني يوم بدر. ولما اطمأنّت قريش بعثوا عمرو بن وهب الجمحي ليحزر المسلمين[٣]، فجال بفرسه حولهم ثم عاد فقال: هم ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولقد رأيت البلايا[٤] تحمل المنايا نواضح[٥] يثرب تحمل الموت الناقع، ليس لهم منعة ولا ملجأ إلّا سيوفهم، والله لا يُقتل رجلٌ منهم إلّا يقتل رجلاً منكم فإذا أصابوا أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك فَرُوا رأيكم.

فلما سمع حَكيم بن حِزَام ذلك مشى في القوم فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيّدها هل لك أن لا تزال تُذْكَر فيها بخير إلى آخر الدهر؟

---

(١) تُحَادُك: تعاديك. (٢) أي: لقهم الحين ـ يعني حين هلاكهم.

(٣) أي: يعرف مقدارهم.

(٤) بلايا: جمع بلية وهي الناقة والدابة تربط على قبر الميّت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت.

(٥) جمع ناضح وهي الناقة التي يستقى عليها.

قال: وما ذاك؟ قال: ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي، قال: قد فعلتُ على دمه وما أصيب من ماله فأْت ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - فلا أخشى أن يفسد أمر الناس غيره.

فقام عتبة في الناس فقال: إنكم ما تصنعون بأن تلقوا محمّدًا وأصحابه شيئًا، والله لَئِن أصبتموهم لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمّه أو ابن خاله أو رجلًا من عشيرته. قال حكيم بن حِزام: فانطلقت إلى أبي جهل فوجدته قد نثل درعًا[١] وهو يهيّئها فأعلمته ما قال عتبة، فقال: انتفخ والله سَحره حين رأى محمّدًا وأصحابه، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمّد، وما بعتبة ما قال لكن رأى ابنه أبا حذيفة فيهم وقد خافكم عليه. ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال له: هذا حليفك يريد أن يرجع إلى مكّة بالناس وقد رأيتُ ثأرك بعينك فأنشد خفرتك ومقتل أخيك.

فقام عامر وصرخ: واعمراه واعمراه، فحَمِيَت الحربُ واستوثق الناس على الشرّ، فلما بلغ عتبة قول أبي جهل «انتفخ سحره»، قال: سيعلم المُصَفِّرُ استه من انتفخ سَحره أنا أم هو؟ ثم التمس بيضة يدخلها رأسَه فما وجد من عظم هامته فاعتجر[٢] ببُرْدٍ له، وخرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي وكان سيّئ الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم ولأهدمنّه، أو لأموتنّ دونه.

فخرج إليه حمزة فضربه فأطنّ قدمه[٣] بنصف ساقه فوقع على الأرض ثم حبا إلى الحوض فاقتحم فيه ليبرّ يمينه، وتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض. ثم خرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ودَعُوا إلى المبارزة، فخرج إليهم عوف ومُعَوّذ ابنا عفراء وعبد الله بن رَوَاحة كلّهم من الأنصار، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: من الأنصار، فقالوا: أكفاء كِرَام وما لنا بكم من حاجة؟ ليخرج إلينا أكفاؤنا من قومنا. فقال النبيّ ﷺ: «قُمْ يا حمزة، قم يا عبيدة بن الحارث، قُمْ يا عليّ»، فقاموا، ودنا بعضُهم من بعض فبارز عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وكان أمير القوم عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز عليّ الوليد، فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أنْ قتله، وأمّا عليّ فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما قد أثبت صاحبه، وكرّ حمزة وعليّ على عتبة فقتلاه، واحتملا عُبَيْدة إلى أصحابه وقد قُطِعَتْ

(١) أي: أخرج.
(٢) الاعتجار: لف العمامة.
(٣) أي: أطارها

رجله، فلما أتوا به النبيّ ﷺ قال: ألستُ شهيدًا يا رسول الله؟ قال: نعم، قال: لو رآني أبو طالب لعلم أننا أحقّ منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ

ثم مات، وتزاحف القومُ ودنا بعضُهُم من بعض وأبو جهل يقول: اللّهمّ أقطعنا للرحم وآتانا بما لم نعرفه فأحنه الغداة، فكان هو المستفتح على نفسه[1]، وكان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: «إن اكتنفكم القوم فأنضحوهم[2] عنكم بالنبل»، ونزل في العريش ومعه أبو بكر وهو يدعو ويقول:

«اللّهمّ إنْ تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض، اللّهمّ أنجز لي ما وعدتني»، ولم يزل حتى سقط رداؤه، فوضعه عليه أبو بكر، ثم قال له:

كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. وأغفى رسول الله ﷺ في العريش إغفاءة، وانتبه ثم قال: «يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذٌ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع»! وأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٩] الآية، وخرج رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القَمَر: الآية ٤٥]، وحرّض المسلمين وقال:

«والذي نفس محمّد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلّا أدخله الله الجنّة».

فقال عمير بن الحمام الأنصاري وبيده تمرات يأكلهنّ: بَخٍ بَخٍ ما بيني وبين أنْ أدخل الجنّة إلّا أن يقتُلني هؤلاء! ثم ألقى التمرات من يده وقاتل حتى قُتِلَ.

ورُمِيَ مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل فكان أوّل قتيلٍ، ثُمّ رُمِيَ حارثة بن سُراقة الأنصاري فقُتل، وقاتل عوف بن عفراء حتى قُتِل، واقتتل الناس قتالاً شديدًا، فأخذ رسول الله ﷺ حِفْنَة من التراب ورمى بها قريشًا وقال: «شاهت الوجوه»، وقال لأصحابه: «شُدُّوا عليهم»، فكانت الهزيمة فقتل الله من قَتَل من المشركين، وأَسَرَ من أَسَرَ منهم.

---

(١) وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إنْ تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خيرٌ لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئًا ولو كثرت وإن الله مع المؤمنين﴾ (الأنفال: ١٩).

(٢) أي: أرموهم.

ولمّا كان رسول الله ﷺ في العريش وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشّحًا بالسيف في نفرٍ من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ يخافون عليه كَرَّةَ العدوّ، فرأى رسولُ الله ﷺ في وجهِ سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس من الأسر، فقال له رسول الله ﷺ: «لكأنك تكره ذلك يا سعد»؟

قال: أجل يا رسول الله، أوّل وقعة أوقعها الله بالمشركين كان الإثخان[1] أحبّ إليَّ من استبقاء الرجال. وكان أوّل من لَقي أبا جهل معاذ بن عمرو بن الجموح وقريش محيطة به يقولون: لا يخلص إلى أبي الحكم، قال معاذ: فجعلته مِنْ شأني فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطَنت بنصف ساقه وضربني ابنه عكرمة فطرح يدي من عاتقي، فتعلّقت بجلدة من جنّتي فقاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني جعلت عليها رجلي، ثم تمطيت حتى طرحتها، وعاش معاذ إلى زمن عثمان رضي الله عنه.

ثم مرّ بأبي جهل مُعَوِّذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رَمَق، ثم مرَّ به ابن مسعود وقد أمر رسول الله ﷺ أن يُلتَمَس في القتلى فوجده بآخر رَمَق، قال: فوضعت رجلي على عُنُقِهِ، ثم قلت: هل أخزاك الله يا عدوّ الله؟ قال: وبما أخزاني؟ أأعمد من رجل قتلتموه؟! أخبرني لمن الدائرة؟ قلت: لله ولرسوله.

فقال له أبو جهل: لقد ارتقيت يا رُوَيْعِيَّ الغنم مرتقًى صعبًا. قال: فقلتُ: إني قاتِلُكَ.

قال: ما أنت بأوّل عَبْدٍ قَتَل سيّده، أمَا إنّ أشدّ شيءٍ لقيته اليوم قتلك إيّاي وألّا قتلني رجل من المطيبين الأحلاف. فضربه عبد الله فوقع رأسُه بين رجليه، فحمله إلى رسول الله ﷺ فسجد شكرًا لله.

وكان عبد الرحمٰن بن عوف قد غنم أذراعًا، فمرّ بأُمية بن خلف وابنه عليّ فقالا له: نحن خيرٌ لك من هذه الأدراع، فطرح الأدراع وأخذ بيده وبيد ابنه ومشى بهما، فقال له أُميّة: مَنِ الرجل المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قال: حمزة بن عبد المطلب. قال أُميّة: هو الذي فَعَلَ بنا الأفاعيل. ورأى بلالٌ أُميةَ ـ وكان يعذّبه بمكّة فيخرج به إلى رَمْضَاء مكّة فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ويقول: لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمّد، فيقول بلال: أحدٌ أحدٌ ـ

---

(١) الإثخان: كثرة القتل.

فلما رآه بلال قال: أُميّة رأس الكفر؟! لا نجوتُ إنْ نجا، ثم صرخ: يا أنصار الله رأسُ الكفر رأسُ الكفر، أُميّة بن خلف، لا نجوتُ إنْ نجا.

فأحاط بهم المسلمون وقَتَل أُميّة وابنه عليّ، وكان عبد الرحمٰن يقول: رحم الله بلالاً ذهبت أدراعي وفَجَعَني بأسيرَيَّ.

وقُتِلَ حنظلة بن أبي سفيان بن حرب قتله عليّ بن أبي طالب.

ولما انهزم المشركون أَمَرَ النبيّ ﷺ أن لا يُقْتَل أبو البختري بن هشام لأنه كان أخفَّ القوم على رسول الله ﷺ وهو بمكّة؛ وكان ممن اهتمّ في نقض الصحيفة فلقيه المُجَذَّر[1] بن زياد البَلَوِيّ حليف الأنصار ومعه زميل له، فقال له: إن رسول الله ﷺ قد نهى عن قَتْلِك، فقال: وزميلي. فقال المجذر: لا والله. قال: إذًا والله لأموتن أنا وهو، ولا تتحدّث نساء قريش أني تركت زميلي حرصًا على الحياة. فقتل ثم أخبر رسول الله ﷺ بخبره، وجيءَ بالعباس أسره أبو اليُسر وكان مجموعًا[2]، وكان العباس جسيمًا، فقيل لأبي اليسر: كيف أسرتَه؟ قال: أعانني عليه رجلٌ ما رأيته قبل ذلك بهيئة كذا وكذا.

فقال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه مَلَكٌ كريم». ولما أمسى العباس مأسورًا بات رسولُ الله ﷺ ساهرًا أوّل ليلة، فقال له لأصحابه: يا رسول الله ما لَكَ لا تنام؟ فقال: «سمعتُ تضوُّر[3] العباس في وَثَاقِهِ فمنع مني النوم». فقاموا إليه فأطلقوه، فنام رسول الله ﷺ، وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه يومئذٍ: «قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم أُخْرِجُوا كُرْهًا فمَن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومَنْ لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فإنه أُخرج كرهًا»، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل أبناءنا وآباءنا وإخواننا ونترك العباس! والله لئن لقيته لألحمنّه بالسيف.

فبلغ النبيّ ﷺ فقال لعمر: «يا أبا حفص أما تسمع قول أبي حذيفة: أيضرب وجه عمّ رسول الله بالسيف»؟

فقال أبو حذيفة: لا أزال خائفًا من تلك الكلمة ولا يكفِّرها عني إلّا الشهادة، فقُتل يوم اليمامة شهيدًا.

---

(١) المجذر ـ على وزن معظّم ـ: واسمه عبد الله.
(٢) أي: صغير الجثة.
(٣) أي تلوّيه وتألمه وتقلّبه ظهرًا لبطن.

وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «قد رأيت جبريل وعلى ثناياه النَّقْع»[١].
فقال رجل من بني غفار: أقبلت أنا وابن عمٍّ لي فصعدنا جبلاً يشرف بنا على بدرٍ ونحن مشركان ننظر لمن تكون الدائرة فننتهب، فدنت منّا سحابة فسمعت فيها حمحمة الخيل وسمعتُ قائلاً يقول: أقدِم حيزوم. قال: فأمّا ابن عمّي فمات مكانه، وأمّا أنا فكِدْت أهلك فتماسكت. وقال أبو داود المازني: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسَه قبل أنْ يصل سيفي إليه، فعرفتُ أنه قتله غيري. وقال سهل بن حُنيف: كان أحدُنا يشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف، فلما هَزَم الله المشركين وقُتِل منهم من قُتِل وأُسِرَ مَنْ أُسِر أمر رسول الله ﷺ أنْ تُطرح القتلى في القَليب فطرحوا فيه إلّا أُميّة بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملأها فذهبوا به ليخرجوه فتقطّع وطرحوا عليه من التراب والحجارة ما غيَّبه، ولما أُلقوا في القليب وقف عليهم رسول الله ﷺ، وقال:

«يا أهل القَليب بِئْسَ عشيرة النبيّ كنتم لنبيّكم، كذَّبتموني وصدَّقني الناس».

ثم قال: «يا عُتْبَة، يا شيبة، يا أميّة بن خلف، يا أبا جهل بن هشام ـ وعَدَّد مَنْ كان في القليب ـ هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقًّا؟ فإنّي وجدتُ ما وعدني ربّي حقًّا»، فقال له أصحابه: أتُكلِّم قومًا موتى! فقال: «ما أنتم بأسمع لِمَا أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أنْ يجيبوني».

ولما قال ﷺ لأهل القليب ما قال رأى في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية وقد تغيّر، فقال: «لعلَّك قد دَخَلَك من شأن أبيك شيء»؟ قال: لا والله يا رسول الله ما شككت في أبي وفي مصرعه ولكنه كان له عقلٌ وحِلْمٌ وفَضْلٌ فكنتُ أرجو له الإسلام، فلما رأيت ما مات عليه من الكفر أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

ثم إن رسول الله ﷺ أمر فجمع ما في العسكر فاختلف المسلمون، فقال مَنْ جمعه: هو لنا. وقال الذين كانوا يقاتلون العدوّ: والله لولا نحن ما أصبتموه نحن شَغَلْنا القومُ عنكم حتى أصبتم ما أصبتم. وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ وهو في العريش: والله ما أنتم بأحقّ به منّا لقد رأينا أنْ نأخذ المتاع حين لم يكن له مَنْ يمنعه. ولكن خفنا كَرَّةَ العدوّ على رسول الله ﷺ فقمنا دونه، فنزع الله الأنفال من

---

(١) النَّقْع: الغبار الساطع.

أيديهم وجعلها إلى رسول الله ﷺ، فقسَّمها بين المسلمين على سواء، وبعث رسول الله ﷺ عبدَ الله بن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية، وزيد بن حارثة بشيرًا إلى أهل السافلة من المدينة، فوصل زيد وقد سَوُّوا التراب على رُقَيَّة بنت رسول الله ﷺ وكانت زوجة عثمان بن عفان خلفه رسول الله ﷺ عليها وقسم له، فلما عاد رسول الله ﷺ لقيه الناس يهنّئونه بما فتح الله عليه، فقال سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري: إنْ لقينا الأعجائز صلعًا[١] كالبدن المعقّلة[٢] فنحرناها فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال: «يا بن أخي أولئك الملأ من قريش»، وكان في الأسرى النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، فأمر عليّ بن أبي طالب بقتل النضر فقتله بالصفراء، وأمر عاصمَ بن ثابت بقتل عُقْبة بن أبي مَعيط؛ فلما أرادوا قتله جزع من القتل، وقال: ما لي أُسوة بهؤلاء ـ يعني الأسرى ـ؟ ثم قال: يا محمد مَنْ للصِّبْيَه؟ قال: النار، فقتله بعرق الظبية صبرًا.

وكان في الأسرى سُهَيْل بن عمرو أسره مالك بن الدُّخْشَم الأنصاري، فلما أتى به النبيّ ﷺ قال عمر بن الخطاب: دعني أنزع ثنيتيه يا رسول الله فلا يقوم عليه خطيبًا أبدًا ـ وكان سهيل أعلم ـ[٣].

فقال رسول الله ﷺ: «دعه يا عمر فسيقوم مقامًا تحمده عليه»، فكان مقامه ذلك عند موت النبيّ ﷺ، وسنذكره عند خبر الردّة إنْ شاء الله.

ولما قدم به المدينة قالت له سودة بنت زمعة زوج النبيّ ﷺ: أعطيتم بأيديكم كما تفعل النساء! ألَا متُّم كرامًا. فسمع رسول الله ﷺ قولها فقال لها: «يا سودة على الله وعلى رسوله[٤]»؟

فقالت: يا رسول الله ما مَلَكْتُ نفسي حين رأيتُه أنْ قلتُ ما قلتُ. وقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسرى خيرًا»، وكان أحدهم يؤثر أسيره بطعامه.

فكان أوّل مَن قَدِمَ مكة بمصاب قريش الحيسمان بن أياس الخزاعي، فقالوا: ما وراءك؟

---

(١) جمع صلعاء، وهي التي انتثر شعرها من الهرم والشيخوخة.
(٢) أي: المقيدة.
(٣) أي: مشقوق الشفة العليا.
(٤) رواية ابن هشام: أعَلَى الله ورسوله تحرضين؟

قال: قُتِلَ عتبة وشيبة، وأبو الحكم، ونُبَيْه ومنبه ابنا الحجاج، وعَدَّد أشراف قريش. فقال صفوان بن أُميّة: والله إنْ يعقل[١] فاسألوه عنّي. فقالوا: ما فعل صفوان؟ قال: هو ذاك جالس في الحِجْر وقد رأيت أباه وأخاه حين قُتِلَا. ومات أبو لهب بمكة بعد وصول خبر مقتل قريش بتسعة أيّام، وناحت قريش على قتلاهم، ثم قالوا: لا تفعلوا فيَشْمَتْ محمّدٌ وأصحابه، ولا تبعثوا في فداء أسراكم لا يشتط عليكم محمّد. وكان الأسود بن عبد يغوث قد أُصيب له ثلاثة من ولده: زمعة، وعقيل، والحارث، وكان يحب أن يبكي على بَنِيه، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة فقال لغلامه وقد ذهب بصره: اَنْظُرْ هل أُحِلَّ البكاء لعلي أبكي على زمعة، فإنّ جوفي قد احترق. فرجع إليه، وقال له: إنما هي امرأة تبكي على بعيرٍ لها أضلّته، فقال:

أتبكي أنْ يضلّ لها بعيرٌ ... ويمنَعُهَا من النومِ السهودُ!
ولا تبكي على بكرٍ ولكن ... على بدرٍ تقاصرت الجدودُ!
على بدرٍ سراةَ بني هُصَيْص ... ومخزوم ورهط أبي الوليد[٢]
فبكى إن بكيت على عقيلٍ ... وبكى حارثًا أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمى[٢] جميعًا ... فمالا بي حكيمة من نديد
ألَا قد ساد بعدهم أُناس ... ولولا يوم بدر لم يسودوا

يعني أبا سفيان.

ثم إنّ قريشًا أرسلتْ في فِدَاء الأسارى، فأوّل من فُدِيَ أبو وداعة السهمي فداه ابنه المطّلب، وفدى العباس نفسه، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفه عتبة بن عمرو بن جَحدم أمره رسول الله ﷺ بذلك، فقال: لا مالَ لي، فقال له رسول الله ﷺ: «أين المال الذي وضعته عند أمّ الفضل وقلت لها: إنّ أصبتُ فللفضل كذا ولعبد الله كذا ولعبيد الله كذا»، قال: والذي بعثك بالحقّ ما عَلِمَ به أحدٌ غيري وغيرها وإني لأعلم أنك رسول الله. وفدى نفسه وابنَيْ أخويه

(١) أي: لا يعقل.
(٢) هذا البيت والبيتان اللذان بعده مجرورات والذي يظهر أنها مدخلة في هذه القصيدة، ولا حاجة لأن نقول في القصيدة إقواء وهو اختلاف المجرى بكسر وضمّ، فذلك لو كان بيت واحد أمّا وقد اتّفقت ثلاثة أبيات فالأظهر أنها وحدها قصيدة، وكذلك الثلاثة المرفوعة.

وحليفه، وكان قد أخذ مع العباس عشرون أُوقيّة من ذهب، فقال: ٱحسبها في فدائي. فقال النبيّ ﷺ: لا ذاك شيء أعطاناه الله عزّ وجلّ.

وكان في الأسارى عمرو بن أبي سفيان أسره عليّ، فقيل: لأبيه ٱفدِ عَمْرًا. فقال: لا أجمع عليَّ دمي ومالي، يقتل ابني حنظلة وأفدي عَمْرًا فتركه ولم يفكّه، ثم إن سعد بن النعمان الأنصاري خرج إلى مكّة معتمرًا فأخذه أبو سفيان، وكانت قريش لا تعرِض لحاجٍّ ولا معتمر فحبسه أبو سفيان ليفدي به عمرًا ابنه، وقال:

أرهط ابن أكال أجيبوا دعاءه … تفاقدتم لا تسلموا السيّد الكهلا
فإن بني عمرو لئام أذلّة … لئن لم يفكّوا عن أسيرهم الكبلا

فمشى بنو عمرو بن عوف إلى النبيّ ﷺ فطلبوا منه عمرو بن أبي سفيان، ففادوا به سعدًا.

وكان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزّى بن عبد شمس زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، وكان مِنْ أكثر رجال مكّة مالاً وأمانة وتجارة، وكانت أُمّه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوج رسول الله ﷺ، فسألته أن يزوّجه زينب ففعل قبل أنْ يوحى إليه، فلما أُوحيَ إليه آمنت به زينب وكان رسول الله ﷺ مغلوبًا بمكّة لم يقدر أن يفرّق بينهما، فلما خرجت قريش إلى بدر خرج معهم فأُسر فلما بعثت قريش في فداء الأسارى بعثت زينب في فداء أبي العاص زوجها بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها معها، فلمّا رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقّة شديدة، وقال: «إنْ رأيتم أنْ تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها الذي لها فٱفعلوا»، فأطلقوا لها أسيرها وردّوا القلادة وأخذ رسول الله ﷺ عليه أن يرسل زينب إليه بالمدينة وسار إلى مكّة، وأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة مولاه ورجلاً من الأنصار ليصحبا زينب من مكّة، فلما قدم أبو العاص أَمَرَها باللحاق بالنبيّ ﷺ فتجهّزت سرًا وأركبها كنانة بن الربيع أخو أبي العَاص بعيرًا وأخذ قوسه وخرج بها نهارًا فسمعتْ بها قريش، فخرجوا في طلبها فلحقوها بذي طُوًى وكانت حاملاً فطرحت حملها لَمّا رِيعَتْ لخوفها، ونثر كنانة أسهمه ثم قال: والله لا يدنو مني أحدٌ إلّا وضعتُ فيه سهمًا.

فأتاه أبو سفيان بن حرب وقال: خرجَت بها علانية، فيظنّ الناس أنّ ذلك عن ذُلٍّ وضعفٍ منّا، ولعمري ما لنا في حبسها حاجة فأرجعْ بالمرأة ليتحدّث الناس أنّا رددناها.

ثم أَخْرَجَها ليلاً وسلَّمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فَقَدِما بها على رسول الله ﷺ فأقامت عنده، فلما كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام بأمواله وأموال رجال من قريش فلمّا عاد لقيته سرية لرسول الله ﷺ فأخذوا ما معه وهرب منهم، فلما كان الليل أتى إلى المدينة فدخل على زينب، فلما كان الصبح خرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة فكبّر وكبّر الناس، فنادتْ زينب من صفة النساء: أيّها الناس إنّي قد أجرتُ أبا العاص.

فقال النبيّ ﷺ: «والذي نفسي بيده ما علمتُ بشيءٍ من ذلك، وإنه ليجيرُ على المسلمين أدناهم»، وقال لزينب: لا يخلصنّ إليك فلا يحلّ لك. وقال للسريّة الذين أصابوه: «إنْ رأيتم أن تردّوا عليه الذي له فإنّا نحب ذلك، وإنْ أبيتم فهو فيءُ الله الذي أفاءه عليكم وأنتم أحقُّ به».

قالوا: يا رسول الله بل نردُّه عليه، فردّوا عليه ماله كله حتى الشِّظَاط، ثم عاد إلى مكة فردّ على الناس مالهم، وقال لهم: أشهد أن لا إلـه إلّا الله وأشهد أن محمّدًا رسول الله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلّا تخوّف أنْ تظنّوا أنما أردتُ أكلَ أموالكم. ثم خرج فقدم على النبيّ ﷺ فردّ عليه أهله بالنكاح الأوّل، وقيل: بنكاحٍ جديد.

وجلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أُمية بعد بدر وكان شيطانًا ممن كان يؤذي النبيّ وأصحابه، وكان ابن وهب في الأسارى، فقال صفوان: لا خيرَ في العيش بعد مَنْ أُصيب ببدر. فقال عمير: صدقتَ ولولا دَيْنٌ عليَّ وعيالٌ أخشى ضيعتهم لركبتُ إلى محمد حتى أقتله. فقال صفوان: دينُك عليّ وعيالُك مع عيالي أسوتهم. فسار إلى المدينة فقدمها فأمر النبيّ ﷺ عمر بن الخطاب بإدخاله عليه، فأخذ عمر بحمالة سيفه، وقال لرجال معه من الأنصار: اُدخُلوا على رسول الله ﷺ واْحذروا هذا الخبيث، فلما رآه رسول الله ﷺ قال لعمر: «اْتركه»، ثم قال: «اُدنُ يا عمير، ما جاء بك»؟ قال: جئتُ لهذا الأسير، قال: «اَصدُقْني»، قال: ما جئتُ إلّا لذلك. قال: «بل قعدتَ أنت وصفوان وجرى بينكما كذا وكذا»، فقال عمير: أشهدُ أنك رسول الله هذا الأمر لم يحضره إلّا أنا وصفوان، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «فَقِّهوا أخاكم في دينه وعلِّموه القرآن وأطلقوا له أسيره»، ففعلوا، فقال: يا رسول الله كنتُ شديدَ الأذى للمسلمين فأُحِبُّ أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعو إلى الله وأُوذي الكفار في دينهم كما كنت أُوذي أصحابك، فأذن له

فكان صفوان يقول: أبشروا الآن بوقعة تأتيكم تنسيكم وقعة بدر، فلما قدم عمير مكّة أقام بها يدعو إلى الله، فأسلم معه ناس كثير، وكان يؤذي من خالفه.

وقدم مكرز بن حفص بن الأخيف في فداء سُهَيْل بن عمرو، وكان رسول الله ﷺ يشاور أبا بكر وعمر وعليًّا في الأسارى، فأشار أبو بكر بالفِداء، وأشار عمر بالقتل، فمال رسول الله ﷺ إلى الفِداء، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٧] إلى قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٨]، وكان الأسرى سبعين فَقُتِل من المسلمين عقوبة بالمفاداة يوم أُحُد سبعون وكسرتْ رباعية رسول الله ﷺ، وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه وانهزم أصحابه فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٥]، وكان جميع من قتل من المسلمين ببدر أربعة عشر رجلاً ستّة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار.

وردّ رسول الله ﷺ جماعةً اَستصغرهم منهم: عبد الله بن عمر، ورافع بن خَدِيج، والبراء بن عازب، وزيد بن ثابت، وأسيد بن ظهير، وضرب رسول الله ﷺ لثمانية نفر بسهم في الأنفال لم يحضروا الوقعة منهم عثمان بن عفان، كان رسول الله ﷺ خلفه على زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ لمرضها، وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد كان أرسلهما يتجسّسان خبر العير، وأبو لُبابة خلفه على المدينة، وعاصم بن عَدِيّ خلفه على العالية، والحارث بن حاطب ردّه إلى بني عمرو بن عوف لشيء بلغه عنهم، والحارث بن الصمّة كسر بالروحاء، وخوات بن جبير كسر في بدر أسفل سيفه ذي الفقار وكان لمنبه بن الحجاج ـ وقيل: كان للعاص بن منبه ـ قتله عليّ صبرًا وأخذ سيفه ذا الفقار، فكان للنبيّ ﷺ فوهبه لعليّ.

٣ ـ يوم بني قَينقَاع[١]

لما عاد رسول الله ﷺ من بدر أظهرت يهود له الحسد بما فتح الله عليه وبغوا ونقضوا العهد، وكان قد وادعهم حين قدم المدينة مهاجرًا، فلما بلغه حسدهم جمعهم بسوق بني قينقاع، فقال لهم: «احذروا ما نزل بقريش وأسلموا فإنّكم قد عرفتم أني نبيٌّ مرسل»، فقالوا: يا محمّد لا يغرنّك أنك لقيتَ قومًا لا عِلْمَ لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصةً؛ فكانوا أوّل يهود نقضوا ما بينهم وبينه، فبينما هم على

(١) انظر: ابن سيد الناس (١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٦)، ابن هشام (٣/ ١٣٧ ـ ١٣٨).

مجاهرتهم وكفرهم إذ جاءت امرأة مسلمة إلى سوق بني قينقاع فجلستْ عند صائغ لأجل حليٍّ لها، فجاء رجل منهم فخلّ[١] درعها إلى ظهرها وهي لا تشعر فلما قامت بدَتْ عورتها فضحكوا منها، فقام إليه رجلٌ من المسلمين فقتله[٢]، ونبذوا العهد إلى رسول الله ﷺ وتحصّنوا في حصونهم، فغزاهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمس عشرة ليلة، فنزلوا على حُكْمِهِ فكُتِّفُوا وهو يريد قتلهم، وكانوا حلفاء الخزرج فقام إليه عبد الله بن أُبَيّ بن سلول فكلّمه فيهم فلم يجبه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فرأى الغضب في وجه رسول الله ﷺ، فقال: «ويحك أرسِلْني»، فقال: لا أرسلك حتى تحسن إلى مواليَّ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع[٣] قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداةٍ واحدة، وإني والله لأخشى الدوائر؛ فقال النبيّ ﷺ: «هُمْ لك خلّوهم لعنهم الله ولعنهُ معهم»، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ما كان لهم من مال ولم يكن لهم أرضون إنما كانوا صاغة، وكان الذي أخرجهم عُبَادة بن الصامت الأنصاري، فبلغ بهم ذبَاب[٤]، ثم ساروا إلى أذرعات من أرض الشام، فلم يلبثوا إلّا قليلاً حتى هلكوا، وكان قد استخلف على المدينة أبا لبابة وكان لواء رسول الله ﷺ مع حمزة، وقسم الغنيمة بين أصحابه وخَمَّسها، وكان أول خُمُس أخذه رسول الله ﷺ في قولٍ؛ ثم انصرف رسول الله ﷺ وحضر الأضحى وخرج إلى المصلّى فصلّى بالمسلمين، وهو أوّل صلاة عيد صلّاها، وضَحّى فيه رسول الله ﷺ بشاتين، وقيل: بشاةٍ، وكان أول أضحى رآه المسلمون، وضحّى معه ذوو اليَسَار، وكانت الغزاة في شوّال بعد بدر، وقيل: كانت في صفر سنة ثلاث، وجعلها بعضهم بعد غزوة الكدر.

٤ ـ يوم الكُدْر[٥]

قال ابن إسحاق: كانت في شوّال سنة اثنتين، وقال الواقدي: كانت في المحرم سنة ثلاث، وكان قد بلغ النبيّ ﷺ اجتماع بني سليم على ماءٍ لهم يقال له

(١) في الأصول: (فحل) ـ بالحاء المهملة ـ خطأ، وفي ابن هشام: (فعقده إلى ظهرها) فخلّ، أي: جمع أسفل درعها إلى أعلاه بشوكة (م).

(٢) في ابن هشام زيادة: فشدّت اليهود على المسلم فقتلوه فوقع الشر.

(٣) الحاسر: ما لا درع له. الدارع: الذي عليه درع.

(٤) قال ياقوت: ذِباب ـ بالكسر ـ جبل بالمدينة، وقال: ذكره الحازمي بكسر أوّله، وعن العمراني: (ذُباب) بوزن الذباب الطائر، وفي البكري أيضًا بضمّ أوّله.

(٥) انظر: ابن سيد الناس (١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨)، ابن هشام (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

«الكُدْر»[١]، فسار رسول الله ﷺ إلى الكدر فلم يلقَ كيدًا[٢]، وكان لواؤه مع عليّ بن أبي طالب، واستخلف على المدينة ابن أُمّ مكتوم، وعاد ومعه النعم والرعاء، وكان قدومه في قول لعشرِ ليالٍ مضين من شوّال، وبعد قدومه أرسل غالب بن عبد الله اللّيثيّ في سريّةٍ إلى بني سليم وغطفان فقتلوا فيهم، وغنموا النَّعَم، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر، وعادوا منتصف شوّال.

٥ ـ يوم السويق[٣]

كان أبو سفيان قد نذر بعد بَدْر أنْ لا يمسّ رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمّدًا، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبرّ يمينه حتى جاء المدينة ليلاً واجتمع بسلّام بن مِشْكَم سيّد النَّضير فعلم منه خبر الناس، ثم خرج في ليلته فبعث رجالاً من قريش إلى المدينة فأتوا العُرَيض فحرقوا في نخلها، وقتلوا رجلاً من الأنصار وحليفًا له، واسم الأنصاري: معبد بن عمرو، وعادوا ورأى أنْ قد بَرّ في يمينه. وجاء الصريخ فركب رسول الله ﷺ وأصحابه، فأعجزهم وكان أبو سفيان وأصحابه يُلقون جُرُبَ السويق يتخفّفون بها للنجاء، وكان ذلك عامة زادهم، فلذلك سمّيت غزوة السويق، ولما رجع رسول الله ﷺ والمسلمون، قالوا: يا رسول الله أنطمع أنْ تكون لنا غزوة؟ قال: نعم، وقال أبو سفيان بمكّة وهو يتجهز:

كرّوا على يثرب وجمعهم ... فإنّ ما جمعوا لكم نفلُ
إن يَكُ يومَ القليب كان لهم ... فإنّ ما بعده لكم دُوَل
آليت لا أقرب النساء ولا ... يمسُّ رأسي وجلدي الغُسْل
حتى تبيروا قبائل الأوس والـ ... ـخزرج إنّ الفؤاد يشتعل

فأجابه كعب بن مالك بقوله:

يا لهف أمّ المسبحين على ... جيش ابن حرب بالحرّة الفشلِ
إذا يطرحون الرحال[٤] من شيم الطـ ... ـير ويرقى لقنّة الجبل

---

(١) قرقرة الكُدْر: قيل بناحية المعدن، قريبة من الأرحضية بينهما وبين المدينة ثمانية بُرُد.
(٢) أي: حربًا.
(٣) انظر: ابن سيد الناس (١/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧)، ابن هشام (٣/ ١٣٦).
(٤) الرحال جمع رحل: ما يوضع على ظهر البعير.

جاؤوا بجمعٍ لوقيس مبركه ما كان إلّا كمفحص الدئل[١]
عارٍ من النصر والثراء ومن أبطال أهل البطحاء والأسل

٦ ـ يوم أُحُد[٢]

كان الذي أهاجها وقعة بدر، فإنه لما أُصِيبَ من المشركين مَنْ أُصيب ببدر مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُمية وغيرهم ممّن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم بها فكلّموا أبا سفيان؛ ومن كان له في تلك العير تجارة وسألوهم أنْ يعينوهم بذلك المال على حرب رسول الله ﷺ ليدركوا ثأرهم منهم، ففعلوا وتجهّز الناس وأرسلوا أربعة نفر وهم: عمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب، وابن الزبعرى وأبو عزة الجمحي، فساروا في العرب ليستنفروهم، فجمعوا جمعًا من ثقيف وكِنانة وغيرهم، واجتمعت قريش بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وتُهامة، ودعا جبير بن مُطعم غلامه وَحْشِيّ بن حرب وكان حبشيًّا يقذف بالحربة قلّما يخطئ، فقال له: اخرج مع الناس فإنْ قتلت عم محمّد بعمّي طعيمة بن عَدِيّ فأنت عتيق، وخرجوا معهم بالظُّعُن[٣] لئلّا يفروا، وكان أبو سفيان قائد الناس فخرج بزوجته هند بنت عتبة وغيره من رؤساء قريش، خرجوا بنسائهم، وخرج عكرمة بن أبي جهل بزوجته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام، وخرج الحارث بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد، وخرج صفوان بن أُميّة ببريرة ـ وقيل: برزة بنت مسعود الثقفية أخت عروة بن مسعود وهي أمّ ابنه عبد الله بن صفوان ـ وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج وهي أمّ ولده عبد الله بن عمرو، وخرج طلحة بن أبي طلحة بسلافة بنت سعد، وهي أمّ بنيه مسافع والجلاس وكلّاب وغيرهم، وكان مع النساء الدفوف يبكين على قتلى بدر يحرِّضْنَ بذلك المشركين.

وكان مع المشركين أبو عامر الراهب الأنصاري، وكان خرج إلى مكّة مباعدًا لرسول الله ﷺ ومعه خمسون غلامًا من الأوس ـ وقيل: كانوا خمسة عشر ـ وكان يَعِدُ قريشًا أنه لو لَقِيَ محمّدًا لم يتخلّف عنه من الأوس رجلان، فلما ٱلتقى الناس بأُحُد كان أبو عامر أوّل من لَقِيَ في الأحابيش وعبدان أهل مكّة، فنادى: يا معشر الأوس

---

(١) مفحص: المكان الذي يتّخذه الطائر يعجتم فيه. والدُّئل: دويبة كابن عرس.

(٢) في شوّال لسبع خلون منه سنة ٣ من الهجرة، وقيل: للنصف من شوّال.

(٣) الظعن: الهوادج، والمراد به النساء هنا.

أنا أبو عامر، فقالوا: فلا أنعم الله بك عينًا يا فاسق، فقال: لقد أصاب قومي بعدي شَرٌّ؛ ثم قاتلهم قِتَالاً شديدًا حتى راضخهم بالحجارة.

وكانت هند كلما مرَّت بوحشيّ أو مرَّ بها قالت: يا أبا دُسْمَة[١] أشف واستشف ـ وكان يكنى أبا دُسْمَة ـ فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون قال: «إنّي رأيتُ بَقَرًا فأوّلتُها خيرًا، ورأيتُ في ذُباب سيفي ثلمًا[٢]، ورأيتُ أنّي أدخلتُ يدي في دِرْع حصينة فأوّلتها المدينة فإنْ رأيتم أنْ تقيموا بالمدينة وتَدْعُوهم فإنْ أقاموا أقاموا بشرِّ مقام، وإنْ دخلوا علينا قاتلناهم فيها».

وكان رأيُ عبد الله بن أُبَيّ بن سلول مع رَأْي رسول الله ﷺ يكره الخروج، وأشار بالخروج جماعةٌ ممن استشهد يومئذ، وأقامت قريش يوم الأربعاء والخميس والجمعة، وخرج رسول الله ﷺ حِين صلّى الجمعة فألتقوا يوم السبت نصف شوّال، فلما لَبِسَ رسول الله ﷺ سلاحه وخرج ندم الذين كانوا أشاروا بالخروج إلى قريش، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ونشير عليه، فالوحيُ يأتيه فيه، فأعتذروا إليه وقالوا: اصنع ما شئت، فقال: «لا ينبغي لنبيٍّ أن يلبس لأمته[٣] فيضعها حتى يقاتل».

فخرج في ألف رجل واستخلف على المدينة ابن أُمّ مكتوم، فلما كان بين المدينة وأُحُد عاد عبد الله بن أُبَيّ بثُلُث الناس، فقال: أطاعهم وعصاني وكان من تبعه أهل النفاق والريب واتّبعهم عبد الله بن حرام أخو بني سلمة يُذكِّرهم الله أن لا يخذلوا نبيَّهم. فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم وانصرفوا، فقال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم. وبقي رسول الله ﷺ في سبعمائة، فسار في حرَّة بني حارثة وبين أموالهم، فمرّ بمال رجل من المنافقين يقال له: مربع بن قيظي وكان ضرير البصر، فلمّا سمع حِسّ رسول الله ﷺ ومن معه قام يحثي التراب في وجوههم، ويقول: إنْ كنت رسول الله فإني لا أحلّ لك أن تدخل حائطي وأخذ حفنة من ترابٍ في يده، وقال: لو أعلم أني لا أصيب غيرك لضربت به وجهك، فابتدروه

---

(١) الدُسْمة: بضم الأول وسكون الثاني غبرة إلى سواد كما يقول الناس اليوم للأسود: يا أبا سمرة (م).

(٢) ثلمًا: أي شَقًّا، وثلم السيف: صيره غير ماضي القطع.

(٣) اللأمة: لباس الحرب.

ليقتلوه، فقال النبيّ ﷺ: «لا تفعلوا فهذا الأعمى، أهمى البصر وأعمى القلب»، فضربه سعد بن زيد بقوسٍ فشجّه، وذبّ فرس بذنبه فأصاب كلاب[١] سيف صاحبه فاستلّه، فقال له رسول الله ﷺ: «سيوفكم فإني أرى السيوف سَتُسَلُّ اليوم».

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بعدوة الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد، وكان المشركون ثلاثة آلاف، منهم سبعمائة دارع، والخيل مائتي فرس، والظعن خمس عشرة امرأة، وكان المسلمون مائة دارع، ولم يكن من الخيل غير فرسين فرس لرسول الله ﷺ، وفرس لأبي بُرْدة بن نيار[٢]، وعرض رسول الله ﷺ المقاتلة، فردّ زيد بن ثابت، وابن عمر، وأُسَيد بن ظهير[٣]، والبراء بن عازب، وعرابة بن أوس، وأبا سعيد الخدري، وغيرهم؛ وأجاز جابر بن سَمُرَة، ورافع بن خديج.

وأرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول: خلّوا بيننا وبين ابن عمّنا فننصرف عنكم فلا حاجةَ لنا إلى قتالكم، فردُوا عليه بما يكره، وتعبى[٤] المشركون، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل، وكان لواؤهم مع بني عبد الدار، فقال لهم أبو سفيان: إنما يؤتى الناسُ من قِبَل راياتهم فإمّا أن تَكفُونا وإما أن تُخلُّوا بيننا وبين اللّواء، يحرّضهم بذلك، فقالوا: ستعلم إذا التقينا كيف نصنع، وذلك أراد. واستقبل رسول الله ﷺ المدينة وترك أُحُدًا خلف ظهره، وجعل وراءه الرُّماة، وهم خمسون رجلاً وأمّر عليهم عبد الله بن جُبَيْر[٥] أخا خَوّات بن جُبَيْر وقال له: «أَنْضِحْ عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خَلْفِنَا إنْ كانت لنا أو علينا، وأَثْبُتْ مكانك لا نؤتين من قبلك».

وظاهر رسول الله ﷺ بين دِرْعَيْن وأعطى اللّواء مُصْعَب بن عُمَيْر وأمّر الزبير على الخيل ومعه المقداد، وخرج حمزة بالجيش بين يديه، وأقبل خالد وعكرمة، فلقيهما الزبير والمقداد فهزما المشركين، وحمل النبيّ ﷺ وأصحابه فهزموا أبا سفيان، وخرج طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين، وقال: يا معشر أصحاب محمّد إنّكم

---

(١) الكلاب: بالتشديد والتخفيف المسمار في قائم السيف أو ذؤاب السيف.

(٢) هو أبو بردة هانئ بن نيار شهد الفتح وكانت معه راية حارث بن الحارث، وشهد مع عليّ بن أبي طالب حروبه، توفي أول خلافة معاوية. (أسد الغابة (٦/ ٣٠ ـ ٣١)).

(٣) هو أُسيد بن ظُهَيْر بن رافع بن عدي بن زيد الأوسي الأنصاري. (انظر: أسد الغابة (١/ ١١٤)).

(٤) تعبأ.

(٥) هو عبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن امرىء القيس، الأوسي الأنصاري، شهد العقبة، وبدرًا، وقتل يوم أحد. (انظر: أسد الغابة ٣/ ١٩٤).

تزعمون أنّ الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجّلكم بسيوفنا إلى الجنّة، فهل أحدٌ منكم يعجّله سيفي إلى الجنّة أو يعجّلني سيفه إلى النار؟

فبرز إليه عليّ بن أبي طالب فضربه عليّ فقَطَعَ رجله فسقط وٱنكشفَتْ عورتُه، فناشده الله والرحم فتركه، فكبّر رسول الله ﷺ وقال لعليّ: «ما مَنَعَكَ أن تُجْهِزَ عليه»؟ قال: إنّه ناشدني الله والرحم فاستحيَيْت منه. وكان بيد رسول الله ﷺ سيف فقال: «مَنْ يأخذه بحقه»؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام أبو دُجانة[١] فقال: وما حقُّهُ يا رسول الله؟ قال: «تضرب به العَدُوَّ حتى ينحني»، قال: أنا آخُذُه، فأعطاه إيَّاه، وكان شجاعًا، وكان إذا أعلم بعصابةٍ له حمراء علم الناسُ أنه يقاتل - فعصب رأسه بها وأخذ السيف وجعل يتبختر بين الصفّين، فقال رسول الله ﷺ: «إنّها مِشْيَة يبغضها الله إلّا في هذا الموطن»، فجعل لا يترفع له شيءٌ إلّا حَطَّمه حتى انتهى إلى نسوة في سفح الجبل معهنّ دفوف لهن فيهن امرأة تقول:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق[٢] مشي القطا البوارق
والمسك في المفارق والدرُّ في المخانق[٣] إنْ تُقْبِلُوا نُعَانِق
ونفرشُ النمارق أو تدبروا نفارق فراق غير وامق[٤]

وتقول أيضًا:

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار[٥] ضربًا بكل بتّار

فرفع السيف ليضربها ثم أكرم سيف رسول الله ﷺ أنْ يضرب به امرأة، وكانت المرأة هند والنساء معها يضربن بالدفوف خلف الرجال يحرِّضْنَ.

واقتتل الناس قتالاً شديدًا وأمعن[٦] في الناس حمزة وعليّ وأبو دُجانة في رجالٍ من المسلمين، وأنزل الله نصره على المسلمين وكانت الهزيمة على المشركين، وهرب النساءُ مُصَعِّدات في الجبل، ودخل المسلمون عسكرهم ينهبون،

---

(١) هو سماك بن خرشة، وقيل: سماك بن أوس بن خرشة بن لوذان بن عبد وُدّ بن زيد الخزرجي الأنصاري، أبو دجانة. شهد بدرًا وكان من الأبطال الشجعان، دافع عن الرسول يوم أُحد، وشهد اليمامة، وشرك في قتل مسيلمة. (انظر: أسد ٦/٩٦).
(٢) النمارق: جمع نمرقة، وهي الطنفسة فوق الرحل.
(٣) المخانق: أراد الأعناق. (٤) الوامق: المحب.
(٥) تريد الذين يحمون أعقاب الناس، والبتار: السيف القاطع.
(٦) أي: أبعد في القتل.

فلما نظر بعض الرُّماة إلى العسكر حين انكشف الكفّار عنه أقبلوا يريدون النَّهبَ، وثبتت طائفة وقالوا: نطيع رسول الله ونثبت مكاننا، فأنزل الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٢]، يعني: أتباع أمر رسول الله ﷺ. قال ابن مسعود: وما علمت أنّ أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزلت الآية، فلما فارق بعض الرّماة مكانهم رأى خالد بن الوليد قِلَّة مَنْ بَقِيَ من الرُّماة، فحملَ عليهم فقتلهم وحملَ على أصحاب النبيّ ﷺ مِنْ خلفهم، فلما رأى المشركون خيلهم تقاتل تبادروا فشدّوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم، وقد كان المسلمون قَتَلُوا أصحاب اللّواء فبقي مطروحًا لا يدنو منه أحد، فأخذته عَمْرة بنت علقمة الحارثية فرفعته فاجتمعت قريش حوله وأخذه صواب فقُتِل عليه، وكان الذي قتل أصحاب اللواء عليّ ـ قاله أبو رافع ـ قال: فلمّا قتلهم أبصر النبيّ ﷺ جماعةً من المشركين فقال لعليّ: «احمل عليهم»، ففرّقهم وقتل فيهم، ثم أبصر جماعة أخرى فقال له: «احمل عليهم»، فحمل عليهم وفرّقهم وقتل فيهم، فقال جبريل: يا رسول الله هذه المواساة. فقال رسول الله ﷺ: «إنّه مِنّي وأنا منه»، فقال جبريل: «وأنا منكما»، قال: فسمعوا صوتًا: «لا سيف إلّا ذو الفقار، ولا فتى إلّا عَليّ».

وكُسِرَتْ رباعية[1] رسول الله ﷺ السُّفْلَى وشقَّت شفته وكَلِم[2] في وجنته وجبهته في أصول شعره، وعلاه ابن قمئة بالسيف وكان هو الذي أصابه ـ وقيل: أصابه عتبة بن وقاص، وقيل: عبد الله بن شهاب الزهري جدّ محمد بن مسلم، وقيل: إن عتبة بن أبي وقاص وابن قمئة الليثي الأدرمي من بني تيم بن غالب، وكان أدرم ناقص الذقن وأُبيّ بن خلف الجمحي، وعبد الله بن حميد الأسدي أسد قريش تعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ، فأمّا ابن شهاب فأصاب جبهته، وأمّا عتبة فرماه بأربعة أحجار فكسر رباعيّته اليمنى وشقّ شفته، وأمّا ابن قمئة فكَلِم وجنته ودخل من حلق المغفر فيها وعلاه بالسيف فلم يطق أن يقطع، فسقط رسول الله ﷺ فجحشت ركبته[3]، وأمّا أُبَيّ بن خلف فشدّ عليه بحربة فأخذها رسول الله ﷺ منه وقتله بها، وقيل: بل كانت حربة الزبير أخذها منه، وقيل: أخذها من الحارث بن الصمّة، وأمّا عبد الله بن حميد فقتله أبو دُجانة الأنصاري.

---

(١) الرباعية: السن بين الثنية والناب وهي أربع أسنان، رباعيتان في الفك الأعلى، ورباعيتان في الفك الأسفل.

(٢) كَلِمَ: جُرِحَ.

(٣) أي: خُدِش جلد ركبته.

ولما جرح رسول الله ﷺ جعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسحه، ويقول: «كيف يفلحُ قومٌ خضبوا وَجْهَ نبيّهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله»؟

وقاتل دونه نفر خمسة من الأنصار فقُتِلُوا، وترّس[١] أبو دجانة رسول الله ﷺ بنفسه، فكان يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يناوله السهم ويقول: «ارْم فِدَاكَ أبي وأُمّي»، وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان[٢]، فردَّها رسول الله ﷺ بيده فكانت أحسن عينيه.

وقاتل مصعب بن عمير ومعه لواء المسلمين فقُتِلَ، قَتَلَه ابن قمئة الليثي، وهو يظنّ أنه النبيّ ﷺ فرجع إلى قريش، وقال: قتلتُ محمّدًا، فجعل الناس يقولون: قُتِلَ محمد، قُتل محمد، ولما قُتِلَ مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء عليّ بن أبي طالب، وقاتلَ حمزة حتى مرَّ به سباع بن عبد العزّى الغبشاني، فقال له حمزة: هَلُمَّ إليّ يا بن مُقَطِّعَة البظور، وكانت أُمّه أم أنمار خَتّانة بمكّة، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله. قال وحشيّ: إني والله لأنظر إلى حمزة وهو يهدّ الناس بسيفه هَدًّا ما يلقى شيئًا يمرّ به إلّا قَتَلَه، وقتل سِباع بن عبد العزّى، قال: فهززتُ حربتي ودفعتُها عليه، فوقعت في ثنته حتى خرجتْ من بين رجليه، وأقبل نحوي فقُلِبَ فوقَعَ فأمهلته حتى مات، جئتُ فأخذت حربتي ثم تنحّيتُ إلى العسكر، فرضيَ الله عن حمزة وأرضاه.

وقَتَل عاصم بن ثابت مسافع بن طلحة وأخاه كلاب بن طلحة بسهمين فَحُمِلَا إلى أمّهما سلاقة، وأخبراها أنّ عاصمًا قتلهما، فنذرتْ إنْ أمكنها الله من رأسه أنْ تشرب فيه الخمر.

وبرز عبد الرحمٰن بن أبي بكر وكان مع المشركين وطلب المبارزة، فأراد أبو بكر أن يبرز إليه، فقال رسول الله ﷺ: «شم سيفك وأمتعنا بك»، وانتهى أنس بن النضر[٣] عمّ أنس بن مالك إلى عمر وطلحة في رجالٍ من المهاجرين قد ألقوا بأيديهم، فقال: «ما يحبسكم»؟

---

(١) تَرّسَ: أي صيّر نفسه ترسًا يقيه النبل.

(٢) هو قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر بن سَوَاد الأوسي، الأنصاري. شهد العقبة، وبدرًا، وأُحُدًا، والمشاهد كلّها مع النبيّ ﷺ، وأُصيبت عينه يوم بدر، وقيل: يوم أُحُد، وقيل: الخندق، فردَّها النبيّ ﷺ، توفي سنة ٢٣. (انظر: أسد الغابة ٤/٣٨٩ ـ ٣٩١).

(٣) هو أنس بن النضر بن ضمضم، الأنصاري، وهو ابن عمّ أنس بن مالك رضي الله عنه، وقيل فيه قوله ﷺ: (إن من عباد الله مَنْ لو قسم على الله تعالىٰ لأبرّه). (انظر: أسد الغابة ١/١٥٥ ـ ١٥٦).

قالوا: قد قُتِل النبيّ ﷺ! قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه.

ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قُتِلَ، فوُجِد به سبعون ضربة وطعنة، وما عرفه إلّا أُخته عرفته بحسن بنانه.

وقيل: إن أنس بن النضر سمع نفرًا من المسلمين يقولون لما سمعوا أنّ النبيّ ﷺ قُتِلَ: ليت لنا من يأتي عبد الله بن أُبَيّ بن سلول ليأخذ لنا أَمَانًا من أبي سفيان قبل أن يقتلونا. فقال لهم أَنَس: يا قوم إنْ كان محمّد قد قتل فإنّ رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمّد، اللّهمّ إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم قاتل حتى قُتِل.

وكان أوّل من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك، قال: فناديتُ بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله حيّ لم يُقْتَل، فأشار إليه «أنصت»، فلما عَرِفَه المسلمون نهضوا نحو الشِّعْب ومعه عليّ، وأبو بكر، وعمر، وطلحة، والزُّبير، والحارث بن الصمّة وغيرهم، فلما أُسند إلى الشِّعب أدركه أُبيّ بن خلف، وهو يقول: يا محمّد لا نجوتُ إنْ نجوتَ. فعطف عليه رسول الله ﷺ فطعنه بالحربة في عنقه، وكان أُبَيّ يقول بمكّة لرسول الله ﷺ: إنّ عندي العود فرسًا أعلفه كلّ يوم فَرَقًا من ذرة أقتلك عليه، فيقول له النبيّ ﷺ: «بل أنا أقتلك إنْ شاء الله تعالى»، فلما رجع إلى قريش وقد خَدَشَه رسول الله ﷺ خدشًا غير كبير، قال: قتلني محمّد، قالوا: والله ما بك بأس، قال: إنه قد كان قال لي: «أنا أقتلك»، فوالله لو بصق عليّ لقتلني، فمات عدوّ الله بسَرَف.

وقاتل رسول الله ﷺ يوم أُحُد قتالاً شديدًا، فرمى بالنبل حتى فني نبله، وانكسرتْ سية قوسه، وانقطع وتره.

ولما جرح رسول الله ﷺ جعلَ عليٌّ ينقل له الماء في درقته من المِهْراس ويغسله، فلم ينقطع الدم فأتت فاطمة وجعلت تعانقه وتبكي وأحرقتْ حصيرًا وجعلت على الجرح مِنْ رماده فانقطع الدم.

ورمى مالك بن زهير الجشمي النبيّ ﷺ فاتّقاه طلحة بيده، فأصاب السهم خنصره، وقيل: رماه حبان بن العرقة فقال: حِسّ[1]، فقال رسول الله ﷺ: «لو قال:

(١) هي كلمة كانوا يقولونها عند مسّ الألم.

باسم الله لدخل الجنّة والناس ينظرون إليه»، وقيل: إنّ يده شُلّت إلّا السبابة والوسطى والأول أثبت.

وصعد أبو سفيان ومعه جماعة من المشركين في الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «ليس لهم أن يَعْلُونَا»، فقاتلهم عمر وجماعة من المهاجرين حتى أهبطوهم، ونهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة ليعلوها وكان عليه درعان، فلم يستطع فجلس تحته طلحة حتى صعد، فقال رسول الله ﷺ: «أوجبَ طلحة».

وانتهت الهزيمة بجماعة المسلمين، فيهم عثمان بن عفان وغيره إلى الأعوص، فأقاموا به ثلاثًا ثم أتوا النبيّ ﷺ فقال لهم حين رآهم: لقد ذهبتُم فيها عريضة.

والتقى حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة، وأبو سفيان بن حرب، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود وهو ابن شعوب، فدعاه أبو سفيان فأتاه فضرب حنظلة فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «إنّه لتغسله الملائكة، فسلوا أهله»، فَسُئِلَتْ صاحبته، فقالت: خرج وهو جنب سمع الهائعة[1]، فقال رسول الله ﷺ: «لذلك غسّلته الملائكة».

وقال أبو سفيان يذكر صبره ومعاونة بن شعوب إيّاه على قتل حنظلة:

ولو شئت نجتني كميت[2] طِمرّة[3]
ولم أحمل النعماء لابن شعوبِ
فما زال مُهري مَزجر الكلب منهم
لدن غدوة حتى دنت لغروبِ
أقاتلهم وأدّعي يا آل غالب
وأدفعهم عني بركن صليب
فبكي ولا ترعى مقالة عاذل
ولا تسأمي من عبرةٍ بنحيب

(١) الهائعة: الصوت تفزع منه وتخاف من عدو.

(٢) الفرس الذي خالط لون حمرته سواد.

(٣) الطمر: الفرس الجواد، أو الطويل القوائم الخفيف أو المستعد للعدو.

أبـــاك وأخـــوانًـــا لـــنـــا قـــد تـــتـــابـــعـــوا
وحـــقّ لـــهـــم مـــن عـــبـــرةٍ بـــنـــصـــيـــب
وســـلي الـــذي قـــد كـــان فـــي الـــنـــفـــس أنـــنـــي
قـــتـــلـــت مـــن الـــنـــجـــار كـــلّ نـــجـــيـــب
ومـــن هـــاشـــم قـــرمًـــا نـــجـــيـــبًـــا[١] ومـــصـــعـــبًـــا[٢]
وكـــان لـــدى الـــهـــيـــجـــاء غـــيـــر هـــيـــوب
ولـــو أنـــنـــي لـــم أشـــف مـــنـــهـــم قـــرونـــه
لـــكـــانـــت شـــجًـــا[٣] فـــي الـــقـــلـــب ذات نُـــدوب

فأجابه حسان بقوله:

ذكرتُ القروم الصيد[٤] من آل هاشمِ ولـسـت لـزور قـلـتـه بـمـصـيـبِ
أتعجب أن أقصدت حمزة منهمِ عـشـاء وقـد سـمّـيـتـه بـنـجـيـب
ألـم يـقـتـلـوا عـمـرًا وعـتـبـة وابـنـه وشـيـبـة والـحـجـاج وابـن حـبـيـب
غـداة دعـا الـعـاصـي عـلـيًّـا فـراعـه بـضـربـةٍ عـضـب بـلـه بـخـضـيـب

ووقعت هند وصواحباتها على القتلى يمثّلْنَ بهم، واتّخذت هند من آذان الرجال وآنافهم خدمًا[٥] وقلائد وأعطت خدمها وقلائدها وَحْشِيًّا، وبقرتْ عن كبد حمزة فلاكَتْهَا فلم تستطع أنْ تسيغها فلفظتها.

ثم أشرف أبو سفيان على المسلمين، فقال: أفِي القوم محمّد؟ ثلاثًا. فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه»، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاثًا؟ ثم قال: أفي القوم عمر بن الخطاب؟ ثلاثًا. ثم ألتفت إلى أصحابه، فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فقال عمر: كذبتَ أي عدوّ الله قد أبقى الله لك ما يخزيك. فقال: اْعْلُ هُبَل، اْعْلُ هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «قولوا الله أعلى وأجلّ»، فقال أبو سفيان: إنّ لنا العُزّى ولا عُزّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»، فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمّداً. قال عمر: اللّهمّ لا وإنه ليسمع كلامك.

---

(١) أراد حمزة رضي الله عنه.
(٢) أراد مصعب بن عُمَيْر صاحب لواء النبيّ ﷺ.
(٣) أي: حزنًا.
(٤) أي: الملوك المتكبرين.
(٥) جمع خدمة الخلخال.

فقال: أنت أصدق من ابن قمئة؛ ثم قال: هذا بيوم بدر والحرب سِجَال، أمَا إنَّكم ستجدون في قتلاكم مثلة، والله ما رضيتُ ولا سخطتُ ولا نهيتُ ولا أمرتُ.

واجتاز به الحليس بن زبان سيّد الأحابيش وهو يضرب في شِدْق[1] حمزة بزجّ الرمح، ويقول: ذُقْ عُقق، فقال الحُلَيْس: يا بني كِنانة هذا سيّد قريش يصنع بابن عمّه كما ترون لحمًا. فقال أبو سفيان: اكتمها عني فإنّها زلّة. وكانت أُمّ أيمن حاضنة رسول الله ﷺ ونساء من الأنصار يسقين الماء، فرماها حِبّان بن العرقة بسهم فأصاب ذيلها فضحك، فدفع النبيّ ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص سهمًا وقال: «ارمه»، فرماه فأصابه فضحك النبيّ ﷺ وقال: «استقاد لها سعد، أجاب الله دعوتك، وسدّد رميتك». ثم انصرف أبو سفيان ومَنْ معه، وقال: إنّ موعدكم العام المقبل. ثم بعث رسول الله ﷺ في أثرهم، وقال: أنْظر فإنْ جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإنْ ركبوا الخيل فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأناجِزَنَّهُم. قال عليّ: فخرجت في أثرهم فامتطوا الإبل وجنبوا الخيل يريدون مكّة، فأقبلت أصيح ما أستطيع أن أكتم، وكان رسول الله ﷺ أمره بالكتمان. وأمر رسول الله ﷺ رجلاً أنْ ينظر في القتلى فرأى سعد بن الربيع الأنصاري وبه رَمَق، فقال للذي رآه: «أبلغ رسول الله ﷺ عني السلام وقل له: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيًا عن أُمّته، وأبلغ قومي السلام وقل لهم: لا عذر لكم عند الله إنْ خلص إلى رسول الله ﷺ أذًى وفيكم عين تطرف»، ثم مات. ووُجد حمزة ببطن الوادي قد بُقِرَ بطنه عن كبده ومُثِّلَ به فجدع أنفه وأذناه، فحين رآه رسول الله ﷺ قال: «لولا أنْ تحزن صفية أو تكون سُنّة بعدي لتركته حين يكون في أجواف السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش لأمثلهن بثلاثين رجلاً منهم». وقال المسلمون: لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: الآية ١٢٦] الآية، فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المُثْلة.

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير: «لتردّها لئلّا ترى ما بأخيها حمزة»، فلقيها الزبير فأعلمها بأمر النبيّ ﷺ، فقالت: إنّه بلغني أنه مُثِّل بأخي وذلك في الله قليل، فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن.

(١) الشِّدْق: جانب الفم مما تحت الخد، وكانت العرب تمتدح رحابة الشدقين لدلالتها على جهارة الصوت.

فأعلم الزبير النبيَّ ﷺ بذلك فقال: «خَلِّ سبيلها»، فأتته وصَلَّت عليه واسترجعت، وأمر رسول الله ﷺ به فدُفِن.

وكان في المسلمين رجل اسمه قزمان، وكان رسول الله ﷺ يقول إنّه من أهل النار، فقاتل يوم أُحُد قتالاً شديدًا فقتل من المشركين ثمانية أو تسعة، ثم جرح فحُمل إلى داره، وقال له المسلمون: أبشر قزمان، قال: بِمَ أبشر! وأنا ما قاتلتُ إلّا عن أحساب قومي، ثم اشتدّ عليه جرحه فأخذ سهمًا فقطع رواهشه[1] فنزف الدم فمات، فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «أشهد أني رسول الله»، وكان ممن قتل يوم أُحد مخيريق اليهودي قال ذلك اليوم ليهود: يا معشر يهود لقد علمتم أنّ نصر محمد عليكم حقّ، فقالوا: إنّ اليوم يوم السبت، فقال: لا سبت، وأخذ سيفه وعدّته وقال: إن قتلت فمالي لمحمّد يصنع به ما يشاء. ثم غدا فقاتل حتى قُتِلَ، فقال رسول الله ﷺ: «مخيريق خير يهود».

وقتل اليمان أبو حذيفة قتله المسلمون، وكان رسول الله ﷺ رفعه وثابت بن قيس بن وقش مع النساء، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان: ما ننتظر أفلا نأخذ أسيافنا فنلحق برسول الله ﷺ، لعلّ الله أن يرزقنا الشهادة؟ ففعلا ودخلا في الناس ولا يعلم بهما؛ فأمّا ثابت فقتله المشركون، وأمّا اليمان فاْختلفت عليه سيوف المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي أبي، فقالوا: والله ما عرفناه، فقال: يغفر الله لكم. وأراد رسول الله ﷺ أنْ يَدِيَه فتصدّق حذيفة بدِيَته على المسلمين.

واحتمل بعض الناس قتلاهم إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بدفنهم حيث صُرِعُوا، وأمر أنْ يدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد، وأنْ يقدّم إلى القبلة أكثرهم قرآنًا وصلّى عليهم، فكان كلّما أُتِيَ بشهيد جعل حمزة معه، وصلّى عليهما، وقيل: كان يجمع تسعة من الشهداء وحمزة عاشرهم، فيصلّي عليهم.

ونزل في قبره عليّ، وأبو بكر، وعمر، والزُّبير، وجلس رسول الله ﷺ على حفرته، وأمر أن يُدْفَن عمرو بن الجموح، وعبد الله بن حرام في قبرٍ واحد، وقال: كانا متصافيين في الدنيا.

---

(١) الراهشان: عِرْقان في باطن الذراعين أو الرواهش عروق ظاهر الكفّ.

فلما دفن الشهداء انصرف رسول الله ﷺ فلقيته حمنة بنت جحش، فنعى لها أخاها عبد الله فاسترجعت له، ثم نعى أخاها حمزة فاستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فولولت وصاحب؛ فقال: «إن زوج المرأة منها لبمكان».

ومرّ رسول الله ﷺ بدارٍ من دور الأنصار فسمع البكاء والنوائح فذرفت عيناه بالبكاء، وقال: «لكن حمزة لا بواكي له»، فرجع سعد بن معاذ إلى دار بني عبد الأشهل فأمر نساءهم أنْ يذهبن فيبكين على حمزة.

ومرّ رسول الله ﷺ بأمرأة من الأنصار قد أصيب أبوها وزوجها، فلما نُعِيا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قال: هو بحمد الله كما تحبين.

قالت: أرونيه، فلمّا نظرت إليه قالت: كُلُّ مصيبةٍ بعدك جلل، وكان رجوعه إلى المدينة يوم السبت يوم الوقعة.

٧ ـ يوم حَمْرَاءُ الأسد

لما كان الغد من يوم الأحد أَذَّنَ مؤذن رسول الله ﷺ بالغزو، وقال: «لا يخرج معنا إلّا مَنْ حضر بالأمس».

فخرج ليظن الكفار به قوّة، وخرج معه جماعة جرحى يحملون نفوسهم وساروا حتى بلغوا حمراء الأسد ـ وهي من المدينة على سبعة أميال ـ فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ومرّ به معبد الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله ﷺ بتُهامة، وكان معبد مشركًا، فقال: يا محمد لقد عَزَّ علينا ما أصابك؛ ثم خرج من عند النبيّ ﷺ فلَقِيَ أبا سفيان ومن معه بالروحاء قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ ليستأصلوا المسلمين بزعمهم، فلما رأى أبو سفيان معبدًا، قال: ما وراءك؟

قال: محمّدٌ قد خرج في أصحابه يطلبكم في جَمْعٍ لم أرَ مثله، قد جمع معه مَنْ تخلّف عنه وندموا على ما صنعوا، وما ترحل حتى ترى نواصي الخيل.

قال: فوالله قد أجمعنا الرجعة لنستأصل بقيّتهم، قال: إنّي أنهاك عن هذا، فثنى ذلك أبا سفيان ومَنْ معه، ومرّ بأبي سفيان ركبٌ من عبد القيس، فقال لهم: بلّغوا عني محمّدًا رسالة وأُحَمّل لكم إبلكم هذه زبيبًا بعكاظ. قالوا: نعم. قال: أخبروه أنّا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصلهم.

فمرّوا بالنبيّ ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه، فقال ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل». ثم عاد إلى المدينة، وظفر في طريقه بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص وبأبي عزة عمرو بن عبيد الله الجمحي، وكان قد تخلّف عن المشركين بحمراء الأسد، ساروا وتركوه نائمًا، وكان أبو عزّة قد أُسِرَ يوم بدر فأطلقه رسول الله ﷺ بغير فداء لأنه شكا إليه فقرًا وكثرة عيال، فأخذ رسول الله ﷺ عليه العهود أنْ لا يقاتله ولا يُعِين على قتاله، فخرج معهم يوم أُحُد وحرّض على المسلمين، فلما أُتِيَ به رسول الله ﷺ، قال له: يا محمد اَمنُنْ عليّ. قال: «المؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرّتين»، وأمر به وقُتِل.

وأمّا معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أُميّة وهو الذي جَدَعَ أنف حمزة ومثّل به مع من مثّل به، وكان قد أخطأ الطريق، فلما أصبح أتى دار عثمان بن عفان فلما رآه قال له عثمان: أهلكتني وأهلكت نفسك. فقال: أنت أقربهم مني رَحِمًا وقد جئتك لتجيرني. وأدخله عثمان داره، وقصد رسول الله ﷺ ليشفع فيه، فسمع رسول الله ﷺ يقول: «إنّ معاوية بالمدينة فاطلبوه»، فأخرَجُوه من منزل عثمان وانطلقوا به إلى النبيّ ﷺ، فقال عثمان: والذي بعثك بالحقّ ما جئت إلّا لأطلب له أمانًا فَهبْه لي.

فوهبه له وأجّله ثلاثة أيام، وأقسم لئن أقام بعدها ليقتلنه فجهّزه عثمان، وقال له: ارتحل. وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد وأقام معاوية ليعرف أخبار النبيّ ﷺ، فلما كان اليوم الرابع قال النبيّ ﷺ: «إن معاوية أصبح قريبًا ولم يبعد فاطلبوه»، فطلبه زيد بن حارثة وعمار فأدركاه بالحماة فقتلاه، وهذا معاوية جدّ عبد الملك بن مروان بن الحكم لأمّه.

٨ ـ يوم الرجيع[1]

كان سببها أنّ رهطًا من عَضل والقارة قدموا على النبيّ ﷺ فقالوا: إنّ فينا إسلامًا فابعث لنا نفرًا يفقّهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن، فبعث معهم ستّة نفر وأمّر عليهم عاصم بن ثابت ـ وقيل: مرثد بن أبي مرثد ـ فلما كانوا بالهَدْأة، غدروا واستصرخوا عليهم حيًا من هُذَيْل يقال لهم: بنو لحيان، فبعثوا لهم مائة رجل فالتجأ المسلمون إلى جبل فاستنزلوهم وأعطوهم العهد، فقال عاصم: والله لا أنزل على

(١) في صفر سنة ٤ من الهجرة.

عهدِ كافر، اللّهمّ خَبِّر نبيّك عنّا، وقاتَلَهُمْ هو ومرثد، وخالد بن البكير، ونزل إليهم ابن الدثنة، وخُبَيْب بن عدي ورجل آخر فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أوّل الغدر، والله لا أتبعكم فقتلوه.

وانطلقوا بخبيب وابن الدثنة فباعوهما بمكّة، فأَخَذ خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خُبيب هو الذي قتل الحارث بأُحُد فأخذوه ليقتلوه بالحارث، فبينما خبيب عند بنات الحارث استعار مِنْ بعضهنّ موسيّ يستحدّ بها للقتل فدبّ صبي لها فجلس على فخذ خبيب والموسى في يده فصاحت المرأة، فقال خبيب: أتخشين أنْ أقتله، إنْ الغدر ليس من شأننا. فكانت المرأة تقول: ما رأيتُ أسيرًا خيرًا من خُبيب؛ لقد رأيته وما بمكّة ثمرة وإنّ في يده لقطفًا من عنب يأكله ما كان إلّا رزقًا رزقه الله خُبيبًا. فلما خرجوا من الحرم بخبيب ليقتلوه، قال: ردُوني أُصَلّي ركعتين، فتركوه فصلّاهما فجَرت سُنّةُ لمن قُتِلَ صبرًا، ثم قال خُبيب: لولا أنْ تقولوا جزع لزدتُ، وقال أبياتًا منها:

ولَسْـتُ أبـالـي حـيـن أُقْـتَـلُ مـسـلمًـا
عـلى أيِّ شِـقٍّ كـان فـي الـلّهِ مـصـرعـي
وَذَلِكَ فـي ذَاتِ الإلـه وإنْ يَـشَـأْ
يـبـارك عـلى أوصـال شـلو مـمـزع

اللّهمّ أحصِهِم عددًا واقتلهم بددًا، ثم صلبوه. وأمّا عاصم بن ثابت فإنهم أرادوا رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد وكانت نذرتْ أنْ تشرب الخمر في رأس عاصم لأنه قتل ابنيها بأُحد فجاءت النحل فمنعته، فقالوا: دعوه حتى يُمْسِي فنأخذه، فبعث الله الوادي فاحتمل عاصمًا، وكان عاهد الله أنْ لا يمسّ مشركًا ولا يمسُّهُ مشركٌ فمنعه الله في مماته كما مُنِع في حياته. وأمّا ابن الدثنة، فإن صفوان بن أميّة بعث به مع غلامه نسطاس إلى التنعيم ليقتله بابنيه، فقال نسطاس: أنشدك الله أتحبّ أنّ محمدًا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وإنك في أهلك. قال: ما أحبّ أنّ محمّدًا الآن مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيتُ في الناس أحدًا يحبّ أحدًا كحبّ أصحاب محمّدٍ محمّدًا، ثم قتله نسطاس.

٩ ـ يوم بئر معونة[١]

كان سببَ ذلك أنّ أبا بَرَاء بن عازب بن عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنّة سيّد بني عامر بن صعصعة قدم المدينة وأهدى للنبيّ ﷺ هدية فلم يقبلها، وقال: «يا أبا براء لا أقبلُ هديّةَ مشرك»، ثم عَرَضَ عليه الإسلام، فلم يبعد عنه ولم يسلم، وقال: إنّ أمرك هذا حسن، فلو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعوهم إلى أمرك لرجوتُ أن يستجيبوا لك. فقال رسول الله ﷺ: «أخشى عليهم أهل نجد»، فقال أبو براء: أنا لهم جار. فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً فيهم المنذر بن عمرو الأنصاري، والحارث بن الصمّة، وحَرَام بن مِلْحَان، وعامر بن فَهِيرَة وغيرهم ـ قيل: كانوا أربعين ـ فساروا حتى نزلوا ببئر معونة من أرض بني عامر، وحرّة بني سليم فلما نزلوها بعثوا حرام بن مِلْحان بكتاب النبيّ ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر إلى الكتاب وعدا على حرام فقتله، فلما طعنه قال: الله أكبر فزتُ وربِّ الكعبة.

واستصرخ بني عامر فلم يجيبوه، وقالوا: لن نخفر أبا براء فقد أجارهم، فاستصرخ بني سليم، عصية، ورعل، وذكوان، فأجابوه، وخرجوا حتى أحاطوا بالمسلمين، فقاتلوهم حتى قُتِلُوا عن آخرهم إلّا كعب بن زيد الأنصاري، فإنهم تركوه وبه رَمَق فعاش حتى قُتِلَ يوم الخندق. وكان في سرح القوم عمرو بن أُميّة ورجلٌ من الأنصار، فرأيا الطير تحوِّم على العسكر، فقالا: إنّ لها لشأنًا، فأقبلا ينظران فإذا القوم صرعى وإذا الخيلُ واقفة، فقال عمرو: نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر. فقال الأنصاري: لا أرغب بنفسي عن موطن فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل القوم حتى قُتِلَ، فأخذوا عمرو بن أُميّة أسيرًا، فلمّا علم عامر أنّه من مَعَدّ أطلقه، وخرج عمرو حتى إذا كان بالقرقرة لقيَ رجلين من بني عامر فنزلا معه ومعهما عقد من رسول الله ﷺ ولم يعلم به عمرو فقتلهما ثم أخبر النبيّ ﷺ الخبر، فقال له: لقد قتلت قتيلين لأدينهما، ثم قال رسول الله ﷺ: «هذا عمل أبي براء»، فشقّ عليه ذلك. وكان فيمن قتل عامر بن فهيرة، فكان عامر بن الطفيل يقول: مَن الرجل منهم لما قُتِلَ رُفِعَ بين السماء والأرض؟ قالوا: هو عامر بن فهيرة. وقال حسان بن ثابت يحرِّض بني أبي

---

(١) في صفر سنة ٤ من الهجرة.

براء على عامر بن الطفيل:

بني أم البنين ألم يرعكم وأنتم من ذوائب أهل نجدِ
تهكم عامر بأبي براء ليخفره وما خطأ كعمد

في أبياتٍ له، فقال كعب بن مالك:

لقد طارت شعاعًا كل وجهٍ خفارة ما أجار أبو براء

في أبياتٍ أخرى. فلما بلغ ربيعة بن أبي براء ذلك حمل على عامر بن الطفيل فطعنه فخرّ عن فرسه، فقال: إنْ مُت فدمي لعمّي. وأنزل الله عزّ وجلّ في أهل بئر معونة قرآنًا: بلّغوا قومنا عنّا أنّا قد لقينا ربّنا فرضي عنّا ورضينا عنه، ثم نُسِخَت.

١٠ ـ يوم بني النضير

كان سبب ذلك أن عامر بن الطفيل أرسل إلى النبيّ ﷺ يطلب دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أُميّة ـ وقد ذكرنا ذلك[1] ـ فخرج النبيّ ﷺ إلى بني النضير يستعينهم فيها ومعه جماعة من أصحابه، فيهم أبو بكر، وعمر، وعليّ، فقالوا: نَعَمْ نُعِينُك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم ببعض وتآمروا على قتله وهو جالس إلى جنب جدار، فقالوا: مَنْ يعلو هذا البيت فيُلْقِي عليه صخرة فيقتله ويريحنا منه؟ فانتدب له عمرو بن جحاش، فنهاهم عن ذلك سَلّام بن مِشْكَم، وقال: هو يعلم، فلم يقبلوا منه. وصعد عمرو بن جحاش، فأتى الخبر من السماء إلى رسول الله ﷺ بما عزموا عليه، فقام وقال لأصحابه: «لا تبرحوا حتى آتيكم»، وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما أبطأ قام أصحابه في طلبه فأخبرهم الخبر، وأمر المسلمين بحربهم، ونزل بهم فتحصّنوا منه في الحصون فقطع النخل وأحرق وأرسل إليهم عبد الله بن أُبَيّ وجماعة معه: أنْ اُثْبُتُوا وتمنّعوا فإنّا لن نسلّمكم وإنْ قوتلتم قاتلنا معكم وإنْ خرجتم خرجنا معكم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا النبيّ ﷺ أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم على أنّ لهم ما حملت الإبل من الأموال إلّا السلاح فأجابهم إلى ذلك، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم مَنْ سار إلى الشام، فكان ممن سار إلى خيبر كِنانة بن الربيع وحُيَيّ بن أخطب، وكان فيهم يومئذ أمّ عمرو صاحبة عُرْوَة بن الورد التي ابتاعوا منه[1] وكانت

(١) انظر يوم بئر معونة.

غفارية، فكانت أموال النضير لرسول الله ﷺ وحده يضعها حيث شاء، فقسمها على المهاجرين الأوّلين دون الأنصار، إلّا أن سهل بن حُنَيْف وأبا دُجَانة ذكرا فقرًا فأعطاهما ولم يُسْلِم من بني النضير إلّا يامين بن عمير بن كعب وهو ابن عم عمرو بن جحاش، وأبو سعيد بن وهب وأحرزا أموالهما، واستخلف على المدينة ابن أُمّ مكتوم وكانتْ رايته مع عليّ بن أبي طالب.

١١ - يوم ذات الرقاع(١)

أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد بني النضير شهرَيْ ربيع ثم غزا نجدًا يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، حتى نزل نخلاً وهي غزوة الرقاع، سمّيت بذلك لأجل جبل كانت الوقعة به، فيه سواد وبياض وحُمرة؛ فاستخلف على المدينة عثمان بن عفان، فلقيَ المشركين ولم يكن قتال وخاف الناس بعضهم بعضًا، فنزلت صلاة الخوف، وقد اختلف الرواة في صلاة الخوف، وهو مستقصى في كتب الفقه، وجاء رجل من محارب إلى النبيّ ﷺ فطلب منه أنْ ينظر إلى سيفه فأعطاه السيف فلما أخذه وهزّه قال: يا محمد أمَا تخافني؟ قال: «لا»، قال: أما تخافني وفي يدي السيف، قال: «لا، يمنعني الله منك»، فردَّ السيف إليه وأصاب المسلمون امرأة منهم وكان زوجها غائبًا فلما أتى أهله أخبر الخبر فحلف لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب النبيّ ﷺ دمًا، وخرج يتّبع أثر رسول الله ﷺ، فنزل رسول الله ﷺ فقال: «من يحرسنا الليلة»؟ فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فأقاما بفم شِعب نزله رسول الله ﷺ واضطجع المهاجري وحرس الأنصاري أوّل الليل وقام يصلي، وجاء زوج المرأة فرأى شخصه فعرف أنه ربيئة القوم فرماه بسهم، فوضعه فيه فانتزعه وثبت قائمًا يصلّي، ثم رماه بسهم آخر فأصابه فنزعه وثبت يصلّي، ثم رماه بالثالث فوضعه فيه فأنتزعه، ثم ركع وسجد، ثم أيقظ صاحبه وأعلمه فوثب، فلما رآهما الرجل علم أنهما عَلِمَا به، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري قال: سبحان الله ألَا أيقظتني أوّل ما رماك، قال: كنتُ في سورة أقرأها فلم أحبّ أن أقطعها، فلما تابع عليّ الرمي أعلمتُك، وأيم الله لولا خوفي أن أُضَيِّع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها، وقيل: إنّ هذه الغزوة كانت في المحرم سنة خمس من الهجرة.

---

(١) سنة ٤ من الهجرة.

١٢ ـ يوم الخندق وهو يوم الأحزاب[١]

كان سببه أنّ نفرًا من يهود من بني النضير، منهم سلام بن أبي الحُقَيْق، وحُيَي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وغيرهم حَزَّبُوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فقدموا على قريش بمكّة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: نكون معكم حتى نستأصله، فأجابوهم إلى ذلك ثم أتوا على غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنّ قريشًا معهم على ذلك فأجابوهم، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عُيَيْنَة بن حصن في بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المرّي في مرّة، ومِسْعر بن رخيلة الأشجعي في أشجع.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أمر بحفر الخندق وأشار به سَلْمان الفارسي، وكان أوّل مشهد شهده مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حُرّ، فعمل فيه رسول الله ﷺ رغبة في الأجر وحَثًا للمسلمين وتسلّل عنه جماعة من المنافقين بغير علم رسول الله ﷺ، فأنزل الله في ذلك: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النُّور: الآية ٦٣] الآية، وكان الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة لحاجة لا بدّ منها يستأذن رسول الله ﷺ فيقضي حاجته ثم يعود، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: الآية ٦٢؛ والحجرات: الآية ١٥] الآية، وقسم الخندق بين المسلمين، فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان كُلٌّ يدّعيه أنّه منهم، فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منّا سلمان منّا أهل البيت».

وجعل لكل عشرة أربعين ذراعًا، فكان سلمان، وحذيفة، والنعمان بن مُقَرِّن، وعمرو بن عوف وستّة من الأنصار يعملون، فخرجت عليهم صخرة كسرت المِعْوَل فأعلموا النبيّ ﷺ فهبط إليها ومعه سلمان، فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتَيْ المدينة حَتَّى لكأنّ مصباحًا في جوف بيتٍ مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ والمسلمون، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة كذلك، ثم خرج وقد صدعها، فسأله سلمان عمّا رأى من البرق، فقال رسول الله ﷺ: «أضاءت الحيرة وقصور كسرى في البرقة الأولى، وأخبرني جبريل أنّ أُمّتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثانية القصور الحُمْر من أرض الشام والروم، وأخبرني أنّ أُمّتي ظاهرة

---

(١) في شوّال سنة ٥ من الهجرة.

عليها، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء، وأخبرني أنّ أُمّتي ظاهرة عليها فأبشروا»، فاستبشروا المسلمون وقال المنافقون: ألا تعجبون يعدكم الباطل، ويخبركم أنّه ينظر من يثرب الحيرة، ومدائن كسرى، وأنّها تُفْتَحُ لكم، وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا، فأنزل الله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: الآية ١٢]، فأقبلت قريش حتّى نزلت بمجتمع الأسيال من رَوْمة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من كنانة وتهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم حتى نزلوا إلى جنب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون فجعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف فنزل هناك، ورفع الذراريّ والنساء في الآطام.

وخرج حُيَيّ بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد سيّد قريظة، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، فأغلق كعب حصنه ولم يأذن له، وقال: إنك امرؤٌ مشؤوم وقد عاهدتُ محمّدًا ولم أرَ منه إلّا الوفاء. قال حييّ: يا كعب قد جئتُك بعزّ الدهر وببحرٍ طامٍّ جئتُك بقريش وسادتها، وغطفان بقادتها، وقد عاهدوني أنهم لا يبرحون حتى يستأصلوا محمّدًا وأصحابه. قال كعب: جئتني بذُلّ الدّهر وبجهام[1] قد هراق ماءه يرعد ويبرق وليس فيه شيء، ويحك يا حُيَيّ دعني ومحمّدًا؛ ولم يزل به يفتله في الذروة والغارب[2] حتى حَمَله على الغدر بالنبيّ ﷺ ففعل ونكث العهد، وعاهده حييّ إنْ عادت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمّدًا أنْ أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك.

فعظم عند ذلك البلاء وأشتدّ الخوف وأتاهم عدوّهم مِنْ فوقهم ومِنْ أسفل منهم ونجم النفاق من بعض المنافقين، وأقام رسول الله ﷺ والمشركون عليه بضعًا وعشرين ليلة قريبًا من شهر، ولم يكن بين القوم حربٌ إلّا الرّمي بالنبل، فلمّا اشتد البلاء بعث رسول الله ﷺ إلى عُيَيْنَة بن حصن والحارث بن عوف المرّي قائدَيْ غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أنْ يرجعُوا بمن معهما عن رسول الله ﷺ فأجابا إلى ذلك، فاستشار رسول الله ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فقالا: يا رسول الله شيءٌ تحب أنْ تصنعه أم شيءٌ أمرك الله به أو شيء تصنعه لنا؟ قال: «بل لكم رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، فأردتُ أنْ أكسر عنكم شوكتهم»، فقال سعد بن معاذ:

---

(١) هو النعيم الذي لا مطر فيه.

(٢) ذروة البعير وغاربه معروفان جعلا مثلاً لإزالته عن رأيه.

قد كنّا نحن وهم على الشرك ولا يطمعون أنْ يأكلوا منّا تمرة إلّا قِرًى أو بَيْعًا، فحين أكرمنا الله بالإسلام نعطيهم أموالنا! ما نعطيهم إلّا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فترك ذلك رسول الله ﷺ. ثم إنّ فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وَدّ أحد بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله، وضِرار بن الخطاب الفهري خرجوا على خيولهم، وآجتازوا ببني كِنانة وقالوا: تجهّزوا للحرب وستعلمون مَن الفرسان.

وكان عمرو بن عبد وَد قد شهد بدرًا كافرًا، وقاتل حتى كثرت الجراح وفيه ولم يشهد أُحُدًا وشهد الخندق معلمًا حتى يُعْرف مكانه، فأقبل هو وأصحابه حتى وقفوا على الخندق، ثم تيمّموا مكانًا ضيّقًا فآقتحموه فجالت بهم خيولهم في السبخة بين الخندق وسلع، وخرج عليّ بن أبي طالب في نفرٍ من المسلمين فأخذوا عليهم الثغرة، وكان عمرو قد خرج معلّمًا، فقال له عليّ: يا عمرو إنك عاهدتَ أن لا يدعوك رجلٌ من قريش إلى خصلتين إلّا أخذت إحداهما، قال: أجل، قال له عليّ: فإني أدعوك إلى الله والإسلام. قال: لا حاجةَ لي بذلك. قال: فإني أدعوك إلى النزال. قال: والله ما أُحبّ أنْ أقتلك. قال عليّ: ولكني أحبّ أن أقتلك. فحمي عمرو عند ذلك فنزل عن فرسه وعقره ثم أقبل على عليّ فتجاولا وقتله عليّ وخرجت خيلهم منهزمة، وقتل مع عمرو رجلان قتل عليّ أحدهما وأصاب آخر سهم فمات منه بمكّة.

ورُمي سعد بن معاذ بسهم قطع أكحله رماه حِبان بن قيس بن العرقة بن عبد مناف من بني هُصَيْص بن عامر بن لؤي، والعرقة أمّه، وإنما قيل لها: العرقة لطيب ريح عرقها وهي قِلابة بنت سعيد بن سعد بن سَهم وهي جدّة خديجة أُمّ أبيها، أو هي أُمّ عبد مناف بن الحارث جدّ أبيه، فلما رمى سعدًا، قال: خُذْها وأنا ابن العرقة. فقال النبيّ ﷺ: «عرّق الله وجهك في النار»، ولم يُقطع الأكحل من أحد الأمات، فقال سعد: اللّهمّ إنْ كنت أبقيت مِنْ حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحبّ إليّ أن أقاتلهم من قوم آذوا نبيّك وكذّبوه، اللّهمّ وإن كنت وضعت الحرب بيننا فآجعها لي شهادة ولا تُمِتْنِي حتى تقرّ عيني من بني قريظة، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية.

وقيل: إن الذي رمى سعدًا هو أبو أسامة الجشمي حليف بني مخزوم، فلما قال سعد ما قال: انقطع الدم، وكان صفية عمّة النبيّ ﷺ في فارع حصن حسان بن

ثابت، وكان حسان فيه مع النساء لأنه كان جبانًا، قالت: فأتانا آتٍ من اليهود، فقلت لحسان: هذا اليهودي يطوفُ بنا ولا نأمنه أنْ يدلّ على عوراتنا فأنزل إليه فأقتله، فقال: والله ما أنا بصاحب هذا، قالت: فأخذتُ عمودًا ونزلتُ إليه فقتلته، ثم رجعتُ، فقلت لحسّان: أنزل إليه فَخُذْ سَلَبَه فإنني يمنعني منه أنه رجل.

فقال: والله ما لي بسلبه من حاجة، ثم إنّ نُعَيْم بن مسعود الأشجعي أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمتُ ولم يعلم قومي فمُرْني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجلٌ واحد فخذِّلْ عنّا ما استطعت فإنْ الحرب خَدْعَة»، فخرج حتى أتى بني قريظة وكان نديمًا لهم في الجاهلية، فقال لهم: قد عرفتم وُدّي إياكم، فقالوا: لست عندنا بمتّهم، قال: قد ظاهرتم قريشًا وغطفان على حرب محمّد وليسوا كأنتم البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحوّلوا منه وإنّ قريشًا وغطفان إن رأوا نهزة[1] وغنيمة أصابوها، وإنْ كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين محمّد ولا طاقة لكم به إنْ خلَا بكم، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رُهُنًا من أشرافهم ثقة لكم حتى تناجزوا محمّدًا، قالوا: أشرت بالنُّصْح.

ثم خرج حتى أتى قريشًا، فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم وُدّي إياكم وفراقي محمّدًا، وقد بلغني أنّ قريظة ندموا، وقد أرسلوا إلى محمّد هل يرضيك عنّا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بَقِيَ منهم؟ فأجابهم أنْ نعم، فإنْ طلبتْ قريظة منكم رُهُنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلًا واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: أنتم أهلي وعشيرتي، وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم، فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس كان من صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفرٍ من قريش وغطفان، وقالوا لهم: أنا لسنا بدارِ مُقَام قد هلك الخفّ والحافر فأغدوا للقتال حتى نناجز محمّدًا، فأرسلوا إليهم: أنّ اليوم السبت لا نعمل فيه شيئًا، ولسنا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا ثقة لنا، فإنّا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل ونحن ببلاده.

---

(١) النُّهْزة: الفرجة.. قاموس

فلما أبلغتهم الرسل هذا الكلام قالت قريش وغطفان: والله لقد صدق نعيم بن مسعود، فأرسلوا إلى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحدًا، فقالت قريظة عند ذلك: إنّ الذي ذكر نعيم بن مسعود لَحَق، وخذل الله بينهم.

وبعث الله عليهم ريحًا في ليالٍ شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم، فلما انتهى إلى النبيّ ﷺ اختلاف أمرهم دعا حذيفة بن اليمان ليلاً فقال: «انطلق إليهم وانظر حالهم ولا تُحْدِثَن شيئًا حتى تأتينا». قال حذيفة: فذهبتُ فدخلتُ فيهم والريح وجنود الله تفعل فيهم ما تفعل لا يقرّ لهم قِدر ولا بناء ولا نار، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش ليأخذ كُلُّ رجل منكم بيد جليسه، قال: فأخذتُ بيدِ الرجل الذي بجانبي، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان، ثم قال أبو سفيان: والله لقد هلك الخفّ والحافر وأخلفتنا قريظة ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ أنّي لا أحدث شيئًا لقتلته. قال حذيفة: فرجعتُ إلى النبيّ ﷺ وهو قائم يصلّي في مِرْطٍ[1] لبعض نسائه فأدخلني بين رجليه وطرح عليَّ طرف المرط، فلما سَلَّم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فعادوا راجعين إلى بلادهم، فلما عادوا قال رسول الله ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، فكان كذلك حتى فتح الله مكّة.

١٣ - يوم بني قريظة

لما أصبح رسول الله ﷺ عاد إلى المدينة ووضع المسلمون السلاح وضرب سعد بن مُعاذ قُبّة في المسجد ليعوده من قريب، فلما كان الظهر أتى جبريل النبيّ ﷺ فقال: أقدْ وضعتَ السلاح؟ قال: نعم، قال جبريل: ما وَضَعَت الملائكةُ السلاح إنّ الله يأمُرُكَ بالمسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم. فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى: «مَنْ كان سامعًا مطيعًا فلا يُصَلِّيَنَّ العصرَ إلّا في بني قريظة»، وقدّم عليًا إليهم برايته وتلاحق الناس ونزل رسول الله ﷺ وأتاه رجال بعد العشاء الأخيرة، فصلوا العصر بها وما عابهم رسول الله ﷺ، وحاصر بني قريظة شهرًا أو خمسًا وعشرين ليلة، فلمّا اشتدّ عليهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن تبعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر - وهو أنصاريّ من الأوس - نستشيره، فأرسلَه، فلما رأوه قام إليه الرجال

(١) المِرْط: كساء من خزّ أو صوف، أو كتّان تتّزر به وتتلفّع به المرأة، وجمعه مروط.

وبكى النساء والصبيان فرقَّ لهم، فقالوا: ننزل على حكم رسول الله ﷺ، فقال: نعم وأشار بيده إلى حَلْقه أنّه الذبح. قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى عرفتُ أنّي خُنْتُ الله ورسوله. وقلت: والله لا أقمتُ بمكانٍ عصيتُ الله فيه، وانطلق على وجهه حتى ارتبط في المسجد، وقال: لا أبرح حتى يتوب الله عليّ، فتاب الله عليه وأطلقه رسول الله ﷺ.

ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فقال الأوس: يا رسول الله افعل في موالينا مثل ما فعلتَ في موالي الخزرج ـ يعني بني قينقاع وقد تقدم ذكرهم ـ فقال: «ألَا ترضون أن يحكم فيهم سعد بن معاذ؟» قالوا: بلى، فأتاه قومه فاحتملوه على حِمار ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو أحْسِنْ إلى مواليك، فلما كثَروا عليه، قال: قد آن لسعد أنْ لا تأخُذَهُ في اللّهِ لومةَ لائم. فعلم كثيرٌ منهم أنه يقتلهم، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ، قال: «قوموا إلى سيّدكم»، أو قال: «خيركم»، فقاموا إليه وأنزلوه وقالوا: يا أبا عمرو أحْسِن إلى مواليك، فقد ردّ رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليك. فقال سعد: عليكم عهد الله وميثاقه أنّ الحكم فيهم إليّ. قالوا: نعم، فألتفت إلى الناحية الأخرى التي فيها النبيّ ﷺ وغضّ بصره عن رسول الله ﷺ إجلالاً، وقال: وعلى مَنْ ها هنا العهد أيضًا. فقالوا: نعم، وقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: فإنّي أحكم أنْ تقتل المقاتلة، وتُسْبَى الذرية والنساء، وتقسّم الأموال. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة».

ثم استُنْزِلُوا فحبسوا في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضَرَب أعناقهم فيها وفيها حُيَيّ بن أخطب وكعب بن أسد سيّدهم، وكانوا ستمائة أو سبعمائة، وقيل: ما بين سبعمائة وثمانمائة، وأُتي بحيي بن أخطب وهو مكتوب، فلما رأى النبيّ ﷺ قال: والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك، ولكن مَنْ يخذل الله يُخذل. ثم قال للناس: إنه لا بأس بأمر الله كتابٌ وقَدَر، وملحمةٌ كُتِبَتْ على بني إسرائيل فأُجلس وضربَتْ عنقه، ولم تقتل منهم إلّا امرأة واحدة قتلت بحَدَثٍ أحدثته، وقتلت أرفعة بنت عارضة منهم، وأسلم منهم ثعلبة بن سعية، وأُسيد بن سعية، وأُسيد بن عبيد.

ثم قسّم رسول الله ﷺ أموالهم، فكان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان ولفارسه سهم، وللراجل ممن ليس له فرس سهم، وكانت الخيل ستّة وثلاثين فرسًا،

وأخرج منها الخُمس. وكان أوّل فيء وقع فيه السهمان والخُمُس، واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه ريحانة بنت عمرو بن خنافة من بني قريظة، فأراد أن يتزوّجها فقالت: اتركني في مِلْكِكَ فهو أخفّ عليّ وعليك. فلما انقضى أمر قريظة انفجر جُرْح سعد بن معاذ واستجاب الله دعاءَه وكان في خيمته التي في المسجد، فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وقالت عائشة: سمعت بكاء أبي بكر وعمر عليه وأنا في حجرتي، وأمّا النبيّ ﷺ فكان لا يبكي على أحدٍ كان إذا اشتدّ وجده أخذ بلحيته، وكان فتح قريظة في ذي القعدة وصدر ذي الحجة، وقُتِلَ من المسلمين في الخندق ستّة نفر، وفي قريظة ثلاثة نفر.

١٤ ـ يوم بني لحيان[1]

خرج رسول الله ﷺ إلى بني لحيان يطلب بأصحاب الرجيع خُبَيْب بن عدي وأصحابه، وأظهر أنّه يريد الشام ليصيب من القوم غرّة، وأغذ السير حتى نزل على غُرَان منازل بني لحيان وهي بين أَمَج وعسفان، فوجدهم قد حذروا وتمنّعوا في رؤوس الجبال، فلما أخطأه ما أراد منهم خرج في مائتي راكب حتى نزل بعسفان تخويفًا لأهل مكّة وأرسل فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم، ثم عاد قافلاً.

١٥ ـ يوم ذي قَرَد

ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة فلم يُقم إلّا أيّامًا قلائل حتى أغار عُيَيْنة بن حصن الفزاري في خيل غطفان على لقاح النبيّ ﷺ، وأوّل مَنْ نذر بهم سَلَمة بن الأكوع الأسلمي. هكذا ذكرها أبو جعفر بعد غزوة لبني لحيان عن ابن إسحاق، والرواية الصحيحة عن سلمة أنّها كانت بعد مَقْدِمِهِ المدينة منصرفًا من الحديبية، وبين الوقعتين تفاوت. قال سلمة بن الأكوع: أقبلنا مع النبيّ ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ بظهره مع رباح غلامه وخرجت معه بفرس طلحة بن عبيد الله، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمٰن بن عُيَيْنة بن حصن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ فاستاقه أجمع وقتل راعيه، قلت: يا رباح هذه الفرس فأبلغها طلحة وأخبر النبيّ ﷺ أنّ المشركين قد أغاروا على سرحه. ثم استقبلت الأَكَمة[2] فناديتُ ثلاث أصوات: «يا صباحاه»، ثم خرجت في آثار القوم أرميهم

(١) في جمادى الأولى سنة ٦ من الهجرة. (٢) الأَكَمَة: التل ـ الجمع: آكام.

بالنبل، وأرتجز وأقول:

خـذهـا وأنـا ابـن الأكـوع والـيـوم يـوم الـرُّضَّـع[١]

قال: فوالله ما زلتُ أرميهم وأعقر بهم، فإذا خرج إليّ فارس قعدتُ في أصل شجرة فرميته فعقرتُ به وإذا دخلوا في مضايق الجبل رميتهم بالحجارة من فوقهم، فما زلتُ كذلك حتى ما تركتُ من ظهر رسول الله ﷺ بعيرًا إلّا جعلته وراء ظهري وخلّوا بيني وبينه، وألقوا أكثر من ثلاثين رمحًا وثلاثين بردة يستخفّون بها لا يلقون شيئًا إلّا جعلتُ عليه أمارة، أي علامة، حتى تعرفه أصحاب رسول الله ﷺ حتى إذا انتهوا إلى مضايق من ثنية أتاهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ممدًّا فقعدوا يتضحون[٢]، فلمّا رآني قال: من هذا؟ قالوا: لقينا منه البَرْح[٣] وقد استنقذ كلّ ما بأيدينا فما برحتُ مكاني حتى أبصرتُ فوارس رسول الله ﷺ يتخلّلون الشجر أوّلهم الأخرم الأسدي واسمه مُحرز بن نضلة من أسد بن خزيمة، وعلى أثره أبو قتادة، وعلى أثره المقداد بن الأسود الكندي؛ فأخذت بعنان الأخرم[٤] وقلت: أحذر القوم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: يا سلمة إنْ كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فلا تَحُلْ بيني وبين الشهادة. قال: فخلّيته، فالتقى هو وعبد الرحمٰن بن عُيَيْنة فعقر الأخرم بعبد الرحمٰن فرسه وطعنه عبد الرحمٰن فقتله وتحوّل عبد الرحمٰن على فرس الأخرم، ولحق أبا قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمٰن فطعنه فانطلقوا هاربين؛ قال سلمة: فوالذي كرّم وجه محمّد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجليّ حتى أرى ما ورائي من أصحاب محمّد ﷺ، ولا غبارهم شيئًا وعدلوا قبل غروب الشمس إلى غارٍ فيه ماء يقال له: ذو قَرَد ليشربوا منه وهم عِطَاش، فنظروا إليّ أعدو في آثارهم فأجليتهم عنه فما ذاقوا منه قطرة، قال: واشتدّوا في ثنية ذي أبهر فأرشُقُ بعضهم بسهم فيقع في نُغض كتفه[٥]، فقلت:

خـذهـا وأنـا ابـن الأكـوع والـيـوم يـوم الـرُّضَّـع

وأرادوا فرسين على ثنية فجئت بهما أقودهما إلى النبيّ ﷺ، ولحقني عمي عامر بسطيحة فيها مذقة[٦] من لبن وسطيحة فيها ماء، فتوضّأتُ وصلّيتُ وشربتُ ثم جئتُ

(١) أي اليوم يوم هلاك اللّئام وهم الرضّع. (٢) أي: يتغدون.
(٣) الشدّة والشرّ. (٤) في الأصول: أحزم ـ وهو خطأ.
(٥) النغض: هو العظم الرقيق على طرف الكتف سمّي بذلك لكثرة تحركه.
(٦) أي: شربةٌ من اللبن الممزوج أي المخلوط بالماء.

إلى النبيّ ﷺ وهو على الماء الذي أجليتهم عنه بذي قَرَد، وإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل التي استنقذتُ من العدوّ وكلّ رمحٍ وكل بردة، وإذا بلال قد نحر لهم ناقة من الإبل وهو يشوي منها، فقلت: يا رسول الله خلني أنتخب مائة رجل فلا يبقى منهم عين تطرف، فضحك وقال: «إنهم ليقرون بأرض غطفان»، فجاء رجل من غطفان فقال: نحر لهم فلان جزورًا فلما كشطوا عنها جلدها رأوا غبارًا فقالوا: أُتِيتُم فخرجوا هاربين؛ فلمّا أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع»، ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين سهم فارس وسهم الراجل، ثم أردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، فبينما نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يسبق شدًّا فقال: «ألَا من مُسَابق مرارًا»، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأُمي ائذن لي فلأُسابق الرجل، قال: «إنْ شئت»، قال: فطفرتُ[1] فعدوتُ فربطت عليه شرفًا أو شرفين أستبقي نفسي، ثم عدوتُ في أثره فربطتُ عليه شرفًا أو شرفين، ثم إني رفعتُ حتى ألحقه فأصكه بين كتفيه، فقلت: سبقتُك والله، قال: أنا أظن، فسبقته إلى المدينة فلم نمكث بها إلّا ثلاثًا حتى خرجنا إلى خيبر، وفي هذه الغزوة نودي: يا خيل الله اركبي، ولم يكن يقال قبلها.

١٦ ـ يوم بني المصطلق[2]

بلغ رسول الله ﷺ أنّ بني المصطلق تجمّعُوا له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ـ أبو جويرية زوج النبيّ ﷺ ـ فلما سمع بهم خرج إليهم، فلقيهم بماءٍ لهم يقال له: المُرَيْسِيع بناحية قديد، فاقتتلوا فانهزم المشركون، وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ منهم، وأصيب رجلٌ من المسلمين من بني ليث بن بكر اسمه هشام بن صبابة أخو مقيس بن صُبابة أصابه رجل من الأنصار بسهم من رهط عبادة بن الصامت، وهو يرى أنه من العدوّ فقتله خطأً. وأصاب رسول اللهّ ﷺ سبايا كثيرة فقسمها في المسلمين، وفيهم جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عمٍّ له فكاتبته عن نفسها، فأتت رسول الله ﷺ فاستعانته في كتابتها، فقال لها: «هل لك على خيرٍ من ذلك»؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي كتابتك وأتزوّجك»، قالت: نعم يا رسول الله، ففعل وسمع الناس الخبر فقالوا: أصهار رسول الله فأعتقوا أكثر من مائة بيت من أهل بني المصطلق، فما كانت امرأة أعظم بركة على قومها منها.

(١) أي: وثبت وقفزت. (٢) في شعبان سنة ٦ من الهجرة.

وبينما الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه فٱزدحم هو وسنان الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء فٱقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أُبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث السن، فقال: أوَ قد فعلوها؟ قد كاثرونا في بلادنا، أمَا والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنَافِقون: الآية ٨]، ثم أقبل على مَنْ حضره من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم ببلادكم وقاسمتموهم أموالكم والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادك، فسمع ذلك زيد فمشى به إلى النبيّ ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من غزوهِ فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله مُرْ به عباد بن بشر فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: «كيف إذا تحدّث الناس أنّ محمّدًا يقتل أصحابه؟ ولكن أذن بالرحيل»، فٱرتحل في ساعةٍ لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه، فلقيه أُسَيْد بن حضير فسلّم عليه وقال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة لم تكن تروح فيها؟ فقال: «أوَ ما بلغك ما قال عبد الله بن أُبيّ»؟ قال: وماذا قال؟ قال: «زعم إنْ رَجَعَ إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل»، قال أُسَيْد: فأنتَ والله تُخرِجُهُ إنْ شئتَ، فإنك العزيز وهو الذليل.

ثم قال: يا رسول الله ٱرفق به، فوالله لقد مَنَّ الله بك وإنّ قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا. وسمع عبد الله بن أُبَيّ أنّ زيدًا أعلم النبيّ ﷺ قوله، فمشى إلى رسول الله ﷺ فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلّمت به، وكان عبد الله في قومه شريفًا، فقالوا: يا رسول الله عسى أنْ يكون الغلام قد أخطأه، وأنزل الله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنَافِقون: الآية ١] تصديقًا لزيد، فلمّا نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأُذُن زيد وقال: «هذا الذي أوفى الله بأُذنه». وبلغ عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول ما كان من أمر أبيه، فأتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل أبي فإنْ كنتَ فاعلاً فمُرْني به فأنا أحمل إليك رأسه، وأخشى أنْ تأمر غيري بقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار، فقال النبيّ ﷺ: «بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»، فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثًا عاتبه قومه وعنّفوه وتوعّدوه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك عنهم: «كيف ترى ذلك يا عمر»؟ أمَا والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله لأرعدت له أنف لو أمرتُها اليوم بقتله لقتلته؟ فقال

عمر: أمرُ رسول الله ﷺ أعظم بركةٍ من أمري. وفيها قَدِمَ مقيس بن صُبابة مسلمًا فيما يظهر، فقال: يا رسول الله جئت مسلمًا وجئت أطلب دية أخي، وكان قُتِل خطأ، فأمر له بدية أخيه هشام بن صَبَابة، وقد تقدم ذكر قتله آنفًا، فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ثم خرج إلى مكة مرتدًا، فقال:

شفى النفس أنْ قد بات في القاع مسندًا
تضرّج ثوبيه دماء الأخادع
وكانت هموم النفس من قبل قتله
تلم فتحميني وطاء المضاجع
حللت به نذري وأدركت ثؤرتي
وكنت إلى الأصنام أوّل راجع

١٧ ـ يوم خيبر(١)

لما عاد رسول الله ﷺ من الحديبية أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم وسار إلى خَيْبر في ألفٍ وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس، وكان مسيره إلى خيبر في المحرم سنة سبع، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، فمضى حتى نزل بجيشه بالرجيع(٢) ليحول بين أهل خيبر وغطفان؛ لأنهم كانوا مظاهرين لهم على رسول الله ﷺ، وقصدت غطفان خيبر ليظاهروا يهود عليه ثم خافوا المسلمين أنْ يخلفوهم في أهليهم وأموالهم، فرجعوا ودخلوا بين رسول الله ﷺ ويهود، فسار رسول الله ﷺ وقال في مسيره لعامر بن الأكوع عمّ سلمة بن عمرو بن الأكوع: «اَحدُ لنا»، فنزل وحداهم يقول:

واللّه لولا اللّه ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينة علينا وثبّت الأقدام إنْ لاقَينَا

فقال له رسول الله ﷺ: «رحمك الله»، فقال له عمر: هَلَّا أمتعتنا به يا رسول الله ـ وكان إذا قالها لرجل قُتِل ـ فلما نازلوا خيبر بارز عامر فعاد عليه سيفه فجرحه جرحًا

(١) في محرم سنة ٧ من الهجرة.
(٢) الرجيع: اسم مكان وهو ماء لهُذَيْل قرب الهرة بين مكّة والطائف.

شديدًا فمات منه، فقال الناس: إنه قتل نفسه، فقال سلمة ابن أخيه للنبيّ ﷺ ما قالوا، فقال: «كذبوا بل له أجره مرّتين»، فلما أشرف عليها قال لأصحابه: «قفوا»، ثمّ قال: «اللّهـمّ ربّ السمٰوات وما أظللن، وربّ الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، وربّ الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها وشرّ ما فيها، أقدموا بسم الله»، وكان يقول ذلك لكل قرية يقدمها، ونزل على خير ليلاً، ولم يعلم أهلها، فخرجوا عند الصباح إلى عملهم بمساحيهم ومكاتلهم فلمّا رأوه عادوا وقالوا: محمّد والله محمّد والخميس معه ـ يعنون الجيش ـ فقال النبيّ ﷺ: «الله أكبر خَربَتْ خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصّافات: الآية ١٧٧] » ثلاثًا.

ثم حصرهم وضيَّق عليهم وبدأ بالأموال يأخذها مالاً مالاً ويفتحها حصنًا حصنًا، فكان أوّل حصن افتتحه حصن ناعم وعنده قتل محمود بن سلمة ألقيت عليه منه رحى فقتلته، ثم القموص حصن بني أبي الحُقَيْق، وأصاب منهم رسول الله ﷺ سبايا، منهم صفية بنت حُيَيّ بن أخطب وكانت عند كِنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، وبنتي عمّ لها فاْصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، وفشت السبايا في المسلمين، وأكلوا لحوم الحُمُر الإنسية، فنهاهم رسول الله ﷺ عنها، وكان الزبير بن باطا القرظيّ قد مَنَّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية، يوم بُعاث فأطلقه، فلما كان الآن أتاه ثابت فقال له: أتعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: أريد أنْ أُجزيك بيدك عندي، قال: إنّ الكريم يجزي الكريم، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: كان للزبير عندي يد أريد أنْ أُجزيه بها فهَبْه لي، فوهبه له، فأتاه فقال له: إنّ النبيّ ﷺ قد وهب لي دمك فهو لك، قال: شيخٌ كبير لا أهل له ولا ولد.

فاستوهب ثابت أهله وولده من رسول الله ﷺ فوهبهم له، فقال: الزبير أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فاستوهب ثابت ماله من رسول الله ﷺ فوهبه له فمنّ عليه بالجميع. فقال الزبير: أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صقيلة يتراءى فيها عذارى الحيّ كعب بن أسد؟ قال: قتل، قال: فما فعل سيّد الحاضر والبادي، حييّ بن أخطب؟ قال: قُتِل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عزال بن سموأل؟ قال: قُتِلَ. قال: فما فعل المجلسان ـ يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة ـ؟ قال: ذهبوا، قال: فإنّي أسألك يا ثابت بيدي عندك إلّا ما ألحقتني بهم، فوالله ما في العيش بعدهم خير، فقتله، ثم افتتح رسول الله ﷺ حصن الصعب

ـ وهو أكثرها طعامًا وودكًا[1] ـ ثم قصد حصنهم الوطيح والسلالم وكانا آخر ما افتتح، حاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة، فخرج منه مرحب اليهودي وقد جمع سلاحه، وهو يقول:

قد علمتْ خيبر أني مَرحب ... شاكي السلاح بطل مجرّب
أطعن أحيانًا وحينًا أضرب ... إذا الليوث أقبلت تلتهب
كان حِمايَ كالحمى لا يقرب

وسأل المبارزة فخرج إليه محمد بن مسلمة وقال: أنا والله الموتور الثائر، قتلوا أخي بالأمس، فأقرّه رسول الله ﷺ بمبارزته وقال: «اللّهمّ أعِنْهُ عليه»، فخرج إليه فتقاتلا طويلاً، ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة، فضربه فاتّقاه بالدرقة، فوقع سيفه فيها فعضَّت عليه وأمسكت، فضربه محمد بن مسلمة حتى قتله، ثم خرج بعده أخوه ياسر وهو يقول:

قد علمت خيبر أنّي ياسر ... شاكي السلاح بطل مغاور

وطلب المبارزة، فخرج إليه الزبير بن العوام، فقتله الزبير، وقيل: إن الذي قتل مرحبًا وأخذ الحصن عليّ بن أبي طالب، وهو الأشهر والأصحّ. قال بريدة الأسلمي: كان رسول الله ﷺ ربما أخذته الشقيقة[2] فيلبث اليوم واليومين لا يخرج، فلما نزل خيبر أخذته، فلم يخرج إلى الناس فأخذ أبو بكر الراية من رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالاً شديدًا، ثم رجع فأخذها عمر فقاتل قتالاً شديدًا هو أشدّ من القتال الأوّل، ثم رجع فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «أمّا والله لأعطينّها غدًا رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله يأخذها عنوةً» ـ وليس ثَمَّ عليّ كان قد تخلف بالمدينة لرمدٍ لحقه ـ فلما قال رسول الله ﷺ مقالته هذه تطاولت لها قريش ورَجَا كل واحدٍ منهم أنْ يكون صاحبَ ذلك، فأصبح فجاء عليّ على بعيرٍ له حتى أناخ قريبًا من خباء رسول الله ﷺ وهي أرمد قد عَصَبَ عينيه بشقّة برد قطري، فقال رسول الله ﷺ: «ما لك»؟ قال: رمدتُ بعدك، فقال له: «أَدْنُ مني»، فدنا منه فتفل في عينيه فما شكا وجعًا حتى مضى لسبيله، ثم أعطاه الراية، فنهض بها معه وعليه حلّة حمراء فأتى خيبر فأشرف عليه رجل من يهود، فقال: من أنت؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالب؟

(١) الوِدْك الدسم فيشمل السمن والشحم المُذَاب.
(٢) الشقيقة وجع يأخذ نصف الرأس والوجه.

فقال اليهودي: غُلِبتم يا معشر يهود، وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغْفَر[١] يماني قد نقبه مثل البيضه على رأسه، وهو يقول:

قد علمت خيبر أنّي مَرحب شاكي السلاح بطل مجرّب

فقال عليّ:

أنا الذي سمّتني أمّي حيدره كليثِ غاباتٍ كريه المنظرهْ
أكيلهم بالسيف كيل السندره[٢]

فاختلفا ضربتين فبدره عليّ فضربه فقدَّ الحجفة والمغفر ورأسه حتى وقع في الأرض وأخذ المدينة، قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: خرجنا مع عليّ حين بعثه رسول الله ﷺ برايته إلى خيبر، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه يهودي فطرح ترسه من يديه، فتناول عليّ بابًا كان عند الحصن فتترس به عن نفسه فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتحها الله على يديه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفرٍ سبعة أناسًا منهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه، وكان فتحها في صَفَر، فلما فُتِحت خيبر جاء بلال بصفيّة وأخرى معها على قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صرختْ وصكّت وجهها وحثت التراب على رأسها، فأصطفى رسول الله ﷺ صفية وأبعد الأخرى، وقال: إنها شيطانة لأجل فعلها، وقال لبلال: «أنزعت منك الرحمة»؟ جئت بهما على قتلاهما، وكانت صفية قد رأت في منامها وهي عروس لكنانة بن أبي الحُقَيْق، أنّ قمرًا وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلّا أنك تتمنّين مَلِكَ الحجاز محمّدًا، ولطم وجهها لطمة أخضرّت عينها منها، فأتي بها رسول الله ﷺ وبها أثرٌ منها وسألها ما هو فأخبرته، ودفع كنانة بن أبي الحُقَيْق إلى محمد بن مسلمة فقتله بأخيه محمود.

وحاصر رسول الله ﷺ حصني أهل خيبر الوطيح والسلالم، فلما أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيّرهم ويحقن دماءهم، فأجابهم إلى ذلك، وكان قد حاز الأموال كلّها الشق ونطاة والكتيبة وجميع حصونهم، فلما سمع بذلك أهل فَدَك بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يُسَيِّرهم ويخلون له الأموال، ففعل ذلك؛ ولمّا نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، وأن

(١) المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة وجمعه مغافر.
(٢) السندرة: ضرب من الكيل.

يخرجهم إذا شاء فساقاهم على الأموال على الشرط الذي طلبوا وفعل مثل ذلك أهل فَدَك، وكانت خيبر فَيْئًا للمسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخَيْلٍ ولا ركاب.

ولما اْستقرّ رسول الله ﷺ أهدتْ له زينب بنت الحارث امرأة سلّام بن مشكم شاة مصلية[1] مسمومة فوضعتها بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ منها مضغة فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور، فأكل بشرٌ منها، وقال رسول الله ﷺ: «إنّ هذه الشاة تخبرني أنّها مسمومة»، ثم دعا المرأة فاْعترفت فقال: «ما حملك على ذلك»؟ قالت: بلغتَ من قومي ما لم يَخْفَ عليك، فقلت: إنْ كان نبيًّا فسيخبَر، وإنْ كان ملكًا استرحنا منه. فتجاوز عنها، ومات بشر بن البراء من تلك الأكلة، وقال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «هذا الأوان وجدت انقطاع أبهري من أكلة خيبر»، فكان المسلمون يرون أنه مات شهيدًا مع كرامة النبوّة.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالي فاْفتتحه عنوةً، وفي حصاره قتل مدعم مولى رسول الله ﷺ الذي أهداه له رفاعة بن زيد الجذامي، فقال المسلمون: هنيئًا له الجنّة، فقال رسول الله ﷺ: «كلّا والذي نفس محمّد بيده، إنّ شملته الآن لتشتعل عليه نارًا»، وكان غلّها من فِي المسلمين يوم خيبر، فسمعه رجل فأتاه فقال: يا رسول الله أصبت شراكين لنعلين لي كنت أخذتهما، فقال رسول الله ﷺ: «يقدّ لك مثلهما من النار»، وترك رسول الله ﷺ النخل والأرض في أيدي أهل الوادي وعاملهم نحو ما عامل أهل خيبر، فبقوا كذلك إلى أن وَلِيَ عمر الخلافة، فأجلاهم، وقيل: إنه لم يجلهم لأنها خارجة عن الحجاز.

وفي هذه السفرة ـ أعني خيبر ـ نام رسول الله ﷺ عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس، والقصّة مشهورة.

وشهد معه نساء من نساء المسلمين، فرضخ لهنّ من الفَيْء[2].

وفي هذه السفرة، قال الحجاج بن علاط السلمي لرسول الله ﷺ: إنّ لي بمكّة مالاً عند صاحبتي أمّ شيبة ابنة أبي طلحة، وهي أمّ ابنه معرض بن الحجاج ومال متفرّق في تجار مكّة، فأذن لي يا رسول الله، فأذن له فقال: إنّه لا بدّ من أنْ أقول.

---

(١) أي: مشوية.

(٢) أي أعطاهنّ أقل من سهم الرجل بما يرضيهنّ.

قال: قُلْ، فقدم الحجاج مكّة فسأله أهل مكة عن رسول الله ﷺ وما صنع بخيبر ولم يكونوا علموا بإسلامه فقال لهم: إن يهود هزمته وأصحابه وقُتِل أصحابه قتلاً ذريعًا وأُسر محمّد، وقالت يهود: لن نقتله حتى نبعث به إلى مكّة فيقتلوه بين أظهرهم، فصاحوا بمكّة بذلك، فقال: أعينوني في جمع مالي حتى أقدم خيبر فأصيب من فلّ محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار، فجمعوه كلّه كأحثّ شيء، فأتاه العباس وسأله عن الخبر فأخبره بعد أن جمع ماله بفتح خيبر وأن النبيّ ﷺ أخذ صفية بنت حييّ لنفسه وأنه قدم لجمع ماله وسأله أن يكتم عنه ثلاثًا خوف الطلب، فكتم العباس الخبر ثلاثًا بعد مسيره ثم لبس حلّة له وتخلّق وأخذ عصاه وخرج فطاف بالكعبة فلما رأته قريش، قالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة، قال: كلّا والله لقد اُفتتح محمّد خيبر وأخذ اَبنة ملكهم وأحرز أموالهم، وأخبرهم بخبر الحجاج، فقالوا: لو علمنا لكان له ولنا شأن.

وقسم من أموال خيبر الشقّ ونطاة بين المسلمين، وكانت الكتيبة خُمس الله والرسول وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فطعم أزواج النبيّ ﷺ وطعم رجال مشوا بين رسول الله وبين أهل فَدَك بالصلح، وقسمت خيبر على أهل الحديبية، فأعطى الفرس سهمين والرجل سهمًا، وأقرّ النبيّ ﷺ أهل خيبر بخيبر، وأبو بكر بعده، وعمر صَدْرًا من إمارته حتى بلغه أنّ النبيّ ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «لا يجتمع بجزيرة العرب دينان».

فأجلى عمر من يهود من لم يكن معه عهد من رسول الله ﷺ.

١٨ ـ يوم مؤتة

كانت في جمادى الأولى من سنة ثمان، واستعمل رسول الله ﷺ عليهم زيد بن حارثة وقال: إنْ أصيب زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب، فإنْ أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة.

فقال جعفر: ما كنت أرهب أن تستعمل عليّ زيدًا، فقال: «اَمضِ فإنك لا تدري أيّ ذلك خير»، فبكى الناس وقالوا: هلّا متعتنا بهم يا رسول الله، فأمسك ـ وكان إذا قال: فإن أصيب فلان فالأمير فلان أصيب كل من ذكره ـ فتجهّز الناس وهم ثلاثة آلاف وودعهم رسول الله ﷺ والناس، فلما ودَّع عبد الله بن رواحة بكى عبد الله، فقال له الناس: ما يبكيك؟

فقال: ما بي حبّ الدنيا ولا صبابةٌ لكم، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية وهي: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: الآية ٧١]، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله وردّكم إلينا سالمين. فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمٰن مغفرة ... وضربة ذات فرع[1] تقذف الزبدا
أو طعنةً بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مرّوا على جدثي[2] ... يا أرشد اللّه من غاز وقد رشدا

فلما ودعهم رسول الله ﷺ وعاد، قال عبد الله:

خلف السلام على امرئ ودعته ... في النخل خير مشيّع وخليل

ثم ساروا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغهم أن هِرقل سار إليهم في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة، من لخم وجذام وبلقين، وبلى عليهم رجل من بلى يقال له: مالك بن رافلة، ونزلوا مآب من أرض البلقاء، فأقام المسلمون بمعان ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره الخبر وننتظر أمره، فشجّعهم عبد الله بن رواحة على المضيّ، وقال: يا قوم والله إنّ التي تكرهون للتي خرجتم إياها تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فأنطلِقُوا فما هي إلّا إحدى الحسنيين، إمّا ظهور وإمّا شهادة.

فقال الناس: صدق والله، وساروا وسمعه زيد بن أرقم ـ وكان يتيمًا في حجره وقد أردفه في مسيره ذلك على حقيبته ـ وهو يقول:

إذا أدّيتني وحملت رحلي ... مسيرة أربع بعد الحساء[3]
فشأنك فانعمي وخلاك ذم[4] ... ولا أرجع إلى أهلي وراء
وجاء المسلمون وغادروني ... بأرض الشام مشهور الثواء[5]
وردك كل ذي نسب قريب ... من الرحمٰن منقطع الأخاء
هنالك لا أبالي طلع بعل ... ولا نخل أسافلها رواء

---

(١) ذات فرع: أي ذات سعة.
(٢) الجدث: القبر.
(٣) ماء يغور من الرمل وإذا بحث عنه وجد.
(٤) أي فارقك الذم فلست له بأهل.
(٥) الثواء: الإقامة.

فلما سمعها زيد بكى، فخفقه بالدرة وقال: ما عليك يا لكع[١]؟ يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرحل.

ثم ساروا فالتقتهم جموع الروم والعرب بقرية من البلقاء يقال لها: مشارف، ثم دنى العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة، فالتقى الناس عندها وتعبأوا، وكان على ميمنة المسلمين قطبة بن قتادة العذري، وعلى ميسرتهم عَباية بن مالك الأنصاري، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط[٢] في رماح القوم، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل بها، وهو يقول:

يا حبّذا الجنّة واقترابها   طيبة وباردًا شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إذ لاقيتها ضرابها

فلمّا اشتدّ القتال اقتحم عن فرسٍ له شقراء فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قُتِلَ، وكان جعفر أوّل من عقر فرسه في الإسلام، فوجدوا به بضعًا وثمانين بين رمية وضربة وطعنة.

فلما قُتل أخذ الراية عبد الله بن رواحة، ثم تقدم فتردّد بعض التردّد، ثم قال يخاطب نفسه:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنّه   طائعة أو لا لتكرهنّه
إن أجلب الناسُ وشدوا الرنه[٣]   ما لي أراك تكرهين الجنّه
قد طالما قد كنت مطمئنّه   هل أنتِ إلّا نطفة في شنّه[٤]

وقال أيضًا:

يا نفس إن لم تقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليتي
وما تمنّيت فقد أعطيتي   إنْ تفعلي فعلهما هديتي

---

(١) لُكع: لئيم.   (٢) أي: هلك.
(٣) الرنّة: صوت فيه ترجيع شبه البكاء.
(٤) النطفة: الماء القليل الصافي، والشنّة القِربة القديمة.

ثم نزل عن فرسه وأتاه ابن عمٍّ له بعرق[1] من لحم، فقال له: شدّ بهذا صلبك فقد لقيت أيّامك هذه ما لقيت.

فأخذه فانتهس[2] منه نهسة، ثم سمع الحطمة[3] في ناحية العسكر، فقال لنفسه: وأنتِ في الدنيا.

ثم ألقاه وأخذ سيفه وتقدم فقاتل حتى قُتِلَ، واشتدّ الأمر على المسلمين، وكلب عليهم العدوّ وقد كان قطبة بن قتادة قَتَل قبل ذلك مالك بن رافلة قائد المستعربة، ثم إن الخبر جاء من السماء في ساعته إلى النبيّ ﷺ، فصعد المنبر وأمر فنوديَ: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فقال: ثار خبر ثلاثًا عن جيشكم هذا الغازي إنهم لقوا العدوّ فقُتِلَ زيد شهيدًا فاستغفر له، ثم أخذ اللواء جعفر فشدّ على القوم حتى قُتِلَ شهيدًا فاستغفر له، ثم أخذ اللّواء عبد الله بن رواحة وصمت حتى تغيَّرتْ وجوهُ الأنصار، وظنّوا أنه قد كان من عبد الله ما يكرهون، ثم قال رسول الله ﷺ: «فقاتل القوم حتى قُتِلَ شهيدًا»، ثم قال: «لقد رُفِعُوا إلى الجنّة على سُرُرٍ من ذهب، فرأيتُ في سرير ابن رواحة ازورارًا عن سريري صاحبيه، فقلت: عمّ هذا؟

فقيل: مضيا وتردّد بعض التردّد، ثم مضى، ولما قُتِلَ ابن رواحة أخذ الراية ثابت بن أرقم الأنصاري، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجلٍ منكم. فقالوا: رضينا بك، فقال: ما أنا بفاعل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد فأخذ الراية ودافع القوم وانحازوا عنه، فقال رسول الله ﷺ: ثم أخذ سيفٌ من سيوف الله خالد بن الوليد فعاد بالناس، فمن يومئذ سمّي خالد سيف الله.

وقال رسول الله ﷺ: مَرّ بي جعفر البارحة في نفرٍ من الملائكة له جناحان مخضب القوادم بالدم، قالت أسماء: أتاني النبيّ ﷺ وقد فرغت من اشتغالي وغسلت أولاد جعفر ودهنتهم فأخذهم وشمهم ودمعت عيناه، فقلت: يا رسول الله أبلغك عن جعفر شيء؟ قال: نعم أُصيب هذا اليوم. ثم عاد إلى أهله فأمرهم أن يصنعوا لآل جعفر طعامًا، فهو أوّل ما عمل في دين الإسلام، قالت أسماء بنت عُميس: فقمت أصنع واجتمع إليّ النساء، فلما رجع الجيش ودنا من المدينة لقيهم رسول الله ﷺ والمسلمون، فأخذ عبد الله بن جعفر فحمله بين يديه، فجعل الناس يحثون التراب

---

(١) العرق: العظم الذي عليه بعض اللحم.	(٢) أي أخذ منه بفمه يسيرًا.
(٣) أي دوس الناس بعضهم بعضًا.

على الجيش ويقولون: يا فُرّار في سبيل الله، ويقول رسول الله ﷺ: ليسوا بالفرّار ولكنهم الكرّار إن شاء الله تعالى.

١٩ ـ يوم ذات السلاسل(١)

أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى أرض بلي وعذرة يدعو الناس إلى الإسلام، وكانت أُمّه من بلي، فتألّفهم رسول الله ﷺ بذلك فسار حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل، وبه سمّيت تلك الغزوة ذات السلاسل، فلمّا كان به خاف، فبعث إلى النبيّ ﷺ يستمدّه، فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأوّلين فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عُبيدة حين وجّهه: لا تختلفا؛ فخرج أبو عبيدة فلما قدم عليه قال عمر: وإنما جئتَ مددًا إليّ، فقال له أبو عُبيدة: يا عمرو إنّ رسول الله ﷺ قال: لا تختلفا، فإن عصيتني أطعتُك، قال: فأنا أميرٌ عليك، قال: فدونك، فصلّى عمرو بن العاص بالناس.

٢٠ ـ يوم الخبط(٢)

وفيها كانت غزوة الخبط، وأميرهم أبو عُبيدة بن الجراح في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وكانت في رجب، وزوّدهم رسول الله ﷺ جرابًا من تمر، فكان أبو عبيدة يقبض لهم قبضة ثم تمرة تمرة، فكان أحدهم يلوكها ويشرب عليها الماء إلى الليل، فنفذ ما في الجراب فأكلوا الخبط وجاعوا جوعًا شديدًا، فنحر لهم قيس بن سعد بن عبادة تسع جزائر فأكلوها فنهاه أبو عبيدة، فانتهى.

ثم إن البحر ألقى إليهم حوتًا ميّتًا فأكلوا منه حتى شبعوا، ونصب أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه فيمرّ الراكب تحته، فلما قدموا المدينة ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ، فقال: «كلوا رزقًا أخرجه الله لكم»، وأكل منه رسول الله ﷺ، وذكروا صنيع قيس بن سعد، فقال: «إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت».

٢١ ـ يوم فتح مكّة(١)

أقام رسول الله ﷺ بعد غزوة مؤتة جمادى الآخرة ورجب، ثم إن بني بكر بن عبد مناة عَدَتْ على خزاعة وهم على ماءٍ لهم بأسفل مكّة يقال له: الوتير، وكانت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، وبكر في عهد قريش في صلح الحديبية، وكان سبب

---

(١) سنة ٨ من الهجرة. (٢) في رجب سنة ٨ من الهجرة.

ذلك أنّ رجلاً من بني الحضرمي اسمه مالك بن عباد وكان حليفًا للأسود بن رزن الدّيلي ثم البكري في الجاهلية خرج تاجرًا، فلمّا كان بأرض خزاعة قتلوه وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجلٍ من خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة على بني الأسود بن رزن وهم سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة عند أنصباء الحرم، وكانوا من أشراف بني بكر؛ فبينما خزاعة وبكر على ذلك جاء الإسلام واشتغل الناس به، فلمّا كان صُلح الحديبية ودخلت خزاعة في عهد النبيّ ﷺ ودخلت بكر في عهد قريش اغتنمت بكر تلك الهدنة وأرادوا أن يُصيبوا من خزاعة ثأرهم بقتل بني الأسود، فخرج نوفل بن معاوية الدّيلي بمن تبعه من بكر حتى بيت خزاعة على ماء الوتير، وقيل: كان سبب ذلك أنّ رجلاً من خزاعة سمع رجلاً من بكر ينشد هجاء النبيّ ﷺ فشجّه، فهاج الشرّ بينهم وثارت بكر بخزاعة حتى بيّتوهم بالوتير. وأعانت قريش بني بكر على خزاعة بسلاحٍ ودوابٍّ، وقاتل معهم جماعة من قريش مختفين، منهم: صفوان بن أُميّة، وعكرِمة بن أبي جهل، وسهل بن عمرو مع عيرهم وعبيدهم؛ فانحازت خزاعة إلى الحرم وقتل منهم نفر، فلما دخلت خزاعة الحرم، قالت بكر: يا نوفل إنّا قد دخلنا الحرم إلـٰهك إلـٰهك، فقال: كلمة عظيمة لا إلـٰه له اليوم؛ يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرفون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

فلما نقضت بكر وقريش العهد الذي بينهم وبين النبيّ ﷺ بما استحلّت من خزاعة، خرج عمرو بن سالم الخزاعي ثم الكعبي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظهراني الناس، ثم قال:

يـا ربّ إنـي نـاشـدٌ مـحـمّـدا ... حِـلْفَ أبـيـنـا وأبـيـه الأتـلدا
فـوالـدًا كـنّـا وكـنـت ولـدا ... ثـمـت أسـلـمـنـا فـلم نـنـزع يـدا
فـانـصـر رسول الـلّه نـصرًا أعـتدا ... وادع عـبـاد الـلّه يـأتـوا مـددا
فـيـهـم رسـول الـلّه قـد تـجـرّدا ... أبـيـض مـثـل الـيـد تـنـمـي صـعـدا
إن شِـيـم خـسـفًـا وجـهـه تـربّـدا ... في فـيلقٍ كـالـبـحـر يـجـري مـزبـدا
إنّ قـريـشًـا أخـلـفـوك الـمـوعـدا ... ونـقـضـوا مـيـثـاقـك الـمـؤكّـدا
وجـعـلـوا لـي فـي كـداء رصـدا ... وزعـمـوا أنْ لـسـت أدعـو أحـدا
وهـــم أذلُّ وأقـــلُّ عـــددا ... هـم بـيّـتـونـا بـالـوتـيـر هـجـدا
وقـتـلـونـا ركّـعًـا وسُـجّـدا

فقال رسول الله ﷺ: «قد نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم».

ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء، فقال: إنّ هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب، وكان بين عبد المطّلب وخزاعة حلفٌ قديم، فلهذا قال عمرو بن سالم: حلف أبينا وأبيه الأتلدا، ثم خرج بديل بن ورقاء في نفرٍ من خزاعة حتى قدموا على النبيّ ﷺ المدينة فنادوه وهو يغتسل، فقال: يا لبيكم، وخرج إليهم فأخبروه الخبر ثم انصرفوا راجعين إلى مكّة، وكان رسول الله ﷺ قد قال للناس: كأنّكم بأبي سفيان قد جاء ليجدّد العهد خوفًا ويزيد في المُدَّة، ومضى بديل فلقي أبا سفيان بعسفان يريد النبيّ ﷺ ليجدّد العهد خوفًا منه، فقال لبُدَيْل: من أين أقبلت؟

قال: من خزاعة في الساحل وبطن هذا الوادي، قال: أوَ ما أتيت محمّدًا؟ قال: لا، فقال أبو سفيان لأصحابه لما راح بديل: أنظروا بَعْر ناقته، فإنْ جاء المدينة لقد علف النوى، فنظروا بعر الناقة فرأوا فيه النوى؛ ثم خرج أبو سفيان حتى أتى النبيّ ﷺ فدخل على ابنته أمّ حبيبة زوج النبيّ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ طَوَتْه عنه، فقال: ما أدري أرغبتِ به عنّي أم رغبت بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس، فلم أحبّ أن تجلس عليه. فقال: لقد أصابك يا بنيّة بعدي شر، فقالت: بل هداني الله للإسلام.

ثم خرج حتى أتى للنبيّ ﷺ فكلّمه فلم يردّ عليه شيئًا، ثم أتى أبا بكر فكلّمه ليكلّم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر فكلّمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ، والله لو لم أجد إلّا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج حتى أتى عليًّا وعنده فاطمة والحسن غلام يدبّ بين يديها فكلّمه في ذلك، فقال له: والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمرٍ لا نستطيع أن نُكلّمه فيه.

والتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا أنْ يجير بين الناس فيكون سيّد العرب؟

فقالت: ما بلغ ابني أن يجير بين الناس وما يجير على رسول الله أحد، فألتفت إليّ عليّ فقال له: أرى الأمور قد اشتدّت عليّ فانصحني، قال: أنت سيّد كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيُّها الناس قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره وقدم مكة وأخبر قريشًا ما جرى له وما أشار به عليّ عليه، فقالوا له: والله ما زاد على أنْ يسخر بك، ثم إن رسول الله ﷺ تجهّز

وأمر الناس بالتجهّز إلى مكّة، وقال: «اللّهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها[١] في بلادها».

فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش يعلمهم الخبر وسيّره مع امرأة من مزينة اسمها كنود، وقيل: مع سارة مولاة لبني المطّلب تعلمهم الخبر وسيّره معها، فأرسل رسول الله ﷺ عليًا والزبير فأدركاها بالحليفة، وأخذا منها الكتاب وجاءا به إلى رسول الله ﷺ، فأحضر حاطبًا وقال له: ما حملك على هذا؟

فقال: والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما بدّلت ولا غيّرت، ولكن لي بين أظهرهم أهل وولد وليس لي عشيرة فصانعتهم عليهم، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنقه، فإنه قد نافق؛ فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعلّ الله قد اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم».

وأنزل الله في حاطب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ١] إلى آخر الآية.

ثم مضى رسول الله ﷺ واستخلف على المدينة أبا رُهْم كلثوم بن حصين الغفاري، وخرج لعشرٍ مضين من رمضان وفتح مكّة لعشرٍ بقين منه، فصام حتى بلغ ما بين عسفان وأمج، فأفطروا واستوعب معه المهاجرون والأنصار، فسبعت[٢] سليم وألفت[٣] مُزَيْنة وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأدركه عُيَيْنة بن حصن الفزاري بالعرج، والأقرعُ بن حابس بالسقيا، ولقيه العباس بن عبد المطلب بالجُحْفَة ـ وقيل: بذي الحُلَيْفة ـ مُهاجرًا، فأمره رسول الله ﷺ أنْ يرسل رحله إلى المدينة ويعود معه، وقال له: «أنت آخر المهاجرين، وأنا آخر الأنبياء».

ولقيه أيضًا مخرمة بن نوفل، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب، وعبد الله بن أبي أُميّة بنقب العقاب، فالتمسا الدخول على رسول الله ﷺ وكلّمته أُمّ سلمة فيهما، وقالت له: ابن عمّك، وابن عمّتك، وصِهْرُك.

قال: لا حاجة لي بهما، أمّا ابن عمي فهَتَك عِرْضي، وأمّا ابن عمّتي وصهري فهو الذي قال بمكّة ما قال.

---

(١) أي آتيها على حين غفلة. (٢) أي بلغت سبعمائة.
(٣) أي بلغت ألفًا.

فلمّا سمعا ذلك، وكان مع أبي سفيان ابن له اسمه جعفر، قال: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رَقَّ لهما فأذن لهما فدخلا عليه فأسلما.

وقيل: إنّ عليًا قال لأبي سفيان بن الحارث: ائتِ رسول الله ﷺ من قِبَلَ وجهه، فقال له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩١]، فإنّه يرضى أن يكون أحد أحسن منه فعلاً ولا قولاً.

ففعل ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٢]، وقرَّبَهُمَا فأسلما، وأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما مضى:

لعمرك إنّي يوم أحمل رايةً ... لتغلب خيلُ اللّات خيلَ محمّد
لكا لمدلج[1] الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أهدي وأهتدي
وهاد هداني غير نفسي ونالني ... مع اللّه من طردته كل مطرد[2]

الأبيات. فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «أنت طردتني كل مطّرد»!

وقيل: إنّ أبا سفيان لم يرفع رأسه إلى النبيّ ﷺ حياءً منه، وقدم رسول الله ﷺ مَرّ الظهران في عشرة آلاف: فارس من بني غفار أربعمائة، ومن مزينة ألف وثلاثة نفر، ومن بني سليم سبعمائة، ومن جُهَيْنَة ألف وأربعمائة، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف من العرب، ثم من تميم، وأسد، وقيس؛ فلما نزل مرَّ الظهران قال العباس بن عبد المطّلب: «يا هلاك قريش، والله لَئِنْ بغتها رسول الله ﷺ في بلادها فدخل عنوةً إنّه لهلاك قريش إلى آخر الدّهر».

فجلس على بغلة النبيّ ﷺ وقال: أخرج إلى الأراك لعلّي أرى حَطّابًا أو رجلًا يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتونه ويستأمنونه، قال: فخرجتُ أطوف في الأراك إذ سمعتُ صوت أبي سفيان وحكيم بن حِزَام وبُدَيْل بن ورقاء الخزاعي قد خرجوا يتجسّسون الخبر، فقال أبو سفيان: ما رأيت نيرانًا قطّ أكثر من هذه.

---

(١) المدلج: من أدلج، أدلج القوم إذا ساروا من أوّل الليل.
(٢) وقد زاد ابن هشام في سيرته أبياتًا خمسة بعدها.

فقال بُدَيْل: هذه نيران خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة أذلّ من ذلك، فقلتُ: يا أبا حنظلة ـ يعني أبا سفيان كان يكنى بذلك ـ فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: لبّيك فداك أبي وأمّي ما وراءك؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ في المسلمين أتاكم في عشرة آلاف، قال: ما تأمرني؟ قلت: تركب معي فأستأمن لك رسول الله ﷺ، فوالله لئن ظَفَرَ بك ليضربنَّ عنقك.

فردفني فخرجت أركض به نحو رسول الله ﷺ، فكلما مررتُ بنارٍ من نيران المسلمين ونظروا إليّ يقولون: عمّ رسول الله على بغلة رسول الله حتى مررنا بنار عمر بن الخطّاب فقال: أبو سفيان! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد!

ثم اشتدّ نحو النبيّ ﷺ وركضت البغلة فسبقت عمر، ودخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره وقال: دعني أضرب عنقه.

فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم أخذتُ برأس رسول الله ﷺ وقلت: لا يناجيه اليوم أحدٌ دوني، فلما أكثر فيه عُمَر قلت: مهلاً يا عمر، فوالله ما تصنع هذا إلّا أنّه رجلٌ من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي ما قلتَ هذه المقالة. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمتَ كان أحبَّ إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله ﷺ: اذهب فقد أمَّنّاه حتى تغدو عليَّ به بالغداة.

فرجعت به إلى منزلي، فلما أصبح غدوتُ به على رسول الله ﷺ فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أنْ تعلم أنْ لا إلٰه إلّا الله؟! قال: بلى بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئًا. فقال: ألم يَأْنْ لك أنْ تعلم أني رسول الله؟! فقال: بأبي أنت وأُمّي أمّا هذه ففي النفس منها شيء، قال العباس: فقلت له: ويحك اشهد شهادة الحقّ قبل والله أنْ تُضْرَبَ عنقك. قال: فتَشَهَّدَ وأسلم معه حكيم بن حِزَام وبُدَيْل بن ورقاء، فقال رسول الله ﷺ للعباس: اذهب فاحبس أبا سفيان عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمرّ عليه جنود الله. فقلت: يا رسول الله إنه يحب الفخر فاجعل له شيئًا يكون في قومه، فقال: نعم، مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حِزَام فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، قال: فخرجت به فحبسته عند خطم الجبل فمرّت عليه القبائل، فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: أسلم، فيقول: ما لي ولأسلم، ويقول: من هؤلاء؟ فأقول: جُهَيْنَة، فيقول: ما لي ولجهينة.

حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء مع المهاجرين والأنصار في الحديد لا يُرَى منهم إلّا الحدق، فقال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. فقال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيمًا، فقلت: ويحك إنّها النبوّة. فقال: نعم إذن، فقلت: ألحق بقومك سريعًا فحذِّرْهُم.

فخرج حتى أتى مكّة ومعه حكيم بن حزام فصرخ في المسجد: يا معشر قريش هذا محمّد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به.

فقالوا: فما قال؟ قال: من دخل داري فهو آمِنٌ، قالوا: ويحك وما تُغْنِي عنّا دارك؟ فقال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ثم قال: يا معشر قريش أسْلِمُوا تَسْلَموا.

فأقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته، وقالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق، فقال: أرسلي لحيتي وأُقسم لَئِنْ لم تُسْلِمي أنتِ لتضربنّ عنقك اُدخلي بيتك، فتركته.

وبعث رسول الله ﷺ في أثرهما الزبير وأمره أنْ يَدْخُل ببعض الناس من كداء وكان على الجنبة اليسرى، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل ببعض الناس من كدى، فقال سعد حين وَجَّهه: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلّ الكعبة.

فسمعها رجلٌ من المهاجرين، فأعلم رسول الله ﷺ، فقال لعليّ بن أبي طالب: أدْرِكْهُ فخذ الراية منه وكنت أنت الذي تدخل بها.

وأمر خالد بن الوليد أنْ يدخل من أسفل مكة من الليط في بعض الناس، وكان معه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب ـ وهو أوّل يوم أمَّر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ـ ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ذي طوّى وقف على راحلته وهو معتجر[1] بشقّة بُرْدٌ حبرة أحمر وقد وضع رأسه تواضعًا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى أنّ أسفل لحيته لتمسّ واسطة الرحل، ثم تقدم ودخل من أذاخر بأعلاها وضربت قبّته هناك، وكان عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُميّة، وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناسًا بالخندمة ليقاتلوا ومعهم الأحابيش، وبنو بكر، وبنو الحارث بن عبد مناة، فلقيهم خالد بن الوليد فقاتلهم فقُتِلَ من المسلمين جابر بن جبيل الفهري،

(١) الاعتجار لفّ الرأس بعمامة ورد طرفها على وجهه.

وحبيش بن خالد وهو الأشعر الكعبي، ومسلمة بن الميلاء، وقُتِلَ من المشركين ثلاثة عشر رجلًا ثم انهزم المشركون، وكان مع عكرمة حماس بن قيس، وكان قد قال لامرأته: لآتينك بخادم من أصحاب محمّد، فلمّا عاد إليها منهزمًا قال لها: أغلقي عليّ بابي، قالت له تستهزئ به: أين الخادم؟ فقال:

إنك لو شهدتِ يوم الخندمه ... إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالموتمه[1] ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجُمجمه ... ضربًا فلا تسمع إلّا غمغمه
لهم نهيت[2] خلفنا وهمهمه ... لم تنطقي في اللّوم أدنى كلمه

أبو يزيد هذا ـ هو سهيل بن عمرو ـ وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى امرأته أن لا يقتلوا أحدًا إلّا من قاتلهم، فلما انهزم المشركون وأراد المسلمون دخول مكّة، قام في وجوههم نساء مشركات يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر[3]، وقد نشرن شعورهنّ، فرآهنّ رسول الله ﷺ وإلى جنبه أبو بكر، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: يا أبا بكر، كيف قال حسان؟ فأنشده:

تكاد جيادنا مستمطرات ... يلطمهنّ بالخُمُرِ النساء

وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل ثمانية رجال وإنْ وُجِدُوا تحت أستار الكعبة، وأربع نسوة. فأمّا الرجال فمنهم: عكرمة بن أبي جهل، كان يشبه أباه في إيذاء رسول الله ﷺ وعداوته والإنفاق على محاربته، فلما فتح رسول الله ﷺ مكّة خافه على نفسه، فهرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام فأستأمنت له وخرجت في طلبه ومعها غلام لها رومي فراودها عن نفسها فأطعمته ولم تمكّنه حتى أتت حيًّا من العرب فاستعانتهم عليه فأوثقوه وأدركت عكرمة وهو يريد ركوب البحر، فقالت: جئتك من عند أوصل الناس وأحلمهم وأكرمهم، وقد أمَّنَك فرجع وأخبرته خبر الرومي فقتله قبل أن يُسلم، فلما قَدِمَ على رسول الله ﷺ سُرَّ به فأسلم، وسأل رسول الله ﷺ أن يستغفره له فاستغفر.

---

(١) أي من كداء فقد جاء في بعض الروايات أنه قيل: يا رسول الله من أين تدخل مكّة؟ قال: من حيث أشار حسان بن ثابت.
(٢) النهيت: فوق الزحير ونوع من الزئير.
(٣) الخمر: جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها وصدرها.

ومنهم صفوان بن أُمية بن خلف، وكان أيضًا شديدًا على النبيّ ﷺ، فهرب خوفًا منه إلى جُدَّة، فقال عمير بن وهب الجمحي: يا رسول الله إن صفوان سيِّد قومي، وقد خرج هاربًا منك فأمِّنه، قال: هو آمِن، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكّة ليعرف بها أمانه.

فخرج بها عمير فأدركه بجُدة فأعلمه بأمانه، وقال: إنّه أحلم الناس وأوصلهم وإنّه ابن عمّك وعِزُّهُ عزّك وشرفه شرفك. قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك.

فرجع صفوان وقال لرسول الله ﷺ: إنّ هذا يزعم أنك أمّنتني.

قال: صدق، قال: أجعلني بالخيار شهرين، قال: أنت فيه أربعة أشهر، فأقام معه كافرًا، وشهد معه حنينًا والطائف ثم أسلم وحَسُنَ إسلامه وتوفي بمكّة عند خروج الناس إلى البصرة ليوم الجمل.

ومنهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي، وكان قد أسلم وكتب الوحي إلى رسول الله ﷺ، فكان إذا أملى عليه «عزيز حكيم» يكتب «عليم حكيم» وأشباه ذلك، ثم ارتدّ وقال لقريش: إني أكنت أحرف محمّد في قرآنه حيث شئت، ودينكم خيرٌ من دينه، فلمّا كان يوم الفتح فرّ إلى عثمان بن عفان، وكان أخاه من الرّضاعة فغيّبه عثمان حتى اطمأنّ الناس، ثم أحضره عند رسول الله ﷺ وطلب له الأمان، فصمتَ رسول الله ﷺ طويلاً ثم آمّنه فأسلم وعاد، فلما انصرف قال رسول الله ﷺ لأصحابه: لقد صمتُ ليقتله أحدكم، فقالوا: هَلّا أومأت إلينا؟ فقال: ما كان للنبيّ أن يقتل بالإشارة، إنّ الأنبياء لا يكون لهم خائنة الأعين.

ومنهم عبد الله بن خطل، وكان قد أسلم فأرسله رسول الله ﷺ مصدّقًا ومعه رجل من الأنصار وغلام له روميّ قد أسلم، فكان الرومي يخدمه ويصنع له الطعام فنسي يومًا أنْ يصنع له طعامًا فقتله وأرتدّ، وكان له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فقتله سعيد بن حريث المخزومي أخو عمرو بن حريث وأبو برزة الأسلمي اشتركا في دمه.

ومنهم الحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصي، وكان يؤذي رسول الله ﷺ بمكّة، وينشد الهجاء فيه، فلمّا كان يوم الفتح هرب من بيته فلقيه عليّ بن أبي طالب فقتله.

ومنهم مِقيس بن صُبابة، وإنما أمر بقتله لأنه قتل الأنصاري الذي قتل أخاه هشامًا خطأً وارتدّ، فلما انهزم أهل مكّة يوم الفتح اختفى بمكان هو وجماعة وشربوا الخمر، فعلم به نميلة بن عبد الله الكلبي فأتاه فضربه بالسيف حتى قتله.

ومنهم عبد الله بن الزِّبَعرى السهمي، وكان يهجو رسول الله ﷺ بمكّة ويعظم القول فيه، فهرب يوم الفتح هو وهبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أمّ هانئ بنت أبي طالب إلى نجران، فأمّا هُبيرة فأقام بها مشركًا حتى هلك، وأمّا الزِّبَعرى فرجع إلى رسول الله ﷺ واعتذر فقبل عذره، فقال حين أسلم:

يا رسول المليك إنّ لساني | راتق ما فتقت إذ أنا بور[1]
إذ أباري الشيطان في سنن الغـ | ـيّ ومن نال مثله مثبور
آمن اللحمُ والعظام بربّي | ثم نفسي الشهيد أنت النذير

في أشعار له كثيرة يعتذر فيها.

ومنهم وحشيُّ بن حرب قاتل حمزة، فهرب يوم الفتح إلى الطائف، ثم قدم في وفد أهله على رسول الله ﷺ وهو يقول: أشهد أن لا إلـٰه إلّا الله وأشهد أنّ محمدًا رسول الله، فقال النبيّ ﷺ: أَوَحْشِيّ؟ قال: نعم.

قال: أخبرني كيف قتلت عمّي؟ فأخبره فبكى، وقال: غَيِّبْ وجهك عنّي.

وهو أوّل من جُلِدَ في الخمر، وأوّل من لبس المعصفر المصقول في الشام.

وهرب حُوَيْطِب بن عبد العزّى فرآه أبو ذرّ في حائط فأخبر النبيّ ﷺ بمكانه، فقال: أوَ ليس قد أمنّا الناس، إلّا من قد أمرنا بقتله؟ فأخبره بذلك فجاء إلى النبيّ ﷺ فأسلم.

قيل: إنه دخل يومًا على مروان بن الحكم وهو على المدينة، فقال له مروان: يا شيخ تأخّر إسلامك، فقال: قد هممت به غير مرّة، فكان يصدّني عنه أبوك.

وأمّا النساء، فمنهنّ: هند بنت عُتْبَة، وكان رسول الله ﷺ أمر بقتلها لما فعلت بحمزة، ولما كانت تؤذي رسول الله ﷺ بمكة فجاءت إليه مع النساء متخفّية فأسلمتْ وكسرتْ كل صنم في بيتها، وقالت: لقد كنّا منكم في غرور، وأهدت إلى رسول الله ﷺ جديين، واعتذرت من قِلّة ولادة غنمها فدعا لها بالبركة في غنمها

---

(١) البور: الهالك.

فكثرتْ، فكانت تهب وتقول: هذا من بركة رسول الله ﷺ، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام.

ومنهنّ سارة، .وهي مولاة عمرو بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف، وهي التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة في قول بعضهم؛ وكانت قَدِمَتْ على رسول الله ﷺ مسلمة فوصلها فعادت إلى مكّة مرتدّة، فأمر بقتلها فقتلها عليُّ بن أبي طالب.

ومنهنّ: قينتا عبد الله بن خطل وكانتا تغنّيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر بقتلهما، فقتلت إحداهما واسمها قريبة وفرّت الأخرى وتنكّرتْ وجاءت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت وبقيت إلى خلافة عمر بن الخطاب فأوطأها رجلٌ فرسه خطأ فماتت. وقيل: بقيت إلى خلافة عثمان فكسر رجل ضلعًا من أضلاعها خطأ، فماتت فأغرمه عثمان ديَّتها.

ولما دخل رسول الله ﷺ مكّة كانت عليه عمامة سوداء، فوقف على باب الكعبة وقال: «لا إلٰه إلّا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ألَا كل دم أو مأثرة أو مال يدّعى فهو تحت قدميّ هاتين إلّا سِدَانَة البيت وسقاية الحاج».

ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أنّي فاعلٌ بكم»؟ قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، قال: «اْذهبوا فأنتم الطُّلَقاء».

فعفا عنهم، وكان الله قد أمكنه منهم، وكانوا له فيئًا،فلذلك سمّي أهل مكة «الطُّلقاء».

٢٢ ـ يوم هوازن بحنين[1]

وسببه أنّه لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله من مكّة جمعها مالك بن عوف النصري من بني نصر بن معاوية بن بكر، وكانوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله ﷺ بعد فتح مكّة، وقالوا: لا مانع له من غزونا والرأي أن نغزوه قبل أنْ يغزونا، واجتمع إليه ثقيف يقودها قارب بن الأسود بن مسعود سيّد الأحلاف، وذو الخمار سبيع بن الحارث، وأخوه الأحمر بن الحارث سيّد بني مالك ولم يحضرها من

(١) في شوّال سنة ٨ من الهجرة.

قيس عيلان إلّا نصر، وجُشم، وسعد بن بكر وناس من بني هلال، ولم يحضرها كعب ولا كلاب، وفي جشم دريد بن الصُمَّة شيخ كبير ليس فيه شيء إلّا التيمّن برأيه ومعرفته بالحرب وكان شيخًا مجرّبًا، فلما أجمع مالك بن عوف المسير إلى رسول الله ﷺ حطَّ مع الناس أموالهم ونساءهم، فلما نزلوا أوطاس جمع الناس وفيهم دريد بن الصمّة، فقال دريد: بأي وادٍ أنتم؟ فقالوا: بأَوْطَاس[1]، قال: نِعْمَ مجال الخيل لا حَزْن[2] ضَرِس، ولا سهل دَهِس، ما لي أسمع رُغَاء البعير، ونهاق الحمير، ويُعار الشاء[3] وبكاء الصغير؟ قالوا: ساق مالك مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فقال: يا مالك إنّ هذا يومٌ له ما بعده ما حملك على ما صنعت؟ قال: سُقْتُهم مع الناس ليقاتل كُلُّ إنسانٍ عن حريمه وماله، قال: دريد راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيءٌ؟! إنَّها إنْ كانت لك لم ينفعك إلّا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك. وقال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها أحدٌ منهم، قال: غاب الجَدُّو والحَدُّ[4] لو كان يوم علاء ورفعة لم تَغِبْ عنه كعب ولا كلاب ووددتُ أنكم فعلتم ما فعلا.

ثم قال: يا مالك ارفع من معك إلى عليًا بلادهم ثم ألق القوم على متون الخيل، فإنْ كانت تلك لك لَحِقَ بك مَنْ وراءك، وإنْ كانت عليك كنت قد أحرزتَ أهلك ومالك. قال مالك: والله لا أفعل ذلك إنك قد كبرتَ وكبر عِلْمُك، والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكئنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ـ وكره أن يكون لدريد فيها ذِكْرٌ ورأي ـ فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

ثم قال مالك: أيّها الناس إذا رأيتم القوم فأكسروا جُفُون سيوفكم وشِدُّوا عليهم شَدَّة رجلٍ واحد، وبعث مالك عيونه ليأتوه بالخبر، فرجعوا إليه وقد تفرّقتْ أوصالُهُم؛ فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بِيضًا على خيلٍ بُلْق، فوالله ما تماسكنا أن حَلَّ بنا ما ترى، فلم ينهه ذلك عن وجهه أنْ مضى على ما يريد.

ولما بلغ رسول الله ﷺ خبر هوازن أجمع المسير إليهم وبلغه أنّ عند صفوان بن أمية أدراعًا وسلاحًا، فأرسل إليه رسول الله ﷺ، وهو يومئذ مشرك: أعِرْنا سلاحك نلق فيه عدوّنا غدًا. فقال له صفوان: أَغَصْبًا يا محمد؟ فقال: «بل عارية مضمونة

---

(١) أَوْطَاس: وادٍ في ديار هَوازن وفيه كانت وقعة حنين للنبيّ ﷺ.

(٢) الحَزْن من الأرض ما غلظ. (٣) يَعَارُ الشاة: صوتها.

(٤) الجَدّ: الحظ، والحَدُّ: منتهى الشيء.

نؤدّيها إليك»، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح، ثم سار النبيّ ﷺ ومعه ألفان من مسلمة الفتح مع عشرة آلاف من أصحابه فكانوا اثني عشر ألفًا، فلما رأى رسول الله ﷺ كثرة من معه قال: «لَنْ نُغْلَب اليوم من قِلّة»، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التّوبَة: الآية ٢٥]، وقيل: إنما قالها رجل من بكر.

واستعمل رسول الله ﷺ على من بمكّة عتاب بن أُسَيْد، قال جابر: فلما استقبلنا وادي حنين أنحدرنا في واد أجوف حطوط إنما ننحدر فيه أنحدارًا في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيّؤوا وأعدّوا له، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلّا الكتائب قد شدّت علينا شدّة رجل واحد، فأنهزم الناس لا يلوي أحدٌ على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «أيّها الناس هلمّوا إليّ أنا رسول الله، أنّا محمد بن عبد الله» قاله ثلاثًا.

ثم احتملت الإبل بعضها بعضًا إلّا أنه قد بقي مع النبيّ ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، منهم: أبو بكر، وعمر، وعليٌّ، والعباس، وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأيمن ابن أُمّ أيمن، وأُسامة بن زيد، قال: وكان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء أمام الناس فإذا أدرك رجلًا طعنه، وإذا فاته الناس رفع رايته لمن وراءه فاتبعوه، فحمل عليه عليّ فقتله.

ولمّا انهزم الناس تكلّم رجالٌ من أهل مكّة بما في أنفسهم من الضّغَن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، والأزلام معه في كنانته. وقال كلدة بن الحنبلي، وهو أخو صفوان بن أُمية لأمّه وكان صفوان بن أمية يومئذ مشركًا: الآن بَطُلَ السحر، فقال له صفوان: أسكت فَضَّ الله فاك، فوالله لأن يربّني رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يربّني رجل من هوازن. وقال شيبة بن عثمان: اليوم أُدْرِكُ ثأري من محمد ـ وكان أبوه قُتِل بأُحد ـ قال: فأدرت به لأقتله شيءٌ حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذلك، وعلمتُ أنّه مُنِعَ مني، وكان العباس مع النبيّ ﷺ آخذًا بلجام بغلته دُلْدُل وهو عليها، وكان العباس جسيمًا شديد الصوت، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عباس أصرخ يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرَة»، ففعل فأجابوه: لبّيك لبّيك، فكان الرجل يريد أن يثني بعيره فلا يقدر فيأخذ سلاحه ثم ينزل عنه ويؤمّ الصوت،

فأجتمع على رسول الله ﷺ مائة رجل فأستقبل بهم القوم وقاتلهم، فلما رأى النبيّ ﷺ شدَّة القتال، قال:

أنـــا الـــنـــبـــيُّ لا كَـــذِب أنـــا أَبـــنُ عـــبـــد الـــمـــطّـــلـب

«الآن حمي الوطيس»، وهو أوّل من قالها، واقتتل الناس قتالاً شديدًا، وقال النبيّ ﷺ لبغلته دُلْدُل: «البدي دلدل»، فوضعت بطنها على الأرض فأخذ حفنة من تراب فرمى به في وجوههم فكانت الهزيمة، فما رجع الناس إلّا والأسارى في الحِبَال عند رسول الله ﷺ. وقيل: بل أقبل شيءٌ أسود من السماء مثل البجاد[1] حتى سقط بين القوم، فإنما نملٌ أسود مبثوث فكانت الهزيمة؛ ولما انهزمت هوازنُ قتل من ثقيف وبني مالك سبعون رجلاً، فأمّا الأحلاف من ثقيف فلم يُقتل منهم غير رجلين لأنهم أنهزموا سريعًا، وقصد بعض المشركين الطائف، ومعهم مالك بن عوف وأتّبعت خيلُ رسول الله ﷺ المشركين فقتلهم، فأدرك ربيعة بن رفيع السلمي دريد بن الصُمَّة ولم يعرفه لأنه كان في شجار[2] لكبره وأناخ بعيره فإذا هو شيخٌ كبير، فقال له دريد: ماذا تريد؟ قال: أقتلك. قال: ومن أنت؟ فانتسب له ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئًا، فقال دريد: بِئْس ما سلحتك أمك خذ سيفي فاضرب به ثم ارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فإني كذلك كنت أَقْتُل الرجال، وإذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمّة فرُبَّ يوم قد منعتُ فيه نساءك، فقتله، فلما أخبر أمّه قالت: والله لقد أعتقَ أمّهات لك ثلاثًا. واستلب أبو طلحة الأنصاري يوم حنين عشرين رجلاً وحده وقتلهم، فقال رسول الله ﷺ: «من قَتَلَ قَتيلاً فله سلبه»، وقتل أبو قتادة الأنصاري قتيلاً وأجهضه[3] القتال عن أخذ سلبه فأخذه غيره، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قام أبو قتادة فقال: قتلتُ قتيلاً وأخذ غيري سلبه، فقال الذي أخذ السلب: هو عندي فأرضه مني يا رسول الله، فقال أبو بكر: لا والله، تعمد إلى أسدٍ من أُسْدِ الله يقاتل عن الله تقاسمه، فردَّ عليه السلب.

وكان لبعض ثقيف غلامٌ نصراني فقُتِل، فبينما رجل من الأنصار يستلب قتلى ثقيف إذ كشف العبد فرآه أغرل فصرخ بأعلى صوته: يا معشر العرب إن ثقيفًا لا

---

(١) البجاد: هو الكساء، وكان في الأصول: نجار ـ ولا معنى له، وصححناه من النهاية وكتب السير وغيرها.

(٢) الشجار: مركب مكشوف دون الهودج، النهاية.

(٣) أجهضه: غلبه ونَحّاه.

تختتن، فقال له المغيرة بن شعبة: لا تقل هذا إنما هو غلام نصراني وأراه قتلى ثقيف مختتنين، ومَرّ رسول الله ﷺ في الطريق بأمرأةٍ مقتولة، فقال: «من قتلها»؟ قالوا: خالد بن الوليد، فقال لبعض مَنْ معه: أدْرِك خالدًا فقال له: إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل امرأة أو وليدًا أو عسيفًا ـ والعسيف: الأجير.

وكان بعض المشركين بأوطاس فأرسل إليهم رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري عمّ أبي موسى فرمى أبو عامر بسهم، قيل: رماه سلمة بن دريد بن الصمّة، وقتل أبو موسى سلمة هذا بعمّه أبي عامر، وانهزم المشركون بأوطاس وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا، فساقوا في السبي الشيماء ابنة الحارث بن عبد العزى، فقالت لهم: إني والله أختُ صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدّقوها حتى أتوا بها النبيّ ﷺ، فقالت له: إنّي أختك، قال: وما علامة ذلك؟! قالت: عضّة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، فعرفها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيَّرها، فقال: إنْ أحببت فعندي مُكَرَّمة محبة وإن حببت أنْ أمتعك وترجعي إلى قومك؟ قالت: بل تمتّعني وتردني إلى قومي، ففعل وأمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال فجُمِعَتْ إلى الجعرانة وجعل عليها بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي، واستشهد من المسلمين بحنين أيمن ابن أُمّ أيمن، ويزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن عبد العزى وغيرهما.

٢٣ ـ يوم الطائف[١]

لما قدم المنهزمون من ثقيف ومَن انْضمَّ إليهم من غيرهم إلى الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتهم واستحصروا[٢] وجمعوا ما يحتاجون إليه، فسار إليهم النبيّ ﷺ، فلما كان ببحرة الرُّغا ابتنى بها مسجدًا فصلّى فيه قبل وصوله إلى الطائف، وقتل بها رجلاً من بني ليث قصاصًا كان قد قتل رجلاً من هذيل فأمر بقتله، وهو أوّل دم أقيد به في الإسلام، وسار إلى ثقيف فحصرهم بالطائف نَيِّفًا وعشرين يومًا ونصب عليهم منجنيقًا أشار به سلمان الفارسي وقاتلهم قتالاً شديدًا حتى كان يوم الشدخة عند جدار الطائف دخل نفر من المسلمين تحت دَبَّابَة[٣] عملوها ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد المحماة، فخرجوا من تحتها، فرماهم مَن بالطائف بالنّبل فقتلوا رجالاً، فأمر رسول الله ﷺ بقَطع أعناب ثقيف فقُطِّعَتْ، ونزل إلى رسول الله ﷺ نفرٌ من رقيق أهل الطائف فأعتقهم منهم أبو بكرة نفيع بن

---

(١) سنة ٨ من الهجرة. (٢) استحصروا: أظهروا الحصر.
(٣) الدبابة: آلة كانت تتّخذ في الحرب وهدم الحصون.

الحارث عبد الحارث بن كلدة وإنّما قيل له: أبو بكرة ببكرة نزل فيها وغيره، فلما أسلم أهل الطائف تكلّمت سادات أولئك العبيد في أن يَرُدَّهم رسول الله ﷺ إلى الرقّ، فقال: لا أفعل أولئك عتقاء الله.

ثم إنّ خويلة بنت حكيم السلمية ـ وهي امرأة عثمان بن مظعون ـ قالت: يا رسول الله أعطني إنْ فتح الله عليك الطائف حليّ بادية بنت غيلان أو حليّ الفارعة بنت عقيل، وكانتا من أكثر نساء ثقيف حُليًا، فقال لها رسول الله ﷺ: أرأيتِ إنْ كان لم يؤذن لي في ثقيف يا خويلة؟ فخرجت فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب فدخل عليه عمر، وقال: يا رسول الله ما حديث حدّثتنيه خويلة أنك قد قلته؟ قال: قد قلته. قال: أفلا أؤذن بالرحيل يا رسول الله؟ قال: بلى فأذن بالرحيل، فأذّن عمر فيهم بالرحيل، وقيل: إن رسول الله ﷺ استشار نوفل بن معاوية الدّيلي في المقام عليهم، فقال: يا رسول الله ثعلبٌ في جُحْر إنْ أقمتَ عليه أخذته وإنْ تركته لم يضرّك فأذن بالرحيل، فلما رجع الناس قال رجلٌ: يا رسول الله ادعُ على ثقيف، قال: اللّهمّ اهدِ ثقيفًا وأتِ بهم، فلما رأت ثقيف الناس قد رحلوا عنهم نادى سعيد بن عُبيد الثقفي: ألَا إنّ الحيّ مقيم. فقال عُيَيْنة بن حصن: أجل والله مجدة كرامًا، فقال رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عُيَيْنة أتمدحهم بالامتناع من رسول الله ﷺ؟ قال: إني والله ما جئت لأقاتل معكم ثقيفًا، ولكني أردتُ أن يفتح محمّد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتبطنها لعلّها تلد لي رجلًا، فإنّ ثقيفًا قوم مناكير.

واستشهد بالطائف اثنا عشر رجلًا، منهم: عبد الله بن أبي أُمية المخزومي، وأمّه عاتكة بنت عبد المطلب، وعبد الله بن أبي بكر الصديق رُمِي بسهم فمات منه بالمدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ، والسائب بن الحارث بن عديّ وغيرهم؛ وأخذت بادية بنت غيلان التي قال فيها هيت المخنَّث لعبد الله بن أبي أُميّة: إنْ فتح الله عليكم الطائف فسَلْ رسول الله ﷺ أنْ ينفلك بادية بنت غيلان فإنّها هيفاء شموع نجلاء إنْ تكلّمت تغنّت، وإنْ قامت تثنّت، وإن مشت ارتجّت، وإنْ قعدت تبنت، تُقْبِلُ بأربع وتُدْبِرُ بثمان[1]، بثغر كالأقحوان بين رجليها كالقعب المكفأ. فقال النبيّ ﷺ: «لقد علمتَ الصفة»، ومنعه من الدخول إلى نسائه.

---

(١) يريد عكنات بطنها لسمنها.

٢٤ ـ يوم تبوك[١]

لما عاد رسول الله ﷺ أقام بالمدينة بعد عوده من الطائف ما بين ذي الحجّة إلى رجب، أمَرَ الناس بالتجهّز لغزو الروم وأعلم الناس مقصدهم لبُعْد الطريق وشدّة الحر وقوّة العدوّ، وكان قبل ذلك إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها، وكان سببها أنّ النبيّ ﷺ بلغه أنّ هَرْقَل ملك الروم ومن عنده مِنْ متنصّرة العرب قد عزموا على قصده، فتجهّز هو والمسلمون وساروا إلى الروم، وكان الحرّ شديدًا والبلاد مجدبة والناس في عسرة، وكانت الثمار قد طابت فأحبّ الناس المقام في ثمارهم فتجهّزوا على كُرْهٍ، فكان ذلك الجيش يسمى جيش العُسْرَة، فقال رسول الله ﷺ للجد بن قيس ـ وكان من رؤساء المنافقين ـ: هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: والله لقد عرف قومي حُبِّي للنساء وأخشى أنْ لا أصبر على نساء بني الأصفر، فإنْ رأيتَ أنْ تأذن لي ولا تفتني. فقال رسول الله ﷺ: قد أذنتُ لك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبَة: الآية ٤٩] الآية. وقال قائل من المنافقين: لا تنفروا في الحرّ ـ زهادة في الجهاد وشَكًّا في الحق وإرجافًا بالرسول ﷺ ـ فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ﴾ [التوبَة: الآية ٨١] الآية.

ثم إنّ النبيّ ﷺ تجهّز وأمر بالنفقة في سبيل الله وأنفق أهل الغنى، وأنفق أبو بكر جميع ما بقي عنده من ماله، وأنفق عثمان نفقة عظيمة لم ينفق أحدٌ أعظم منها، قيل: كانت ثلاثمائة بعير وألف دينار، ثم إنّ رجالاً من المسلمين أتوا النبيّ ﷺ وهم البكّاؤون وكانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، وكانوا أهل حاجة فاستحملوه فقال: لا أجدُ ما أحملكم عليه، فتولَّوْا يبكون، فلقيهم يامين بن عمير بن كعب النضري فسألهم عمّا يبكيهم فأعلموه فأعطى أبا ليلى عبد الرحمٰن بن كعب وعبد الله بن مغفل المزني بعيرًا فكانا يعتقبانه مع رسول الله ﷺ، وجاء المعذِّرون من الأعراب فٱعتذروا إلى رسول الله ﷺ فلم يعذرهم الله، وكان عدَّة من المسلمين تخلّفوا من غير شك، منهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية، وأبو خيثمة؛ وكانوا نفر صدقٍ لا يُتَّهمون في إسلامهم.

فلما سار رسول الله ﷺ تخلّف عنه عبد الله بن أُبَيّ المنافق فيمن تبعه من أهل النفاق، واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة سِباع بن عُرفطة، وعلى أهله عليّ بن

---

(١) في رجب سنة ٩ من الهجرة.

أبي طالب فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خَلّفه إلّا استثقالاً له، فلما سمع عليّ ذلك أخذ سلاحه ولحق برسول الله ﷺ فأخبره ما قال المنافقون، فقال: «كذبوا وإنما خلّفتُك لما ورائي فٱرجع فٱخلُفني في أهلي وأهلك، أما ترضى يا عليّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلّا أنه لا نبيّ بعدي»، فرجع عليٌّ إلى المدينة.

فسار رسول الله ﷺ ثم إن أبا خيثمة أقام أيامًا فجاء يومًا إلى أهله، وكانت له امرأتان وقد رشت كل امرأةٍ منهما عريشها وبرَّدَت له ماء وصنعت طعامًا، فلما رآه قال: يكون رسول الله ﷺ في الحرِّ والريح وأبو خيثمة في الظل البارد والماء البارد والطعام المهيء والمرأة الحسناء في ماله مقيم! ما هذا بالنصف، والله ما أحلّ عريشًا منهما حتى ألحق برسول الله ﷺ؛ فهيّأ زاده وخرج إلى ناضحه فركبه وطلب رسول الله ﷺ فأدركه بتبوك؛ فقال الناس: يا رسول الله هذا راكب مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كُنْ أبا خيثمة»، فقالوا: هو والله أبو خيثمة، وأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبره فدعا له.

وكان رسول الله ﷺ حين مرّ بالحجر وهو بطريقه وهو منزل ثمود، قال لأصحابه: «لا تشربوا من هذا الماء شيئًا ولا تتوضأوا منه، وما كان من عجين فألقوه وأعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئًا، ولا يخرج الليلة أحدٌ إلّا مع صاحبٍ له»، ففعل ذلك الناس ولم يخرج أحدٌ إلّا رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته فأصابه جنون، وأمّا الذي طلب بعيره فاحتمله الريح إلى جبلي طيىء فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ألم أنهكم أن لا يخرج أحد إلّا مع صاحب له»؟ فأمّا الذي خنق فدعا له فشفي، وأمّا الذي حملته الريح فأهدته طيىء إلى رسول الله ﷺ بعد عوده إلى المدينة. وأصبح الناس بالحجر ولا ماء معهم، فشكوا ذلك إلى النبيّ ﷺ فدعا الله فأرسل سحابة فأمطرت حتى رُوي الناس واحتملوا حاجتهم من الماء، وكان بعض المنافقين يسير مع رسول الله ﷺ، فلما جاء المطر قال له بعض المسلمين: هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارّة.

وضلّت ناقة رسول الله ﷺ في الطريق، فقال لأصحابه وفيهم عمارة بن حزم وهو عَقَبِيّ[١] بدريّ: إنّ رجلاً قال: إنّ محمدًا يخبركم الخبر من السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ وإني والله لا أعلم إلّا ما علّمني الله عزّ وجلّ وقد دلّني الله عليها، وهي في الوادي في شِعْب كذا قد حبستها شجرة بزمامها فانطَلِقوا فأْتَوْه بها، فرجع

(١) أي: من أهل العقبة.

عمارة إلى أصحابه فخبّرهم بما قال رسول الله ﷺ عن الناقة تَعَجُّبًا مما رأى، وكان زيد بن لصيب[١] القينقاعي منافقًا وهو في رحل عمارة قد قال هذه المقالة، فأخبر عمارة بأن زيدًا قد قالها، فقام عمارة يطأ عنقه وهو يقول: في رحلي داهية ولا أدري أخرج عني يا عدوّ الله مِنْ رحلي ولا تصحبني؛ فزعم بعض الناس أنّ زيدًا تاب بعد ذلك وحَسُن إسلامه، وقيل: لم يزل متّهمًا حتى هلك.

ووقف بأبي ذرّ جملُه فتخلّف عليه فقيل: يا رسول الله تخلّف أبو ذر، فقال: «ذروه فإن يكُ فيه خير فَسَيُلحقه الله بكم»، فكان يقولها لكل مَنْ تخلف عنه، فوقف أبو ذر على جمله، فلما أبطأ عليه أخذ رَحْلَه عنه وحمله على ظَهْرِهِ وتَبعَ النبيّ ﷺ ماشيًا، فنظر الناسُ فقالوا: يا رسول الله هذا رجلٌ على الطريق وحده. فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذرّ»، فلما تأمّله الناس قالوا: هو أبو ذر. فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبْعَثُ وحده، ويشهده عصابة من المؤمنين»، فلمّا نفى عثمان أبا ذرّ إلى الرّبذة فأصابه بها أَجَلُه ولم يكن معه إلّا امرأته وغلامه فأوصاهما أنْ يغسلاه ويكفّناه ثم يضعاه على الطريق فأوّل ركب يمرّ بهما يستعينان بهم على دفنه ففعلا ذلك، فأجتاز بهما عبد الله بن مسعود في رهطٍ من أهل العراق فأعلمته امرأة أبي ذر بموته فبكى ابن مسعود، وقال: صدق رسول الله ﷺ «تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبْعث وحدك»، ثم واروه.

وانتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك فأتى يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة فصالحه على الجزية وكتب له كتابًا فبلغتْ جزيتهم ثلاثمائة دينار، ثم زاد فيها الخلفاء من بني أُميّة، فلما كان عمر بن عبد العزيز لم يأخذ منهم غير ثلاثمائة، وصالح أهل أَذْرُح[٢] على مائة دينار في كل رجب، وصالح أهل جرباء[٣] على الجزية، وصالح أهل مَقْنَا[٤] على ربع ثمارهم.

وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان نصرانيًا من كندة، فقال لخالد: إنك تجده يصيد البقر. فخرج خالد بن الوليد حتى إذا كان من حصنه على منظر العين وأكيدر على سطح داره، فباتت

(١) في الأصل: لصيت وهو غلط وصوابه بالباء الموحدة نصّ عليه في الإصابة.
(٢) أَذْرُح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة ثم من نواحي بلقاء وعمان.
(٣) الجرباء: موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال السراء من ناحية الحجاز.
(٤) مقنا: قرية قرب أيلة.

البقرة تحكّ بقرونها باب الحصن، فقالت امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذا؟ قال: لا أحد، ثم نزل وركب فرسه ومعه نفرٌ من أهل بيته، ثم خرج يطلب البقر فتلقّتهم خيل رسول الله ﷺ وأخذته وقتلوا أخاه حسانًا، وأخذ خالد من أكيدر قباء ديباج مخوّص بالذهب فأرسله إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه، فجعل المسلمون يلمسونه ويتعجّبون منه، فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون من هذا! لمناديل سعد بن معاذ[1]! في الجنّة أحسن من هذا»!. وقدم خالد بأكيدر على رسول الله ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية وخلّى سبيله، فرجع إلى قريته.

وأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها ولم يقدم عليه الروم والعرب المنتصرة، فعاد إلى المدينة، وكان في الطريق ماء يخرج من وشل لا يروي إلّا الراكب والراكبين بوادٍ يقال له: وادي المشقق، فقال رسول الله ﷺ: «من سبقنا فلا يستقين منه شيئًا حتى نأتيه» فسبقه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبروه بفعلهم فلعنهم ودعا عليهم، ثم نزل رسول الله ﷺ إليه فوضع يده تحته وجعل يصب إليها يسيرًا من الماء فدعا فيه ونضحه في الوشل فانخرق الماء جريًا شديدًا فشرب الناس واستقوا، وسار رسول الله ﷺ حتى قارب المدينة فأتاه خبر مسجد الضرار، فأرسل مالك بن الدخشم فحرقه وهدّمه، وأنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٧] الآيات، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلًا، وكان قد أخرج من دار خذام بن خالد من بني عمرو بن عوف.

وقدم رسول الله ﷺ وكان قد تخلّف عنه رهط من المنافقين فأتوه يحلفون له ويعتذرون فصفح عنهم رسول الله ﷺ ولم يعذرهم الله ورسوله، وتخلّف أولئك النفر الثلاثة، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أُميّة، ومرارة بن الربيع تخلّفوا من غير شكٍّ ولا نفاق، فنهى رسول الله ﷺ عن كلامهم، فاعتزلهم الناس فبقوا كذلك خمسين ليلة؛ ثم أنزل الله توبتهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: الآيتان ١١٨، ١١٩]، وكان قدوم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان.

---

(١) في الأصول: سعد بن عباد وهو غلط والصواب سعد بن معاذ كما في صحيح البخاري.

٢٥ - يوم طيىء[١]

أرسل النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب في سرية إلى ديار طييء وأمره أن يهدم صنمهم الفلس، فسار إليهم وأغار عليهم فغنم وسبى وكسر الصنم، وكان متقلّدًا سيفين، يقال لأحدهما: مخذم، وللآخر: رسوب، فأخذهما عليّ وحملهما إلى رسول الله ﷺ، وكان الحارث بن أبي شمر أهدى السيفين للصنم فعُلّقا عليه، وأسر بنتًا لحاتم الطائي وحُملت إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فأطلقها. وأمّا إسلام عديّ بن حاتم، فقال عديّ: جاءتْ خيلُ رسول الله ﷺ فأخذوا أختي وناسًا فأتوا بهم رسول الله ﷺ، فقالت أُختي: يا رسول الله هلك الوالد، وغالب الوافد فأمنن عليَّ مَنَّ الله عليك. فقال: ومَن وافدك؟ قالت: عديّ بن حاتم، قال: الذي فرَّ من الله ورسوله، فمنّ عليها وإلى جانبه رجل قائم وهو عليُّ بن أبي طالب، قال: سليه حملاناً، فسألته فأمر لها به، وكساها وأعطاها نفقة. قال عدي: وكنت ملك طييء آخذ منهم المرباع وأنا نصرانيّ، فلما قدمتْ خيلُ رسول الله ﷺ هربتُ إلى الشام من الإسلام، وقلت: أكون عند أهلي ديني، فبينا أنا بالشام إذ جاءت أختي وأخذتْ تلومني على تركها وهربي بأهلي دونها، ثم قالت لي: أرى أنْ تلحق بمحمّد سريعًا فإنْ كان نبيًا كان للسابق فضله، وإنْ كان ملكًا كنت في عِزٍّ وأنت أنت. قال: فقدمتُ على رسول الله ﷺ فسلّمتُ عليه وعَرَّفته نفسي، فأنطلق إلى بيتي فلقيته امرأة ضعيفة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلّمه في حاجتها، فقلت: ما هذا بملك، ثم دخلتُ بيته فأجلسني على وسادة وجلس على الأرض، فقلت في نفسي: ما هذا ملك. فقال لي: يا عدي إنك تأخذ المِرْباع[٢] وهو لا يحل في دينك، ولعلّك إنما يمنعك من الإسلام ما ترى من حاجتنا وكثرة عدوّنا، والله ليفيضنّ المالُ فيهم حتى لا يوجد مَنْ يأخذه، ووالله لتسمعنّ بالمرأة تسير من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلّا الله، ووالله لتسمعنّ بالقصور البيض من بابل وقد فُتِحَتْ. قال: فأسلمتُ فقد رأيتُ القصور البيض وقد فُتِحَتْ، ورأيت المرأة تخرج إلى البيت لا تخاف إلّا الله؛ ووالله لتكوننّ الثالثة ليفيضنّ المال حتى لا يقبله أحد.

(١) في ربيع الآخر سنة ٩ من الهجرة.

(٢) المرباع: ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.

٢٦ ـ حروب الردّة بعد وفاة رسول الله ﷺ(١)

لمّا مات النبيّ ﷺ وسيَّر أبو بكر جيش أسامة ٱرتدّت العربُ وتضرّمت الأرضُ نارًا وارتدّتْ كلُّ قبيلة عامة أو خاصة إلّا قريشًا وثقيفًا، واستغلظ أمر مسيلمة وطليحة، وٱجتمع على طليحة عوامّ طيىء، وأسد، وارتدّت غطفان تبعًا لعيينة بن حصن، فإنّه قال: نبيٌّ من الحليفين ـ يعني أسدًا وغطفان ـ أحبُّ إلينا من نبيٍّ من قريش، وقد مات محمد وطليحة حيٌّ، فٱتّبعه وتبعته غطفان، وقدمتْ رسلُ النبيّ ﷺ من اليمامة وأسد وغيرهما وقد مات فدفعوا كتبهم لأبي بكر وأخبروه الخبر عن مسيلمة وطليحة، فقال: لا تبرحوا حتى تجيء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم، فكان كذلك، وقدمت كتب أُمراء النبيّ ﷺ من كل مكان بانتقاض العرب عامّة وخاصّة وتسلّطهم على المسلمين.

فحاربهم أبو بكر بما كان رسول الله ﷺ يحاربهم بالرسل، فردّ رسلهم بأمره وأتبع رسلهم رسلاً وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة، فكان عمّالُ رسول الله ﷺ على قضاعة وكلب امرؤ القيس بن الأصبغ الكلبي، وعلى القين عمرو بن الحكم، وعلى سعد هذيم معاوية الوالبي، فٱرتدّ وديعة الكبي فيمن تبعه وبقي امرؤ القيس على دينه، وارتدّ زميل بن قطبة القيني وبقي عمرو، وارتدّ معاوية فيمن اتّبعه من سعد هذيم، فكتب أبو بكر إلى امرئ القيس وهو جد سكينة بنت الحسين، فسار بوديعة إلى عمرو فأقام لزميل والي معاوية العذري وتوسّطت خيل أُسامة ببلاد قضاعة، فشنّ الغارة فيهم فغنموا وعادوا سالمين.

٢٧ ـ ردّة طليحة الأسدي

وكان طليحة بن خويلة الأسدي من بني أسد بن خزيمة قد تنبّأ في حياة رسول الله ﷺ، فوجّه إليه النبيّ ﷺ ضرار بن الأزور عاملاً على بني أسد وأمرهم بالقيام على من ارتدّ، فضعف أمر طليحة حتى لم يبقَ إلّا أخذه فضربه بسيف، فلم يصنع فيه شيئًا، فظهر بين الناس أن السلاح لا يعمل فيه، فكثر جمعه، ومات النبيّ ﷺ وهم على ذلك، فكان طليحة يقول: إنّ جبريل يأتيني وسَجَعَ للناس الأكاذيب، وكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة ويقول: إن الله لا يصنع بتعفر وجوهكم وتقبح أدباركم شيئًا، ٱذكروا الله، ٱعبدوه قيامًا؛ إلى غير ذلك.

---

(١) سنة ١١ من الهجرة.

وتبعه كثير من العرب عصبيةً، فلهذا كان أكثر أتباعه من أسد، وغطفان، وطيىء؛ فسارت فزارة وغطفان إلى جنوب طيبة، وأقامت طيىء على حدود أراضيهم، وأسد بسميراء، واجتمعت عبس وثعلبة بن سعد ومرة بالأبرق من الرّبذة، واجتمع إليهم ناس من بني كِنانة، فلم تحملهم البلاد فافترقوا فرقتين أقامت فرقة بالأبرق وسارت فرقة إلى ذي القصة، وأمدّهم طليحة بأخيه حبال، فكان عليهم وعلى من معهم من الدئل وليث ومدلج، وأرسلوا إلى المدينة يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة.

فقال أبو بكر: والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه، وكان عقل الصدقة على أهل الصدقة [مع الصدقة] وردّهم، فرجع وفدهم فأخبروهم بقلّة مَنْ في المدينة، وأطمعوهم فيها، وجعل أبو بكر بعد مسير الوفد على أنقاب المدينة عليًّا، وطلحة، والزبير، وابن مسعود، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد خوف الغارة من العدوّ لقربهم، فما لبثوا إلّا ثلاثًا حتى طرقوا المدينة غارة مع الليل وخلفوا بعضهم بذي حسي ليكونوا لهم رداءًا، فوافوا ليلاً الأنقاب وعليها المقاتلة فمنعوهم، وأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر، [فأرسل إليهم أبو بكر: أن ألزموا أماكنكم ففعلوا]، فخرج في أهل المسجد على النواضح فردّوا العدو واتّبعوهم حتى بلغوا ذا حسي، فخرج عليهم الردُء بانحاءٍ قد نفخوها و[جعلوا] فيها الحبال ثم دهدهوها [بأرجلهم] على الأرض فنفرت إبل المسلمين، وهم عليها [ولا تنفر من شيء نفارها من الانحاء] ورجعت بهم إلى المدينة ولم يصرع مسلم، [ولم يصب].

وظنّ الكفار بالمسلمين الوهن وبعثوا إلى أهل ذي القَصَّة بالخبر فقدموا عليهم، وبات أبو بكر [ليلته يتهيّأ] يعبي[1] الناس، وخرج على تعبئة يمشي وعلى ميمنته النعمان بن مقرن، وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن، وعلى أهل الساقة سويد بن مقرن [معه الركائب]، فما طلع الفجر إلّا وهم والعدوّ على صعيدٍ واحد، فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فما ذرّ قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار وغلبوهم على عَامّة ظهرهم وقتل رجال، واتّبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القَصَّة[2]، وكان أول الفتح، ووضع بها النعمان بن مقرن في عدد ورجع إلى المدينة، فذلّ له المشركون.

---

(١) أي: يعبئ.

(٢) ماء في أجا لبني طريف.

فوثب بنو عبس وذبيان على مَنْ فيهم من المسلمين فقتلوهم [كل قتلة، وفعل مَنْ وراءهم فعلهم]، فحلف أبو بكر ليقتلنّ في المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة، وأزداد المسلمون قوّةً وثباتًا [على دينهم في كل قبيلة، وأزداد لها المشركون أنعكاسًا من أمرهم في كل قبيلة]، وطرقت المدينة صدقات نفر كانوا على صدقة الناس، منهم صفوان، والزبرقان بن بدر، وعدي بن حاتم وذلك لتمام ستين يومًا من مخرج أُسامة، وقدم أُسامة بعد ذلك بأيّام، وقيل: كانت غزوته وعوده في أربعين يومًا، فلما قَدِمَ أسامة استخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه ليستريحوا ويُريحوا ظهرهم، ثم خرج فيمن كان معه فناشده المسلمون ليقيم فأبى، وقال: «لأواسينكم بنفسي، وسار إلى ذي حسي وذي القَصَّة حتى نزل بالأبرق فقاتل مَن به، فهزم الله المشركين وأخذ الحطيئة أسيرًا، فطارت عبس وبنو بكر. وأقام أبو بكر بالأبرق أيّامًا وغلب على بني ذبيان وبلادهم وحماها لدوابّ المسلمين وصدقاتهم، ولما انهزمت عبس وذبيان رجعوا إلى طليحة وهو ببزاخة، وكان رحل من سميراء إليها فأقام عليها، وعاد أبو بكر إلى المدينة.

فلمّا استراح أُسامة وجنده ـ وكان قد جاءهم صدقات كثيرة تفضل عليهم ـ قطع أبو بكر البعوث وعقد الألوية فعقد أحد عشر لواء، عقد لواء لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له. وعقد لعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة، وعقد للمهاجر بن أبي أمية وأمره بجنود العنسي، ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح ومن أعانه من أهل اليمن عليهم، ثم يمضي إلى كندة بحضرموت. وعقد لخالد بن سعيد وبعثه إلى [الحمقتين من] مشارف الشام. وعقد لعمرو بن العاص وأرسله إلى قضاعة، وعقد لحذيفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل دَبَا، وعقد لعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة وأمرهما أن يجتمعا وكل واحد منهما على صاحبه في عمله. وبعث شرحبيل ابن حَسَنة في أثر عكرمة بن أبي جهل وقال: إذا فرغ من اليمامة فألحق بقضاعة وأنت على خيلك تقاتل أهل الردّة. وعقد لمعن بن جابر وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن. وعقد لسويد بن مُقَرِّن وأمره بتهامة باليمن، وعقد للعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين. ففصلت الأمراء من ذي القصة ولحق بكل أمير جنده وعهد إلى كل أمير، وكتب إلى جميع المرتدّين نسخة واحدة يأمرهم بمراجعة الإسلام ويحذّرهم، وسيَّر الكتب إليهم مع رسله.

ولما انهزمت عبس وذبيان ورجعوا إلى طليحة ببزاخة أرسل إلى جديلة والغوث من طيىء يأمرهم باللحاق به، فتعجّل إليه بعضهم وأمروا قومهم باللحاق بهم فقدموا

على طليحة، وكان أبو بكر بعث عديّ بن حاتم قبل خالد إلى طيىء وأتبعه خالدًا وأمره أن يبدأ بطيىء، ومنهم يسير إلى بزاخة ثم يثلث بالبطاح ولا يبرح إذا فرغ من قوم حتى يأذن له، وأظهر أبو بكر للناس أنه خارج إلى خيبر بجيش حتى يلاقي خالدًا يرهب العدوّ بذلك، وقدم عديّ على طيىء فدعاهم وخوّفهم فأجابوه، وقالوا له استقبل الجيش فأخِّرْه عنّا حتى نستخرج مَنْ عند طليحة منا لئلّا يقتلهم، فٱستقبل عدي خالدًا [وهو بالسنح] وأخبره بالخبر فتأخّر خالد، وأرسلت طيىء إلى إخوانهم عند طليحة، فلحقوا بهم فعادت طيىء إلى خالد بإسلامهم، ورحل خالد يريد جديلة فٱستمهله عدي عنهم، ولحق بهم عدي يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه، فعاد إلى خالد بإسلامهم ولحق بالمسلمين ألف راكبٍ منهم، وكان خير مولود [ولد] في أرض طيىء وأعظمه بركة عليهم.

وأرسل خالد بن الوليد عكّاشة بن محصن، وثابت بن أقرم الأنصاري طليعة فلقيهما حبال أخو طليحة فقتلاه فبلغ خبره طليحة، فخرج هو وأخوه سلمة فقتل طليحة عكاشة وقتل أخوه ثابتًا ورجعا وأقبل خالد بالناس فرأوا عكاشة وثابتًا قتيلين، فجزع لذلك المسلمون وانصرف بهم خالد نحو طيىء، فقال له طيرء: نحن نكفيك قيسًا فإنّ بني أسد حلفاؤنا، فقال: قاتلوا أيّ الطائفتين شئتم. فقال عدي بن حاتم: لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الأدنى فالأدنى لجاهدتهم عليه، والله لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم. فقال له خالد: إنّ جهاد الفريقين جهاد، لا تخالف رأي أصحابك وٱمضِ بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط. ثم تعبّئ لقتالهم ثم سار حتى التقيا على بُزاخة وبنو عامر قريبًا يتربّصون على مَن تكون الدائرة؛ قال: فٱقتتل الناس على بُزاخة، وكان عيينة بن حصن مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة، فقاتلوا قتالاً شديدًا وطليحة متلفّف في كسائه يتنبّأ لهم، فلما اشتدّت الحرب كرّ عيينة على طليحة، وقال له: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: لا. فرجع فقاتل ثم كرّ على طليحة فقال له: لا أبا لك أجاءك جبريل؟ قال: لا. قال عيينة: حتى متى؟ قد والله بلغ منّا.

ثم رجع فقاتل قتالاً شديدًا ثم كرَّ على طليحة، فقال: هل جاءك جبريل؟ قال: نعم، قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: إن لك رحى كرحاه وحديثًا لا تنساه. فقال عُيَيْنة: قد علم الله أنه سيكون حديثٌ لا ننساه، انصرفوا يا بني فزارة فإنّه كذّاب. فٱنصرفوا وانهزم الناس، وكان طليحة قد أعدّ فرسه وراحلته لامرأته النوار، فلما غشوه ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها، وقال: يا معشر فزارة مَن استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل.

ثم انهزم فلحق بالشام، ثم نزل على كلب فأسلم حين بلغه أن أسدًا وغطفان قد أسلموا، ولم يزل مقيمًا في كلب حتى مات أبو بكر، وكان خرج معتمرًا [في إمارة أبي بكر] ومرّ بجنبات المدينة، فقيل لأبي بكر: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به قد أسلم.

ثم أتى عمر فبايعه حين استُخلف، فقال له: أنت قاتل عكاشة وثابت، والله لا أحبّك أبدًا، فقال: يا أمير المؤمنين ما يهمّك من رجلين أكرمهما الله بيدي ولم يهني بأيديهما. فبايعه عمر وقال له: [يا خدع] ما بقي من كهانتك؟ فقال: نفخة أو نفختان [بالكير] ثم رجع إلى قومه فأقام عندهم حتى خرج إلى العراق.

ولمّا انهزم الناس عن طليحة أسر عُيَيْنة بن حصن فقدم به على أبي بكر، فكان صبيان المدينة يقولون له وهو مكتوف: يا عدوّ الله أكفرتَ بعد إيمانك؟ فيقول: والله ما آمنت بالله طرفة عين، فتجاوز عنه أبو بكر وحقن دمه، وأخذ من أصحاب طليحة رجل كان عالمًا به فسأله خالد عمّا كان يقول، فقال: إنّ مما أتى به «والحمام واليمان، والصرد الصوام، قد صمن قبلكم بأعوام، ليبلغن ملكنا العراق والشام»، قال: ولم يؤخذ منهم سبي لأنهم كانوا قد أحرزوا حريمهم، فلما انهزموا أقرّوا بالإسلام خشية على عيالاتهم فأمّنهم.

(حِبَال): بكسر الحاء المهملة وفتح الباء الموحدة وبعد الألف لام، و(ذو القَصّة): بفتح القاف والصاد المهملة، و(دو حُسى): بضم الحاء المهملة والسين المهملة المفتوحة، و(دَبا): بفتح الدال المهملة وبالباء الموحدة، و(بُزاخة): بضم الباء الموحدة وبالزاي والخاء المعجمة.

٢٨ ـ ردّة بني عامر، وهوازن، وسليم

وكانت بنو عامر تقدّم إلى الردة رِجْلاً وتؤخر أخرى، وتنظر ما تصنع أسد، وغطفان، فلما أُحيط بهم وبنو عامر على قادتهم وسادتهم كان قرّة بن هُبيرة في كعب ومن لافها، وعلقمة بن علاثة في كلاب ومن لافها، وكان أسلم ثم ارتدّ في زمن النبيّ ﷺ ولحق بالشام بعد فتح الطائف، فلما توفي النبيّ ﷺ أقبل مسرعًا حتى عسكر في بني كعب، فبلغ ذلك أبا بكر فبعث إليه سريّة عليها القعقاع بن عمرو ـ وقيل: بل قعقاع بن سور ـ وقال له: لتغير على علقمة لعلّك تقتله أو تستأسره.

فخرج [في تلك السرية] حتى أغار على الماء الذي عليه علقمة، وكان لا يبرح إلّا مستعدًا فسابقهم على فرسه فسبقهم [مراكضة] وأسلم أهله وولده، وأخذهم القعقاع، وقدم بهما على أبي بكر فجحدوا أنْ يكونوا على حالِ علقمة، ولم يبلغ أبا بكر عنهم أنهم فارقوا دارهم، وقالوا له: ما ذنبنا فيما صنع علقمة؟ فأرسلهم، ثم أسلم فقبل ذلك منه.

وأقبلت بنو عامر بعد هزيمة أهل بُزاخة يقولون: ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله، وأتوا خالدًا فبايعهم على ما بايع أهل بُزاخة وأعطوه بأيديهم على الإسلام، وكانت بيعته (عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمنّن بالله ورسوله ولتُقيمنّ الصلاة ولتؤتن الزكاة وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم)، فيقولون: نعم، ولم يقبل من أحدٍ من أسد وغطفان وطيىء وسليم وعامر إلّا أن يأتوه بالذين حرّقوا ومثّلوا وعَدُوا على الإسلام في حال رِدَّتِهِم فأتوه بهم فمثل بهم، وحرّقهم، ورضخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم في الآبار، وخزق بالنبال، وأرسل إلى أبي بكر يعلمه ما فعل، وأرسل إليه قرّة بن هُبيرة ونفرًا معه موثقين وزهير أيضًا.

وأمّا أُم زِمل فاجتمع فلال غطفان، وطيىء، وسليم، وهوازن وغيرها إلى أُم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر وكانت أُمّها أم قِرفة بنت ربيعة بن بدر، وكانت أمّ زِمل قد سبيت أيام أمّها أمّ قرفة، وقد تقدمت الغزوة، فوقعت لعائشة فأعتقتها، ورجعت إلى قومها وارتدّت؛ واجتمع إليها الفل فأمرتهم بالقتال وكثف جمعها وعظمت شوكتها، فلما بلغ خالدًا أمرها سار إليها فاقتتلوا قتالاً شديدًا أوّل يوم، وهي واقفة على جملٍ كان لأمّها وهي في مثل عزّها، فاجتمع على الجمل فوارس فعقروه وقتلوها، وقتل حول جملها مائة رجل، وبعث بالفتح إلى أبي بكر.

وأما خبر الفجاءة السلمي، واسمه إياس بن عبد ياليل، فإنّه جاء إلى أبي بكر، فقال له: أعِنِّي بالسلاح أُقاتل به أهلَ الرّدة، فأعطاه سلاحًا وأمّره أمرة فخالف إلى المسلمين، وخرج حتى نزل بالجواء وبعث نخبة بن أبي الميثاء من بني الشريد وأمره بالمسلمين، فشنّ الغارة على كل مسلم في سليم وعامر وهوازن، فبلغ ذلك أبا بكر، فأرسل إلى طريفة بن حاجز يأمره أن يجمع له ويسير إليه، وبعث إليه عبد الله بن قيس الحاشي عونًا، فنهضا إليه وطلباه فلاذ منهما ثم لقياه على الجواء فاقتتلوا، وقتل

نخبة، وهرب الفجاءة فلحقه طريفة فأسره ثم بعث به إلى أبي بكر، فلما قدم أمر أبو بكر أن توقد له نارٌ في مُصَلَّى المدينة ثم رمي به فيها مقموطًا[١].

وأمّا خبر أبي شجرة بن عبد العزى السلمي، وهو ابن الخنساء، فإنّه كان قد ارتدّ فيمن ارتدّ من سليم وثبت بعضهم على الإسلام مع معن بن حاجز وكان أميرًا لأبي بكر، فلما سار خالد إلى طليحة كتب إلى معن أنْ يلحقه فيمن معه على الإسلام من بني سليم، فسار واستخلف على عمله أخاه طريفة بن حاجز، فقال أبو شجرة حين ارتدّ:

صَحَا القَلْبُ عَنْ مَيٍّ هواه وأَقْصَرا ... وطاوَعَ فيها العاذلين فَأَبْصَرا
أَلَا أَيُّها المُدْلِي بكَثْرةِ قَوْمِهِ ... وحَظُّكَ منهم أن تُضَام وتُقْهَرَا
سَلِ النَّاسَ عنَّا كلَّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ... إِذَا مَا ٱلْتَقَيْنا دارِ عِينَ وحُسَّرا
أَلَسْنَا نُعَاطِي ذا الطِّمَاحِ لجامَهُ؟ ... ونَطْعَن في الهيجا إذا المَوْتُ أَقْفَرا!
فَرَوَّيْتُ رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ ... وَإِنِّي لَأَرْجُو بَعْدَها أَنْ أُعَمَّرا

ثم إنّ أبا شجرة أسلم، فلما كان زمن عمر قدم المدينة فرأى عمر وهو يقسّم في المساكين، فقال: أعطني فإني ذو حاجة، فقال: ومن أنت؟ قال: أنا أبو شجرة بن عبد العزى السلمي، قال: أي عدوّ الله، لا والله ألست الذي تقول:

فروّيت رمحي من كتيبة خالدٍ ... وإنّي لأرجو بعدها أن أعمّرا

وجعل يعلوه بالدرة في رأسه حتى سبقه عدوًا إلى ناقته فركبها ولحق بقومه، وقال:

ضَنَّ عَلَيْنَا أبو حَفصٍ بنائله ... وكلّ مختبط يومًا له ورق

في أبيات.

٢٩ ـ ردّة بني تميم وسجاح

وأمّا بنو تميم فإنّ رسول الله ﷺ فرّق فيهم عماله، فكان الزبرقان منهم، وسهل بن مِنْجاب، وقيس بن عاصم، وصفوان بن صفوان، وسبرة بن عمرو، ووكيع بن مالك، ومالك بن نويرة، فلما وقع الخبر بموت رسول الله ﷺ سار

(١) أي: مجموعًا بين يديه ورجليه بحبل.

صفوان بن صفوان إلى أبي بكر بصدقات بني عمرو، وأقام قيس بن عاصم ينظر ما الزبرقان صانع ليخالفه، فقال حين أبطأ عليه الزبرقان في عمله: واويلتاه من ابن العائلية والله [لقد مزقني] ما أدري ما أصنع؟ لئن أنا بعثت بالصدقة إلى أبي بكر وبايعته لينجزنّ ما معه في بني سعد فيسودني فيهم، ولئن نجزتها في بني سعد ليأتينّ أبا بكر فليسودني عنده فقسمها على المقاعس والبطون. ووافى الزبرقان فاتبع صفوان بن صفوان بصدقات الرباب، وهي ضبّة بن أد بن طابخة، وعدي، وتيم، وعكل، وثور بنو عبد مناة بن أد، وبصدقات عوف والأبناء، وهذه بطون من تميم، ثم ندم قيس [بعد ذلك] فلما أظلّه العلاء بن الحضرمي أخرج الصدقة، فتلقّاه بها؛ ثم خرج معه، وتشاغلت تميم بعضها ببعض، وكان ثمامة بن أثال الحنفي يأتيه أمداد تميم، فلما حدث هذا الحديث أضرّ ذلك بثمامة، وكان مقاتلاً لمسيلمة الكذّاب حتى قدم عليه عكرمة بن أبي جهل، فبينما الناس ببلاد تميم مسلمهم بإزاء من أراد الردّة وارتاب إذ جاءتهم سجاع بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية، قد أقبلت من الجزيرة، وادّعت النبوّة وكانت ورهطها في أخوالها من تغلب تقود أفناء ربيعة معها الهذيل بن عمران في بني تغلب، وكان نصرانيًا فترك دينه وتبعها، وعقبة بن هلال في النمر، وزياد بن فلان في إياد، والسيل بن قيس في شيبان فأتاهم أمر أعظم ممّا هم فيه لاختلافهم [والتشاغل بما بينهم]، وكانت سجاع تريد غزو أبي بكر فأرسلت إلى مالك بن نويرة تطلب الموادعة فأجابها وردّها عن غزوها وحملها على أحياء من بني تميم، فأجابته، وقالت: أنا امرأة من بني يربوع، فإن كان ملك فهو لكم.

وهرب منها عطارد بن حاجب، وسادة بني مالك، وحنظلة إلى بني العنبر وكرهوا ما صنع وكيع وكان قد وادَعَها، وهرب منها أشباههم من بني يربوع وكرهوا ما صنع مالك بن نويرة، واجتمع مالك، ووكيع، وسجاح، فسجعت لهم سجاح، وقالت: أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب.

فساروا إليهم فلقيهم ضبة وعبد مناة فقتل بينهم قتلى كثيرة وأُسر بعضهم من بعض، ثم تصالحوا.

وقال قيس بن عاصم شعرًا ظهر فيه ندمه على تخلّفه عن أبي بكر بصدقته، ثم سارتْ سجاح في جنود الجزيرة حتى بلغت النباح، فأغار عليهم أوس بن خزيمة

الهجيمي في بني عمرو فأسر الهذيل وعقة ثم اتّفقوا على أن يطلق أسرى سجاح ولا يطأ أرض أوس ومن معه، ثم خرجت سجاح في الجنود وقصدت اليمامة، وقالت: عليكم باليمامة، وذفّوا ذفيف الحمامة(١)، فإنها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها ملامه.

فقصدت بني حنيفة، فبلغ ذلك مسيلمة فخاف إنْ هو شغل بها أنْ يغلب ثمامة وشرحبيل بن حَسنة والقبائل التي حولها على حجر وهي اليمامة فأهدى لها، ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يأتيها فأمنته، فجاءها في أربعين من بني حنيفة [وكانت راسخة في علم النصرانية]، فقال مسيلمة: لنا نصف الأرض، وكان لقريش نصفها لو عدلت، وقد ردَّ الله عليك النصف الذي ردَّت قريش.

وكان مما شرع [مسيلمة] لهم أنّ من أصاب ولدًا واحدًا ذكرًا لا يأتي النساء حتى يموت ذلك الولد فيطلب الولد حتى يصيب ابنًا ثم يمسك، وقيل: بل تحصن منها، فقالت له: أنزل، فقال لها: أبعدي أصحابك، ففعلت وقد ضرب لها قبّة وجمّرها فتذكر بطيب الريح الجماع واجتمع بها، فقالت له: ما أوحى إليك ربّك، فقال: ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، بين صفاق(٢) وحشى. قالت: وماذا أيضًا؟ قال: إن الله خلق للنساء أفراجًا وجعل الرجال لهنّ أزواجًا، فتولج فيهن إيلاجًا ثم تخرجها إذا تشاء إخراجًا، فينتجن لنا سخالاً إنتاجًا. قالت: أشهد أنّك نبيّ.

قال: هل لكِ أن أتزوجكِ وآكل بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم، قال:

أَلَا قُومِي إِلَى النَّيْكِ ... فَقَدْ هُيِّءَ لَكِ المَضْجَعْ
فَإِنْ شِئْتِ فَفِي البَيْتِ ... وَإِنْ شِئْتِ فِي المَخْدَعْ
وَإِنْ شِئْتِ سَلَقْنَاكِ ... وَإِنْ شِئْتِ عَلَى أَرْبَعْ
وَإِنْ شِئْتِ بِثُلْثَيْهِ ... وَإِنْ شِئْتِ بِهِ أَجْمَعْ

قالت: بل به أجمع فإنه للشمل أجمع، قال: بذلك أوحي إليّ.

فأقامت عنده ثلاثًا ثم انصرفت إلى قومها، فقالوا لها: ما عندك؟ قالت: كان على الحق فتبعته، وتزوّجته. قالوا: هل أَصْدَقَكِ شيئًا؟ قالت: لا.

---

(١) هو تحريك جناحي الطائر ليطير.

(٢) الصفاق: الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر.

قالوا: فأرجعي فاطلبي الصداق، فرجعت فلما رآها أغلق باب الحصن، وقال: ما لك؟ قالت: أصدقني. قال: من مؤذنك. قالت: شبث بن رِبْعي الرياحي، فدعاه وقال له: نادِ في أصحابك أنّ مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما جاءكم به محمّد صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة، فأنصرفت ومعها أصحابها، منهم عطارد بن حاجب، وعمرو بن الأهتم، وغيلان بن خرشة، وشبث بن ربعي؛ فقال عطارد بن حاجب:

أمست نبيّتنا أنثى تطوف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وصالحها مسيلمة على غلات اليمامة سنة تأخذ النصف، وتترك عنده من يأخذ النصف، فأخذت النصف وأنصرفت إلى الجزيرة، وخلفت الهذيل، وعقة، وزياد لأخذ النصف الباقي، فلم يفاجئهم إلّا دنوّ خالد إليهم فارفضّوا فلم تزل سجاح في تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة [في زمانه]، وجاءت معهم وحسن إسلامهم وإسلامها وانتقلت إلى البصرة وماتت بها، وصلّى عليها سَمُرَة بن جندب، وهو على البصرة لمعاوية قبل قدوم عبيد الله بن زياد من خراسان وولايته البصرة. وقيل: إنّها لما قتل مسيلمة سارت إلى أخوالها تغلب بالجزيرة فماتت عندهم، ولم يسمع لها بذكر.

٣٠ ـ ردّة مالك بن نويرة

لما رجعت سجاح إلى الجزيرة ارعوى مالك بن نويرة وندم وتحيّر في أمره وعرف وكيع وسماعة قبح ما أتيا فراجعا رجوعًا حسنًا ولم يتجبّرا، وأخرجا الصدقات فاستقبلا بها خالدًا، وسار خالد بعد أنْ فرغ من فزارة وغطفان وأسد وطيىء يريد البطاح، وبها مالك بن نويرة قد تردّد عليه أمره وتخلّفت الأنصار عن خالد؛ وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا [إن الخليفة عهد إلينا] إنْ نحن فرغنا من بزاخة [واستبرأنا بلاد القوم] أن نقيم حتى يكتب إلينا.

فقال خالد: قد عهد إليّ أن أمضي وأنا الأمير، ولو لم يأتِ كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه [حتى أنتهزها]، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به، [وهذا مالك بن نويرة بحيالنا] فأنا قاصد إليه ومن معي [من المهاجرين] ولست أُكرِهُهُم. ومضى خالد وندمت الأنصار وتذامروا، وقالوا: إن أصاب القومُ خيرًا حرمتموه وإن أصيبوا ليجتنبنكم الناس فلحقوه؛ ثم سار حتى قدم البطاح فلم يجد بها أحدًا، وكان مالك بن

نويرة قد فرَّقهم ونهاهم عن الاجتماع، وقال: يا بني يربوع إنّا دُعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نفلح، وقد نظرت فيه فرأيت الأمر يتأتّى لهم بغير سياسة، وإذا الأمر لا يسوسه الناس فإيّاكم ومناوأة قوم صنع لهم فتفرّقوا وادخلوا في هذا الأمر، فتفرّقوا على ذلك.

ولما قدم خالد البطاح بثّ السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأنْ يأتوه بكلّ من لم يجب وإن امتنع أنْ يقتلوه، وكان قد أوصاهم أبو بكر أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلاً، فإن أذن القوم فكفّوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا، وإنْ أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم عن الزكاة، فإن أقرّوا فاْقبلوا منهم وإن أبَوْا فقاتلوهم. قال: فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفرٍ معه من بني ثعلبة بن يربوع، فاختلفت السرية فيهم. وكان فيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد أنّهم قد أذنوا وأقاموا وصلّوا، فلما اختلفوا أمر بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء، فأمر خالد مناديًا فنادى: «دافئوا أسراكم»، وهي في لغة كنانة القتل، فظنّ القوم أنه أراد القتل ولم يرد إلّا الدِّفْء فقتلوهم، فقتل ضرار بن الأزور مالكًا، وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمرًا أصابه.

[وقد اختلف القوم فيهم، فقال أبو قتادة: هذا عملك، فزبره خالد فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر، فغضب أبو بكر حتى كلمه عمر فيه فلم يرضَ إلّا أن يرجع إليه، فرجع إليه حتى قدم معه المدينة]، وتزوج خالد أُمّ تميم امرأة مالك، فقال عمر لأبي بكر: إن سيف خالد فيه رهق وأكثر عليه في ذلك، فقال: هيه يا عمر تأوّل فأخطأ فأرفع لسانك عن خالد فإني لا أشيم[1] سيفًا سلّه الله على الكافرين، وودى مالكًا، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل، ودخل المسجد وعليه قباء [له عليه صدأ الحديد] وقد غرز في عمامته أسهمًا، فقام إليه عمر فنزعها وحطمها وقال له: [أرئاء] قتلت امرءًا مسلمًا ثم نزوت على امرأته! والله لأرجمنّك بأحجارك. وخالد لا يكلّمه يظن أنّ رأي أبي بكر مثله، ودخل على أبي بكر فأخبره الخبر، واعتذر إليه فعذره وتجاوز عنه وعنّفه في التزويج الذي كانت عليه العرب من كراهته أيام الحرب، فخرج خالد وعمر جالس فقال: هلمّ إليّ يا ابن أُمّ سلمة، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه، فلم يكلّمه.

---

(١) أي: لا أغمد.

وقيل: إن المسلمين لما غشوا مالكًا وأصحابه ليلاً أخذوا السلاح، فقالوا: نحن المسلمون، فقال أصحاب مالك: ونحن المسلمون، قالوا لهم: ضعوا السلاح فوضعوه، ثم صلّوا. وكان يعتذر في قتله أنّه قال: ما أخال صاحبكم إلّا قال: كذا وكذا، فقال له: أوَ ما تعدّه لك صاحبًا؟ ثم ضرب عنقه.

وقدم متمّم بن نويرة على أبي بكر يطلب بدم أخيه، ويسأله أن يردّ عليهم سبيهم، فأمر أبو بكر بردّ السبي وودى مالكًا من بيت المال، ولما قدم على عمر قال له: ما بلغ بك الوجد على أخيك؟

قال: بكيته حولاً حتى أسعدت عيني الذاهبة عيني الصحيحة، وما رأيت نارًا قطّ إلّا كدتُ أتقطع أسفًا عليه لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف ولا يعرف مكانه، قال: فصفه لي، قال: كان يركب الفرس الحرون[1] ويقود الجمل الثّفال[2]، وهو بين المزادتين النضوحتين في الليلة القرّة، وعليه شملة فلوت[3] معتقلاً رمحًا خطلاً، فيسري ليلته ثم يصبح، وكأن وجهه فلقة قمر. قال: أنشدني بعض ما قلت فيه، فأنشده مرثيّته التي يقول فيها:

وكنّا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل: لن يتصدّعا
فلما تفرّقنا كأني ومالكًا ... لطول اجتماعٍ لم نبت ليلة معا

فقال عمر: لو كنتُ أقول الشعر لرثيت أخي زيدًا، فقال متمّم: ولا سواء يا أمير المؤمنين، لو كان أخي صُرع مصرع أخيك لما بكيته. فقال عمر: ما عزاني أحد بأحسن مما عزّيتني به.

وفي هذه الوقعة قتل الوليد، وأبو عبيدة ابنا عمارة بن الوليد، وهما ابنا أخي خالد لهما صحبة.

٣١ ـ ردّة مسيلمة وأهل اليمامة (يوم اليمامة)

قد ذكرنا فيما تقدم مجيء مسيلمة إلى النبيّ ﷺ، فلما مات النبيّ ﷺ وبعث أبو بكر السرايا إلى المرتدّين أرسل عكرمة بن أبي جهل في عسكر إلى مسيلمة وأتبعه شرحبيل بن حَسَنَة، فعجل عكرمة ليذهب بصوتها، فواقعهم فنكبوه، وأقام شرحبيل

(١) هو الفرس الذي لا ينقاد.
(٢) هو الجمل البطيء.
(٣) هو الذي لا ينضم طرفاه.

بالطريق حين أدركه الخبر، وكتب عكرمة إلى أبي بكر بالخبر، فكتب إليه أبو بكر: لا أرينك ولا تراني، لا ترجعن فتوهن الناس اْمضِ إلى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة، ثم تسير أنت وجندك تستبرئون الناس حتى تلقى مهاجر بن أبي أُمية باليمن وحضرموت.

فكتب إلى شرحبيل يأمره بالمقام إلى أن يأتي خالد، فإذا فرغوا من مسيلمة تلحق بعمرو بن العاص تعينه على قضاعة، فلما رجع خالد من البطاح إلى أبي بكر واعتذر إليه فقبل عذره ورضي عنه ووجهه إلى مسيلمة، وأوعب معه المهاجرين والأنصار، وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطاب [وعلى القبائل على كل قبيلة رجل]، وأقام خالد بالبطاح ينتظر وصول البعث إليه، فلما وصلوا إليه سار إلى اليمامة، وبنو حنيفة يومئذ كثيرون؛ وكانت عدّتهم أربعين ألف مقاتل [في قراها وحجرها]، وعجّل شرحبيل بن حَسَنَة [وفعل فعل عكرمة]، وبادر خالدًا بقتال مسيلمة [قبل قدوم خالد عليه] فنكب [فحاجز فلما قَدِمَ عليه خالد] لأمه خالد وأمدّ أبو بكر خالدًا بسليط ليكون ردءًا له لئلا يؤتى من خلفه [فخرج فلما دنا من خالد وجد تلك الخيول التي انتابت تلك البلاد قد فرّقوا فهربوا، وكان منهم قريبًا ردءًا لهم]، وكان أبو بكر يقول: لا أستعمل أهل بدر، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم، فإنّ الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر وأفضل مما ينتصر بهم؛ وكان عمر يرى استعمالهم على الجند وغيره، وكان مع مسيلمة نهار الرجّال بن عُنفوة، وكان قد هاجر إلى النبيّ ﷺ وقرأ القرآن وفُقّه في الدين وبعثه معلّمًا لأهل اليمامة، وليشغب على مسيلمة [وليشدُد من أمر المسلمين]، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة، شهد [له أنه سمع] محمّدًا ﷺ يقول: إنّ مسيلمة قد أُشرِكَ معه، فصدّقوه واستجابوا له، وكان مسيلمة ينتهي إلى أمره، وكان يُؤذِّن له عبد الله بن النواجة والذي يقيم له حجير بن عمير، فكان حجير يقول: أشهد أنّ مسيلمة يزعم أنه رسول الله، فقال له مسيلمة: أفصح حجير، فليس في المجمجة خير، وهو أوّل من قالها. وكان مما جاء به وذكر أنّه وحي: يا ضفدع بنت ضفدع نُقّي ما تنقين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين.

وقال أيضًا: «والمبديات زرعًا، والحاصدات حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إهالة وسمنًا،

لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم[١] فأمنعوه، والمعتر فآووه، والباغي فناوِؤوه»، وأتته امرأة فقالت: إن نخلنا لسحيق وإن آبارنا لجرز، فأدع الله لمائنا ونخلنا كما دعا محمّد ﷺ لأهل هزمان، فسأل نهارًا عن ذلك فذكر أنّ النبيّ ﷺ دعا لهم وأخذ من ماء آبارهم فتمضمض منه، ومجّه في الآبار ففاضت ماءًا وأنجبت كل نخلة وأطلعت فسيلًا[٢] قصيرًا مكمّمًا، ففعل مسيلمة ذلك فغار ماء الآبار ويبس النخل، وإنما ظهر ذلك بعد مهلكه.

وقال له نهار: أمِرّ يدك على أولاد بني حنيفة مثل محمد، ففعل وأمرّ يده على رؤوسهم وحنكهم، فقرع كل صبي مسح رأسه، ولثغ كل صبي حنكه ـ وإنما استبان ذلك بعد مهلكه ـ. وقيل: جاءه طلحة النمري فسأله عن حاله فأخبره أنّه يأتيه رجل في ظلمة، فقال: أشهد أنك الكاذب وأن محمّدًا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر، فقتل معه يومَ عقرباء كافرًا.

ولما بلغ مسيلمة دنوّ خالد ضرب عسكره بعقرباء، وخرج إليه الناس وخرج مجاعة بن مرارة في سرية يطلب ثأرًا لهم في بني عامر، فأخذه المسلمون وأصحابه، فقتلهم خالد واستبقاه لشرفه في بني حنيفة، وكانوا ما بين أربعين إلى ستين، وترك مسيلمة الأموال وراء ظهره. فقال شرحبيل بن مسيلمة: يا بني حنيفة قاتلوا فإن اليوم يوم الغيرة، فإن انهزمتم تسترِدف النساء سبيات، وينكحن غير خطيبات، فقاتلوا عن أحسابكم، وامنعوا نساءكم، فاقتتلوا بعقرباء، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وكانت قبله مع عبد الله بن حفص بن غانم فقُتل، فقالوا: نخشى عليك من نفسك، فقال: بِئْس حامل القرآن أنا إذًا. وكانت راية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، وكانت العرب على راياتهم [ومجاعة أسير مع أُمّ تميم في فسطاطها]، والتقى الناس وكان أوّل من لَقِي المسلمين نهار الرجال بن عنفوة فقُتِلَ، قتله زيد بن الخطاب، واشتدّ القتال ولم يلقَ المسلمون حربًا مثلها قط، وانهزم المسلمون وخلص بنو حنيفة إلى مجاعة وإلى خالد، فزال خالد عن الفسطاط ودخلوا [الفسطاط] إلى مجاعة وهو عند امرأة خالد، وكان سلّمه إليها فأرادوا قتلها فنهاهم مجاعة عن قتلها، وقال: أنا لها جار [فنعمت الحرة] فتركوها، وقال لهم: عليكم بالرجال، فقطعوا الفسطاط ثم إن المسلمين تداعوا، فقال ثابت بن قيس: بِئْسَ ما عوّدتم أنفسكم يا معشر المسلمين، اللّهمّ إنّي أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء ـ يعني أهل اليمامة ـ وأعتذر

---

(١) أي: امنعوا ريفكم فلا يغلب عليه غالب. (٢) الفسيلة: النخلة الصغيرة.

إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المسلمين - ثم قاتل حتى قُتِلَ، وقال زيد بن الخطاب: لا نحور بعد الرجال، والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أُقتل، فأُكَلِّمُهُ بحجتي، غضّوا أبصاركم، وعضّوا على أضراسكم أيها الناس، وأضربوا في عدوِّكم، وامضوا قُدُمًا. [ففعلوا فردّوهم إلى مصافهم حتى أعادوهم إلى أبعد من الغاية التي حيزوا إليها من عساكرهم]، وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زيِّنوا القرآن بالفعال؛ وحمل خالد في الناس حتى ردّوهم إلى أبعد مما كانوا، واشتدّ القتال وتدامرت بنو حنيفة وقاتلت قتالاً شديدًا، وكانت الحرب يومئذ تارة للمسلمين، وتارة للكافرين، وقتل سالم، وأبو حذيفة، وزيد بن الخطاب وغيرهم من أولي البصائر.

فلما رأى خالد ما الناس فيه قال: «أمتازوا أيّها الناس لنعلم بلاء كل حيّ، ولنعلم من أين نؤتى»، فامتازوا، وكان أهل البوادي قد جنبوا المهاجرين والأنصار، وجنبهم المهاجرون والأنصار، فلما امتازوا قال بعضهم لبعض: اليوم يستحي من الفرار فما رؤي يوم كان أعظم نكاية من ذلك اليوم، ولم يُدْرَ أيّ الفريقين كان أعظم نكاية غير أنّ القتل كان في المهاجرين والأنصار وأهل القرى أكثر منهم في أهل البوادي، وثَبَتَ مسيلمة فدارتْ رحاهم عليه، فعرف خالد أنّها لا تركد إلّا بقتل مسيلمة، ولم تحفل بنو حنيفة بمن قتل منهم، ثم برز خالد، ودعا إلى البراز ونادى بشعارهم، وكان شعارهم: «يا محمّداه»، فلم يبرز إليه أحد إلّا قتله. ودارت رحى المسلمين [وطحنت]، ودعا خالد مسيلمة فأجابه فعرض عليه أشياء مما يشتهي مسيلمة، فكان إذا هَمَّ بجوابه أعرض بوجهه ليستشير شيطانه، فينهاه أن يُقبل، فأعرض بوجهه مرة، وركبه خالد وأرهقه فأدبر وزال أصحابه، وصَاح خالد في الناس [وقال: دونكم لا تقيلوهم]، فركبوهم فكانت هزيمتهم.

وقالوا لمسيلمة: أين ما كنت تعدنا؟ فقال: قاتلوا عن أحسابكم. ونادى المحكم: يا بني حنيفة الحديقة الحديقة، فدخلوها وأغلقوا عليهم بابها، وكان البَراء بن مالك - وهو أخو أسد بن مالك - إذا حضر الحرب أخذته رعدة حتى يقعد عليه الرجال، ثم يبول فإذا بال ثار كما يثور الأسد؛ فأصابه ذلك فلما بال وثب وقال: إليّ أيها الناس، أنا البَرَاء بن مالك إليّ إليّ، وقاتل قتالاً شديدًا؛ فلما دخلت بنو حنيفة الحديقة قال البراء: يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة، فقالوا: لا نفعل، فقال: والله لتطرحنني عليهم بها، فأحتمل حتى أشرف على الجدار فاقتحمها عليهم وقاتل على الباب وفتحه للمسلمين، ودخلوها عليهم فاقتتلوا أشدّ قتال، وكَثُر القتلى في الفريقين لا سيّما في بني حنيفة، فلم يزالوا كذلك حتى قُتِل مسيلمة، واشترك في

قتله وَحْشِيّ مولى جبير بن مطعم ورجل من الأنصار، [كلاهما قد أصابه] أمّا وحشي فدفع عليه حربته، وضربه الأنصاري بسيفه. قال ابن عمر: فصرخ رجلٌ قتله العبدُ الأسود، فولّت بنو حنيفة عند قتله منهزمة، وأخذهم السيف من كلِّ جانب، وأخبر خالد بقتل مسيلمة فخرج بمجاعة يرسف في الحديد ليدلّه على مسيلمة، فجعل يكشف له القتلى حتى مرّ بمحكم اليمامة، وكان [رجلاً جسيمًا] وسيمًا فقال: هذا صاحبكم، فقال مجاعة: لا، هذا والله خيرٌ منه وأكرم، هذا محكم اليمامة.

ثم دخل الحديقة فإذا رويجل أصيفر أخينس، فقال مجاعة: هذا صاحبكم قد فرغتم منه، وقال خالد: هذا [صاحبكم] الذي فعل بكم ما فعل.

وكان الذي قتل محكم اليمامة عبد الرحمٰن بن أبي بكر رماه بسهم في نحره وهو يخطب ويحرِّض الناس فقتله، وقال مجاعة لخالد: ما جاءك إلّا سرعان الناس وإن الحصون مملوءة [فقال: ويلك ما تقول! قال: هو والله الحق]، فهلم إلى الصلح على ما ورائي، فصالحه على كل شيء دون النفوس. وقال: أنْطلِقُ إليهم فأشاورهم، فانطلق إليهم، وليس في الحصون إلّا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى، فألبسهم الحديد، وأمر النساء أنْ ينشرن شعورهن ويشرفن على الحصون حتى يرجع إليهم، فرجع إلى خالد فقال: قد أبوا أنْ يجيزوا ما صنعت [وقد أشرف لك بعضهم نقضًا عليّ وهم مني براء]، فرأى خالد الحصون مملوءة وقد نهكت المسلمين الحرب وطال اللقاء وأحبّوا أنْ يرجعوا على الظفر، ولم يدروا ما هو كائن [لو كان فيها رجال وقتال]، وقد قتل من المهاجرين والأنصار من [أهل قصبة] المدينة يومئذ ثلاثمائة وستون، ومن المهاجرين من غير المدينة ثلاثمائة رجل، وقتل ثابت بن قيس قَطَعَ رجلٌ من المشركين رجله فأخذها ثابت وضربه بها فقتله، وقتل من بني حنيفة بعقرباء سبعة آلاف وبالحديقة مثلها، وفي الطلب نحو منها، وصالحه خالد على الذهب، والفضة، والسلاح ونصف السبي، وقيل: ربعه، فلما فتحت الحصون لم يكن فيها إلّا النساء والصبيان والضعفاء، فقال خالد لمجاعة: ويحك خدعتني، فقال: هم قومي، ولم أستطع إلّا ما صنعت.

ووصل كتاب أبي بكر إلى خالد أنْ يقتُل كل محتلم، وكان قد صالحهم فوفى لهم ولم يغدر.

ولما رجع الناس قال عمر لابنه عبد الله وكان معهم: ألَا هلكت قبل زيد هلك زيد وأنت حيّ! ألَا واريت وجهك عنّي!

فقال عبد الله: سأل الله الشهادة فأُعطيَها، وجهدتُ أنْ تُساق إليّ فلم أُعطها.

٣٢ ـ ردّة أهل البحرين

لما قدم الجارود بن المعلى العبدي على النبيّ ﷺ وتفقّه ردّه إلى قومه عبد القيس فكان فيهم، فلما مات النبيّ ﷺ وكان المنذر بن ساوى العبدي مريضًا فمات بعد النبيّ ﷺ بقليل، فلما مات المنذر بن ساوى اْرتدّ بعده أهل البحرين، فأمّا بكر فتمّت على ردَّتها، وأمّا عبد القيس فإنهم جمعهم الجارود، وكان بلغه أنّهم قالوا: لو كان محمّد نبيًّا لم يمت، فلما اجتمعوا إليه قال لهم: أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإنّ محمدًا ﷺ قد مات كما ماتوا؛ وأنا أشهد أن لا إلـٰه إلّا الله وأنّ محمدًا رسول الله.

فأسلموا وثبتوا على إسلامهم، وحضر أصحاب المنذر بعده حتى استنقذهم العلاء بن الحضرمي، واجتمعت ربيعة بالبحرين على الردّة إلّا الجارود ومن تبعه، وقالوا: نرد الملك في المنذر بن النعمان بن المنذر، وكان يسمى الغرور، فلما أسلم كان يقول: أنا المغرور ولست بالغرور.

وخرج الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة في بكر بن وائل، فاجتمع إليه من غير المرتدّين ممن لم يزل مشركًا حتى نزل القطيف، وهجر، واستغوى الخط ومن بها من الزط، والسبابحة، وبعث بعثًا إلى دارين، وبعث إلى جُواثا[1]، فحصر المسلمين فاشتد الحصر على مَنْ بها، فقال عبد الله بن حذف، وقد قتلهم الجوع:

أَلَا أبْـلِغْ أبَـا بَـكْـرٍ رسـولاً ... وفِـتْـيـانَ الـمـدينـةِ أجْـمَـعِـيـنَـا

فـهَـلْ لَكُـمُ إلـى قَـوْمَ كِـرام ... قُـعُـود فـي جُـؤاثَـا مُـحْـصَـرِيـنَـا

كَـأَنَّ دِمَـاءَهُـمْ فِـي كُـلِّ فَـجٍّ ... شُعَاعُ الشَّمْسِ تَغْشَى النَّاظِرِينَا

تـوكَّـلْـنَـا عـلـى الـرَّحْـمـٰنِ إنَّـا ... وَجَـدْنَـا الـنَّـصْـر[2] لـلـمـتـوكِّـلـيـنَـا

وكان سبب استنقاذ العلاء بن الحضرمي إيّاهم أن أبا بكر كان قد بعثه على قتال أهل الردّة بالبحرين، فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال الحنفي في مسلمة

(١) جُواثا: حصن لعبد القيس بالبحرين وهو أول موضع جمعت فيه الجمعة بعد المدينة.
(٢) في الطبري: الصبر. وانظر: الأغاني للأصبهاني (١٥/ ٢٥٦ و٢٥٧ و٣/ ٣٠٤).

بني حنيفة ولحق به أيضًا قيس بن عاصم المنقري، وأعطاه بدل ما كان قسم من الصدقة بعد موت النبيّ ﷺ، وانضمّ إليه عمرو والأبناء، وسعد بن تميم، والرباب أيضًا لحقته في مثل عدّته، فسلك بهم الدهناء حتى كانوا في بحبوحتها نزل وأمر الناس بالنزول في الليل، فنفرت إبلهم بأحمالها فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا ماء، فلحقهم من الغمّ ما لا يعلمه إلّا الله، ووصى بعضهم بعضًا فدعاهم العلاء فٱجتمعوا إليه، فقال: ما هذا الذي غلب عليكم من الغمّ؟

فقالوا: كيف نُلام؟ ونحن إن بلغنا غدًا لم تحم الشمس حتى نهلك، فقال: لن تراعوا أنتم المسلمون، وفي سبيل الله، وأنصار الله، فأبشروا، فوالله لن تُخذلوا.

فلما صلّوا الصبح دعا العلاء ودعوا معه فلمع لهم الماء فمشوا إليه وشربوا واغتسلوا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تجمع من كل وجهٍ فأناخت إليهم فسقوها، وكان أبو هريرة فيهم، فلما ساروا عن ذلك المكان قال لمنجاب بن راشد: كيف عِلْمُك بموضع الماء؟ قال: عارفٌ به.

فقال له: كن معي حتى تقيمني عليه، قال: فرجعتُ به إلى ذلك المكان فلم نجد إلّا غدير الماء، فقلت له: والله لولا الغدير لأخبرتك أنّ هذا هو المكان، وما رأيت بهذا المكان ماءًا قبل اليوم، وإذا إداوة مملوءة ماءًا فقال أبو هريرة: هذا والله المكان، وما رأيت[1] ولهذا رجعت بك وملأت إداوتي ثم وضعتها على شفير الغدير، وقلت: إنْ كان منّا من المنّ عرفته وإنْ كان عينًا عرفته، فإذا مَنٌّ مِنَ المنّ فحمد الله ثم ساروا فنزلوا بهَجَر، وأرسل العلاء إلى الجارود يأمره أنْ ينزل بعبد القيس على الحطم مما يليه، وسار هو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلي هجر، فاجتمع المشركون كلّهم إلى الحطم إلّا أهل دارين، واجتمع المسلمون إلى العلاء، وخندق المسلمون على أنفسهم والمشركون، وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون إلى خندقهم فكانوا كذلك شهرًا، فبينا هم كذلك إذْ سمع المسلمون [في عسكر المشركين] ضوضاء هزيمة أو قتال، فقال العلاء: من يأتينا بخبر القوم؟ فقال عبد الله بنَ حذف: أنا، فخرج حتى دنا من خندقهم فأخذوه، وكانت أُمّه عجلية فجعل ينادي: يا أبجراه، فجاء أبجر بن بجير فعرفه فقال: ما شأنك؟ فقال: علام أُقتل وحولي عساكر من عِجْل وتَيْم اللات وغيرها؟

---

(١) قوله: وما رأيتُ ليس موجودًا في الطبري.

فخلّصه، فقال له: والله إني لأظنك بئس ابن أخت أتيتَ الليلة أخوالك.

فقال: دعني من هذا وأطعمني فقد مِتُّ جوعًا، فقرّب له طعامًا فأكل، ثم قال: زوّدني واحملني، يقول هذا لرجل قد غلب عليه السكر فحمله على بعير وزوّده وجوّزه، فدخل عسكر المسلمين فأخبرهم أنّ القوم سكارى، فخرج المسلمون عليهم فوضعوا فيهم السيف كيف شاؤوا، وهرب الكفار فمن بين متردٍّ، وناجٍ، ومقتولٍ، ومأسورٍ، واستولى المسلمون على العسكر ولم يفلت رجل إلّا بما عليهِ. فأمّا أبجر فأفلت، وأمّا الحطم فقُتِلَ، قتله قيس بن عاصم بعد أن قطع عفيف بن المنذر التميمي رجله، وطلبهم المسلمون، فأسر عفيف المنذر بن النعمان بن المنذر الغرور فأسلم، وأصبح العلاء فقسّم الأنفال، ونفل رجالاً من أهل البلاء ثيابًا فأعطى ثمامة بن أثال الحنفي خميصة ذات أعلام كانت للحطم يباهي بها، فلما رجع ثمامة بعد فتح دارين رآها بنو قيس بن ثعلبة فقالوا له: أنت قتلت الحطم، فقال: لم أقتله ولكني اشتريتها من المغنم، فوثبوا عليه فقتلوه.

وقصد عظم الفلال إلى دارين فركبوا إليها السفن، ولحق الباقون ببلاد قومهم، فكتب العلاء إلى من ثبت على إسلامه من بكر بن وائل منهم عتيبة بن النهاس، والمثنى بن حارثة وغيرهما يأمرهم بالقعود للمنهزمين والمرتدّين بكل طريق، ففعلوا وجاءت رسلهم إلى العلاء بذلك فأمر أنْ يؤتى من وراء ظهره، فندب حينئذ الناس إلى دارين، وقال لهم: قد أراكم الله من آياته في البرّ لتعتبروا بها في البحر فأنهضوا إلى عدوّكم، وأستعرِضوا البحر.

وارتحل وارتحلوا حتى اقتحم البحر على الخيل والإبل والحمير وغير ذلك، وفيهم الراجل ودعا ودعوا وكان من دعائهم: «يا أرحم الرّاحمين، يا كريم، يا حليم، يا أحد، يا صمد، يا حيّ، يا محيي الموتى، يا حيّ، يا قيُّوم، لا إلٰه إلّا أنت، يا ربّنا».

فاجتازوا ذلك الخليج بإذن الله يمشون على مثل رملة فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل، وبين الساحل ودارين يومٌ وليلة بسفن البحر فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فظفر المسلمون، وانهزم المشركون، وأكثر المسلمون القتل فيهم فما تركوا بها مخبرًا وغنموا وسبوا، فلما فرغوا رجعوا حتى عبروا، وضرب الإسلام فيها بجرانه، وكتب العلاء إلى أبي بكر يعرّفه هزيمة المرتدّين، وقتل الحطم، وكان مع المسلمين راهب من أهل هَجَر فأسلم، فقيل له: ما حملك على الإسلام؟

قال: ثلاثة أشياء: خشيتُ أن يمسخني الله بعدها فيض في الرمال، وتمهيد أثباج البحر[١]، ودعاء سمعتُه في عسكرهم في الهواء سحرًا: «اللّٰهمّ أنت الرحمٰن الرحيم، لا إلٰه غيرك، والبديع فليس قبلك شيء، والدائم غير الغافل، الحيّ الذي لا يموت، وخالق ما يرى وما لا يرى وكل يوم أنت في شأن، علمت كل شيء بغير تعلم».

فعلمتُ أنّ القوم لم يعانوا بالملائكة إلّا وهم على حق، فكان أصحاب النبيّ ﷺ يسمعون هذا منه بعد.

٣٣ ـ ردَّة أهل عمان ومهرة

قد اختلف في تاريخ حرب المسلمين هؤلاء المرتدّين، فقال ابن إسحاق: كان فتح اليمامة واليمن والبحرين وبعث الجنود إلى الشام سنة اثنتي عشرة، وقال أبو معمر، ويزيد بن عياض، وابن جعدبة، وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر: إنّ فتوح الردَّة كلها [كانت] لخالد وغيره سنة إحدى عشرة إلّا أمر ربيعة بن بجير فإنه كان سنة ثلاث عشرة، وقِصَّته أنه بلغ خالد بن الوليد أنّ ربيعة بالمصيخ[٢] والحصيد في جمعٍ من المرتدّين، فقاتله وغنم وسبى وأصاب ابنة لربيعة فبعث بها إلى أبي بكر فصارت إلى عليّ بن أبي طالب.

وأمّا عمان فإنه نبغ بها ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وكان يسامى[٣] في الجاهلية الجنفذي، وادعى بمثل ما ادّعى من تنبّأ، وغلب على عمان مرتدًا، والتجأ جيفر وعباد إلى الجبال وبعث جيفر إلى أبي بكر يخبره ويستمدّه عليه، وبعث أبو بكر حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير، وعرفجة البارقي من الأزد حذيفة إلى عمان، وعرفجة إلى مهرة، وكل منهما أمير على صاحبه في وجهه فإذا قربا من عمان يكاتبان جيفرًا فسار إلى عمان، وأرسل أبو بكر إلى عكرمة بن أبي جهل وكان بعثه إلى اليمامة فأصيب، فأرسل إليه أنْ يلحق بحذيفة وعرفجة بمن معه يساعدهما على أهل عمان ومهرة فإذا فرغوا منهم سار إلى اليمن فلحقهما عكرمة قِبَل عمان، فلما وصلوا رجامًا ـ وهي قريب من عمان ـ كاتبوا جيفرًا وعبادًا، وجمع لقيط جموعه، وعسكر بدَبا،

---

(١) ثبج: وسطه ومعظمه.

(٢) المصيخ: موضع يقال له مصيخ بني برشاء وهو بين حوران والقلت.

(٣) في الأصول: يسمّى، وصححناه من الطبري (م).

وخرج جيفر وعباد وعسكرا بصُحَار[١]، وأرسلا إلى حذيفة وعكرمة وعرفجة [في القدوم عليهما] فقدموا عليهما، وكاتبوا رؤساء مع لقيط [وبدأوا بسيد بني جديد فكاتبهم وكاتبوه حتى] ارفضّوا عنه، ثم التقوا على دَبا فاقتتلوا قتالاً شديدًا، واستعلى لقيط، ورأى المسلمون الخلل، ورأى المشركون الظفر، فبينا هم كذلك جاءت المسلمين موادهم العظمى من بني ناجية وعليهم الخريت بن راشد، ومن عبد القيس، وعليهم سيحان بن صُوحان وغيرهم، فقوّى الله المسلمين [بهم ووهن بهم أهل الشرك]، فولّى المشركون الأدبار، فقُتل منهم في المعركة عشرة آلاف، وركبوهم حتى أثخنوا فيهم وسبوا الذراري، وقسموا الأموال وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عرفجة، وأقام حذيفة بعمان [حتى يوطئ الأمور]، ويسكن الناس.

وأمّا مهرة، فإنّ عكرمة بن أبي جهل سار إليهم لمّا فرغ من عمان ومعه من استنصر من ناجية، وعبد القيس، وراسب، وسعد؛ فاقتحم عليهم بلادهم، فوافق بها جمعين من مهرة أحدهما مع سخريت رجل منهم، والثاني مع المصبح أحد بني محارب، ومعظم الناس معه، وكانا مختلفين فكاتب عكرمة سخريتًا فأجابه وأسلم، وكاتب المصبح يدعوه فلم يجب؛ فقاتله قتالاً شديدًا [أشدّ من قتال دَبَا]، فانهزم المرتدّون وقتل رئيسهم وركبهم المسلمون، فقتلوا من شاؤوا منهم وأصابوا ما شاؤوا من الغنائم، وبعث الأخماس إلى أبي بكر مع سخريت وازداد عكرمة وجنده قوّة بالظهر والمتاع، وأقام عكرمة حتى اجتمع الناس على الذي يحب وبايعوا على الإسلام.

٣٤ ـ ردّة اليمن

لما توفي رسول الله ﷺ وعلى مكّة وأرضها عتاب بن أسيد، وعلى عك والأشعريّين الطاهر بن أبي هالة، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص، ومالك بن عوف النصري: عثمان على المدن، ومالك على أهل الوبر وبصنعاء فيروز، وداذويه يسانده، وقيس بن مكشوح، وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلى مأرب أبو موسى، وكان منهم مع الأسود الكذاب ما ذكرناه، فلما أهلك الله الأسود العنسي بقي طائفة من أصحابه يتردّدون بين صنعاء ونجران لا تأوي على أحد، ومات النبيّ ﷺ على أَثَر ذلك فارتدّ الناس، فكتب عتاب بن أُسَيْد إلى أبي بكر يعرّفه خبر مَن ارتدّ في

(١) صحار: هضبة عمان ما يلي الجبل كانت مدينة كثيرة الخيرات.

عمله، وبعث عتاب أخاه خالدًا إلى أهل تهامة وبها جماعة من مدلج وخزاعة وأبناء كنانة. وأمّا كنانة فعليهم جندب بن سلمى، فالتقوا بالأبارق فقتلهم خالد وفرّقهم وأفلت جندب وعاد، وبعث عثمان بن أبي العاص بعثًا إلى شنوأة وبها جماعة من الأزد وبجيلة وخثعم، وعليهم حُميضة بن النعمان، واستعمل عثمان على السرية عثمان بن أبي ربيعة، فالتقوا بشنوأة فأنهزم الكفار وتفرّقوا، وهرب حميضة في البلاد.

وأمّا الأخابث من العكِ، فكانوا أول منتقض بتهامة بعد النبيّ ﷺ [ثم تجمّع] عك والأشعريّون وأقاموا على الأعلاب [طريق الساحل]، فسار إليهم الطاهر بن أبي هالة ومعه مسروق وقومه من عك ممن لم يرتد فالتقوا على الأعلاب، فانهزمت عك ومن معهم وقتلوا قتلاً ذريعًا [وأنتنت السبل لقتلهم]، وكان ذلك فتحًا عظيمًا، وورد كتاب أبي بكر على الطاهر يأمره بقتالهم وسَمَّاهم الأخابث، وسمى طريقهم طريق الأخابث، فبقي الاسم عليهم إلى الآن.

وأمّا أهل نجران، فلمّا بلغهم موت النبيّ ﷺ [وهم يومئذ أربعون ألف مقاتل]، أرسلوا وافدًا ليجدّدوا عهدهم مع أبي بكر، فكتب بذلك كتابًا.

وأمّا بجيلة، فإن أبا بكر ردّ جرير بن عبد الله وأمره أنْ يستنفر من قومه مَنْ ثبت على الإسلام ويقاتل بهم من ارتدّ على الإسلام، وأن يأتي خثعم فيقاتل من خرج غضبًا لذي الخلصة، فخرج جرير وفعل ما أمره فلم يقم له أحد إلّا نفر يسير، فقتلهم وتتبّعهم.

٣٥ ـ ردّة اليمن ثانية

وكان ممن ارتدّ ثانية قيس بن عبد يغوث بن مكشوح، وذلك أنه لما بلغه موت النبيّ ﷺ عمل في قتل فيروز وداذويه وجشيش، وكتب أبو بكر إلى عمر ذي مران وإلى سعيد ذي زود، وإلى ذي الكِلاع، وإلى حوشب ذي ظليم، وإلى شهر ذي نياف يأمرهم بالتمسّك بدينهم والقيام بأمر الله ويأمرهم بإعانة الأبناء على من ناوأهم، والسمع لفيروز. وكان فيروز، وداذويه وقيس قبل ذلك متساندين، فلما سمع قيس بذلك كتب إلى ذي الكلاع وأصحابه يدعوهم إلى قتل الأبناء، وإخراج أهلهم من اليمن فلم يجيبوه ولم ينصروه على الأبناء، فاستعدّ لهم قيس[وتربّص لقتل رؤسائهم]، وكاتب أصحاب الأسود المتردّدين في البلاد سرًّا يدعوهم ليجتمعوا معه فجاؤوا إليه، فسمع بهم أهل صنعاء فقصد قيس فيروز وداذويه، فاستشارهما في أمره

خديعة منه ليلبس عليهما ولئلا يتهماه فاطمأنّا إليه، ثم إنّ قيسًا صنع من الغد طعامًا ودعا داذويه وفيروز وجشيش، فخرج داذويه فدخل عليه فقتله، وجاء إليه فيروز فلما دنا منه سمع امرأتين [على سطحين] تتحدّثان، فقالت إحداهما: هذا مقتول كما قُتل داذويه، فخرج فطلبه أصحاب قيس فخرج يركض ولقيه جشيش فرجع معه فتوجّها نحو جبل خولان وهم أخوال فيروز فصعدا الجبل ورجعت خيول قيس فأخبروه فثار بصنعاء وما حولها، وأتته خيول الأسود، واجتمع إلى فيروز جماعة من الناس، وكتب إلى أبي بكر يخبره، واجتمع قيس عوام قبائل من كتب أبو بكر إلى رؤسائهم، واعتزل الرؤساء، وعمد قيس إلى الأبناء ففرّقهم ثلاث فرق من أقام أقرّ عياله، والذين ساروا مع فيروز فرق عيالهم فرقتين، فوجّه إحداهما إلى عدن ليحملوا في البحر وحمل الأخرى في البرّ، وقال لهم جميعهم: الحقوا بأرضكم، [وبعث معهم من يسيّرهم، فكان عيال الديلمي ممن سُيِّر في البر، وعيال داذويه ممن سُيِّر في البحر]، فلما علم فيروز ذلك جدّ في حربه وتجرّد لها وأرسل إلى بني عقيل بن ربيعة بن عامر يستمدّهم وإلى عك ليستمدّهم، فركبت عقيل [وعليهم رجل من الحلفاء يقال له معاوية]، فلقوا خيل قيس بن عامر، ومعهم عيالات الأبناء الذين كان قد سيَّرهم قيس فاستنقذوهم وقتلوا خيل قيس، وسارت عك [وعليهم مسروق] فاستنقذوا طائفة أخرى من عيالات الأبناء، وقتلوا من معهم من أصحاب قيس، وأمدَّت عقيل وعك فيروز بالرجال، فلما أتته أمدادُهم خرج بهم وبمن اجتمع عنده فلقوا قيسًا دون صنعاء، فاقتتلوا قتالاً شديدًا وانهزم قيس وأصحابه، وتذبذب أصحاب العنسي وقيس معهم فيما بين صنعاء ونجران. قيل: وكان فروة بن مسيك قدم على النبيّ ﷺ مسلمًا فاستعمله النبيّ ﷺ على صدقات مراد ومَنْ نازلهم ونزل دارهم، وكان عمرو بن معديكرب الزبيدي قد فارق قومه سعد العشيرة وانحاز إليهم، وأسلم معهم، فلما ارتدّ العنسي ومعه مَذحج ارتد عمرو فيمن ارتدّ، وكان عمرو مع خالد بن سعيد بن العاص فلما ارتدّ سار إليه خالد فلقيه [فاْختلفا ضربتين] فضربه خالد على عاتقه [فقطع حمالة سيفه فوقع ووصلت الضربة إلى عاتقه، وضربه عمرو فلم يصنع شيئًا]، فهرب منه وأخذ خالد سيفه الصمصامة وفرسه، فلما ارتدّ عمر وجعله العنسي بإزاء فروة فامتنع كلُّ واحدٍ منهما من البراح لمكان صاحبه، فبينما هم كذلك قدم عكرمة بن أبي جهل أَبْيَن[1] من مهرة ـ وقد تقدم ذكر قتال مهرة ـ ومعه بشر كثير من مهرة وغيرهم، فاستبرأ النخع وحمير، وقدم أيضًا

---

(١) أبين: مخلاف باليمن منه عدن.

المهاجر بن أبي أُمية في جمع من مكّة والطائف وبُجَيْلة مع جرير إلى نجران، فانضمّ إليه فروة بن مُسيك المرادي فأقبل عمرو بن معديكرب مستخفيًا حتى دخل على المهاجر من غير أمان فأوثقه المهاجر وأخذ قيسًا أيضًا فأوثقه، وسيَّرهما إلى أبي بكر، فقال: يا قيس قتلت عباد الله؛ واتّخذت المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين [وهَمَّ بقتله لو وجد أمرًا جليًا]، فانتفى قيس من أنْ يكون قارف من أمر داذويه شيئًا ـ وكان قتله سرًّا ـ فتجافى له عن دمه، وقال لعمرو: أمَا تستحي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور لو نصرت هذا الدين لرفعك الله.

فقال: لا جَرَم لأقبلن ولا أعود، [ثم خلّى سبيله]، ورجعا إلى عشائرهم، فسار المهاجر من نجران والتقت الخيول على أصحاب العنسي فاستأمنوا فلم يؤمنهم وقتلهم بكل سبيل، ثم سار إلى صنعاء فدخلها وكتب إلى أبي بكر بذلك.

٣٦ ـ ردّة حضرموت وكندة

لما توفّي رسول الله ﷺ وعماله على بلاد حضرموت: زياد بن لبيد الأنصاري على حضرموت، وعكاشة بن أبي أُمية على السكاسك والسكون، والمهاجر بن أبي أُمية على كندة استعمله النبيّ ﷺ ولم يخرج إليها حتى توفّي النبيّ ﷺ، فبعثه أبو بكر [بعد] إلى قتال مَنْ باليمن، ثم المسير بعد إلى عمله، وكان قد تخلّف عن رسول الله ﷺ بتبوك، فرجع رسول الله ﷺ وهو عاتب عليه فبينما أُمّ سلمة تغسل رأس النبيّ ﷺ قالت: كيف ينفعني عيش وأنت عاتب على أخي؟ فرأت منه رِقَّة فأومأت إلى خادمها فدعته فلم يزل بالنبيّ ﷺ يذكر عذره حتى [عَذَره] ورضي عنه واستعمله على كندة، فتوفي النبيّ ﷺ ولم يَسِر إلى عمله ثم سار بعده، وكان سبب ردَّة كندة وإجابتهم الأسود الكذاب حتى لعن النبيّ ﷺ الملوك الأربعة منهم أنهم لما أسلموا أمر رسول الله ﷺ أن يوضع بعض صدقة حضرموت في كندة، وبعض صدقة كندة في حضرموت، وبعض صدقة حضرموت في السكون، وبعض صدقة السكون في حضرموت، فقال بعض بني وليعة من كندة لحضرموت: ليس لنا ظهر، فإنْ رأيتم أنْ تبعثوا إلينا بذلكَ على ظهر.

قالوا: فإنّا ننظر، فإن لم يكن لكم ظهر فعلنا.

فلما توفّي رسول الله ﷺ [وجاء ذلك الأبان دعا زياد الناس إلى ذلك فحضروه]، قالت بنو وليعة: أبلغونا كما وعدتم رسول الله ﷺ.

فقالوا: إنّ لكم ظهرًا [فهلمّوا] فٱحتملوا، فقالوا لزياد: أنت معهم علينا فأتى الحضرميون ولج الكنديون ورجعوا إلى دارهم وتردّدوا في أمرهم، وأمسك عنهم زياد انتظارًا للمهاجر، وكان المهاجر لما تأخر بالمدينة قد استخلف زيادًا على عمله، وسار المهاجر من صنعاء إلى عمله، وعكرمة بن أبي جهل أيضًا [فالتقيا بمأرب، ثم فوزا من صهيد حتى اقتحما حضرموت]، فنزل أحدهما على الأسود والآخر على وائل، وكان زياد بن لبيد قد وَلِيَ صدقات بني عمرو بن معاوية من كندة بنفسه فقدم عليهم [وهم بالرياض]، فكان أوّل مَن انتهى إليه منهم شيطان بن حجر فأخذ منهم بكرة ووسمها، فإذا الناقة للعدّاء بن حجر أخي شيطان [وليست عليه صدقة]، وكان أخوه قد أوهم حين أخرجها، وكان اسمها شذرة وظنّها غيرها، فقال العدّاء: هذه ناقتي، فقال شيطان: صدق [أخي فإني لم أعطكموها إلّا وأنا أراها غيرها]، فأطلقها وخُذْ غيرها.

[فرأى زياد أنّ ذلك منه اعتلال] فٱتّهمه بالكفر ومباعدة الإسلام فمنعهما عنها، وقال: صارت في حقّ الله فلجّا في أخذها.

فقال لهما: لا تكونن شذرة عليكم كالبسوس.

فنادى العداء: يا آل عمرو [بالرياض] أضام وأضطهد! إنّ الذليل مَنْ أُكِلَ فيُ داره[1]، ونادى حارثة بن سُراقة بن معديكرب فأقبل إلى زياد وهو واقف، فقال: أطلق بكرة الرجل وخذ غيرها.

فقال زياد: ما لي إلى ذلك سبيل؟ فقال حارثة: ذاك إذا كنت يهوديًا [وعاج إليها] وأطلق عقالها [ثم ضرب على جنبها] فبعثها، وقام دونها فأمر زياد شبابًا من حضرموت والسكون فمنعوه وكتّفوه وكتّفوا أصحابه وارتهنوهم وأخذوا البكرة، وتصايحت كندة وغضبت بنو معاوية لحارثة وأظهروا أمرهم، وغضبت حضرموت والسكون لزياد وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء [وهؤلاء]، ولم يحدث بنو معاوية شيئًا لمكان أسراهم ولم يجد أصحاب زياد سبيلاً [على بني معاوية] يتعلقون به عليهم، وأمرهم زياد بوضع السلاح فلم يفعلوا، وطلبوا أسراهم فلم يطلقهم، [وقال له السكون: ناهد القوم فإنه لا يعظمهم إلّا ذلك]، ونهد إليهم ليلاً فقتل منهم وتفرّقوا، فلما تفرّقوا أطلق حارثة ومن معه، فلما رجع الأسرى إلى أصحابهم

---

(١) هذا مثل يضرب لمن ذلّ في موضع التعزّز وضعف حيث ينتظر قدرته.

حرّضوهم على زياد ومن معه، واجتمع منهم عسكر كثير، ونادوا بمنع الصدقة، [فتركهم زياد، ولم يخرجه إليهم، وتركوا المسير إليه]، فأرسل الحصين بن نمير [إليهم، فما زال يسفر فيما بينهم وبين زياد وحضرموت والسكون حتى] سكن بعضهم عن بعض، فأقاموا بعد ذلك يسيرًا، ثم إنّ بني عمرو بن معاوية من كندة نزلوا المحاجر ـ وهي أحماء حموها ـ فنزل جمد محجرًا، ومخوص محجرًا، ومشرح محجرًا، وأبضعة محجرًا، وأختهم العمردة محجرًا، وهم الملوك الأربعة رؤساء عمرو الذين لعنهم رسول الله ﷺ، وقد ذُكِروا قبل، ونزلت بنو الحارث بن معاوية محاجرها، فنزل الأشعث بن قيس محجرًا، والسمط بن الأسود محجرًا، وأطبقت بنو معاوية كلّها على منع الصدقة إلّا شرحبيل بن السمط وابنه فإنّهما قالا لبني معاوية: إنه لقبيح بالأحرار التنقّل، إن الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرّمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار، فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحقّ إلى الباطل والقبيح؟ اللّهمّ إنّا لا نمالئ قومنا على ذلك.

وانتقل ونزل مع زياد ومعهما امرؤ القيس بن عابس، وقالا له: بَيّت القوم فإن أقوامًا من السكاسك والسكون قد انضمّوا إليهم، وكذلك شذاذ من حضرموت، فإن لم تفعل خشينا أن تتفرّق الناس عنّا إليهم.

فأجابهم إلى تبييت القوم، فأجتمعوا وطرقوهم فوجدوهم جلوسًا حول نيرانهم [فعرفوا من يريدون]، فأكبّوا على بني عمرو بن معاوية وفيهم العدد والشوكة من خمسة أوجه [في خمس فرق] فأصابوا مشرحًا، ومخوصًا، وجمدًا، وأبضعة وأختهم العمرّدة، وأدركتهم لعنة النبيّ ﷺ، وقتلوا فأكثروا، وهرب من أطلق الهرب، [ووهنت بنو عمرو بن معاوية فلم يأتوا بخيرٍ بعدها]، وعاد زياد بن لبيد بالأموال والسبي، واجتازوا بالأشعث، فثار في قومه واستنقذهم، وجمع الجموع، وكتب زياد إلى المهاجر يستحثّه فلقيه الكتاب بالطريق، فاستخلف على الجند عكرمة بن أبي جهل وتعجّل في سرعان الناس وقدم على زياد، وسار إلى كندة فالتقوا بمحجر الزُّرقان فاقتتلوا، فانهزمت كندة وقُتلت وخرجوا هرابًا، فالتجؤوا إلى النجير، وقد رموه وأصلحوه.

وسار المهاجر فنزل عليهم واجتمعت كندة في النجير فتحصّنوا به فحصرهم المسلمون، وقَدِم إليهم عكرمة فاشتدّ الحصر على كندة وتفرّقت السرايا في طلبهم، فقتلوا منهم، وخرج من بالنجير من كندة وغيرهم فقاتلوا المسلمين فكَثُر فيهم القتل،

فرجعوا إلى حصنهم، وخشعت نفوسهم، وخافوا القتل، وخاف الرؤساء على نفوسهم، فخرج الأشعث ومعه تسعة نفر، فطلبوا من زياد أن يؤمّنهم وأهليهم على أن يفتحوا له الباب، فأجابهم إلى ذلك وقال: اكتبوا ما شئتم، ثم هلمّوا الكتاب حتى أختمه.

ففعلوا، ونسي الأشعث أنْ يكتب نفسه لأن جحدمًا وثب عليه بسكين، فقال: تكتبني أو أقتلك فكتبه، ونسي نفسه ففتحوا الباب فدخل المسلمون فلم يدعوا [فيه] مقاتلاً إلّا قتلوه وضربوا أعناقهم صبرًا وأخذوا الأموال والسبي، فلما فرغوا منهم دعا الأشعث أولئك النفر والكتاب معهم فعرضهم فأجاز مَنْ في الكتاب، فإذا الأشعث ليس منهم، فقال المهاجر: الحمد لله الذي خطأك نوءك، يا أشعث، يا عدوّ الله، قد كنت أشتهي أنْ يخزيك الله.

وشَدَّه كتافًا [وهمّ بقتله]، فقيل له: أَخِّرْه وسَيِّرْه إلى أبي بكر فهو أعلم بالحكم فيه، فسيَّره إلى أبي بكر مع السبي.

وقيل: إن الحصار لما اشتدّ على مَنْ بالنجير نزل الأشعث إلى المهاجر وزياد والمسلمين، فسألهم الأمان على دمه وماله حتى يقدموا به على أبي بكر فيرى فيه رأيه على أنْ يفتح لهم النجير، ويسلّم إليهم مَنْ فيه، وغدر بأصحابه، فقبلوا ذلك منه، ففتح لهم الحصن فاستنزلوا من فيه من الملوك فقتلوهم، وأوثقوا الأشعث، وأرسلوه مع السبي إلى أبي بكر، فكان المسلمون يلعنونه ويلعنه سبايا قومه، وسماه نساء قومه «عرف النار»، وهو اسم الغادر عندهم، فلما قدم المدينة قال له أبو بكر: ما تراني أصنع بك؟ قال: لا أعلم، قال: فإني أرى قتلك، قال: فإني أنا الذي راوضت القوم في عشرة فما يحلّ دمي. [قال: أفوَّضوا إليك؟ قال: نعم، قال: ثم أتيتهم بما فوّضوا إليك فختموه إليك، قال: نعم]، قال: إنما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على مَنْ فيها، وإنما كنت قبل ذلك مراوضًا.

فلمّا خشي القتل قال: أوَ تحتسب فيَّ خيرًا فتطلق أسارى، وتقيلني عثرتي، وتفعل بي مثل ما فعلت بأمثالي وتردّ عليَّ زوجتي؟ ـ وقد كان خطب أُم فروة أخت أبي بكر، فلما قدم على النبيّ ﷺ أخَّرها إلى أن يقدم الثانية، فمات النبيّ ﷺ وارتدّ ـ فإن فعلت ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله

فحقن دمه وردَّ عليه أهله وأقام بالمدينة حتى فتح العراق، وقسم الغنائم بين الناس.

٣٧ ـ يوم ذات السلاسل[١]

أرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة يأمره بالمسير إلى العراق ـ وقيل: بل قدم المدينة من اليمامة فسيَّره أبو بكر إلى العراق ـ فسار حتى نزل ببانقيا[٢]، وباروسما[٣]، وألَّيس[٤]، وصالحه أهلها، وكان الذي صالحه عليها ابن صلوبا على عشرة آلاف دينار سوى حرزة كسرى، وكانت على كل رأس أربعة دراهم، وأخذ منهم الجزية، ثم سار حتى نزل الحيرة ـ فخرج إليها أشرافها مع إياس بن قبيصة الطائي ـ وكان أميرًا عليها بعد النعمان بن المنذر ـ فدعاهم خالد إلى الإسلام أو الجزية أو المحاربة، فاختاروا الجزية، فصالحهم على تسعين ألف درهم، فكانت أوّل جزية أُخذت من الفرس في الإسلام، هي والقريات التي صالح عليها، وقيل: إنما أمره أبو بكر أن يبدأ بالأُبُلَّة وكتب إلى عياض بن غنم أنْ يقصد العراق ويبدأ بالمُصَيَّخ ويدخل العراق من أعلاه، ويسير حتى يلقى خالدًا، وكان المثنى بن حارثة الشيباني قد استأذن أبا بكر أن يغزو بالعراق، فأذن له، فكان يغزوهم قبل قدوم خالد، وأمر أبو بكر خالدًا وعياضًا أن يستنفرا من قاتل أهل الردّة وأن لا يغزون معهما مرتدًّا[٥] ففعلا، وكتبا إليه يستمدّانه، فأمدّ خالدًا بالقعقاع بن عمرو التميمي[٦]، فقيل له: أتمد [رجلاً قد ارفضّ عنه جنوده] برجلٍ واحد؟ فقال: لا يُهزم جيشٌ فيهم مثل هذا.

وأمدّ عياضًا بعبد بن غوث الحميري، وكتب أبو بكر إلى المثنى، وحرملة، ومعذور، وسلمى أنْ يلحقوا بخالد بالأُبُلَّة؛ فقدم خالد ومعه عشرة آلاف مقاتل، وكان مع المثنى وأصحابه ثمانية آلاف، ولما قدم خالد فرّق جنده ثلاث فرق ولم يحملهم على طريق واحد، على مقدمته المثنى، وبعده عديّ بن حاتم، وجاء خالد بعدهما، ووعدهما الحفير[٧] [ليجتمعوا به، و] ليصادموا عدوّهم، وكان ذلك الفرج

---

(١) في المحرم سنة ١٢ من الهجرة.

(٢) بانقيا: ناحية من نواحي الكوفة على شاطئ الفرات.

(٣) باروسما: ناحيتان من نواحي بغداد يقال لهما باروسما الأعلى وباروسما الأسفل.

(٤) أُلَّيس: موضع في أول أرض العراق من ناحية البادية، وقيل: قرية من قرى الأنبار.

(٥) في المطبوعة: (مرتد)، بدون التنوين.

(٦) القعقاع بن عمرو التميمي: شهد مع عليّ الجمل وغيرها، قال فيه أبو بكر الصديق: «صوت القعقاع خيرٌ من ألف رجل» (أسد الغابة ٤/١٠٩).

(٧) الحفير: موضع بين مكّة والمدينة، وحفير: نهر بالأردن بالشام.

أعظم فروج فارس شأنًا وأشدُّها شوكةً، فكان صاحبه أسوار اسمه هرمز، فكان يحارب العرب في البرِّ، والهند في البحر، فلما سمع هرمز بهم كتب إلى أزدشير الملك بالخبر [وجمع جموعه] ثم تعجّل هو إلى الكواظم في سرعان أصحابه [ليتلقّى خالدًا] فسمع أنّهم تواعدوا الحفير فسبقهم إليه، ونزل به، وجعل على مقدمته قباذ وأنوشجان وكانا من أولاد أردشير الأكبر واقترنوا في في السلاسل لئلا يفروا فسمع بهم خالد، فمال بالناس إلى كاظمة[1] فسبقه هرمز إليها، وكان سيّئ المجاورة للعرب، فكلّهم عليه حَنِق، وكانوا يضربونه مثَلًا [في الخبث]، فيقولون: أكفر من هرمز.

وقدم خالد فنزل على غير ماء، فقال له أصحابه في ذلك: ما تفعل؟ فقال لهم: لعمري ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقين [وأكرم الجندين]، فحطّوا أثقالهم [والخيل وقوف]، وتقدم خالد إلى الفرس، فلاقاهم [واقتتلوا] وأرسل الله سحابة فأغدرت وراء صف المسلمين فقويت قلوبهم، وخرج هرمز ودعا خالدًا إلى البراز وواطأ أصحابه على الغَدْر بخالد، فبرز إليه خالد ومشى نحوه راجلًا ونزل هرمز أيضًا وتضاربا، فاحتضنه خالد، وحمل أصحاب هرمز فما شغله ذلك عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو فأزاحهم، وانهزم أهل فارس، وركبهم المسلمون [إلى الليل]، وسمّيت الوقعة «ذات السلاسل»، ونجا قباذ وأنوشجان.

وأخذ خالد سلب هرمز، وكانت قلنسوته بمائة ألف لأنّه كان قد تمّ شرفه في الفرس، وكانت هذه عادتهم إذا تمّ شرف الإنسان تكون قلنسوته بمائة ألف[2]، وبعث خالد بالفتح والأخماس إلى أبي بكر، وسار حتى نزل بموضع الجسر الأعظم بالبصرة، وبعث المثنى بن حارثة في آثارهم، وأرسل معقل بن مُقرّن إلى الأُبلّة ففتحها فجمع الأموال بها والسَّبْي، وهذا القول خلاف ما يعرفه أهل النقل؛ لأن فتح الأُبُلّة كان على يد عتبة بن غزوان أيام عمر بن الخطاب سنة أربع عشرة، وحاصر المثنى بن حارثة حصن المرأة ففتحه، وأسلمت، ولم يعرض خالد وأصحابه إلى الفلاحين، لأن أبا بكر أمرهم بذلك.

---

(١) كاظمة: على سيف الخليج الفارسي في طريق البحرين من البصرة.

(٢) كان تمام شرف أحدهم أن يكون من بيوتات السبعة، ونفل أبو بكر القلنسوة خالد بن الوليد، وكانت مفصّصة بالجواهر.

٣٨ ـ يوم الثنيّ[١]

كتب هرمز إلى أردشير بخبر خالد أمدّه بقارن بن قريانس [فخرج قارن من المدائن ممد الهرمز]؛ فلما انتهى إلى المذار لقيته المنهزمون، فاجتمعوا، ورجعوا ومعهم قباذ وأنوشجان، ونزلوا الثنيّ ـ وهو النهر ـ وسار إليهم خالد فلقيهم، واقتتلوا فبرز قارن فقتله معقل بن الأعشى بن النباش، وقتل عاصم أنوشجان، وقتل عديّ بن حاتم قباذ، وكان شرف قارن قد انتهى، ولم يقاتل المسلمون بعده أحدًا انتهى شرفه [في الأعاجم]، وقتل من الفرس مقتلة عظيمة يبلغون ثلاثين ألفًا سوى مَنْ غَرِق، ومنعت المياهُ المسلمين من طلبهم، وقُسِمَ الفَيْء وأنفذ الأخماس إلى المدينة وأعطى الأسلاب من سلبها، وكانت الغنيمة عظيمة وسبى عيالات المقاتلة، وأخذ الجزية من الفلّاحين وصاروا ذمّة، وكان في السبي أبو الحسن البصري، وكان نصرانيًا، وأمّر على الجند سعيد بن النعمان، وعلى الحرز سويد بن مقرّن المزني، وأمره بنزول الحفير [وأمره ببثّ عمّاله، ووضع يده في الجباية]، وأقام يتجسّس الأخبار.

٣٩ ـ يوم الوَلَجَة[٢]

ولما فرغ خالد من الثنيّ وأتى الخبر أردشير بعث الأندرزغر، وكان فارسًا من مولدي السواد، وأرسل بهمن جاذويه في أثره في جيش وحشر إلى الأندرزغر من بين الحيرة وكسكر، ومن عرب الضاحية، والدهاقين، وعسكروا بالولجة، وسمع بهم خالد، فسار إليهم من الثنيّ فلقيهم بالوَلَجة، وكمن له، فقاتلهم قتالاً شديدًا أشدّ من الأول حتى ظنّ الفريقان أنّ الصبر قد فرغ واستبطأ خالد كمينه [وكان قد وضع لهم كمينًا في ناحيتين عليهم بسر بن أبي رهم، وسعيد بن مرة العجلي]، فخرجوا من ناحيتين، فانهزمت صفوف الأعاجم وأخذ خالد من بين أيديهم، والكمين من خلفهم، فقتل منهم خلقًا كثيرًا، ومضى الأندرزغر منهزمًا فمات عطشًا، وأصاب خالد ابنًا لجابر بن بجير وابنًا لعبد الأسود من بكر بن وائل، وكانت وقعة الوَلَجة في صفر، وبذل الأمان للفلاحين فعادوا وصاروا ذمّة، وسبى ذراريَّ المقاتلة ومن أعانهم.

---

(١) في صفر سنة ١٢ من الهجرة.

(٢) الولجة: بأرض كسكر مما يلي البرّ بالعراق، وهي على يسار إلى مكة من القادسية. ويوم الولجة في صفر سنة ١٢ من الهجرة.

٤٠ ـ يوم أليس[1] وهو على الفرات

لما أصاب خالد يوم الوَلَجة ما أصاب من نصارى بكر بن وائل، الذين أعانوا الفرس غضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الفرس، واجتمعوا على أليس، وعليهم عبد الأسود العجلي، وكان مسلمو بني عجل منهم عتيبة بن النهاس، وسعيد بن مُرّة، وفرات بن حيان، ومذعور بن عديّ، والمثنى بن لاحق أشدّ الناس على أولئك النصارى، وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه، وهو بقسيناثا يأمره بالقدوم على نصارى العرب بأليس، فقدم بهمن جاذويه جابان إليهم، وأمره بالتوقف عن المحاربة إلى أن يقدم عليه، ورجع بهمن جاذويه إلى أردشير ليشاوره فيما يفعل، فوجده مريضًا، فتوقف عليه، فاجتمع على جابان نصارى عجل، وتيم اللات، وضبيعة، وجابر بن بجير، وعرب الضاحية من أهل الحيرة، وكان خالد لمّا بلغه تجمّع نصارى بكر وغيرهم سار إليهم ولا يشعر بدنوّ جابان، [وليست لخالد همّة إلّا من تجمّع له من عرب الضاحية ونصاراهم فأقبل]، فلما طلع جابان بأليس قالت العجم له: أنعاجلهم أم نغدي الناس، ولا نريهم أنّا نحفل بهم، ثم نقاتلهم؟ [بعد الفراغ]، فقال جابان: إن تركوكم فتهاونوا بهم.

فعصوه، وبسطوا الطعام [ووضعوا الأطعمة، وتداعوا إليها، وتوافوا إليها]، وانتهى خالد إليهم، وحطَّ الأثقال، فلما وضعت توجّه إليهم وطلب مبارزة عبد الأسود، وابن أبجر، ومالك بن قيس، فبرز إليه مالك من بينهم [فقال له خالد: يا بن الخبيثة ما جرّأك عليّ من بينهم، وليس فيك وفاء فضربه] فقتله خالد، وأعجل الأعاجم عن طعامهم [قبل أن يأكلوا]، فقال لهم جابان: ألم أقل لكم والله ما دخلتني من مقدم جيش وحشة إلّا هذا؟ وقال لهم: حيث لم تقدروا على الأكل فسموا الطعام فإن ظفرتم فأيسرها لك وإن كانت لهم هلكوا بأكله، فلم يفعلوا، واقتتلوا قتالاً شديدًا، والمشركون يزيدهم كلبًا وثبوتًا توقعهم قدوم بهمن جاذويه فصابروا المسلمين، فقال خالد: اللّهمّ إن هزمتهم فعليّ أن لا أستبقي منهم من أقدر عليه حتى أجري من دمائهم نهرهم، فانهزمت فارس، فنادى منادي خالد: الأُسراء الأُسراء إلّا من امتنع فاقتلوه، فأقبل بهم المسلمون أسراء ووكل بهم من يضرب أعناقهم يومًا وليلة.

---

(١) في صفر سنة ١٢ من الهجرة.

فقال له القعقاع وغيره: لو قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم، فأرسل عليها الماء تبرّ يمينك، ففعل وسمّي نهر الدم، ووقف خالد على الطعام وقال للمسلمين: قد نفلتكموه، فتعشّى به المسلمون، وجعل من لم يرَ الرقاق يقول: ما هذا الرقاع البيض؟ [وجعل من قد عرفها يجيبهم، ويقول لهم مازحًا: هل سمعتم برقيق العيش؟ فيقولون: نعم، فيقولون: هو هذا]، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفًا، وكانت الوقعة في صفر، فلما فرغ من أليس، سار إلى أمغيشيا ـ وقيل اسمها: منيشيا ـ فأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله؛ لأن أهلها أعجلهم المسلمون أن ينقلوا أموالهم وأثاثهم وكراعهم وغير ذلك، وأرسل إلى أبي بكر بالفتح، ومبلغ الغنائم، والسبي، وأخرب أمغيشيا، فلما بلغ ذلك أبا بكر قال: عجزت النساء أنْ يلدن مثل خالد.

٤١ ـ يوم فرات بادقلي وفتح الحيرة(١)

ثم سار خالد من أمغيشيا إلى الحيرة، وحمل الرجال والأثقال في السفن، فخرج مرزبان الحيرة، وهو الأزاذبة فعسكر عند الغرِيّين وأرسل ابنه فقطع الماء عن السفن فبقيت على الأرض، فسار خالد في خيلٍ نحو ابن الأزاذبة فلقيه على فرات بادقلي فضربه وقتله وقتل أصحابه، وسار نحو الحيرة فهرب منه الأزاذبة، وكان قد بلغه موت أردشير وقتل ابنه فهرب بغير قتال، ونزل المسلمون عند الغرِيّين وتحصن أهل الحيرة فحصرهم في قصورهم، وكان ضرار بن الأزور محاصرًا القصر الأبيض، وفيه إياس بن قبيصة الطائي، وكان ضرار بن الخطاب محاصرًا قصر الغريِّين، وفيه عديّ بن عدي المقتول، وكان ضرار بن مقرن المزني عاشر عشرة إخوة محاصرًا قصر ابن مازن، وفيه ابن أكال، وكان المثنى محاصرًا قصر ابن بُقَيْلة، وفيه عمرو بن المسيح بن بقيلة، فدعوهم جميعًا وأجلوهم يومًا وليلة، فأبى أهل الحيرة، وقاتلهم المسلمون فافتتحوا الدور والأديار وأكثروا القتل، فنادى القسّيسون والرهبان: يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم.

فنادى أهل القصور المسلمين: قد قبلنا واحدة من ثلاث، وهي: إمّا الإسلام، أو الجزية، أو المحاربة، فكفّوا عنهم؛ وخرج إليهم إياس بن قبيصة، وعمرو بن عبد المسيح بن قيس بن حيان بن الحارث، وهو بقيلة، وإنما سُمّي بقيلة لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين، فقالوا: [يا حار] ما أنت إلّا بقيلة خضراء، فأرسلوهم

---

(١) في ربيع الأول سنة ١٢ من الهجرة.

إلى خالد فكان الذي يتكلّم عنهم عمرو بن عبد المسيح، فقال له خالد: كم أتى عليك؟ قال: مئو سنين، قال: فما أعجب ما رأيت؟ قال: رأيتُ القرى منظومة ما بين دمشق، والحيرة تخرج المرأة [من الحيرة] فلا تتزوّد إلّا رغيفًا، فتبسم خالد [وقال: هل لك من شيخك إلا عقلة خرفت]، والله يا عمرو؟ وقال لأهل الحيرة: ألم يبلغني أنكم خبثة خدعة [مكرة] فما بالكم تتناولون حوائجكم بخرف لا يدري من أين جاء؟

فأحب عمرو أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله و [يستدلّ به على] صحّة ما حدَّثه به، قال: وحقّك إني لأعرف من أين جئت؟ قال: فمن أين خرجت؟ [قال: أقرب أم بُعْد؟ قال: ما شئت]، قال: من بطن أمّي، قال: فأين تريد؟ قال: أمامي، قال: وما هو؟ قال: الآخرة، قال: فمن أين أقصى أثرك؟ قال: من صلب أبي، قال: ففيم أنت؟ قال: في ثيابي، قال: أتعقل؟ قال: أي والله وأقيّد، قال خالد: إنما أسألك، قال: فأنا أجيبك، قال: أسِلْم أنت أم حرب؟ قال: بل سِلْم، قال: فما هذه الحصون؟ قال: بنيناها للسفيه نحبسه حتى ينهاه الحليم، قال خالد: قتلت أرض جاهلها وقتل أرضًا عالمها القوم أعلم بما فيهم، [فقال عمرو: أيها الأمير النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة]، وكان مع ابن بقيلة خادم معه كيس فيه سم فأخذه خالد، ونثره في يده وقال: لم تستصحب هذا؟ قال: خشيتُ أن تكونوا على غير ما رأيت [وقد أتيت على أجلي] فكان الموت أحبّ إليّ من مكروه أدخله على قومي [وعلى أهل قريتي]، فقال خالد: إنّها لن تموت نفسي حتى تأتي على أجلها، قال: «باسم الله خير الأسماء، ربّ الأرض والسماء، الذي لا يضرّ مع اسمه داء، الرحمٰن الرحيم» [فأهووا إليه ليمنعوه وبادرهم] وابتلع السُّم، فقال ابن بقيلة: والله لتبلغن ما أردتم ما دام أحد منكم هكذا. وأبى خالد أن يصالحهم إلّا على تسليم كرامة بنت عبد المسيح إلى شويل فأبوا، فقالت لهم: هوِّنوا وأسلموني فإني سأفتدي، ففعلوا فأخذها شويل، فافتدت منه بألف درهم فلامه الناس، فقال: ما كنت أظن أن عددًا أكثر من هذا.

وكان سبب تسليمها إليه أن النبيّ ﷺ لما ذكر استيلاء أُمّته على ملك فارس والحيرة سأله شويل أن يعطي كرامة ابنة عبد المسيح وكان رآها شابّة فمال إليها فوعده النبيّ ﷺ ذلك، فلما فتحت الحيرة طلبها، وشهد له شهود بوعد النبيّ ﷺ أن يسلمها إليه فسلّمها إليه خالد، وصالحهم على مائة ألف وتسعين ألفًا، وقيل: على مائتي ألف وتسعين ألفًا، وأهدوا له هدايا، فبعث بالفتح والهدايا إلى أبي بكر فقبلها أبو بكر من الجزية، وكتب إلى خالد أن يأخذ منهم بقية الجزية، ويحسب لهم الهدية.

وكان فتح الحيرة في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة، وكتب لهم خالد كتابًا، فلما كفر أهل السواد [بعد موت أبي بكر] ضيّعوا الكتاب، فلما افتتحها المثنى ثانية عاد بشرطٍ آخر، فلما عادوا كفروا، وافتتحها سعد بن أبي وقاص، ووضع عليهم أربعمائة ألف [سورة الحرزة]، قال خالد: ما لقيت قومًا كأهل فارس، وما لقيت من أهل فارس كأهل أليس.

قيل: كان الدهاقين يتربّصون بخالد، [وينظرون] ما يصنع أهل الحيرة، فلما صالحهم واستقاموا له، أتته الدهاقين من تلك النواحي، أتاه دهقان فرات سريا، وصلوا بابن نسطونا، ونسطونا، فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هرمز جرد على ألفي ألف، وقيل: ألف ألف سوى ما كان لآل كسرى، وبعث خالد عمّاله ومسالحه، وبعث ضرار بن الأزور، وضرار بن الخطاب، والقعقاع بن عمرو، والمثنى بن حارثة، وعيبة بن النهاس، فنزلوا على السيب، وهم كانوا أمراء الثغور مع خالد، وأمرهم بالغارة فمخروا ما وراء ذلك إلى شاطئ دجلة، وكتب خالد إلى أهل فارس يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية، فإن أجابوا وإلّا حاربهم؛ فكان العجم مختلفين بموت أردشير إلّا أنهم قد أنزلوا بهمن حاذويه بهرسير ومعه غيره كأنه مقدمة لهم، وجبى خالد الخراج في خمسين ليلة، وأعطاه المسلمين، ولم يبقَ لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر لاختلافهم بموت أردشير إلّا أنهم مجمعون على حرب خالد، وخالد مقيم بالحيرة يصعد ويصوب سنة قبل خروجه إلى الشام والفرس يخلعون ويملكون ليس إلّا الدفع عن بهر سير، وذلك أن شيري بن كسرى قتل كل من كان يناسبه إلى أنوشروان، وقتل أهل فارس بعده وبعد أردشير ابنه من كان بين أنو شروان، وبين بهرام جور فبقوا لم يقدروا على من يملكونه ممن يجتمعون عليه، فلما وصلهم كتب خالد تكلّم نساء آل كسرى فولّى الفرخزاد بن البنذوان إلى أن يجتمع آل كسرى على من يملكونه إن وجدوه.

ووصل جرير بن عبد الله البجلي إلى خالد بعد فتح الحيرة، وكان سبب وصوله إليه أنه كان مع خالد بن سعيد بن العاص بالشام فاستأذنه في المسير إلى أبي بكر ليكلّمه في قومه ليجمعهم له وكانوا أوزاعًا متفرّقين في العرب، فأذن له فقدم على أبي بكر فذكر له ذلك وأن رسول الله ﷺ وعده به وشهد له شهود، [وسأله إنجاز ذلك] فغضب أبو بكر، وقال [له]: نرى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بإزائهم [من الأسدين] فارس والروم، ثم أنت تكلفني [التشاغل] بما لا يغني [عما هو أرضى لله ولرسوله! دعني]. وأمره بالمسير إلى خالد بن الوليد، فسار حتى قَدِم عليه

بعد فتح الحيرة، ولم يشهد شيئًا مما قبلها بالعراق ولا شيئًا مما كان خالد فيه من قتل أهل الردَّة.

٤٢ ـ يوم ذات العيون

ثم سار خالد على تعبيته [التي خرج فيها من الحيرة] إلى الأنبار ـ وإنما سمّي الأنبار لأن أهراء الطعام كانت بها أنابير ـ وعلى مقدمته الأقرع بن حابس، فلما بلغها أطاف بها، وأنشب القتال، وكان قليل الصبر عنه [إذا رآه أو سمع به]، وتقدم إلى رماته [فأوصاهم] أن يقصدوا عيونهم فرموا رشقًا واحدًا، ثم تابعوا فأصابوا ألف عين، فسمّيت تلك الوقعة «ذات العيون»، وكان على مَنْ بها من الجند شيرزاد صاحب ساباط [وكان أعقل أعجمي يومئذ]، فلما رأى ذلك أرسل يطلب الصلح على أمرٍ لم يرضه خالد، فردَّ رسله ونحر من إبل العسكر كل ضعيف وألقاه في خندقهم ثم عبره، فاجتمع المسلمون والكفار في الخندق، فأرسل شيرزاد إلى خالد وبذل له ما أراد، فصالحه على أن يلحقه بمأمنه في جريدة ليس معهم من متاع شيء، وخرج شيرزاد إلى بهمن جاذويه، ثم صالح خالد من حول الأنبار وأهل كِلْوَاذى.

٤٣ ـ يوم عين التمر

ولما فرغ خالد من الأنبار [واستحكمت له] استخلف عليها الزبرقان بن بدر وسار إلى عين التمر، وبها مهران بن بهرام جوبين في جمعٍ عظيم من العجم، وعقة بن أبي عقة في جمعٍ عظيم من العرب، من النمر، وتغلب، وإياد، وغيرهم؛ فلما سمعوا بخالد، قال عقة لمهران: إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالدًا، قال: صدقت [لعمري] فأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا في قتال العجم فجدعه واتّقى به، وقال: [دونكموهم] وإن احتجتم إلينا أعنّاكم، فلامه أصحابه من الفرس على هذا القول، فقال لهم: [دعوني فإن لم أُرِدْ إلّا ما هو خيرٌ لكم وشرٌّ لهم]، إنه قد جاءكم من قتل ملوككم، وفلّ حدكم، فاتّقيته بهم فإن كانت لكم على خالد فهي لكم، وإن كانت الأخرى لم يبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء [وهم مضعفون]، فاعترفوا له [بفضل الرأي]، وسار عقة إلى خالد، فالتقوا فحمل خالد بنفسه على عقة، وهو يقيم صفوفه فاحتضنه، وأخذه أسيرًا وانهزم عسكره من غير قتال، فأسر أكثرهم، فلما بلغ الخبر مِهران هرب في جنده وتركوا الحصن، فلما انتهى المنهزمون إليه تحصَّنوا به فنازلهم خالد فطلبوا منه الأمان، فأبى فنزلوا على حكمه فأخذهم أسرى، وقتل عقة ثم قتلهم أجمعين وسبى كلَّ مَنْ في الحصن وغنم

ما فيه، ووجد في بيعتهم أربعين غلامًا يتعلّمون الإنجيل فأخذهم فقسمهم في أهل البلاء منهم سيرين أبو محمد، ونصير أبو موسى، وحمران مولى عثمان، وأرسل إلى أبي بكر بالخبر والخُمُس. وفي عين التمر قتل عمير بن رآب السهمي، وكان من مهاجرة الحبشة، ومات بها بشير بن سعد الأنصاري والد النعمان، فدفن بها إلى جانب عمير.

٤٤ ـ يوم دُومة الجندل

ولما فرغ خالد من عين التمر أتاه كتاب عياض بن غنم يستمدّه على من بإزائه من المشركين، فسار خالد إليه فكان بإزائه بهراء، وكلب، وغسان، وتنوخ، والضجاعم، وكانت دومة على رئيسين: أكيدر بن عبد الملك، والجودي بن ربيعة، فأمّا أكيدر فلم يرَ قتال خالد وأشار بصلحه خوفًا فلم يقبلوا منه [فقال: لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم]، فخرج عنهم وسمع خالد بمسيره فأرسل إلى طريقه [عاصم بن عمرو معارضًا له]، فأخذه أسيرًا فقتله وأخذ ما كان معه، وسار حتى نزل على أهل دومة الجندل فجعلها بينه وبين عياض [وكان النصارى الذين أمدّوا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة لم يحملهم الحصن]، فلما اطمئنّ خالد خرج إليه الجودي في جمعٍ ممن عنده من العرب لقتاله، وأخرج طائفة أخرى إلى عياض فقاتلهم عياض فهزَمهم فهَزَمَ خالد من يليه، وأخذ الجودي أسيرًا وانهزموا إلى الحصن [فلم يحملهم]، فلما امتلأ أغلقوا الباب دون أصحابهم فبقوا حوله [حرداء]، فأخذهم خالد فقتلهم حتى سدَّ باب الحصن، وقتل الجودي، وقتل الأسرى إلّا أسرى كلب، فإن بني تميم قالوا لخالد: قد أمنّاهم وكانوا حلفاءهم فتركهم، [وقال: ما لي ولكم أتحفظون أمرَ الجاهلية وتضيِّعون أمر الإسلام؟ فقال له عاصم: لا تحسدهم العافية ولا يحوذهم الشيطان].

ثم أخذ الحصن قهرًا فقتل المقاتلة وسبى الذرية والسرح، فباعهم واشترى خالد ابنة الجودي، وكانت موصوفة، وأقام خالد بدومة الجندل فطمع الأعاجم وكاتبهم عرب الجزيرة غضبًا لعقة، فخرج زَرمهر وروزبه يريدان الأنبار واتّعدا حصيدًا والخنافس، فسمع القعقاع بن عمرو وهو خليفة خالد على الحيرة، فأرسل أعبد بن فدكي وأمره بالحصيد، وأرسل عروة بن الجعد البارقي إلى الخنافس فخرج فحالا بينهما وبين الريف، ورجع خالد إلى الحيرة فبلغه ذلك ـ وكان عازمًا على مصادمة أهل المدائن، فمنعه من ذلك كراهية مخالفة أبي بكر ـ فعجَّل القعقاع بن

عمرو وأبا ليلى بن فدكي إلى روزبه وزِرمهر [فسبقاه إلى عين التمر]، ووصل إلى خالد [كتاب امرئ القيس الكلبي] أن الهذيل بن عمران قد عسكر بالمصيخ، ونزل ربيعة بن بجير بالثني وبالبشر غضبًا لعقة يريدان زرمهر، وروزبه، فخرج خالد وسار إلى القعقاع وأبي ليلى، فاجتمع بهما بالعين، فبعث القعقاع إلى حصيد، وبعث أبا ليلى إلى الخنافس.

٤٥ ـ يوم حُصيد والخنافس

فسار القعقاع نحو حُصيد، وقد اجتمع بها روزبه وزرمهر، فالتقوا بحُصيد، فقتل من العجم مقتلة عظيمة، فقتل القعقاع زرمهر، وقتل عصمة بن عبد الله أحد بني الحارث بن طريف الضبي روزبه، وكان عصمة من البرزة، وهم كل فخذ هاجرت بأسرها، والخيرة كل قوم هاجروا من بطن، وغنم المسلمون ما في حُصيد، وانهزمت الأعاجم إلى الخنافس، وسار أبو ليلى بمن معه إلى الخنافس، وبها المهبوذان على العسكر، فلما أحسّ المهبوذان بهم هرب إلى المصيخ إلى الهذيل بن عمران.

٤٦ ـ يوم مصيخ بني البرشاء

ولما انتهى الخبر إلى خالد بمصاب أهل الحصيد ـ وهرب أهل الخنافس كتب إلى القعقاع، وأبي ليلى، وأعبد، وعروة، ووعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المصيخ ـ [وهو بين حوران والقلت] ـ وخرج خالد من العين قاصدًا إليهم، [على الإبل بجنب الخيل]، فلما كانت تلك الساعة من ليلة الموعد اتّفقوا جميعًا بالمصيخ فأغاروا على الهذيل ومن معه، وهم نائمون مِنْ ثلاثة أوجه فقتلوهم، وأفلت الهذيل في ناس قليل، وكَثُر فيهم القتل، وكان مع الهذيل عبد العزّى بن أبي رهم أخو أوس مناة، ولبيد بن جرير، وكانا قد أسلما ومعهما كتاب أبي بكر بإسلامهما فقتلا في المعركة، فبلغ ذلك أبا بكر وقول عبد العزى:

أقول إذ طرق الصباح بغارة ... سبحانك اللّهمّ ربَّ محمّدِ
سبحان ربّي لا إلـه غيره ... ربّ البلاد وربَّ من يتورّد

فوَدَاهما وأوصى بأولادهما، فكان عمر يعتد بقتلهما، وقتل مالك بن نويرة على خالد، فيقول أبو بكر: كذلك يلقى من نازل أهل الشرك، وقد كان حرقوص بن النعمان بن النمر قد نصحهم فلم يقبلوا منه فجلس مع زوجته وأولاده يشربون، فقال

لهم: اشربوا شراب مودِّع هذا خالد بالعين وجنوده بالحصيد؛ ثم قال:

ألا ٱسقياني قبل خيل أبي بكر لعلَّ منايانا قريب وما ندري

فضرب رأسه، فإذا هو في جفنة فيها الخمر، وقتلوا أولاده، فأخذوا بناته، وقيل: إنّ قتل حرقوص، وهذه الوقعة ووقعة الثني كان في مسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام، وسيذكر إن شاء الله تعالى.

٤٧ ـ يوم الثنيّ والزُّمَيْل

وكان ربيعة بن بجير التغلبي بالثني والبشر ـ وهو الزميل ـ وهما شرقي الرصافة قد خرج غضبًا لعقة وواعد روزبه، وزرمِهر، والهذيل؛ ولما أصاب خالد أهل المصيخ، واعد القعقاع وأبا ليلى ليلة. وأمرهما بالمسير ليغيروا عليهم، فسار خالد من المصيخ فاجتمع هو وأصحابه بالثنيّ فبيَّتهم من ثلاثة أوجه ـ [كما فعل بأهل المصيخ] ـ وجرّدوا فيهم السيوف فلم يفلت منهم مخبر، وغنم وسبى، وبعث بالخبر والخمس [مع النعمان بن عوف] إلى أبي بكر فاشترى عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه بنت ربيعة بن بجير التغلبي [فاتّخذها] فولدتْ له عمرَ، ورقية.

ولما انهزم الهذيل بالمصيخ لحق بعتاب بن فلان وهو بالبشر في عسكرٍ ضخم، فبيَّتهم خالد بغارة شعواء من ثلاثة أوجه قبل أن يصل إليهم خبر ربيعة، فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها، [وكانت على خالد يمين ليبغتنّ تغلب في دارها، وكانت في الأخماس ابنة مؤذن النمري، وليلى بنت خالد، وريحانة بنت الهذيل بن هبيرة]، وقسم الغنائم وبعث الخمس إلى أبي بكر [مع الصباح بن فلاح المزني]، وسار خالد من البشر إلى الرّضاب، وبها هلال بن عقة، فتفرّق عنه أصحابه [حين سمعوا بدنوّ خالد]، وسار هلال عنها فلم يلقَ خالد بها كيدًا.

٤٨ ـ يوم الفراض

ثم سار خالد من الرضاب إلى الفراض وهي تخوم الشام، والعراق، والجزيرة، وأفطر بها رمضان لاتّصال الغزوات، وحميت الروم، واستعانوا بمن يليهم من مسالح الفرس فأعانوهم، واجتمع معهم تغلب، وإياد، والنَّمر، وساروا إلى خالد، فلما بلغوا الفرات قالوا له: إمّا أن تعبروا إلينا وإمّا أن نعبر إليكم، قال خالد: ٱعبروا، قالوا له: تنحَّ عن طريقنا حتى نعبر، قال: لا أفعل ولكن ٱعبروا أسفل منّا ـ [وذلك للنصف من ذي القعدة سنة اثنتي عشرة]، فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض: احتسبوا ملككم،

هذا رجل يقاتل على دين، وله عقل وعلم، ووالله لينصرن ولتُخْذَلَن ثم لم ينتفعوا بذلك]، فعبروا أسفل من خالد، وعظم في أعينهم، وقالت الروم: امتازوا حتى نعرف اليوم من يثبت ممن يولي، ففعلوا فاقتتلوا قتالاً عظيمًا، وانهزمت الروم ومن معهم، وأمر خالد المسلمين أن لا يرفعوا عنهم، فقتل في المعركة وفي الطلب مائة ألف، وأقام خالد على الفراض عشرًا، ثم أذن بالرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة [وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بهم]، وجعل شجرة بن الأعز على الساقة وأظهر خالد أنّه في الساقة.

٤٩ ـ يوم اليرموك[١]

في سنة ثلاث عشرة وَجَّه أبو بكر الجنود إلى الشام بعد عَوْدِهِ من الحج، فبعث خالد بن سعيد بن العاص، وقيل: إنما سيَّره لما سيَّر خالد بن الوليد إلى العراق، وكان أوّل لواء عقده إلى الشام لواء خالد، ثم عزله قبل أن يسير، كان سبب عزله أنّه تربّص ببيعة أبي بكر شهرين [يقول: قد أمَّرني رسول الله ﷺ، ثم لم يعزلني حتى قبضه الله]، ولقي عليّ بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، فقال: يا أبا الحسن، يا بني عبد مناف، أغلبتم عليها؟ فقال: عليّ أمغالبةً ترى أم خلافة. فأمّا أبو بكر فلم يحقدها عليه، وأمّا عمر فاضطغنها عليه، فلما ولّاه أبو بكر [فأخذ عمر يقول: أتؤمّره، وقد صنع ما صنع وقال ما قال]! لم يزل به عمر حتى عزله عن الإمارة وجعله ردءًا للمسلمين بتيماء، وأمره أن لا يفارقها إلّا بأمره وأن يدعو من حوله من العرب إلّا من ارتدّ، وأن لا يقاتل إلّا من قاتله، فاجتمع إليه جموع كثيرة.

وبلغ خبره الروم فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام من بهراء، وسليح، وتنوخ، وغسان، وكلب، ولخم، وجذام، فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر: أقدم ولا تقتحمن [واستنصر الله]؛ فسار إليهم، فلما دنا منهم تفرّقوا فنزل منزلهم وكتب إلى أبي بكر بذلك، فأمره بالإقدام بحيث لا يؤتى من خلفه، فسار حتى جازه قليلاً ونزل فسار إليه بطريق [من بطارقة] الروم يدعى باهان فقاتله، فهزمه، وقتل من جنده، فكتب خالد إلى أبي بكر يستمدّه، وكان قد قدم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن، وفيهم ذو الكلاع، وقدم عكرمة بن أبي جهل [قافلاً وغازيًا] فيمن كان معه من تهامة، وعمان، والبحرين، والسرو؛ فكتب لهم أبو بكر

---

(١) سنة ١٣ من الهجرة.

إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل، فكلّهم استبدل فسمّي جيش البدال، وقَدِمُوا على خالد بن سعيد، وعندها اهتمّ أبو بكر بالشام وعناه أمره.

وكان أبو بكر قد ردَّ عمرو بن العاص إلى عمله الذي كان رسول الله ﷺ ولّاه إيّاه من صدقات سعد هذيم، وعذرة وغيرهم قبل ذهابه إلى عمان، ووعده أن يعيده إلى عمله بعد عوده من عمان، فأنجز له أبو بكر عِدَةَ رسول الله ﷺ، فلما عزم على قصد الشام كتب له: «إنّي كنتُ قد رددتُك على العمل الذي ولّاك رسول الله ﷺ مرة ووعدك به أخرى إنجازًا لمواعيد رسول الله ﷺ، وقد وَلِيته، وقد أحببتُ أن أفرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة إلّا أن يكون الذي أنت فيه أحبُّ إليك».

فكتب إليه عمرو: «إني سهمٌ من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها، فانظرْ أشدَّها وأخشاها وأفضلها، فارم به»، فأمَّره، وأمر الوليد بن عقبة ـ وكان على بعض صدقات قضاعة ـ أن يجمعا العرَب، ففعلا، وأرسل أبو بكر إلى عمرو بعض من اجتمع إليه وأمره بطَريقٍ سمّاها له إلى فلسطين، وأمّر الوليد بالأردن وأمدَّه ببعضهم، وأمّر يزيد بن أبي سفيان على جيشٍ عظيم هو جمهور من انتدب إليه فيهم سهيل بن عمر وفي أمثاله من أهل مكّة، وشَيَّعه ماشيًا، وأوصاه وغيره من الأمراء؛ فكان مما قال ليزيد: «إني قد ولّيتك لأبلوك وأجرّبك وأخرجك، فإنْ أحسنت رددتك إلى عملك وزدتُك، وإنْ أسأتَ عزلتُك، فعليك بتقوى الله فإنّه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإنْ أولى الناس بالله أشدّهم توليًا له، وأقرب الناس من الله أشدّهم تقرّبًا إليه بعمله، وقد وليتك عمل خالد فإيّاك وعبية الجاهلية، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمتَ على جندك فأحسِن صحبتَهم، وابدأهم بالخير، وعِدْهم إياه، وإذا وعظتَهم فأوجز، فإنّ كثير الكلام يُنْسِي بعضه بعضًا، وأصْلِح نفسك يصلحْ لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعِها وسجودِها والتخشّع فيها، وإذا قَدِمَ عليك رسلُ عدوّك فأكرِمهم، وأقلل لُبْثَهم حتى يخرجوا من عسكرك، وهم جاهلون به، ولا ترينهم فيروا خللك، ويعلموا عِلْمك، وأَنْزِلهم في ثروةِ عسكرك، وامنَعْ مَنْ قبلك من محادثتهم، وكُنْ أنت المُتَوَلِّي لكلامهم، ولا تجعل سِرَّك لعلانيَتك فيخلط أمرك، وإذا استشرتَ فاَصدُق الحديث تُصْدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك، واَسمر بالليل في أصحابك تأتِك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار، وأكْثِر حرسك، وبدّدهم في عسكرك وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن

أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنّها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تَلِجَّنَّ[1] فيها، ولا تسرع إليها ولا تخذلها مدفعًا.

ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسّس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتفِ بعلانيتهم، ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء، وأصدق اللّقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرّب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له.

وهذه من أحسن الوصايا، وأكثرها نفعًا لولاة الأمر. ثم إنّ أبا بكر استعمل أبا عبيدة بن الجرّاح على من اجتمع وأمره بحِمْص، وسار إليه أبو عبيدة على باب من البلقاء، فقاتله أهله ثم صالحوه فكان أوّل صلح في الشام، واجتمع للروم جمع بالعربة من أرض فلسطين، فوجّه إليهم يزيد بن أبي سفيان أبا أُمَامَة الباهلي فهزمهم، فكان أوّل قتال بالشام بعد سرية أُسامة بن زيد.

ثم أتوا الدَّاثِن[2] فهزمهم أبو أُمامة أيضًا، ثم مَرْج الصفر استشهد فيها ابن لخالد بن سعيد، وقيل: استشهد فيها خالد أيضًا، وقيل: بل سلم وانهزم على ما نذكره.

وذلك أنّه لمّا سمع توجيه الأمراء بالجنود بادر لقتال الروم، فاستطرد له باهان فاتّبعه خالد ومعه ذو الكلاع، وعكرمة، والوليد؛ فنزل مرج الصفر فاجتمعت عليه مسالح باهان، وأخذوا الطريق، وخرج باهان فرأى ابن خالد بن سعيد فقتله ومن معه، فسمع خالد فانهزم فوصل في هزيمته إلى ذي المروة قريب المدينة، فأمره أبو بكر بالمقام بها، وبقي عكرمة في الناس ردءًا للمسلمين يمنع من يطلبهم، وكان قد قدم شرحبيل بن حَسَنة من عند خالد بن الوليد إلى أبي بكر وافدًا فأمره أبو بكر بالشام، وندب معه الناس واستعمله على عمل الوليد بن عقبة، فأتى شرحبيل على خالد بن سعيد ففصل عنه ببعض أصحابه، واجتمع إلى أبي بكر ناسٌ فأرسلهم مع معاوية بن أبي سفيان، وأمره باللّحاق بأخيه يزيد، فلما مَرّ بخالد فصل عنه بباقي أصحابه فأذن أبو بكر لخالد بدخول المدينة، فلما وصل الأمراء إلى الشام نزل أبو

(١) من اللجاج.

(٢) الداثن: ناحية قرب غَزَّة من فلسطين.

عبيدة الجابية[١]، ونزل يزيد البلقاء[٢]، ونزل شرحبيل الأردُنّ ـ وقيل: بُصْرَى ـ ونزل عمرو بن العاص العربة، فبلغ الروم ذلك فكتبوا إلى هرقل ـ وكان بالقدس ـ فقال: «أرى أن تصالحوا المسلمين، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحبّ إليكم من أنْ يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم»، فتفرّقوا عنه وعَصَوْه فجمعهم وسار بهم إلى حمص فنزلها، وأعدّ الجنود والعساكر وأراد إشغال كُلِّ طائفةٍ من المسلمين بطائفةٍ من عسكره لكثرة جنده لتضعف كل فرقة من المسلمين عمّن بإزائها، فأرسل تذارق أخاه لأبيه وأُمّه في تسعين ألفًا إلى عمرو، وأرسل جرجه بن توذر إلى يزيد بن أبي سفيان، وبعث القيقار بن نسطوس في ستين ألفًا إلى أبي عبيدة بن الجراح، وبعث الدراقص نحو شرحبيل فهابهم المسلمون، وكاتبوا عمرًا: ما الرأي؟ فأجابهم: إن الرأي لمثلنا الاجتماع، فإنّ مثلنا إذا اجتمعنا لا نُغْلَب من قِلّة، فإن تفرّقنا لا تقوم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدوّنا.

وكتبوا إلى أبي بكر فأجابهم مثل جواب عمرو، وقال: إنّ مِثْلَكم لا يؤتى من قلّة، وإنما يؤتى العشرة آلاف من الذنوب، فاحترسوا منها؛ فاجتمعوا بـ «اليرموك» متساندين، وليصلّ كل واحد منكم بأصحابه، فاجتمع المسلمون باليرموك[٣] والروم أيضًا، وعليهم التذارق، وعلى المقدمة جرجة، وعلى المجنبة باهان، ولم يكن وصل بعد إليهم، والدراقص على الأخرى وعلى الحرب القيقار؛ فنزل الروم وصار الوادي خندقًا لهم وإنما أرادوا أنْ يتأنس الروم بالمسلمين لترجع إليهم قلوبهم، ونزل المسلمون على طريقهم ليس للروم طريق إلّا عليهم، فقال عمرو: «أبشروا حُصِرَت الروم، وقَلَّ ما جاء محصورٌ بخير»، وأقاموا صَفَرًا عليهم وشهري ربيع لا يقدرون منهم على شيء من الوادي والخندق، ولا يخرج الروم خرجة إلّا أُديل عليهم المسلمون.

لما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدّوا أبا بكر، فكتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إليهم، والحثّ وأن يأخذ نصف الناس، ويستخلف على النصف الآخر

---

(١) الجابِيَة: قرية من أعمال دمشق، ناحية الجولان، قرب مرج الصفر.
(٢) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمان وفيها قرى ومزارع واسعة.
(٣) اليرموك: وادٍ بناحية الشام في طرف الغور، يصب فيه نهر الأردن.

المُثَنَّى بن حارثة[١] الشيباني، ولا يأخذن مَنْ فيه نجدة إلّا ويترك عند المثنى مثله، وإذا فتح الله عليهم رجع خالد وأصحابه إلى العراق، فاستأثر خالد بأصحاب النبيّ ﷺ على المثنى، وترك للمثنى عدادهم من أهل القناعة مَنْ ليس له صُحْبَة، ثم قَسَّم الجُنْد نصفين، فقال المثنى: «والله لا أُقيم إلّا على إنفاذ أمر أبي بكر [كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف]، وبالله ما أرجو النصر إلّا بأصحاب النبيّ ﷺ [فإني تعريني عنهم]»، فلما رأى خالد ذلك أرضاه [ومضى لوجهه وشيَّعه المثنى إلى قراقر[٢]، ثم رجع إلى الحيرة في المحرم].

وقيل: سار من العراق في ثمانمائة، وقيل: في ستمائة، وقيل: في خمسمائة، وقيل: في تسعة آلاف، وقيل: في ستة آلاف، وقيل: إنما أمره أبو بكر أن يأخذ أهل القوّة والنجدة، فأتى حدوداء فقاتله أهلها فظفر بهم، وأتى المصيّخ وبه جمع من تغلب فقاتلهم وظفر بهم وسبى وغنم، وكان من السبي «الصهباء بنت حبيب بن بُجَيْر»، وهي أُمّ عمر بن علي بن أبي طالب - وقيل في أمرها ما تقدم - وقيل: سار خالد فلما وصل إلى قراقر - وهو ماء لكلب - أغار على أهلها وأراد أنْ يسير عنهم مفوِّزًا[٣] إلى سُوى وهو ماء لبهراء بينما خمس ليالٍ، [فلم يهتد]، فالتمس دليلًا، فدُلّ على رافع بن عَميرة الطائيّ، فقال له في ذلك، فقال له رافع: إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال، فوالله إن الراكب المفرد يخافه على نفسه [وما يسلكها إلّا مغرورًا] إنها لخمس جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلّتها، فقال [خالد: ويحك] إنه لا بدّ لي من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم لئلّا تحبسني عن غياث المسلمين.

فأمر صاحب كل جماعة أن يأخذ الماء للشعبة لخمس، وأنْ يعطّش من الإبل الشرف[٤] ما يكتفي به ثم يسقوها عللًا بعد نهل[٥]، والعلل الشربة الثانية، والنهل

---

(١) المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن وائل الرابعي الشيباني: وفد إلى النبيّ مع وفد قومه وسيّره أبو بكر إلى العراق في صدر خلافته قبل مسيرة خالد بن الوليد، وهو الذي أطمع المسلمين في الفرس وهوّن أمر الفرس عندهم، وكان شهمًا شجاعًا ميمون النقيبة، حسن الرأي. (أسد الغابة ٥/٥٩ - ٦٠).

(٢) قراقر: وادٍ أصله من الدهناء، وقيل: ماء لكلب. وقراقر أيضًا: وادٍ لكلب بالسماوة من ناحية العراق، وكلّها حول ذي قار.

(٣) أي يسير عبر المفازة، وهي الصحراء. (٤) هو جمع شارف: المسنة من النوق.

(٥) النّهل: هو الشرب الأول. والعلل: الشربة الثانية. ومراده أن يعطشوه الإبل ثم تشرب شربًا شرهًا حتى تتضلع.

الأولى، ثم يصرُّوا آذان الإبل ويشدّوا مشافرها لئلّا تجتر، ثم ركبوا من قراقر، فلما ساروا يومًا وليلة شقوا لعدة من الخيل بطون عشرة من الإبل فمزجوا ماءًا في كروشها بما كان من الإلبان وسقوا الخيل، ففعلوا ذلك أربعة أيام، فلمّا [خشي خالد على أصحابه في آخر يوم من المفازة، قال لرافع بن عَمِيرة: ويحك يا رافع ما عندك؟ قال: أدركت الرِّيَّ إنْ شاء الله]، فلما دنا من العلمين قال للناس: انظروا هل ترون شجرة عَوْسَج كقعدة الرجل؟ فقالوا: ما نراها، فقال: إنا لله وإنّا إليه راجعون، هلكتم والله [إذًا] وهلكتُ معكم ـ وكان أرمد فقال لهم: انظروا ويحكم، فنظروا فرأوها قد قُطِعَتْ وبقي منها بقية، فلما رأوها كبّروا، فقال رافع: احفروا في أصلها، فحفروا واستخرجوا عينًا فشربوا حتى روى الناس [فاتّصلت بعد ذلك لخالد المنازل]، فقال رافع: والله ما وردتُ هذا الماء قطّ إلّا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام، فقال شاعرٌ من المسلمين:

لله عـينـا رافـع أنـى اهـتـدى ... فـوّز مـن قُـراقِـر إلـى سِـوى
خمسًا إذا ما ساره الجيش بكى ... مـا سـارهـا قـبـلك إنـسـيٌّ يـرى

فلما انتهى خالد إلى سُوى أغار على أهلها وهم بهراء [قبيل الصبح]، وهم يشربون الخمر [في جفنة قد اجتمعوا إليها]، ومغنيهم يقول:

ألا علّلاني قبل جيش أبي بكر ... لـعـلّ مـنـايـانـا قـريـبٌ ولا نـدري
ألا عـلّلانـي بـالـزجـاج وكـرّرا ... على كميت اللون صافية تجري
ألا عـلّلانـي مـن سـلافـة قـهـوةٍ ... تسلي هموم النفس من جيد الخمر
أظنّ خيـول الـمـسـلمين وخالـدًا ... ستطرقكم قبل الصباح مع النسر
فهل لكمُ في السير قبل قتالكم ... وقبل خروج المعصرات من الخُدْرِ

فقتل المسلمون مغنيهم وسال دمه في تلك الجفنة، وأخذوا أموالهم، وقتل حرقوص بن النعمان البهراني ثم أتى أَرَكَ فصالحوه، ثم أتى تَدْمُر فتحصّن أهله ثم صالحوه، ثم أتى القريتين، فقاتلهم فظفر بهم وغنم، وأتى حوارين فقالت أهلها فهزمهم وقتل وسبى، وأتى قصم فصالحه بنو مشجعة من قضاعة، وسار فوصل إلى ثنية العقاب عند دمشق ناشرًا رايته وهي راية سوداء، وكانت لرسول الله ﷺ تسمّى «العقاب» ـ وقيل: كانت رايته تسمى العقاب فسمّيت الثنية بها، وقيل: سمّيت بعقاب من الطير سقطت عليها، والأول أصح ـ، ثم سار فأتى مرج راهط فأغار على غسان

في يوم فِصْحِهم[١] فقتل وسبى وأرسل سريّة إلى كنيسة بالغوطة فقتلوا الرجال، وسبوا النّساء، وساقوا العيال إلى خالد، ثم سار حتى وصل إلى بُصْرَى فقاتل مَن بها، فظفر بهم وصالحهم، فكانت بصرى أوّل مدينة فُتحت بالشام على يد خالد، وأهل العراق، وبعث بالأخماس إلى أبي بكر، ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر، وطلع باهان على الروم ومعه الشمامسة، والقسّيسون، والرّهبان يحرّضون الروم على القتال، وخرج باهان كالمعتذر فولّى خالد قتاله، وقاتل الأمراءُ مَنْ بإزَائِهم، ورجع باهان والروم إلى خندقهم وقد نال منهم المسلمون.

فلمّا تكامل جمع المسلمين باليرموك، وكانوا سبعة وعشرين ألفًا، وقدم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين ألفًا سِوَى عكرمة فإنه كان ردءًا لهم، وقيل: بل كانوا سبعة وعشرين ألفًا وثلاثة آلاف من فلال خالد بن سعيد، وعشرة آلاف مع خالد بن الوليد فصاروا أربعين ألفًا سوى ستة آلاف مع عكرمة بن أبي جهل، وقيل: في عددهم غير ذلك والله أعلم. وكان فيهم ألف صحابي منهم نحو مائة ممن شهد بدرًا وكان الروم في مائتي ألف وأربعين ألف مقاتل، منهم ثمانون ألف مُقَيَّد، وأربعون ألف مسلسل للموت، وأربعون ألفًا مربوطون بالعمائم لئلّا يَفِرُّوا، وثمانون ألف راجل، وقيل: كانوا مائة ألف، وكان قتال المسلمين لهم على تساند، كل أمير على أصحابه لا يجمعهم أحد حتى قدم خالد بن الوليد من العراق، وكان القسّيسون والرهبان يحرّضون الروم شهرًا، ثم خرجوا إلى القتال الذي لم يكن بعده في جمادى الآخرة، فلما أحسّ المسلمون بخروجهم أرادوا الخروج متساندين، فسار فيهم خالد بن الوليد، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إنّ هذا يومٌ من أيام الله لا ينبغي فيه الفَخْر، ولا البَغْي، أخْلِصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم، فإنّ هذا يومٌ له ما بعده، ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبية، وأنتم متساندون، فإنّ ذلك لا يحلّ ولا ينبغي، وإنّ مَنْ وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنّه رأي من واليكم ومحبّته». قالوا: هات فما الرأي، قال: «إن أبا بكر لم يبعثنا إلّا وهو يرى أنّا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم، إنّ الذي أنتم فيه أشدّ على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمتُ أنّ الدنيا فرّقت بينكم، فالله الله فقد أفرد كل رجلٍ منكم ببلد لا ينتقصه منه إنْ دان للأمراء ولا يزيده عليه إن دانوا له؛ إنّ تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند

(١) أي يوم عيدهم ويسمّى عيد الفصح عندهم.

خليفة رسول الله ﷺ، هلمّوا فإنّ هؤلاء قد تهيّأوا، وإنّ هذا يومٌ له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردُّهم، وإنْ هزمونا لم نفلح بعدها، فهلمّوا فلنتعاور الإمارة، فليكن بعضنا اليوم والآخر غدًا والآخر بعد غد، حتى تتأمّروا كلكم ودعوني أتأمّر اليوم»، فأمّروه وهم يرون أنها كخرجاتهم وأنّ الأمر لا يطول.

فخرجت الروم في تعبية لم يرَ الرّاؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوسًا[1] إلى الأربعين، وقال: إنّ عدوكم كثير، وليس تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حَسَنة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان، وكان على كردوس [من كراديس أهل العراق] القعقاع بن عمرو، وجعل على كل كردوس رجلًا من الشجعان.

وكان القاضي أبو الدرداء، وكان القاص أبو سفيان بن حرب، وعلى الطلائع قباث بن أشيم، وعلى الأقباض عبد الله بن مسعود، وقال رجل لخالد: ما أكثر الروم، وأقلَّ المسلمين! فقال خالد: ما أكثر المسلمين وأقلّ الرُّوم، إنما تَكْثُرُ الجنود بالنصر، وتقلُّ بالخذلان [لا بعدد الرجال]، والله لوددتُ أنّ الأشقر - يعني فرسه - براء من توجيه وأنهم أضعفوا في العدد، وكان قد حفى في مسيره فأمر خالد عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو [وكانا على مجنبتي القلب] فأنشبا القتال.

والتحم الناس، وتطارد الفرسان وتقاتَلوا، فإذا هم على ذلك قدم البريد من المدينة واسمه محمية بن زنيم [وأخذته الخيول] فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وإمداد، وإنما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة، فبلّغوه خالدًا فأخبره خبر أبي بكر سرًّا، [وأخبره بالذي أخبر به الجند، قال: أحسنت، فقف. وأخذ الكتاب وجعله في كنانته وخاف إنْ هو أظهر ذلك أنْ ينتشر له أمرُ الجند].

وخرج جرجة إلى بين الصفين، وطلب خالدًا فخرج إليه وأقام أبا عبيدة مكانه؛ فواقفه بين الصفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما]، فأمن كل واحد منهما صاحبه، فقال جرجة: يا خالد أصدُقني ولا تكذبني فإنّ الحرَّ لا يكذب، ولا تخادعني، فإنّ الكريم لا يخادع المسترسل، هل أنزل الله على نبيّكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله على

---

(١) الكردوس: القطعة من الخيل عظيمة، والظاهر أنّ كردوس المسلمين في هذه الوقعة لا يزيد على ألف مقاتل إلّا قليلًا.

قوم إلّا هزمتهم؟ قال: لا، قال: ففيم سُمّيتَ سيفَ الله، فقال له: إنّ الله بعث فينا نبيّهً ﷺ فكنتُ فيمن كذبه وقاتله، ثم إنّ الله هداني فتابعته، فقال: أنتَ سيفُ الله سَلَّه الله على المشركين ودعا لي بالنصر، قال: فأخبرني إلى ما تدعوني؟ قال خالد: إلى الإسلام، أو الجزية، أو الحرب. قال: فما منزلة الذي يجيبكم ويدخل فيكم. قال: منزلتُنا واحدة، قال: فهل له مثلكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم وأفضل لأنّنا اتبعنا نبيَّنا، وهو حيّ يخبرنا بالغيب، ونرى منه العجائب والآيات، وحُقّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أنْ يُسلم، وأنتم لم تروا مثلنا ولم تسمعوا مثلنا فمن دخل بنيةٍ وصدقٍ كان أفضل منّا؛ فقلب جرجة تِرْسَه، ومال مع خالد، وأسلم، وعلّمه الإسلام، واغتسل، وصلّى ركعتين، ثم خرج مع خالد فقاتل الروم.

وحملت الرومُ حملةً أزالوا المسلمين عن مواقفهم إلى المحامية، وعليهم عكرمة، وعمه الحارث بن هشام، فقال عكرمة [يومئذ]: قاتلتُ مع النبيّ ﷺ في كل موطن ثم أفرُّ اليوم! ثم نادى: مَن يبايع على الموت؟ فبايعه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعًا جراحًا، فمنهم مَنْ برأ ومنهم من قتل، وقاتل خالد، . وجرجة قتالاً شديدًا، فقُتل جرجة عند آخر النهار وصلّى الناسُ الظهرَ والعصرَ إيماءً، وتضعضع الروم، ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم، فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة.

ولما رأى المسلمون خيل الروم قد توجّهت للمهرب أفرجوا لها فتفرّقت، وقتل الرجال، واقتحموا في خندقهم، فاقتحمه عليهم، وهوى فيها المقترنون وغيرهم ثمانون ألفًا من المقترنين، وأربعون ألف مطلق سوى مَنْ قُتِلَ في المعركة.

وتجلّل القيقار وجماعةٌ من أشراف الروم برانسهم وجلسوا، [وقالوا: لا نحبُّ أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور، وإذ لم نستطع أنْ نمنع النصرانية فقتلوا متزملين، ودخل خالد الخندق، ونزل في رواق تذارق، فلما أصبحوا أتى خالد بعكرمة بن أبي جهل جريحًا فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فجعل رأسه على ساقه، ومسح وجوههما، وقطر في حلوقهما الماء، وقال: زعم ابن حنتمة ـ يعني عمر ـ أنّا لا نستشهد.

وقاتل النساء ذلك اليوم وأبلوا، قال عبد الله بن الزبير: كنتُ مع أبي باليرموك وأنا صبيٌّ لا أقاتل فلما اقتتل الناسُ نظرتُ إلى ناسٍ على تلٍّ لا يقاتلون، فركبت

وذهبت إليهم، وإذا أبو سفيان بن حرب ومشيخة من قريش من مُهَاجِرَة الفتح فرأوني حَدَثًا فلم يتّقوني، قال: فجعلوا والله إذا مالت المسلمون وركبتهم الروم، يقولون: «إيه بني الأصفر»،فإذا مالت الروم وركبتهم المسلمون قال: «ويح بني الأصفر»، فلما هزم الله الروم أخبرتُ أبي فضحك، فقال: قاتلهم الله أبَوْا إلّا ضغنًا، لنحن خيرٌ لهم من الروم.

وفي اليرموك أصيبت عينُ أبي سفيان بن حرب، ولما انهزمت الروم كان هرقل بحمص فنادى بالرحيل عنها قريبًا، وجعلها بينه وبين المسلمين وأمّر عليها أميرًا كما أمَّر على دمشق، وكان من أصيب من المسلمين ثلاثة آلاف منهم عكرمة، وابنه عمرو، وسلمة بن هشام، وعمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد، وجُنْدُب بن عمرو، والطفيل بن عمرو، وطليب بن عمير، وهشام بن العاص، وعَيَّاش بن أبي ربيعة في قول بعضهم ـ (عَيَّاش): بالياء المثناة والشين المعجمة ـ.

وفيها قتل سعيد بن الحارث بن قيس بن عدي السهمي ـ وهو من مهاجرة الحبشة ـ، وفيها قتل نعيم بن عبد الله النحام العدوي عديّ قريش ـ وكان إسلامه قبل عمر ـ وفيها قتل النضير بن الحارث بن علقمة ـ وهو قديم الإسلام والهجرة، وهو أخو النضر الذي قتل ببدر كافرًا ـ وقتل فيها أبو الروم بن عمير بن هاشم العبدري ـ أخو مصعب بن عمير وهو من مهاجرة الحبشة شهد أُحُدًا ـ وقيل: قتلوا يوم أجنادين، والله أعلم.

٥٠ ـ يوم أجنادين(١)

قد ذكرها أبو جعفر عقيب وقعة اليرموك، وروى خبرها عن ابن إسحاق من اجتماع الأمراء ومسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام نحو ما تقدم، وقال: فسار خالد من مرج راهط إلى بُصْرَى ـ وعليها أبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حَسَنة، ويزيد بن أبي سفيان ـ [فاجتمعوا عليها فرابطوها]، فصالحهم أهلُها على الجزية، فكانت أوّل مدينة فُتِحت بالشام في خلافة أبي بكر، ثم ساروا جميعًا إلى فلسطين مددًا لعمرو بن العاص، وهم مقيم بالعربات [مِنْ غور فلسطين]، واجتمعت الروم بأجنادين، وعليهم «تذارق» أخو هرقل لأبويه ـ وقيل: كان على الروم «القبقلار» ـ وأجنادين بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين، وسار عمرو بن العاص حين

(١) في يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ١٣ من الهجرة.

سمع بالمسلمين فلقيهم، ونزلوا بأجنادين وعسكروا عليهم، فبعث القبقلار [رجلًا] عربيًا إلى المسلمين يأتيه بخبرهم؛ فدخل فيهم وأقام يومًا وليلة، ثم عاد إليه فقال: ما وراءك؟ فقال: بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سرق ابنُ ملكهم قطعوه، ولو زنى رجم لإقامة الحقّ فيهم. فقال: «إنْ كنتَ صدقتني لبطنُ الأرض خيرٌ من لقاء هؤلاء على ظهرها، [ولوددتُ أنّ حظي من الله أنْ يخلي بيني وبينهم فلا ينصرني عليهم، ولا ينصرهم عليّ]».

والتقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، فظهر المسلمون وهزم المشركون وقتل القبقلار وتذارق، واستشهد رجال من المسلمين، منهم سلمة بن هشام بن المغيرة، وهبار بن الأسود، ونعيم بن عبد الله النحام، وهشام بن العاص بن وائل ـ وقيل: بل قتل باليرموك ـ وجماعة غيرهم. قال: ثم جَمَعَ هرقل للمسلمين فالتقوا باليرموك، وجاءهم خبر وفاة أبي بكر وهم متصافون وولاية أبي عبيد، وكانت هذه الوقعة في رجب هذه سياقة الخبر.

وكان فيمن قُتِل ضرار بن الخطاب الفهري ـ وله صحبة، وعمرو بن سعيد بن العاص ـ وهو من مُهاجرة الحبشة ـ وقيل: قتل باليرموك، وممن قتل الفضل بن العباس ـ وقيل: قتل بمرج الصقر، وقيل: مات في طاعون عمواس، وفيها قتل طليب بن عمير بن وهب القرشي ـ وقيل: قتل باليرموك، شهد بدرًا، وهو من المهاجرين الأولين ـ وفيها قتل عبد الله بن أبي جهم القرشي العدوي ـ وكان إسلامه يوم الفتح وفيها قتل عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب بعد أن قتل جمعًا من الروم في المعركة ـ وكان عمره يوم مات النبيّ ﷺ نحو ثلاثين سنة، وفيها قتل عبد الله بن الطفيل الدوسي ـ وهو الملقب بذي النور، وكان من فضلاء الصحابة قديم الإسلام، هاجر إلى الحبشة.

٥١ ـ يوم فتح دمشق[١]

لما هزم الله أهل اليرموك [وتهافت أهل الواقصة[٢] وفرغ من المقاسم والأنفال وبعث بالأخماس وسرحت الوفود] استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب الحميري وسار حتى نزل بالصفر [وهو يريد اتّباع الفالة، ولا يدري يجتمعون أو

(١) سنة ١٣ من الهجرة.

(٢) الواقصة: منزل في طريق مكة بعد القرعاء نحو مكّة، وقيل: ماء لبني كعب. وواقصة أيضًا بأرض اليمامة.

يفترقون؟] فأتاه الخبر أنّ المنهزمين اجتمعوا بفِحْل[١] وأتاه الخبر أيضًا بأنّ المدد قد أتى أهل دمشق من حمص [فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أم بفحل في بلاد الأردن؟]، فكتب إلى عمر في ذلك فأجابه عمر يأمره بأن يبدأ بدمشق، [فأنهدوا لها] فإنها حصن الشام، وبيت ملكهم، وأن يشغل أهل فحل بخيل تكون بإزائهم، وإذا فتح دمشق سار إلى فحل، فإذا فتحت عليهم سار هو وخالد إلى حمص وترك شرحبيل بن حَسَنة وعَمْرًا بالأردن وفلسطين.

فأرسل أبو عبيدة إلى فحل طائفة من المسلمين فنزلوا قريبًا منها، وبثق[٢] الروم الماء حول فحل، فوحلت الأرض، فنزل عليهم المسلمون فكان أوّل محصور بالشام أهل فحل، ثم أهل دمشق.

وبعث أبو عبيدة جندًا فنزلوا بين حمص ودمشق، وأرسل جندًا آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين، وسار أبو عبيدة وخالد، فقدِمُوا على دمشق، وعليها نِسْطاس فنزل أبو عبيدة على ناحية، وخالد على ناحية، وعَمْرو على ناحية، وكان هِرَقل قريب حمص، فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصارًا شديدًا وقاتلوهم بالزحف والمجانيق، [وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث]، وجاءت خيول هِرقل مغيثة دمشق فمنعتها خيول المسلمين التي عند حمص، فَخُذِلَ أهل دمشق، وطمع فيهم المسلمون، ووُلِد للبطريق الذي على أهلها مولود، فصنع طعامًا فأكل القوم وشربوا وتركوا مواقفهم، ولا يعلم بذلك أحدٌ من المسلمين إلّا ما كان من خالد فإنه كان لا ينام ولا يُنيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء، [عيونه ذاكية، وهو مَعْنِيٌّ بما يليه]، وكان قد اتّخذ حبالاً كهيئة السلاليم، وأوهاقًا، فلما أمسى ذلك اليوم نهض هو ومن معه من جنده الذين قَدِمَ عليهم، وتقدّمهم هو والقعقاع بن عمرو، ومذعور بن عَدِيّ وأمثاله، وقالوا: إذا سمعتم تكبيرًا على السور فأرقوا إلينا، واْقصدوا الباب.

فلما وصل هو وأصحابه إلى السور ألقوا الحبال فعلق بالشرف منها حبلان، فصعد فيهما القعقاع ومذعور وأثبتا الحبال بالشرف، وكان ذلك المكان أحصن موضع بدمشق، وأكثره ماء [وأشدّه مدخلاً] فصَعِد المسلمون، ثم انحدر خالد وأصحابه، وترك بذلك المكان مَنْ يحميه، وأمرهم بالتكبير فكبّروا، فأتاهم المسلمون إلى الباب وإلى الحبال، وانتهى خالد إلى من يليه فقتلهم، وقصد الباب فقتل البوّابين، وثار أهلُ

(١) فحل: موضع بالشام. (٢) أي: انساح وانفجر.

المدينة لا يدرون ما الحال، وتشاغل أهلُ كل ناحية بما يليهم، وفتح خالد الباب، وقتل كل من عنده من الروم، فلما رأى الروم ذلك قصدوا أبا عبيدة وبذلوا له الصلح، فقبِلَ منهم، وفتحوا له الباب، وقالوا له: ادخل وأمنعنا مِنْ أهل ذلك الجانب، ودخل أهلُ كل باب بصلح مما يليهم، ودخل خالد عنوةً فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا قتلاً ونهبًا، وهذا صفحًا وتسكيناً، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح، وكان صُلْحُهُم على المقاسمة، وقسموا معهم للجنود التي عند فحل وعند حمص وغيرهم ممن هو رَدْءٌ للمسلمين، وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بالفتح، فوصل كتاب عمر إلى أبي عبيدة يأمره بإرسال جُنْدِ العراق نحو العراق إلى سعد بن أبي وقاص، فأرسلهم، وأمَّر عليهم هاشم بن عتبة المرقال، وكانوا قد قتل منهم فأرسل أبو عبيدة عِوَض مَنْ قتل، وكان ممن أرسل الأشْتَر وغيره، وسار أبو عبيدة إلى فِحْل.

٥٢ ـ يوم فِحْل(١)

فلما فتحت دمشق سار أبو عبيدة إلى فِحْل، واستخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان [في خيله]، وبعث خالدًا على المقدِّمة، وعلى الناس شرحبيل بن حَسَنة، وكان على المجنبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص، وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى الرجال عياض بن غنم، وكان أهل فحل قد قصدوا بيسان فهَمَّ بها فنزل شرحبيل بالناس فحلاً وبينهم وبين الروم تلك المياه والأوحال، وكتبوا إلى عمر [بالخبر وهم يحدّثون أنفسهم بالمقام، ولا يريدون أن يريموا فحلاً حتى يرجع جواب كتابهم من عند عمر، ولا يستطيعون الإقدام على عدوّهم في مكانهم لما دونهم من الأوحال]، وكانت العرب تسمّي تلك الغزاة ذات الردغة وبيسان وفحل، وأقام الناس ينتظرون كتاب عمر، فاغترّهم الروم فخرجوا، وعليهم سقلار بن مخراق [ورجوا أن يكونوا على غِرَّة] فأتوهم والمسلمون حَذِرُون، وكان شرحبيل لا يبيت ولا يصبح إلّا على تعبية، فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم، فاقتتلوا أشدّ قتال، كان لهم ليلتهم ويومهم إلى الليل وأظلم الليل عليهم وقد حاروا، فانهزم الروم وهم حيارى، وقد أصيب رئيسهم صقلار، والذي يليه [فيهم] نسطوس، وظفر المسلمون بهم [أحسن ظفر وأهنأه]، وركبوهم ولم تعرف الروم مأخذهم فانتهت بهم الهزيمة إلى الوحل فركبوه، ولحقهم المسلمون فأخذوهم، ولا يمنعون يدَ لامس، فوخزوهم بالرماح،

(١) سنة ١٣ من الهجرة.

فكانت الهزيمة بفحل والقتل بالرداغ، فأصيب الروم وهم ثمانون ألفًا لم يفلت منهم إلّا الشريد، وقد كان الله يصنع للمسلمين، وهم كارهون، كرهوا البثوق والوحل، فكانت عونًا لهم على عدوّهم [وأناةً من الله ليزدادوا بصيرة وجِدًّا]، وغَنِموا أموالهم فاقتسموها، وانصرف أبو عبيدة بخالد، ومن معه إلى حمص.

وممن قُتِلَ في هذه الحرب السائب بن الحارث بن قيس بن عدي السهمي، له صحبة.

٥٣ ـ يوم النمارق(١)

سار أبو عبيدة الثقفي، وسعد بن عبيد، وسليط بن قيس الأنصاريّان، والمثنى بن حارثة الشيباني أحد بني هند من المدينة، وأمر عمر المثنى بالتقدّم إلى أنْ يقدم عليه أصحابه وأمرهم باستنفار مَنْ حَسُن إسلامه من أهل الردَّة ففعلوا ذلك، وسار المثنى فقدم الحيرة، وكانت الفرس تشاغلت عن المسلمين بموت شهربراز حتى اصطلحوا على سابور بن شهريار بن أردشير، فثارت به أزرميدخت فقتلته وقتلت الفرخزاد، وملكت بوران وكانت عدلاً بين الناس حتى يصطلحوا فأرسلت إلى رستم بن الفرخزاد بالخبر وتحثّه على السير، وكان على فرج خراسان فأقبل لا يلقى جيشًا لآزرميدخت إلّا هزمه حتى دخل المدائن فاقتتلوا وهزم سياوخش وحصره وآزرميدخت بالمدائن، ثم افتتحها رستم وقتل سياوخش وفقأ عين آزرميدخت ونصب بوران [ودعته إلى القيام بأمر أهل فارس وشكت إليه تضعضعهم وإدبار أمرهم] على أن تملكه عشر سنين، ثم يكون الملك في آل كسرى إنْ وَجَدوا من غلمانهم أحدًا وإلّا ففي نسائهم.

[فقال رستم: أما أنا فسامعٌ مطيع غير طالب عِوَضًا ولا ثوابًا، فقالت بوران: اغد عليّ، فغدا عليها] ودعت مرازبة فارس وأمرتهم أنْ يسمعوا له ويطيعوا وتوّجته، فدانت له فارس قبل قدوم أبي عبيد، وكان منجّمًا حسن المعرفة به وبالحوادث، فقال له بعضهم: ما حملك على هذا الأمر وأنت ترى ما ترى؟ قال: حبّ الشرف والطمع.

ثم قَدِم المثنى إلى الحيرة في عشر، وقَدِم أبو عبيد بعده بشهر فكتب رستم إلى الدهاقين أنْ يثوروا بالمسلمين، وبعث في كل رستاق رجلاً يثور بأهله، فبعث جابان

---

(١) سنة ١٣ من الهجرة.

إلى فرات بادَقلي، وبعث نرسي إلى كسكر ووعدهم يومًا، وبعث جندًا لمصادمة المثنى، وبلغ المثنى الخبر [فضمّ إليه مسالحه] فحذر، وعجل جابان ونزل النمارق وثاروا وتوالوا على الخروج، وخرج أهل الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله، وخرج المثنى من الحيرة فنزل خَفَّان[١] لئلا يؤتى من خلفه بشيء يكرهه، وأقام حتى قَدِمَ عليه أبو عبيد، فلما قدم لبث أيامًا يستريح هو وأصحابه واجتمع إلى جابان بشرٌ كثير فنزل النمارق، وسار إليه أبو عبيد فجعل المثنى على الخيل، وكان على مجنبتي جابان جقنس ماه، ومرذانشاه فاقتتلوا بالنمارق قتالاً شديدًا فهزم الله أهل فارس وأسر جابان أسره مطر بن فضة التيمي، وأسر مرذانشاه أسره أَكْتَل بن شماح العكلي فقتله.

وأما جابان فإنه خدع مطرًا، وقال له: هل لك أنْ تؤمّنني وأعطيك غلامين أمردين خفيفين في عَمَلِك، وكذا وكذا؟ ففعل فخَلا عنه فأخذه المسلمون وأتوا به أبا عبيد وأخبروه أنه جابان وأشاروا عليه بقتله، فقال: إنّي أخاف الله أنْ أقتله وقد أمّنه رجلٌ مسلم والمسلمون [في التوادد والتناصر] كالجسد الواحد ما لزم بعضهم، فقد لزم كلهم [فقالوا له: إنه الملك. قال: وإنْ كان لا أغدر، فتركه]، وتركوه، وأرسل في طلب المنهزمين حتى أدخلوهم عسكر نرسي وقتلوا منهم.

٥٤ ـ يوم السقاطية بكسكر[٢]

ولحق المنهزمون نحو كسكر وبها نرسي وهو ابن خالة الملك، وكان له النرسيان وهو نوع من التمر يحميه لا يأكله إلّا مَلِك الفُرْسِ أو مَنْ أكرموه بشيءٍ منه، ولا يغرسه غيرهم، واجتمع إلى النرسي الفالة، وهو في عسكره، فسار أبو عبيد إليهم من النمارق فنزل على نرسي بكسكر، وكان المثنى في تعبيته التي قاتل فيها بالنمارق، وكان على مجنبتي نرسي بندويه وتيرويه ابنا بسطام خال الملك، ومعه أهل باروسما والزوابي.

ولما بلغ الخبر بوران ورستم بهزيمة جابان بعثا الجالينوس إلى نرسي فلحقه قبل الحرب، فعاجلهم أبو عبيد، فالتقوا أسفل من كسكر بمكان يُدْعَى السقاطية فاقتتلوا [في صحارى ملس] قتالاً شديدًا، ثم انهزمت فارس وهرب نرسي، وغلب المسلمون على عسكره وأرضه وجمعوا الغنائم، فرأى أبو عبيد من الأطعمة شيئًا كثيرًا فنفله مَنْ

---

(١) خَفَّان: موضع قرب الكوفة فوق القادسية. (٢) سنة ١٣ من الهجرة.

حوله من العرب وأخذوا النرسيان فأطعموه الفلاحين وبعثوا بخُمْسِهِ إلى عمر، وكتبوا إليه: أنّ الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة تحميها وأحببنا أن تروها لتشكروا إنعام الله وإفضاله.

وأقام أبو عبيد وبعث المثنى إلى باروسما، وبعث والقا إلى الزوابي، وعاصمًا إلى نهر جُور فهزموا مَنْ كان تجمّع، وأخربوا وسبوا أهل زَنْدَوَرْد[١] وغيرها وبذل لهم فروخ وفراونداذ عن أهل باروسما والزوابي وكسكر الجزاء معجلًا، فأجابوا إلى ذلك وصاروا صُلْحًا، وجاء فروخ وفرا ونداذ إلى أبي عبيد بأنواع الطعام والأخبصة[٢] وغيرها، فقال: هل أكرمتم الجند بمثلها؟

فقالوا: لم ـ يتيسر ونحن فاعلون ـ وكانوا يتربّصون قُدُوم الجالينوس، فقال أبو عبيد: لا حاجة لنا فيه، بئس المرء أبو عبيد إنْ صحب قومًا من بلادهم استأثر عليهم بشيء، ولا والله لا آكل ما أتيتم به ولا مما أفاء الله إلّا مثل ما يأكل أوساطهم.

فلما هُزم الجالينوس أتوه بالأطعمة أيضًا، فقال: ما آكل هذا دون المسلمين، فقالوا له: ليس من أصحابك أحدٌ إلّا وقد أتي بمثل هذا، فأكل حينئذ.

٥٥ ـ يوم الجالينوس[٣]

ولما بعث رستم الجالينوس أمره أن يبدأ بنرسي، ثم يقاتل أبا عبيد فبادره أبو عبيد إلى نرسي فهزمه، وجاء الجالينوس فنزل بباقسياثا من باروسما، فسار إليه أبو عبيد وهو على تعبيته فالتقوا بها فهزمهم المسلمون وهرب الجالينوس، وغلب أبو عبيد على تلك البلاد، ثم ارتحل حتى قَدِم الحيرة، وكان عمر قد قال له: «إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية، تَقْدُم على قوم تجرّأوا على الشرّ فعلموه، وتناسَوْا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون؟ واحرز[٤] لسانك، ولا تفشين سرك فإنّ صاحب السر ما يضبطه متحصّن لا يؤتى من وجهٍ يكرهه، وإذا ضيّعه كان بمضيعة».

---

(١) زند ورد: مدينة كانت قرب واسط مما يلي البصرة خربت بعمارة واسط.
(٢) الخبيصة: القطعة من الخبيص وهو الحلوى المخبوصة من التمر والسمن.
(٣) سنة ١٣ من الهجرة. (٤) أي: أحفظ.

٥٦ ـ يوم قُسّ الناطف[١]

ويقال لها «الجسر»، ويقال: «المروحة»[٢]، وقتل أبي عبيد بن مسعود.

ولمّا رجع الجالينوس إلى رستم منهزمًا ومن معه من جُنده، قال رستم: أيُّ العجم أشدّ على العرب [فيما ترون]؟

قالوا: بهمن جاذويه المعروف بذي الحاجب ـ وإنما قيل له ذا الحاجب؛ لأنه كان يعصب حاجبيه بعصابة ليرفعهما كِبْرًا ـ فوجَّهه ومعه فيلة، ورد الجالينوس معه وقال لبهمن: إن انهزم الجالينوس ثانية فاْضرب عنقه.

فأقبل بهمن جاذويه ومعه دِرَفْش كابيان (راية كسرى) كانت من جلود النمر عرض ثماني أذرع وطول اثنتي عشرة ذراعًا، فنزل «بقُسّ الناطف»، وأقبل أبو عبيد فنزل «بالمروحة»، فرأت دومة امرأته أم المختار ابنه أنّ رجلًا نزل من السماء بإناء فيه شراب فشرب أبو عبيد ومعه نفر، فأخبرت بها أبا عبيد فقال: «لهذه إنْ شاء الله الشهادة»، وعهد إلى الناس فقال: «إنْ قتلت فعلى الناس فلان، فإنْ قُتِل فعليهم فلان»، حتى أمّر الذين شربوا من الإناء [على الولاء من كلامه].

ثم قال: فإن قتل فعلى الناس المثنى.

وبعث إليه بهمن جاذويه: إمّا أنْ تعبر إلينا وندعكم والعبور، وإمّا أنْ تَدَعُونا نعبر إليكم، فنهاه الناس عن العبور ونهاه سليط أيضًا فلجّ وترك الرأي وقال: «لا يكونوا أجرأ على الموت منّا»، فعبر إليهم على جسر عقده ابن صلوبا للفريقين، وضاقت الأرض بأهلها واقتتلوا، فلما نظرت الخيول إلى الفيلة والخيل عليها التجافيف رأت شيئًا منكرًا لم تكن رأتْ مثله [فجعل المسلمون إذا حملوا عليهم] فلم تقدم عليهم [خيولهم]، وإذا حملت الفرس على المسلمين بالفيلة والجلاجل فرقت خيولهم وكراديسهم ورموهم بالنشاب واشتدّ الأمرُ بالمسلمين، فترجَّل أبو عبيد والناس ثم مشوا إليهم، ثم صافحوهم بالسيوف فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة إلّا دفعتهم، فنادى أبو عبيد: احتوشوا الفيلة واقطعوا بِطَانَها[٣]، واقلبوا عنها أهلها، ووثب هو على الفيل الأبيض فقطع بطنه ووقع الذين عليه وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلًا

---

(١) قس الناطف: موضع قريب من الكوفة على شاطئ الفرات الشرقي.
(٢) المروحة: موضع بشاطئ الفرات الغربي.
(٣) بطان الرحل: مثل الحزام.

إلّا حطوا رحله، وقتلوا أصحابه، وأهوى الفيل لأبي عبيد فضربه أبو عبيد بالسيف وخبطه الفيل بيده فوقع فوطئه الفيل وقام عليه، فلما بَصُرَ به الناسُ تحت الفيل خشعتْ أنفسُ بعضهم.

ثم أخذ اللواء الذي أمره بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد فأخذه المسلمون فأحرزوه، ثم قتل الفيل الأمير الذي بعد أبي عبيد وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلّهم يأخذ اللواء، ويقاتل حتى يموت، ثم أخذ اللواء المثنّى فهرب عنه الناس، فلما رأى عبد الله بن مرثد الثقفي ما لقي أبو عبيد وخلفاؤه وما يصنع الناس بادرهم إلى الجسر فقطعه؛ وقال: يا أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا، وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر فتواثب بعضهم إلى الفرات فغرق مَنْ لم يصبر، وأسرعوا فيمن صبر، وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس، وقال: أنا دونكم فأعبروا على هينتكم ولا تدهشوا [فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب] ولا تغرقوا نفوسكم [فعبروا الجسر].

وقاتل عروة بن زيد الخيل قتالاً شديدًا وأبو محجن الثقفي، وقاتل أبو زبيد الطائي حَمِيّة للعربية وكان نصرانيًا قَدِم الحيرة لبعض أمره ونادى المُثَنّى: مَنْ عَبَر نجا، فجاء العلوج فعقدوا الجسر وعبر الناس، وكان آخر من قتل عند الجسر سليط بن قيس، وعبر المثنى وحمى جانبه، فلما عبر ارفضّ عنه أهل المدينة [حتى لحقوا بالمدينة، وتركها بعضهم ونزلوا البوادي]، وبقي المثنى في قلّة، وكان قد جُرِحَ وأثبت فيه حلق من درعه [هتكهن]، وأخبر عمر عمّن سار في البلاد من الهزيمة استحياء فاشتدّ عليه [ذلك ورحمهم]، وقال: «اللّهمّ إنّ كل مسلم في حِلّ مني، أنا فئةُ كُلّ مسلم، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إليّ لكنتُ له فئة».

وهلك من المسلمين [يومئذ] أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقي ثلاثة آلاف.

وقتل من الفرس ستة آلاف، وأراد بهمن جاذويه العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه، وصاروا فريقين الفهلوج على رستم، وأهل فارس على الفيرزان، فرجع إلى المدائن.

وكانت هذه الوقعة في شعبان.

وكان فيمن قتل بالجسر عقبة وعبد الله ابنا قبطي بن قيس، وكانا شَهِدا أُحُدًا؛ وقتل معهما أخوهما عباد ولم يشهد معهما أُحُدًا، وقتل أيضًا قيس بن السكن بن قيس

أبو زيد الأنصاري وهو بدري لا عقب له، وقتل يزيد بن قيس بن الخطيم الأنصاري شهد أُحُدًا، وفيها قتل أبو أُمية الفزاري له صحبة، والحكم بن مسعود أخو أبي عبيد وابنه جبر بن الحكم بن مسعود.

٥٧ ـ يوم أُلَيّس الصغرى

لما عاد ذو الحاجب لم يشعر جابان ومردانشاه بما جاء به من الخبر فخرجا حتى أخذا بالطريق، وبلغ المثنى فعلهما فاستخلف على الناس عاصم بن عمرو وخرج في جريدة خيل يريدهما، فظنّا أنه هارب فاعترضاه فأخذهما أسيرين، وخرج أهل أُلَيّس على أصحابهما فأتوه بهم أسرى وعقد لهم بها ذمّة وقتلهما، وقتل الأسرى، وهرب أبو محجن من أُلَيّس ولم يرجع مع المثنى بن حارثة.

٥٨ ـ يوم البُوَيْب[١]

لما بلغ عمر خبر وقعة أبي عبيد بالجسر ندب الناس إلى المثنى، وكان فيمن ندب بجيلة وأمرهم إلى جرير بن عبد الله لأنه كان قد جمعهم من القبائل وكانوا متفرّقين فيها فسأل النبيّ ﷺ أن يجمعهم فوعده ذلك، فلما ولي أبو بكر تقاضاه بما وعده النبيّ ﷺ فلم يفعل؛ فلما ولي عمر طلب منه ذلك [دعاه بالبيِّنة فأقامها له] فكتب إلى عماله أنه مَنْ كان يُنْسَب إلى بجيلة في الجاهلية وثبت عليه في الإسلام فأخرجوه إلى جرير ففعلوا ذلك، فلما اجتمعوا أمرهم عمر بالعراق وأبوا إلّا الشام فعزم عمر على العراق وينفلهم ربع الخمس، فأجابوا وسيَّرهم إلى المثنى بن حارثة، وبعث عصمة بن عبد الله الضبي فيمن تبعه إلى المثنى.

وكتب إلى أهل الردة[٢] فلم يأته أحد إلّا رمى به المثنى، وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب، فتوافوا إليه في جمع عظيم، وكان فيمن جاءه أنس بن هلال النمري في جمعٍ عظيم من النمر نصارى، وقالوا: نقاتل مع قومنا.

وبلغ الخبر رستم والفيرزان، فبعثا مهران الهمذاني إلى الحيرة، فسمع المثنى ذلك وهو بين القادسية وخفان فاستبطن فرات بادقلي وكتب إلى جرير وعصمة وكل من أتاه ممدًا له يعلمهم الخبر ويأمرهم بقَصْد البُوَيْب فهو الموعد، فانتهوا إلى المثنى وهو بالبُوَيْب ومهران بإزائه من وراء الفرات، فاجتمع المسلمون بالبُوَيْب مما يلي

(١) نهر كان بالعراق يأخذ من الفرات. (٢) مراده من تاب من أهل الردّة.

الكوفة اليوم وأرسل مهران إلى المثنى يقول: إمّا أنْ تعبر إلينا وإما أنْ نعبر إليك، فقال المثنى: اعبروا؛ فعبر مهران فنزل على شاطئ الفرات وعَبى المثنّى أصحابه وكان في رمضان فأمرهم بالإفطار ليقووا على عدوّهم فأفطروا، وكان على مجنبتي المثنى بشير بن الخصاصية وبُسْر بن أبي رُهْم، وعلى مجردته المعني أخوه، وعلى الرَّجل مسعود أخوه، وعلى الرّدء مذعور، وكان على مجنبتي مهران بن الأزاذبه مرزبان الحيرة، ومردانشاه، وأقبل الفرس في ثلاثة صفوف مع كل صف فيل ورجلهم أمام فيلهم ولهم زجل؛ فقال المثنى للمسلمين: إنّ الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت [وائتمروا همسًا]، ودنوا من المسلمين، وطاف المثنى في صفوفه يعهد إليهم، وهو على فرسه «الشموس» وإنما سمي بذلك للينه وكان لا يركبه إلّا إذا قاتل، فوقف على الرايات [رايةً راية] يحرّضُهُم [ويأمرهم بأمره] ويهزّهم [بأحسن ما فيهم]، ولكلّهم يقول: «إني لأرجو أنْ لا يؤتى الناس من قِبَلِكُمُ اليوم، والله ما يسرُّني اليوم لنفسي شيءٌ إلّا وهو يسرني لعامتكم» فيجيبونه بمثل ذلك، وأنصفهم من نفسه في القول والفعل وخلط الناس في المحبوب والمكروه، فلم يقدر أحد أن يعيب له قولاً ولا فعلاً، وقال: إني مُكَبِّرٌ ثلاثًا فتهيّأوا ثم املوا في الرابعة.

فلما كبّر أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم [مع أول تكبيرة]، وركدت خيلهم وحربهم مليًا، فرأى المثنى خللاً في بني عجل فجعل يمد لحيته لما يرى منهم وأرسل إليهم يقول: الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم.

فقالوا: نعم، واعتدلوا فضحك فرحًا، فلما طال القتال واشتدّ؛ قال المثنى لأنس بن هلال النمري: إنّك امرؤٌ عربي وإنْ لم تكن على ديننا فإذا [رأيتني قد] حملتُ على مهران فاحمل معي.

فأجابه فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل في ميمنته، ثم خالطوهم، واجتمع القلبان، وارتفع الغبار والمجنبات تقتتل لا يستطيعون أنْ يفرغوا لنصر أميرهم لا المسلمون ولا المشركون، وارتث مسعود أخو المثنى يومئذ وجماعة من أعيان المسلمين، فلما أُصيب مسعود تضعضع من معه، فقال: يا معشر بكر ارفعوا رايتكم رفعكم الله ولا يهولنكم مصرعي، وكان المثنى قال لهم: إذا رأيتمونا أُصِبْنَا فلا تدعوا ما أنتم فيه [فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف]، الزموا مصافكم واغنوا عمن يليكم، وأوجع قلب المسلمين في قلب المشركين.

وقَتَل غلامُ نصراني من تغلب مهران واستوى على فرسه [ثم انتمى[١] «أنا الغلام التغلبي، أنا قتلت المرزبان»]، فجعل المثنى سلبه لصاحب خيله، وكان التغلبي قد جلب خيلاً هو وجماعة من تغلب، فلما رأوا القتال قاتلوا مع العرب.

قال: وأفنى المثنى قلب المشركين والمجنبات بعضها يقاتل بعضًا، فلما رأوه قد أزال القلب وأفنى أهله وَثَب مجنبات المسلمين على مجنبات المشركين، وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم، وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول لهم: «عاداتكم في أمثالكم انصروا الله ينصركم»، حتى هزموا الفرس، وسبقهم المثنى إلى الجسر وأخذ طريق الأعاجم فافترقوا [بشاطئ الفرات] مصعدين ومنحدرين، وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثثًا، فما كانت بين المسلمين والفرس وقعة أبقى رمة منها بقيت عظام القتلى دهرًا طويلاً، وكانوا يحزرون[٢] القتلى مائة ألف، وسمي ذلك اليوم «الأعشار» أُحْصِيَ مائة رجل قتل كل رجل منهم عشرة، وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة، وغالب الكناني وعرفجة الأزدي من أصحاب التسعة.

وقتل المشركون فيما بين السكون اليوم وضفة الفرات، وتبعهم المسلمون إلى الليل ومن الغد إلى الليل، وندم المثنى على أخذه بالجسر؛ وقال: «عجزتُ عجزة» وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر [وقطعه] حتى أحرجتهم فلا تعودوا [ولا تقتدوا بي] أيها الناس إلى مثلها فإنها كانت زَلَّة، فلا ينبغي إحراج من لا يقوى على امتناع[٣]. ومات أُناسٌ من الجرحى [من أعلام المسلمين]، منهم مسعود أخو المثنى، وخالد بن هلال فصلّى عليهم المثنى [وقدّمهم على الأسنان[٤] والقرآن]، وقال: «والله إنه ليهوّن عليّ وجدي أنْ صبروا وشهدوا البُوَيْب [ولم يجزعوا]، ولم ينكلوا، [وإن كان في الشهادة كفارة لتجوز الذنوب]».

وكان قد أصاب المسلمون غَنَمًا ودقيقًا وبقرًا فبعثوا بها إلى عيال من قدم من المدينة، وهم بالقوادس.

وأرسل المثنى الخيل في طلب العجم فبلغوا السِّيب.

---

(١) أي: انتسب إلى قومه.
(٢) أي: يقدرون القتلى.
(٣) وهذا لعمري وهو خلق المسلمين.
(٤) أي: الأكبر سنًا.

وغنموا من البقر والسبي وسائر الغنائم شيئًا كثيرًا فقسمه فيهم، ونفل أهل البلاء [من جميع القبائل]، وأعطى بجيلة ربع الخمس، وأرسل الذين تبعوا المنهزمين إلى المثنى يعرّفونه سلامتهم وأنه لا مانع دون القوم ويستأذنونه في الإقدام، فأذن لهم فأغاروا حتى بلغوا ساباط(١)، وتحصّن أهله منهم واستباحوا القرى، ثم مخروا السواد فيما بينهم وبين دجلة لا يخافون كيدًا ولا يلقون مانعًا، ورجعت مسالح العجم إليهم وسرّهم أن يتركوا ما وراء دجلة.

٥٩ ـ يوم القادسية(٢)

لما اجتمع الناس إلى عمر خرج من المدينة حتى نزل على ماء يدعى «صرارًا»(٣)، فعسكر به ولا يدري الناسُ ما يريد أيسير أم يقيم؟ وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيءٍ رَمَوهُ بعثمان، أو بعبد الرحمٰن بن عوف فإن لم يقدر هذان على عِلم شيءٍ مما يريدون ثلّثوا بالعباس بن عبد المطلب، فسأله عثمان عن سبب حركته فأحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم في المسير إلى العراق، فقال العامّةُ: سِرْ وسِرْ بنا معك، فدخل معهم في رأيهم، [وكره أنْ يَدَعَهم حتى يخرجهم منه في رفق]، وقال: اغدوا واستعدوا فإني سائرٌ إلّا أن يجيء رأيٌ هو أمثل من هذا.

ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله ﷺ [وأعلام العرب]، وأرسل إلى عليّ، وكان استخلفه على المدينة فأتاه، وإلى طلحة وكان على المقدمة فرجع إليه، وإلى الزبير وعبد الرحمٰن وكان على المجنبتين فحضرا، ثم استشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ [ويقيم] ويرميه بالجنود، فإن كان الذي يشتهي فهو الفتح وإلّا أعاد رجلًا وبعث آخر، ففي ذلك غيظُ العدوّ.

فجمع عمر الناس، وقال لهم: إنّي كنتُ عزمتُ على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم، وقد رأيتُ أنْ أقيم وأبعث رجلًا فأشيروا عليّ برجل، وكان سعد بن أبي وقاص على صدقات هوازن فكتب إليه عمر بانتخاب ذوي الرأي والنجدة والسلاح، فجاءه كتاب سعد وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه يقول: قد انتخبتُ لك ألف فارس كلهم له نجدة ورأي، وصاحب حيطة يحوط حريم قومه [ويمنع ذمارهم]،

---

(١) ساباط: قرية كانت قريبة من المدائن على نهر الملك.

(٢) سنة ١٤ من الهجرة.

(٣) صرار: موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق.

إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم، فلما وصل كتابه [وافق مشورتهم]، قالوا لعمر: قد وجدته.

قال: من هو؟ قالوا: الأسد عاديًا سعد بن مالك[١]، فانتهى إلى قولهم وأحضره وأمّره على حرب العراق ووصاه، وقال:

«لا يغرنّك من الله أنْ قيل: خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ، فإنّ الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيّئ بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلّا طاعته، فالناس [شريفهم ووضيعهم] في ذات الله سواء؛ الله ربّهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيتَ رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه» ووصاه بالصبر.

وسرّحه فيمن اجتمع إليه من نفر المسلمين وهو أربعة آلاف فيهم حُميضة بن النعمان بن حميضة على بارق، وعمرو بن معديكرب، وأبو سبرة بن ذؤيب على مذحج، ويزيد بن الحارث الصدائي على صداء، وحبيب، ومسيلمة، وبشر بن عبد الله الهلالي في قيس عيلان.

وخرج إليهم عمر فمرّ بفتية من السكون مع حصين بن نمير ومعاوية بن خديج دلم سباط[٢] فأعرض عنهم، فقيل له: ما لك وهؤلاء؟ فقال: ما مَرّ بي قومٌ من العرب أكره إليّ منهم ثم أمضاهم، فكان بعد يذكرهم بالكراهة، فكان منهم سَوْدَان بن حمران قتل عثمان، وابن ملجم قتل عليًا، ومعاوية بن خديج جرّد السيف في المسلمين يظهر الأخذ بثأر عثمان، وحصين بن نمير كان أشدّ الناس في قتال عليّ، ثم إنّ عمر أخذ بوصيتهم وبعظتهم ثم سَيَّرهم، وأمدَّ عمر سعدًا بعد خروجه بألفي يمانِيّ وألفي نَجْدِيّ، وكان المثنى بن حارثة في ثمانية آلاف.

وسار سعد والمثنى ينتظر قدومه فمات المثنى قبل قدوم سعد من جراحة انتقضت عليه، واستخلف على الناس بشير بن الخصاصية، وسعد يومئذ بزرود، وقد اجتمع معه ثمانية آلاف، وأمر عمر بني أسد أن ينزلوا على حدّ أرضهم بين الحزن والبسيطة، فنزلوا في ثلاثة آلاف، وسار سعد إلى شَراف فنزلها ولحقه بها الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن، فكان جميع من شهد القادسية بضعة وثلاثين

(١) أي: وهو سعد بن أبي وقاص.

(٢) الدلم: جمع أدلم وهو الآدم والشديد السواد في ملوسة، ومن تهدّلت شفتاه، والسبط الطويل.

ألفًا، وجميع من قسم عليه فيؤها نحو من ثلاثين ألفًا، ولم يكن أحد أجرأ على أهل فارس من ربيعة، فكان المسلمون يسمونهم ربيعة الأسد إلى ربيعة الفرس، [وكانت العرب في جاهليتها تسمي فارس الأسد، والروم الأسد].

ولم يدع عمر ذا رأي، ولا شرف، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا، ولا وجيهًا من وجوه الناس إلّا سَيّره إلى سَعْد.

وجَمَعَ سعدُ مَنْ كان بالعراق من المسلمين من عسكر المثنى، فاجتمعوا بشراف فعبّأهم، وأمّر الأمراء، وعرّف على كل عشرة عريفًا، وجعل على الرايات رجالاً من أهل السابقة، وولى الحروب رجالاً على ساقتها، ومقدمتها، ورجلها، وطلائعها، ومجنباتها، ولم يفصل إلّا بكتاب عمر؛ فجعل على المقدمة زهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحويّة فانتهى إلى العذيب ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، وجعل على الميمنة عبد الله بن المعتم ـ وكان من الصحابة أيضًا، واستعمل على الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي ـ [وكان غلامًا شابًا وكان قد قاتل أهل الردة]، وجعل خليفته خالد بن عرفطة ـ حليف بني عبد شمس، وجعل عاصم بن عمرو التميمي على الساقة، وسواد بن مالك التميمي على الطلائع، وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة، وعلى الرجالة حمال بن مالك الأسدي، وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمين الحنفي[١].

وجعل عمر على القضاء بينهم عبد الرحمٰن بن ربيعة الباهلي وعلى قسمة الفَيْء أيضًا، وجعل رائدهم وداعيتهم سلمان الفارسي، والكاتب زياد بن أبيه، وقَدِم المعني بن حارثة الشيباني وسلمى بنت خصفة زوج المثنى بشراف.

وكان المعني بعد موت أخيه قد سار إلى قابوس بن قابوس بن المنذر بالقادسية، وكان قد بعثه إليها الفرس يستنفر العرب فسار إليه المعني فقفله فأنامه[٢] ومن معه ورجع إلى ذي قار، وسار إلى سعد يُعلمه برأي المثنى له وللمسلمين يأمرهم أنْ يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حَجَر من أرض العرب، ولا يقاتلوهم بعُقْر دارهم، فإنْ يُظْهِرُ الله المسلمين فلهم ما وراءهم؛ وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم، وأجرأ على أرضهم إلى أنْ يَرُدّ الله الكرّة عليهم.

---

(١) في الطبري: الخثعمي.

(٢) أي: قتلهم.

فترجم سعد ومن معه على المثنى، وجعل المعني على عمله، وأوصى بأهل بيته خيرًا، ثم تزوّج سعد سلمى زوج المثنى [وبنى بها]، وكان معه تسعة وتسعون بدريًا، وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، ثلاثمائة ممن شهد الفتح، وسبعمائة من أبناء الصحابة.

وقدم على سعد [وهو بشراف] كتاب عمر بمثل رأي المثنى.

وكتب عمر أيضًا إلى أبي عبيدة ليصرف أهل العراق، ومن اختار أن يلحق بهم إلى العراق.

وكان للفرس رابطة بقصر ابن مقاتل وعليها النعمان بن قبيصة الطائي، وهو ابن عم قبيصة بن إياس صاحب الحيرة، فلما سمع بمجيء سعد سأل عنه، وعنده عبد الله بن سنان بن خزيم الأسدي، فقيل: رجل من قريش، فقال: والله لأجادنه القتال، فإن قريشًا عبيد من غَلَب، والله لا يخرجون من بلادهم إلّا بخفّين.

فغضب عبد الله بن سنان من قوله وأمهله حتى دخل قبّته فقتله، ولحق بسعد وأسلم.

وسار سعد من شَراف فنزل العذيب، ثم سار حتى نزل القادسية بين العتيق والخندق بحيال القنطرة، وقديس أسفل منها بميل، وكتب عمر إلى سعد: «إني أُلْقِيَ في روعي أنّكم إذا لقيتم العدوّ هزمتموهم [فاطرحوا الشك، وآثروا التقية عليه]، فمتى لاعب أحد منكم أحدًا من العجم بأمان أو بإشارة أو بلسان [كان لا يدري الأعجمي ما كَلّمه به و] كان عندهم أمانًا فأجروا له ذلك مجرى الأمان، و[إياكم والضحك] والوفاء الوفاء، فإن الخطأ بالوفاء بقية، وإن الخطأ بالغدر هلكة، وفيها وهنكم وقوة عدوكم، [وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم. واعلموا أنّي أحذّركم أنْ تكونوا شَيْنًا على المسلمين وسببًا لتوهينهم]».

فلما نزل زهرة في المقدمة وأمسى بعث سرية في ثلاثين معروفين بالنجدة وأمرهم بالغارة على الحيرة، فلما جاروا السيلحين [وقطعوا جسرها يريدون الحيرة] سمعوا جلبة[١] فمكثوا حتى حاذوهم وإذا أخت آزادمرد بن آزاذبه مرزبان الحيرة تزف إلى صاحب الصّنين وهو من أشراف العجم؛ فحمل بكير بن عبد الله الليثي أمير

(١) أي: الصياح والصخب.

السرية على شيرزاد بن أزاذبه [وهو بينها وبين الخيل] فدقّ صلبه وطارت الخيل على وجوهها، وأخذوا الأثقال وابنة آزاذبه في ثلاثين امرأة من الدهاقين ومائة من التوابع، ومعهم ما لا يدرى قيمته، فاستاق ذلك ورجع، فصبّح سعدًا بعُذَيْب الهجانات[1] [بما أفاء الله على المسلمين فكبّروا تكبيرة شديدة، فقال سعد: أقسم بالله لقد كبرتم تكبيرة قوم عرفت فيهم العزّ]، فقسَّم ذلك على المسلمين وترك الحريم بالعذيب ومعها خيل تحوطها وأمّر عليهم غالب بن عبد الله الليثي: ونزل سعد القادسية وأقام بها شهرًا لم يأته من الفرس أحد، فأرسل سعد عاصم بن عمرو إلى ميسان فطلب غنمًا أو بقرًا، فلم يقدر عليها وتحصّن منه مَنْ هناك فأصاب عاصم رجلًا بجانب أجمة فسأله [واستدلّه] عن البقر والغنم، فقال: ما أعلم.

فصاح ثورٌ من الأجمة كذب عدوّ الله وها نحن أولاء، فدخل فاستاق البقر فأتى بها العسكر فقسَّمه سعد على الناس، فأخصبوا أيامًا فبلغ ذلك الحجاج في زمانه فأرسل إلى جماعة فسألهم فشهدوا أنهم سمعوا ذلك وشاهدوه، فقال: كذبتم.

قالوا: ذلك إنْ كنتَ شهدتها وغبنا عنها، قال: صدقتم، فما كان الناس يقولون في ذلك؛ قالوا: [آيةُ تبشير] يستدلّ بها على رضا الله وفتح عدوّنا؛ فقال: ما يكون هذا إلّا والجمع أبرار أتقياء، قالوا: والله ما ندري ما أجنت قلوبهم فأمّا ما رأينا فما رأينا قومًا قط أزهد في دنيا منهم ولا أشدّ بُغْضًا لها ليس فيهم جبان، ولا غالّ، ولا غدّار، وذلك يوم الأباقر.

وبثّ سعد الغارات والنهب بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطعمة ما استكفوا به زمانًا، وكان بين نزول خالد بن الوليد العراق وبين نزول سعد القادسية والفراغ منها سنتان وشيء، وكان مقام سعد بالقادسية شهرين وشيئًا حتى ظفر فاستغاث أهلُ السواد إلى يزدجرد، وأعلموه أن العرب قد نزلوا القادسية ولا يبقى على فعلهم شيء وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات ونهبوا الدوابّ والأطعمة، وإنْ أبطأ عنّا الغياث أعطيناهم بأيدينا، وكتب إليه بذلك الذين لهم الضياع بالطف وهيّجوه على إرسال الجنود، فأرسل يزدجرد إلى رستم فدخل عليه، فقال: «إني أريدُ أنْ أُوَجِّهَكَ في هذا الوجه [وإنما يعد للأمور على قدرها]، فأنت رجل فارس اليوم وقد ترى ما حلّ بالفرس مما لم يأتهم مثله».

---

(١) العُذَيْب: عُذَيْبان: عذيب الهجانات، وعذيب القوادس.

فأظهر له الإجابة، ثم قال له: «دعني فإن العرب لا تزال تهاب العجم ما لم تضرّهم بي، ولعل الدولة أن تثبت بي إذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة، والرأي في الحرب أنفع من بعض الظفر، والأناة خير من العجلة، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرّة وأشد على عدونا»، فأبى عليه وأعاد رستم كلامه وقال: قد اضطرني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها ولو أجد من ذلك بُدًّا لم أتكلم به، فأنشدك الله في نفسك ومُلكك دعني أُقِمْ بعسكري وأُسَرِّح الجالينوس، فإنْ تكن لنا فذلك وإلّا بعثنا غيره حتى إذا لم نجد بُدًّا صبرنا لهم وقد وَهَنَّاهُم ونحن حامون، فإني لا أزال مَرْجُوًّا في أهل فارس ما لم أُهْزَم. فأبى إلّا أن يسير، فخرج حتى ضرب عسكره بساباط، وأرسل إلى الملك ليعفيه فأبى.

وجاءت الأخبار إلى سعدٍ بذلك، فكتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: «لا يكربنك ما يأتيك عنهم [ولا ما يأتونك به]، واستَعِنْ بالله، وتوكّل عليه، وابعثْ إليه رجالاً من أهل المناظرة والرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعل دعاءهم توهينًا لهم».

فأرسل سعد نفرًا منهم: النعمان بن مُقَرِّن، وبُسْر بن أبي رُهْم، وحملة بن جُوَيّة، وحنظلة بن الربيع، وفرات بن حيان، وعديّ بن سهيل، وعطارد بن حاجب، والمغيرة بن زرارة بن النباش الأسدي، والأشعث بن قيس، والحارث بن حسان، وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معديكرب، والمغيرة بن شعبة، والمعني بن حارثة إلى يزدجرد دعاة، فخرجوا من العسكر فقدِمُوا على يزدجرد وطووا رستم واستأذنوا على يزدجرد، فحبسوا وأحضر وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع بهم ويقوله لهم، واجتمع الناس ينظرون إليهم وتحتهم خيول كلها صهال، وعليهم البرود وبأيديهم السياط فأذِنَ لهم وأحضر الترجمان، وقال له: سَلْهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟ أمِنْ أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فقال النعمان بن مُقَرِّن لأصحابه: إنْ شئتم تكلّمتُ عنكم ومن شاء آثرته.

فقالوا: بل تكلّم، فقال: «إنّ الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع قبيلة إلّا وقارَ به منها فرقة، وتباعد عنه بها فرقة، ثم أمر أن نبتدئ إلى من خالفه من العرب فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين، مكرهٍ عليه فاغتبط، وطائع فازداد، فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذي كنّا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أنْ نبتدئ مَنْ يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دِينٌ حَسَّنَ

الحسَنَ وقَبَّحَ القبيحَ كلّه، فإن أبيتم فأمرٌ من الشرّ هو أهون من آخر شرٌ منه: الجزية، فإنْ أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإنْ بذلتم الجزاء قبلنا، ومنعناكم وإلّا قاتلناكم».

فتكلّم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمّة كانت أشقى ولا أقلّ عددًا ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنّا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا أمركم [لا تغزوكم فارس] ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس فإنْ كان غرر لحقكم[1] فلا يغرنّكم منّا، وإن كان الجهد [دعاكم] فَرَضْنَا لكم قُوتًا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم ومَلَّكْنَا عليكم ملكًا يَرْفُقُ بكم.

فأسكت القوم، فقام المغيرة بن زرارة فقال: «أيّها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب، ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف ويعظّم حقهم الأشراف وليس كل ما أرسلوا به قالوه ولا كل ما تكلمتَ به أجابوك عنه [وقد أحسنوا ولا يُحْسِنُ بمثلهم إلا ذلك]، فجاوبني لأكون الذي أبلغك، وهم يشهدون على ذلك لي.

فأمّا ما ذكرتَ من سوء الهال فهي على ما وصفتَ وأشدّ ـ ثم ذكر من سوء عيش العرب وإرسال الله النبيّ ﷺ إليهم نحو قول النعمان وقتال من خالفهم أو الجزية، ثم قال لهم ـ اخترْ إنْ شئتَ الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإنْ شئتَ فالسيف أو تُسْلم فتنجّي نفسك».

فقال: [أتستقبلني بمثل هذا، فقال: ما استقبلتُ إلا من كَلّمني، ولو كلّمني غيرك لم أستقبلك به، فقال:] لولا أنّ الرُّسُلَ لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي. ثم استدعى بوِقْر[2] من تراب، فقال: احْمِلُوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن، ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسلٌ إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خَنْدَقِ القادسية [وينكّل به وبكم]، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشدّ مما نالكم من سابور. فقام عاصم بن عمرو ليأخذ التراب، وقال: أنا أشرفهم، أنا سيّد هؤلاء فحَمَلَه على عنقه وخرج [به من الإيوان والدار] إلى

---

(١) في الطبري: فإنْ كان عدد لحق فلا يغرنّكم منّا، وهنا أظهر.

(٢) الوِقر: الحِمل الثقيل.

راحلته فركبها وأخذ التراب، وقال لسعد: «أَبْشِر، فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم».

واشتدّ ذلك على جلساء الملك، وقال الملك لرستم وقد حضر عنده من ساباط: «ما كنتُ أرى أن في العرب مثل هؤلاء، ما أنتم بأحسن جوابًا منهم، ولقد صدقني القوم لقد وُعِدُوا أمرًا ليدركنّه أو ليموتُنّ عليه، على أنّي وجدتُ أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه [فخرج به]».

فقال رستم: «أيّها الملك إنّه أعقلهم، وتطيَّرَ إلى ذلك وأبصرها دون أصحابه»، وخرج رستم من عند الملك غضبان كئيبًا، وبعث في أثر الوفد وقال لثقته: «إنْ أدركهم الرسولُ تلافينا أرْضَنا، وإنْ أعجزوه سلبكم الله أرضكم». فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم فقال: «ذهب القوم بأرضكم من غير شك»، وكان منجّمًا كاهنًا، وأغار سواد بن مالك التميمي بعد مسير الوفد إلى يزدجرد على النجاف والفراض، فاستاق ثلاثمائة دابّة من بين بغل وحمار وثور، وأوقرها سمكًا وصبّح العسكر فقسّمه سعد بين الناس وهذا يوم الحيتان، وكانت السرايا تسري لطلب اللحوم، فإن الطعام كان كثيرًا عندهم فكانوا يسمون الأيام بها يوم الأباقر، ويوم الحيتان، وبعث سعد سرية أخرى فأغاروا فأصابوا إبلًا لبني تغلب والنمر واستاقوها ومن فيها، فنحر سعد الإبل وقسّمها في الناس فأخصبوا، وأغار عمرو بن الحارث على النهرين فاستاق مواشي كثيرة وعاد.

وسار رستم من ساباط وجمع آلة الحرب وبعث على مقدمته الجالينوس في أربعين ألفًا، وخرج هو في ستّين ألفًا، وفي ساقته عشرون ألفًا، وجعل في ميمنته الهرمزان، وعلى الميسرة مهران بن بهرام الرازي، وقال رستم للملك يشجّعه بذلك: «إنْ فتح الله علينا توجّهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أصلهم وبلادهم إلى أنْ يقبلوا المسالمة». وكان خروج رستم من المدائن في ستّين ألف متبوع، ومسيره عن ساباط في مائة ألف وعشرين ألف متبوع، وقيل غير ذلك.

ولما فصل رستم عن ساباط كتب إلى أخيه البنذوان: «أمّا بعد فرموا حصونكم وأعدّوا واستعدوا فكأنكم بالعرب قد [وردوا بلادكم] وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم، وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوسًا، فإنّ السمكة قد كدّرت الماء، وإن النعائم قد حسنت والزهرة قد حسنت، واعتدل الميزان، وذهب بهرام ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا، ويستولون على ما يلينا، وإن أشدّ ما رأيتُ أنّ الملك قال: «لتسيرن [إليهم] أو لأسيرنّ بنفسي».

ولقي جابان رستم على قنطرة ساباط وكانا منجمَين، فشكى إليه وقال له: ألا ترى ما أرىٰ؟ فقال له رستم: «أمّا أنا فأقاد بخشاش[١] وزمام ولا أجد بُدًّا مِن الانقياد»، ثم سار فنزل بكُوثي[٢] فأتى برجل من العرب فقال له: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ فقال: جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إنْ أبيتم أن تُسْلِمُوا. قال رستم: فإن قُتِلتُم قبل ذلك؟ قال: مَنْ قُتِلَ منّا دخل الجنّة ومَنْ بَقِيَ منّا أنجزه الله ما وعده فنحن على يقين. فقال رستم: قد وُضعنا إذن في أيديكم. فقال: أعمالكم وَضعتكم فأسلَمَكُم الله بها فلا يغرّنّك من ترى حولك فإنّك لستَ تجاول الإنس إنما تجاولُ [القضاء و] القدر.

[فاستشاط غضبًا فأمر به] فضُرِبَتْ عنقه، ثم سار فنزل البرس فغصب أصحابه الناس [أبناءهم] وأموالهم، ووقعوا على النساء، وشربوا الخمور فضجَّ أهلها إلى رستم [فقام فيهم]، فقال: «يا معشر فارس: والله لقد صدق العربيُّ، والله ما أسلمنا إلا أعمالنا، والله إن العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرةً منكم، إن الله كان ينصركم على العدوّ ويمكّن لكم في البلاد بحسن السيرة وكَفِّ الظلم [والوفاء بالعهود] والإحسان، فإذا تغيّرتم فلا أرى الله إلّا مغيّرًا ما بكم، وما أنا بآمن مِنْ أن ينزع الله سلطانه منكم. وأتى ببعض مَنْ يشكي منه فضرب عنقه، ثم سار حتى نزل الحيرة ودعا أهلها وتهدّدهم وهَمَّ بهم، فقال له ابن بقيلة: لا تجمع علينا [اثنتين] أنْ تعجز عن نُصرتنا، وتلومنا على الدفع عن أنفسنا [وبلادنا، فسكت]».

ولما نزل رستم بالنجف رأى كأن ملكًا نزل من السماء ومعه النبيّ ﷺ وعُمَر فأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ثم دفعه إلى النبيّ ﷺ، فدفعه النبيّ ﷺ إلى عمر، فأصبح رستم حزينًا، وأرسل سعد السرايا ورستم بالنجف، والجالينوس بين النجف والسيلحين، فطافت في السواد فبعث سوادًا وحُميضة في مائة مائة فأغاروا على النهرين، وبلغ رستم الخبر فأرسل إليهم خيلًا، وسمع سعد أن خيله قد وغلت فأرسل عاصم بن عمرو وجابرًا الأسدي في آثارهم [يقتصّانها وسلكا طريقهما، وقال لعاصم: «إنْ جَمَعَكم قتالٌ فأنت عليهم»]، فلقيهم عاصم

---

(١) الخِشَاش: ما يوضع في أنف البعير، وهو من خشب، ويريد أنه مسوق بقوة ومغلوب على ذلك، ولو كان مطلقًا لما أقدم عليه.

(٢) كُوثَى: ثلاث مواضع بسواد العراق بأرض بابل، وكوثى نهر بالعراق، وقد ضُمَّ وأخرج غيره.

[بين النهرين] وخيل فارس تحوشهم ليخلصوا ما بأيديهم، فلما رأته الفرس هربوا ورجع المسلمون بالغنائم، وأرسل سعد عمرو بن معديكرب، وطليحة الأسدي طليعة فسارا في عشرة، فلم يسيروا إلّا فرسخًا وبعض آخر حتى رأوا مسالحهم وسرحهم على الطفوف قد ملؤوها، فرجع عمرو ومن معه وأبي طليحة إلا التقدم، فقالوا له: أنت رجل في نفسك غدر ولن تفلح بعد قتل عكاشة بن محصن فارجع معنا، فأبى، فرجعوا إلى سعد فأخبروه بقُرْب القوم، ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه ويتوسّم، فهتك أطناب بيت رجل عليه، واقتاد فرسه، ثم هتك على آخر بيته وحَلّ فرسه، ثم فعل بآخر كذلك، ثم خرج يعدو به فرسه ونذر به الناس فركبوا في طلبه، فأصبح وقد لَحِقَه فارس من الجند فقتله طليحة، ثم آخر فقتله، ثم لحق به ثالث فرأى مصرع صاحبيه، وهما ابنا عمّه، فازداد حنقًا فلحق طليحة فكرَّ عليه طليحة وأسره، ولحقه الناس فرأوا فارسي الجند قد قتلا وأُسر الثالث، وقد شارف طليحة عسكره فأحجموا عنه، ودخل طليحة على سعد ومعه الفارسي وأخبره الخبر، فسأل الترجمان الفارسي فطلب الأمان فأمّنه سعد، قال:

«أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أنْ أُخبركم عمّن قِبَلي: باشرتُ الحروب [وغشيتُها] منذ أنا غلام إلى الآن وسمعتُ بالأبطال [ولقيتُها] ولم أسمع بمثل هذا، إن رجلاً قطع فرسخين إلى عسكر فيه سبعون ألفًا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة فلم يرضَ أنْ يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوت [فطلبناه]، فلما أدركناه قتل الأول وهو يعد بألف فارس ثم الثاني وهو نظيره [فقتله]، ثم أدركته أنا - [ولا أظن] خلّفْتُ مِنْ بعدي مَنْ يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين [وهما ابنا عمي] - فرأيتُ الموتَ واستؤسرت».

ثم أخبره عن الفُرْس [بأن الجند عشرون ومائة ألف، وأن الأتباع مثلهم خدم لهم]، وأسلم ولزم طليحة، وكان من أهل البلاء بالقادسية، وسمّاه سعد مسلمًا.

ثم سار رستم وقَدِم الجالينوس وذا الحاجب، فنزل الجالينوس بحيال زهرة من دون القنطرة، ونزل ذو الحاجب بطيزنا باذ، ونزل رستم بالخرارة؛ ثم سار رستم فنزل بالقادسية، وكان بين مسيره من المدائن ووصوله القادسية أربعة أشهر لا يقدم رجاء أن يضجروا بمكانهم فينصرفوا، وخاف أن يلقى ما لقي مَنْ قبله وطاولهم لولا ما جعل الملك يستعجله ينهضه.

وكان عمر قد كتب إلى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضًا فأعدَّ للمطاولة[1]، فلما وصل رستم القادسية وقف على العتيق بحيال عسكر سعد، ونزل الناس فما زالوا يتلاحقون حتى اعتموا من كثرتهم والمسلمون ممسكون عنهم، وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فِيلًا منها فيل سابور الأبيض، وكانت الفيلةُ تألفه فجعل في القلب ثمانية عشر فيلاً، وفي المجنبتين خمسة عشر فيلاً.

فلما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار من العتيق نحو «خفان» حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة فتأمّل المسلمين ووقف على موضع يُشْرِفُ منه عليهم ووقف على القنطرة، وأرسل إلى زهرة فواقفه فأراده عليّ أن يصالحه ويجعل له جُعْلاً على أنْ ينصرفوا عنه مِنْ غير أن يصرّح له بذلك، بل يقول له: «كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم»، ويخبره عن صنيعهم مع العرب.

فقال له زهرة: «ليس أمرنا أمر أولئك [ولا طلبتنا طلبتهم]، إنّا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهِمَّتنا الآخرة، وقد كنّا كما ذكرتَ إلى أن بعث الله فينا رسولاً فدعانا إلى ربّه فأجبناه، فقال لرسوله: إني قد سلّطتُ هذه الطائفة على من لم يَدِنْ بديني فأنا منتقمٌ بهم منهم، وأَجْعَل لهم الغلبة ما داموا مقرِّين به، وهو دين الحقّ لا يرغب عنه أحد إلّا ذُلّ، ولا يعتصم به أحد إلّا عُزّ. فقال له رستم: ما هو؟ قال: أمّا عموده الذي لا يصلح إلّا به فشهادة أنْ لا إلـه إلّا الله وأنّ محمدًا رسول الله [والإقرار بما جاء به من عند الله]، قال: [ما أحسن هذا؟] وأيّ شيء أيضًا؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله. قال: حسنٌ، وأيُّ شيءٍ أيضًا؟ قال: والناس بنو آدم وحوّاء إخوة لأبٍ وأُمّ، قال: ما أحسن هذا؟ ثم قال رستم: أرأيت إنْ أجبتُ إلى هذا ومعي قومي كيف يكون أمركم؟ أترجعون؟ قال: أيْ والله [ثم لا نقربُ بلادكم أبدًا إلّا في تجارة أو حاجة] قال: صَدَقْتَني والله، أمّا إنَّ أهل فارس منذ ولّي أردشير لم يدعوا أحدًا يخرج من عمله من السَّفلة، وكانوا يقولون: إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم. فقال له زهرة: نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون، بل نطيع الله في السَّفَلة ولا يضرّنا من عصى الله فينا».

---

(١) أي: أطال في المكث دون أن ينشب قتال.

[المراسلة بين سعد ورستم]:

فانصرف عنه ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فأَنِفُوا، [قال: أبعدكم الله وأسحقكم، أخزى الله أخرعنا وأجبننا]، فأرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رجلاً نكلّمه ويكلّمنا.

فدعا سعد جماعة ليرسلهم إليهم، فقال له ربعي بن عامر: [إنّ الأعاجم لهم آراءٌ وآداب و] متى نأتهم جميعًا يَرَوْا أنا قد احتفلنا بهم فلا تَزِدْهُم على رجل.

[فمالَؤوه جميعًا على ذلك] فأرسله وحده، فسار إليهم فحبسوه على القنطرة، وأُعلم رستم بمجيئه [فاستشار عظماء فارس فقال: ما ترون أنباهي أم نتهاون؟

فأجمع ملأهم على التهاون]، فأظهر زينته، وجلس على سريرٍ من ذهب، وبسطَ البُسُط والنّمارق، والوسائد المسوّجة بالذهب، وأقبل ربعي على فرسه وسيفه في خِرْقَة ورمحه مشدود بعصب وقدّ.

فلما انتهى إلى البُسُط قيل له: أنزل، فحمل فرسه عليها ونزل، وربطها بوسادتين شقّهما وأدخل الحبلَ فيهما، فلم [يستطيعوا أن] ينهَوْه وأروه التهاون [وعرفَ ما أرادوا فأراد استحراجهم] وعليه درع وأخذ عباءة بعيره فتدرّعها وشدَّها على وسَطِهِ بسلب، [فقالوا]: ضَعْ سلاحك.

فقال: لم آتِكُمْ فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دَعَوْتُموني [فإنْ أبيتم أنْ آتيكم إلّا كما أُريد وإلّا رجعتُ].

فأخبروا رستم، فقال: ائذنوا له [هل هو إلّا رجل واحد].

فأقبل يتوكّأُ على رمحه ويقارب خطوه [ويزجّ النمارق والبُسُط]، فلم يدع لهم نمرقًا ولا بساطًا إلّا أفسده وهتّكه، فلما دنا من رستم جلس على الأرض وركّز رمحه على البُسْط؛ فقيل له: ما حملك على هذا؟

قال: إنّا لا نستحبّ القعودَ على زينتكم [هذه]، فقال له ترجمان رستم واسمه عبود من أهل الحيرة: ما جاء بكم؟ قال: الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه [لندعوهم إليه] فمَنْ قَبِلَه قَبِلْنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا، ومن أَبَىٰ قاتلناه حتى نُفْضِي إلى الجنّة أو الظّفر. فقال رستم: قد سمعنا قولكم، فهل لكم أنْ تُؤَخّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه [وتنظروا]؟ قال: [نعم كم أحَبُّ إليكم أيومًا أو

يومين؟ قال: بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساءِ قومنا ـ وأراد مقاربته ومدافعته فقال:] وإن مما سنَّ لنا رسول الله ﷺ [وعمل به أئمّتنا] أن لا نمكِّن الأعداء أكثر من ثلاث، فنحن متردِّدون عنكم ثلاثًا، فأنظر في أمرك واختر واحدةً من ثلاث بعد الأجل: إما الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكفّ عنك، وإن احتجت إلينا نصرناك، أو المنابذة في اليوم الرابع [ولسنا نبدأك فيما بيننا وبين اليوم الرابع] إلّا أن تبدأنا، أنا كفيلٌ بذلك عن أصحابي.

قال: أسيدُهُمْ أنت؟ قال: لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضُهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم.

فخلا رستم برؤساء قومه، فقال: [ما ترون]؟ هل رأيتم كلامًا قطّ أعزّ وأوضح من كلام هذا الرجل؟

فقالوا: معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب، أما ترىٰ إلى ثيابه، فقال: ويحكم لا تنظروا إلى الثياب، ولكن أنظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب تستخفّ باللباس [والمأكل] وتصون الأحساب، ليسوا مثلكم.

فلما كان من الغد أرسل رستم إلى سعد: أن أبعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم حذيفة بن محصن فأقبل في نحوٍ من ذلك الزيّ، ولم ينزل عن فرسه، ووقف على رستم راكبًا وقال له: أنزل، قال: لا أفعل، فقال له: ما جاء بك ولم يجئ الأول؟ قال له: إن أميرنا يحبُّ أن يَعْدِل بيننا في الشِّدَّة والرخاء، وهذه نوبتي؛ فقال: ما جاء بكم؟ فأجابه مثل الأول، فقال رستم: المواعدة إلى يومٍ ما، قال: نعم ثلاثًا من الأمس، فردّه، وأقبل على أصحابه، وقال: ويحكم أما تَرون ما أرى؟ جاءنا الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا وحقَّر ما نعظِّم وأقام فرسه على زبرجنا [وربطه به]، وجاءنا هذا اليوم فوقف علينا وهو في يُمْن الطائر يقوم على أرضنا دوننا، [حتى أغضبهم وأغضبوه].

فلما كان الغد أرسل: أبعثوا إلينا رجلًا، فبعث المغيرة بن شُعْبَة[١]، فأقبل إليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبُسُطهم على غلوة لا يوصل إلى صاحبهم

(١) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أبو عبد الله أسلم عام الخندق وشهد الحُدَيبية، وله في صلحها كلام مع عروة بن مسعود. (انظر سيرة ابن هشام ١/٣١٣). قال الشعبي: دهاة العرب أربعة: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد. شهد اليمامة، وفتوح الشام، وذهبت عينه باليرموك، وشهد القادسية، وفتح نهاوند، وهمدان وغيرها، واعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان، وشهد الحكمين. انظر: أسد الغابة (٥/٢٤٧ ـ ٢٤٩).

حتى يمشي عليها، فأقبل المغيرة حتى جلس مع رستم على سريره، فوثبوا عليه وأنزلوه ومعكوه، وقال: «قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قومًا أسْفَه منكم إنا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضًا [إلّا أن يكون محاربًا لصاحبه]، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، فكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد، وإني لم آتكم ولكن دعَوْتموني، اليوم علمتُ [أن أمركم مضمحلّ و] أنكم مغلبون، وأن ملكًا لا يقوم على هذ السيرة ولا على هذه العقول».

فقالت السفلة: صدق والله العربي، وقالت الدهّاقين: والله لقد رمىٰ بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه قاتل الله أوّلينا [ما كان أحمقهم] حين كانوا يُصَغِّرون أمر هذه الأمّة.

ثم تكلّم رستم فحمد قومه وعظّم أمرهم، وقال: لم نزل متمكّنين في البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافًا في الأُمم فليس لأحدٍ مثل عِزِّنَا وسلطانِنا نُنْصر عليهم ولا يُنصرون علينا إلّا اليوم واليومين، والشهر للذنوب، فإذا أُنتقم الله منا ورَضِيَ علينا ردَّ لنا الكرَّة على عدوِّنا، ولم يكن في الأُمم أمّة أصغر عندنا أمرًا منكم، كنتم أهل قشف ومعيشة سيّئة لا نراكم شيئًا، وكنتم تقصدوننا إذا قَحطتْ بلادكم، فنأمر لكم بشيءٍ من التمر والشعير ثم نردّكم، وقد علمتُ أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا [ما أصابكم من] الجهد في بلادكم، فأنا آمرٌ لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكلّ منكم بوقر تمر وتنصرفون عنّا، فإني لستُ أشتهي أن أقتلكم [ولا أسركم].

فتكلّم المغيرة فحمد الله وأثنىٰ عليه، وقال: إنّ الله خالق كل شيء ورازقه فمن صنع شيئًا فإنما هو بصنعه، وأمّا الذي ذكرتَ به نفسك وأهل بلادك فنحن نعرفه فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم، وأما الذي ذكرتَ فينا من سوءِ الحال والضِّيق والاختلاف فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا به والدنيا دُوَل، ولم يزل أهل الشدائد يتوقّعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهلُ الرخاء يتوقّعون الشدائد حتى تنزل بهم [ويصيروا إليها]، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم يقصر عمّا أُوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغيّر الحال، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل الكفر لكان عظيم ما ابتلينا به مستجلبًا من الله رحمةً ورأفةً علينا، [ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه أو كنتم تعرفوننا به]، إن الله تبارك وتعالىٰ بعث فينا رسولاً ـ ثم ذكر مثل ما تقدم من ذكر

الإسلام والجزية والقتال ـ وقال له: وإن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم، فقالوا: لا صبر لنا عنه.

فقال رستم: إذًا تموتون دونها، فقال المغيرة: يدخل من قُتِل منا الجنّة ومن قُتِلَ منكم [يدخل] النار، ويظفر مَنْ بقي منا بمن بقي منكم.

فاستشاط رستم غضبًا ثم حلف [بالشمس] أن لا يرتفع الصبح غدًا حتى نقتلكم أجمعين.

وانصرف المغيرة وخلص رستم بأهل فارس، وقال: أين هؤلاء منكم! هؤلاء والله الرجالَ صادقين كانوا أم كاذبين ـ والله لئن كان بَلَغَ من عقلهم وصَوْنِهِمْ لِسِرِّهِم أنْ لا يختلفوا فما قومٌ أبلغ لما أرادوا منهم، ولئن كانوا صادقين فما يقوم لهٰؤلاء شيء.

فلجّوا وتجلّدوا وقال: والله إني لأعلم أنكم تصغون إلى ما أقول لكم، وإن هذا منكم رثاء.

فازدادوا لجاجة، فأرسل رستم رسولاً خَلْف المغيرة، وقال له: إذا قطع القنطرة [ووصل إلى أصحابه] فأعلمه أنّ عينه تُفْقَأ غدًا، فأعلمه الرسول ذلك، فقال المغيرة: بشّرتني بخيرٍ وأجر، ولولا أن أُجاهد بعد هذا اليوم أشباهكم من المشركين لتمنّيت أنّ الأخرى ذهبت [أيضًا، فرآهم يضحكون من مقالته ويتعجّبون من بصيرته]، فرجع إلى رستم فأخبره، فقال: أطيعوني يا أهل فارس إني لأرى الله فيكم نقمة لا تستطيعون ردَّها.

ثم أرسل إليه سعد بقية ذوي الرأي، فساروا ـ وكانوا ثلاثة ـ إلى رستم، فقالوا له: إنّ أميرنا يدعوك إلى ما هو خيرٌ لنا ولك، والعافية أنْ تقبل ما دعاك إليه ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك وداركم لكم، وأمركم فيكم، وما أصبتم [مما وراءكم] كان زيادة لكم دوننا، وكنّا عَوْنًا لكم على أحد إنّ أرادكم، فاتّق الله ولا يكونن هلاكُ قومك على يدك، وليس بينك وبين أن تغبط بهذا الأمر إلّا أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك.

فقال لهم: إن الأمثال أوضح من كثير من الكلام [وسأضرب لكم مثلكم تبصروا:] إنكم كنتم أهل جهد [في المعيشة] وقشف [في الهيئة] لا تنتصفون ولا تمتنعون فلم نُسِئ جواركم، وكنّا نميركم ونُحْسن إليكم، فلما طعمتم طعامنا وشربتم شرابنا وصفتم لقومكم ذلك ودعوتموهم، ثم أتيتمونا.

وإنما مثلكم ومثلنا كمثل رجلٍ كان له كَرْم فرأى فيه ثَعْلَبًا، فقال: وما ثعلب؟ فٱنطلق الثعلبُ فدعا الثعالب إلى ذلك الكرم، فلما ٱجتمعوا إليه سدّ صاحب الكرم النقب الذي كن يدخلن منه فقتلهنّ.

فقد علمتُ أنّ الذي حملكم على هذا: الحرص [والطمع] والجهد، فٱرجعوا [عنّا عامكم هذا] ونحن نميركم فإنّي لا أشتهي أنْ أقتلكم.

ومثلكم أيضًا: كالذباب يرى العسل فيقول: مَنْ يوصلني إليه وله درهمان؟ فإذا دخله غَرِقَ ونشب، فيقول: من يخرجني وله أربعة دراهم؟

وقال أيضًا: إنّ رجلاً وضع سلّةً، وجعل طعامًا فيها فأتىٰ الجرذان فخرقوا السلة، فدخلوا فيها فأراد سَدَّها فقيل له: لا تفعل إذن تخرقه لكن ٱنقب بحياله ثم اجعل قصبة مجوفة فإذا دخلها الجرذان وخرجن منها فٱقتل كل ما خرج منها، وقد سددت عليهم أنْ يقتحموا القصبة ولا يخرج منها أحدٌ إلّا قُتِل.

فما دعاكم إلى ما صنعتم؟ ولا أرى عددًا ولا عُدَّة.

قال: فتكلّم القوم وذكروا سُوءَ حالهم وما مَنَّ الله به عليهم من إرسال رسوله واختلافهم أوّلاً ثم اجتماعهم على الإسلام، وما أمرهم به من الجهاد، وقالوا:

وأمّا ما ضربتَ لنا من الأمثال فليس كذلك، ولكن [سنضرب مثلكم]: إنما مثلكم كمثل رجل غرس أرضًا وٱختار لها الشجر [والحبّ] وأجرى إليها الأنهار، وزيَّنها بالقصور، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ويقومون على جنّاتها، فخلَا الفلاحون في القصور على ما لا يحبّ، [وفي الجنان بمثل ذلك]، فأطال إمهالهم فلم يَسْتَحْيُوا [مِنْ تلقاءِ أنفسهم استعتبهم فكابروه]، فدعا إليها غيرهم وأخرجهم منها، فإن ذهبوا عنها تخطّفهم الناس، وإنْ أقاموا فيها صاروا خولاً لهٰؤلاء فيسومونهم الخسف أبدًا.

والله لو لم يكن ما نقول حقًّا ولم يكن إلّا الدنيا لما صبرنا عن الذي نحن فيه من لذيذِ عيشكم، ورأينا مِنْ زبرجكم ولقارعناكم [حتى نغلبكم] عليه، فقال رستم: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم، فقالوا: بل اعبروا إلينا ورجعوا من عنده عشيًّا.

وأرسل سعدٌ إلى الناس أن يقفوا مواقفهم، وأرسل إليهم: شأنكم والعبور، فأرادوا القنطرة، فقال: لا ولا كرامة أما شيء غلبناكم عليه فلن نردّه عليكم [تَكَفَّلوا معبرًا غير القناطر!].

فباتوا يسكِّرون العتيق حتى الصباح بالتراب والقصب والبراذع حتى جعلوه طريقًا واستتمّ بعدما ارتفع النهار.

ورأى رستم من الليل كأنَّ مَلَكًا نزل من السماء فأخذ قسي[١] أصحابه فختم علينا ثم صعد بها إلى السماء، فاستيقظ مهمومًا واستدعى خاصّته فقصّها عليهم، وقال: إنّ الله ليعظُنا لو اتّعظنا.

ولما ركب رستم ليعبر كان عليه درعان، وأخذ سلاحه، [وأمر بفرسه فأُسرج فأُتِي به، فوثب فإذا هو على فرسه ولم يضع رجله في الركاب، وقال: غدًا نَدُقُّهُمْ دَقًّا.

فقال له رجل: إن شاء الله، فقال: وإنْ لم يشأ؛ ثم قال: إنّما ضغا الثعلب[٢] حين مات الأسد - يعني كسرى - وإنّي أخشىٰ أن تكون هذه سُنَّةُ القرود، وإنما قال: هذه الأشياء توهينًا للمسلمين عند الفرس، وإلّا فالمشهور عنه الخوف من المسلمين، وقد أظهر ذلك إلى من يثق به.

٦٠ - يوم أرماث[٣]

لما عَبَر الفرس العتيق جلس رستم على سريره وضرب عليه طيارة، وعَبّى في القلب ثمانية عشر فيلاً عليها صناديق ورجال، وفي المجنبتين ثمانية أو سبعة، وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته والفيرزان بينه وبين ميسرته [وبقيت القنطرة بين الخيلين].

وكان يزدجرد قد وضع بينه وبين رستم رجالاً على كل دعوة رجلاً أوّلهُم على باب إيوانه وآخرهم مع رستم، فكلّما فعل رستم شيئًا قال الذي معه للذي يليه: كان كذا وكذا، ثم يقول الثاني ذلك للذي يليه وهكذا إلى أنْ ينتهي إلى يزدجرد في أسرع وقت.

وأخذ المسلمون مصافّهم، وكان بسعد دَمَامِيل وعِرق النسا فلا يستطيع الجلوس إنما هو مُكِبٌّ على وجهه في صدره وسادة على سطح القصر يشرف على الناس

(١) القِسِّيّ: ثياب من كتان وحرير كانت تصنع بمصر والشام مضلّعة مزيّنة بأمثال الأترج.

(٢) أي صاح الثعلب، وهو صوت كل ذليل مقهور. وفي الأصول: (صفا) - بالفاء - وهو تحريف غريب.

(٣) هو أول يوم من أيام القادسية.

والصفّ في أصل حائطه لو تعدَّاه الصف فُوَاق ناقة لأخذ برمّته، فما كرته هول تلك الأيام شجاعة، وذكر ذلك الناس وعابه بعضهم بذلك، فقال:

نـقـاتـل حـتـى أنـزل الله نـصـره وسعـد ببـابِ الـقـادسيّة معـصـم
فـابـنـا وقـد آمَـتْ نـسـاءٌ كـثـيـرةٌ ونـسـوة سـعـدٍ لـيـس فـيـهـنّ أيِّـم

فبلغت أبياته سعدًا، فقال: «اللّهمّ إن كان هذا كاذبًا وقال الذي قاله رياءً وسمعة فاْقطع عنّي لسانه»، فإنّه لواقف في الصفّ يومئذٍ أتاه سهم غَرَب[1] فأصاب لسانه فما تكلّم بكلمة حتى لحق بالله تعالىٰ، وقال جرير بن عبد الله نحو ذلك أيضًا، وكذلك غيره.

ونزل سعد إلى الناس فاْعتذر إليهم وأراهم ما به من القروح في فخذيه وإليتيه، فعذره الناس وعلموا حاله، ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عُرْفطة على الناس، فاْختلف عليه فأخذ نفرًا ممن شغب عليه فحبسهم في القصر، منهم أبو محجن الثقفي وقيّدهم ـ وقيل: بل كان حبس أبي محجن بسبب الخمر ـ وأَعْلَمَ الناسَ أنه قد استخلف خالدًا وإنما يأمرهم خالد فسمعوا وأطاعوا، وخطب الناس يومئذ، وهو يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة وحثّهم على الجهاد وذكّرهم ما وعدهم الله من فتح البلاد وما نال من كان قبلهم من المسلمين من الفرس، وكذلك فعل أمير كل قوم، وأرسل سعد نفرًا من ذوي الرأي والنجدة، منهم: المغيرة، وحذيفة، وعاصم، وطليحة، وقيس الأسدي، وغالب، وعمرو بن معديكرب وأمثالهم؛ ومن الشعراء: الشماخ، والحطيئة، وأوس بن مغراء، وعَبدة بن الطيب وغيرهم، وأمرهم بتحريض الناس على القتال، ففعلوا.

وكان صفّ المشركين على شفير العتيق، وكان صفّ المسلمين مع حائط قديس والخندق، فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق، ومع الفرس ثلاثون ألف مسلسل، وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد، وهي الأنفال، فلما قُرِئَتْ هَشَّتْ قلوبُ الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها.

فلما فرغ القرّاء منها، قال سعد: الزموا مواقفكم حتى تُصَلُّوا الظهر، فإذا صلّيتم فإنّي مكبّرٌ تكبيرة فكبّروا واستعدوا فإذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدّتكم، ثم إذا

---

(١) أي: لا يعرف راميه.

كبّرتُ الثالثة فكبّروا لينشطْ فرسانكم الناس، فإذا كبّرْتُ الرابعة فازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوَّكم وقولوا: لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

فلما كبّر سعد الثالثة برز أهل النجدات فأنشبوا القتال، وخرج إليهم من الفرس أمثالهم فٱعتوروا الطعن والضرب، وقال غالب بن عبد الله الأسدي:

قد علمت واردة المسائح ذات اللّسان والبيان الواضح
أني سمام البطل المسالح وفارج الأُمم المهم الفادح

فخرج إليه هرمز، وكان من ملوك الباب [والأبواب]، وكان مُتَوَّجًا فأسره غالب فجاء به سعدًا ورجع، وخرج عاصم وهو يقول:

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللّجين إذْ تغشّاه الذهب
أنّي أمرؤ لا من يُعْنيه السبب[1] مثلي على مثلك يغريه العتب

فطارد فارسيًّا فٱنهزم فٱتّبعه عاصم حتى خالط صفّهم فحموه، فأخذ عاصم رجلًا على البغل وعاد به؛ وإذ هو خبّاز الملك معه من طعام الملك وخبيصة فأتى به سعدًا فنفله أهل موقفه، وخرج فارسيٌّ فطلب البراز فبرز إليه عَمْرو بن معديكرب فأخذه وجلد به الأرض فذبحه وأخذ سوارَيْه ومنطقته.

وحملت الفِيَلةُ عليهم، ففرّقت بين الكتائب فنفرت الخيلُ، وكانت الفرسُ قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلًا، فنفرت خيلُ بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها عنها وعمّن معها، وأرسل سعد إلى بني أسد: أنْ دافعوا عن بجيلة وعمّن معها من الناس، فخرج طليحة بن خُوَيْلد وحمّالُ بن مالك في كتائبهما فباشروا الفِيَلة حتى عدلها ركبانها، وخرج إلى طليحة عظيمٌ منهم، فقتله طليحة.

وقام الأشعث بن قيس في كندة [حين استصرخهم سعد]، فقال: يا معشر كندة لله درّ بني أسد، أيُّ فري يفرون وأي هزّ يهزّون عن موقفهم أغنى كلُّ قوم ما يليهم وأنتم تنتظرون من يكفيكم [البأس]، أشهد ما أحسنتم أسوة قومكم من العرب [منذ اليوم وأنهم ليقتلون ويقاتلون وأنتم جثاة على الركب تنظرون، فوثب إليه عددٌ منهم عشرة، فقالوا: عثّر الله جدك إنك لتؤبسنا جاهدًا ونحن أحسن الناس موقفًا،

(١) في تاريخ الطبري: إني امرؤٌ لا من يعينه السبب بالنون بعد الياء، وفي مروج الذهب:
إني امرؤ لا من يصيبه السبب مثلي وعلى مثلك تعديه الكتب

فمن أين خذلنا قومنا العرب وأسأنا أُسوتهم، فها نحن معك]، فنهد ونهدوا معه فأزالوا الذين بإزائهم، فلما رأى الفرس ما يلقى الناس والفِيَلة من [كتيبة] أسد رموهم بحدِّهم وحملوا عليهم وفيهم ذو الحاجب، والجالينوس، والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد، فاجتمعت حَلَبَةٌ فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة فثبتوا لهم وكبّر سعد الرابعة وزحف إليهم المسلمون، ورحا الحرب تدور على أسد، وحملت الفيول على الميمنة والميسرة، فكانت الخيول تحيد عنها، فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو التميمي، فقال: يا معشر بني تميم [ألستم أصحاب الإبل والخيل] أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟

قالوا: بلى والله، ثم نادى في رجالٍ من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة، فقال: «يا معشر الرُّماة ذُبُّوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل، وقال: يا معشر أهل الثقافة استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها[1]»، وخرج يحميهم.

ورحا الحرب تدور على أسد، وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد، وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذناب توابيتها فقطّعوا وضنها وارتفع عوَاؤهم فما بقي لهم فيل إلّا أوى وقتل أصحابها، ونُفِّسَ عن أسد، وردوا فارسًا عنهم إلى مواقفهم واقتتلوا حتى غربت الشمس، ثم حتى ذهبت هدأةٌ[2] من الليل، ثم رجع هٰؤلاء وهٰؤلاء.

وأُصيب من أسد تلك العشية خمسمائة وكانوا ردءًا للناس، وكان عاصم حامية للناس.

وهذا اليوم الأول وهو يوم أرماث، فقال عمرو بن شاس الأسديّ:

جلبنا الخيل من أكناف نيقٍ ... إلى كسرىٰ فوافقها رعالا
تركن لهم على الأقسام شَجْوًا ... وبالحقوين أيّامًا طوالا
قتلنا رستمًا وبنيه قسرا ... تثير الخيل فوقهم الهيالا[3]

الأبيات. وكان سعد قد تزوّج سلمى امرأة المثنى بن حارثة الشيباني بعده بشراف، فلما جال الناس يوم أرماث وكان سعد لا يطيق الجلوس جعل سعد

---

(١) جمع وضين: وهو بطان منسوج بعضه على بعض يشدّ به الرحل على البعير كالحزام للسرج.
(٢) أي: مضى طائفة من الليل ثلثه أو ربعه.
(٣) في تاريخ الطبري ذكر قبل البيت الأخير بيتًا وبعده أبيات، فليراجع.

يتململ جزعًا فوق القصر، فلما رأتْ سلمى ما يصنع الفرس، قالت: وامثيناه ولا مثنى للخيل اليوم، قالت ذلك عند رجل صخر مما يرى في أصحابه ونفسه فلطم وجهها، وقال: أين المثنى عن هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحا، يعني أسدًا وعاصمًا.

فقالت: أغيرة وجُبْنًا، فقال: والله لا يعذرني اليوم أحدٌ إنْ لم تعذريني وأنتِ ترين ما بي [والناس أحقُّ أنْ لا يعذروني]، فتعلّقها الناس لم يبقَ شاعر إلّا اعتدّ بها عليه، وكان غير جبان ولا ملوم.

٦١ ـ يوم أغواث

ولما أصبح القوم وكل سعد بالقتلى والجرحى مَنْ ينقلهم [إلى العذيب] فسلّم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم، وأمّا القتلى فدفنوا هنالك على مُشَرّق، وهو وادٍ بين العذيب وعين الشمس.

[مقدم القعقاع بن عمرو]:

فلما نقل سعد القتلى والجرحى طلعت نواصي الخيل من الشام، وكان فتح دمشق قبل القادسية [بشهر]، فلما قدم كتاب عمر على أبي عبيدة بن الجرّاح بإرسال أهل العراق سَيَّرهم وعليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي، فتعجّل القعقاع فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم أغواث: وقد عهد إلى أصحابه أن يتقطّعوا أعشارًا وهم ألف كلما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا [في آثارهم] عشرة، فقدم أصحابه في عشرة، فأتى الناس فسلّم عليهم وبشّرهم بالجنود، وحرّضهم على القتال، وقال: [أيها الناس إنّي قد جئتكم في قوم والله إنْ لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم خطوتها، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم] اصنعوا كما أصنع.

وطلب البراز فقالوا فيه: يقول أبو بكر: لا يُهزم جيشٌ فيهم مثل هذا [وسكنوا إليه].

فخرج إليه ذو الحاجب فعَرَفه القعقاع، فنادى: يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر، وتضاربا فقتله القعقاع.

وجعلت خيله ترد إلى الليل وتُنَشِّط الناس، وكأنْ لم يكن بالأمس مُصيبَة، وفَرِحُوا بقتل ذي الحاجب وانكسرت الأعاجم بذلك.

وطلب القعقاع البراز فخرج إليه الفيرزان والبنذوان، فأنضمّ إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أحد بني تيم اللات، فتبارزوا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البنذوان.

ونادى القعقاع: يا معشر المسلمين باشروهم بالسيوف، فإنّما يُخصَد الناسُ فاقتتلوا حتى المساء فلم يَرَ أهلُ فارس في هذا اليوم ما يعجبهم، وأكثرَ المسلمون فيهم القتل ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل، كانت توابيتُها تكسَّرت بالأمس فاستأنفوا عملها، فلم يفرغوا منها حتى كان الغد، وجعل القعقاع كلما طلعت قطعةٌ من أصحابه كَبَّر وكبَّر المسلمون، ويحمل ويحملون، وحمل بنو عمّ القعقاع عشرة عشرة على إبلٍ قد ألبسوها وهي مجلَّلة مبرقعة وأطافت بهم خيولهم تحميهم، وأمرهم القعقاع أنْ يحملوها على خيل الفرس يتشبّهون بالفيلة، ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث، فجعلت خيل الفرس تفرُّ منها وركبتها خيول المسلمين، فلما رأى الناسُ ذلك سُرُّوا بهم، فلقيَ الفرسُ من الإبل [يوم أغواث] أعظم ما لقي المسلمون من الفيلة [يوم أرماث].

وحمل رجلٌ من تميم [ممن كان يحمي العشرة يقال له سواد] على «رستم» يريد قتله فقُتِل دونه، وخرج رجلٌ من فارس يبارز فبرز إليه الأعراف بن الأعلم العقيلي فقتله، ثم برز إليه آخر فقتله، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وأخذوا سلاحه فغبَّر في وجوههم التراب حتى رجع إلى أصحابه.

وحمل القعقاع بن عمرو يومئذ ثلاثين حملة كلما طلعت قطعةٌ حمل حملة وأصاب فيها وقتل فكان آخرهم بزرجمهر الهمذاني.

وبارز الأعور بن قطبة شهريار سجستان، فقتل كل واحدٍ منهما صاحبه.

وقاتلت الفرسان إلى انتصاف النهار، فلما اعتدل النهار وتزاحف الناس فاقتتلوا حتى انتصف الليل، فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة، وليلة أغواث تدعى السواد.

ولم يزل المسلمون يرون يوم أغواث الظفر، وقتلوا فيه عامة أعلامهم، وجالت فيه خيل القلب وثبت رجلهم، فلولا أنّ خيلهم عادت أُخِذَ رستم أَخْذًا، وبات الناس على [مثل] ما بات عليه القوم ليلة أرماث، ولم يزل المسلمون ينتمون[1]، [لدن أمسوا حتى تفايأوا] فلما سمع سعد ذلك قال لبعض من عنده: إن تمّ الناس على

(١) أي: ينتسبون إلى قومهم.

الانتماء فلا توقظني فإنهم أقوياء [على عدوّهم]، وإنْ سكتوا ولم ينتمِ الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء، فإن سمعتهم ينتمون فأيقظني فإنّ انتماءهم من السوء.

[قتال أبي محجن الثقفي]:

ولمّا اشتد القتال [بالسواد] وكان أبو محجن قد حبس وقُيّد فهو في القصر [فصعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقيله فزبره وردّه فنزل]، قال لسلمي زوج سعد: هل لك [إلى خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال:] أن تخلّينَ عني وتعيريني «البلقاء» فالله عليّ إنْ سَلَّمَنِي الله أنّ أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي، فأبت، فقال:

كفى حزنًا أن ترتدي الخيل بالقنا ... وأُتْـرَكُ مَـشْـدُودًا عَـلَيَّ وَثَـاقِـيَـا
إذَا قُمْتُ عناني الحديد وأغلقت ... مصارع دوني قد تصمّ المناديا
وقد كنتُ ذا مال كثير وإخوة ... فقد تركوني واحدًا لا أخًا ليا
ولله عـهـدٌ لا أخـيـس بـعـهـده ... لَئِن فرجت أنْ لا أزور الحوانيا

فرقَّت له سلمى وأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها حتى إذا كان بحيال الميمنة كَبَّر، ثم حمل على ميسرة الفرس، ثم رجع خلف المسلمين وحمل على ميمنتهم، وكان يقصف الناس قصفًا منكرًا، وتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه [ولم يروه من النهار]؛ فقال بعضهم: هو من أصحاب هاشم أو هاشم نفسه، وكان سعد يقول: [وهو مشرف على الناس مكبٌّ من فوق القصر: والله] لولا محبس أبي محجن لقلت: هذا أبو محجن وهذه البلقاء.

وقال بعض الناس: هذا الخضر، وقال بعضهم: لولا أنّ الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا: إنه ملك [يثبتنا ولا يذكره الناس ولا يأبهون له لأنه بات في محبسه].

فلما انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال أقبل أبو محجن، فدخل القصر وأعاد رجليه في القيد وقال:

لقد عَلِمَتْ ثقيفُ غير فخرٍ ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعًا سابغات ... وأصبرهم إذا كَرِهُوا الوقوفا
وأنا وفدهم في كلّ يومٍ ... فإن عميوا فسَلْ بهم عريفا
وليلة قادس لم يشعروا بي ... ولم أشعر بمخرجي الزحوفا
فإنْ أحبس فذلكم بلائي ... وإنْ أُترك أُذيقهم الحتوفا

فقالت له سلمى: في أيِّ شيء حبسك [هذا الرجل]؟ فقال: والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية وأنا امرؤٌ شاعر يدبُّ الشعر على لساني، فقلت:

إذا متُّ فادْفِنِّي إلى أصل كرمةٍ   تروّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنّني   أخاف إذا ما متُّ أن لا أذوقها

فلذلك حبسني، فلما أصبحتْ أتت سعدًا فصالحته وكانت مغاضبة له وأخبرته بخبر أبي محجن، [فدعا به] فأطلقه؛ فقال: اذهبْ فما أنا مؤاخذك بشيءٍ تقوله حتى تفعله، قال: لا جَرَم [والله] لا أجيب لساني إلى [صفة] قبيح أبدًا.

٦٢ ـ يوم عماس

ثم أصبحوا اليوم الثالث وهم على مواقفهم، وبين الصفّين مِنْ قتلى المسلمين ألفان من جريح وميت، ومن المشركين عشرة آلاف، فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء، وكان النساء والصبيان يحفرون القبور، وكان على الشهداء حاجب بن زيد.

وأمّا قتلى المشركين فبين الصفّين لم يُنقلوا، وكان ذلك مما قَوَّىٰ المسلمين، وبات القعقاع تلك الليلة يسرّب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه [من الأمس]، وقال: إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فإنْ جاء هاشم فذاك وإلّا جددتم للناس رجاءً وجِدًّا.

[ففعلوا] ولا يشعر به أحد، وأصبح الناس على مواقفهم، فلما ذرّ قرنُ الشمس أقبل أصحاب القعقاع، فحين رآهم كبّر وكبّر المسلمون، [وقالوا: جاء المدد، وقد كان عاصم بن عمرو أمر أن يصنع مثلها فجاؤوا من قِبَل خفا]، وتقدّموا وتكتّبت الكتائب، واختلفوا الضرب والطعن والمدد متتابع، فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم فأخبر بما صنع القعقاع فعبّى أصحابه سبعين سبعين، وكان فيهم قيس بن هبيرة بن عبد يغوث المعروف بقيس بن المكشوح المرادي، ولم يكن من أهل الأيام إنما كان باليرموك، فانتدب مع هاشم حتى إذا خالط القلب كبّر وكبّر المسلمون؛ [وقد أخذوا مصافّهم] وقال هاشم: أوّل قتال المطاردة، ثم المراماة، ثم حمل على المشركين يقاتلهم حتى خرق صفّهم إلى العتيق ثم عاد.

وكان المشركون قد باتوا يعملون توابيتهم حتى أعادوها وأصبحوا على مواقفهم، وأقبلت الرجالة مع الفيل يحمونها أن تقطع وضنها ومع الرجالة فرسان يحمونهم [إذا أرادوا كتيبة دلفوا لها بفيل وأتباعه لينفِّروا بهم خيلهم]، فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالأمس؛ لأنّ الفيل إذا كان وحده كان أوحش وإذا أطافوا به كان آنس، [فكان القتال كذلك حتى عدل النهار]، وكان يوم عماس من أوّله إلى آخره شديدًا، والعرب والعجم فيه سواء، ولا تكون بينهم نقطة إلّا أبلغوها يزدجرد بالأصوات، فيبعث إليهم أهل النّجدات ممن [بقي] عنده، [فيقوون بهم] فلولا أنّ الله ألهم القعقاع ما فعل في اليومين [وأتاح لهم بهاشم] وإلّا كُسِرَ ذلك المسلمين.

وقاتل قيس بن المكشوح، وكان قد قَدِم مع هاشم قتالاً شديدًا وحرّض أصحابه، وقال عمرو بن معديكرب: إنّي حامل على الفيل ومن حوله لفيل بإزائهم فلا تَدَعُوني أكثر من جزر جزور، فإن تأخّرتم عني فقدتم أبا ثور ـ يعني نفسه ـ وأين لكم مثل أبي ثور، [فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيد].

فحمل وضرب فيهم حتى ستره الغبار وحمل أصحابه فأفرج المشركون عنه بعد ما صرعوه[1]، وإنّ سيفه لفي يده يصارمهم وقد طُعِن فرسه فأخذ بِرجل فرس أعجمي فلم يطق الجري فنزل عنه صاحبه إلى أصحابه وركبه عمرو، وبرز فارسي فبرز إليه رجل من المسلمين يقال له: شِبْر بن علقمة، وكان قصيرًا فترجَّل الفارسي إليه فاحتمله وجلس على صدره ثم أخذ سيفه ليذبحه ـ ومقود فرسه مشدود في منطقته ـ فلما سلَّ سيفه نفر الفرس فجذبه المقود فقلبه عنه وتبعه المسلم فقتله وأخذ سلبه، فباعه باثني عشر ألفًا.

فلما رأى سعد الفيول قد فَرَّقت بين الكتائب وعادت لفعلها [يوم أرماث] أرسل إلى القعقاع وعاصم ابنَيْ عمرو: أكفياني الأبيض، وكانت كلها آلفة له وكان بإزائهما، وقال لجمال والزبيل: أكفياني «الأجرب»، وكان بإزائهما فأخذ القعقاع وعاصم رمحين [أصمَّيْن ليّنين] وتقدَّما في خيلٍ ورجل، وفعل حمال، والزبيل بمثل فعلهما [فلما خالطوهما اكتنفوهما، فنظر كلُّ واحدٍ منهما يمنة ويسرة وهما يريدان أن يتخبّطا]، فحمل القعقاع وعاصم [والفيل متشاغل بمن حوله] فوضعا رمحيهما في عيني الفيل الأبيض فنفض رأسه فطرح ساسته ودلّى مشفره فضربه القعقاع فرمى به ووقع لجنبه وقتلوا مَنْ كان عليه، وحمل حمال والزبيل الأسديان على الفيل الآخر [وهو متشاغل

---

(١) أي: صرعوا فرسه.

بملاحظة من اكتنفه] فطعنه حمّال في عينه فأقعى ثم استوى، وضربه الزبيل فأبان مشفره وبصر به سائسه فبقر أنفه وجبينه بالطبرزين، فأفلت الزبيل جريحًا فبقي الفيل جريحًا متحيّرًا بين الصفّين كلما جاء صفّ المسلمين وخزوه وإذا أتى صفّ المشركين نخسوه، وولّى الفيل وكان يدعى «الأجرب» وقد عَوّر حمّال عينيه، فألقى نفسه في العتيق فاتّبعته الفيلة فخرقت صفّ الأعاجم، فعبرت في أثره فأتت المدائن في توابيتها وهلك مَنْ فيها.

فلما ذهبت الفيلة وخلص المسلمون والفرس ومال الظل تزاحف المسلمون فاْجتلدوا حتى أمسوا وهم على السّواء، فلما أمسى الناسُ اشتدّ القتالُ وصبر الفريقان فخرجا على السواء.

٦٣ ـ ذكر ليلة الهرير، وقتل رستم

قيل: إنّما سميت بذلك لتركهم الكلام، إنما كانوا يهرون هريرًا.

وأرسل سعدٌ طليحةَ وعَمْرًا ليلة الهرير إلى مخاضة أسفل العسكر ليقوما عليها خشية أنْ يأتِيَه القوم منها، [وقال لهما: إنْ وجدتما القومَ قد سبقوكما إليها فأنزلا بحيالهم، وإنْ لم تجداهم علموا بها فأقيما حتى يأتيكما أمري].

فلما أتياها، قال طليحة: لو خضنا وأتينا الأعاجم من خلفهم، قال عمرو: بل نعبر أسفل فاْفترقا، وأخذ طليحة وراء العسكر وكبّر ثلاث تكبيرات، ثم ذهب وقد ارتاع أهل فارس وتعجّب المسلمون وطلبه الأعاجم فلم يُدْرِكُوه، وأمّا عَمْرو فإنه أغار أسفل المخاضة ورجع.

وخرج مسعود بن مالك الأسدي، وعاصم بن عمرو، وابن ذي البردين الهلالي، وابن ذي السهمين، وقيس بن هُبيرة الأسدي وأشباههم، فطاردوا القوم فإذا هم لا يشدّون ولا يريدون غير الزحف، فقدّموا صفوفهم وزاحفهم الناس بغير إذن سعد [فأُصيب ليلتئذ خالد بن يعمر التميمي ثم العمري]، وكان أوّل من زاحفهم القعقاع.

وقال سعد: اللّهمّ اغفرها له وأنصره فقد أذنتُ له إذْ لم يستأذنّي، ثم قال: أرى الأمر ما فيه هذا فإذا كبّرتُ ثلاثًا فاْحملوا، وكبّر واحدة فلحقهم أسد فقال: اللّهمّ اغفرها لهم وانصرهم، ثم حملت النخع فقال: اللّهمّ اغفرها لهم وانصرهم، ثم حملت بُجَيْلة فقال: اللّهمّ اغفرها لهم وانصرهم، ثم حملت كندة فقال: اللّهمّ اغفرها

لهم وانصرهم، ثم زحف الرؤساء ورحا الحرب تدور على القعقاع، وتقدّم حنظلة بن الربيع وأُمراء الأعشار وطليحة وغالب وحمّال وأهل النّجدات.

ولما كبّر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضًا وخالطوا القوم واستقبلوا الليل استقبالاً بعدما صلّوا العشاء، وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون[1] ليلتهم إلى الصباح، وأفرغ الله الصبر عليهم إفراغًا، وبات سعد بليلة لم يَبُتْ بمثلها، ورأى العرب والعجم أمرًا لم يَرَوا مثله قط، وأنقطعت الأخبار والأصواتُ عن سعد ورستم، وأقبل سعد على الدعاء، فلمّا كان عند الصبح أنتمى الناس فاستدلّ بذلك على أنّهم الأعلون.

وكان أوّل شيءٍ سمعه نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول:

نحن قتلنا معشرًا وزائدًا ... أربعة وخمسة وواحدا

نحسب فوق اللّبد الأساوِدا ... حتى إذا ماتوا دعَوْت جاهدا

الله ربّي واحترزت عامدا

وقتلت كندة تركا الطبري، وكان مقدّمًا فيهم، وأصبح الناس ليلة الهرير ـ وتُسَمّى «ليلة القادسية» من بين تلك اللّيالي ـ وهم حَسْرى لم يغمضوا ليلتهم كلها، فسار القعقاع في الناس فقال: «إنّ الدائرةَ بعد ساعة لمن بدأ القوم، فأصبروا ساعة وأحملوا فإنّ النصر مع الصبر [فآثِروا الصبر على الجزع]»، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح، فلما رأتْ ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا: لا يكوننّ هؤلاء أجدُّ في أمرِ الله منكم، ولا هؤلاء ـ يعني الفرس ـ أجرأ على الموتِ منكم [ولا أسخى أنفسًا عن الدنيا تنافسوها]، فحملوا فيما يليهم وخالطوا مَن بإزائهم فاقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة، فكان أوّل من زال الفيرزان والهرمزان، فتأخّرُوا وثبتا حيث انتهيا، وانفرج القلب وركد عليهم النقع، وهبّت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم عن سريره، فهوت في العتيق وهي دبور، ومال الغبار عليهم، وانتهى القعقاع ومَنْ معه إلى السرير، فعثروا به وقد قام رستم عنه حين أطارت الريح الطيارة إلى بغال قد قدمت عليه بمال [يومئذ]، فهي واقفة فاستظلّ في ظلّ بغلٍ وحمله، وضرب هلال بن علفة[2] الحمل الذي تحته رستم فقطّع حباله ووقع

---

(١) جمع قين، وهو الحداد.

(٢) في الأصول: هلال بن علقمة وهو غلط صححناه من الطبري وأسد الغابة.

عليه أحد العدلين ولا يراه هلال ولا يشعر به فأزال عن ظهره فقارا، وضربه هلال ضربة فنفحت مسكًا، ومضى [رستم] نحو العتيق فرمى بنفسه فيه واقتحمه هلال عليه [فتناوله، وقد عام وهلال قائم] وأخذ برجليه، ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله ثم ألقاه بين أرجل البغال، ثم صعد السرير، وقال: «قتلتُ رستم وربّ الكعبة، إليّ إليّ» ، فأطافوا به [ولا يحسُّون السرير ولا يرونه] وكبّروا فنفله سعد سلبه، وكان قد أصابه الماء ولم يظفر بقلنسوته، ولو ظفر بها لكانت قيمتها مائة ألف.

وقيل: إنّ هلالاً لما قصد رستم رماه رستم بنشابة أثبت قدمه بالركاب، فحمل عليه هلال فضربه فقتله، ثم احتزّ رأسه وعلّقه ونادى: «قتلت رستم»، فانهزم قلب المشركين، وقام الجالينوس على الرّدم ونادى الفرس إلى العبور. وأمّا المقترنون، فإنهم جشعوا[١] فتهافتوا في العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر، وهم ثلاثون ألفًا.

وأخذ ضرار بن الخطاب «دِرَفش كابيان»، وهو العَلَم الأكبر الذي كان للفُرس فعوّض منه ثلاثين ألفًا، وكانت قيمته ألف ألف ومائتي ألف، وقتلوا في المعركة عشرة آلاف سوى من قتلوا في الأيام قبله.

وقُتِلَ من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة، وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستّة آلاف، فدُفِنُوا في الخندق حيال مشرّق، ودفن من كان قبل ليلة الهرير على مشرّق، وجُمِعَت الأسلاب والأموال، فجمع منها شيءٌ لم يُجْمع قبله ولا بعده مثله.

وأرسل سعد إلى هلال فسأله عن رستم فأحضره، فقال: جَرِّدْهُ إلّا ما شئت، فأخذ سلبه فلم يدع عليه شيئًا. وأمر القعقاع وشرحبيل بأتّبَاعِهِم حتى بلغا مقدار الخرارة من القادسية.

وخرج زهرة بن الحوية التميمي في آثارهم في ثلاثمائة فارس، ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه، وقتلوا ما بين الخرارة إلى السيلحين إلى النجف، وعادوا من أثر المنهزمين ومعهم الأسرى، فرؤي شابٌّ من النخع وهو يسوق ثمانين رجلاً أسرى من الفرس، واستكثر سعد سلب الجالينوس،

---

(١) هو بالجيم في أوّله، أي حرصوا على الحياة ففرّوا من القتال مقدّرين النجاة فيها، فوقعوا في العتيق.

فكتب فيه إلى عمر، فكتب عمر إلى سعد: «تعمّد إلى مثل زهرة، وقد صلّى بمثلي ما صلّى به، وقد بقي عليك من حربك ما بقي [تكسر قرنه، و] تُفْسد قلبه! أَمْضِ له سلبه وفضّله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة». ولما اتّبع المسلمون الفرس كان الرجل يشير إلى الفارسي فيأتيه فيقتله، وربما أخذ سلاحه فقتله به، وربما أمر رجلين فيقتل أحدهما صاحبه.

ولحق سلمان بن ربيعة الباهلي، وعبد الرحمٰن بن ربيعة بطائفة منهم قد نصبوا راية، وقالوا: لا نبرح حتى نموت، فقتلهم سلمان ومَن معه.

وكان قد ثبت بعد الهزيمة بضعة وثلاثون كتيبة استحيوا من الفرار، وقصدهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين لكل كتيبة منها رئيس، وكان قتال أهل الكتائب من الفرس على وجهين؛ منهم من هرب ومنهم من ثبت حتى قُتِل، وكان ممّن هرب من أُمراء الكتائب الهرمزان، وكان بإزاء عطارد، ومنهم أهود، وكان بإزاء حنظلة بن الربيع، وهو كاتب النبيّ ﷺ، ومنهم زادين بهيش وكان بإزاء عاصم بن عمر! ومنهم قارن، وكان بإزاء القعقاع.

وكان ممن ثبت وقتل شهريار بن كنارا، وكان بإزاء سلمان بن ربيعة، وابن الهربذ وكان بإزاء عبد الرحمٰن بن ربيعة، والفرخان الأهوازي وكان بإزاء بسر بن أبي رهم الجهني، ومنهم خشدسوم الهمذاني[1] وكان بإزاء ابن الهذيل الكاهلي، وتراجع الناس من طلب المنهزمين، وقد قُتِلَ مؤذّنهم فتشاحّ[2] المسلمون في الأذان حتى كادوا يقتتلون؛ وأقرع سعد بينهم فخرج سهل رجل فأذّن، وفضل أهل البلاء من أهل القادسية عند العطاء بخمسمائة خمسمائة وهم خمسة وعشرون رجلاً، منهم: زهرة، وعصمة الضبي، والكلج. وأمّا أهل الأيام قبلها، فإنّهم فرض لهم على ثلاثة آلاف فُضّلوا على أهل القادسية، فقيل لعمر: لو ألحقت بهم أهل القادسية؟ فقال: لم أكن لألحق بهم من لم يدركهم، وقيل له: لو فضّلت من بَعُدَتْ داره على مَنْ قاتلهم بفَنائِهِ؟ قال: كيف أُفَضّل عليهم وهم شجن العدوّ؟ [وما سوّيت بينهم حتى استطبتهم]، وهل فعل المهاجرون بالأنصار [إذ قاتلوا بفنائهم مثل هذا]؟

---

(١) كذا في الأصول، وفي الطبري: خسر وشنوم.

(٢) أي: تنازعوا.

وكانت العرب تتوقّع وقعة العرب وأهل فارس بالقادسية فيما بين العذيب إلى عدن أبين وفيما بين الأُبُلّة وأيلة ـ يرون أنّ ثبات ملكهم وزواله بها ـ وكانت في كل بلد مصيّخة إليها تنظر ما يكون من أمرها، [حتى إنْ كان الرجل ليريد الأمر، فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية].

فلما كانت وقعة القادسية سارت بها الجنّ، فأتت بها أُناسًا من الإنس فسبقت أخبار الإنس [إليهم]، وكتب سعد إلى عمر بالفتح، وبعدّة من قُتِلوا، وبعدّة من أُصيب من المسلمين، وسمّى من يُعرف مع سعد بن عميلة الفزاري.

وكان عمر يسأل الرُّكبان من حين يصبح إلى انتصاف النهار عن أهل القادسية، ثم يرجع إلى أهله ومنزله.

قال: فلما لقي البشير سأله: من أين؟ فأخبره قال: يا عبد الله حدِّثني، قال: هزم الله المشركين، وعمر يخب معه يسأله والآخر يسير على ناقته لا يعرفه حتى دخل المدينة، وإذا الناس يُسَلِّمُون عليه بإمرة المؤمنين، قال البشير: هَلَّا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين؟

فقال عمر: لا بأس عليك يا أخي.

٦٤ ـ يوم مرج الروم[١]

كان سبب ذلك أن أبا عبيدة وخالد بن الوليد سارا بمن معهما من فحل قاصدين حمص، فنزلا على ذي الكِلَاع، وبلغ الخبر هرقل، فبعث توذر البطريق حتى نزل بمرج الروم غرب دمشق، ونزل أبو عبيدة بمرج الروم أيضًا [وقد هجم الشتاء عليهم والجراح فيهم فاشية]، ونازله يوم نزوله شنش الرومي في مثل خيل توذر أمدادًا لتوذر وردءًا لأهل حمص، فلما نزل أصبحت الأرض من توذر بلاقع، وكان خالد بإزائه، وأبو عبيدة بإزاء شنش، وسار توذر يطلب دمشق، فسار خالد وراءه في جريدة، وبلغ يزيد بن أبي سفيان فعل توذر فاستقبله فاقتتلوا، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم إلّا الشريد، وغنم المسلمون ما معهم فقسمه يزيد في أصحابه وأصحاب خالد، وعاد يزيد إلى دمشق ورجع خالد إلى أبي عبيدة، وقد قتل توذر.

---

(١) سنة ١٥ من الهجرة.

وقاتل أبو عبيدة بعد مسير خالد شنش، فاقتتلوا بمرج الروم، فقتلت الروم مقتلة عظيمة، وقتل [أبو عبيدة] شنش [وامتلأ المرج من قَتْلاهم فأنتنت منهم الأرض]، وتبعهم المسلمون إلى حمص، فلما بلغ هرقل ذلك أمر بطريق حمص بالمسير إليها، وسار هو إلى الرّها، وسار أبو عبيدة إلى حمص.

٦٥ ـ يوم فتح حمص، وبعلبك وغيرهما

فلما فرغ أبو عبيدة من دمشق سار إلى حمص، فسلك طريق بعلبك فحاصرها، فطلب أهلها الأمان فأمّنهم وصالحهم وسار عنهم فنزل على حمص ومعه خالد، وقيل: إنما سار المسلمون إلى حمص من مرج الروم وقد تقدم ذكره، فلما نزلوها قاتلوا أهلها، فكانوا يغادونهم القتال ويراوحونهم في كلّ يوم بارد، ولَقِي المسلمون بردًا شديدًا و[لقي] الروم حصارًا طويلاً، فصبر المسلمون والروم، وكان هِرَقل قد أرسل إلى أهل حمص يَعِدُهُم المدد، وأمر أهل الجزيرة جميعها بالتجهّز إلى حمص، فساروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين، فسيَّر سعد بن أبي وقاص السرايا من العراق إلى هِيت وحصروها، وسار بعضهم إلى قرقيسيا، فتفرّق أهل الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حِمْص، فكان أهلُها يقولون: تمسَّكوا بمدينتكم فإنهم حفاة، فإذا أصابهم البرد تقطَّعت أقدامُهم، فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين أصبع، فلما خرج الشتاء قام شيخٌ من الروم فدعاهم إلى مصالحة المسلمين فلم يجيبوه، وقام آخر فلم يجيبوه، فناهدهم المسلمون فكبَّروا تكبيرة فانْهدم كثيرٌ من دور حمص وزلزلت حيطانهم فتصدَّعَتْ، فكبَّروا ثانية فأصابهم أعظم من ذلك، فخرج أهلها إليهم يطلبون الصلح ولا يعلم المسلمون بما حدث فيهم، فأجابوهم وصالحوهم على صلح دمشق.

وأنزلها أبو عبيدة السمط بن الأسود الكندي في بني معاوية، والأشعث بن ميناس في السكون، والمقداد في بِلَى، وأنزلها غيرهم، وبعث بالأخماس إلى عمر مع عبد الله بن مسعود، وكتب عمر إلى أبي عبيدة: أن أقِمْ بمدينتك وادْعُ أهل القُوَّة [والجَلَد] من عرب الشام فإني غير تارك البعثة إليك.

ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عُبادة بن الصامت وسار إلى حماة، فتلقّاه أهلها مذعنين، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية لرؤوسهم والخراج على أرضهم، ومضى نحو شَيْزر، فخرجوا إليه يسألون الصلح على ما صالح عليه أهل حماة.

وسار أبو عبيدة إلى معرَّة، وهي معرّة النعمان نُسِبَتْ بعد إلى النعمان بن بشير الأنصاري، فأذعنوا له بالصلح على ما صالح عليه أهل حمص، ثم أتى اللاذقية، فقاتله أهلها، وكان لها باب عظيم يفتحه جَمْعٌ من الناس، فعسكر المسلمون على بُعْدٍ منها، ثم أمر فحفر حفائر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس راكبًا، ثم أظهروا أنهم عائدون عنها ورحلوا، فلما جنّهم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر، وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أنّ المسلمين قد انصرفوا عنهم، فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرعهم إلّا والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة، ومُلِكَتْ عنوة، وهرب قوم من النصارى، ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم، فقوطعوا على خراج يؤدّونه، قلُّوا أو كَثِروا، وتُركت لهم كنيستهم، وبنىٰ المسلمون بها مسجدًا جامعًا بناه عبادة بن الصامت، ثم وُسِّع فيه بعد.

ولما فتح المسلمون اللاذقية جلا أهل جبلة من الروم عنها، فلما كان زمن معاوية بنىٰ حصنًا خارج الحصن الروميّ، وشحنه بالرجال، وفتح المسلمون مع عبادة بن الصامت أنطرطوس، وكان حصينًا فجلَا عنه أهله، فبنىٰ معاوية مدينة أنطرطوس ومصرها، وأقطع بها القطائع للمقاتلة، وكذلك فعل ببانياس، وفتحت سَلَمْيَة أيضًا، وقيل: إنما سمّيت سَلَمْيَة لأنه كان بقربها مدينة تدعى «المؤتفكة» اْنقلبتْ بأهلها، ولم يَسْلَمْ منهم غير مائة نفس فبنوا لهم مائة منزل وسمّيت سلم مائة، ثم حرف الناس فقالوا: سلمية، وهذا يتمشّى لقائله لو كان أهلها عربًا، ولسانهم عربيًّا، وأمّا إذا كان لسانهم أعجميًّا فلا يسوغ هذا القول.

ثم إن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس اتّخذها دارًا وبنى ولده فيها ومصّروها ونزلها من نزلها من ولده، فهي وأرضوها لهم.

٦٦ ـ يوم فتح قِنَّسْرِين ودخول هِرَقل القسطنطينية

ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين، فلما نزل الحاضر زحف إليهم الروم وعليهم ميناس، وكان من أعظم الروم بعد هِرَقل، فاقتتلوا فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها فماتوا على دم واحد. [وأمّا أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن مِنْ رأيهم حربه، فَقَبِلَ منهم].

وسار خالد حتى نزل على قِنسرين فتحصّنوا منه، فقال: [إنّكم] لو كنتم في السحاب لَحَمَلنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا.

فنظروا في أمرهم ورأوا ما لقي أهل حمص فصالحوهم على صلح حمص فأبى خالد إلّا على خراب المدينة فأخربها، فعند ذلك دخل هرقل القسطنطينية، وسببه أن خالدًا وعياضًا أدربا إلى هِرَقل من الشام، وأدرب عمر بن مالك من الكوفة، فخرج من ناحية قرقيسيا وأدرب عبد الله بن المعتم من ناحية الموصل، ثم رجعوا فعندها دخل هرقل القسطنطينية، وكانت هذه أول مدربة في الإسلام سنة خمس عشرة، وقيل: ست عشرة، فلما بلغ عمر صنيع خالد، قال: أمَّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منّي، وقد كان عزله والمثنى بن حارثة؛ وقال: إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظّموهما فخشيتُ أن يوكلوا إليهما.

فأما المثنى فإنه رجع عن رأيه فيه لما قام بعد أبي عبيدة، ورجع عن خالد بعد قِنّسرين. وأمّا هرقل فإنه أخرج من الرّها.

وكان أول من أنبح كلابها، ونفّر دجاجها من المسلمين زياد بن حنظلة، وكان من الصحابة.

وسار هرقل فنزل بشمشاط ثم أدرب منها نحو القسطنطينية، فلما أراد المسير منها علَا على نشز ثم التفت إلى الشام، فقال:

«السلام عليك يا سورية، سلامٌ لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رُومِيٌّ أبدًا إلّا خائفًا حتى يولدَ المولودُ المشؤوم، ويا ليته لا يولد ـ فما أحلى فعله وأمرّ فتنته على الروم».

ثم سار فدخل القسطنطينية، وأخذ أهل الحصون التي بين اسكندرية وطرسوس معه لئلّا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم، وشعّث الحصون، فكان المسلمون لا يجدون بها أحدًا، وربما كمن عندها الروم، فأصابوا غرة المتخلّفين فاحتاط المسلمون لذلك.

٦٧ ـ يوم فتح حلب وأنطاكية وغيرهما من العواصم

لما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب، فبلغه أن أهل قنّسرين نقضوا وغدروا فوجّه إليهم السمط الكندي، فحصرهم وفتحها وأصاب فيها بقرًا وغنمًا، فقسم بعضه في جيشه، وجعل بقيّته في المغنم.

ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب، وهو قريب منها، فجمع أصنافًا من العرب، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية، ثم أسلموا بعد ذلك، وأتى حلب وعلى

مقدمته عياض بن غنم الفهري فتحصَّن أهلها، وحصرهم المسلمون فلم يلبثوا أن طلبوا الصُلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وحصنهم، فأعطوا ذلك واستثنى عليهم موضع المسجد، وكان الذي صالحهم عياض فأجاز أبو عبيدة ذلك.

وقيل: صولحوا على أن يقاسموا منازلهم وكنائسهم، وقيل: إن أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحدًا؛ لأن أهلها انتقلوا إلى أنطاكية وراسلوا في الصلح، فلما تمَّ ذلك رجعوا إليها، وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية، وقد تحصَّن بها كثيرٌ من الخلق من قِنّسرين وغيرها، فلما فارقها لقيه جمعُ العدوّ فهزمهم فألجأهم إلى المدينة، وحاصرها من جميع نواحيها، ثم إنهم صالحوه على الجلاء أو الجزية فجلا بعضٌ وأقام بعضٌ فأمَّنهم ثم نقضوا، فوجَّه أبو عبيدة إليهم عياض بن غنم، وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الأول، وكانت أنطاكية عظيمة الذِّكر عند المسلمين فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة: أن رتّب بأنطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء.

وبَلَغَ أبا عبيدة أن جمعًا من الروم بين مَعرّة مَصرين وحلب، فسار إليهم فلقيهم فهزمهم، وقتل عدة بطارقة وسبى وغنم، وفتح معرّة مصرين على مثل صلح حلب، وجالت خيوله فبلغت بُوقا وفتحت قرى الجُومة وسَرْمين وبيرين وغلبوا على جميع أرض قنسرين وأنطاكية.

ثم أتى أبو عبيدة حلب وقد التاث أهلُها، فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة.

وسار أبو عبيدة يريد قورس وعلى مقدمته عياض، فلقيه راهب من رهبانها يسأله الصلح فبعث به إلى أبي عبيدة فصالحه على صلح أنطاكية، وبثّ خيله فغلب على جميع أرض قورس، وفتح تل عزاز، وكان سلمان بن ربيعة الباهلي في جيش أبي عبيدة فنزل في حصن بقورس فنسب إليه، فهو يعرف بحصن سلمان.

ثم سار أبو عبيدة إلى مَنبج وعلى مقدمته عياض فلحقه وقد صالح أهلها على مثل صلح أنطاكية، وسَيَّر عياضًا إلى ناحية دُلوك ورعبان فصالحه أهلها على مثل منبج، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الروم، وولّى أبو عبيدة كل كورة فتحها عاملاً وضمّ إليه جماعة وشحن النواحي المخوفة. وسار إلى بالس، وبعث جيشًا مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين، فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء فجلا

أكثرهم إلى بلد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج، ولم يكن الجسر يومئذٍ وإنما اتخذ في خلافة عثمان للصوائف، وقيل: بل كان له رسم قديم، واستولى المسلمون على الشام، من هذه الناحية إلى الفرات.

وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين، وكان بجبل اللكام مدينة يقال لها: جُرجُرومة وأهلها يقال لهم الجراجمة، فسار حبيب بن مسلمة إليها من أنطاكية فافتتحها صُلْحًا على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين.

وفيها سيَّر أبو عبيدة بن الجراح جيشًا مع ميسرة بن مسروق العبسي فسلكوا درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم، وهو أول مَنْ سَلَكَ ذلك الدرب فلقِيَ جَمْعًا للروم معهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهِرَقل، فأوقع بهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم لحق به مالك الأشتر النخعي مددًا من قبل أبي عبيدة، وهو بأنطاكية فسلموا وعادوا.

وسيَّر جيشًا آخر إلى مَرْعَش مع خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وأخربها، وسيَّر جيشًا آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن «الحَدَث»، وإنما سُمّي الحدث لأن المسلمين لقوا عليه غلامًا حدثًا فقاتلهم في أصحابه فقيل: درب الحدث، وقيل: لأن المسلمين أصيبوا به فقيل: درب الحدث، وكان بنو أُميّة يسمّونه درب السلامة لهذا المعنى.

٦٨ ـ يوم فتح قيسارية وحصر غزة

في هذه السنة فتحت قيسارية، وقيل: سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين.

وكان سببها أن عمر كتب إلى يزيد بن أبي سفيان أن يرسل معاوية إلى قيسارية، وكتب عمر إلى معاوية يأمره بذلك، فسار معاوية فحصر أهلها فجعلوا يزاحفونه وهو يهزمهم ويردّهم إلى حصنهم، ثم زاحفوه آخر ذلك مستميتين وبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين ألفًا وكملها في هزيمتهم مائة ألف وفتحها.

وكان علقمة بن مجزِّز قد حصر القيقار بغزّة وجعل يراسله فلم يشفه أحد بما يريد فأتاه كأنه رسول علقمة، فأمر القيقار رجلاً أن يقعد له في الطريق فإذا مرَّ به قتله، ففطن علقمة فقال: إن معي نفرًا يشركونني في الرأي فأنطلق فآتيك بهم، فبعث القيقار إلى ذلك الرجل: أنْ لا يعرض له، فخرج علقمة من عنده فلم يَعُد، وفعل كما فعل عمرو بالأرطبون.

٦٩ ـ يوم فتح بيسان ووقعة أجنادين

ولما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص، نزل عمرو وشرحبيل على أهل بيسان فافتتحاها وصالحا أهل الأردن، واجتمع عسكر الروم بغزّة وأجنادين وبيسان.

وسار عمرو وشرحبيل إلى الأرطبون ومَنْ معه، وهو بأجنادين، واستخلف على الأردن أبا الأعور، فنزل بالأرطبون ومعه الروم، وكان «الأرطبون» أدهىٰ الروم وأبعدها غورًا [وأنكاها فعلًا] وكان قد وضع بالرملة جندًا عظيمًا وبإيلياء جُنْدًا عظيمًا [وكتب إلى عُمَر بالخبر]، فلما بلغ عمر بن الخطاب الخبر قال: «قد رَمَيْنا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فأنظروا عَمَّ تَنْفرج».

وكان معاوية قد شغل أهل قيسارية عن عمرو، وكان عمرو قد جعل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي على قتال [أهل] إيلياء فشغلوا من به عنه، وجعل أيضًا أبا أيّوب المالكي على مَنْ بالرملة فشغلهم عنه، وتتابعت الأمداد من عند عمر إلى عمرو، وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على شيء ولا تشفيه الرسل، فسار إليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول [فأبلغه ما يريد وسَمِعَ كلامه وتأمّل حصونه حتى عرف ما أراد] ففَطِنَ به الأرطبون، وقال: «لا شكّ أن هذا هو الأمير أو مَنْ يأخذ الأميرُ برأيه [وما كنت لأصيب القوم بأمرٍ أعظم عليهم مِنْ قَتْلِهِ]»، فأمر إنسانًا أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مرَّ به، وفطن عمرو لِفعله فقال له: قد سمعتَ مني وسمعتُ منك، وقد وقع قولك مني موقعًا، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر [بن الخطاب] إلى هذا الوالي لنكانفه [ويشهدنا أموره] فأرجع فآتيك بهم الآن فإنْ رأوا الذي عرضَت عليَّ الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم [وكنت على رأس أمرك]، فقال: نعم وردَّ الرجل الذي أمر بقتله [وقال لعمرو: انطلق وجئ بأصحابك].

فخرج عمرو من عنده [ورأى أن لا يَعُد لمثلها]، وعلم الرومي أنها خدعة اختدعه بها، فقال: [خدعني الرجل] هذا أدهىٰ الخلق.

وبلغت خديعته عمر بن الخطاب، فقال: «لله دَرّ عَمْرو»، وعرف عمرو مأخذه فلقيه فاقتتلوا بأجنادين قتالاً شديدًا كقتال اليرموك حتى كَثُرت القَتْلى بينهم، وانهزم أرطبون إلى إيلياء، ونزل عمرو أجنادين، وأفرج المسلمون الذين يحصرون بيت المقدس لأرطبون فدخل إيلياء وأزاح المسلمين عنه إلى عمرو.

وقد تقدم ذكر وقعة أجنادين على قول: من يجعلها قبل اليرموك، وسياقها على غير هذه السياقة، فلهذا ذكرناها هنالك وها هنا.

٧٠ ـ يوم فتح بيت المقدس وهو إيلياء[١]

وقيل: سنة ست عشرة في ربيع الأول ـ وسبب ذلك أنه لما دخل أرطبون إيلياء فتح عمرو غزة ـ وقيل: كان فتحها في خلافة أبي بكر، ثم فتح سَبَسْطِيَّة وفيها قبر يحيٰى بن زكريا عليه السلام، وفتح نابلس بأمان على الجزية، وفتح مدينة لُدّ ثم فتح تُبْني، وعمواس، وبيت جبرين، وفتح يافا ـ وقيل: فتحها معاوية ـ وفتح عمرو «مرج عيون»، فلما تمّ له ذلك أرسل إلى أرطبون رجلاً يتكلّم بالرومية وقال له: «اسمع ما يقول»، وكتب معه كتابًا.

فوصل الرسول ودفع الكتاب إلى أرطبون وعنده وزراؤه، فقال أرطبون: «لا يفتح والله عمرو شيئًا من فلسطين بعد أجنادين».

فقالوا له: مِنْ أين علمت هذا؟ فقال: صاحبها رجل صفته كذا وكذا، وذكر صفة عمر.

فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره الخبر، فكتب إلى عمر بن الخطاب يقول: «إن أعالج عَدُوًّا شديدًا وبلادًا قد ٱدُّخِرَتْ لك فرأيك».

فعلم عمر أن عَمْرًا لم يقل ذلك إلّا بشيء سمعه، فسار عمر عن المدينة.

وقيل: كان سبب قدوم عمر إلى الشام أنّ أبا عبيدة حصر بيت المقدس، فطلب أهله منه أن يُصالحهم على صلح أهل مدن الشام، وأن يكون المتولّي للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة، واستخلف عليها عليّ بن أبي طالب، فقال له عليّ: أين تخرج بنفسك؟ إنك تريد عدوًّا كلبًا.

فقال عمر: أبادر بالجهاد قبل موت العباس، إنكم لو فقدتُّم العباس لانتقض بكم الشرّ كما ينتقض الحبل.

فمات العباس لِسِتٍّ سنين من خلافة عثمان، فانتقض بالناس الشر.

وسار عمر فقَدِم الجابية على فرس ـ وجميع ما قدم الشام أربع مرات، الأولى على فرس، والثانية على بعير، والثالثة على بغل، ورجع لأجل الطاعون، والرابعة

---

(١) سنة ١٥ من الهجرة.

على حمار ـ وكتب إلى أُمراء الأجناد أنْ يوافوه بالجابية ليوم سمّاه لهم في المجردة ويستخلفوا على أعمالهم، فلقوه حيث رفعت لهم الجابية.

فكان أوّل من لقيه يزيد وأبو عبيدة، ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها، وقال:

«ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم! إياي تستقبلون في هذا الزي؛ وإنما شبعتم مذ سنتين، وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلتُ بكم غيري، فقالوا: يا أمير المؤمنين إنها يلامقة[1] وإن علينا السلاح، قال: فنعم إذن».

وركب حتى دخل عليه الجابية وعمرو وشرحبيل كأنهما لم يتحرّكا [من مكانهما]، فلما قدم عمر الجابية، قال له رجل من اليهود: «يا أمير المؤمنين إنك لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء»، وكانوا قد شجوا عَمْرًا وأشجاهم ولم يقدر عليها ولا على الرملة، فبينما عمر مُعَسْكِر بالجابية فزع الناس إلى السلاح، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: ما شأنكم؟ فقالوا: ألا ترى إلى الخيل والسيوف.

فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف، فقال عمر: مستأمنة فلا تُرَاعوا، فأمّنوهم وإذا [هم] أهل إيلياء وحيزها، فصالحهم على الجزية وفتحوها له.

وكان الذي صالحه العوامّ [من أهل إيلياء والرملة]؛ لأن أرطبون والتذارق دخلا مصر لما وصل عمر إلى الشام وأخذوا كتابه على إيلياء وحيّزها، والرملة وحيّزها، فشهد ذلك اليهودي الصلح، فسأله عمر عن الدجّال ـ وكان كثير السؤال عنه ـ فقال له: وما مسألتُك عنه يا أمير المؤمنين؟ أنتم والله [معشر العرب] تقتلونه دون باب لُدّ ببضع عشرة ذراعًا؟

وأرسل عمر إليهم بالأمان، وجعلة علقمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه الرملة وجعل علقمة بن مجزز على نصفها الآخر وأسكنه إيلياء، وضمّ عمرًا وشرحبيل إليه بالجابية فلقياه راكبًا فقبّلا ركبته وضمّ كلُّ واحدٍ منهما محتضنهما.

ثم سار إلى بيت المقدس من الجابية فركب فرسه فرأى به عَرَجًا فنزل عنه، وأتى ببرذون[2] فركبه فجعل يتجلجل به فنزل وضرب وجهه، وقال: «لا أعلم مَنْ عَلّمك هذه الخُيَلاء»، ثم لم يركب برذونًا قبله ولا بعده.

---

(١) اليلمق: القباء المحشو، وفي الأصول اليلامعة، وهو تصحيف صححناه من النهاية وتاريخ الطبري.

(٢) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال من الفصيلة الخيلية عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الحوافر، جمعه براذين.

وفُتحت إيلياء وأهلها على يديه، وقيل: كان فتحها سنة ستة عشرة، ولحق أرطبون ومن أبىٰ الصُّلح من الروم بمصر، فلما ملك المسلمون مصر قُتِلَ - وقيل: بل لحق بالروم، فكان يكون على صوائفهم والتقى هو وصاحب صائفة المسلمين ومع المسلمين رجل من قيس يقال له: ضريس فقطع يد القيسي وقتله القيسي، فقال فيه:

فإن يكن أرطبون الروم أفسدها فإنّ فيها بحمد الله منتفعا
وإن يكن أرطبون الروم قطعها فقد تركت بها أوصاله قطعا[١]

٧١ - يوم برس وبابل وكوثى[٢]

لما فرغ سعد من أمر القادسية أقام بها بعد الفتح شهرين، وكاتَبَ عمر فيما يفعل، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى «المدائن»، وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق، وأن يجعل معهم جندًا كثيفًا، و [عهد إليه] أن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم، ففعل ذلك، وسار من القادسية لأيام بقين من شوّال، وكل الناس مُؤْدٌ مُذْ نقل الله إليهم ما كان في عسكر الفرس، [من سلاح، وكراع، ومال]؛ فلما وصلتْ مقدمة المسلمين برس وعليهم عبد الله بن المعتم، وزهرة بن حويّة، وشرحبيل بن السّمط لقيهم بها بصبهرا في جمعٍ من الفرس فهزمه المسلمون ومن معه إلى بابل، وبها فالة القادسية وبقايا رؤسائهم النخير خان ومهران الرازي، والهرمزان وأشباههم، وقد استعملوا عليهم الفيرزان، وقدم بصبهرا منهزمًا من بُرس فوقع في النهر ومات من طعنة كان طعنه زهرة، ولما هزم بصبهرا أقبل بسطام دهقان برس فصالح زهرة وعقد له الجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل فأرسل زهرة إلى سعد يُعَرِّفُهُ ذلك، فقدم عليه سعد ببرس، وسيَّره في المقدمة واتبعه عبد الله وشرحبيل وهاشمًا المرقال، وأتبعهم فنزلوا على الفيرزان ببابل، وقد قالوا: نقاتلهم قبل أنْ نفترق فاقتتلوا فهزمهم المسلمون [في أسرع من لفت الرداء]، فانطلقوا على وجهين فسار الهرمزان نحو الأهواز فأخذها فأكلها، وخرج الفيرزان نحو نهاوند فأخذها فأكلها وبها كنوز كسرى، وأكل الماهَيْن، وسار النخير خان ومهران إلى المدائن وقطعا الجسر وأقام سعد ببابل [أيامًا وبلغه أن النخير خان قد خلف شهريار دهقانًا من دهاقين الباب بكوثى في جمع]، فقدم زهرة بين يديه بكير بن عبد الله الليثيّ، وكثير بن شهاب

---

(١) زاد الطبري بيتين بعد الأول، فراجعه. (٢) سنة ١٥ من الهجرة.

السعدي حتى عبرا الصَّراة، فلحقا بأُخريات القوم، وفيهم فيومان، والفرّخان هذا بيساني وهذا أهوازي فقتل بكير الفرّخان، وقتل كثير فيومان بسورا، وجاء زهرة فجاز سورا ونزل، وجاء سعد وهاشم والناس ونزلوا عليه، وتقدم زهرة نحو الفرس ـ وكانوا قد نزلوا بين الدير وكوثى، وقد استخلف النخير خان ومهران على جنودهما شهريار دهقان البابَ، فنازلهم زهرة فبرزوا إلى قتاله، وخرج شهريار يطلب المبارزة، فأخرج زهرة إليه أبا نباتة نايل بن جعشم الأعرجي ـ وكان من شجعان بني تميم وكلاهما وثيق الخلق ـ فلما رأى شهريار نايلاً ألقى الرمح ليعتنقه وألقى أبو نباتة رمحه ليعتنقه أيضًا وانتضيا سيفيهما فاجتلدا، ثم اعتنقا فسقطا عن دابّتيهما فوقع شهريار عليه كأنه جمل، فضغطه بفخذه وأخذ الخنجر وأراد حلّ أزرار درعه فوقعت إصبعه في فيّ نايل فكسر عظمها ورأى منه فتورًا فبادره وجلد به الأرض، ثم قعد على صدره وأخذ خنجره وكشف درعه عن بطنه، وطعن به بطنه وجنبه حتى مات، وأخذ فرسه وسواريه وسلبه، وانهزم أصحابه فذهبوا في البلاد.

وأقام زهرة بكوثى حتى قدم عليه سعد فقدم إليه نايلاً وألبسه سلاح شهريار وسواريه وأركبه برذونه وغنمه الجميع، فكان أول أعرجي سور بالعراق، وأقام بها سعد أيامًا، وزار مجلس إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقيل: كانت هذه الوقعات سنة ست عشرة.

٧٢ ـ يوم بَهُرَسِير[1]

ثم إنّ سعدًا قدّم زهرة إلى بهرسير، فمضى في المقدمات فتلقاه شيرزاد دهقان ساباط بالصلح فأرسله إلى سعد فصالحه على تأدية الجزية، ولقي زهرة كثيبة بنت كسرى التي تدعى بوران، وكان يحلفون كل يوم أن لا يزول ملك فارس ما عشنا فهزمهم، وقتل هاشم بن عتبة ـ وهو ابن أخي سعد المقرط وهو أسد كان لكسرى قد ألفه ـ فقبّل سعد رأس هاشم، وقبّل هاشم قدم سعد، وأرسله سعد في المقدمة إلى بَهُرَسِير، فنزل إلى المظلم وقرأ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٤].

ثم ارتحل فنزل على بهرسير، ووصلها سعد والمسلمون فرأوا الإيوان، فقال ضرار بن الخطاب: الله أكبر أبيضُ كِسْرَى، هذا ما وعد الله ورسوله. وكَبَّر وكبّر

(١) في أواخر سنة ١٥ من الهجرة وأوائل سنة ١٦ من الهجرة.

الناس معه، فكانوا كلما وصلت طائفةٌ كبَّروا، ثم نزلوا على المدينة، وكان نزولهم عليها في ذي الحجّة، [فكان مقامه بالناس على بهرسير شهرين وعبروا في الثالث].

وفي صفر سنة ست عشرة دخل المسلمون بَهُرَسِير، وكان سعد مُحاصِرًا لها، وأرسل الخيول فأغارت على من ليس له عهد فأصابوا مائة ألف فلاح، فأصاب كلُّ واحدٍ منهم فلاحًا؛ لأن كل المسلمين كان فارسًا [فخندق لهم، فقال له شيرزاد دهقان ساباط: إنك لا تصنع بهٰؤلاء شيئًا إنما هٰؤلاء علوج لأهل فارس لم يجروا لك فدعهم إليّ حتى يفرق لكم الرأي].

فأرسل سعد إلى عمر يستأذنه فأجابه أنّ من جاءكم من الفلاحين [إذا كانوا مقيمين] ممن لم يعينوا عليكم فهو أمانهم ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به، فخلّى سعد عنهم وأرسل إلى الدهّاقين ودعاهم إلى الإسلام، أو الجزية ولهم الذمة [والمَنَعَة] فتراجعوا [على الجزية والمنعة]، ولم يدخل في ذلك ما كان لآل كسرى [ومن دخل معهم]، فلم يبقَ غربي دجلة إلى أرض العرب سوادِيّ إلّا آمن، واغتبط بمُلك الإسلام، وأقاموا على بهرسير شهرين يرمونهم بالمجانيق، ويدنون إليهم بالدبابات، ويقاتلونهم بكل عِدّة، ونصبوا عليها عشرين منجنيقًا، فشغلوهم بها، وربما خرج العجم فقاتلوهم فلا يقومون لهم.

وكان آخر ما خرجوا متجرّدين للحرب وتبالغوا على الصبر، فقاتلهم المسلمون [فلم يثبتوا لهم]، وكان على زهرة بن الحويّة درع مفصوم، فقيل له: لو أمرتَ بهذا الفصم فسرد؛ فقال لهم: [ولم قالوا: نخاف عليك منه. قال:] إني على الله لكريم إنْ نزل سهمُ فارس الجند كلهم أن لا يؤمنني من هذا الفصم حتى يثبت فيّ، فكان أول رجل أصيب من المسلمين يومئذ هو بنشابة من ذلك الفصم. فقال بعضهم: انزعوها [عنه]، فقال: دعوني فإن نفسي معي ما دامَتْ فيّ لعلي أن أصيب منهم بطعنة أو ضربة، فمضى نحو العدوّ فضرب بسيفه شهريار من أهل إصطخر فقتله وأُحيط به فقُتِل وما انكشفوا.

وقيل: إن زهرة عاش إلى أيام الحجاج فقتله شبيب الخارجي، وسيرد ذكره، واشتدّ الحصار بأهل المدائن الغربية حتى أكلوا السنانير والكلاب، وصبروا من شدَّة الحصار على أمرٍ عظيم، فبينا هم يحاصرونهم إذْ أشرف عليهم رسولُ الملك، فقال: الملكُ يقول لكم: هل لكم إلى المصالحة على أنّ لنا ما يلينا من دجلة إلى جبلنا ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم. فقال لهم أبو

مفزر الأسود بن قطبة وقد أنطقه الله تعالىٰ بما لا يدري ما هو ولا من معه، فرجع الرجل فقطعوا دجلة إلى المدائن الشرقية التي فيها الإيوان، فقال له من معه: يا أبا مفزر ما قلتَ له؟ قال: والذي بعث محمّدًا بالحق ما أدري، وأنا أرجو أن أكون قد نطقتُ بالذي هو خير.

وسأله سعد والناس عمّا قال فلم يعلم، فنادى سعد في الناس فنهدوا إليهم فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج رجلٌ إلّا رجلٌ ينادي بالأمان فأمّنوه، فقال لهم: ما بقي بالمدينة من يمنعكم، فدخلوا فما وجدوا فيها شيئًا ولا أحدًا إلّا أسارى وذلك الرجل، فسألوه: لأيّ شيءٍ هربوا؟ فقال: بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح فأجبتموه أنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل افريدون باترج كوثى، فقال الملك: يا ويلتيه إنّ الملائكة تتكلم على ألسنتهم ترد علينا [وتجيبنا عن العرب]؛ فساروا إلى المدينة القُصوَىٰ فلما دخلها المسلمون أنزلهم سعد المنازل وأرادوا العبور إلى المدائن فوجدوا المعابر قد أخذوها ما بين المدائن وتكريت.

٧٣ ـ يوم فتح المدائن التي فيها إيوان كسرى

وكان فتحها في صفر أيضًا سنة ست عشرة، قيل: وأقام سعد ببهرسير أيامًا من صفر فأتاه علج[١] فدلّه على مخاضة تخاض إلى صلب الفرس فأبىٰ وتردّد عن ذلك وقحمهم المد[٢] وكانت السنة كثيرة المدود، ودجلة تقذف بالزَّبَد فأتاه علج، فقال: ما يقيمك لا يأتي عليك ثالثة حتى يذهب يزدجرد بكل شيء في المدائن فهيّجه ذلك على العبور، ورأوا رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمت دجلة فعبرت، فعزم سعد لتأويل الرؤيا، فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال: إن عدوَّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه ويخلصون إليكم إذ شاؤوا في سفنهم فينا وشؤونكم وليس وراءكم شيءٌ تخافون أن تؤتوا منه قد كفاكموهم أهل الأيام، وعطّلوا ثغورهم [وأفنوا ذادتهم] وقد رأيتُ من الرأي أن تُجاهدوا العدوَّ قبل أن تحصدكم الدنيا ألَا إني قد عزمتُ على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعًا: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل، فندب الناس إلى العبور، وقال: مَنْ يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكي لا يمنعوهم من

---

(١) العلج: كل جاف شديد من الرجال جمعه علوج وأعلاج.
(٢) أي: السيل.

العبور؟ فانتدب له عاصم بن عمرو ذو الباس في ستمائة من أهل النجدات فاستعمل عليهم عاصمًا، فقدَّمهم عاصم في ستين فارسًا وجعلهم على خير ذكور وإناث ليكون أسلس لسباحة الخيل، ثم اقتحموا دجلة.

فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا أخرجوا للخيل التي تقدمت مثلها، فاقتحموا عليهم دجلوا فلقوا عاصمًا وقد دنا من الفراض، فقال عاصم: الرماح الرماح أشرعوها وتواخوا العيون، فالتقوا فاطعنوا، وتوخّى المسلمون عيونهم فولّوا، ولحقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم، ومن نجا منهم صار أعور من الطعن، وتلاحق الستمائة بالستين غير متعتعين، ولما رأى سعد عاصمًا على الفراض قد منعها أذِنَ للناس في الاقتحام، وقال: قولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونِعْم الوكيل، والله لينصرنّ الله وليّه، وليظهرنّ دينه، وليهزّ من عدوه [لا حول] ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

وتلاحق الناسُ في دجلة وإنهم يتحدَّثون كما يتحدثون في البرّ، وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطئ شيءٌ، وكان الذي يساير سعدًا [في الماء] سلمان الفارسي، فعامت بهم خيولهم وسعد يقول: «حسبنا الله ونِعْم الوكيل، والله لينصرن الله وليُّه وليظهرنّ دينه وليهزمن عدوّه إن لم يكن في الجيش بَغْيٌ أو ذُنُوب تغلب الحسنات»، فقال له سلمان: «الإسلامُ جديد ذُلِّلَتْ لهم [والله] البحور كما ذُلّل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجنّ منه أفواجًا كما دخلوا فيه أفواجًا».

فخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيئًا، [ولم يغرق منهم أحد] إلا أنّ مالك بن عامر العنبري سقط منه قَدَح فذهبت به جرية الماء، فقال له الذي يسايره مُعَيِّرًا له: أصابه القدر فطاح، فقال: والله إني لعلى حالة ما كان الله ليسلبني قدحي من بين العسكرين؛ فلما عبروا ألقته الريح إلى الشاطئ فتناوله بعضُ الناس وعرفه صاحبه فأخذه صاحبه، ولم يغرق منهم أحد غير أن رجلًا من بارق يدعى غرقدة زال عن ظهر فرسٍ له أشقر فثنى القعقاع عنان فرسه إليه فأخذ بيده فأخرجه سالمًا، [فقال البارقي وكان من أشدّ الناس: أعجز الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع. وكان للقعقاع فيهم خؤولة][1]، وخرج الناس سالمين وخيلهم تنفض أعرافها، فلما رأى الفرس ذلك وأتاهم أمرٌ لم يكن في حِسَابهم خرجوا هاربين نحو حُلْوَان، وكان يزدجرد قد قدم عياله إلى حلوان قبل ذلك وخلف مهران الرازي، والنخير خان وكان على بيت المال

---

(١) أي: أخواله.

بالنهروان، وخرجوا معهم بما قدروا عليه من خير متاعهم وخفيفه وما قدروا عليه من بيت المال وبالنساء والذراري، وتركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفصوص والألطاف والأدهان ما لا يُدرَى قيمته، وخلّفوا ما كانوا أعدّوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة، وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات أخذ منها رستم عند مسيره إلى القادسية النصف، وبقي النصف.

وكان أول من دخل المدائن كتيبة الأهوال وهي كتيبة عاصم بن عمرو، ثم كتيبة الخرساء وهي كتيبة القعقاع بن عمرو؛ فأخذوا في سككها لا يَلْقَون فيها أحدًا يخشونه[1] إلا من كان في القصر الأبيض فأحاطوا بهم، ودعوهم، فاستجابوا على تأدية الجزية والذمّة، فتراجع إليهم أهل المدائن على مثل عهدهم ليس في ذلك ما كان لآل كسرى [ومن خرج معهم] ونزل سعد القصر الأبيض، وسرح سعد زهرة في آثارهم إلى النهروان، [وسرح] مقدار ذلك من كل جهة، وكان سلمان الفارسي رائد المسلمين وداعيتهم دعا أهل بهرسير ثلاثًا، وأهل القصر الأبيض ثلاثًا، واتخذ سعد إيوان كسرى مصلى ولم يغيّر ما فيه من التماثيل، ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور الماء، وكان يدعى يوم الجراثيم لا يبقى أحدٌ إلّا اشمخرّت له جرثومة من الأرض يستريح عليها ما يبلغ الماء حزام فرسه، ولذلك يقول أبو بُجَيْد نافع بن الأسود:

وأملنا على المدائن خيلاً ... بحرها مثل برّهن أريضا
فانتثلنا خزائن المرء كسرى ... يوم ولّوا وخاض منها جريضا

ولما دخل سعد الإيوان قرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدّخَان: الآية ٢٨]، وصلّى فيه صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينهنّ ولا يصلّي جماعة، وأتمّ الصلاة لأنه نوىٰ الإقامة، وكانت أول جمعة بالعراق - وجمعت بالمدائن في صفر سنة ست عشرة.

ولما سار المسلمون وراءهم أدرك رجلٌ من المسلمين فارسيًا يحمي أصحابه فضرب فرسه ليقدم على المسلم فأحجم وأراد الفرار فتقاعس فأدركه المسلم فقتله وأخذ سلبه، وأدرك رجلٌ آخر من المسلمين جماعة من الفرس يتلاومون[2] وقد نصبوا

---

(١) في الطبري: لا يلقون فيها أحدًا، ولا يحسونه إلّا من كان... الخ.
(٢) أي: يلوم بعضهم بعضًا على الفرار.

لأحدهم كُرة[١] وهو يرميها لا يخطئها، فرجعوا فلقيهم المسلم فتقدم إليه ذلك الفارسي فرماه بأقرب مما كانت الكرة فلم يصبه، فوصل المسلم إليه فقتله وهرب أصحابه.

ذكر ما جُمِعَ من غنائم أهل المدائن وقسمتها

كان سعد قد جعل على الأقباض عَمْرو بن عَمْرو بن مقرن، وعلى القسمة سلمان بن ربيعة الباهلي، فجمع ما في القصر والإيوان والدُّور، وأحصى ما يأتيه به الطلب؛ وكان أهل المدائن قد نهبوها عند الهزيمة وهربوا في كل وجهٍ فما أفلت أحدٌ منهم بشيء إلا أدركهم الطلب، فأخذوا ما معهم، ورأوا بالمدائن قِبَابًا تركية مملوءة سِلَالاً مختومة برصاص فحسبوه طعامًا فإذا فيها آنية الذهب والفضّة، وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين، ورأوا كافورًا كثيرًا فحسبوه مِلْحًا فعجنوا به فوجدوه مُرًّا.

وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر النهروان فازدحموا عليه فوقع منهم بغلٌ في الماء فعجلوا وكلبوا عليه، فقال بعض المسلمين: إن لهذا البغل لشأنًا فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه، وفيه حلية كسرى ثيابه، وخرزاته، ووشاحه، ودِرْعه التي فيها الجوهر ـ وكان يجلس فيها للمباهاة، ولحق الكلج بغلين معهما فارسيان فقتلهما وأخذ البغلين فأبلغهما صاحب الأقباض وهو يكتب ما يأتيه به الرجال، فقال له: قِفْ حتى تنظر ما معك فحَطَّ عنهما فإذا سَفَطان[٢] فيهما تاج كسرى مرصّعًا وكان لا يحمله إلّا الأسطوانيّان[٣] وفيه الجوهر، وعلى البغل الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجًا منظومًا.

وأدرك القعقاع بن عمرو فارسيًّا فقتله، وأخذ منه عَيْبَتَيْن[٤] و[غلافين] في أحدهما خمسة أسياف وفي الآخر ستة أسياف، و[إذا في العيبتين] أدراع منها درع

---

(١) وهو البعر العفن تجلى به الدروع، وفي الأصول الكربى ولا معنى له هنا، وصححناه من الطبري والصحاح.

(٢) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء، جمعه أسفاط.

(٣) في الصحاح للجوهري: جمل إسطوان أي مرتفع، وفي الطبري: وكان لا يحمله إلّا إسطوانتان (م).

(٤) العيبة: وعاء من خوص ونحوه ينقل فيه الزرع المحصود إلى الجرين. والعيبة وعاء من أُدم ونحوه.

كسرى ومغافره، ودرع هِرَقل، ودرع خاقان ملك الترك، ودرع داهر ملك الهند، ودرع بهرام جوبين، ودرع سيلوخش، ودرع النعمان استلبها الفرس أيام غزاهم خاقان، وهرقل، وداهر، وأما النعمان وجوبين فحين هربا من كسرى والسيوف من سيوف كسرى، وهرمز، وقباذ، وفيروز، وهرقل، وخاقان، وداهر، وبهرام، وسياوخش، والنعمان؛ فأحضر القعقاع الجميع عند سعد فخيَّره بين الأسياف فاختار سيف هرقل، وأعطاه درع بهرام ونفل سائرها في الخرساء إلّا سيف كسرى والنعمان بعث بهما إلى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك [لمعرفتهم بهما و] حسبوهما[١] في الأخماس، وبعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه إلى عمر ليراه المسلمون.

وأدرك عصمة بن خالد الضبي رجلين معهما حماران، فقتل أحدهما وهرب الآخر، وأخذ الحمارين فأتى بهما صاحب الأقباض فإذا على أحدهما سفطان في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضّة، وعلى ثفره ولبابه الياقوت والزمرّد المنظوم على الفضة، ولجام كذلك، وفارس من فضة مكلّل بالجوهر، وفي الآخر ناقة من فضَّة عليها شليل[٢] من ذهب، وبطان من ذهب، ولها زمام من ذهب، وكل ذلك منظوم بالياقوت، وعليها رجل من ذهب مكلّل بالجواهر كان كسرى يضعهما على اسطوانتي التاج.

وأقبل رجل بحُقٍّ إلى صاحب الأقباض، فقال هو والذين معه: ما رأينا مثل هذا ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئًا؟ فقال: والله لولا الله ما أتيتكم به، فقالوا: مَن أنت؟ فقال: والله لا أخبركم فتحمدوني [ولا غيركم ليقرظوني]، ولكني أحمد الله وأرضىٰ بثوابه. فأتبعوه رجلاً [حتى انتهى إلى أصحابه] فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس. وقال سعد: والله إن الجيش لَذُو أمانة ولولا ما سبق لأهل بدر لقلتُ إنهم على فضل أهل بدر، لقد تتبّعتُ [من أقوام] منهم هناة ما أحسبها من هؤلاء. وقال جابر بن عبد الله: والذي لا إلٰه إلّا هو ما اطّلعنا على أحدٍ من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة، فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأمانتهم وزهدهم، وهم طليحة [بن خويلد]، وعمرو بن معديكرب، وقيس بن المكشوح؛ وقال عمر لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته وبزبرجده: «إن قومًا أدُّوا هذا لذوو أمانة»، فقال عليّ: إنك عففت فعفَّت الرعيَّة.

---

(١) في الطبري: وحبسوهما في الأخناس.

(٢) هو مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير من وراء الرحل.

فلما جُمِعَت الغنائم قسم سعد الفَيْء بين الناس بعدما خمَّسه، وكانوا ستّين ألفًا، فأصاب الفارس اثني عشر ألفًا، وكلّهم كان فارسًا ليس فيهم راجل، ونفل من الأخماس في أهل البلاء وقسَّم المنازل بين الناس، وأحضر العيالات فأنزلهم الدور فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء وحلوان، وتكريت، والموصل، ثم تحوَّلوا إلى الكوفة، وأرسل سعد في الخمس كل شيء أراد أن يعجب منه العرب وما كان يعجبهم أن يقع [إليهم].

٧٤ ـ يوم جلولاء[١] وفتح حلوان[٢]

وسببه أن الفرس لما انتهوا بعد الهرب من المدائن إلى جَلُولَاء[١]، وافترقت الطرق بأهل أَذْرَبِيجَان والباب، وأهل الجبال، وفارس [تذامروا] وقالوا: لو افترقتم لم تجتمعوا أبدًا، وهذا مكانٌ يفرّق بيننا، فهلمُّوا فلنجتمع للعرب به، ولنقاتلهم فإن كانت لنا فهو الذي نحبّ، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا وأبدينا عُذْرًا.

فاحتفروا خندقًا، واجتمعوا فيه على مهران الرازي، وتقدم يزدجرد إلى حلوان [فنزل بها، ورماهم بالرجال وخلف فيهم الأموال فأقاموا]، وأحاطوا خندقهم بحسك الحديد إلّا طرقهم.

فبلغ ذلك سعدًا، فأرسل بذلك إلى عمر، فكتب إليه: أن عمر سرح هاشم بن عتبة إلى جَلُولَاء، واجعل على مقدّمته القعقاع بن عمرو [وعلى ميمنته مسعر بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة، واجعل على ساقته عمرو بن مرّة الجهنيّ]، وإن هزم الله الفرس فاجعل القعقاع بين السواد والجبل على حدّ سوادكم، وليكن الجند اثني عشر ألفًا؛ ففعل سعدٌ ذلك.

وسار هاشم من المدائن بعد قسمة الغنيمة في اثني عشر ألفًا منهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن كان ارتدّ ومن لم يرتدّ، فسار من المدائن فمرّ ببابل مهروذ، فصالحه دهقانها على أن يفرش له جريب الأرض دراهم، ففعل وصالحه، ثم مضى حتى قَدِمَ جلولاء فحاصرهم في خنادقهم وأحاط بهم وطاولهم الفرس، وجعلوا لا يخرجون [إليهم] إلّا إذا أرادوا وزاحفهم المسلمون نحو ثمانين

---

(١) جلولاء: في طريق خراسان وهو نهر عظيم يمتد إلى بعقوباء ويشقّ بين منازلها وعليه في وسطها قنطرة. وجَلُولاء: مدينة مشهورة بإفريقيا مبنية بالصخر.

(٢) سنة ١٦ من الهجرة.

يومًا كل ذلك يُنْصَر المسلمون عليهم، وجعلت الأمداد تَرِدُ من يزدجرد إلى مهران وأمدَّ سعد المسلمين، وخرجت الفرس، وقد اختلفوا فاقتتلوا؛ فأرسل الله عليهم الريح حتى أظلمت عليهم البلاد فتحاجزوا فسقط فرسانهم في الخندق فجعلوا فيه طُرُقًا مما يليهم تصعد منه خيلهم فأفسدوا حصنهم، وبلغ ذلك المسلمين فنهضوا إليهم وقاتلوهم قتالاً شديدًا لم يقتتلوا مثله إلا ليلة الهرير إلا أنه كان أعجل، وانتهى القعقاع بن عمرو من الوجه الذي زحف فيه إلى باب خندقهم، فأخذ به وأمر مناديًا فنادىٰ:

«يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق، وأخذ به فأَقْبِلُوا إليه ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله»، وإنما أمر بذلك ليقوّي المسلمين [به]، فحملوا ولا يشكُّون بأنّ هاشمًا في الخندق [فلم يقم لحملتهم شيء حتى انتهوا إلى باب الخندق]، فإذا هم بالقعقاع بن عمرو، وقد أخذ به، فانهزم المشركون عن المجال يمنة ويسرة، فهلكوا فيما أعدُّوا من الحسك، فعقرت دوابّهم وعادوا رجالة، واتّبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلّا من لا يُعَدّ، وقتل يومئذ منهم مائة ألف فجَلَّلَت القتلىٰ المجال وما بين يديه وما خلفه فسمّيت جَلولاء بما جلَّلها من قتلاهم، فهي جلولاء الوقيعة، فسار القعقاع بن عمرو في الطلب حتى بلغ خانقين.

ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حُلوان نحو الرّيّ، وقدم القعقاع حلوان فنزلها في جند من الأفناء والحمراء، وكان فتح جلولاء في ذي القعدة سنة ستّ عشرة؛ ولما سار يزدجرد عن حلوان استخلف عليها خسر سنوم، فلما وصل القعقاع قصر شيرين خرج عليه خسر سنوم وقدم إليه الزينبي دهقان حلوان فَلَقِيَه القعقاع فقتل الزينبي وهرب خسر سنوم واستولى المسلمون على حلوان، وبقي القعقاع بها إلى أن تحوَّل سعد إلى الكوفة فلحقه القعقاع واستخلف على حلوان قباذ، وكان أصله خراسانيًا، وكتبوا إلى عمر بالفتح وبنزول القعقاع حلوان واستأذنوه في اتّباعهم فأبىٰ، وقال: «لوددتُ أن بين السَّواد وبين الجبل سَدًّا لا يخلصون إلينا ولا نُخلص إليهم، حسبُنا من الرّيف السواد إني آثرتُ سلامة المسلمين على الأنفال».

وأدرك القعقاع في اتّباعه الفرس مهران بخانِقين[1] فقتله، وأدرك الفيرزان فنزل وتوغّل في الجبل فتحامَىٰ، وأصاب القعقاع سبايا فأرسلهنّ إلى هاشم فقسمهنّ فاتخذن

(١) بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد.

فولدن، وممن ينسب إلى ذلك السَّبْي أم الشعبي[١]، [وقعت لرجلٍ من بني عبس، فولدت فمات عنها فخلف شراحيل فولدت له عامرًا ونشأ في بني عبس]، وقسمت الغنيمة وأصاب كل واحد من الفوارس تسعة آلاف وتسعة من الدوابّ؛ وقيل: إن الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألف فقسَّمها سلمان بن ربيعة، وبعث سعد بالأخماس إلى عمر، وبعث الحساب مع زياد بن أبيه [وكان الذي يكتب للناس ويدوّنهم] فكلَّم عمر فيما جاء له ووصف له، فقال عمر: هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل ما كلَّمتني به؟ فقال: والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك؟ فقام في الناس بما أصابوا وما صنعوا وبما يستأنفون من الانسياح في البلاد، فقال عمر: هذا الخطيب المصقع، فقال: إن جندنا أطلقوا [بالفعل] ألسنتنا.

فلما قدم الخُمس على عمر قال: والله لا يُجِنُّه[٢] سقف [بيت] حتى أقسمه؛ فبات عبد الرحمٰن بن عوف، وعبد الله بن الأرقم يحرسانه في [صحن] المسجد، فلما أصبح جاء في الناس فكشف عنه [جلابيبه وهي الأنطاع] فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره بكى، فقال له عبد الرحمٰن بن عوف: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن هذا لموطنُ شُكْر. فقال عمر: والله ما ذلك يبكيني - وبالله ما أعطى الله هذا قومًا إلّا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلّا ألقى الله بأسهم بينهم، ومنع عمر من قسمة السواد لتعذر ذلك بسبب الآجام والغياض وتبعيض المياه، وما كان لبيوت النار ولسكك البرد، وما كان لكسرى ومن جامعه، ومَن كان لمن قتل والأرحام، وخاف أيضًا الفتنة بين المسلمين فلم يقسمه، ومنع من بيعه لأنه لم يقسم وأقروها حبيسًا يولونها من أجمعوا عليه بالرّضا، وكانوا لا يجمعون إلّا على الأمراء، فلا يحلّ بيع شيء من أرض السواد ما بين حلوان والقادسية، واشترى جرير أرضًا على شاطئ الفرات، فردَّ عمر ذلك الشراء وكرهه.

٧٥ - يوم تكريت، والموصل[٣]

وفي هذه السنة فتحت تكريت[٤] في جمادى، وسبب ذلك أن الأنطاق سار من الموصل إلى تكريت وخَنْدَق [فيه] عليه ليحمي أرضه، ومعه الروم، وإياد، وتغلب،

---

(١) الشعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد الله الشعبي الحميري أبو عمرو الكوفي من شعب همدان، قال: أدركت خمسمائة من الصحابة، وقال فيه الحسن البصري: كان والله كثير العلم عظيم العلم قديم السنّ من الإسلام بمكانة. كان من المحدثين المبرزين، ولد سنة ١٩ ومات سنة ١٠٩.

(٢) أي: لا يظله.

(٣) سنة ١٦ من الهجرة.

(٤) مدينة مشهورة بين بغداد والموصل، وكانت لها قلعة حصينة أحد جوانبها إلى دجلة.

والنمر، والشهارجة؛ فبلغ ذلك سعدًا فكتب إلى عمر فكتب إليه عمر أن سَرِّح إليه عبد الله بن المعتم واستعمل على مقدمته ربعي بن الأفكل، [وعلى ميمنته الحارث بن حسان الذهلي، وعلى ميسرته فرات بن حيان العجلي، وعلى ساقته هانئ بن قيس]، وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة، فسار عبد الله إلى تكريت ونزل على الأنطاق فحصره ومن معه أربعين يومًا فتزاحفوا أربعة وعشرين زحفًا، وكانوا أهون شوكة [وأسرع أمرًا] من أهل جلولاء، وأرسل عبد الله بن المعتم إلى العرب الذين مع الأنطاق يدعوهم إلى نصرته [على الروم] وكانوا لا يخفون عليه شيئًا، ولما رأت الروم المسلمين ظاهرين عليهم تركوا أمراءهم ونقلوا متاعهم إلى السفن، فأرسلت تغلب، وإياد، والنمر إلى عبد الله بالخبر، وسألوه الأمان وأعلموه أنهم معه؛ فأرسل إليهم: إن كنتم صادقين [بذلك] فأسْلِمُوا فأجابوه وأسلموا، فأرسل إليهم عبد الله: إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا أخذنا أبواب الخندق فخذوا الأبواب التي تلي دجلة وكبِّروا واقتلوا مَنْ قدرتم عليه.

ونهد عبد الله والمسلمون وكبّروا وكبّرت تغلب وإياد والنمر، وأخذوا الأبواب؛ فظنّ الروم أن المسلمين قد أتوهم من خلفهم مما يلي دجلة، فقصدوا الأبواب التي عليها المسلمون، وأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف الربعيين الذين أسلموا تلك الليلة، فلم يفلت من أهل الخندق إلّا من أسلم من تغلب، وإياد، والنمر؛ وأرسل عبد الله بن المعتم ربعي بن الأفكل إلى الحصنين، وهما نينوى والموصل، فسمى نينوى الحصن الشرقي، وسمّى الموصل الحصن الغربي، وقال: أسبق الخبر [وسِرْ ما دون القيل وأحيِي الليل]، وسرَّح معه تغلب، وإياد، والنمر؛ فقدَّمهم ابن الأفكل إلى الحصنين فسبقوا الخبر وأظهروا الظفر والغنيمة وبشَّروهم ووقفوا بالأبواب، وأقبل ابن الأفكل فاقتحم عليهم الحصنين وكلبوا أبوابهما فنادوا بالإجابة إلى الصلح وصاروا ذمة وقسموا الغنيمة؛ فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف درهم، وسهم الراجل ألف درهم وبعثوا بالأخماس [مع فرات بن حيان وبالفتح مع الحارث بن حسان] إلى عمر.

وولى حرب الموصل ربعي بن الأفكل، والخراج عرفجة بن هرثمة. وقيل: إنّ عمر بن الخطاب استعمل عتبة بن فرقد على قصد الموصل وفتحها سنة عشرين، فأتاها فقاتله أهل نينوىٰ فأخذ حصنها، وهو الشرقي، عنوةً وعبر دجلة فصالحه أهل الحصن الغربي وهو الموصل على الجزية؛ ثم فتح المرج، وبانهذرا، وباعذرا، وحِبْتون، وداسن، وجميع معاقل الأكراد، وقِرْدي، وبازبدي، وجميع أعمال الموصل، فصارت للمسلمين.

وقيل: إنّ عياض بن غنم لما فتح بلدًا على ما نذكره أتى الموصل ففتح أحد الحصنين، وبعث عتبة بن فرقد إلى الحصن الآخر ففتحه على الجزية والخراج، والله أعلم.

(المُعْتَمّ): بضم الميم وسكون العين المهملة وآخره ميم مشدّدة.

٧٦ ـ يوم ماسَبَذَان[١]

ولما رجع هاشم من جَلُولاء إلى المدائن بلغ سعدًا أنّ آذين بن الهرمزان قد جمع جمعًا وخرج بهم إلى السهل، [فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر: ابعث إليهم ضرار بن الخطاب في جُنْدٍ، واجعل على مَقْدُمته ابن الهذيل الأسديّ، وعلى مجنبتيه عبد الله بن وهب الراسبي، والمضارب بن فلان العجليّ]؛ فأرسل إليهم ضرار بن الخطاب[٢] في جيش، فالتقوا بسهل ماسبذان فاقتتلوا، فأسرع المسلمون في المشركين، وأخذ ضرار آذين أسيرًا فضرب رقبته، ثم خرج في الطلب حتى انتهى إلى السيروان فأخذ ماسبذان عنوةً، فهرب أهلها في الجبال فدعاهم فاستجابوا له وأقام بها حتى تحوّل سعد إلى الكوفة، فأرسل إليه فنزل الكوفة، واستخلف على ماسبذان ابن الهذيل الأسدي، فكانت أحد فروج الكوفة؛ وقيل: إن فتحها كان بعد وقعة نهاوند.

٧٧ ـ يوم قرقيسيا

ولما رجع هاشم [بن عتبة] من جَلُولاء إلى المدائن، وقد اجتمعت جُمُوع أهل الجزيرة فأمدُّوا هِرَقل على أهل حمص، وبعثوا جُندًا إلى أهل هِيت [وكتب بذلك سعد إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن أبعث إليهم عمر بن مالك في جند، وعلى مقدمته الحارث، وعلى مجنبتيه ربعي بن عامر، ومالك بن حبيب].

فأرسل سعد عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف في جندٍ، وجعل على مقدمته الحارث بن يزيد العامريّ، فخرج عمر بن مالك في جنده نحو هِيت،

---

(١) هي مدن عدة أصله ماه سبذان منها أريوجان يخرج ماؤها إلى البندنيجين، ومن هذه المدينة إلى الروذ عشرة فراسخ.

(٢) هو ضرار بن الخطاب بن مرداس بن كثير بن عمرو القرشي الفهري، كان من فرسان قريش وشعراءهم المطبوعين المجودين، وهو أحد الأربعة الذين وثبوا الخندق، وكان من مسلمة الفتح. (انظر: أسد الغابة ٣/٥٣ ـ ٥٤).

فنازل مَن بها وقد خندقوا عليهم، فلما رأى عمر بن مالك اعتصامهم بخندقهم ترك الأخبية على حالها وخلف عليهم الحارث بن يزيد يحاصرهم، وخرج في نصف الناس فجاء قرقيسيا على غرّة فأخذها عنوةً فأجابوا إلى الجزية، وكتب إلى الحارث بن يزيد: إنْ هُم استجابوا فَخَلِّ عنهم فليخرجوا وإلّا فخندِقْ على خندقهم خندقًا أبوابه مما يليك حتى أرى رأيي، فراسلهم الحارث فأجابوا إلى العَوْد إلى بلادهم فتركهم، وسار الحارث إلى عمر بن مالك.

٧٨ ـ يوم الأهواز ومناذر ونهر تيري[١]

وفي هذه السنة فُتِحت الأهواز، ومناذر، ونهر تيري، وقيل: سنة عشرين؛ وكان السبب في هذا الفتح أنّه لما انهزم الهرمزان يوم القادسية، وهو أحد البيوتات السبعة في أهل فارس، وكانت أمته منهم مهرجان قذق، وكور الأهواز، فلما انهزم قصد خوزستان فملكها، وقاتل بها مَنْ أرادهم، فكان الهرمزان يغير على أهل ميسان، ودستميسان من [وجهين من] مناذر، ونهر تيري.

فاستمدّ عتبة بن غزوان سعدًا فأمدَّه بنعيم بن مقرن، ونعيم بن مسعود، وأمرهما أنْ يأتيا على ميسان، ودستميسان حتى يكونا بينهم وبين نهر تيري، ووجَّه عتبة بن غزوان سلمى بن القين، وحرملة بن مريطة وكانا من المهاجرين مع رسول الله ﷺ، وهما من بني العدويّة من بني حنظلة، فنزلا على حدود [أرض] ميسان، ودستميسان بينهم وبين مناذر، ودعوا بني العمّ فخرجوا إليهم غالب الوائلي، وكُلَيْب بن وائل الكليبي، فتركا نعيمًا وأتيا سلمى وحرملة، وقالا: أنتما من العشيرة، وليس لكما مترك فإذا كان يوم كذا وكذا، فانهدوا للهرمزان فإنّ أحدنا يثور بمناذر، والآخر بنهر تيري فنقتل المقاتلة، ثم يكون وجهنا إليكم، فليس دون الهرمزان شيءٌ إنْ شاء الله، ورجعا وقد استجابا واستجاب قومهما بنو العم بن مالك، وكانوا ينزلون خوزستان قبل الإسلام فأهل البلاد يأمنونهم.

فلما كان تلك الليلة ليلة الموعد بين سلمى، وحرملة، وغالب، وكليب، وكان الهرمزان يومئذ بين نهر تيري، وبين دُلُث، وخرج سلمى وحرملة صبيحتهما في تعبية وأنهضا نعيمًا ومن معه، فالتقوا هم والهرمزان بين دُلُث ونهر تيري، وسلمى بن القين

(١) سنة ١٧ من الهجرة.

على أهل البصرة، ونعيم بن مُقَرن على أهل الكوفة، فاقتتلوا فبينا هم على ذلك أقبل مدد من قبل غالب وكُلَيْب.

وأتى الهرمزان الخبر بأنّ مناذر ونهر تيري قد أُخذتا، فكسر ذلك قلب الهرمزان ومَنْ معه، وهزمه الله وإيَّاهم، فقتل المسلمون منهم ما شاؤوا وأصابوا ما شاؤوا واتّبعوهم حتى وقفوا على شاطئ دُجَيْل وأخذوا ما دونه، وعسكروا بحيال سوق الأهواز، وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وأقام [بها]، وصار دُجَيْل بين الهرمزان والمسلمين، فلما رأى الهرمزان ما لا طاقة به طلب الصلح فاستأمروا عتبة فأجاب إلى ذلك على الأهواز لها، ومهرجان قذق ما خلا نهر تيري ومناذر وما غلبوا عليه من سوق الأهواز فإنه لا يُرَدُّ عليهم، وجعل سلمى على مناذر مسلحة وأمرها إلى غالب، وحرملة على نهر تيري وأمرها إلى كُلَيْب، فكانا على مسالح البصرة، وهاجرت طوائف من بني العمّ فنزلوا البصرة [وجعلوا يتتابعون على ذلك] ووفد عتبة وفدًا إلى عمر منهم سلمى وجماعة من أهل البصرة فأمرهم عمر أن يرفعوا حوائجهم، فكلُّهم قال: أمّا العامّة فأنت صاحبها وطلبوا لأنفسهم [إلّا ما كان من] الأحنف بن قيس فإنّه قال: يا أمير المؤمنين إنك كما ذكروا ولقد يعزب عنك ما يحقّ علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامّة، وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعْيُن أهل الخبر، ويسمع بآذانهم فإنّ إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب، والجنان الخصاب، فتأتيهم ثمارهم ولم يحصدوا، وإنا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشاشة، وعقة نشاشة[1] طرفٌ لها في الفلاة، وطرفٌ لها في البحر الأُجاج، يجري إليها ما جرى في مثل مريء النعامة دارنا فعمة، وطبقتنا مضيقة، وعددنا كثير، وأشرافنا قليل، وأهل البلاء فينا كثير، درهمنا كبير، وقفيزنا صغير، وقد وسَّع الله علينا وزادنا في أرضنا فوسِّع علينا يا أمير المؤمنين وزِدْنا طبقة تطوف علينا ونعيش بها.

فلمّا سمع عمر قوله أحسن إليهم وأقطعهم مما كان فيئًا لأهل كسرىٰ وزادهم، ثم قال: «هذا الفتى سيّد أهل البصرة»، وكتب إلى عتبة فيه بأنْ يسمع منه ويرجع إلى رأيه، وردَّهم إلى بلدهم.

---

(١) الأرض السبخة ذات ملح ونزّ والهشاشة الرخوة الليّنة؟ وعقة نشاشة أي أرض ذات شقوق يظهر فيها ماء السباخ فينش فيها حتى يعود ملحًا.

وبينا الناس على ذلك من ذمّتهم مع الهرمزان، وقع بين الهرمزان وغالب وكُلَيب في حدود الأرضين اختلاف، فحضر [ذلك] سلمى وحرملة لينظرا فيما بينهم فوجدا غالبًا وكُلَيْبًا محقّين والهرمزان مبطلًا، فحالًا بينهما وبينه، فكفر الهرمزان ومنع ما قِبَله واستعان بالأكراد فكثف جنده، وكتب سلمى ومن معه إلى عتبة بذلك، فكتب عتبة إلى عمر، فكتب إليه عمر يأمره بقصده، وأمدَّ المسلمين بحرقوص بن زهير السعديّ، وكانت له صحبة مع رسول الله ﷺ، وأمَّره على القتال، وعلى ما غلب عليه، وسار الهرمزان ومن معه، وسار المسلمون إلى جسر سوق الأهواز وأرسلوا إليه إمّا أن تعبر إلينا أو نعبر إليكم؟ فقال: اْعبروا إلينا؛ فعبروا فوق الجسر فاقتتلوا مما يلي سوق الأهواز، فاْنهزم الهرمزان وسار إلى رامهرُمُز، وفتح حرقوص سوق الأهواز ونزل بها، واتّسعت له بلادها إلى تُسْتَر ووضع الجزية، وكتب بالفتح إلى عمر وأرسل إليه الأخماس.

٧٩ ـ يوم رامهرمز وتُسْتَر وأسر الهرمزان

قيل: كان فتح رامهرمز وتُسْتَر والسوس في سنة سبع عشرة، وقيل: سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين، وكان سبب فتحها أنّ يزدجرد لم يزل وهو بمرو يثير أهل فارس أسفًا على ما خرج من ملكهم، فتحرَّكوا وتكاتبوا هم وأهل الأهواز وتعاقدوا على النُّصْرَة، فجاءت الأخبار حرقوص بن زهير وجزءًا، وسلمى، وحرملة؛ فكتبوا إلى عمر بالخبر، فكتب عمر إلى سعد: أن اْبعث إلى الأهواز جُندًا كثيفًا مع النعمان بن مُقَرِّن وعَجِّلْ.

فلينزلوا بإزاء الهرمزان ويتحقّقوا أمره، وكتب إلى أبي موسى: أن اْبعث إلى الأهواز جُنْدًا كثيفًا وأمِّر عليهم سهل بن عدي أخا سهيل، واْبعث معه البَرَاء بن مالك، ومجزأة بن ثور، وعرفجة بن هرثمة وغيرهم. وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعًا أبو سبرة بن أبي رُهْم، [وكل من أتاه ممدٌّ له]، فخرج النعمان بن مُقَرِّن في أهل الكوفة، فسار إلى الأهواز على البغال يجنبون الخيل فخلف حرقوصًا وسلمى، وحرملة، وسار نحو الهرمزان وهو برامهرمز، فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره بالشدّة ورجا أن يقتطعه ومعه أهل فارس، فالتقى النعمان والهرمزان بَاربك، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ هزم الهرمزان فترك رامهرمز ولحق بتُسْتَر، وسار النعمان إلى رامهرمز ونزلها وصعد إلى إيذج[1]، فصالحه تيرويه على إيذج

---

(١) كورة وبلد بين خوزستان وأصفهان.

ورجع إلى رامهرمز فأقام بها، ووصل أهل البصرة فنزلوا سوق الأهواز وهم يريدون رامهرمز فأتاهم خبر الوقعة وهم بسوق الأهواز، وأتاهم الخبر أنّ الهرمزان قد لحق بتستر فساروا نحوه، وسار النعمان أيضًا، وسار حرقوص، وسلمى، وحرملة، وجزء؛ فاْجتمعوا على تُسْتَر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس، والجبال، والأهواز في الخنادق، وأمدَّهم عمر بأبي موسى، وجعله علىٰ أهل البصرة، وعلى الجميع أبو سَبْرة فحاصروهم أشهرًا وأكثروا فيهم القتل وقتل البَرَاء بن مالك وهو أخو أنس بن مالك في ذلك الحصار إلى الفتح مائة مبارزة سوى مَنْ قُتِلَ في غير ذلك، وقتل مثله مجزأة بن ثور، وكعب بن ثور، وعِدَّة من أهل البصرة وأهل الكوفة.

وزاحفهم المشركون أيام تُسْتَر ثمانين زحفًا يكون لهم مرّة ومرّة عليهم، فلما كان في آخر زحفٍ منها واشتدّ القتال، قال المسلمون: يا براء أقسم على ربِّك ليهزمنّهم [لنا]، قال: «اللّهمّ أهزمهم لنا واستشهدني» ـ وكان مُجاب الدعوة، فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم ثم اقتحموها عليهم، ثم دخلوا مدينتهم، وأحاط بها المسلمون، فبينما هم على ذلك وقد ضاقت المدينة بهم وطالت حربهم خرج رجلٌ إلى النعمان يستأمنه على أنْ يدُلَّه على مدخل يدخلون منه، ورمى في ناحية أبي موسى بسهم: إن أمنتموني دللتكم على مكان تأتون المدينة منه، فأمّنوه في نشابة فرمى إليهم بأخرى، وقال: أنهدوا مِنْ قِبَل مخرج الماء فإنّكم تقتحمونها.

فندب الناس إليه، فانتدب له عامر بن عبد قيس وبشر كثير ونهدوا لذلك المكان ليلاً، وقد ندب النعمان أصحابه ليسيروا مع الرجل الذي يدلّهم على المدخل إلى المدينة، فانتدب له بشر كثير فالتقوا هم وأهل البصرة على ذلك المخرج، فدخلوا في السرب والناس من خارج، فلما دخلوا المدينة كبّروا فيها وكبّر المسلمون من خارج وفُتِحَت الأبواب فاْجتلدوا فيها فأناموا كل مقاتل، وقصد الهرمزان القلعة فتحصّن بها وأطاف به الذين دخلوا فنزل إليهم على حُكْم عمر فأوثقوه واْقتسموا ما أفاء الله عليهم، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف، وسهم الراجل ألفًا، وجاء صاحب الرمية والرجل الذي خرج بنفسه فأمّنوهما ومَنْ أغلق بابه معهما.

وقُتِلَ من المسلمين تلك الليلة بشرٌ كثير، وممن قتل الهرمزان بنفسه مجزأة بن ثور، والبَرَاء بن مالك، وخرج أبو سَبْرة بنفسه في أثر المنهزمين إلى السوس ونزل عليها ومعه النعمان بن مُقَرِّن، وأبو موسى، وكتبوا إلى عمر، فكتب إلى أبي موسى بردِّه إلى البصرة وهي المرة الثالثة، فأنصرف إليها من على السوس، وسار زر بن

عبد الله بن كُلَيْب الفقيمي إلى جُنْدَ يسَابور[١]، فنزل عليها وهو من الصحابة، وأمّر عمر على جند البصرة المقترب وهو الأسود بن ربيعة أحد بني ربيعة بن مالك وهو صحابي أيضًا وكانا مهاجرين، وكان الأسود قد وَفَدَ على رسول الله ﷺ، وقال: «جئتُ لأقترب إلى الله بصحبتك»، فسمّاه المقترب.

وأرسل أبو سَبْرة وَفْدًا إلى عمر بن الخطاب فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس، ومعهم الهرمزان، فقدموا به المدينة وألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب وتاجه وكان مكلّلاً بالياقوت وحليته ليراه عمر والمسلمون، فطلبوا عمر فلم يجدوه فسألوا عنه فقيل: جلس في المسجد لوفدٍ من الكوفة، فوجدوه في المسجد متوسّدًا برنسه[٢]، وكان قد لَبِسه للوفد، فلما قاموا عنه توسَّده، ونام فجلسوا دونه، وهو نائم والدّرة في يده، فقال الهرمزان: أين عمر؟ قالوا: هوذا. فقال: أين حرسه وحُجّابه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب، قال: فينبغي أن يكون نبيًا. قالوا: بل يعمل بعمل الأنبياء، فاستيقظ عمر بجلبة الناس فأستوى جالسًا، ثم نظر إلى الهرمزان فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم، [فتأمّله وتأمّل ما عليه، وقال: أعوذ بالله من النار وأستعين الله]، فقال: الحمد لله الذي أذلّ بالإسلام هذا وغيره وأشباهه؛ فأمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوبًا صفيقًا، فقال له عمر: [هيه] يا هرمزان كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله؟ فقال: يا عمر إنّا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلّى بيننا وبينكم فغلبناكم [إذ لم يكن معنا ولا معكم]، فلما كان الآن معكم غلبتمونا. [فقال عمر: إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرُّقنا].

ثم قال له: ما حجّتك وما عذرك في أنتقاضك مرّة بعد أخرى؟ فقال: أخاف أنْ تقتلني قبل أن أخبرك، قال: لا تخف ذلك، واستسقىٰ ماءً فأُتِيَ به في قدح غليظ، فقال: لو مِتُّ عطشًا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا، فأُتِيَ به في إناء يرضاه [فجعلت يده ترجف]، فقال: إني أخاف أن أُقتل وأنا أشرب، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه فقال عمر: أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش، فقال: لا حاجة لي في الماء إنما أردتُ أنْ أستأمن به، فقال عمر له: إني قاتلك، فقال: قد أمّنتني، فقال: كذبت، قال أنس: صَدَقَ يا أمير المؤمنين قد أمّنته، قال عمر: [ويحك] يا أنس أنا أؤمّن قاتل مجزأة بن ثور والبَرَاء بن مالك والله لتأتينّ بمخرج أو لأعاقبنّك، قال: قلت له: لا بأس عليك حتى تخبرني ولا بأس عليك

(١) مدينة بخوزستان.

(٢) هو كل ثوب رأسه منه ملتزق به.

حتى تشربه، وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال: خدعتني والله لا أنخدع إلّا أن تُسْلم فأسلم، ففرض له في ألفين وأنزله المدينة، وكان المترجم بينهما المغيرة بن شعبة، وكان يفقه بالفارسية إلى أن جاء المترجم.

وقال عمر للوفد: لعلّ المسلمين يؤذون أهل الذمّة فلهذا ينتقضون بكم، قالوا: ما نعلم إلّا وفاء. قال: فكيف هذا؟ فلم يشفه أحد منهم إلّا أنّ الأحنف قال له: يا أمير المؤمنين إنّك نهيتنا عن الانسياح في البلاد [وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا] وإنّ مَلِك فارس [حَيٌّ] بين أظهرهم ولا يزالون يقاتلوننا ما دام مَلِكُهُمْ فيهم، ولم يجتمع ملكان متّفقان حتى يُخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أنّا لم نأخذ شيئًا بعد شيء إلّا بانبعاثهم وغَدْرهم، وإن مَلِكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح فنسيح في بلادهم ونُزِيل ملكهم، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربوا [جاشا]، فقال: صدقتني والله. ونظر في حوائجهم وسرَّحهم، وأتىٰ عمر الكتاب بأجتماع أهل نهاوند، فأذن في الانسياح في بلاد فارس، وقُتِل محمد بن جعفر بن أبي طالب شهيدًا على تُسْتَر في قول بعضهم: (أربك) بفتح الهمزة وسكون الراء وضمّ الباء الموحدة، وفي آخره كاف موضع عند الأهواز.

٨٠ ـ يوم السُّوس(١)

قيل: ولما نزل أبو سَبْرة على السوس وبها شهريار أخو الهرمزان أحاط المسلمون بها وناوشوهم القتال مرّات كل ذلك يصيب أهل السوس في المسلمين، فأشرف عليهم [يومًا] الرُّهبان والقسّيسون فقالوا: «يا معشر العرب إنّ مما عَهَد إلينا علماؤنا [وأوائلنا] أنّه لا يفتح السوس إلّا الدجّال أو قَوْمٌ فيهم الدجال، فإنْ كان فيكم فستفتحونها».

وسار أبو موسى إلى البصرة من السوس وصار مكانه على أهل البصرة بالسوس المقترب بن ربيعة، واجتمع الأعاجم بنهاوند، والنعمان على أهل الكوفة محاصرًا أهل السوس مع أبي سَبْرة، وزرّ محاصر أهل جند يسابور، فجاء كتاب عمر بصرف النعمان إلى أهل نهاوند من وجهه ذلك، فناوشهم القتال قبل مسيره فصاح أهلها بالمسلمين وناوشوهم وغاظوهم، وكان صاف بن صياد مع المسلمين في خيل

(١) سنة ١٧ من الهجرة، والسوس بلدة بخوزستان.

النعمان، فأتىٰ صاف باب السوس فدقّه برجله فقال: أنفتح بظار وهو غضبان فتقطّعت السلاسل وتكسّرت الأغلاق، وتفتّحت الأبواب ودخل المسلمون، وألقىٰ المشركون بأيديهم، ونادوا: الصُّلح الصُّلح، فأجابهم إلى ذلك المسلمون بعد ما دخلوها عنوةً واقتسموا ما أصابوا [قبل الصلح]، ثم افترقوا، فسار النعمان حتى أتىٰ نهاوند، وسار المقترب حتى نزل على جند يسابور مع زرّ.

وقيل لأبي سَبْرة: هذا جسد «دانيال» في هذه المدينة، قال: وما علمي بذلك؟ فأقرَّه في أيديهم، وكان دانيال قد لزم نواحي فارس بعد بختنصّر فلما حضرته الوفاة ولم يرَ أحدًا [ممن هو بين ظهريهم] على الإسلام أكرم كتاب الله عمّن لم يجبه [ولم يقبل منه فأودعه ربَّه]، فقال لابنه: ائْتِ ساحل البحر فاْقذف بهذا الكتاب فيه فأخذه الغلام [وضنّ به] وغاب عنه وعاد، وقال له: قد فعلتُ، قال: ما صنع البحر [حين هوى فيه]؟ قال: ما صنع شيئًا، فغضب وقال: والله ما فعلتَ الذي أمرتُك به، فخرج من عنده وفعل [مثل] فعلته الأولىٰ [ثم أتاه]، فقال: كيف رأيتَ البحر صنع [حين هوىٰ فيه]؟ قال: ماج واصطفق فغضب أشدّ من الأول، وقال: والله ما فعلت الذي أمرتُك به، فعاد إلى البحر وألقاه فيه فانفلق البحر عن الأرض [حتى بدت] وانفجرت له الأرض عن مثل التنّور فهوىٰ فيها، ثم انطبقت عليه واختلط الماء، فلما رجع إليه وأخبره بما رأى فقال: الآن صدقت. ومات دانيال بالسوس، وكان هناك يستسقىٰ بجسده، فاستأذنوا عمر فيه فأمر بدفنه.

وقيل في أمر السوس: أنّ يزدجرد سار بعد وقعة جَلُولَاء، فنزل اصطخر ومعه سياه في سبعين من عظماء الفرس، فوجّهه إلى السوس والهرمزان إلى تستر فنزل سياه الكَلْتَانِيّة وبلغ أهل السوس أمر جَلُولَاء ونزول يزدجرد إصطخر [منهزمًا]، فسألوا أبا موسى الصلح وكان محاصرًا لهم فصالحهم، وسار إلى رامهرمز، ثم سار إلى تُسْتَر ونزل سياه بين رامهرمز وتُسْتَر، ودعا مَنْ معه مِنْ عظماء الفرس، وقال لهم: قد علمتم أنّا كنا نتحدَّث أن هؤلاء القوم [أهل الشقاء والبؤس] سيُغلبون على هذه المملكة، وتروث دوابّهم في إيوانات إصطخر [ومصانع الملوك] ويشدُّون خيولهم في شجرها وقد غلبوا على ما رأيتم [وليس يلقون جندًا إلّا فَلّوه، ولا ينزلون بحصن إلّا فتحوه]، فانظروا لأنفسكم؛ قالوا: رأينا رأيك.

قال: أرىٰ أنْ تدخلوا في دينهم، ووجّهوا شيرويه في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى، فشرط عليهم أن يقاتلوا معه العَجَم ولا يقاتلوا العرب وإنْ قاتلهم أحدٌ من

العرب مَنَعَهم منهم، وينزلوا حيث شاؤوا، ويلحقوا بأشرف العطاء ويعقد لهم ذلك عمر على أنْ يُسْلِموا، فأعطاهم عمر ما سألوا، فأسلموا وشهدوا مع المسلمين حصار تُسْتَر، ومضىٰ سياه إلى حصن قد حاصره المسلمون في زِيِّ العجم فألقى نفسه إلى جانب الحصن ونضح ثيابه بالدم، فرآه أهل الحصن صريعًا فظنّوه رجلًا منهم ففتحوا باب الحصن ليُدْخلوا إليهم، فوثب وقاتلهم حتى خلّوا عن الحصن، وهربوا فملكه وحده، وقيل: إنّ هذا الفعل كان منه بتُسْتَر.

٨١ ـ يوم فتح مصر(١)

قيل: فُتِحَت الاسكندرية سنة خمس وعشرين، وقيل: فُتحت مصر سنة ست عشرة في ربيع الأول، وبالجملة فينبغي أنْ يكون فتحها قبل عام الرُّمادة؛ لأن عَمْر بن العاص حمل الطعام في بحر القلزم من مصر إلى المدينة، والله أعلم، وقيل غير ذلك.

وأمّا فتحها فإنّه لما فتح عمر بيت المقدس وأقام به أيامًا وأمضىٰ عمرو بن العاص إلى مصر وأتبعه الزبير بن العوَّام [مددًا له]، فأخذ المسلمون بابليون(٢) وساروا إلى مصر، فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر، ومعه الأسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم، فلما نزل بهم عمرو قاتلوه فأرسل إليهم: لا تعجلونا حتى نعذر إليكم [وترون رأيكم بعد]، وليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام، فكفّوا وخرجا إليه فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية، وأخبرهما بوصيّة النبيّ ﷺ بأهل مصر بسبب هاجر أُمّ إسماعيل عليه السلام، فقالوا: قرابةٌ بعيدة لا يصلُ مثلَها إلّا الأنبياء، آمِنّا حتى نرجع إليك.

فقال عمرو: مثلي لا يُخْدَع، ولكنني أؤجلكما ثلاثًا لتنظرا، فقالا: زدنا فزادهم يومًا، فرجعا إلى المقوقس [فهمَّ] فأبىٰ أرطبون أنْ يجيبهما وأمر بمناهدتهم، فقال لأهل مصر: أمّا نحن فسنجهد أنْ ندفع عنكم [ولا نرجع إليهم]، فلم يَفْجأ عَمْرًا إلّا البيات وهو على عدة فلقوه فقتل أرطبون وكثير ممن معه وانهزم الباقون.

وسار عمرو والزبير إلى عين الشمس وبها جمعهم وبعث إلى فَرَمَا(٣) أبرهة بن الصباح [فنزل عليها]، وبعث عوف بن مالك إلى الاسكندرية فنزل عليها، وقيل: وكان الاسكندر وفرما أخوين.

---

(١) سنة ٢٠ من الهجرة.

(٢) بابليون: هو اسم لموضع الفسطاط، قيل معناه الفرقة الطيّبة.

(٣) هي بين العريش والفسطاط.

ونزل عمرو بعين الشمس، فقال أهل مصر لملكهم: ما تريد إلّا قتال قوم هزموا كسرىٰ وقيصر وغلبوهم على بلادهم؟ فلا تعرض لهم ولا تعرِّضْنَا، وذلك في اليوم الرابع.

[فأبى]، وناهدوهم، وقاتلوهم، فلما ٱلتقىٰ المسلمون والمقوقس بعين الشمس وٱقتتلوا جالَ المسلمون فذمرهم عمرو، فقال له رجل من اليمن: إنّا لم نخلق من [حجارة ولا] حديد، فقال له عمرو: ٱسكت إنما أنت كلب، قال: فأنت أميرُ الكلاب.

فنادى عمرو بأصحاب النبيّ ﷺ فأجابوه، فقال: تقدَّموا فبكم ينصر الله [المسلمين]، فتقدَّموا، وفيهم أبو بردة، وأبو برزة وتبعهم الناس وفتح الله على المسلمين وظفروا وهزموا المشركين، فأرتقىٰ الزبير بن العوام سورها، فلما أحسّوه فتحوا الباب لعمرو وخرجوا إليه مصالحين، فَقَبِلَ منهم.

ونزل الزبير عليهم عنوةً حتى خرج على عمرو من الباب معهم فعقدوا صلحًا بعدما أشرفوا على الهلكة، فأجروا ما أخذوا عنوةً مجرىٰ الصلح فصاروا ذمّة، وأجروا مَنْ دخل في صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر ومن اختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه.

واجتمعت خيول المسلمين بمصر وبنوا الفسطاط ونزلوه.

وجاء أبو مريم وأبو مريام إلى عمرو وطلبا منه السبايا التي أصيبت بعد المعركة فطردهما، فقالا: كل شيء أصبتموه منذ فارقناكم إلى أنْ رجعنا إليكم ففي ذمّة.

فقال عمرو لهما: أتُغِيرون علينا وتكونون في ذمة؟ قالا: نعم.

فقسم عمرو بن العاص السبيَ على الناس، وتفرَّق في بلدان العرب، وبعث بالأخماس إلى عمر بن الخطاب ومعها وفد، فأخبروا عمر بن الخطاب بحالهم كلّه وبما قال أبو مريم فردَّ عمر عليهم سبي مَنْ لم يقاتلهم في تلك الأيام الأربعة، وترك سَبْي من قاتلهم فردُّوهم.

وحضرت القبط باب عمرو وبلغ عَمْرًا أنهم يقولون: ما أرثّ العرب [وأهون عليهم أنفسهم] ما رأينا مثلنا دان لهم؟ فخاف أن يطمعهم ذلك فأمر بجُزُر [فذبحت] فطبخت [بالماء والملح]، ودعا أُمراء الأجناد فأعلموا أصحابهم فحضروا عنده وأكلوا

أكلاً عربيًا ابتشكوا[١] وحشواوهم في العباء بغير سلاح فازداد طمعهم، وأمر المسلمين أنْ يحضروا الغد في ثياب [أهل] مصر وأحذيتهم، ففعلوا وأذن لأهل مصر فرأوا شيئًا غير ما رأوا بالأمس وقام عليهم القوّام بألوان مصر فأكلوا أكل أهل مصر [ونحوا نحوهم] فارتاب القبط، وبعث أيضًا إلى المسلمين تسلّحوا للعرض غدًا، وأذن لهم فعرضهم عليهم، وقال لهم: علمتُ حالكم حين رأيتم اقتصادَ العرب فخشيتُ أنْ تهلكوا فأحببتُ أنْ أُريكم حالهم في أرضهم كيف كانت، ثم حالهم في أرضكم، ثم حالهم في الحرب، فقد رأيتم ظفرهم بكم وذلك عيشهم وقد كَلِبوا على بلادكم بما نالوا في اليوم الثاني[٢]، فأردتُ أن تعلموا أنّ ما رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني وراجعٌ إلى عيش اليوم الأوّل.

فتفرّقوا وهم يقولون: لقد رَمَتْكم العرب برجلهم.

وبلغ عمر ذلك، فقال: «والله إنّ حربه لمنية، ما لها سطوة ولا سورة كسورات الحروب من غيره».

ثم إنّ عمرًا سار إلى الاسكندرية، وكان مَنْ بين الإسكندرية والفسطاط من الروم والقبط قد تجمّعوا له، وقالوا: نغزوه قبل أنْ يغزونا ويروم الإسكندرية، فالتقوا واقتتلوا فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وسار حتى بلغ الإسكندرية، فوجد أهلها معدِّين لقتاله، فأرسل المقوقس إلى عمرو يسأله الهدنة إلى مدّة فلم يجبه إلى ذلك، وقال: «لقد لقينا ملككم الأكبر هِرَقل، فكان منه ما بلغكم».

فقال المقوقس لأصحابه: صَدَقَ، فنحن أولىٰ بالإذعان، فأغلظوا له في القول، وامتنعوا، فقاتلهم المسلمون وحصروهم ثلاثة أشهر، وفتحها عَمْرو عنوةً، وغَنِم ما فيها وجعلهم ذمّة.

وقيل: إنّ المقوقس صالح عَمْرًا على اثني عشر ألف دينار على أن يخرج من الإسكندرية من أراد الخروج ويقيم من أراد القيام، وجعل فيها عَمْرو جندًا.

ولما فُتِحَت مصر غزوا النوبة، فرجع المسلمون بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم فسموهم «رماة الحدق»، فلما ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر أيام عثمان [بن عفان] صالحهم على هدية عدة رؤوس [يؤدّونها إلى المسلمين] في

---

(١) أي: أسرعوا.

(٢) عبارة الطبري: وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني.

كل سنة، ويهدي إليهم المسلمون كل سنة طعامًا مسمى وكسوة، وأمضى ذلك الصلح عثمان ومَنْ بعده من وُلاة الأمور.

وقيل: إن المسلمين لما انتهوا إلى بلهيب، وقد بلغت سباياهم إلى اليمن أرسل صاحبهم إلى عمرو: «إنّني كنتُ أُخرج الجزية إلى من هو أبغض إليَّ منكم فارس والروم، فإنْ أحببت الجزية على أنْ تردَّ ما سبيتم من أرضي فعلت». فكتب عَمرو إلى عُمر يستأذنه في ذلك، ورفعوا الحرب إلى أنْ يَردَ كتاب عمر، فورد الجواب من عمر: «لعمري جزية قائمة [تكون لنا ولمن بعدنا] أحبُّ إلينا من غنيمة تقسّم ثم كأنها لم تكن. وأما السَّبْي، فإنْ أعطاك ملكهم الجزية على أن تخيّروا من في أيديكم منهم بين الإسلام ودين قومه، فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين، ومن اختار دين قومه فضع عليه الجزية، وأمّا من تفرّق في البلدان فإنّا لا نقدر على ردِّهم فافعل».

فعرض عمرو ذلك على صاحب الإسكندرية فأجاب إليه، فجمعوا السّبي، واجتمعت النصارى وخيّروهم واحدًا واحدًا فمن اختار المسلمين كبّروا، ومن اختار النصارى جزعوا عليه، وسار عليه جزية حتى فرغوا.

وكان من السّبي أبو مريم عبد الله بن عبد الرحمٰن فاختار الإسلام، وصار عريف زبيد، وكان ملوك بني أُمية يقولون: إن مصر دخلت عنوةً وأهلها عبيدنا نزيد عليهم كيف شئنا، ولم يكن كذلك.

٨٢ ـ يوم نهاوند(١)

كان الذي هيَّج أمر نهاوند(٢) أنّ المسلمين لما خلصوا جند العلاء من بلاد فارس وفتحوا الأهواز كاتبت الفرس ملكهم وهو بمرو فحرَّكوه، وكاتب الملوك من بين الباب، والسند، وخراسان، وحلوان، فتحرَّكوا وتكاتبوا واجتمعوا إلى نهاوند، ولما وصلها أوائلهم بلغ سعدًا الخبر، فكتب إلى عمر [بذلك] وثار بسعد قوم سعوا به وألَّبُوا عليه ولم يشغلهم ما نزل بالناس، وكان ممن تحرك في أمره الجراح بن سنان الأسدي في نفر، فقال لهم عمر: والله ما يمنعني ما نزل بكم من النظر فيما لديكم.

---

(١) سنة ٢١ من الهجرة.

(٢) نَهَاوَنْد: مدينة عظيمة في همذان ببلاد فارس، وهي أقدم مدينة في الجبل، وكان في وسطها حصن عجيب البناء.

فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للفرس، وكان محمد صاحب العمال يقتصّ آثار من شكى زمان عمر، فطاف بسعد على أهل الكوفة يسأل عنه، فممّا سأل عنه جماعةً إلّا أثْنَوْا عليه خَيْرًا سوى مَنْ مالأ الجراح الأسدي فإنهم سكتوا ولم يقولوا سوءًا ولا يسوغ لهم [ويتعمّدون ترك الثناء]، حتى انتهى إلى بني عبس فسألهم فقال أُسامة بن قتادة: «اللّهمّ إنّه لا يقسِّم بالسوية، ولا يعدل في القضية، ولا يغزو في السرية».

فقال سعد: «اللّهمّ إنْ كان قالها رياءً وكذبًا وسُمْعةً فأعم بصره وأكثر عياله، وعرّضه لمضلّات الفتن»، فعمي، واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بالمرأة فيأتيها حتى يجسُّها فإذا عثر عليه قال: دعوةُ سعد الرجل المبارك.

ثم دعا سعد على أولٰئك النفر فقال: «اللّهمّ إن كانوا خرجوا أشرًا وبطرًا ورياءً فأجهد بلادهم فجهدوا، وقُطِّع الجراح بالسيوف يوم بادر الحسن بن عليّ عليه السلام ليغتاله بساباط، وشُدخ قبيصة بالحجارة، وقُتل أربد بالوج، وبنعال السيوف»[1].

وقال سعد: «إنّي أول رجل أهراق دمًا من المشركين، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه وما جمعهما لأحدٍ قبلي، ولقد رأيتني خمس الإسلام وبنو أسد تزعم أنّي لا أحسن أُصلي، وأنّ الصيد يلهيني»!.

وخرج محمد بسعد وبهم معه إلى المدينة، فقَدِموا على عمر فأخبروه الخبر، فقال: كيف تصلّي يا سعد؟

قال: أُطيل الأوليين وأحذف الآخريين، فقال: هكذا الظنّ بك يا أبا أسحاق ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا. وقال: من خليفتك يا سعد على الكوفة؟

فقال: عبد الله بن عبد الله بن عتبان، فأقرّه فكان سبب نهاوند وبعثها زمن سعد.

وأمّا الوقعة فهي زمن عبد الله فنفرت الأعاجم بكتاب يزدجرد، فاْجتمعوا بنهاوند على الفيرزان في خمسين ألفًا ومائة ألف مقاتل، وكان سعد كتب إلى عُمر بالخبر ثم شافهه به لما قَدِم عليه، وقال له: «إنّ أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح وأن يبدؤوهم بالشدّة ليكون أهيب لهم على عدوّهم».

---

(١) يقال: وجأهُ بالسكين والسيف: ضربه به. ونعل السيف: حديدة توضع في أسفل جفن السيف.

فجمع عمر الناس واستشارهم، وقال لهم: «هذا يومٌ له ما بعده، وقد هممتُ أنْ أسير فيمن قِبَلِي ومَنْ قدرتُ عليه فأنزل منزلاً وَسَطًا بين هذين المِصْرين ثم أستنفرهم وأكون لهم رِدْءًا حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحبّ، فإنْ فتح الله عليهم صببتُهم في بلدانهم».

فقال طلحة بن عبيد الله: يا أمير المؤمنين قد أحكمتك الأمور، وعجمتك البلابل، واحتنكتك التجارب، وأنت وشأنك ورأيك لا ننبو في يديك ولا نَكِل عليك إليك هذا الأمر فَمُرْنا نطع، وادعنا نُجِب، واحملنا نركب، و[فدنا نَفِدْ]، وقُدْنَا نَنْقد، فإنّك وليُّ هذا الأمر وقد بَلَوْتَ وجربتَ واختبرتَ فلم ينكشف شيءٌ من عواقب قضاء الله لك إلّا عن خيارهم.

ثم جلس فعاد عمر، فقام عثمان فقال: أرىٰ يا أمير المؤمنين أنْ تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وإلى أهل اليمن فيسيروا من يَمَنِهِمْ، ثم تسيرُ أنت بأهل [هذين] الحَرَمَيْن إلى الكوفة والبصرة، فتلقىٰ جمع المشركين بجَمْع المسلمين فإنّك إذا سرتَ [بمن معك] قلّ عندك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنتَ أعزّ عزًّا وأكثر، يا أمير المؤمنين إنك لا تستبقي بعد نفسك من العرب باقية، ولا تمنع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز، إنّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيام، فاشهده برأيك وأعوانك، ولا تغب عنه، وجلس.

فعاد عمر [فقال: إنّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيّام فتكلّموا].

فقام إليه عليُّ بن أبي طالب فقال: أمّا بعد يا أمير المؤمنين، فإنّك إنْ أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الرومُ إلى ذراريهم، وإنْ أشخصتَ أهل اليمن من يَمَنِهِم سارت الحبشةُ إلى ذراريهم، وإنك إنْ أشخصتَ مِنْ هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكونَ ما تدع وراءك أهمُّ إليك مما بين يديك من العورات والعيالات.

أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب إلى أهل البصرة فليتفرّقوا فيها ثلاث فِرَق: فرقة في حَرَمهم وذراريهم، وفِرْقة في أهل عهدهم حتى لا ينتقضوا، ولتَسِر فرقةٌ إلى إخوانهم بالكوفة مددًا لهم، إنّ الأعاجم إنْ ينظروا إليك غدًا قالوا: هذا أمير المؤمنين أمير العرب وأصلها فكان ذلك أشدّ لكلبهم عليك. وأمّا ما ذكرت من مسير القوم، فإنّ الله هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأمّا [ما ذكرتَ مِنْ] عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضىٰ بالكثرة ولكن بالنّصر.

فقال عمر: هذا هو الرأي كنتُ أحبُّ أن أُتابَع عليه، فأشيروا عليَّ برجلٍ أولِّيه [ذلك الثغر]، وقيل: إنّ طلحةَ وعثمان وغيرهما أشاروا عليه بالمقام، والله أعلم.

فلما قال عمر: أشيروا عليّ برجل أولّيه ذلك الثغر وليكن عِرَاقِيًّا، فقالوا: أنت أعلم بجندِكِ وقد وفدوا عليك [ورأيتهم وكلّمتهم].

فقال: والله لأُوَلِّيَنَّ أمرهم رجلاً يكون أوّل الأسنة إذا لقيها غدًا، فقيل: من هو؟ فقال: هو النعمان بن مقرّن المزني، فقالوا: هو لها.

وكان النعمان يومئذ معه جَمْع من أهل الكوفة قد اقتحموا جند يسابور، والسوس، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى ماءه لتجتمع الجيوش عليه، فإذا اجتمعوا إليه سار بهم إلى الفيرزان ومن معه.

وقيل: بل كان النعمان [عاملًا] بكسكر فكتب إلى عمر يسأله أن يعزله ويبعثه إلى جيش من المسلمين، فكتب إليه عمر يأمره بنهاوند فسار، فكتب عمر إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان ليستنفر الناس مع النعمان كذا وكذا ويجتمعوا عليه بماه، فندب الناس فكان أسرعهم إلى ذلك الروادف ليبلوا في الدين وليدركوا حظًّا، فخرج الناس منها وعليهم حُذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مُقَرِّن حتى قدموا على النعمان، وتقدّم عمر إلى الجند الذين كانوا بالأهواز ليشغلوا فارسًا عن المسلمين وعليهم المقترب، وحرملة، وزرّ، فأقاموا بتخوم أصبهان وفارس وقطعوا أمداد فارس عن أهل نهاوند، واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة بن اليمان، وابن عمر، وجرير بن عبد الله البجلي، والمغيرة بن شعبة، وغيرهم؛ فأرسل النعمان طليحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب، وعَمْرو بن ثني ـ وهو ابن أبي سلمى ـ ليأتوه بخبرهم وخرجوا وساروا يومًا إلى الليل فرجع إليه عمرو بن ثني، فقالوا: ما رجعك؟ فقال: لم أكُنْ في أرض العجم وقتلت أرض جاهلها وقتل أرضًا عالمها.

ومضى طُلَيْحة وعمرو بن معديكرب، فلما كان آخر الليل رجع عمرو فقالوا: ما رجعك؟ قال: سِرْنا يومًا وليلة ولم نرَ شيئًا [وخفتُ أنْ يؤخذ علينا الطريق] فرجعتُ، ومضى طُليحة [ولم يحفل بهما] حتى انتهى إلى نهاوند وبين موضع المسلمين الذي هم به ونهاوند بضعة وعشرون فرسخًا، فقال الناس: ارتدّ طليحة الثانية، فعلم كلام القوم [واطّلع على الأخبار] ورجع، فلما رأوه كبّروا فقال: ما شأنكم؟ فأعلموه بالذي خافوا عليه، فقال: والله لو لم يكن دين إلّا العربي ما كنت لأجزر العجم الطماطم هذه العرب العاربة، فأعلم النعمان أنه ليس بينهم وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد.

فرحل النعمان وعبى[1] أصحابه وهم ثلاثون ألفًا، فجعل على مقدمته نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان، وسويد بن مقرن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود، وقد توافت إليه أمداد المدينة، فيهم المغيرة بن شعبة فأنتهوا إلى أسبيذهان والفرس وقوف على تعبيتهم، وأميرهم الفيرزان وعلى مجنبتيه الزردق، وبهمن جاذويه الذي جعل مكان ذي الحاجب، وقد توافى إليهم الأمداد بنهاوند كل من غاب عن القادسية ليسوا بدونهم.

فلما رآهم النعمان كبَّر وكبَّر معه الناس فتزلزلت الأعاجم وحطَّت العرب الأثقال وضرب فسطاط النعمان فابتدر أشرافُ الكوفة فضربوه منهم حذيفة بن اليمان، وعقبة بن عامر، والمغيرة بن شعبة، وبشير بن الخصاصية، وحنظلة الكاتب، وجرير بن عبد الله البجلي، والأشعث بن قيس، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حجر وغيرهم، فلم يرَ بناء فسطاط بالعراق كهٰؤلاء.

وأنشب النعمان القتال بعد ما حطَّ الأثقال، فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم سجال وأنهم انجحروا في خنادقهم يوم الجمعة، وحصرهم المسلمون وأقاموا عليهم ما شاء الله والفرس بالخيار لا يخرجون إلّا إذا أرادوا الخروج، فخاف المسلمون أنْ يطول أمرهم حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجمع تجمّع أهل الرأي من المسلمين [فتكلّموا]، وقالوا: نراهم علينا بالخيار، وأتوا النعمان في ذلك فوافوه وهو يروي في الذي رووا فيه فأخبروه [فقال: على رِسْلِكُم، لا تبرحوا]، فبعث إلى من بقي من أهل النجدات والرأي فأحضرهم فتكلّم النعمان، فقال: قد ترون المشركين وأعتصامهم بخنادقهم ومدنهم وأنهم لا يخرجون إلينا إلّا إذا شاؤوا ولا يقدر المسلمون على إخراجهم، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق، فما الرأي الذي به نستخرجهم إلى المناجزة وترك التطويل؟

فتكلّم عمرو بن ثني وكان أكبر الناس [يومئذ سنًا] وكانوا يتكلّمون على الأسنان، فقال: التحصُّن عليهم أشدّ من المطاولة عليكم فدعهم وقاتِل من أتاك منهم، فردُّوا عليه رأيه، وتكلّم عمرو بن معديكرب فقال: ناهدهم وكابدهم ولا تخفهم، فردُّوا جميعًا عليه رأيه وقالوا: إنما يناطح بنا الجدران وهي أعوان علينا.

---

(١) عبأ.

وقال طليحة: أرى أنْ نبعث خيلاً لينشبوا القتال فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطرادًا، فإنّا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم، فإذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحبَّ.

فأمر النعمان القعقاع بن عمرو ـ وكان على المجردة ـ فأنشب القتال [بعد ٱحتجاز من العجم] فأخرجهم من خنادقهم كأنهم جبال حديد قد تواثقوا أنْ لا يفرُّوا وقد قرن بعضهم بعضًا كل سبعة في قران وألقوا حسك الحديد خلفهم لئلّا ينهزموا، فلما خرجوا نكص ثم نكص واغتنمها الأعاجم ففعلوا كما ظنّ طليحة، وقالوا: هي هي، فلم يبقَ أحدٌ إلّا من يقوم على الأبواب وركبوهم، ولحق القعقاع بالناس وانقطع الفرس عن حصنهم بعض الانقطاع والمسلمون على تعبية في يوم جمعة صدر النهار، وقد عهد النعمان إلى الناس عهده وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ففعلوا واستتروا بالحجف من الرمي. وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراح وشكا بعض الناس [ذلك إلى بعض]، وقالوا للنعمان: ألا ترى ما نحن فيه فما تنتظر بهم؟ ائذن للناس في قتالهم.

فقال: رويدًا رويدًا، وٱنتظر النعمان بالقتال أحب الساعات كانت إلى رسول الله ﷺ أن يلقى العدوَّ فيها وذلك عند الزوال [وتفيّئ الأفياء ومهبّ الرياح]، فلما كان قريبًا من تلك الساعة ركب فرسه، وسار في الناس ووقف على كل راية يذكّرهم ويحرّضهم ويمنّيهم الظفر، وقال لهم: إني مكبّر ثلاثًا فإذا كبّرتُ الثالثة فإني حاملٌ إنْ شاء الله فٱحملوا، وإنْ قتلتُ فالأمير بعدي حذيفة، فإن قتل ففلان حتى عَدَّ سبعة آخرهم المغيرة؛ ثم قال: اللّهمّ أعزز دينك، وانصر عبادك، وٱجعل النعمان أوّل شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك.

وقيل: بل قال: اللّهمّ إني أسألك أنْ تقرَّ عيني اليوم بفتحٍ يكون فيه عزّ الإسلام واقبضني شهيدًا.

فبكىٰ الناسُ ورجع إلى موقفه فكبّر ثلاثًا والناس سامعون مطيعون مستعدُّون للقتال، وحمل النعمان والناس معه وانقضّت رايته ٱنقضاض العقاب والنعمان معلَّم ببياض القباء والقلنسوة فاقتتلوا قتالاً شديدًا لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشدّ منها، وما كان يُسمع إلّا وقع الحديد وصبر لهم المسلمون صبرًا عظيمًا، وانهزم الأعاجم وقتل منهم ما بين الزوال والإعتام ما طبق أرض المعركة دمًا يزلق الناس والدوابّ فيه، فلما أقرّ الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيدًا زَلَق به فرسه فصرع.

وقيل: بل رُمِيَ بسهم في خاصرته فقتله، فسجّاه أخوه نعيم بثوب، وأخذ الراية [قبل أنْ تقع] وناولها حذيفة، فأخذها وتقدّم إلى موضع النعمان وترك نعيمًا مكانه، وقال لهم المغيرة: «أَكْتُمُوا مصابَ أميركم حتىٰ ننتظر ما يصنع الله فينا وفيهم لئلّا يهن الناس»، فاقتتلوا، فلما أظلم الليل عليهم أنهزم المشركون وذهبوا ولزمهم المسلمون، وعُمِيَ عليهم قصدهم فتركوه وأخذوا نحو اللهب الذي كانوا [نزلوا] دونه بأسبيذهان فوقعوا فيه فكان الواحد منهم يقع فيقع عليه ستة بعضهم على بعض في قياد واحد، فيُقْتلون جميعًا وجعل يعقرهم حسك الحديد فمات منهم في اللّهب مائة ألف أو يزيدون سوىٰ مَنْ قُتِل في المعركة. وقيل: قُتِل في اللهب ثمانون ألفًا، وفي المعركة ثلاثون ألفًا سوىٰ من قتل في الطلب، ولم يفلت إلّا الشريد، ونجا الفيرزان من [بين] الصرعىٰ، فهرب نحو همذان [في ذلك الشريد] فأتّبعه نعيم بن مُقَرّن، وقدم القعقاع قدامه فأدركه بثنيّة همذان وهي إذْ ذاك مشحونة من بغالٍ وحمير موقرة عسلاً، فحبسه الدوابّ على أجله، فلما لم يجد طريقًا نزل عن دابّته وصعد في الجبل فتبعه القعقاع راجلًا، فأدركه فقتله المسلمون على الثنيّة، وقالوا: إنّ لله جنودًا من عسل، واستاقوا العسل وما معه من الأحمال، وسمّيت الثنيّة «ثنيّة العسل».

ودخل المشركون همذان والمسلمون في آثارهم، فنزلوا عليها وأخذوا ما حولها، فلما رأى ذلك خسر وشنوم استأمنهم، ولما تمّ الظفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النعمان بن مقرّن، فقال لهم أخوه معقل: «هذا أميركم قد أقرَّ الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة»، فاتّبعوا حذيفة ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة بعد الهزيمة، واحتَوَوْا ما فيها من الأمتعة وغيرها وما حولها من الأسلاب والأثاث، وجمعوا إلى صاحب الأقباض السائب بن الأقرع، وانتظر مَنْ بنهاوند ما يأتيهم من إخوانهم الذين على همذان مع القعقاع ونعيم، فأتاهم الهربذ صاحب بيت النار على أمان فأبلغ حذيفة فقال: أتؤمّنني ومَنْ شِئْتُ على أن أُخرج لك ذخيرة لكسرى تُركَتْ عندي لنوائب الزمان؟

قال: نعم، فأحضر جوهرًا نفيسًا في سفطين فأرسلهما مع الأخماس إلى عمر، وكان حذيفة قد نفل منها وأرسل الباقي مع السائب بن الأقرع الثقفي، وكان كاتبًا حاسبًا أرسله عمر إليهم، وقال له: إنْ فتح الله عليكم فأقسم على المسلمين فَيْأَهم، وخُذ الخُمُس، وإنْ هلك هذا الجيش فأذهب فبطن الأرض خير من ظهرها.

قال السائب: فلما فتح الله على المسلمين وأحضر الفارسي السفطين اللذين أودعهما عنده النخيرجان فإذا فيهما اللؤلؤ، والزبرجد، والياقوت، فلما فرغت من القسمة احتملتهما معي وقدمتُ على عمر، وكان قد قدر الوقعة فبات يتململ ويخرج ويتوقّع الأخبار، فبينما رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه فرجع إلى المدينة ليلاً فمرَّ به راكب فسأله: من أين أقبل؟

فقال: من نهاوند، وأخبره بالفتح وقَتْل النعمان، فلما أصبح الرجل تحدَّث بهذا بعد ثلاث من الوقعة، فبلغ الخبر عمر فسأله فأخبره، فقال: ذلك بريد الجنّ.

ثم قدم البريد بعد ذلك فأخبره بما يسرُّه ولم يخبره بقتل النعمان، قال السائب: فخرج عمر من الغد يتوقّع الأخبار، قال: فأتيته، فقال: ما وراءك؟ فقلت: خيرًا يا أمير المؤمنين فتح الله عليك وأعظم الفتح، واستشهد النعمان بن مقرّن، فقال عمر: إنّا لله وإنّا إليه راجعون؛ ثم بكى فنشج حتى بانت فروع كتفيه فوق كتده، قال: فلما رأيتُ ذلك وما لقي قلتُ: يا أمير المؤمنين، ما أُصيب بعده رجل يعرف وجهه.

فقال: أولٰئك المستضعفون من المسلمين ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم وما يصنع أولئك بمعرفة عمر، ثم أخبرته بالسفطين فقال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما والْحق بجندك، قال: ففعلتُ وخرجتُ سريعًا إلى الكوفة وبات عمر، فلما أصبح بعث في أثري رسولاً، فما أدركني حتى دخلتُ الكوفة فأنختُ بعيري وأناخ بعيره على عرقوبي بعيري، فقال: الْحق بأمير المؤمنين فقد بعثني في طلبك، فلم أقدر عليك إلّا الآن.

قال: فركبتُ معه فقدمتُ على عمر، فلما رآني قال: إليّ مالي وللسائب، قلت: ولماذا؟ قال: ويحك والله ما هو إلّا أن نمتُ الليلة التي خرجتَ فيها فباتت الملائكة تسحبني إلى [ذينك] السفطَيْن يشتعلان نارًا فيقولون: لنكوينك بهما، فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين، فخذهما عني [لا أبالك والْحق بهما]، فبعهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم، قال: فخرجتُ بهما فوضعتهما في مسجد الكوفة [وغشيني التجار] فأبتاعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بألفَيْ ألف درهم، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف فما زال أكثر أهل الكوفة مالاً بعد.

وكان سهم الفارس بنهاوند ستّة آلاف، وسهم الراجل ألفين.

ولما قدم سبي نهاوند المدينة جعل أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لا يلقىٰ منهم صغيرًا إلّا مسح رأسه وبكىٰ، وقال له: أكل عمر كبدي. وكان من نهاوند فأسرته الروم [أيام فارس] وأسره المسلمون من الروم بعد فنسب إلى حيث سُبِيَ. وكان المسلمون يسمُّون فتح نهاوند «فتح الفتوح»؛ لأنه لم يكن للفرس بعده ٱجتماع ومَلَكَ المسلمون بلادهم.

٨٣ ـ يوم الصواري[١]

كان على المسلمين معاوية، وكان قد جُمِعَ الشامُ له أيام عثمان، وسبب جمعه له أن أبا عبيدة بن الجراح لما حضر استخلف على عمله عياض بن غنم وكان خاله وابن عمه وكان جوادًا مشهورًا، وقيل: استخلف معاذ بن جبل على ما تقدم، فمات عياض واستخلف عمر بعده سعيد بن حذيم الجمحي، ومات سعيد [بعد] وأمَّر عمر مكانه عمير بن سعد الأنصاري، ومات عمر وعمير على حمص، وقنسرين، ومات يزيد بن أبي سفيان فجعل عمر مكانه أخاه معاوية [ونعاه لأبي سفيان، فقال: مَنْ جعلت على عمله يا أمير المؤمنين؟ فقال: معاوية، فقال: وصلتك رحم].

فاجتمعت لمعاوية الأردن، ودمشق، ومرض عمير بن سعد فاستعفىٰ عثمان وٱستأذنه في الرجوع إلى أهله فأَذِنَ له، وضمّ عثمان حمص وقنسرين إلى معاوية، ومات عبد الرحمٰن بن علقمة ـ وكان على فلسطين ـ فضمّ عثمان عمله إلى معاوية، فٱجتمع الشام لمعاوية لسنتين من إمارة عثمان، فهذا كان سبب اجتماع الشام له.

وأمّا سبب هذه الغزوة، فإنّ المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل في جمع له لم تجمع الروم مثله مُذْ كان الإسلام، فخرجوا خمسمائة مركب أو ستّمائة، وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم، فأرسى المسلمون والروم وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم، فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلّون ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس وقرَّبوا من الغد سفنهم وقرَّب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض، واقتتلوا بالسيوف والخناجر وقُتِل من المسلمين بشرٌ كثير، وقُتل من الروم ما لا يحصىٰ، وصبروا يومئذ صبرًا لم يصبروا في موطن قطّ مثله، ثم أنزل الله نصره

(١) سنة ٣١ من الهجرة.

على المسلمين، فٱنهزم قسطنطين جريحًا ولم يَنْجُ من الروم إلّا الشريد، وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أيامًا ورجع، فكان أوّل ما تكلم به محمد بن أبي حُذَيفة، ومحمد بن أبي بكر في أمر عثمان في هذه الغزوة وأظهر عيبه وما غيَّر وما خالف به أبا بكر وعمر، ويقولان: ٱستعمل عبد الله بن سعد رجلاً كان رسول الله ﷺ قد أباح دمه، ونزل القرآن بكفرِهِ؛ وأخرج رسول الله ﷺ قومًا أدخلهم، ونزع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وابن عامر.

فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال: لا تركبا معنا، فركبا في مركب ما معهما إلّا القبط، فلقوا العدوّ فكانا أقلّ المسلمين نكاية وقتالاً، فقيل لهما في ذلك؛ فقالا: كيف نقاتل مع عبد الله بن سعد؟ استعمله عثمان وعثمان فعل كذا وكذا، فأرسل إليهما عبد الله ينهاهما ويتهدّدهما ففسد الناس بقولهما، وتكلّموا ما لم يكونوا ينطقون به.

وأمّا قسطنطين فإنّه سار في مركبه إلى صِقِلِّيَة، فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم، فقالوا: أهلكتَ النصرانيّة وأفنيتَ رجالها لو أتانا العرب لم يكن عندنا مَنْ يمنعهم، ثم أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه في المركب، وأذِنُوا لهم في المسير إلى القسطنطينية.

٨٤ ـ يوم الجمل(١)

لما قُتِل عثمان بعد أيام التشريق، وكان أزواج النبيّ ﷺ قد خرجن إلى الحجّ في هذا العام فرارًا من الفتنة، فلما بلغ الناس أن عثمان قد قُتِل، أقمن بمكّة بعد ما خرجوا منها، ورجعوا إليها وأقاموا بها وجعلوا ينتظرون ما يصنع الناس ويتجسّسون الأخبار، فلما بُويع لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وصار حظّ الناس عنده بحكم الحال وغلبة الرأي، لا عن اختيار منه لذلك رؤوس أولٰئك الخوارج الذين قتلوا عثمان، مع أن عليًا في نفس الأمر يكرههم، ولكنه تربّص بهم الدوائر، ويودُّ لو تمكّن منهم ليأخذ حقّ الله منهم، ولكن لما وقع الأمر هكذا واستحوذوا عليه، وحجبوا عنه علية الصحابة فرّ جماعة من بني أُميّة وغيرهم إلى مكّة، واستأذنه طلحة والزبير في الاعتمار، فأذن لهما فخرجا إلى مكة وتبعهم خلق كثير، وجمّ غفير، وكان عليٌّ لما عزم على قتال أهل الشام قد ندب أهل المدينة إلى الخروج معه فأبَوا عليه،

(١) سنة ٣٦ من الهجرة.

فطلب عبد الله بن عمر بن الخطاب وحرّضه على الخروج معه، فقال: إنما أنا رجل من أهل المدينة، إن خرجوا خرجت على السَّمْع والطاعة، ولكن لا أخرج للقتال في هذا العام، ثم تجهّز ابن عمر وخرج إلى مكة، وقدم إلى مكّة أيضًا في هذا العام يعلى بن أُمية من اليمن ـ وكان عاملاً عليها لعثمان ـ ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم، وقدم لها عبد الله بن عامر من البصرة، وكان نائبها لعثمان، فاجتمع فيها خلق من سادات الصحابة وأُمّهات المؤمنين، فقامت عائشة رضي الله عنها في الناس تخطبهم وتحثّهم على القيام بطلب دم عثمان، وذكرت ما أفتأت به أولٰئك من قتله في بلد حرام وشهر حرام، ولم يراقبوا جوار رسول الله ﷺ وقد سفكوا الدماء، وأخذوا الأموال؛ فاستجاب الناس لها، وطاوَعوها على ما تراه من الأمر بالمصلحة، وقالوا لها: حيثما سرت سرنا معك، فقال قائل: نذهب إلى الشام، فقام بعضهم: إن معاوية قد كفاكم أمرها، ولو قدموها لغلبوا، واجتمع الأمر كله لهم؛ لأن أكابر الصحابة معهم، وقال آخرون: نذهب إلى المدينة فنطلب من عليّ أن يسلم إلينا قتلة عثمان فيُقْتَلوا، وقال آخرون: بل نذهب إلى البصرة فنتقوّى من هنالك بالخيل والرجال، ونبدأ بمن هناك من قتلة عثمان؛ فاتّفق الرأي على ذلك وكان بقيّة أُمّهات المؤمنين قد وافقن عائشة على المسير إلى المدينة، فلما اتّفق الناس على المسير إلى البصرة رجعن عن ذلك وقلن: لا نسير إلى غير المدينة، وجهَّز الناس يعلى بن أُمية، فأنفق فيهم ستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهّزهم ابن عارم أيضًا بمالٍ كثير، وكانت حفصة بنت عمر أُمّ المؤمنين قد وافقت عائشة على المسير إلى البصرة، فمنعها أخوها عبد الله من ذلك، وأبَىٰ هو أن يسير معهم إلى غير المدينة. وجهَّز الناس يعلىٰ بن أُميّة فأنفق فيهم ستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهّزهم ابن عباس بمالٍ كثير أيضًا، وقيل: تسعمائة فارس من أهل المدينة ومكة، وتلاحق بهم آخرون، فصاروا في ثلاثة آلاف، وأُمّ المؤمنين عائشة تُحْمَل في هودج على جمل اسمه عسكر، اشتراه يعلى بن أُميّة من رجل من عرينة بمائتي دينار، وقيل: بثمانين دينارًا، وقيل غير ذلك، وسار معها أُمّهات المؤمنين إلى ذات عرق ففارقنها هنالك وبكين للوداع، وتباكئ الناس، وكان ذلك اليوم يسمّى يوم النحيب، وسار الناس قاصدين البصرة، وكان الذي يصلّي بالناس عن أمر عائشة ابن أختها عبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم يؤذن للناس في أوقات الصلوات، وقد مرُّوا في مسيرهم ليلاً بماء يقال له الحوأب، فنبحتهم كلاب عنده، فلما سمعت ذلك عائشة قالت: ما اسم هذا المكان؟ قالوا: الحَوْأب، فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ما أظنّني إلّا راجعة،

قالوا: ولِمَ؟ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: «ليت شعري أيتكنّ التي تنبحها كلاب الحَوْأب» ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته، وقالت: ردُّوني ردُّوني، وأنا والله صاحبة ماء الحَوْأب، وقد أوردنا هذا الحديث بطرقه وألفاظه في دلائل النبوّة كما سبق؛ فأناخ الناس حولها يومًا وليلة، وقال لها عبد الله بن الزُّبَيْر: إن الذي أخبرك أن هذا ماء الحَوْأب قد كَذِب، ثم قال الناس؛ النجا النجا، هذا جيش عليّ بن أبي طالب قد أقبل؛ فارتحلوا نحو البصرة، فلما اقتربت من البصرة كتبت إلى الأحنف بن قيس وغيره من رؤوس الناس أنها قد قدمت، فبعث عثمان بن حنيف عمران بن حصين وأبا الأسود الدُّؤلي إليها ليعلما ما جاءت له، فلما قَدِما عليها سَلَّما عليها واستعلما منها ما جاءت له، فذكرت لهما ما الذي جاءت له من القيام بطلب دم عثمان؛ لأنه قُتِل مظلومًا في شهر حرام وبلد حرام، وتَلَتْ قوله تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النِّساء: الآية ١١٤]، فخرجا من عندها فجاءا إلى طلحة فقالا له: ما أقدمك؟ فقال: الطلب بدم عثمان، فقالا: ما بايعت عليًّا؟ قال: بلى والسيف على عنقي، ولا أستقبله إن هو لم يُخل بيننا وبين قتلة عثمان؛ فذهبا إلى الزبير فقال مثل ذلك، قال: فرجع عمران وأبو الأسود إلى عثمان بن حنيف، فقال أبو الأسود:

يا ابنَ الأحنفِ قد أُتيتَ فانفرِ وطاعنِ القَوْمَ وجالِدْ واصْبرِ
واخرج لهم مستلئمًا وشمّرِ

فقال عثمان بن حنيف: إنّا لله وإنا إليه راجعون، دارت رحىٰ الإسلام وربّ الكعبة، فانظروا بأيّ زيفان نزيف، فقال عمران: إي والله لتعركنكم عركًا طويلاً، يشير عثمان بن حنيف إلى حديث ابن مسعود مرفوعًا: «تدور رحىٰ الإسلام لخمس وثلاثين» الحديث كما تقدم، ثم قال عثمان بن حنيف لعمران بن حصين: أشِرْ عليّ، فقال: اْعتزل فإني قاعد في منزلي، أو قال: قاعد على بعيري، فذهب فقال عثمان: بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين، فنادى في الناس يأمرهم بلبس السلاح والاجتماع في المسجد، فاجتمعوا فأمرهم بالتجهّز، فقام رجل وعثمان على المنبر فقال: أيّها الناس إن كان هٰؤلاء القوم جاؤوا خائفين فقد جاؤوا من بلد يَأْمَنُ فيه الطير، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلته، فأطيعوني وردُّوهم من حيث جاؤوا، فقام الأسود بن سريع السعدي فقال: إنما جاؤوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منّا ومن غيرنا، فحصبه الناس، فعلم عثمان بن حنيف أن لقتلة عثمان

بالبصرة أنصارًا، فكَرِهَ ذلك، وقدمت أُمّ المؤمنين بمن معها من الناس، فنزلوا المربد من أعلاه قريبًا من البصرة، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يكون معها، وخرج عثمان بن حنيف بالجيش فاجتمعوا بالمربد، فتكلّم طلحة ـ وكان على الميمنة ـ فندب إلى الأخذ بثَأْر عثمان، والطلب بدمه، وتابعه الزبير فتكلّم بمثل مقالته فردَّ عليهما ناس من جيش عثمان بن حنيف، وتكلّمت أم المؤمنين فحرّضت وحثّت على القتال، فتناور طوائف من أطراف الجيش فترامَوْا بالحجارة، ثم تحاجز الناس، ورجع كل فريق إلى حوزته، وقد صارت طائفة من جيش عثمان بن حنيف إلى جيش عائشة، فكثروا، وجاء حارثة بن قدامة السعديّ فقال: يا أُمّ المؤمنين! والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل عرضة للسلاح، إن كنت أتيتنا طائعة فأرجعي من حيث جئت إلى منزلك، وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعيني بالناس في الرجوع، وأقبل حكيم بن جَبَلة ـ وكان على خيل عثمان بن حنيف ـ فأنشب القتال وجعل أصحاب أُمّ المؤمنين يكفون أيديهم ويمتنعون من القتال، وجعل حكيم يقتحم عليهم القتال فاقتتلوا على فم السكّة، وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن، وحجز الليل بينهم، فلما كان اليوم الثاني قصدوا للقتال، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، إلى أن زال النهار، وقتل خلق كثير من أصحاب ابن حنيف، وكَثُرت الجراح في الفريقين، فلما عضتهم الحرب تداعوا إلى الصلح على أن يكتبوا بينهم كتابًا ويبعثوا رسولاً إلى أهل المدينة يسأل أهلها إن كان طلحة والزُّبَيْر أُكرها على البيعة، خرج عثمان بن حنيف عن البصرة وأخلاها لهما، وإن لم يكونا أُكرها على البيعة خرج طلحة والزُّبير عنها وأخلوها لهم، وبعثوا بذلك كعب بن سور القاضي، فقدم المدينة يوم الجمعة، فقام في الناس، فسألهم: هل بايع طلحة والزُّبَيْر طائعَيْن أو مكرهَيْن؟ فسكت الناس فلم يتكلّم إلّا أُسامة بن زيد، فقال: بل كانا مُكْرَهين، فثار إليه بعض الناس فأرادوا ضربه، فحاجف[1] دونه صهيب، وأبو أيوب، وجماعة حتى خلصوه، وقالوا له: ما وسعك ما وسعنا من السكوت؟ فقال: لا والله ما كنت أرى أن الأمر ينتهي إلى هذا، وكتب عليٌّ إلى عثمان بن حنيف يقول له: إنهما لم يُكْرها على فرقة، ولقد أُكرها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرا ونظرنا، وقدم كعب بن سور على عثمان بكتاب عليّ، فقال عثمان: هذا أمر آخر غير ما كنّا فيه، وبعث طلحة والزبير إلى عثمان بن حنيف أن يخرج إليهما فأبى،

(١) حاجف: دافع.

فجمعا الرجال في ليلة مظلمة وشهدا بهم صلاة العشاء في المسجد الجامع، ولم يخرج عثمان بن حنيف تلك الليلة، فصلّى بالناس عبد الرحمٰن بن عتاب بن أُسيد، ووقع من رعاع[1] الناس من أهل البصرة كلام وضرب، فقُتِل منهم نحو أربعين رجلًا، ودخل الناس على عثمان بن حنيف قصره فأخرجوه إلى طلحة والزبير، ولم يبقَ في وجهه شعرة إلّا نتفوها، فاستعظما ذلك وبعثا إلى عائشة فأعلماها الخبر، فأمرت أن تُخلى سبيله، فأطلقوه وولّوا على بيت المال عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وقسم طلحة والزُّبير أموال بيت المال في الناس وفضلوا أهل الطاعة، وأكبّ عليهم الناس يأخذون أرزاقهم، وأخذوا الحرس، واستبدّوا في الأمر بالبصرة، فحمى لذلك جماعة من قوم قَتَلة عثمان وأنصارهم، فركبوا في جيش قريب من ثلاثمائة، ومقدمهم حكيم بن جبلة، وهو أحد من باشر قتل عثمان، فبارزوا وقاتلوا، فضرب رجل رجلَ حكيم بن جبلة فقطعها، فزحف حتى أخذها وضرب بها ضاربه فقتله؛ ثم اتّكأ عليه وجعلَ يقول:

يا ساقُ لن تراعي إنّ لكِ ذراعي أحمي بها كراعي

وقال أيضًا:

ليس عليّ أنْ أموتَ عارُ والعارُ في الناسِ هو الفرارُ والمجدُ لا يفضحه الدّمار

فمرّ عليه رجل وهو متّكئ برأسه على ذلك الرجل، فقال له: من قتلك؟ فقال له: وسادتي، ثم مات حكيم قتيلًا هو ونحو من سبعين من قتلة عثمان وأنصارهم أهل المدينة، فضعف جأش من خالف طلحة والزُّبير من أهل البصرة، ويقال: إن أهل البصرة بايعوا طلحة والزُّبَيْر، وندب الزّبير ألف فارس يأخذها معه ويلتقي بها عليًا قبل أن يجيء فلم يجبه أحد، وكتبوا بذلك إلى أهل الشام يبشّرونهم بذلك، وقد كانت هذه الوقعة لخمس ليالٍ بقين من ربيع الآخر سنة ستّ وثلاثين، وقد كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان تدعوه إلى نصرتها والقيام معها، فإنْ لم يجئ فليكفّ يده وليلزم منزله، أي لا يكون عليها ولا لها، فقال: أنا في نصرتك ما دمت في منزلك، وأبىٰ أن يطيعها في ذلك، وقال: يرحم الله أُمّ المؤمنين أمرها الله أن تلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل، فخرجت من منزلها وأمرتنا بلزوم بيوتنا التي كانت هي أحقُّ بذلك منّا، وكتبت عائشة إلى أهل اليمامة والكوفة بمثل ذلك.

(١) الرعاع: الأوغاد من الناس.

مسير أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب
من المدينة إلى البصرة بدلاً عن سيره إلى الشام

بعد أن كان قد تجهّز قاصدًا الشام كما ذكرنا، فلما بلغه قصد طلحة والزُّبير البصرة، خطب الناس وحثَّهم على المسير إلى البصرة ليمنع أولٰئك من دخولها، إن أمكن، أو يطردهم عنها إن كانوا قد دخلوها، فتثاقل عنه أكثر أهل المدينة، واستجاب له بعضهم، قال الشعبيّ: ما نهض معه في هذا الأمر غير ستّة نفر من البدريّين، ليس لهم سابع. وقال غيره أربعة: وذكر ابن جرير وغيره قال: كان ممن استجاب له من كبار الصحابة أبو الهيثم بن التّيهان، وأبو قتادة الأنصاري، وزياد بن حنظلة، وخزيمة بن ثابت، قالوا: وليس بذي الشهادتين، ذاك مات في زمن عثمان رضي الله عنه؛ وسار عليّ من المدينة نحو البصرة على تعبئته المتقدم ذكرها، غير أنه استخلف على المدينة تمام بن عباس وعلى مكة قُثَم بن عباس وذلك في آخر شهر ربيع الآخر سنة ستّ وثلاثين، وخرج عليٌّ من المدينة في نحوٍ من تسعمائة مقاتل، وقد لَقِيَ عبد الله بن سلام رضي الله عنه عليًا وهو بالربذة، فأخذ بعنان فرسه وقال: يا أمير المؤمنين! لا تخرج منها، فوالله لَئِن خرجتَ منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدًا، فسبَّه بعض الناس، فقال عليٌّ: دعوه فنعم الرجل من أصحاب النبيّ ﷺ، وجاء الحسن بن عليّ إلى أبيه في الطّريق فقال: لقد نهيتك فعصيتني تقتل غدًا بمضيعة لا ناصر لك، فقال له عليّ: إنك لا تزال تحنّ عليّ حنين الجارية، وما الذي نهيتني عنه فعصيتك؟ فقال: ألَمْ آمرك قبل مقتل عثمان أن تخرج منها لئلّا يقتل وأنتَ بها، فيقول قائل أو يتحدّث متحدّث؟ ألم آمرك أن لا تبايع الناس بعد قتل عثمان حتى يُبْعث إليك أهل كل مصر ببيعتهم؟ وأمَرْتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فعصيتني في ذلك كلّه؟ فقال له عليّ: أمّا قولك أن أخرج قبل مقتل عثمان فقد أُحيط بنا كما أُحيط به، وأمّا مبايعتي قبل مجيء بيعة الأمصار فكرهتُ أن يضيع هذا الأمر، وأمّا أن أجلس وقد ذهب هٰؤلاء إلى ما ذهبوا إليه، فتريد مني أن أكون كالضبع التي يُحاط بها، ويقال ليست ها هنا، حتى يُشَقَّ عرقوبها[1] فتخرج، فإذا لم أنظر فيما يلزمني في هذا الأمر ويعنيني، فمن ينظر فيه؟ فكفّ عني يا بني؛ ولما انتهى إلى خبر ما صنع القوم بالبصرة من الأمر الذي قدمنا كتب إلى أهل الكوفة مع محمد بن أبي بكرٍ، ومحمد بن جعفر: إني قد اخترتكم

---

(١) العرقوب: عصبٌ غليظ فوق العقب.

على أهل الأمصار، فرغبت إليكم وفرغت لما حدث، فكونوا لدين الله أعوانًا وأنصارًا، وانهضوا إلينا فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمّة إخوانًا، فمضيا، وأرسل إلى المدينة فأخذ ما أراد من سلاح ودوابّ، وقام في الناس خطيبًا، فقال: إن الله أعزّنا بالإسلام، ورفعنا به، وجعلنا به إخوانًا، بعد ذلّة وقلّة، وتباغض وتباعد، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله، الإسلام دينهم، والحقّ قائمٌ بينهم، والكتاب إمامهم، حتى أُصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم[1] الشيطان لينزغ بين هذه الأمّة، ألَا وإن هذه الأمّة لا بدّ مفترقة كما افترقت الأُمَم قبلها، فنعوذ بالله من شرّ ما هو كائن؛ ثم عاد ثانية فقال: إنه لا بدّ مما هو كائن أن يكون، ألَا وإن هذه الأمّة ستفترق على ثلاث وسبعين فِرْقة، شرُّها فرقة تحبّني ولا تعمل بعملي، وقد أدركتم ورأيتم، فالزموا دينكم، واهتدوا بهَدْيِي فإنه هدي نبيّكم، واتّبعوا سنّته، وأعرضوا عمّا أشكل عليكم، حتى تعرضوه على الكتاب، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردُّوه، وارضوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمّد نبيًّا، وبالقرآن حكمًا وإمامًا. قال: فلما عزم على المسير من الرَّبذة قام إليه ابن أبي رفاعة بن رافع، فقال: يا أمير المؤمنين أيَّ شيءٍ تريد؟ وأين تذهب بنا؟ فقال: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح، إن قَبِلُوا منّا وأجابوا إليه، قال: فإن لم يجيبوا إليه؟ قال: ندعهم بغدرهم نعطيهم الحق ونصبر. قال: فإن لم يرضوا؟ قال: ندعهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم، قال: فنعم إذًا؛ فقام إليه الحجاج بن غزية الأنصاري فقال: لأرضينّك بالفعل كما أرضيتني بالقول، والله لينصرني الله كما سمّانا أنصارًا. قال: وأتت جماعة من طيىء وعليّ بالرّبذة، فقيل له: هؤلاء جماعة [جاؤوا] من طيىء منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد السلام عليك، فقال: جزى الله كلًّا خيرًا ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٩٥]، قالوا: فسار عليٌّ من الرّبذة على تعبئته وهو راكب ناقة حمراء يقود فرسًا كميتًا[2]، فلما كان بفيد جاءه جماعة من أسد وطييء، فعرضوا أنفسهم عليه فقال: فيمن معي كفاية، وجاء رجل من أهل الكوفة يقال له عامر بن مطر الشيبانيّ، فقال له عليّ: ما وراءك؟ فأخبره الخبر، فسأله عن أبي موسى، فقال: إن أردت الصُّلح فأبو موسى صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه، فقال عليٌّ: والله ما أريد إلّا الصُّلح ممن ترد علينا. وسار، فلما اقترب من الكوفة وجاءه الخبر بما وقع من الأمر على جليّته من قتلٍ ومن إخراج عثمان بن حنيف من البصرة، وأخذهم أموال بيت المال، جعل يقول: اللّهمّ عافني مما ابتليت

(١) نزغ: أفسد وأغوى.

(٢) الكميت: اللون بين السواد والحمرة.

به طلحة والزُّبير، فلما انتهى إلى ذي قار أتاه عثمان بن حنيف مهشّمًا، وليس في وجهه شعرة فقال: يا أمير المؤمنين بعثتني إلى البصرة وأنا ذو لحية، وقد جئتك أمردًا، فقال: أصَبْتَ خيرًا وأجرًا. وقال عن طلحة والزبير: اللّهمّ احْلُلْ ما عقدا، ولا تبرم ما أحكما في أنفسهما، وأرِهِمَا المساءة فيما قد عَمِلا - يعني في هذا الأمر - وأقام عليٌّ بذي قار ينتظر جواب ما كتب به مع محمد بن أبي بكر وصاحبه محمد بن جعفر - وكانا قد قدما بكتابه على أبي موسى وقاما في الناس بأمره - فلما يُجابا في شيءٍ، فلما أمسوا دخل أُناس من ذوي الحجى[1] على أبي موسى يعرضون عليه الطاعة لعليّ، فقال: كان هذا بالأمس، فغضب محمد ومحمد فقالا له قولاً غليظًا: فقال لهما: والله إن بيعة عثمان لَفِي عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بدٌّ من قتال فلا نقاتل أحدًا حتى نفرغ من قَتَلة عثمان حيث كانوا ومَنْ كانوا، فانطلقا إلى عليّ فأخبراه الخبر، وهو بذي قار، فقال للأشتر: أنت صاحب أبي موسى والمعرض في كل شيء، فاذهب أنت وابن عباس فأصلح ما أفسدت، فخرجا فقدما الكوفة وكَلّما أبا موسى واستعانا عليه بنفرٍ من الكوفة، فقام في الناس فقال: أيّها الناس، إن أصحاب محمّد ﷺ الذين صحبوه أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقًّا وأنا مؤدٌّ إليكم نصيحة، كان الرأي أن لا تستخفوا بلسطان الله وأن لا تجترئوا على أمره، وهذه فتنة النائم فيها خيرٌ من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خيرٌ من الراكب، والراكب خيرٌ من الساعي، فأغمدوا السيوف وانصلوا الأسِنَّة، واقطعوا الأوتار، وأووا المضطهد والمظلوم حتى يلتئم هذا الأمر، وتتجلّى هذه الفتنة؛ فرجع ابن عباس والأشتر إلى عليٍّ فأخبراه الخبر، فأرسل الحسن وعمّار بن ياسر، وقال لعمّار: انطلق فأصلح ما أفسدت، فانطلقا حتى دخلا المسجد فكان أوّل من سلّم عليهما مسروق بن الأجدع، فقال لعمّار: علامَ قتلتم عثمان؟ فقال؛ على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا، فقال: والله ما عاقبتم بمثل ما عُوقبتم به، ولو صبرتم لكان خيرًا للصابرين. قال: وخرج أبو موسى، فلَقِيَ الحسن بن عليّ فضمّه إليه، وقال لعمّار: يا أبا اليقظان أعدوتَ على أمير المؤمنين عثمان قتلته؟ فقال: لم أفعل، ولم يَسُؤني ذلك، فقطع عليهما الحسن بن علي، فقال لأبي موسى: لم تثبط[2] الناس عنّا؟ فوالله ما أردنا إلّا الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء، فقال: صدقت بأبي وأمّي، ولكن المستشار مؤتمن، سمعت من النبيّ ﷺ

---

(١) الحجى: العقل.

(٢) ثبط: عوّق وبطّأ عن الأمر، أي لم تدفع الناس عنّا.

يقول: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الراكب»، وقد جعلنا الله إخوانًا وحرَّم علينا دماءنا وأموالنا، فغضب عمّار وسبَّه، وقال: يا أيُّها الناس، إنما قال له رسول الله ﷺ وحده أنت فيها قاعدًا خيرٌ منك قائمًا، فغضب رجل من بني تميم لأبي موسى ونال من عمار، وثار آخرون، وجعل أبو موسى يكفكف الناس، وكَثُر اللّغط[1]، وارتفعت الأصوات، وقال أبو موسى: أيُّها الناس، أطيعوني وكونوا خير قوم من خير أُمم العرب، يأوي إليهم المظلوم، ويأمَنْ فيهم الخائف، وإن الفتنة إذا أقبلت شبّهت، وإذا أدبرت تبيَّنت؛ ثم أمر الناس بكفّ أيديهم ولزوم بيوتهم، فقام زيد بن صوحان فقال: أيّها الناس سيروا إلى أمير المؤمنين، وسيّد المسلمين، سيروا إليه أجمعون، فقام القعقاع بن عمرو فقال: إن الحق ما قاله الأمير، ولكن لا بدّ للناس من أمير يردع الظالم ويعدي المظلوم، وينتظم به شمل الناس، وأمير المؤمنين عليٌّ ملي بما ولي، وقد أنصف بالدعاء، وإنما يريد الإصلاح، فانفروا إليه، وقام عبد خير فقال: الناس أربع فرق، عليٌّ بمن معه في ظاهر الكوفة، وطلحة والزُّبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا تقاتل ولا عناء بها، فقال أبو موسى: أولئك خير الفرق، وهذه فتنة.

ثم تراسل الناس في الكلام، ثم قام عمّار والحسن بن عليّ في الناس على المنبر يدعوان الناس إلى النفير إلى أمير المؤمنين، فإنه إنما يريد الإصلاح بين الناس، وسمع عمار رجلًا يسبّ عائشة فقال: اسكت مقبوحًا منبوحًا، والله إنها لزوجة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أتطيعوه أو إيّاها، رواه البخاري. وقام حجر بن عدي، فقال: أيّها الناس، سيروا إلى أمير المؤمنين ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبَة: الآية ٤١]، وجعل الناس كلّما قام رجل فحرّض الناس على النفير يثبطهم أبو موسى من فوق المنبر، وعمّار والحسن معه على المنبر، حتى قال له الحسن بن عليّ: ويحك! اعتزلنا لا أُمَّ لك، ودَعْ منبرنا، ويقال: إنّ عليًّا بعث الأشتر فعزل أبا موسى عن الكوفة وأخرجه من قصر الإمارة من تلك الليلة، واستجاب الناس للنفير، فخرج مع الحسن تسعة آلاف في البرّ وفي دجلة، ويقال: سار معه اثني عشر ألف رجل ورجل واحد، وقدموا على أمير المؤمنين فتلقّاهم بذي

(١) اللغط: الصوت والجلبة.

قار إلى أثناء الطريق في جماعة، منهم ابن عباس فرحَّب بهم وقال: يا أهل الكوفة! أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك الذي نريده، وإن أبَوْا داوَيْناهم بالرّفق حتى يبدؤونا بالظلم، ولم ندع أمرًا فيه صلاح إلّا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالىٰ. فاجتمعوا عنده بذي قار، وكان من المشهورين من رؤساء من انضاف إلى عليٍّ القعقاع بن عمرو، وسعد بن مالك، وهند بن عمرو، والهيثم بن شهاب، وزيد بن صوحان، والأشتر، وعديّ بن حاتم، والمسيّب بن نجبة، ويزيد بن قيس، وحجر بن عدي وأمثالهم، وكان عبد القيس بكمالها بين عليٍّ وبين البصرة ينتظرونه وهم ألوف، فبعث عليّ القعقاع بن عمرو رسولاً إلى طلحة والزُّبَيْر بالبصرة يدعوهما إلى الأُلفة والجماعة، ويعظم عليهما الفرقة والاختلاف، فذهب القعقاع إلى البصرة فبدأ بعائشة أُمّ المؤمنين، فقال: أي أُمّاه! ما أقدمك هذا البلد؟ فقالت: أيّ بنيّ! الإصلاح بين الناس، فسألها أن تبعث إلى طلحة والزُّبَير ليحضرا عندها، فحضرا فقال القعقاع: إني سألت أُمّ المؤمنين ما أقدمها، فقالت إنما جئت للإصلاح بين الناس، فقالا: ونحن كذلك، قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ وعلي أي شيءٍ يكون؟ فوالله لئن عرفناه لنصطلحن، ولئن أنكرناه لا نصطلحن، قالا: قَتَلة عثمان، فإن هذا إن ترك كان تركًا للقرآن، فقال: قتلتما قتلته من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب منكم إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل، فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف، فإن تركتموهم وقعتم فيما تقولون، وإن قاتلتموهم فأديلوا عليكم كان الذي حذرتم وفرّقتم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تدفعون وتجمعون منه ـ يعني أن الذي تريدونه من قتل قَتَلَه عثمان مصلحة، ولكنه يترتّب عليه مفسدة هي أربى[1] منها ـ وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حرقوص بن زهير، لقيام ستّة آلاف في منعه ممن يريد قتله، فعليّ أعذر في تركه الآن قتل قَتَلَة عثمان، وإنما أخّر قتل قَتَلة عثمان إلى أن يتمكّن منهم، فإن الكلمة في جميع الأمصار مختلفة، ثم أعلمهم أن خلقًا من ربيعة ومُضَر قد اجتمعوا لحربهم بسبب هذا الأمر الذي وقع. فقالت له عائشة أُمّ المؤمنين: فماذا تقول أنت؟ قال: أقول إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين، فإذا سكن اختلجوا[2]، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة، وإدراك الثأر، وإن أنتم أبَيْتم إلّا مكابرة هذا الأمر وائتنافه كانت علامة شرّ وذهاب هذا الملك، فآثروا العافية

---

(١) أربىٰ: أعظمُ.

(٢) اختلج: تحرّك.

ترزقوها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أوّلاً، ولا تعرّضونا للبلاء فتتعرّضوا له، فيصرعنا الله وإيّاكم، وأيم الله إني لأقول قولي هذا وأدعوكم إليه، وإني لخائف أن لا يتمّ حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمّة التي قلّ متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي قد حدث أمرٌ عظيم، وليس كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة القبيلة. فقالوا: قد أصبتَ وأحسنت فارجع، فإن قدم عليٌّ وهو على مثل رأيك صلح الأمر، قال: فرجع إلى عليّ فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كرهه ورَضِيَه من رَضِيَه، وأرسلت عائشة إلى عليٍّ تعلمه أنها إنما جاءت للصلح، ففرح هٰؤلاء وهؤلاء، وقام عليٌّ في الناس خطيبًا فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألْفة والجماعة، وأن الله جمعهم بعد نبيّه ﷺ على الخليفة أبي بكر الصدّيق، ثم بعده على عمر بن الخطاب، ثم على عثمان ثم حدث هذا الحدث الذي جرى على الأمّة، أقوام طلبوا الدنيا وحسدوا من أنعم الله عليه بها، وعلى الفضيلة التي منَّ الله بها، وأرادوا ردّ الإسلام والأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره؛ ثم قال: ألَا إني مرتحل غدًا فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان بشيءٍ من أمور الناس. فلما قال هذا اجتمع من رؤوسهم جماعة كالأشتر النخعي، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، وسالم بن ثعلبة، وغلاب بن الهيثم، وغيرهم في ألفين وخمسمائة، وليس فيهم صحابي ولله الحمد، فقالوا: ما هذا الرأي وعلّي والله أعلم بكتاب الله ممن يطلب قَتَلة عثمان، وأقرب إلى العمل بذلك، وقد قال ما سمعتم، غدًا يجمع عليكم الناس، وإنما يريد القوم كلّهم أنتم، فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم، فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزُّبير فينا، وأما رأي عليّ فلم نعرفه إلى اليوم، فإن كان قد اصطلح معهم فإنما اصطلحوا على دمائنا، فإن كان الأمر هكذا ألحقنا عليًّا بعثمان، فرضي القوم منّا بالسكوت، فقال ابن السوداء: بِئْسَ ما رأيت، لو قتلناه قُتِلْنا، فإنّا يا معشر قَتَلة عثمان في ألفين وخمسمائة وطلحة والزُّبير وأصحابهما في خمسة آلاف، لا طاقة لكم بهم، وهم إنما يريدونكم، فقال غلاب بن الهيثم: دعوهم وارجعوا بنا حتى نتعلق ببعض البلاد فنمتنع[1] بها، فقال ابن السوداء: بِئْسَ ما قلت، إذًا والله كان يتخطّفكم الناس، ثم قال ابن السوداء قبّحه الله: يا قوم إن عيركم في خلطة الناس فإذا التقى الناس فأنشبوا الحرب والقتال بين الناس ولا تدعوهم يجتمعون فمن أنتم معه لا يجد بدًّا من أن يمتنع، ويشغل طلحة والزُّبَيْر ومن معهما عمّا يحبُّون، ويأتيهم ما

(١) نمتنع: نتحصّن.

يكرهون، فأبصروا الرأي وتفرّقوا عليه، وأصبح عليٌّ مرتحلاً ومرَّ بعبد القيس فسار ومَنْ معه حتى نزلوا بالزاوية، وسار منها يريد البصرة، وسار طلحة والزُّبَيْر ومن معهما للقائه، فاجتمعوا عند قصر عبيد الله بن زياد، ونزل الناس كلٌّ في ناحية. وقد سبق عليٌّ جيشه وهم يتلاحقون به، فمكثوا ثلاثة أيّام والرُّسُل بينهم، فكان ذلك للنصف من جمادىٰ الآخرة سنة ستّ وثلاثين، فأشار بعض الناس على طلحة والزُّبَيْر بانتهاز الفرصة من قَتَلَة عثمان فقالا: إنّ عليًا قد أشار بتسكين هذا الأمر، وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك، وقام عليٌّ في الناس خطيبًا، فقام إليه الأعور بن نيار المنقري، فسأله عن إقدامه على أهل البصرة، فقال: الإصلاح، وإطفاء الثائرة ليجتمع الناس على الخير، ويلتئم شمل هذه الأمّة، قال: فإن لم يجيبونا؟ قال: تركناهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: دفعناهم عن أنفسنا، قال: فهل لهم في هذا الأمر مثل الذي لنا، قال: نعم! وقام إليه أبو سلام الدالاني فقال: هل لهٰؤلاء القوم حجّة فيما طلبوا من هذا الدم، إن كانوا أرادوا الله في ذلك؟ قال: نعم! قال: فهل لك من حجّة في تأخيرك ذلك؟ قال: نعم! قال: فما حالنا وحالهم إن ابْتُلينا غدًا؟ قال: إني لأرجو أن لا يقتل منّا ومنهم أحد نقي قلبه لله إلّا أدخله الله الجنّة، وقال في خطبته: أيّها الناس أمسكوا عن هٰؤلاء القوم أيديكم وألسنتكم، وإيّاكم أن يسبقونا غدًا، فإن المخصوم غدًا مخصوم اليوم، وجاء في غبون ذلك الأحنف بن قيس في جماعة، فانضاف إلى عليٍّ - وكان قد منع حرقوص بن زهير من طلحة والزُّبَيْر وكان قد بايع عليًا بالمدينة وذلك أنه قدم المدينة وعثمان محصور، فسأل عائشة وطلحة والزُّبَيْر: إن قُتِل عثمان من أُبايع؟ فقالوا: بايع عليًا، فلما قتل عثمان بايع عليًا، قال: ثم رجعت إلى قومي فجاءني بعد ذلك ما هو أفظع، حتى قال الناس: هذه عائشة جاءت لتأخذ بدم عثمان، فحرتُ في أمري لمن أتبع، فمنعني الله بحديث سمعته من أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ وقد بلغه أن الفرس قد ملكوا عليهم ابنة كسرى، فقال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»، وأصل هذا الحديث في صحيح البخاري، والمقصود أن الأحنف لما انحاز إلى عليٍّ ومعه ستّة آلاف قوس، فقال لعلي: إن شئت قاتلت معك، وإن شئت كففت عنك عشرة آلاف سيف، فقال: اكفف عنا عشرة آلاف سيف، ثم بعث عليّ إلى طلحة والزُّبير يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفّوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر، فأرسلا إليه في جواب رسالته: إنّا على ما فارقنا القعقاع بن عمرو من الصُّلح بين الناس، فاطمأنّت النفوس وسكنت، واجتمع كلّ فريق بأصحابه من الجيشين، فلما أمسوا بعث عليّ عبد الله بن عباس إليهم،

وبعثوا إليه محمد بن طليحة السجاد وبات الناس بخير ليلة، وبات قَتَلة عثمان بشرٍّ ليلة، وباتوا يتشاورون وأجمعوا على أن يُثيروا الحرب من الغلس[١]، فنهضوا من قبل طلوع الفجر وهم قريب من ألفَي رجل، فانصرف كل فريق إلى قراباتهم فهجموا عليهم بالسيوف، فثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم، وقام الناس من منامهم إلى السلام، فقالوا: طرقتنا أهل الكوفة ليلًا، وبيَّتونا وغدروا بنا، وظنّوا أن هذا عن ملأ من أصحاب عليّ فبلغ الأمر عليًا، فقال: ما للناس؟ فقالوا: بيَّتنا أهل البصرة، فثار كل فريق إلى سلاحه ولَبِسوا اللّأمة وركبوا الخيول، ولا يشعر أحد منهم بما وقع الأمر عليه في نفس الأمر، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا وقامت الحرب على ساقٍ وقدم، وتبارز الفرسان، وجالَت الشجعان، فنشبت الحرب، وتواقف الفريقان وقد اجتمع مع عليٍّ عشرون ألفًا، والتفّ على عائشة ومن معها نحوًا من ثلاثين ألفًا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، والسابئة أصحاب ابن السوداء قبَّحه الله لا يفترون[٢] عن القتل، ومنادي عليّ ينادي: ألَا كفّوا، ألَا كفّوا، فلا يسمع أحد، وجاء كعب بن سوار قاضي البصرة فقال: يا أُمّ المؤمنين أدركي الناس لعلّ الله أن يُصلِح بك بين الناس، فجلست في هودجها فوق بعيرها وستروا الهودج بالدّروع، وجاءت فوقفت بحيث تنظر إلى الناس عند حركاتهم، فتصاولوا وتجاولوا، وكان من جملة مَن تبارز الزُّبير وعمّار، فجعل عما ينخره بالرمح والزُّبير كافٌ عنه، ويقول له: أتقتلني يا أبا اليقظان؟ فيقول: لا يا أبا عبد الله، وإنما تركه الزبير لقول رسول الله ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية»، وإلّا فالزبير أقدر عليه منه عليه، فلهذا كفَّ عنه، وقد كان من سنتهم في هذا اليوم أنه لا يذفف[٣] على جريح، ولا يتبع مدبر، وقد قتل مع هذا خلقٌ كثير جدًا، حتى جعل عليٌّ يقول لابنه الحسن: يا بني ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عامًا، فقال له: يا أبتِ قد كنتُ أنهاك عن هذا، قال سعيد بن أبي عجرة عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عبادة قال: قال عليٌّ يوم الجمل: يا حسن ليت أباك مات منذ عشرين سنة، فقال له: يا أبهْ قد كنتُ أنهاك عن هذا، قال: يا بنيّ إني لم أرَ أن الأمر يبلغ هذا. وقال مبارك بن فضالة عن الحسن بن أبي بكرة: لما اشتدّ القتال يوم الجمل، ورأى عليٌّ الرؤوس تندر[٤] أخذ عليّ ابنه الحسن فضمّه إلى صدره، ثم قال: إنّا لله يا حسن! أيُّ خير يرجى بعد هذا؟ فلما ركب الجيشان وتراءى الجمعان وطلب عليٌّ طلحة والزبير ليكلّمهما، فاجتمعوا حتى التفت أعناق خيولهم،

---

(١) الغلس: ظلمة آخر الليل.
(٢) يفترون: يسكنون.
(٣) ذفف: أجهز.
(٤) نَدَر: سقط.

يقال إنه قال لهما: إني أراكما قد جمعتما خيلاً ورجالاً وعددًا؛ فهل أعددتما عذرًا يوم القيامة؟ فاتّقيا الله ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثًا، ألم أكن حاكمًا في دمكما تحرّمان دمي وأُحرّم دمكما، فهل من حديث أحلّ لكما دمي؟ فقال طلحة: ألّبتَ على عثمان، فقال عليّ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النُّور: الآية ٢٥]، ثم قال: لعن الله قَتَلة عثمان، ثم قال: يا طلحة! أجئت بعرس[١] رسول الله ﷺ تقاتل بها، وخبّأت عرسك في البيت؟ أمَا بايعتني؟ قال: بايعتك والسّيف على عُنُقي. وقال للزُّبير: ما أخرجك؟ قال: أنت، ولا أراك بهذا الأمر أولى به منّي. فقال له علي: أمَا تذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم فنظر إليّ وضحك وضحكت إليه، فقلت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال لك رسول الله ﷺ: «إنه ليس بمتمرّد لتقاتلنه وأنت ظالمٌ له»؟ فقال الزُّبير: اللّهمّ نعم! ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا، ووالله لا أقاتلك، وفي هذا السياق كلّه نظر، والمحفوظ منه الحديث، فقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي، فقال: حدّثنا أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الدوري، حدّثنا أبو عاصم عن عبد الله بن محمد بن عبد الملك بن مسلم الرقاشي عن جدّه عبد الملك عن أبي حزم المازني، قال: شهدت عليًا والزُّبير حين تواقفا، فقال له عليّ: يا زبير! أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك تقاتلني وأنت ظالم»؟ قال: نعم! لم أذكره إلّا في موقفي هذا، ثم انصرف. وقد رواه البيهقي عن الحاكم عن أبي الوليد الفقيه عن الحسن بن سفيان عن قطن بن بشير عن جعفر بن سليمان عن عبد الله بن محمد بن عبد الملك بن مسلم الرّقاشي عن جدّه عن أبي حزم المازني عن عليّ والزُّبير به.

وقال عبد الرزاق: أنا معمر عن قتادة، قال: لما ولّى الزبير يوم الجمل بلغ عليًا، فقال: لو كان ابن صفية يعلم أنه على حقّ ما ولّى، وذلك أن رسول الله ﷺ لقيهما في سقيفة بني ساعدة فقال: «أتحبه يا زبير؟ فقال: وما يمنعني؟ قال: فكيف بك إذا قاتلته وأنت ظالمٌ له»؟ قال: فيرون أنه إنّما ولى لذلك. قال البيهقي: وهذا مرسل، وقد روي موصولاً من وجهٍ آخر: أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن القاضي، أنا أبو عامر بن مطر، أنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن سوار الهاشمي الكوفي، أنا منجاب بن الحارث، ثنا عبد الله بن الأجلح، ثنا أبي عن مرثد الفقيه عن أبيه، قال: وسمعت فضل بن فضالة يحدّث عن حرب بن أبي الأسود الدُّؤلي ـ ودخل حديث أحدهما في حديث صاحبه ـ قال: لما دنا عليٌّ وأصحابه من طلحة والزُّبَيْر،

---

(١) عرس: زوجة.

ودنَت الصُّفوف بعضها من بعض، خرج عليٌّ وهو على بغلة رسول الله ﷺ فنادى: ادعوا لي الزُّبير بن العوام فإني علي، فدُعِي له الزبير فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابّهما، فقال علي: يا زبير! نشدتك الله، أتذكر يوم مرّ بك رسول الله ﷺ ونحن في مكان كذا وكذا، فقال: «يا زبير ألَا تحب عليًا؟ فقلت: ألَا أحب ابن خالي وابن عمّي وعلى ديني؟ فقال: يا زبير أمَا والله لتقاتلنّه وأنت ظالم له؟» فقال الزُّبير: بلى! والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﷺ، ثم ذكرته الآن، والله لا أقاتلك. فرجع الزُّبير على دابّته يشقّ الصفوف، فعرض له ابنه عبد الله بن الزبير، فقال: ما لك؟ فقال: ذكرني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «لتقاتلنه وأنت ظالمٌ له»، فقال: أوَ للقتال جئت؟ إنما جئت لتصلح بين الناس ويصلح الله بك هذا الأمر، قال: قد حلفت أن لا أُقاتله، قال: أَعتق غلامك سرجس وقِفْ حتى تصلح بين الناس، فأعتق غلامه ووقف، فلما اختلف أمر الناس ذهب على فرسه، قالوا: فرجع الزبير إلى عائشة فذكر أنه قد آلى أن لا يقاتل عليًا، فقال له ابنه عبد الله: إنك جمعت الناس، فلما تراءى بعضهم لبعض خرجت من بينهم، كفّر عن يمينك واحضر. فأعتق غلامًا، وقيل: غلامه سرجس. وقد قيل: إنه إنما رجع عن القتال لما رأى عمّارًا مع عليٍّ وقد سمع رسول الله ﷺ يقول لعمّار: «تقتلك الفئة الباغية»، فحشّي أن يقتل عمّار في هذا اليوم.

وعندي أن الحديث الذي أوردناه إن كان صحيحًا عنه فما رجعه سواه، ويبعد أن يكفّر عن يمينه ثم يحضر بعد ذلك لقتال عليّ، والله أعلم.

والمقصود أن الزُّبير لما رجع يوم الجمل سار فنزل واديًا يقال له وادي السّباع، فاتّبعه رجل يقال له عمرو بن جرموز، فجاءه وهو نائم فقتله غيلة كما سنذكر تفصيله. وأمّا طلحة فجاءه في المعركة سهم غرب[1] يقال: رماه به مروان بن الحكم فالله أعلم، فانتظم رجله مع فرسه فجمحت به الفرس فجعل يقول: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، فاتّبعه مولى له فأمسكها، فقال له: ويحك! اعدل بي إلى البيوت، وامتلأ خفّه دمًا، فقال لغلامه: اردفني[2]، وذلك أنه نزف الدم وضعف، فركب وراءه وجاء به إلى بيتٍ في البصرة فمات فيه، رضي الله عنه.

وتقدّمت عائشة رضي الله عنها في هودجها، وناولت كعب بن سوار قاضي البصرة مصحفًا وقالت: ادعهم إليه ـ وذلك أنه حين اشتدّ الحرب وحمي القتال،

---

(١) سهم غرب: سهم طائش.

(٢) أردفني: أركبني خلفك.

ورجع الزُّبير، وقتل طلحة رضي الله عنهما ـ فلما تقدّم كعب بن سوار بالمصحف يدعو إليه استقبله مقدمة جيش الكوفيّين، وكان عبد الله بن سبأ ـ وهو ابن السوداء ـ وأتباعه بين يدي الجيش، يقتلون من قدروا عليه من أهل البصرة، لا يتوقّفون في أحد، فلما رأوا كعب بن سوار رافعًا المصحف رشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد فقتلوه، ووصلت النبال إلى هودج أُمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فجعلت تنادي: الله الله! يا بني اذكروا يوم الحساب ورفعت يديها تدعو على أولئك النفر من قَتَلَة عثمان، فضجّ الناس معها بالدعاء حتى بلغت الضجة إلى عليّ، فقال: ما هذا؟ فقالوا: أُم المؤمنين تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم. فقال: اللّهمّ العَن قتلة عثمان، وجعل أولئك النفر لا يقلعون عن رشق هودجها بالنّبال حتى بقي مثل القنفذ، وجعلت تحرّض الناس على منعهم وكفّهم، فحملت معه الحفيظة[1] فطردوهم حتى وصلت الحملة إلى الموضع الذي فيه عليّ بن أبي طالب، فقال لابنه محمد ابن الحنفية: ويحك! تقدم بالراية، فلم يستطع، فأخذها عليّ من يده فتقدّم بها، وجعلت الحرب تأخذ وتعطي، فتارة لأهل البصرة، وتارة لأهل الكوفة، وقُتِل خلق كثير، وجمّ غفير، ولم تُرَ وقعة أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الوقعة، وجعلت عائشة تحرّض الناس على أولٰئك النفر من قَتَلة عثمان، ونظرت عن يمينها فقالت: من هٰؤلاء القوم؟ فقالوا: نحن بكر بن وائل، فقالت: لكم يقول القائل:

وجاؤوا إلينا بالحديدِ كأنَّهُمْ ... مِنَ الغرَّةِ القعساءِ بكرُ بنُ وائلِ[2]

ثم لجأ إليها بنو ناجية ثم بنو ضبّة، فقتل عندها منهم خلق كثير، ويقال: إنه قطعت يد سبعين رجلاً وهي آخذة بخطام الجمل، فلما أثخنوا تقدم بنو عدي بن عبد مناف فقاتلوا قتالاً شديدًا، ورفعوا رأس الجمل، وجعل أُولٰئك يقصدون الجمل وقالوا: لا يزال الحرب قائمًا ما دام هذا الجمل واقفًا، ورأس الجمل في يد عمرة بن يثربي، وقيل أخوه عمرو بن يثربي، ثم صمد عليه علباء بن الهيثم، وكان من الشجعان المذكورين، فتقدم إليه عمرو الجملي فقتله ابن يثربي وقتل زيد بن صوحان، وأرنث صعصعة بن صوحان فدعاه عمار إلى البراز فبرز له، فتجاولا بين الصفّين ـ وعمار ابن تسعين سنة عليه فروة قد ربط وسطه بحبل ليف ـ فقال الناس: إنّا لله وإنّا إليه راجعون الآن يلحق عمّارًا بأصحابه، فضربه ابن يثربي بالسيف فاتّقاه عمار بدرقته

(١) حملت: هاجمت. والحفيظة: أهل الحفاظ، أي المدافعون.

(٢) الغرّة القعساء: الأشراف ذوو الهمم.

فغصّ فيها السيف ونشب، وضربه عمار فقطع رجليه وأخذ أسيرًا إلى بين يدي عليّ، فقال: استبقني يا أمير المؤمنين، فقال: أبعد ثلاثة تقتلهم؟ ثم أمر به فقُتل واستمرّ زمام الجمل بعده بيد رجل كان قد استنابه فيه من بني عدي، فبرز إليه ربيعة العقيلي فتجاولا حتى قتل كل واحد صاحبه وأخذ الزمام الحارث بن الضبي فما رُئِيَ أشدّ منه، وجعل يقول:

نحن بنو ضبّة أصحابُ الجملْ ... نبارز القِرنَ إذا القرنُ نزل[1]
ننعي ابن عفانَ بأطرافِ الأسلْ ... الموتُ أحلى عندنا مِنَ العسل
ردُّوا علينا شيخَنا ثم بَجَلْ

وقيل: إن هذه الأبيات لوسيم بن عمرو الضبيّ، فكلما قتل واحد ممن يمسك الجمل يقوم غيره حتى قتل منهم أربعون رجلًا، قالت عائشة: ما زال جملي معتدلاً حتى فقدت أصوات بني ضبّة، ثم أخذ الخطام سبعون رجلًا من قريش وكل واحدٍ يقتل بعد صاحبه، فكان منهم محمد بن طلحة المعروف بالسجاد، فقال لعائشة: مُريني بأمرك يا أُمَّه، فقالت: آمرك أن تكون كخير ابني آدم فامتنع أن ينصرف وثبت في مكانه وجعل يقول: حَمَ لا ينصرون، فتقدم إليه نفر فحملوا عليه فقتلوه وصار كل واحد منهم بعد ذلك يدّعي قتله وقد طعنه بعضهم بحربة فأنفذه، وقال:

وأشعث قوّامٍ بآياتِ ربّهِ ... قليلِ الأذى فيما ترى العينُ مسلم
هتكت له بالرمحِ جيبَ قميصهِ ... فخرَّ صريعًا لليدينِ وللفم
يناشدني حَم والرمحُ شاجرٌ[2] ... فهلّا تلا حَمْ قبلَ التقدُّمِ
على غير شيءٍ غير أنْ ليسَ تابعًا ... عليًا ومَنْ لا يتبعِ الحقَّ يندمِ

وأخذ الخطام عمرو بن الأشرف، فجعل لا يدنو منه أحد إلّا حطّه بالسيف، فأقبل الحارث بن زهير الأزدي وهو يقول:

يا أمّنا يا خيرَ أُمٍّ نعلم ... أما ترين كمْ شجاعٍ يُكْلَمُ ... وتُجْتلَى هامتُهُ والمعصمُ[3]

واختلفا ضربتين فقتل كل واحدٍ صاحبه، وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة، فكان لا يأخذ الراية ولا بخطام الجمل إلّا شجاع معروف، فيقتل من قصده

---

(١) القِرن: السيد.
(٢) شاجر: شجر بالرمح، طعن به.
(٣) يُكلم: يُجرح.

ثم يقتل بعد ذلك، وقد فقأ بعضهم عين عدي بن حاتم ذلك اليوم، ثم تقدم عبد الله بن الزُّبير فأخذ بخطام الجمل وهو لا يتكلّم، فقيل لعائشة: إنه ابنك ابن أختك، فقالت: واثكل أسماء! وجاء مالك بن الحارث الأشتر النخعي فاقتتلا فضربه الأشتر على رأسه فجرحه جرحًا شديدًا، وضربه عبد الله ضربة خفيفة ثم اعتنقا وسقطا إلى الأرض يعتركان، فجعل عبد الله بن الزُّبير يقول:

اقـتـلـونـي ومـالـكًـا واقـتـلـوا مـالـكًـا مـعـي

فجعل الناس لا يعرفون مالكًا من هو وإنما هو معروف بالأشتر، فحمل أصحاب عليّ وعائشة فخلصوهما وقد جرح عبد الله بن الزبير يوم الجمل بهذه الجراحة سبعًا وثلاثين جراحة، وجرح مروان بن الحكم أيضًا، ثم جاء رجل فضرب الجمل على قوائمه فعقره وسقط إلى الأرض، فسمع له عجيج ما سمع أشدّ ولا أنفذ منه، وآخر من كان الزمام بيده زفر بن الحارث فعقر الجمل وهو في يده، ويقال: إنه اتفق هو وبجير بن دلجة على عقره، ويقال: إن الذي أشار بعقر الجمل عليّ، وقيل: القعقاع بن عمرو لئلّا تصاب أمّ المؤمنين، فإنها بقيت غرضًا للرُّماة، ومن يمسك بالزمام برجاسًا للرماح، ولينفصل هذا الموقف الذي قد تفانى فيه الناس، ولما سقط البعير إلى الأرض انهزم من حوله من الناس، وحمل هودج عائشة وأنه لكالقنفذ من السهام، ونادى منادي عليّ في الناس: إنه لا يتبع مدبر ولا يذفف على جريح، ولا يدخلوا الدور، وأمر عليّ نفرًا أن يحملوا الهودج من بين القتلى، وأمر محمد بن أبي بكر وعمّارًا أن يضربا عليها قبّة، وجاء إليها أخوها محمد فسألها: هل وصل إليك شيء من الجراح؟ فقالت: لا! وما أنت ذاك يا ابن الخثعمية. وسلّم عليها عمّار فقال: كيف أنتِ يا أُم؟ فقالت: لست لك بأُمّ. قال: بلى! وإن كرهتِ، وجاء إليها عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين مسلّمًا فقال: كيف أنت يا أُمّه؟ قالت: بخير، فقال: يغفر الله لك. وجاء وجوه الناس من الأُمراء والأعيان يسلّمون على أُمّ المؤمنين رضي الله عنها، ويقال: إن أعين بن ضبيعة المجاشعي اطّلع في الهودج فقالت: إليك لعنك الله، فقال: والله ما أرى إلّا حُمَيْراء، فقالت: هتك الله سترك وقطع يدك وأبدى عورتك. فقتل بالبصرة وسُلِب وقُطعت يده ورُمِي عريانًا في خربة من خرابات الأزد، فلما كان الليل دخلت أمّ المؤمنين البصرة - ومعها أخوها محمد بن أبي بكر - فنزلت في دار عبد الله بن خلف الخزاعي - وهي أعظم دار بالبصرة - على صفية بنت الحارث بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدّار، وهي أُمّ طلحة الطلحات عبد الله بن خلف، وتسلّل الجرحى من بين القتلى فدخلوا

البصرة، وقد طاف عليّ بين القتلى فجعل كلما مرَّ برجل يعرفه ترحّم عليه، ويقول: يعزّ عليَّ أن أرى قريشًا صرعى. وقد مرَّ على ما ذكر على طلحة بن عبيد الله وهو مقتول، فقال: لهفي عليك يا أبا محمد، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والله لقد كنت كما قال الشاعر:

فتًى كانَ يدنيهِ الغنى مِنْ صديقهِ إذا ما هوَ استغنى ويبعدهُ الفقرُ

وأقام عليّ بظاهر البصرة ثلاثًا ثم صلّى على القتلى من الفريقين، وخصَّ قريشًا بصلاة من بينهم، ثم جمع ما وجد لأصحاب عائشة في المعسكر وأمر به أن يُحمل إلى مسجد البصرة، فمن عرف شيئًا هو لأهلهم فليأخذه، إلّا سلاحًا كان في الخزائن عليه سِمَة السلطان، وكان مجموع من قُتِلَ يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف، خمسة من هؤلاء وخمسة من هؤلاء، رحمهم الله ورضي عن الصحابة منهم. وقد سأل بعض أصحاب عليّ عليًا أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزُّبَيْر، فأبىٰ عليهم فطعن فيه السبائية، وقالوا: كيف يحلّ لنا دماؤهم ولا تحلّ لنا أموالهم؟ فبلغ ذلك عليًا فقال: أيُّكم يحب أن تصير أُمّ المؤمنين في سهمه؟ فسكت القوم، ولهذا لما دخل البصرة فضَّ في أصحابه أموال بيت المال، فنال كل رجال منهم خمسمائة، وقال: لكم مثلها من الشام، فتكلّم فيه السبائية أيضًا، ونالوا منه من وراء وراء.

فصـــل

ولما فرغ عليّ من أمر الجمل أتاه وجوه الناس يسلّمون عليه، فكان ممن جاءه الأحنف بن قيس في بني سعد ـ وكانوا قد اعتزلوا القتال ـ فقال له عليّ: تربّعت ـ يعني بنا ـ فقال: ما كنت أراني إلّا قد أحسنت، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فارفق فإن طريقك الذي سلكت بعيد، وأنت إليّ غدًا أحوج منك أمس، فاعرف إحساني، واستبق مودّتي لغدٍ، ولا تَقُل مثل هذا فإني لم أزلْ لك ناصحًا. قالوا: ثم دخل عليٌّ البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم، حتى الجرحى والمستأمنة. وجاءه عبد الرحمٰن بن أبي بكرة الثقفي فبايعه، فقال له عليٌّ: أين المريض؟ ـ يعني أباه ـ فقال: إنه والله مريض يا أمير المؤمنين، وإن على مسرتك لحريص. فقال: امْشِ أمامي، فمضى إليه فعاده، واعتذر إليه أبو بكرة فعذره، وعرض عليه البصرة فامتنع، وقال: رجل من أهلك يسكن إليه الناس، وأشار عليه بابن عباس فولّاه على البصرة، وجعل معه زياد ابن أبيه على الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع

من زياد ـ وكان زياد معتزلاً ـ ثم جاء عليّ إلى الدار التي فيها أُمّ المؤمنين عائشة، فاستأذن ودخل فسلَّم عليها ورحَّبت به، وإذا النساء في دار بني خلف يبكين على من قُتِلَ، منهم عبد الله وعثمان ابنا خلف، فعبد الله قُتل مع عائشة، وعثمان قُتِل مع عليّ، فلما دخل عليّ قالت له صفية امرأة عبد الله، أُم طلحة الطلحات: أيْتَم الله منك أولادك كما أيْتمت أولادي، فلم يردَّ عليها عليٌّ شيئًا، فلما خرج أعادت عليه المقالة أيضًا فسكت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فقال: ويحك! إنّا أُمِرْنا أن نكفّ عن النساء وهنّ مشركات، أفلا نكفّ عنهنّ وهن مسلمات؟ فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن على الباب رجلين ينالان من عائشة، فأمر عليٌّ القعقاع بن عمرو أن يجلد كل واحدٍ منهما مائة وأن يخرجهما من ثيابهما، وقد سألت عائشة عمّن قتل معها من المسلمين ومن قُتِل من عسكر عليّ، فجعلت كلما ذكر لها واحد منهم ترحّمت عليه ودعت له، ولما أرادت أُمّ المؤمنين عائشة الخروج من البصرة بعث إليها عليّ رضي الله عنه بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وأذن لمن نجا ممن جاء في الجيش معها أن يرجع إلّا أن يحبّ المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وسَيَّر معها أخاها محمد بن أبي بكر، فلمّا كان اليوم الذي ارتحلت فيه جاء عليّ فوقف على الباب وحضر الناس وخرجت من الدار في الهودج، فودَّعت الناس ودعَتْ لهم، وقالت: يا بني لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين عليّ في القدم إلّا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار. فقال عليّ: صدقْتِ والله ما كان بيني وبينها إلّا ذاك، وإنها لزوجة نبيّكم ﷺ في الدُّنيا والآخرة. وسار عليٌّ معها مودِّعًا ومشيِّعًا أميالاً، وسرَّح بنيه معها بقية ذلك اليوم ـ وكان يوم السبت مستهل رجب سنة ستّ وثلاثين ـ وقصدت في مسيرها ذلك إلى مكّة، فأقامت بها إلى أن حجَّت عامها، ثم رجعت إلى المدينة رضي الله عنها.

وأمّا مروان بن الحكم فإنه لما فرَّ استجار بمالك بن مسمع فأجاره، ووفى له، ولهذا كان بنو مروان يكرمون مالكًا ويشرّفونه، ويقال: إنه نزل دار بني خلف، فلما خرجت عائشة خرج معها، فلما سارت هي إلى مكّة سار إلى المدينة قالوا: وقد علم مَنْ بين مكّة والمدينة والبصرة بالوقعة يوم الوقعة، وذلك مما كانت النسور تخطفه من الأيدي والأقدام فيسقط منها هنالك، حتى إن أهل المدينة علموا بذلك يوم الجمل قبل أن تغرب الشمس، وذلك أن نسرًا مرَّ بهم ومعه شيء فسقط فإذا هو كفّ فيه خاتم نقشه عبد الرحمٰن بن عتاب.

٨٥ ـ يوم صفين[(١)]

لمّا عاد عليّ مِن البصرة بعد فراغه من الجمل قصدَ الكوفة، وأرسل إلى جرير بن عبد الله البجليّ وكان عاملاً على هَمَذان استعمله عثمان، وإلى الأشعث بن قيس وكان على أَذَرْبِيجان استعمله عثمان أيضًا، يأمرهما بأخذ البيعة والحضور عنده، فلما حضرا عنده أراد عليّ أنْ يرسل رسولاً إلى معاوية؛ قال جرير: أرسلني إليه فإنه لي وِدّ، فقال الأشتر: لا تفعل فإنّ هواه مع معاوية. فقال علي: دَعْه حتى ننظر ما الذي يرجعُ إلينا به.

فبعثه وكتب معه كتابًا إلى معاوية يُعْلِمُه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة والزُّبير وحربه إيَّاهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته، فسار جرير إلى معاوية، فلما قَدِم عليه ماطله، واستنظره، واستشار عَمْرًا فأشار عليه أن يجمع أهل الشام ويُلْزِم عليًّا عثمان ويقاتله بهم، ففعل معاوية ذلك، وكان أهل الشام لما قَدِم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان الذي قُتِل فيه مخضوبًا بالدم بأصابع زوجته نائلة أصبعان منها وشيءٌ من الكفّ وأصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام، وَضَعَ معاوية القميص على المنبر وجمع الأجناد إليه فبكوا على القميص مُدَّة وهو على المنبر والأصابع معلّقة فيه، وأقسم رجالٌ من أهل الشام أنْ لا يمسّهم الماء إلّا للغسل من الجنابة[(٢)]، وأنْ لا يناموا على الفُرُش حتى يقتلوا قَتَلة عثمان ومَنْ قام دونهم قَتَلُوه، فلما عاد جرير إلى أمير المؤمنين عليّ وأخبره خبر معاوية واجتماع أهل الشام معه على قتاله وأنهم يبكون على عثمان ويقولون: «إنّ عليًّا قتله وآوىٰ قَتَلَته وأنهم لا ينتهون عنه حتى يقتلهم أو يقتلوه». قال الأشتر لعليّ: قد كنتُ نهيتُك أن تُرْسِلَ جريرًا وأخبرتك بعداوته وغِشِّهِ، ولو كنتَ أرسلتني لكان خيرًا من هذا الذي أقام عنده حتى لم يَدَعْ بابًا يرجو فَتْحه إلّا فَتَحه، ولا بابًا يُخافُ منه إلّا أغلقه. فقال جرير: لو كنت ثَمّ لقتلوك، لقد ذكروا أنك مِنْ قَتَلَة عثمان. فقال الأشتر: واللهِ لو أتيتهم لم يعيني جوابهم، ولحملتُ معاوية على خُطّة أُعْجِله فيها عن الفكر، ولو أطاعني [فيك] أميرُ المؤمنين لحبسَكَ وأشباهَكَ حتى

---

(١) في صفر سنة ٣٦ من الهجرة، ومحرم سنة ٣٧ من الهجرة. وصِفِّين: موقع بقرب الرقّة على شاطئ الفرات من غربيها.

(٢) الطبري (٤/٥٦٢): وآلى الرجال من أهل الشام ألّا يأتوا النساء ولا يمسّهم الماء للغسل إلّا من احتلام ـ وهي أوضح وأظهر.

يستقيمَ هذا الأمرُ، فخرج جرير إلى «قرقيسيا» وكتب إلى معاوية، فكتب إليه معاويه يأمره بالقدوم عليه، وقيل: كان الذي حمل معاوية على رَدِّ جرير البجلي غير مقضىٰ الحاجة شرحبيل بن السِّمط الكندي.

وكان سبب ذلك أنّ شرحبيل كان قد سَيَّره عمر بن الخطاب إلى العراق إلى سعد بن أبي وقاص وكان معه، فقدَّمه سعد وقرَّبه فحسده الأشعث بن قيس الكِندي لمنافسةٍ بينهما فوفد جرير البجلي على عمر، فقال له الأشعث: إنْ قدرتَ أنْ تنال شرحبيل عند عمر فافعلْ. فلما قدم على عُمَر سأله عمر عن الناس، فأحسن الثناء على سعد، قال: وقد قال شعرًا:

ألَا لَيْتني والمرء سعد بن مالك وزبرًا وابن السِّمْط في لُجَّة البحر
فيغرقُ أصحابي وأخرجُ سالمًا علىٰ ظهر قُرقُورٍ[1] أُنادي أبا بكر

فكتب عمر إلى سعد يأمره بإرساله زبرًا وشرحبيلاً إليه، فأرسلهما فأمسك زُبْرًا بالمدينة وسيَّر شرحبيلاً إلى الشام، فَشَرُف وتقدَّم وكان أبوه السِّمط من غزة الشام، فلمَّا قدم جرير بكتاب عليّ إلى معاوية في البيعة انتظر معاوية قُدُوم شرحبيل، فلمّا قَدِمَ عليه أخبره معاوية بما قدم فيه جرير، فقال: كان أميرُ المؤمنين عثمان خليفتنا فإن قويتَ على الطلب بدمِهِ وإلّا فاعتزلنا. فانصرف جرير، فقال النجاشي:

شرحبيل ما للدين فارقت أمرنا ولكن لبُغْض المالكي جرير
وقولك ما قد قلتَ عن أمرِ أشعث فأصبحتَ كالحادي بغير بعير

وخرج عليّ فعسكر «بالنخيلة»[2]، وتخلّف عنه نفرٌ مِنْ أهل الكوفة، منهم مُرّة الهمداني، ومسروقٍ أخذا أعطياتهما وقصدا قزوين، فأمّا مسروق فإنه كان يستغفر الله من تخلّفه عن عليّ بصفّين، وقَدِم عليه عبد الله بن عباس فيمن معه من أهل البصرة وبلغ ذلك معاوية فاستشار عَمْرًا، فقال: أمّا إذا سار عليّ فسِرْ إليه بنفسك ولا تَغِبْ عنه برأيك ومكيدتك؛ فتجهّز معاوية وتجهّز الناسُ وحضّهم عَمْرو وضَعَّفَ عليًا وأصحابه، وقال: «إنّ أهلَ العراق قد فرَّقُوا جمعهم، ووهَّنوا شوكتهم، وفَلّوا حدَّهم، وأهل البصرة مخالفون لعليّ بمن قَتَل منهم، وقد تفانت صناديدُهم وصناديدُ أهل الكوفة يوم الجمل، وإنّما سار عليّ في شرذمة قليلة، وقد قَتَلَ خليفتكم، والله الله في

(١) قُرقُور: السفينة.

(٢) النُخَيْلَة ـ بالتصغير ـ: موضع قرب الكوفة.

حَقِّكُم أنْ تضيّعوه وفي دمكم إن تطلبوه»، وكتب معاوية إلى أهل الشام وعقد لواءً لعمرو، ولواءً لابنيه عبد الله ومحمد، ولواءً لغلامه وردان، وعقد عليٌّ لواءً لغلامه قُنْبر، فقال عمرو:

هَلْ يُغْنِيَنْ وَرْدانُ عَنِّي قَنْبَرَا ... أو تُغْنِي السَّكُونُ عنّي حِمْيَرَا

إذا الكُمَاةُ لَبِسُوا السَّنَوَّرَا[1]

فبلغ ذلك عليًّا فقال:

لأُصَبِّحَنَّ العَاصِيَ ابنَ العَاصِي ... سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي

مُجَنِّبِينَ الخَيْلَ بِالْقِلَاصِ ... مُسْتَحْقِبِينَ حَاقَ الدِّلَاصِ[2]

فلما سمع معاوية ذلك قال: ما أرىٰ عليًّا إلّا وقد وفىٰ ذلك. وسار معاوية وتأنّى في مسيره، فلما رأى ذلك الوليد بن عقبة بعث إليه يقول:

أَلَا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بنَ حَرْبٍ ... فَإِنَّكَ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ مُلِيمُ[3]

قَطَّعْتَ الدَّهْرَ كالسَّدِمِ المُعَنَّى ... تُهَدِّرُ[4] في دِمَشْقَ فما تَرِيمُ

وإِنَّكَ وَالكِتَابَ إِلَىٰ عَلِيٍّ ... كَدَابِغَةٍ وقد حَلِمَ الأَدِيمُ[5]

يُمَنِّيكَ الإِمَارَةَ كُلُّ رَكْبٍ ... لِأَنْقَاضِ العِرَاقِ بِهَا رَسِيمُ

وليس أخو التِّرات بمن تَوَانَىٰ ... ولٰكِنْ طَالِبُ التِّرَةِ الغَشُومُ

ولو كنتَ القتيلَ وكان حَيًّا ... لَجَرَّدَ لا أَلَفُّ ولا غَشُومُ[6]

ولا نَكِلٌ عن الأوتارِ حتّى ... يُبِيءَ بِهَا ولا بَرِمٌ جَثُومُ

وقومُكَ بالمدينةِ قد أُبِيرُوا ... فَهُمْ صَرْعَىٰ كأنهُمُ الهَشِيمُ[7]

فكتب إليه معاوية:

ومُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يَرَى من أناتِنَا ... ولو زَبَنَتْهُ الحربُ لم يترمْرَمِ

وبعث عليّ زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف، وبعث مع شريح بن هانئ أربعة آلاف، وسار عليّ مِن النُّخَيْلَة وأخذ معه مَن بالمدائن مِن المقاتلة، وولّىٰ

---

(١) جملة السلاح، وخَصّ به بعضهم الدرع والحديد كلّه.

(٢) أي: الدروع.

(٣) المليم: من أتى من الأمر ما يلام عليه.

(٤) هو ترديد البعير صوته في غير شقشقة.

(٥) حلم الأديم: فسد من دابة تكون تسمّىٰ الحلم.

(٦) الطبري (٤/ ٥٦٤): سئؤم.

(٧) انظر لسان العرب (مادة سدم).

على المدائن سعد بن مسعود عمّ المختار بن أبي عبيد الثقفيّ؛ لما سار عليّ كان معه نابغة بني جعدة فحدا به يومًا، فقال:

قـد عَـلِمَ الـمِـصْـرَان والـعـراق أنّ عـلـيًّـا فَـحْـلُـهـا الـعـتـاق
أبـيـضُ جـحـجـاحٌ لـه رواق إن الأولـى جـاروك لا أفـاقـوا
لـكـم سـبـاقٌ ولـهـم سـبـاق قـد عـلـمَـتْ ذلـكـم الـرِّفـاق

ووجَّه عليّ من المدائن معقل بن قيس في ثلاثة آلاف وأمره أنْ يأخذ على الموصل حتى يوافيه على الرقَّة، فلما وصل إلى الرقّة قال لأهلها: ليعملوا له جسرًا يعبر عليه إلى الشام فأبَوْا، وكانوا قد ضمّوا سفنهم إليهم فنهض من عندهم ليعبر على جسر منبج وخلف عليهم الأشتر، فناداهم الأشتر وقال: «أقسمُ الله لَئِنْ لم تعملوا جسرًا يعبر عليه أميرُ المؤمنين لأجردنّ فيكم السيفَ ولأقتلنّ الرجال ولآخذنّ الأموال»، فلقي بعضهم بعضًا وقالوا: إنه الأشتر وإنه قَمِن[1] أن يَفِيَ لكم بما حلف عليه أو يأتي بأكثر منه، فنصبوا له جسرًا وعَبَر عليه عليّ وأصحابه وازدحموا عليه، فسقطت قلنسوة عبد الله بن أبي الحصين الأزدي فنزل فأخذها ثم ركب وسقطتْ قلنسوة عبد الله بن الحجاج الأزدي فنزل فأخذها، ثم قال لصاحبه:

فإنْ يَكُ ظَنُّ الزاجري الطَّيْرَ صادقًا كما زعموا أقتل وشيكًا ويُقتل

فقال ابنُ أبي الحُصَيْن: ما شيءٌ أحبُّ إليَّ مما ذكرتَ، فقُتِلَا جميعًا بصِفِّين، ولما بلغ عليّ الفرات دعا زياد بن النضر الحارثي، وشُرَيْح بن هانئ فسرحهما أمامه في اثني عشر ألفًا نحو معاوية على حالهما التي خرجا عليها من الكوفة، وكان سبب عَوْدهما إليه أنهما حيث سيَّرهما عليٌّ من الكوفة أخذا على شاطئ الفرات مما يلي البَرّ، فلما بلغا «عانات»[2] بلغهما أن معاوية قد أقبل في جنود الشام، فقالا: «لا والله ما هذا لنا برأي نسير وبيننا وبين المسلمين وأمير المؤمنين هذا البحر، وما لنا خير في أن نلقىٰ جنود الشام بقلّة من معنا»؛ فذهبوا ليعبروا مِنْ عانات فمنعهم أهلُها فرجعوا فعبروا من «هيت»، فلحقوا عليًّا دون قرقيسيا، فلما لحقوا عليًّا قال: «مقدمتي تأتيني مِنْ ورائي»، فأخبره شريح وزياد بما كان فقال: سددتما، فلما عبر الفرات سيَّرهما أمامه، فلما انتهيا إلى سُور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي في جُنْدٍ من أهل الشام، فأرسلا إلى عليٍّ فأعلماه فأرسل عليّ إلى الأشتر وأمره بالسرعة، وقال له:

(١) قَمِنَ بكذا: أي جَدُرَ به وخُلق. (٢) عَانَات: قرى بالفُرات.

«إذا قَدِمْتَ فأنت عليهم وإيّاك أنْ تبدأ القوم بقتال إلّا أن يبدؤوك حتىٰ تلقاهم فتدعوهم وتسمع منهم، ولا يحملك بغضهم على قِتالهم قبل دعائهم والأعذار إليهم مرّة بعد مرّة، واجعل على ميمنتك زيادًا وعلى مَيْسرتك شُرَيْحًا، ولا تَدْنُ منهم دنوّ مَن يريد أنْ يُنْشِبَ الحرب، ولا تباعد منهم تباعدَ مَنْ يهابَ البأس حتى أقدُم عليك فإنّي حثيثُ المسير في أثرك إن شاء الله تعالىٰ».

وكتب عليّ إلى شُرَيْح وزياد بذلك وأمرهما بطاعة الأشتر، فسار الأشتر حتى قَدِم عليهم واتّبع ما أمره وكفَّ عن القتال ولم يزالوا مواقفين حتى كان عند المساء حمل عليهم أبو الأعور السلمي، فثبتوا له واضطربوا ساعة ثم انصرف أهلُ الشام، وخرج إليهم من الغدِ هاشم بن عتبة المرقال[1]، وخرج إليه أبو الأعور فاقتتلوا يومهم وصبر بعضُهم لبعض ثم انصرفوا، وحمل عليهم الأشتر وقال: أروني أبا الأعور، وتراجعوا ووقف أبو الأعور وراء المكان الذي كان فيه أوّل مرّة، وجاء الأشتر فصَفَّ أصحابه بمكان أبي الأعور بالأمس، فقال الأشتر لسنان بن مالك النخعي: انطلق إلى أبي الأعور فادعه إلى البِراز، فقال: إلى مبارزتي أو مبارزتك؟ فقال الأشتر: لو أمَرْتُكَ بمبارزتِهِ لفعلْتَ؟ قال: نَعَمْ والله لو أمرتني أنْ أعترض صفّهم بسيفي لفعلتُ، فدعا له وقال: إنما تدعوه لمبارزتي.

فخرج إليهم فقال: «أمّنوني فإنّي رسولٌ»، فأمّنوه، فانتهى إلى أبي الأعور، وقال له: إنّ الأشتر يدعوك إلى أنْ تبارزَه؛ فسكت طويلاً ثم قال: إنّ خفة الأشتر وسوء رأيه حملاه على إجلاء عمال عثمان عن العراق وتقبيح محاسنه، وعلى أنْ سار إليه في دارِهِ حتى قَتَلَه فأصبح مُتْبِعًا بدمه، لا حاجة لي في مبارزته، قال له الرسول: قد قلتَ فاسمعْ مني أُجِبْكَ، قال: لا حاجة لي في جوابك، اذهبْ عني. فصاح به أصحابه فانصرف عنه، ورجع إلى الأشتر فأخبره فقال: لنفسه نظر، فوقفوا حتى حجزَ الليلُ بينهم وعاد الشاميُّون مِن الليل.

وأصبح عليّ غدوة عند الأشتر، وتقدّم الأشتر ومن معه فانتهىٰ إلى معاوية فواقفه ولحق بهم عليّ فتواقفوا طويلاً، ثم إنّ عليًا طلب لعسكره موضعًا ينزلُ فيه ـ وكان معاوية قد سبق فنزل منزلاً اختاره بسيطًا واسعًا أفْيَح، وأخذ شَرِيعَة[2] الفرات وليس في ذلك الصقع شريعة غيرها وجعلها في حيّزه، وبعث عليها أبا الأعور السلمي يحميها ويمنعها ـ فطلب أصحاب عليّ شريعة غيرها فلم يجدوا فأتوا عليًا فأخبروه

(١) الطبري: الزهري.

(٢) الشريعة: مورد الناس للاستسقاء.

بفِعْلهم وبعَطَش الناس، فدعا صعصعة بن صوحان فأرسله إلى معاوية يقول له: إنّا سِرْنا مسيرنا هذا ونحن نَكْره قتالكم قبل الإعذار إليكم فقدمَتْ إلينا خيلك ورجالك فقاتَلْتَنا قبل أن نُقاتِلك ونحن مِن رأينا الكفّ حتى ندعوك ونحتجّ عليك، وهذه أخرىٰ قد فعلتموها منعتم الناس عن الماء والناسُ غير منتهين، فابعثْ إلى أصحابك فليخلّوا بين الناس وبين الماء، وليكفّوا فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له، فإنْ أردتَ أنْ نترك ما جئنا له ونقتتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فَعَلْنَا.

فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فقال الوليد بن عقبة وعبد الله بن سعد: أَمْنَعْهم الماء كما منعوه ابن عفّان، اقتلهم عطشًا قَتَلهم الله. فقال عَمْرو بن العاص: خَلِّ بين القوم وبين الماء وإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ولكن بغير الماء فانظر فيما بينك وبين الله. فأعاد الوليد وعبد الله بن سعد مقالتهما، وقالا: أَمْنعهم الماء إلى اللّيل، فإنهم إنْ لم يقدروا عليه رجعوا وكان رجوعهم هزيمة، أَمنعهم الماء منعهم الله إيّاه يوم القيامة. قال صعصعة: إنما يمنعه الله الفَجَرَة وشربة الخمر لعنك الله ولعن هذا الفاسق ـ يعني الوليد بن عقبة ـ فشتموه وتهدّدوه.

وقد قيل: إنّ الوليد وابن أبي سرح لم يشهدا صفّين، فرجع صعصعة فأخبره بما كان وأنّ معاوية قال: سيأتيكم رأيي، فسرب الخيل إلى أبي الأعور ليمنعهم الماء، فلما سمع عليّ ذلك قال: قاتلوهم على الماء. فقال الأشعث بن قيس الكندي: أنا أسيرُ إليهم، فلما دنوا منهم ثاروا في وجوههم فرموهم بالنّبل، فتراموا ساعة ثم تطاعنوا بالرماح، ثم صاروا إلى السيوف فاقتتلوا ساعة، وأرسل معاوية يزيد بن أسد البجلي القسري جدّ خالد بن عبد الله القسري في الخيل إلى أبي الأعور، فأقبلوا فأرسل عليٌّ شبث بن ربعي الرياحي فازداد القتال، فأرسل معاوية عمرو بن العاص في جندٍ كثير فأخذ يمدّ أبا الأعور ويزيد بن أسد، وأرسل عليّ الأشتر في جمع عظيم، وجعل يمدّ الأشعث وشبثًا، فاشتدّ القتال؛ فقال عبد الله بن عوف الأزديّ الأحمريّ:

خَلُّوا لَنَا مَاءَ الفُرَاتِ الجَارِي ... أو اثْبُتُوا لِجَحْفَلٍ جَرَّارِ
لِكلِّ قَرْمٍ مُسْتَمِيتٍ شَارِي ... مُطَاعِنٍ بِرُمْحِهِ كَرَّارِ
ضَرَّابِ هَامَاتِ العِدَىٰ مِغْوَارِ ... لم يَخْشَ غيرَ الواحِدِ القهَّارِ[1]

---
(١) انظر الطبري (٤/ ٥٧٠).

وقاتلوهم حتى خَلُوا بينهم وبين الماء وصار في أيدي أصحاب عليّ، فقالوا: والله لا نسقيه أهلَ الشام، فأرسل عليّ إلى أصحابه أنْ خُذُوا من الماء حاجتكم وخَلُّوا عنهم، فإنّ الله نصركم بِبَغْيِهِمْ وظُلْمِهِم.

ومكث عليٌّ يومين لا يُرْسِل إليهم أحدًا ولا يأتيه أحدٌ، ثم إنّ عليًّا دعا أبا عمرو وبشير[1] بن عمرو بن محصن الأنصاري، وسعد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي، فقال لهم: ائتوا هذا الرجل وادعوه إلى الله، وإلى الطاعة والجماعة؛ فقال له شبث: يا أمير المؤمنين ألا تُطمعه في سلطانٍ تُوَلِّيه إياه أو منزلة تكون له بها أثرة عندك إنْ هو بايعك؟ قال: انطلقوا إليه واحتجّوا عليه وانظروا ما رأيه. وهذا في أوّل ذي الحجّة، فأتوه فدخلوا عليه فابتدأ بشير بن عمرو الأنصاري فحمد الله وأثنى عليه وقال: «يا معاوية إنّ الدنيا عنك زائلة، وإنّك راجعٌ إلى الآخرة، وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه، وإنّي أنشدك الله أنْ [لا] تفرق جماعة هذه الأمّة وأن [لا] تسفك دماءها بينها»[2].

فقطع عليه معاوية الكلام، وقال: هَلّا أوصيتَ بذلك صاحبك. فقال أبو عمرو: إنّ صاحبي ليس مثلك، إنّ صاحبي أحقُّ البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسّابقة في الإسلام، والقرابة بالرسول ﷺ، قال: فماذا يقول؟ قال: يأمرك بتقوى الله، وأن تجيبَ ابن عمّك إلى ما يدعوك إليه من الحقّ، فإنه أسلم لك في دنياك وخيرٌ لك في عاقبة أمرك.

قال معاوية: ونترك دم ابن عفان، لا والله لا أفعل ذلك أبدًا. قال: فذهب سعيد بن قيس يتكلّم، فبادره شبث بن ربعي فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معاوية قد فهمتُ ما رددتَ على ابن محصن، إنه واللهِ لا يخفى علينا ما تطلب إنك لم تجد شيئًا تستغوي به الناس وتستميلُ به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلّا قولك: «قُتِل إمامكم مظلومًا فنحن نطلب بدمه»، فاستجاب لك سفهاء طغام، وقد علمنا أنك أبطأتَ عنه بالنصر وأحببتَ له القتل لهذه المنزلة التي أصبحتَ تطلبُ، ورُبَّ متمنّي أمرٍ وطالبه يحول الله دونه وربما أُوتِي المتمنّي أُمنيته وفوق أُمنيته، وواللهِ ما لك في واحدةٍ منهما خير، واللهِ إنْ أخطأكَ ما ترجو إنك لشرّ العرب حالاً، ولَئِنْ أصبتَ ما تتمناه لا تُصيبَه حتى تستحقَّ مِن ربّك صِلَى النار فاتَّقِ الله يا معاوية ودَعْ ما أنتَ عليه، ولا تنازع الأمرَ أهله.

---

(١) الطبري: أبا عمرة بشير.

(٢) كلاهما زيادة زدناها يقتضيها السياق.

قال: فحمد الله معاوية ثم قال: أمّا بعد، فإنّ أول ما عرفتُ به سَفَهَك وخفَّة حلمك أنْ قطعتَ على هذا الحسيب الشريف سيّد قومِهِ مَنْطِقَه ثم اعترضتَ بعد فيما لا عِلْمَ لك به فقد كذبتَ ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت ـ انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلّا السيف. وغضب، وخرج القوم فقال له شبث بن ربيعي: أتهوّل بالسيف أقسم بالله لنعجلنّها إليك.

فأتوا عليًا فأخبروه بذلك، فأخذ عليّ يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج ومعه جماعة من أصحابه ويخرج إليه آخر من أصحاب معاوية ومعه جماعة فيقتتلان في خيلهما ثم ينصرفان، وكرهوا أن يلقوا جمع أهل العراق بجمع أهل الشام لما خافوا أنْ يكون فيه من الاستئصال والهلاك[1]، فكان عليٌّ يُخرج مرّة الأشتر، ومرة حُجْر بن عدي الكندي، ومرة شبث بن ربيعي، ومرة خالد بن المعمر، ومرّة زياد بن النضر الحارثي، ومرّة زياد بن خصفة التيمي، ومرّة سعيد بن قيس الهمداني، ومرّة معقل بن قيس الرياحي، ومرة قيس بن سعد الأنصاري، وكان الأشتر أكثرهم خروجًا.

وكان معاوية يُخرج إليهم عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وأبا الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة الفهري، وابن ذي الكلاع الحميري، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وشرحبيل بن السِّمط الكندي، وحمزة بن مالك الهمداني. فاقتتلوا أيام ذي الحجة كلها، وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرّتين.

وفي المحرم من سنة سبع وثلاثين جرت موادعة بين عليّ ومعاوية توادعا على ترك الحرب بينهما حتى ينقضي المحرم طمعًا في الصُّلح، واختلفت بينهما الرسل، فبعث عليٌّ عَدِيّ بن حاتم، ويزيد بن قيس الأرحبي، وشبث بن ربعي، وزياد بن خصفة؛ فتكلّم عَدِيّ بن حاتم فحمد الله وقال: «أمّا بعد، فإنّا أتيناك ندعوك إلى أمرٍ يجمعُ الله به كلمتنا وأمتنا ونحقن به الدماء ونصلح ذات البَيْن، إنّ ابن عمك سيّد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثرًا، وقد استجمع له الناس ولم يبقَ أحدٌ غيرك وغير مَنْ معك، فاْحذَرْ يا معاوية لا يصيبك وأصحابك مِثْلَ يوم الجمل، فقال له معاوية: كأنك إنما جئت متهدّدًا لم تأتِ مُصْلِحًا، هَيْهاتَ يا عديّ كلّا والله

(١) أي: خشوا من هلاك المسلمين، وقد رأيت من قَبْل كيف كان قتال المسلمين يوم الجمل كجبلين من حديد لا يتراجع واحد منهما أبدًا.

إنّي لابن حربٍ لا يُقَعْقِع له بالشنان[١]، وإنّك والله من المجلبين على عثمان وإنك مِنْ قتلته، وإنّي لأرجو أنْ تكون ممن يقتله الله به».

فقال له شبث وزياد بن خصفة: جوابًا واحدًا أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلتَ تضرب لنا الأمثال. دَعْ ما لا ينفع وأَجِبْنَا فيما يعمّ نفعه. وقال يزيد بن قيس: إنّا لم نَأْتِ إلّا لنبلّغك ما أُرْسِلْنا به إليك ونؤدّي عنك ما سمعنا منك، ولن نَدَعْ أن ننصحَ لك وأنْ نذكر ما يكون به الحجّة عليك ويرجع إلى الأُلفة والجماعة إنّ صاحبنا مَنْ قد عرف المسلمون فضله ولا يخفىٰ عليك، فاتّقِ الله يا معاوية ولا تخالفه فإنّا والله ما رأينا في الناس رجلاً قطّ أعمل بالتقوىٰ، ولا أزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصالِ الخير كلّها منه.

فحمد الله معاوية، ثم قال: أمّا بعد، فإنكم دعَوْتُم إلى الطاعة والجماعة، فأمّا الجماعة التي دَعَوْتم إليها فمعنا هي، وأمّا الطاعة لصاحبكم فإنّا لا نراها لأنَّ صاحبكم قَتَل خليفتنا، وفرّق جماعتنا، وآوىٰ ثأرنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نردُّ عليه ذلك فليدفع إلينا قَتَلَة عثمان لنقتلهم ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة. فقال شبث بن ربعي: أيسرُّك يا معاوية أن تقتل عمّارًا؟ فقال: وما يمنعني مِنْ ذلك؟ لو تمكّنتُ مِن ابن سمية لقتلتُه بمولىٰ عثمان. فقال شبث: والذي لا إلٰه غيره لا تصلُ إلى ذلك حتى تندر الهام عن الكواهل، وتضيق الأرض الفضاء عليك. فقال معاوية: لو كان ذلك لكانتْ عليك أضْيَق.

وتفرّق القومُ عن معاوية، وبعث معاوية إلى زياد بن حفصة فخلا به وقال له: يا أخا ربيعة إنّ عليًا قطع أرحامنا، وقتل إمامنا، وآوى قَتَلة صاحبنا، وإنّي أسألك النصر عليه بعشيرتك ثم لك عهدُ الله وميثاقه أنّي أُوليك إذا ظهرتَ أيّ المِصْرَيْن أحببتَ، فقال زياد: أمّا بعد، فإنّي على بيِّنةٍ من ربّي وما أنعم الله عليّ فلن أكونَ ظهيرًا للمجرمين. وقام فقال معاوية لعَمْرو بن العاص: ليس نكلّم رجلاً منهم فيجيب إلى خير! ما قُلوبهم إلّا كقلبٍ واحد! وبعث معاوية إلى عليّ حبيب بن مسلمة الفهريّ، وشرحبيل بن السِّمط، ومعن بن يزيد بن الأخنس فدخلوا عليه، فحمد الله حبيب وأثنىٰ عليه ثم قال: أمّا بعد، فإنّ عثمان كان خليفة مهديًا يعمل بكتاب الله وينيبُ إلى أمره فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه، فأدفَعْ إلينا قَتَلَة

---

(١) هذا مَثَلٌ معناه: لست بليدًا كسولاً إنّ الجمل إذا كان بطيئًا متكاسلًا فزعوه بالشن يقعقعون له به، فينبعث.

عثمان إنْ زعمت أنَّك لم تقتله [نقتلهم به]، ثم ٱعْتزِلْ أمرَ الناس فيكونُ أمرُهم شورىٰ بينهم يولّونه مَنْ أجمعوا عليه. فقال له عليّ: ما أنت لا أُمّ لك والعزل وهذا الأمر؟ ٱسكتْ لستَ هناك ولا بأهلٍ له. فقال: واللهِ لترينني بحيث تكره. فقال له عليّ: وما أنت لا أبقىٰ الله إنْ أبقيت علينا، اذهبْ فصوِّبْ وصعِّدْ ما بدا لك. وقال شرحبيل: ما كلامي إلّا مثل كلام صاحبي، فهل عندك جواب غير هذا؟ فقال عليٌّ: ليس عندي جوابٌ غيره[1]، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال:

«أمّا بعد، فإنّ الله تعالىٰ بعث محمّدًا ﷺ بالحقّ فأنقذ به من الضّلالة والهَلَكة، وجمع به مِنَ الفُرْقة، ثم قبضه الله فاستخلف الناسُ أبا بكر، واستخلف أبو بكر عمر فأحسنا السِّيرة وعَدِلَا، وقد وجدنا عليهما أنْ توليا الأمور ونحن آل رسول الله ﷺ فغفرنا ذلك لهما، وولىٰ الناسُ عثمان فعمل بأشياء عابها الناسُ فساروا إليه فقتلوه ثم أتاني الناسُ [وأنا معتزل أمورهم] فقالوا لي: بايعْ فأبيتُ، فقالوا: بايعْ، فإن الأُمّة لا ترضىٰ إلّا بك وإنّا نخاف إنْ لم تفعل أن يتفرّق الناسُ. فبايعتهم فلم يرعني إلّا شقاق رجلين قد بايعاني وخِلاف معاوية الذي لم يجعل له سابقة في الدين ولا سلف صدقٍ في الإسلام، طليق بن طليق، حزبٌ من الأحزاب، لم يزل حربًا لله ورسوله هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهَيْن ولا عجب إلّا من اختلافكم معه وانقيادكم له، وتتركون آلَ بيت نبيِّكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم، ألَا إني أدعوكم إلى كتاب الله وسُنَّة نبيِّه، وإماتة الباطل، وإحياء الحق ومعالم الدين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين. فقالا: تشهدُ أنّ عثمان قُتِل مظلومًا؟ فقال لهما: لا أقول إنه قُتِل مظلومًا ولا ظالماً. قالا: فمَنْ لم يزعم أنه قُتِل مظلومًا فنحن منه برآء»، وانصرفا.

فقال عليٌّ عليه السّلام: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النّمل: الآيتان ٨٠، ٨١]، ثم قال لأصحابه: لا يكن هٰؤلاء في الجد في ضلالهم أجدُّ منكم في الجدّ في حقِّكم وطاعة ربّكم، فتنازع عامر بن قيس الحذمري ثم الطائي وعدي بن حاتم الطائي في الراية بصفّين، وكانت حذمر أكثر من بني عدي رهط حاتم، فقال عبيد بن خليفة البولاني عند عليّ: يا بني حذمر أعلىٰ عدي تتوثّبون! وهل فيكم وفي آبائكم مثل عدي وأبيه! أليس بحامي القرية ومانع الماء يوم روية؟ أليس ابن ذي المرباع وابن جوّاد العرب، وابن المنهب ماله ومانع جاره، ومن

---

(١) الطبري: نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبته به ـ وهو الظاهر.

لم يغدر ولم يفجر ولم يبخل ولم يمنن ولم يجبن؟ هاتوا في آباكم مثل أبيه، أوَ فيكم مثله؟ أليس أفضلكم في الإسلام ووافدكم إلى النبيّ ﷺ؟ أليس برأسكم يوم النخيلة، ويوم القادسية، ويوم المدائن، ويوم جَلُولاء، ويوم نهاوند، ويوم تستر؟ فقال عليّ: حَسْبُكَ يا بن خليفة، وقال عليّ: لتحضر جماعة طيّء، فأتوه فقال: مَنْ كان رأسكم في هذه المواطن؟ قالوا: عدي، فقال ابن خليفة: سَلْهُمْ يا أمير المؤمنين أليسوا راضين برياسة عدي؟ ففعل فقالوا: بلى، فقال عليّ: فعديٌّ أحقّكم بالراية وأخذها، فلما كان أيام حُجْر بن عدي طلب زياد عبد الله بن خليفة ليبعثه مع حجر فسار إلى الجبلين ووعده عدي أنْ يردّه وأن يسأل فيه، فطال عليه ذلك فقال شعرًا منه:

أَتَنْسَىٰ بَلَائِي سادرًا يا بْنَ حاتِمٍ ... عَشِيَّةَ ما أَغْنَتْ عَدِيُّكَ حِذْمِرَا

فدَافَعْتُ عنكَ القومَ حتى تَخَاذَلُوا ... وكنتُ أنا الخَصْمَ الألدَّ العَذَوَّرَا[1]

فوَلَّوا وما قاموا مقامي كأنَّما ... رأوني لَيْثًا بالأباءاتِ مُخْدِرَا

نَصَرْتُكَ إذ خامَ القريبُ وأَبْعَدَ الـ ... ـبَعِيدُ وقد أُفْرِدْتُ نَصْرًا مُؤَزَّرَا

فكانَ جَزائي أنْ أجرر[2] بينكم ... سَجِيبًا[3] وأنْ أُولَى الهَوانَ وأوسَرَا

وكم عِدَّةٍ لِي مِنْكَ أنَّكَ راجِعِي ... فَلَمْ تُغْنِ بالمِيعَادِ عَنّي حَبْتَرَا

فلما انسلخ المحرم أمر عليّ مناديًا فنادى: يا أهل الشام يقولُ لكم أمير المؤمنين: قد استدمتكم لتراجِعُوا الحقَّ وتُنيبوا إليه فلم تنتهوا عن طغيانكم ولم تجيبوا إلى الحقّ، وإنّي نبذتُ إليكم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين. فاجتمع أهلُ الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم، وخرج معاوية وعمرو يكتبان الكتائب ويعبيان الناس، وكذلك فعل أمير المؤمنين، وقال للناس: لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فأنتم بحمدِ الله على حُجَّة وترككم قتالهم حُجَّة أخرى، فإذا هزمتموهم فلا تَقْتُلوا مُدْبرًا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثّلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترًا، ولا تدخلوا دارًا، ولا تأخذوا شيئًا من أموالهم، ولا تهيّجوا امرأة وإنْ شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم، فإنهنّ ضِعَافَ القوىٰ والأنفس، وكان يقول بهذا المعنى لأصحابه في كل موطن، وحرَّض أصحابه فقال: «عبادَ الله اتّقوا الله وغُضُّوا الأبصار، واخفضوا الأصوات، وأَقِلُّوا الكلام، ووطِّنوا أنفسكم على المنازلة، والمجاولة، والمزاولة، والمناضلة، والمعانقة، والمكادمة، والملازمة، فاثبتوا واذكروا

---

(١) العذور: السَّيِّئ الخلق والشديد النفس. (٢) الطبري (٥/ ١٠): أجرد ـ بالدال المهملة.

(٣) الطبري: سجينًا ـ بالجيم والنون.

الله كثيرًا لعلّكم تفلحون، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إنّ الله مع الصابرين. اللّهمّ ألهمهم الصّبر، وأنزلْ عليهم النّصْر، وأعظمْ لهم الأجر». وأصبح عليّ فجعل على خيل الكوفة الأشتر، وعلى جُنْد البصرة سهل بن حنيف، وعلى رجال الكوفة عمار بن ياسر، وعلى رجال البصرة قيس بن سعد، وهاشم بن عتبة المرقال معه الراية، وجعل مسعر بن فدكي على قرّاء الكوفة وأهل البصرة.

وبعث معاوية على ميمنته ابن ذي الكلاع الحميري، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى مقدمته أبا الأعور السلمي، وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص، وعلى رجالة دمشق مسلم بن عقبة المري، وعلى الناس كلّهم الضحاك بن قيس. وبايع رجال من أهل الشام على الموت، فعقلوا أنفسهم بالعمائم وكانوا خمسة صفوف، وخرجوا أوّل يوم من صفر فاقتتلوا، وكان على الذين خرجوا من أهل الكوفة الأشتر، وعلى من خرج من أهل الشام حبيب بن مسلمة، فاقتتلوا يومهم قتالاً شديدًا معظم النهار ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض.

ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عتبة في خيلٍ ورجال، وخرج من أهل الشام أبو الأعور السلمي، فاقتتلوا يومهم ذلك ثم انصرفوا، وخرج في اليوم الثالث عمّار بن ياسر، وخرج إليه عمرو بن العاص فاقتتلوا أشدَّ قتال، وقال عمار: «يا أهل العراق أتريدون أن تنظروا إلى مَنْ عادىٰ الله ورسوله، وجاهدهما وبغىٰ على المسلمين، وظاهر المشركين، فلما رأىٰ الله يعزّ دينه ويظهر رسوله أتىٰ النبيّ ﷺ وهو فيما نرى راهب غير راغب، ثم قُبِض النبيُّ ﷺ فوالله إنْ زال بعده معروفًا بعداوة المسلم، واتّباع المجرم، فاثبتوا له وقاتلوه». وقال عمار لزياد بن النضر وهو على الخيل: احمل على أهل الشام، فحمل وقاتله الناس وصبروا له، وحمل عمّار فأزال عَمْرو بن العاص عن موضعه، وبارز يومئذ زياد بن النضر أخاه لأُمّه واسمه عمرو بن معاوية من بني المنتفق، فلما ٱلتقيا تعارفا فانصرف كلُّ واحد منهما عن صاحبه، وتراجع الناسُ.

وخرج من الغد محمد بن علي ـ وهو ابن الحنفية ـ وخرج إليه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمعَيْن عظيمَيْن فاقتتلوا أشدَّ القتال، وأرسل عبيد الله إلى ابن الحنفية يدعوه إلى المبارزة، فخرج إليه فحرّك عليٌّ دابّته وردَّ ابنه وبرز عليّ إلى عبيد الله فرجع عبيد الله، وقال محمّد لأبيه: لو تركتني لرجوتُ قتله، وقال: يا أمير المؤمنين وكيف تبرزُ إلى هذا الفاسق واللهِ إني لأرغبُ بك عن أبيه؟ فقال عليّ: يا بني لا تَقُلْ في أبيه إلّا خيرًا. وتراجع الناسُ، وخرج عبد الله بن عباس في اليوم

الخامس، وخرج إليه الوليد بن عقبة فاقتتلوا قتالاً شديدًا فسبّ الوليد بني عبد المطّلب فطلبه ابن عباس ليبارزه فأبىٰ وقاتل ابنُ عباس قتالاً شديدًا، وخرج في اليوم السادس قيس بن سعد الأنصاري وخرج إليه ابن ذي الكلاع الحميري فاقتتلوا قتالاً شديدًا ثم انصرفوا، ثم عاد يوم الثلاثاء وخرج الأشتر وخرج إليه حبيب، فاقتتلوا قتالاً شديدًا وانصرفوا عند الظهر.

ثم إنّ عليًا قال: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا؟ فقام في الناس عشيّة الثلاثاء ليلة الأربعاء خطيبًا فحمد الله وأثنىٰ عليه، فقال: «الحمدُ لله الذي لا يبرم ما نقض وما أبرم لم ينقضه الناقضون، ولو شاء الله ما اختلف اثنان مِنْ خَلْقِهِ، ولا اختلفت الأُمةُ في شيءٍ ولا جَحَدَ المفضولُ ذا الفضل فضله. وقد ساقنا وهٰؤلاء القوم الأقدار فنحن بمرأىٰ مِنْ ربِّنا ومسمع فلو شاء عَجَّل النقمة وكان منه التغيير حتى يكذب الظالم، ويعلم الحقّ أين مصيره، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال وجعل الآخرة دار القرار ليجزيَ الذين أساؤوا بما عَمِلُوا ويجزيَ الذين أحسنوا بالحسنىٰ، ألَا وإنّكم لاقو القوم غدًا فأطيلوا اللّيلة القيام، وأكثروا تلاوةَ القرآن، واسألوا الله النّصر والصّبر، والقَوْهم بالجدّ والحزم، وكونوا صادقين»، فقام القوم يصلحون سلاحهم فمرّ بهم كعب بن جعيل فقال:

أَصْبَحَتِ الأُمَّةُ فِي أَمْرٍ عَجَبْ والمُلك مَجْموعٌ غَدًا لمن غَلَبْ
فقلتُ قَوْلاً صادقًا غيرَ كَذِبْ إنَّ غَدًا تَهلكُ أعلامُ العرَبْ

وعبّأ عليٌّ الناسَ ليلته حتىٰ الصباح، وزحف بالناسُ، وخرج إليه معاوية في أهلِ الشام، فسأل عليٌّ عن القبائل مِنْ أهل الشام فعرف مواقفهم، قال للأزد: اكفونا الأزد، وقال لخثعم: اكفونا خثعم، وأمر كلّ قبيلة أنْ تكفيَهُ أختها مِن الشام إلّا أنْ تكونَ قبيلة ليس منها بالشام أحدٌ فيصرفها إلى قبيلةٍ أُخرى من الشام ليس بالعراق منهم أحد مثل بجيلة لم يكن بالشام منهم إلّا القليل صرفهم إلى لخم، فتناهض الناسُ يوم الأربعاء فاقتتلوا قتالاً شديدًا ثم انصرفوا عند المساء وكلٌّ غير غالب.

فلمّا كان يوم الخميس صلّى عليٌّ بغلس، وخرج بالناس إلى أهل الشام فزحف إليهم وزحفوا معه، وكان علىٰ ميمنة عليّ عبد الله بن بُدَيْل بن ورقاء الخزاعيّ، وعلى ميسرته عبد الله بن عباس والقرّاء مع ثلاثة نفر: عمّار، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بُدَيْل، والناس على راياتهم ومراكزهم، وعليٌّ في القلب في أهل المدينة بين أهل

الكوفة والبصرة وأكثر مَنْ معه من أهل المدينة الأنصار ومعه عدد من خُزاعة وكنانة وغيرهم من أهل المدينة، وزحف إليهم، ورفع معاوية قبّة عظيمة فألقى عليها الثياب، وبايعه أكثر أهل الشام على الموت، وأحاط بقبّته خيلُ دمشق، وزحف عبد الله بن بُدَيْل في المَيْمَنة نحو حبيب بن مسلمة وهو في ميسرة معاوية، فلم يزل يحوزه ويكشف خَيْلَه حتى اضطرَّهم إلى قبَّة معاوية عند الظهر، وحرّض عبد الله بن بُدَيْل أصحابه فقال: ألَا إنّ معاوية ادّعىٰ ما ليس له، ونازع الحقَّ أهله، وعاند مَنْ ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصالَ عليكم بالأعراب والأحزاب الذين قد زيَّن لهم الضّلالة، وزرع في قلوبهم حبّ الفتنة، ولبس عليهم الأمر، وزادهم رجسًا إلى رجسهم، فقاتِلوا الطغام الجفاة، ولا تخشوهم، قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم، ويُخْزِهم، وينصركم عليهم، ويشفه صدورَ قومٍ مؤمنين.

وحرّض على أصحابه، فقال في كلام له: «فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص، وقدِّموا الدارع، وأخِّروا الحاسرَ، وعضّوا على الأضراس، فإنّه أنبىٰ للسيوف عن الهام، والتووا في الأطراف فإنه أصون للأسِنَّة، وغضّوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلب، وأميتوا الأصوات فأنه أطرد للفشل وأولىٰ بالوقار، راياتكم فلا تميلوها ولا تُزيلوها، ولا تجعلوها إلّا بأيدي شجعانكم، واستعينوا بالصدق والصبر فإنّ بعدَ الصبرِ ينزلُ عليكم النّصر».

وقام يزيد بن قيس الأرحبي يحرّض الناس، فقال: «إنّ المسلم مَنْ سَلِم في دينه ورأيه، وإنّ هٰؤلاءِ القوم واللهِ لا يقاتلونا على إقامة دين ضيَّعناه وإحياء حقٍّ أمتناه إنْ يقاتلوننا إلّا على هذه الدنيا ليكونوا جبّارين فيها ملوكًا، فلو ظهروا عليكم ـ لا أراهم الله ظهورًا ولا سرورًا ـ ألزموكم بمثل سعيد، والوليد، وابن عامر السفيه الضالّ يجيز أحدهم بمثل ديّته ودية أبيه وجدّه في جلسة ثم يقول: هذا لي ولا إثم عليّ كأنما أُعطي تراثه عن أبيه وأُمّه، وإنما هو مالُ الله أفاءه علينا بأرماحنا وسيوفنا، فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين فإنّهم إنْ يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم وهم مَنْ قد عرفتم وخبرتم، والله ما ازدادوا إلى يومهم إلّا شرًا»، وقاتلهم عبد الله بن بُدَيْل في الميمنة قتالاً شديدًا حتى انتهى إلى قُبَّة معاوية، وأقبل الذين تبايعوا على الموت إلى معاوية فأمرهم أن يصدموا لابن بديل في الميمنة، وبعث إلى حبيب بن مسلمة في المَيْسرة فحمل بهم وبمن كان معه على ميمنة الناس فهزمهم، وانكشف أهل العراق مِن قِبَل الميمنة حتى لم يبقَ منهم إلّا ابن بُدَيْل في مائتين أو ثلثمائة من القُرّاء قد أُسند بعضهم إلى بعض، وانجفل الناس.

وأمر عليّ سهل بن حنيف فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة فاستقبلتهم جموع لأهل الشام عظيمة فاحتملتهم حتى أوقفتهم في الميمنة، وكان فيما بين الميمنة إلى موقف عليّ في القلب أهل اليمن، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى عليّ فانصرف عليّ يمشي نحو المَيْسرة، فانكشفتْ عنه مُضَر من الميسرة وثبتت ربيعة، وكان الحسن والحسين ومحمّد بنو عليّ معه حين قصد المَيْسرة والنبل يمرّ بين عاتقه ومنكبيه، وما مِنْ بنيه أحدٌ إلّا يقيه بنفسه فيردّه، فبصر به أحمر مولىٰ أبي سفيان أو عثمان فأقبل نحوه، فخرج إليه كيسان مولىٰ عليّ فاختلفا بينهما ضربتان فقتله أحمر، فأخذ عليّ بجيب درع أحمر فجذبه وحمله على عاتقه ثم ضرب به الأرض فكسر منكبيه وعَضُدَيْه، ودنا منه أهل الشام فما زاده قربهم إلا إسراعًا، فقال له ابنه الحسن: ما ضَرَّك لو سعيتَ حتى تنتهي إلى هٰؤلاءِ القوم مِنْ أصحابك؟ فقال: «يا بنيّ إنّ لأبيك يومًا لا يعدوه، ولا يبطئ به عنه السعي، ولا يعجل به إليه المشي، إنّ أباك والله لا يبالي أوقعَ على الموت أم وقع الموتُ عليه».

فلما وصل إلى ربيعة نادىٰ بصوتٍ عالٍ كغير المكترث لما فيه الناس: لمن هذه الرايات؟ قالوا: رايات ربيعة، قال: بل رايات عصم الله أهلها فصبَّرهم وثبّت أقدامهم، وقال للحصين بن المنذر: يا فتى ألا تدني رايتك هذه ذراعًا؟ قال: بلىٰ والله وعشرة أذرع فأدناها، حتى قال: «حسبَك مكانك»، ولما انتهى عليّ إلى ربيعة تنادَوْا بينهم: «يا ربيعة إن أُصيب فيكم أميرُ المؤمنين وفيكم رجلٌ حيّ افتضحتم في العرب»، فقاتَلوا قتالاً شديدًا ما قاتَلوا مثله، فلذلك قال عليّ:

لِمَنْ رَايَـةٌ سَـوْدَاءَ يَـخْـفِـقُ ظِـلُّـهَـا — إذا قِـيـلَ قـدِّمـهـا حـضـيـنُ تـقـدَّمـا

ويقدّمها في المَوْتِ حَتَّى يزيرها — حياضَ المَنايا تقطرُ المَوْتَ والدَّمَا

أذَقْنَا ابنَ حَرْبٍ طعننا وضرابنَا — بـأسـيـافِـنـا حـتَّـىٰ تَـولَّىٰ وأحْـجَـمـا

جزىٰ الله قومًا صابَرُوا في لِقائِهِم — لدىٰ المَوْتِ قَوْمًا ما أعفَّ وأكْرَما

وأطْـيـبَ أخْـبـارًا وأكـرم شـيـمـةً — إذا كان أصواتُ الرِّجال تَغَمْغَما

رَبـيـعـة أعـنـي أنـهـم أهـل نـجـدةٍ — وبأسٍ إذا لاقُوا خميسًا عرمرما

ومرَّ به الأشتر وهو يقصد الميسرة والأشتر يركض نحو الفزع قبل الميمنة، فقال له عليّ: يا مالك، قال: لبَّيك يا أمير المؤمنين، قال: ائْتِ هٰؤلاء القوم فَقُلْ لهم: أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم؟ فمضى الأشتر فاستقبل الناس منهزمين، فقال لهم ما قال علي، ثم قال: أيّها الناس أنا الأشتر إليّ،

فأقبل إليه بعضهم وذهب البعض فنادى: «أيّها الناس ما أقبح ما قاتلتم مُذ اليوم، أخلصوا لي مذحجًا»، فأقبلتْ مذحج إليه فقال لهم: ما أرضيتم ربكم ولا نصحتم له في عدوّكم، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب، وأصحاب الغارات، وفتيان الصباح، وفرسان الطّراد، وحتوف الأقران، ومذحج الطعان الذين لم يكونوا يُسْبَقُون بثأرهم، ولا تُطَلْ دماؤهم، وما تفعلون هذا اليوم فإنه مأثور بعده؛ فانصحوا، واصدقوا عدوّكم اللقاء، فإنّ الله مع الصادقين. والذي نفسي بيده ما مِنْ هٰؤلاء ـ وأشار إلى أهل الشام ـ رجلٌ على مثل جَنَاح بعوضة مِنْ دين أجلوا سواد وجهي يرجع فيه دمه. عليكم بهذا السواد الأعظم، فإنّ الله قد فضَّه فتبعه من بجانبيه، قالوا: تجدنا حيثُ أحببتَ. فقصد نحو عظمهم مما يلي الميمنة يزحف إليهم ويردّهم، واستقبله شباب مِنْ هَمْدَان وكانوا ثمانمائة مقاتل يومئذ، وكانوا صبروا في المَيْمنة حتى أُصيب منهم ثمانون ومائة رجل، وقُتِل منهم أحد عشر رئيسًا كان أوّلهم ذؤيب[1] بن شُرَيح، ثم شرحبيل، ثم مرثد، ثم هبيرة، ثم يريم، ثم سمير أولاد شُريح فقتل؛ ثم أخذ الراية عميرة، ثم الحارث ابنا بشير فقُتِلا جميعًا، ثم أخذ الراية سفيان، وعبد الله، وبكر[2] بنو زيد فقُتلوا جميعًا؛ ثم أخذ الراية وهب بن كريب فانصرف هو وقومه وهم يقولون: «ليتَ لنا عدّتنا من العرب يحالفوننا على الموت ثم نرجع فلا ننصرف أو نُقتل أو نظفر»، فسمعهم الأشتر يقولون هذا فقال لهم: أنا أُحالفهم على أنْ لا نرجع أبدًا حتى نظفر أو نهلك، فوقفوا معه، وفي هذا قال كعب بن جعيل:

وهَـمْدَانُ زُرْقٌ[3] تَبْتَغي مَنْ تُحَالِفُ

وزحف الأشتر نحو المَيْمَنة، وثاب إليه الناس، وتراجعوا من أهل البصرة وغيرهم فلم يقصد كتيبة إلّا كشفها ولا جَمْعًا إلّا جازه وردَّه، فإنه كذلك إذْ مرَّ به زياد بن النضر الحارثي يُحمل إلى العسكر وقد صُرع، وسببه أنه كان استلحم عبد الله بن بُدَيْل وأصحابه في الميمنة فتقدّم زياد إليهم ورفع رايته لأهل المَيْمنة فصبروا وقاتل حتى صُرِعَ، ثم مرّوا بيزيد بن قيس الأرحبي محمولاً نحو العسكر، وكان قد رفع رايته لأهل الميمنة لمّا صُرع زياد وقاتل حتى صُرِعَ، فقال الأشتر حين رآه: «هذا والله الصبر الجَميل، والفعلُ الكريم. ألَا يستحي الرجلُ أن ينصرفَ ولا يُقْتَل أو يشفي به على القتل». وقاتلهم الأشتر قتالاً شديدًا، ولزمه الحارث بن جمهان

---

(١) الطبري: (كريب بن شريح) بدل ذؤيب. (٢) الطبري: (كريب بن زيد) بدل بكر.

(٣) أي زرق العيون ـ كناية عن اللؤم وكانت العرب تتشاءم من العيون الزُّرْق.

الجعفي يقاتل معه فما زال هو ومن رجع إليه يقاتلون حتى كَشَفَ أهلَ الشام وألحقهم بمعاوية والصف الذي معه بين صلاة العصر والمغرب، وانتهى إلى عبد الله بن بُدَيْل وهو في عصابة من القُرّاء نحو المائتين أو الثلاثمائة قد لصقوا بالأرض كأنهم خباء[1]، فكشف عنهم أهل الشام فأبصروا إخوانهم، فقالوا: ما فعل أميرُ المؤمنين؟ قال: حيٌّ صالح في المسير يُقاتِل الناسُ أمامه. فقالوا: الحمدُ لله قد كنّا ظننا أنه قد هلك وهلكتم.

وقال عبد الله بن بُدَيْل [لأصحابه]: استقدموا بنا، فقال الأشتر: لا تفعل واثبت مع الناس، فإنّه خيرٌ لهم وأبقىٰ لك ولأصحابك، فأبىٰ ومضى كما هو نحو معاوية وحوله كأمثال الجبال وبيده سيفان، وخرج عبد الله أمام أصحابه يَقْتُل كلَّ مَنْ دنا منه حتى قَتَل جماعةً ودنا من معاوية فنهض إليه الناسُ من كلِّ جانب، وأُحِيط به وبطائفةٍ من أصحابه فقاتلَ حتى قُتِلَ وقُتِل ناسٌ من أصحابه، ورجعتْ طائفةٌ منهم مجرحين فبعث الأشتر الحارث بن جهمان الجعفي فحمل على أهل الشام الذين يتبعون مَن انهزم من أصحاب عبد الله حتى نفَّسوا عنهم وانتهوا إلى الأشتر، وكان معاوية قد رأى ابنَ بُدَيْل وهو يضرب قُدُمًا، فقال: أترونه كبشَ القوم؟ فلما قُتِل أرسل إليه لينظروا مَنْ هو، فلم يعرفه أهل الشام فجاء إليه فلما رآه عرفه، فقال: هذا عبد الله بن بُدَيْل، والله لو استطاعَتْ نساءُ خزاعة لقاتلتنا فضلاً عن رجالها، وتمثّل بقول حاتم:

أَخُو الحَرْبِ إذْ عَضَّتْ به الحربُ عَضَّهَا ... وإنْ شَمَّرَتْ يومًا به الحربُ شَمَّرَا

وزحف الأشتر بعكٍّ والأشعريّين، وقال لمذحج: اكفونا عكًّا ووقف في هَمْدَان، وقال لكندة: اكفونا الأشعريّين، فاقتتلوا قتالاً شديدًا إلى المساء، وقاتلهم الأشتر في هَمْدان وطوائف من الناس، فأزال أهلَ الشام عن مواضعهم حتى ألحقهم بالصفوف الخمسة المعلّقة بالعمائم حول معاوية، ثم حمل عليهم حملةً أُخرىٰ فصرَعَ أربعةَ صُفُوف مِن المُعَلّقين بالعمائم [حتى انتهوا إلى الخامس الذي حول معاوية]، ودعا معاوية بفرسه فركب وكان يقول: أردتُ أن أنهزم فذكرتُ قولَ ابن الأطنابة الأنصاري، وكان جاهليًا:

أَبَـتْ لِي عِـفَّـتِـي فَـأَبَـىٰ بَـلَائِي ... وَإِقْدَامِي عَلَى البَطَلِ المُشِيحِ

(١) الطبري: (كأنهم جثا) ـ وهي أظهر.

وَإِعْطَائِي عَلَى الْمَكْرُوهِ مَالِي وَأَخْذِي الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وجَاشَتْ مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

قال: فمنعني هذا القولُ من الفِرار؛ ونظر إليّ عَمْرو وقال: «اليومُ صَبْرٌ وغدًا فَخْرٌ»، فقلت: صدقتَ.

وتقدّم جندب بن زهير فبارز رأسَ أُزد الشام فقتله الشاميّ وقَتَلَ مِن رهطه عجل وسعد ابنا عبد الله، وقتل أبو زينب بن عوف، وخرج عبد الله بن أبي الحصين الأزدي في القرّاء الذين مع عمّار بن ياسر فأُصيب معه، وتقدم عقبة بن حديد النميري وهو يقول: ألَا إنّ مرعىٰ الدنيا أصبحَ هَشِيمًا، وشجرها خضيدًا، وجديدها سملًا، وحلوها مُرّ المذاق، إنّي قد سَئِمْتُ الدنيا، وعَزفتْ نفسي عنها، وإنّي أتمنى الشهادة، وأتعرَّضُ لها في كل جيشٍ وغارة فأبىٰ الله إلّا أن يبلغني هذا اليوم، وإني متعرّضٌ لها مِنْ ساعتي هذه، وقد طمعتُ أن لا أحرمها فما تنتظرون عباد الله بجهادِ مَنْ عادىٰ الله؟ - في كلام طويل - وقال: يا إخوتي قد بعتُ هذه الدار بالتي أمامها، وهذا وجهي إليها فتبعه إخوته عبيد الله وعوف ومالك، وقالوا: لا نطلبِ رزقَ الدنيا بعدك، فقاتلوا حتى قُتِلوا.

وتقدّم شمر بن ذي الجوشن فبارز فضرب أدهم بن محرز الباهلي بالسيف وجهه، وضربه شمر فلم يضرّه فعاد شمر [إلى رَحْلِهِ] فشرب ماءً وكان ظمآن ثم أخذ الرمح ثم حمل على أدهم فصرعه، وقال: هذه بتلك. وكانت راية بجيلة مع أبي شداد قيس بن هُبَيْرة الأحمسي وهو قيس بن مكشوح، ومكشوح لقب فقال لقومه: والله لأنتهينّ بكم إلى صاحب التّرس المذهب - وكان صاحبه عبد الرحمٰن بن خالد - فقاتل الناس قتالاً شديدًا وشدَّ بسيفه نحو صاحب الترس، فعرض له مولىً روميّ لمعاوية فضرب قدم أبي شداد فقطعها وضربه أبو شداد فقتله وأُشْرِعَتْ إليه الرماحُ فقُتِلَ.

وأخذ الراية عبد الله بن قلع الأحمسي فقاتل حتى قُتِلَ، ثم أخذها عفيف بن إياس فلم تزل في يده حتى تحاجز الناسُ وقُتل حازم بن أبي حازم أخو قيس بن أبي حازم يومئذ، وقُتِل أبوه أيضًا له صحبة، ونعيم بن صهيب بن العيلة[1] البجليّون مع عليّ، فلما رأى عليّ ميمنة أصحابه قد عادَتْ إلى مواضعها ومواقفها، وكشفت مَنْ

(١) الطبري: (صهيب بن العلية).

بإزائها مِنْ عدوِّها حتى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم أقبل حتى انتهى إليهم، فقال: إني قد رأيتُ جولتكم عن صفوفكم يحوزكم الجفاة الطغام وأعراب الشام، وأنتم لهاميم العرب، والسِّنام الأعظم، وعُمَّار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحقّ فلولا إقبالكم بعد إدباركم، وكرّكم بعد انحيازكم لَوَجَبَ عليكم ما يجب على المولىٰ يوم الزحف [دبره] وكنتم مِن الهالكين، ولكن هوَّن وجدي وشفى أُحاح[١] نفسي أني رأيتكم بأخوة حزتموهم كما حازوكم وأزلتموهم عن مصافّهم كما أزالوكم تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطردة الهيم، فالآن فاصبروا فقد نزلتْ عليكم السكينة وثبّتكم الله باليقين ليعلم المنهزم أنه مسخط ربّه وموبق نفسه ـ في كلام طويل. وكان بشر بن عصمة المري[٢] قد لحق بمعاوية فلمّا اقتتل الناسُ بصِفِّين نَظر بشر إلى مالك بن العقدية الجشميّ وهو يفتك بأهل الشام فاغتاظ لذلك فحمل على مالك وتجاولا ساعةً ثم طعنه بشر بن عصمة فصَرَعه ولم يقتله، وانصرف عنه وقد ندم على طعنته إيّاه وكان جبّارًا، فقال:

وإنّــي لأرْجُــو مِــنْ مَــلِيــكِــي تَــجَــاوُزًا
ومِنْ صاحِبِ المَوْسُومِ[٣] في الصَّدْرِ هَاجِسُ
دَلَفْــتُ لــه تَــحْــتَ الــغُــبَــارِ بِــطَــعْــنَــةٍ
عَــلَى سَــاعَــةٍ فِــيــهَــا الــطِّــعَــانُ تَــخَــالُسُ

فبلغت مقالته ابن العَقَدِيّة فقال:

أَلَا أَبلِغَا بِشْرَ بْنِ عِصْمَةَ أَنّنِي شُغِلْتُ وَأَلْهَانِي الَّذِينَ أُمَارِسُ
وَصَادَفْتَ مِنّي غِرَّةً وَأَصَبْتَهَا كَذ لِكَ وَالأَبْطَالُ مَاضٍ وحَابِسُ[٤]

وحمل عبد الله بن الطُّفيل البكائي على أهل الشام، فلما انصرف حمل عليه رجلٌ من بني تميم يقال له «قيس بن مُرّة» ممن لحق بمعاوية من أهل العراق فوضع الرمحَ بين كتفي عبد الله، واعترضه ابنُ عمٍّ لعبد الله اسمه يزيد بن معاوية فوضع الرمح بين كتفي التميمي فقال له: والله لئن طعنته لأطعننّك، فقال له: عليك عهدُ الله وميثاقه إنْ رفعتَ الرُّمحَ عن ظهرِ صاحبك لترفعنَّ سنانك عني؟ قال: نعم، فرفع التميمي سنانه ورفع يزيد سنانه، فلما رجع الناسُ إلى الكوفة عتب على يزيد بن

---

(١) الإحاح: الظمأ.
(٢) الطبري (٥/٢٩): المزني.
(٣) الموسوم: اسم فرس.
(٤) الطبري: (وخالس).

الطُّفيل فقال:

أَلَمْ تَرَنِي حَامَيْتُ عَنْكَ مُنَاصِحًا ... بِصِفِّينَ إِذْ خَلَّاكَ كُلُّ حَمِيمِ
ونَهْنَهْتُ عَنْكَ الحَنْظَلِيَّ وَقَدْ أَتَىٰ ... عَلَى سَابِحٍ ذِي مَيْعَةٍ وهَزِيمِ

وخرج رجلٌ من آل عكٍّ من أهل الشام يسأل المبارزة، فبرز إليه قيس بن فَهْدَان الكنديّ فحمل عليه، وتجاولا ساعةً ثم طعنه عبد الرحمٰن فقتله، وقال:

لَقَدْ عَلِمَتْ عُكٌّ بِصِفِّينَ أَنَّنَا ... إِذَا ٱلْتَقَتِ الخيلان نَطْعَنُهَا شَزْرَا
ونَحْمِلُ رَايَاتِ الطِّعانِ بِحَقِّهَا ... فَنُورِدُهَا بِيضًا ونُصْدِرُهَا حُمْرَا

وخرج قيس بن يزيد ـ وهو ممن فرَّ إلى معاوية ـ فخرج إليه أبو العمرطة بن يزيد فتعارفا فتواقفا ثم انصرفا وأخبر كلُّ واحدٍ منهما أنّه لقي أخاه. وقاتلت طيىء يومئذ قتالاً شديدًا، فعُبِّئَتْ لهم جموعٌ فأتاهم حمرة بن مالك الهمدانيّ، فقال: مَن القوم؟ فقال له عبد الله بن خليفة وكان شيعيًّا شاعرًا خطيبًا: نحن طيىء السهل، وطيىء الرمل، وطيىء الجبل الممنوع ذي النخل، نحن طيىء الرماح، وطيىء البطاح، فرسان الصباح. فقال حمرة بن مالك: إنّك لحسن الثناء على قومك. واقتتل الناسُ قتالاً شديدًا فناداهم، يا معشر طيىء فداءً لكم طارفي وتالدي قاتِلوا على الدِّين والأحساب، وحمل بشر بن العسوس فقاتل ففُقِئَتْ عينه يومئذ، فقال في ذلك:

أَلَا لَيْتَ عَيْنِي هٰذِهِ مِثْلُ هٰذِهِ ... وَلَمْ أَمْشِ فِي الأَحْيَاءِ إِلَّا بِقَائِدِ
وَيَا لَيْتَ رِجْلِي ثُمَّ طُنَّتْ بِنِصْفِهَا ... وَيَا لَيْتَ كَفِّي ثُمَّ طَاحَتْ بِسَاعِدِي[1]
وَيَا لَيْتَنِي لَمْ أَبْقَ بَعْدَ مُطَرِّفٍ ... وَسَعْدٍ وبَعْدَ المُسْتَنِيرِ بْنِ خَالِدِ
فَوَارِسَ لَمْ تَغْذُ الحَوَاضِنُ مِثْلَهُمْ ... إِذَا الحَرْبُ أَبْدَتْ عن خدامِ الخَرَائِدِ

وقاتلت النخع يومئذ قتالاً شديدًا فأُصيب منهم حيان وبكرًا ابنا هوذة، وشعيب بن نعيم، وربيعة بن مالك بن وهبيل، وأُبيّ أخو علقمة بن قيس الفقيه، وقُطِعَتْ رِجل علقمة يومئذ فكان يقول: «ما أُحِبّ أنَّ رِجْلِي أصحّ مما كانت وإنَّها لمما أرجو بها الثواب وحُسْنَ الجزاء من ربّي». قال: ورأيتُ أخي في المنام فقلت له: ماذا قَدِمْتُم عليه؟ فقال لي: إنّا ٱلتقينا نحنُ والقوم عند الله تعالىٰ فاحتججنا فحججناهم، فمما سُرِرْتُ بشيءٍ سُروري بتلك الرؤيا ـ وكان يقال لأُبَيّ «أُبَيّ الصلاة» لكثرة صلاته.

(١) الطبري (٥/ ٣٢)، ذكر البيت الثاني هذا في آخر الأبيات.

وخرجت حِمْيَر في جمعها ومَن أنضمَّ إليها من أهل الشام ومقدمهم ذو الكلاع ومعه عبيد الله بن عمر بن الخطاب وهم مَيْمَنة أهل الشام، فقصدوا ربيعة من أهل العراق، وكانت ربيعة ميسرة أهل العراق وفيهم ابن عباس على الميسرة، فحملوا على ربيعة حملة شديدة فتضعضعت رايةُ ربيعة ـ وكانت الراية مع أبي ساسان حضين بن المنذر ـ فانصرف أهل الشام عنهم، ثم كرَّ عبيد الله بن عمر، وقال: يا أهل الشام إنّ هذا الحيَّ من أهل العراق قَتَلة عثمان وأنصار عليّ فشدُّوا على الناس شَدَّةً عظيمة. فثبتتْ ربيعة وصبروا صبرًا حسنًا إلّا قليلاً مِن الضُّعفاء والفَشَلة، وثبت أهلُ الرّايات، وأهل الصبر والحفّاظ، وقاتَلوا قتالاً حسنًا، وانهزم خالد بن المعمر مَعْ مَن أنهزم وكان على ربيعة، فلما رأى أصحاب الرّايات قد صبروا رجع وصاح بمن أنهزم وأمرهم بالرجوع فرجعوا، وكان خالد قد سعىٰ به إلى عليّ أنه كاتب معاوية فأحضره عليّ ومعه ربيعة فسأله عمّا قيل، وقال له: إنْ كنتَ فعلتَ ذلك فالحق بأيِّ بلدٍ شِئْتَ لا يكون لمعاوية عليه حكم، فأنكر ذلك.

وقالت ربيعة: يا أمير المؤمنين لو نعلم أنه فعل ذلك لقتلناه، فاستوثق منه عليّ بالعهود، فلما فرّ اتّهمه بعضُ الناس واعتذر هو بأني لمّا رأيتُ رجالاً منا قد انهزموا استقبلتُهم لأردّهم إليكم، فأقبلتُ بمن أطاعني إليكم، ولما رجع إلى مقامه حرّض ربيعة فاشتدّ قتالهم مع حمير وعبيد الله بن عمر حتى كَثُرَتْ بينهم القتلى، فقتل سمير بن الريّان العجليّ وكان شديد البأس، وأتىٰ زياد بن عمر بن خصفة عبدَ القيس فأعلمهم بما لَقِيَتْ بكر بن وائل مِنْ حِمْير، وقال: يا عبد القيس لا بكر بعد اليوم، فأتت عبد القيس بني بكر فقاتَلوا معهم فقُتِل ذو الكلاع الحميري، وعبيد الله بن عمر قَتَلة محرز بن الصحصح من تميم الله بن ثعلبة مِن أهل البصرة، وأخذ سيفه «ذا الوشاح»، وكان لعمر فلما مَلَك معاوية العراق أَخَذَه منه، وقيل: بل قَتَلة هانئ بن خطاب الأرحبي، وقيل: قَتَله مالك بن عمرو التنعي الحضرميّ.

وخرج عمّار بن ياسر على الناس، فقال: «اللّهمّ إنّك تعلمُ أني لو أعلم أن رضاك في أنْ أقذفَ بنفسي في هذا البحر لفعلته. اللّهمّ إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أنْ أضع ظبةَ سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتى تخرجَ من ظهري لفعلته. وإني لا أعلم اليومَ عملاً هو أرضى لك من جهادِ هٰؤلاءِ الفاسقين، ولو أعلمُ عملاً هو أرضى لك منه لفعلتُه. والله إني لأرىٰ قومًا ليضربنّكم ضربًا يرتاب منه المُبطلون، وأيم الله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هَجَر لعلمتُ أنّا على الحق وأنهم على الباطل».

ثم قال: من يبتغي رضوانَ الله ربّه ولا يرجع إلى مالٍ ولا ولدٍ، فأتاه عصابة فقال: «اقصدوا بنا هٰؤلاء القوم الذين يطلبون دَمَ عثمان، واللهِ ما أرادوا الطلبَ بدمِهِ ولكنّهم ذاقوا الدنيا واستحبُّوها وعَلِمُوا أن الحقَّ إذا لَزِمهم حالَ بينهم وبين ما يَتمرَّغون فيه منها، ولم يكن لهم سابقة يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم فخدعوا أتباعهم، وقالوا: «إمامنا قُتِل مظلومًا»، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكًا، فبلغوا ما تَرَوْنَ فلولا هذا ما تَبِعهم من الناس رجلان. اللّهمّ إنْ تنصرنا فطالما نصرتَ وإنْ تجعل لهم الأمر فادّخر لهم بما أحدثوا في عِبادِكَ العذابَ الأليم».

ثم مضى ومعه تلك العصابة، فكان لا يمرُّ بوادٍ مِنْ أودية صِفِّين إلّا تبعه من كان هناك من أصحاب النبيّ ﷺ، ثم جاء إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو المرقال، وكان صاحب راية عليّ وكان أعور، فقال: يا هاشم أعورًا وجبنًا؟ لا خير في أعور لا يغشىٰ البأس، اركب يا هاشم، فركب ومضى معه وهو يقول:

أعْـوَرُ يَـبْـغِـي أَهْـلَهُ مَـحَـلَّا قَـدْ عَـالَجَ الـحَـيَـاةَ حَـتـى مَـلَّا
لا بُـــدَّ أن يَـــفُـــلَّ أو يُـــفَـــلَّا يتلهم[1] بِذِي الكعوب تَلَّا[2]

وعمّار يقول: تقدّم يا هاشم، الجنةُ تحتَ ظلالِ السيوف، والموتُ تحت أطراف الأسَل[3]، وقد فُتِحت أبوابُ السماء وتزيّنت الحور العين:

الـيـوم ألـقـى الأحـبّـه مـحـمّـدًا وحـزبـه

وتقدّم حتى دنا من عَمْرو بن العاص فقال له: يا عَمْرو بِعْتَ دينك بمصر تَبًّا لك، فقال له: لا ولكن أطلب بدم عثمان. قال: «أنا أشهد على عِلمي فيك أنّك لا تطلبُ بشيءٍ مِنْ فِعْلِكَ وجهَ الله وإنّك إنْ لم تُقتل اليوم تَمُتْ غدًا، فانْظُر إذا أُعْطِيَ الناسُ على قَدْرِ نِيَّاتِهِم ما نيّتك. لقد قاتلتَ صاحب هذه الراية ثلاثًا مع رسول الله ﷺ وهذه الرابعة ما هي بأبرّ وأتقىٰ»، ثم قاتل عمار فلم يرجع وقُتِل.

وقال حبّة بن جوين العرني: قلتُ لحذيفة بن اليمان: حدِّثنا فإنّا نخافُ الفِتَن، فقال: عليكم بالفئة التي فيها ابن سُمَيَّة، فإنَّ رسول الله ﷺ قال: «تَقْتُلُهُ الفِئَةُ الباغِيَة الناكبة عن الطّريق، وإنّ آخر رزقه ضياح من لبن وهو الممزوج بالماء من اللبن». قال حبة: فشهدتهُ يوم قُتل وهو يقول: ائتوني بآخرِ رزقٍ لي في الدُّنيا،

---

(١) يتلهم: يصرعهم.
(٢) انظر: الطبري (٥/ ٤٠).
(٣) أي: الرماح.

فأُتي بضياحٍ مِنْ لبنٍ في قَدَحٍ أروح له حلقة حمراء، فما أخطأ حذيفة مقياس شعره، فقال:

اليومُ ألقى الأحبّه محمّدًا وحِزْبَه

والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هَجَر لعلمتُ أننا على الحق وأنهم على الباطل، ثم قُتِلَ قَتَله أبو الغازية، واحتزّ رأسه ابنُ حُوَيّ السكسكي، وقيل: قَتَلَه غيره.

وقد كان ذو الكلاع سمع عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ لعمّار بن ياسر: «تَقْتُلك الفئةُ الباغية، وآخر شُرْبة تشربها ضياح من لبن»، فكان ذو الكلاع يقول لعمرو: ما هذا! ويحك يا عمرو! فيقول عمرو: إنه سيرجعْ إلينا، فقُتل ذو الكلاع قبل عَمار مع معاوية، وأُصيب عمّار بعده مع عليّ، فقال عَمْرو لمعاوية: «ما أدري بقتل أيّهما أنا أشدُّ فَرَحًا بقَتْل عمّارًا أو بقتل ذي الكلاع. والله لو بقي ذو الكلاع بعد قَتل عمّار لمال بعامّة أهلِ الشام إلى عليّ». فأتىٰ جماعةٌ إلى معاوية كلّهم يقول: أنا قتلتُ عمّارًا، فيقول عَمْرو: فما سمعته يقول؟ فيخلطون، فأتاه ابن حُوَيّ فقال: أنا قتلتُه فسمعته يقول:

اليومَ ألقى الأحبّه محمّدًا وحزبه

فقال له عمرو: أنت صاحبه، ثم قال: رويدًا والله ما ظفرتْ يداك، ولقد أسخطتَ ربّك. قيل: إنّ أبا الغازية قَتَل عمّارًا وعاش إلى زمن الحجّاج، ودخل عليه فأكرمه الحجاج وقال له: أنتَ قتلتَ ابن سُمَيّة ـ يعني عمّارًا ـ؟ قال: نعم. فقال: مَنْ سَرّه أن ينظر إلى عظيم الباع يوم القيامة فلينظر إلى هذا الذي قتل ابن سميّة، ثم سأله أبو الغازية حاجته فلم يُجِبْه إليها، فقال: نوطئ لهم الدنيا ولا يعطونا منها، ويزعم أني عظيم الباع يوم القيامة! فقال الحجاج: أجَلْ والله مَنْ كان ضِرْسُهُ مثل أُحُد، وفَخِذُه مثل جبل وَرِقَان[1]، ومجلسه مثل المدينة والرَّبَذَة إنه لعظيم الباع يوم القيامة. والله لو أنّ عمارًا قَتَلَه أهلُ الأرض كلهم لدخلوا كلّهم النار.

وقال عبد الرحمٰن السلمي: لمّا قُتِل عمّار دخلتُ عسكر معاوية لأنظر هل بلغ منهم قتل عمّار ما بلغ منّا ـ وكنا إذا تركنا القتال تحدّثوا إلينا وتحدّثنا إليهم ـ فإذا معاوية، وعَمْرو، وأبو الأعور، وعبد الله بن عَمْرو يتسايرون فأدخلتُ فرسي بينهم لئلا

(١) وَرِقَان: جبل أسود بين العرج والرويثة يمين المصعد من مكة.

يفوتني ما يقولون، فقال عبد الله لأبيه: «يا أبتِ قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا وقد قال رسول الله ﷺ ما قال! قال: وما قال؟ قال: أَلَمْ يكن المسلمون ينقلون في بناء مسجدِ النبيّ ﷺ لَبِنَة لَبِنَة وعمّار لبنتين لبنتين، فغشيَ عليه فأتاه رسولُ الله ﷺ فجعل يمسح التراب عَنْ وجهه ويقول: «ويحك يا ابن سمية الناسُ ينقلون لَبِنَة لَبِنَة وأنتَ تنقلُ لَبِنَتَيْن لَبِنَتَيْن رغبةً في الأجرِ وأنت ذلك تَقْتُلُكَ الفِئَةُ الباغية»، فقال عَمْرو لمعاوية: أما تسمع ما يقول عبد الله؟ قال: وما يقول؟ فأخبره فقال معاوية: أنحن قتلناه؟ إنّما قتله مَنْ جاء به»، فخرج الناسُ مِنْ فساطيطهم وأخبيتهم يقولون: إنّما قتل عمّارًا مَنْ جاء به، فلا أدري مَن كان أعجب أهو أم هُم.

فلما قُتل عمّار قال عليّ لربيعة وهَمْدَان: أنتم دِرْعِي ورُمْحي، فانتدب له نحو من اثني عشر وتقدّمهم عليّ على بغلة فحملوا معه حملةَ رجلٍ واحد، فلم يبقَ لأهل الشام صفّ إلّا انتقض وقَتَلوا كل مَن انتهوا إليه حتى بلغوا معاوية، وعليّ يقول:

أَقْتُلُهُمْ[1] ولَا أَرَى مُعَاوِيَهْ   الجاحِظَ العَيْنِ العَظِيمَ الحَاوِيَهْ

ثم نادى معاوية فقال: علامَ يُقْتَلُ الناسُ بيننا؟ هلمّ أحاكمُك إلى الله فأيُّنا قَتَل صاحبَه استقامَتْ له الأُمور، فقال له عمرو: أَنْصَفَكَ، فقال له معاوية: ما أُنصِفْتُ إنك لتعلمُ أنه لم يبرز إليه أحدٌ إلّا قَتَلَه. فقال له عمر: ما يَحْسُنُ بك ترك مبارزته، فقال له معاوية: طمعتَ فيها بعدي. وكان أصحابُ عليّ قد وكلوا به رجلين يحافظانه لئلّا يقاتِل وكان يحمل إذا غفلا فلا يرجع حتى يخضب سيفه، وأنه حمل مرّةً فلم يرجع حتى انثنىٰ سيفه فألقاه إليهم، وقال: «لولا أنه انثنى ما رجعتُ إليكم»، فقال الأعمش لأبي عبد الرحمٰن: هذا والله ضربٌ غير مرتاب. فقال أبو عبد الرحمٰن: سمع القوم شيئًا فأدّوه ما كانوا بكاذبين.

وأَسَرَ معاوية جماعة من أصحاب عليّ، فقال له عمرو: اقتلهم. فقال عمرو بن أوس الأوديّ: لا تقتلني فإنك خالي، قال: من أين أنا خالك ولم يكن بيننا أود مصاهرة؟ قال: إنْ أخبرتك فهو أماني عندك، قال: نعم، قال: أليست أختك أُمّ حبيبة زوج النبيّ ﷺ؟ قال: بلى، قال: فإنّي ابنها[2] وأنت أخوها فأنت خالي. فقال معاوية: ما له لله أبوه أمَا كان في هٰؤلاء مَنْ يفطن لها غيره، وخلّىٰ سبيله ـ وكان قد

---

(١) الطبري (٥/٤٢): (أضربهم) ـ بدل أقتلهم.

(٢) أي: لأنّها أمّ المؤمنين.

أُسر على أسارى كثيرة فخلّى سبيلهم فجاؤوا معاوية وإنّ عَمْرًا ليقول له وقد أسر أيضًا أسارىٰ كثيرة: اُقتلهم، فلما وصل أصحابهم قال معاوية يا عَمْرو لو أطعناك في هٰؤلاء الأسارىٰ لوقعنا في قبيحٍ من الأمر، وخلّى سبيل مَنْ عنده.

وأمّا هاشم بن عتبة فإنه دعا الناسَ عند المساء، وقال: إلّا مَنْ كان يريد الله والدّار الآخرة فإليّ، فأقبل إليه ناسٌ كثيرٌ فحمل على أهلِ الشام مِرارًا ويصبرون له، وقاتل قتالاً شديدًا وقال لأصحابه: لا يهولنكم ما ترون مِنْ صَبْرِهم، فوالله ما هو إلّا حَمِيَّة العرب وصبرها تحت راياتهم، وإنّهم لعلىٰ الضّلال وإنّكم لعلى الحقّ. ثم حرّض أصحابه وحمل في عصابة من القُرّاء فقاتل قِتَالاً شديدًا حتى رأوا بعضَ ما يُسَرُّون به، فبينما هم كذلك إذْ خرج عليهم شابٌّ وهو يقول:

أَنَـا ابـنُ أَرْبَـابِ الـمُـلُوكِ غَـسَّـانْ ... والـدَّائِنُ الـيـومَ بِـدِيـنِ عُـثْـمَـانْ
نَـبَّـأَنَـا قُـرّاؤُنـا بِـمَـا كَـان ... أنَّ عَـلِـيًّـا قَـتَـلَ ابـنَ عَـفَّـانْ

ثم يحمل فلا يرجع حتى يَضْرِبَ بسيفه ويشتم ويلعَن، فقال له هاشم: يا هذا إنّ هذا الكلام بعده الخِصَام، وإنّ هذا القتال بعده الحِسَاب، فاتّق الله فإنه سائِلُكَ عن هذا الموقف وما أردتَّ به، قال: فإني أُقاتلكم لأنْ صاحبكم لا يصلّي وأنتم لا تصلُّون، وإنّ صاحبكم قَتَلَ خليفتنا وأنتم ساعدتموه على قتله. فقال له هاشم: ما أنت وعثمان أَقْتَلَهُ أصحابُ رسول الله ﷺ وأبناء وأصحابه وقُرَّاءِ الناس وهم أهلُ الدين والعلم وما أهملوا أمرَ هذا الدين طَرْفَةَ عَيْنٍ؟ وأمّا قولك: إنّ صاحِبَنا لا يصلّي فإنّه أوّل مَنْ صَلّى، وأفقه خلق الله في دِين الله، وأولى بالرسول ﷺ. وأمّا كل مَنْ ترى معي فكلّهم قارئٌ لكتاب الله لا ينام الليل تهجّدًا فلا يغوينك هٰؤلاء الأشقياء. فقال الفتى: فهل لي مِنْ توبة؟ قال: نعم تُبْ إلى الله يَتُبْ عليك فإنه يقبلُ التوبةَ عن عباده ويعفو عن السيّئات. فرجع الفتى فقال له أهل الشام: خدعك العراقي، فقال: كلّا ولكن نصح لي. وقاتل هاشم وأصحابه قتالاً شديدًا حتى رأوا الظفر، فأقبلتْ عليهم عند المغرب كتيبة لتنوخ فقاتلهم هاشم وهو يقول:

أَعْـوَرُ يَـبْـغِـي أَهْـلَه مَـحَـلَّا ... لا بُـدَّ أنْ يَـفُـلَّ أو يُـفَـلَّا
قَـدْ عَـالَجَ الـحـيـاةَ حَـتَّـى مَـلَّا ... يَـتُـلُّهُـمْ بـذِي الـكَـعُـوبِ تَـلَّا

فقَتَلَ يومئذ تسعة أو عشرة، وحمل عليه الحارث بن المنذر التنوخي فطعنه، فسقط، فأرسل إليه عليّ أن قَدِّمْ لواءك، فقال لرسوله: انظر إلى بطني - فإذا هو

انشقّ، فقال الحجاج بن غزية الأنصاري:

فَإِنْ تَفْخَرُوا بِابْنَي بُدَيْلٍ وهَاشِمٍ ... فَنَحْنُ قَتَلْنَا ذَا الكَلَاعِ وحَوْشَبَا
ونَحْنُ تَرَكْنَا عِنْدَ مُعْتَرَكِ القَنَا ... أَخَاكَ عُبَيْدَ الله لَحْمًا مُلَحَّبَا
ونَحْنُ أَحَطْنَا بِالبَعِيرِ وأَهْلِهِ ... ونَحْنُ سَقَيْنَاكَ سمامًا مُقَشَّبا[1]

ومرَّ عليّ بكتيبة مِن أهل الشام فرآهم لا يزولون وهم غسّان، فقال: «إنّ هٰؤلاء لا يزولون إلّا بطعنٍ وضَرْبٍ يفلق الهام، ويطيح العظام، تسقط منه المعاصم والأكفّ، وحتى يقرع جباههم بعمد الحديد، أين أهل النصر والصبر طلّاب الأجر»؟ فأتاه عصابةٌ مِنَ المسلمين فدعا ابنه محمّدًا، فقال له: تقدّم نحو هذه الراية مَشْيًا رُويدًا على هينتك حتى إذا أشرعت في صُدُورِهِم الرماح فأمسك حتى يأتيك أمري. ففعل، وأعدّ لهم عليّ مثلهم وسيَّرهم إلى ابنه محمّد وأمره بقتالهم، فحملوا عليهم فأزالوهم عن مواقفهم وأصابوا منهم رجالاً.

[ليلة الهرير]:

ومرَّ الأسود بن قيس المُرادي بعبد الله بن كعب المُرادِيّ وهو صريع، فقال عبد الله: يا أسود، قال: لبّيك، وعرفه وقال له: عزَّ عليَّ مصرعُكَ ثم نزل إليه وقال له: إنْ كان جارُك ليأمن بوائقك، وإنْ كنتَ لمن الذاكرين الله كثيرًا، أوصني رَحِمَكَ اللهُ، فقال: «أُوصِيك بتقوىٰ الله، وأنْ تناصح أميرَ المؤمنين، وأنْ تُقاتلَ معه المحلين حتى تظهر أو تلحق بالله، وأبْلِغْه عني السلام، وقُلْ له: قاتِل على المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك، فإنه مَنْ أصبح غدًا والمعركةُ خلف ظهره كان العالي»، ثم لم يلبث أن مات، فأقبل الأسود إلى عليّ فأخبره فقال: رحمه الله جاهد عدوّنا في الحياة ونصح لنا في الوفاة.

وقيل: إنّ الذي أشار على أمير المؤمنين عليّ بهذا عبد الرحمٰن بن الحنبل الجمحي قال: فاقتتل الناسُ تلك الليلة كلّها إلى الصباح ـ وهي ليلة الهرير ـ فتطاعنوا حتى تقصفت الرّماح، وترامَوْا حتى نفد النبل، وأخذوا السيوف وعليّ يسير فيما بين المَيْمنة والميسرة ويأمر كلَّ كتيبة أنْ تقدم على التي تليها، فلم يزل يفعل ذلك حتى أصبح والمعركةُ كلُّها خلفَ ظهره، والأشتر في الميمنة وابن عباس في الميسرة، وعليّ في القلب، والناس يقتتلون مِنْ كل جانب ـ وذلك يوم الجمعة.

---

(١) القشب: الخلط وسقي السُّم.

وأخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتِل فيها وكان قد تولّاها عشيّة الخميس وليلة الجمعة إلى ارتفاع الضحىٰ، ويقول لأصحابه: «اْزحفوا قيد هذا الرّمح»، وهو يزحف بهم نحو أهل الشام، فإذا فعل ذلك بهم قال: «ازحفوا قيد هذا القوس»، فإذا فعلوا سألهم مثلَ ذلك حتى مَلَّ أكثرُ الناس الإقدام، فلمّا رأى الأشترُ ذلك قال: «أُعيذكم بالله أنْ ترضعوا الغنم سائر اليوم». ثم دعا بفرسه فركبه وترك رايته مع حيان بن هوذة النخعيّ وخرج يسير في الكتائب ويقول: «مَنْ يشتري نفسه ويقاتل مع الأشتر يظهر أو يلحق بالله»؟ فاجتمع إليه ناسٌ كثير فيهم حيان بن هوذة النخعي وغيره، فرجع إلى المكان الذي فيه وقال لهم: «شُدُّوا شَدَّةً فدا لكم خالي وعمي ترضون بها الرب، وتُعِزّون بها الدين». ثم نزل وضرب وَجْه دابّته وقال لصاحب رايته: أقدم بها، وحمل على القوم، وحملوا معه، فضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم، ثم قاتلوه عند العسكر قتالاً شديدًا وقُتل صاحب رايته، ولما رأى عليّ الظفر مِنْ ناحيته أمدّه بالرجال، فقال عمرو بن العاص لوردان مولاه: أتدري ما مثلي ومَثَلك ومَثَل الأشتر؟ قال: لا، قال: كالأشقر إنْ تقدّم عُقِر وإنْ تأخّر عُقِر، لئن تأخّرتَ لأضربنّ عنقك. قال: أما واللهِ يا أبا عبد الله لأوردنّك حياضَ الموتِ، ضَعْ يدك على عاتقي. ثم جعل يتقدم ويتقدم ويقول: لأوردنّك حياضَ الموت واشتدّ القتال، فلما رأى عمرو أنْ أمرَ أهل العراقِ قد اشتدّ وخاف الهلاك قال لمعاوية: هل لك في أمرٍ أعْرِضُه عليك لا يزيدنا إلّا اْجتماعًا ولا يزيدهم إلّا فُرْقة؟ قال: نعم، قال: «نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها هذا حَكَم بيننا وبينكم، فإنْ أبىٰ بعضُهم أنْ يقبلها وجدتَ فيهم مَنْ يقول ينبغي لنا أنْ نقبل فتكون فُرقة بينهم، وإنْ قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنّا إلى أجل».

فرفعوا المصاحف بالرّماح وقالوا: هذا حكم كتاب الله عزّ وجلّ بيننا وبينكم، مَنْ لثغور الشام بعد أهله، مَنْ لثغور العراق بعد أهله؟ فلما رآها الناسُ قالوا: نجيبُ إلى كتاب الله. فقال لهم عليّ: عبادَ الله اْمضوا على حقّكم وصدقكم وقتال عدوّكم، فإنْ معاوية، وعَمْرًا، وابنَ أبي مَعيط، وحبيبًا، وابن أبي سَرح، والضحّاك ليسوا بأصحاب دِين ولا قرآن أنا أعْرَف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً ثم رجالاً، فكانوا شَرَّ أطفال وشرّ رجال. ويَحْكُم! والله ما رفعوها إلّا خديعة ووهنًا ومكيدة. فقالوا له: لا يَسَعُنَا أنْ نُدْعَىٰ إلى كتابِ الله فنأبىٰ أنْ نَقْبله. فقال لهم عليّ: فإني إنما أُقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه. فقال له مسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي في عصابة مِنَ القُرّاء الذين صاروا

خوارج بعد ذلك: يا عليّ أجِبْ إلى كتاب الله عزّ وجلّ إذ دُعِيتَ إليه وإلّا دفعناك برُمّتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفّان. قال: فاحفظوا عني نَهْيِ إياكم واحفظوا مقالتكم لي، فإنْ تطيعوني فقاتِلُوا وإنْ تعصُوني فاصنعوا ما بَدَا لكم. قالوا: ابْعَثْ إلى الأشتر فليأْتِكَ.

فبعث عليّ يزيد بن هانئ إلى الأشتر يستدعيه، فقال الأشتر: ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك أنْ تزيلني عن موقفي إني قد رجوتُ أنْ يفتح الله لي. فرجع يزيد فأخبره، وارتفعت الأصوات، وارتفع الرهج من ناحية الأشتر، فقالوا: والله مات نراك إلّا أمَرْته أنْ يُقاتِل. فقال عليّ: هل رأيتموني ساررته! أليس كَلّمته على رؤوسكم وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابْعَثْ إليه فَلْيَأْتِك وإلّا والله اعتزلناك. فقال له: ويلك يا يزيد قُلْ له أقْبِلْ إليّ فإنَّ الفتنةَ قد وقعتْ، فأبلغه ذلك، فقال الأشتر: ألِرفع المصاحف؟ قال: نعم، قال: والله لقد ظننتُ أنّها ستُوقِع اختلافًا وفُرقة، إنّها مشورة ابن العاهر ألَا ترى إلى الفتح! ألا ترىٰ ما يلقون! ألا ترى ما صَنَعَ اللهُ لنا! لن ينبغي أن أَدَعْ هٰؤلاء!

وانصرف عنهم، فقال له يزيد: أتحب أنْ تظفر وأمير المؤمنين يسلم إلى عدوّه أو يُقتل؟ قال: لا والله، سبحانَ الله فأعلمه فأقبل إليهم الأشتر وقال: «يا أهلَ العراق، يا أهلَ الذُّلِّ والوهن، أحينَ عَلَوْتُم القومَ وظنُّوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها وهم والله قد تركوا ما أمرَ اللهُ به فيها وسُنَّةَ مَنْ أُنْزِلَتْ عليه! فأمهلوني فواقًا فإني قد أحسستُ بالفتح»، قالوا: لا، قال: أمْهلوني عَدْوَ الفَرَس فإنّي قد طمعتُ في النصر. قالوا: إذَنْ ندخلُ معك في خطيئَتِك. قال: فخبّروني عنكم متى كنتم محقّين؟ أحين تقاتِلون وخياركم يُقْتَلُون؟ فأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مُبْطِلُون! أم أنتم الآن محقّون فقَتْلَاكُمْ الذين لا تنكرون فضلهم وهم خيرٌ منكم في النار. قالوا: دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم لله ونَدَعُ قتالَهم لله. قال: خُدِعْتُمْ وانخدعتم، ودُعِيتُم إلى وضع الحرب فأجَبْتُم، يا أصحاب الجباهِ السود، كنّا نظنُّ صلاتَكم زهادة في الدنيا وشوقًا إلى لقاءِ الله فلا أرى مرادكم إلّا الدُّنيا، ألَا قُبْحًا، يا أشباهَ النيب الجلالة ما أنتم بِرائِين بعدَها عِزًّا أبدًا، فأبْعدوا كما بَعُد القوم الظالمون.

فسبوه وسبَّهم، وضربوا وجهَ دابَّته بسياطِهم، وضربَ وجوه دوابّهم بسوطه. فصاح به وبهم عليّ فكفّوا، وقال الناس: قد قَبِلْنا أنْ نجعل القرآنَ بيننا وبينهم حَكَمًا.

فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ فقال: أرىٰ الناس قد رضوا بما دَعُوهُم إليه مِنْ حُكْم القُرآن فإنْ شِئْتَ أتيتُ معاوية فسألتُه ما يريد؟ قال: ائْتِهِ، فأتاه فقال لمعاوية: لأيّ شيءٍ رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجعُ نحنُ وأنتم إلى ما أمرَ الله به في كتابه تبعثون رجلًا ترضونَ به ونَبْعَثُ رجلًا نرضىٰ به نأخُذُ عليهما أنْ يعملا بما في كتاب الله لا يَعْدُوانِهِ ثم نتَّبع ما اتّفقا عليه. قال له الأشعث: هذا الحقّ، فعادَ إلى عليّ فأخبره فقال الناس: قد رَضِينَا وقَبِلْنا. فقال أهلُ الشام: قد رَضِينا عَمْرًا، وقال الأشعث وأولٰئك القوم الذين صاروا خوارج: إنّا قد رَضِينا بأبي موسى الأشعريّ، فقال عليّ: قد عصيتموني في أوّل الأمر فلا تعصوني الآن لا أرى أنْ أُوَلي أبا موسى. فقال الأشعث، وزياد بن حصين، ومسعر بن فدكي: لا نرضىٰ إلّا به فإنه قد حَذَّرَنا ما وقَعْنَا فيه، قال عليّ: فإنّه ليس بثقة، قد فارقني وخَذَّلَ الناسَ عني ثم هرب مني حتى أمَّنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس أُوَلِّيه ذلك. قالوا: والله لا نبالي أنت كنتَ أم ابن عباس، لا نريدُ إلّا رجلًا هو منك ومن معاوية سواء. قال علي: إنّي أجعلُ الأشتر، قالوا: وهل سَعَّرَ الأرضَ غَيْر الأشتر. فقال: قد أبيتُم إلّا أبا موسى، قالوا: نعم، قال: فاصنعوا ما أردتُم.

فبعثوا إليه وقد اعتزلَ القتالَ وهو بعُرْض[١] فأتاه مولى له، فقال: إنّ الناسَ قد اصطلحوا، فقال: الحمد لله، قال: قد جعلوك حَكَمًا، قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وجاء أبو موسى حتى دخل العسكر وجاء الأشتر عليًا فقال: ألزني[٢] بعمرو بن العاص فوالله لَئِنْ ملأتُ عيني منه لأقتلنّه، وجاء الأحنف بن قيس فقال: «يا أمير المؤمنين إنك قد رُميتَ بحجر الأرض، وإنّي قد عجمتُ أبا موسى وحلبتُ أشطره فوجدته كليل الشفرة، قريب القعر، وإنه لا يصلح لهٰؤلاء القوم إلّا رجلٌ يدنو منهم حتى يصيرَ في أكفهم ويبعدُ حتى يصيرَ بمنزلة النجم منها، فإنْ أبيتَ أنْ تجعلني حَكَمًا فاجعلني ثانيًا أو ثالثًا، فإنّه لن يعقد عقدة إلّا حَلَلْتها ولا يحلّ عُقْدة أعقدها لك إلّا عقدتُ أخرىٰ أحكم منها»، فأبىٰ الناس إلّا أبا موسى والرّضا بالكتاب، فقال الأحنف: إن أبيتم إلّا أبا موسى فأدفئوا ظهره بالرجال، وحضر عَمْرو بن العاص عند عليّ ليكتب القضية بحضوره، فكتبوا: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا ما تقاضىٰ عليه أميرُ المؤمنين»، فقال عمرو: [أكتبْ اسمه واسم أبيه]، هو أميركم وأمّا أميرنا فلا،

---

(١) العُرْض: الجانب والناحية ـ وهو كناية عن كونه معتزل القتال مقيم في ناحية قريبة منه.

(٢) أي: الصقني.

فقال الأحنف: لا تَمْحُ اسمَ أمير المؤمنين فإنّي أخافُ إنْ مَحَوْتها أن لا ترجع إليك أبدًا، لا تمحها وإنْ قَتَل الناسُ بعضهم بعضًا، فأبىٰ ذلك عليّ مليًّا من النهار، ثم إنّ الأشعث بن قيس قال: أَمْحُ هذا الاسم فمحاه، فقال علي: الله أكبر سُنَّةٌ بسُنَّة، والله إني لكاتبُ رسولِ اللهِ ﷺ يوم الحديبية فكتبتُ «محمدٌ رسولَ الله» وقالوا؛ لستَ برسولِ الله ولكن اُكتبْ اسمك واسم أبيك فأمرني رسولُ اللهِ ﷺ بمحوه، فقلتُ: لا أستطيع، فقال: أرنيه، فأريتُه فمحاه بيده وقال: «إنّك ستُدعى إلى مِثْلَها فتُجِيب»، فقال عَمْرو: سبحان الله أتشبّه بالكفارِ ونحن مؤمنون؟ فقال عليّ: يا بن النابغة ومتى لم تكن للفاسقين وليًّا وللمؤمنين عدوًّا؟ فقال عمرو: والله لا يجمع بيني وبينك مجلسٌ بعد هذا اليوم أبدًا. فقال عليّ: إني لأرجو أن يطهّر اللهُ مجلسي منك ومِنْ أشباهك. وكتب الكتاب: «هذا ما تقاضىٰ عليه عليّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان قاضى عليّ على أهل الكوفة ومَنْ معهم وقاضى معاوية أهل الشام ومن معهم أننا ننزلُ عندَ حُكْمِ اللهِ وكتابِهِ وأنْ لا يجمعَ بيننا غيره وأنَّ كتابَ الله بيننا مِنْ فاتحته إلى خاتمته نُحْيِي ما أحيا ونُميتُ ما أماتَ فما وجدَ الحكمان في كتابِ اللهِ ـ وهما أبو موسى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص ـ عَمِلَا به وما لم يجداه في كتابِ الله فالسُّنَّة العادلة الجامعة غير المفرّقة»، وأخذ الحَكَمان مِنْ عليّ ومعاوية، ومن الجندَيْن من العهود والمواثيق أنهما آمِنان على أنفسهما وأهليهما والأُمّة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى عبد الله بن قيس وعَمْرو بن العاص عَهْد الله وميثاقه أنْ يحكما بين هذه الأُمّة لا يردَّانها في حربٍ ولا فُرْقة حتى يعصيا، وأَجَلُ القضاء إلى رمضان، وإنْ أحبَّا أنْ يؤخِرا ذلك أَخَّراه، وإنّ مكان قضيّتهما مكان عَدْل بين أهل الكوفة وأهل الشام.

وشهد الأشعث بن قيس، وسعيد بن قيس الهمداني، وورقاء بن سمي البجلي، وعبد الله بن محل العجلي، وحُجْر بن عدي الكندي، وعبد الله بن الطفيل العامري، وعقبة بن زياد الحضرميّ، ويزيد بن حجية التميمي، ومالك بن كعب الهمداني، ومِنْ أصحاب معاوية: أبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، وزَمِل بن عمرو العذري، وحمرة[1] بن مالك الهمداني، وعبد الرحمٰن بن خالد المخزومي، وسبيع بن يزيد الأنصاري، وعتبة بن أبي سفيان، ويزيد بن الحر العبسي.

---

(١) الطبري: حمزة ـ بالزاي ـ وفي الأصل هنا بالراء المهملة، وهو ما ضبطه المصنف في آخر الباب.

وقيل للأشتر: ليكتب فيها فقال: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي إنْ خُطَّ لي في هذه الصحيفة [اسم]، ولستُ على بيِّنة مِنْ ربِّي مِنْ ضلالِ عدوّي! أوَلستم قد رأيتم الظفر!

فقال له الأشعث: واللهِ ما رأيتَ ظفرًا، هلمّ إلينا لا رغبة بك عنّا. فقال: بلىٰ والله الرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة، لقد سفك الله بسيفي دماءَ رجالٍ ما أنتَ خيرٌ عندي منهم ولا أحرّم دمًا. قال: فكأنما قصع الله على أنف الأشعث الحمم.

وخرج الأشعث بالكتاب يقرأه على الناس حتى مرّ على طائفة من بني تميم، فيهم عروة بن أدية أخو أبي بلال، فقرأه عليهم فقال عروة: تُحَكِّمُونَ في أمرِ الله الرجال! لا حُكْمَ إلّا لله! ثم شدّ بسيفه فضرب به عجز دابة الأشعث ضربة خفيفة واندفعت الدابّة، وصاح به أصحابُ الأشعث فرجع، وغضب للأشعث قومه وناسٌ كثيرٌ من أهل اليمن، فمشى إليه الأحنف بن قيس، ومسعر بن فدكي، وناسٌ من تميم فأعتذروا فقبل وشكَر.

وكُتِبَ الكتاب يوم الأربعاء لثلاث عشرة خَلَتْ من صفر سنة سبع وثلاثين، واتّفقوا على أنْ يوافي أميرَ المؤمنين على موضع الحكمين بدُومَة الجَنْدَل أو بأذرح في شهر رمضان[١].

وقيل لعليّ: إنّ الأشتر لا يقرّ بما في الصحيفة ولا يرىٰ إلّا قتال القوم.

فقال عليّ: أنَا واللهِ ما رضيتُ، ولا أحببتُ أنْ ترضوا فإذْ أبيتم إلّا أنْ ترضوا فقد رضيتُ، وإذ رضيتُ فلا يصلحُ الرجوعُ بعدَ الرِّضَا، ولا التبديل بعدَ الإقرار إلّا أنْ يعصى الله ويتعدّىٰ كتابه، فقاتلوا مَنْ ترك أمرَ الله، وأمّا الذي ذكرتم مِنْ تَرْكِهِ أمري وما أنا عليه فليس مِنْ أولٰئك فلستُ أخافُ على ذلك، يا ليتَ فيكم مثله اثنين، يا ليتَ فيكم مثله واحدًا يرى من عدوّي ما أرى إذًا لخفتُ على مؤنتكم ورجوتُ أنْ يستقيم لي بعضَ أودكم، وقد نهيتكم فعصيتموني، فكنتُ أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

وهل أنا إلّا مِنْ غَزِيَّة إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشد غَزِيَّةُ أَرْشُدْ

---

(١) الذي في الطبريّ أنهما يجتمعان بدومة في شهر رمضان، فإذا لم يجتمعا لذلك اجتمعا بأذرح من العام المقبل.

والله لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوّة، وأسقطت مِنّة، وأورثتْ وهنًا وذلّة، ولمّا كنتم الأعلين، وخافَ عدوكم الاجتياح، واستحرّ بهمُ القتلُ، ووجدوا ألم الجراح رفعوا المصاحف فدعوكم إلى ما فيها ليفتنوكم عنهم، ويقطعوا الحرب، ويتربّصوا بكم المنون خديعةً ومكيدةً، فأعطيتموهم ما سألوا، وأبَيْتم إلّا أنْ تدهنوا وتجيروا.

وأيم الله ما أظنّكم بعدها توفّقون الرشد، ولا تصيبون باب الحزم.

ثم رجع الناسُ عن صفِّين، فلما رجع عليّ خالفتْ الحرورية وخرجتْ وكان ذلك أول ما ظهرتْ وأنكرتْ تحكيم الرجال، ورجعوا على غير الطريق الذي أقبلوا فيه أخذوا على طريق البرّ وعادوا وهم أعداء متباغضون، وقد فشا فيهم التحكيم، يقطعون الطريق بالتشاتم والتضارب بالسياط، يقول الخوارج: يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله، ويقول الآخرون: فارقتم إمامنا، وفرّقْتُم جماعَتَنا.

وساروا حتى جازوا النُّخَيْلَة ورأوا بيوتَ الكوفة فإذا بشيخ في ظلِّ بيتٍ عليه أثر المرض، فسلّم عليه أميرُ المؤمنين فردّ ردًّا حسنًا، فقال له عليّ: أرىٰ وجهك متغيّرًا أمن مرض؟

قال: نعم، قال: لعلّك كرهته. قال: ما أحب أنه بغيري. فقال: أليس احتسابًا للخير فيما أصابك؟ قال: بلى، قال: فأبشر برحمةِ ربِّك وغفران ذنبك، مَنْ أنت يا عبد الله؟ قال: صالح بن سليم. قال: ممن أنت؟ قال: أمّا الأصل فمن سلامان طيىء، وأمّا الدعوة والجوار ففي سليم بن منصور.

فقال: سبحان الله! ما أحسن اسمك، واسم أبيك، ومَن اعتزيتَ إليك، واسم ادعائك! هل شهدتَ معنا غزاتنا هذه؟ قال: لا والله، ولقد أردتُها ولكن ما ترىٰ مِنْ أثرِ الحمىٰ منعني عنها.

فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبَة: الآية ٩١] الآية، خبِّرني ما يقولُ الناسُ فيما كان بيننا وبين أهل الشام؟

قال: فيهم المسرور ـ وهم أغشاء الناس ـ وفيهم المكبوت الآسف بما كان بينك وبينهم وأولٰئك نُصَحَاءُ الناس لك. قال: صدقتَ، جعل الله ما كان مِنْ شكواك حَطًّا لسيئاتِك فإنّ المرض لا أجرَ فيه ولكن لا يدعُ على العبدِ ذنبًا إلّا حَطَّه وإنّما الأجرُ في القولِ باللّسان، والعملِ باليدِ والرجلِ، وإنّ الله عزّ وجلّ ليُدْخِل بصِدْقِ النيَّةِ والسريرة الصالحة عالمًا من عباده الجنّة.

ثم مضى غير بعيد، فلقيه عبد الله بن وديعة الأنصاري فدنا منه وسلَّم عليه وسايره فقال له: ما سمعتَ الناس يقولون في أمرنا؟

قال: منهم المُعْجَب به ومنهم الكَارِهُ له. قال: فما قول ذَوِي الرأي؟ قال: يقولون إنّ عليًا كان له جَمْعٌ عظيم ففرّقه، وكان له حِصْنٌ حَصِين فَهَدَمه، فمتى يبني ما هَدَم ويجمع ما فرّق؟ ولو كان مضى بمن أطاعه إذْ عصاه مَنْ عصاه فقاتَل حتى يظفر أو كان يهلك كان ذلك الحزم. قال عليّ: أنا هدمتُ أم هم هدموا! أنا فرّقت أم هم فرّقوا!

أمّا قولهم: لو كان مضى بمن أطاعه فقاتل حتى يظفر أو يهلك فوالله ما خَفِيَ هذا عنّي وإنْ كنت لسخيًا بنفسي عن الدنيا طيّب النفس بالموت، ولقد هممتُ بالإقدام على القوم فنظرتُ إلى هذين قد ابتدراني - يعني الحسن والحسين - ونظرتُ إلى هذَيْن قد استقدماني - يعني عبد الله بن جعفر ومحمد بن علي - فعلمتُ أنّ هذَيْن إنْ هلكا انقطعَ نسلُ رسولِ الله ﷺ من هذه الأمّة، وكرهتُ ذلك، وأشفقتُ على هذين أنْ يهلكا. وأيم الله لَئِنْ لقيتُهم بعد يومي هذا لألقينهم وليسوا معي في عسكرٍ ولا دار.

ثم مضى وإذا على يمينه قبور سبعة أو ثمانية، فقال عليّ: ما هذا؟ فقيل: يا أمير المؤمنين إنّ خبابَ بن الأرتّ توفي بعد مخرجك وأوصىٰ بأنْ يُدفن في الظهر - وكان الناس إنما يُدفنون في دورهم وأفنيتهم، وكان أوّل من دُفن بظاهر الكوفة ودُفن الناس إلى جنبه.

فقال عليّ: «رَحِمَ اللهُ خبابًا فلقد أسلم راغبًا، وهاجر طائعًا، وعاش مجاهدًا، وابتُلي في جسمه أحوالاً، ولن يضيّع اللهُ أجرَ مَنْ أحْسن عملاً»، ووقف عليها وقال: «السلام عليك يا أهلَ الدار الموحشة والمحالّ المقفرة من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات أنتم لنا سَلَفٌ فارط[1]، ونحن لكم تَبَعٌ وبكم عمّا قليل لاحقون. اللّهمّ أغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنّا وعنهم. طوبىٰ لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله عزّ وجلّ».

ثم أقبل حتى حاذىٰ سكّة الثوريين فسمع البكاء، فقال: ما هذه الأصوات؟

فقيل: البكاء على قتلىٰ صِفّين، فقال: أمَا أني أشهدُ لمن قُتِل منهم صابرًا محتسبًا بالشهادة.

---

(١) الفَرط: ما يتقدم الإنسان من أجر أو عمل أو شخص.

ثم مرّ بالفائشيين فسمع مثل ذلك، ثم مرّ بالشِّباميّين[1]، فسمع رَجَّة شديدة فوقف، فخرج إليه حرب بن شرحبيل الشبامي، فقال له عليّ: أيغلبكم نساؤكم! ألا تنهونهن عن هذا الرنين!

قال: يا أمير المؤمنين لو كانت دارًا أو دارَيْن أو ثلاثًا قدرنا على ذلك، ولكن قُتل من هذا الحيّ ثمانون ومائة قتيل، فليس دارٌ إلّا وفيها البكاء. فأمّا نحن معشر الرجال، فإنّا لا نبكي ولكنّا نفرح بالشهادة. وقال عليّ: رحم الله قَتْلاكُمْ ومَوْتاكم.

فأقبل يمشي معه وعليّ راكب فقال له عليّ: ارجعْ ووقف، ثم قال له: ارجع فإنّ مشي مثلَكَ مع مِثلي فتنة للوالي ومَذَلّة للمؤمن.

ثم مضى حتى مرّ بالناعطيين[2] وكان جلّهم عثمانية، فسمع بعضهم يقول: والله ما صنع عليٌّ شيئًا ذهب ثم انصرف في غير شيء، فلما رأوهُ أبلسوا فقال عليّ لأصحابه: وجوهُ قومٍ ما رأوا بالشام، مَنْ فارقناهم آنفًا خيرٌ مِنْ هٰؤلاء؛ ثم قال:

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ أَجْرَضَتْكَ مُلِمَّةٌ ... مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَبْرَحْ لِبَثِّكَ وَاجِمَا[3]

وَلَيْسَ أَخُوكَ بِالَّذِي إِنْ تَشَعَّبَتْ ... عَلَيْكَ الأُمورُ ظَلَّ يَلْحَاكَ لائِمَا

ثم مضى فلم يزل يذكر الله حتى دخل القصر، فلمّا دخل الكوفة لم يدخل الخوارج معه فأتوا «حرورًا»، فنزلوا بها، وقُتل «أُوَيْس القَرَنِيّ» بصِفِّين، وقيل: بل مات بدمشق، وقيل: بأرمينية، وقيل: بسجستان، وفيها قتل جندب بن زهير الأزديّ وهو من الصحابة مع عليّ.

وقتل بصفّين أيضًا حابس بن سعد الطائيّ مع معاوية وهو خالد يزيد بن عدي بن حاتم، فقتل يزيد قاتله غدرًا فأراد عديّ إسلامه إلى أولياءِ المقتول فهرب إلى معاوية.

وممن شهدَ صفّين مع عليّ خُزَيْمة بن ثابت ذو الشهادتين ولم يقاتل، فلما قُتِلَ عمّار بن ياسر جَرَّدَ سيفه وقاتل حتى قُتِلَ، وقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تقتلُ عمّارًا الفِئَةُ الباغية».

(١) هذه النسبة إلى شِبام، وهي مدينة باليمن. (٢) هذه النسبة إلى (ناعِط) بطن من هَمْدَان.

(٣) أجرضَتْك: أغصتك.

٨٦ ـ يوم النهروان[١]

لما أراد عليٌّ أن يبعثَ أبا موسىٰ للحكومة أتاه رجلان من الخوارج: زُرْعَة بن البُرْج الطائيّ وحرقوص بن زُهير السعدي، فقالا له: لا حُكْمَ إلّا لله، فقال عليّ: لا حكمًا إلّا الله.

وقال حرقوص بن زُهير: تُبْ من خطيئتِك، وارجع عن قضيّتك، واخرج بنا إلى عدوّنا فقاتلهم حتى نلقىٰ ربّنا.

فقال عليٌّ: قد أردتُكم على ذلك فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابًا، وشروطنا شروطًا، وأعطينا عليها عهودًا، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النّحل: الآية ٩١].

فقال حرقوص: ذلك ذنبٌ ينبغي أنْ تتوبَ عنه، فقال عليّ: ما هو ذنبٌ ولكنه عَجْزٌ عن الرأي، وقد نهيتكم. فقال زرعة: يا عليّ لئن لم تَدَعْ تحكيمَ الرجال لأقاتلنّك أطلبُ وجهَ الله تعالىٰ. فقال عليّ: بؤسًا لك! ما أشقاك! كأنّي بك قتيلاً تسفي عليك الرياح.

قال: وددتُ لو كان ذلك، فخرجا مِنْ عنده يحكّمان[٢].

وخطب عليّ ذات يوم فحكّمت المحكِّمة في جوانب المسجد، فقال عليّ: الله أكبر كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل، إنْ سكتوا غممناهم، وإنْ تكلّموا حججناهم، وإنْ خرجوا علينا قاتلناهم.

فوثب يزيد بن عاصم المحاربيّ فقال: الحمد لله غير مودَّع ربّنا، ولا مستغنٍ عنه. اللّهمّ إنّا نعوذُ بك مِنْ إعطاء الدنيَّة في ديننا، فإنّ إعطاء الدنية في الدين إدْهَانٌ في أمرِ الله، وذلّ راجع بأهله إلى سَخَط الله. يا عليّ أبالقتال تخوّفنا؟ أمَا والله إنّي لأرجو أنْ نضربكم بها عمّا قليل غير مصفحات، ثم لتعلم أيّنا أولىٰ بها صِلِيًّا.

ثم خرج هو وإخوةٌ له ثلاثة فأُصيبوا مع الخوارج بالنهر، وأُصيب أحدهم بعد ذلك بالنُّخَيْلَة. ثم خطب عليٌّ يومًا آخر فقام رجلٌ فقال: «لا حكم إلّا الله»، ثم توالىٰ عِدَّةُ رجال يحكِّمون فقال عليّ: «الله أكبر كلمة حقّ أُريد بها باطل. أمَا إنّ لكم عندنا ثلاثًا ما صحبتمونا لا نمنعكم مساجدَ الله أنْ تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفَيْء

(١) سنة ٣٧ من الهجرة.

(٢) أي يقولون: (لا حُكْم إلاّ الله).

ما دامتَ أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا وإنما فيكم أمر الله»، ثم رجع إلى مكانه من الخطبة.

ثم إنّ الخوارج لقي بعضُهم بعضًا وأجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبيّ، فخطبهم فزهّدهم في الدنيا وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: أخرجوا بنا مِنْ هذه القريةِ الظالمُ أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعضِ هذه المدائن مُنْكِرِينَ لهذه البدع المُضِلّة.

فقال له حرقوص بن زُهير: إنّ المتاعَ بهذه الدنيا قليلٌ، وإنّ الفراق لها وشيك، فلا تدعُوَنَّكم زينتها وبهجَتَها إلى المقام بها، ولا تلفتنكم عن طلب الحقّ وإنكار الظلم، فإنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون. فقال حمزة بن سنان الأسديّ: يا قوم إنّ الرأيَ ما رأيتم فولّوا أمركم رجلًا منكم، فإنّكم لا بدّ لكم مِنْ عمادٍ وسنادٍ وراية تحفّون بها وترجعون إليها. فعرضوها على زيد بن حصين الطائيّ فأبىٰ، وعرضوها على حرقوص بن زهير فأبىٰ، وعلى حمزة بن سنان، وشريح بن أوفى من العبسي فأبيا، وعرضوها على عبد الله بن وهب فقال: «هاتوها، أمَا والله لا آخذها رغبةً في الدنيا، ولا أَدَعَها فَرَقًا من الموت»، فبايعوه لعشرٍ خَلَوْنَ من شوّال، وكان يقال له: «ذو الثفنات»[1].

ثم اجتمعوا في منزل شُرَيْح بن أوفىٰ العبسي، فقال ابن وهب: اشخصوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكمُ الله فإنّكم أهلُ الحق.

قال شُرَيح: نخرج إلى المدائن فننزلها ونأخذها بأبوابها ونُخْرِجُ منها سكّانها، ونبعث إلى إخواننا مِنْ أهل البصرة فيقدمون علينا.

فقال زيد بن حصين: إنّكم إنْ خرجتم مجتمعين أتبعتم ولكن اخرجُوا وحدانًا مستخفّين. فأمّا المدائن فإنّ بها مَنْ يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزل جسر «النهروان»، وتكاتبوا إخوانكم مِنْ أهل البصرة. قالوا: هذا الرأي.

وكتب عبد الله بن وهب إلى مَنْ بالبصرة منهم يُعلمونهم ما أجتمعوا عليه ويحثّونهم على اللّحاق بهم، وسيَّر الكتاب إليهم، فأجابوه أنهم على اللّحاق به، فلما عزموا على المسير تعبّدوا ليلتهم وكانت ليلة الجمعة ويوم الجمعة وساروا يوم السبت،

---

(١) جمع ثَفِنَة: وهي من البعير ما مسَّ الأرض من كركرته وسعداناته وأصول أفخاذه، يريد أنّ جبهته لأثر السجود فيها تشبه الثفنات من البعير.

فخرج شُرَيْح بن أوفىٰ العبسي وهو يتلو قول الله تعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القَصَص: الآيتان ٢١، ٢٢]، وخرج معهم طرفة بن عديّ بن حاتم الطائيّ فاتّبعه أبوه فلم يقدر عليه، فانتهىٰ إلى المدائن ثم رجع فلما بلغ «ساباط» لقيه عبد الله بن وهب الراسبيّ في نحو عشرين فارسًا، فأراد عبد الله قتله فمنعه عَمْرو بن مالك التّيهاني، وبشر بن زيد البولاني، وأرسل عدي إلى سعد بن مسعود عامل عليّ على المدائن يحذّره أمرهم، فأخذ أبواب المدائن، وخرج في الخيل، واستخلف بها ابنَ أخيه المختار بن أبي عُبَيْد، وسار في طلبهم فأخبر عبد الله بن وهب خبره فرابأ طريقه وسار على بغداد، ولحقهم سعد بن مسعود «بالكرخ» في خمسمائة فارس عند المساء فانصرفَ إليهم عبد الله في ثلاثين فارسًا، فاقتتلوا ساعة وامتنع القوم منهم، وقال أصحاب سعد لسعد: ما تريد مِنْ قتالِ هٰؤلاء ولم يأتِكَ فيهم أمرٌ خَلِّهم فليذهبوا، واْكتبْ إلى أميرِ المؤمنين فإنْ أمرك باتّباعهم اتّبعتهم، وإنْ كفاكهم غيرك كان في ذلك عافية لك. فأبىٰ عليهم، فلما جنّ عليهم الليل خرج عبد الله بن وهب فعبرَ دجلة إلى أرض «جوخي» وسار إلى النهروان، فوصل إلى أصحابه وقد أيِسُوا منه، وقالوا: إنْ كان هلك وَلَّيْنا الأمر زيد بن حصين أو حرقوص بن زهير.

وسار جماعةٌ من أهل الكوفة يريدون الخوارج ليكونوا معهم، فردَّهم أهلوهم كرهًا، منهم القعقاع بن قيس الطائيّ عمّ الطرماح بن حكيم، وعبد الله بن حكيم بن عبد الرحمٰن البكائي.

وبلغ عليًا أنّ سالم بن ربيعة العبسي يريد الخروج، فأحضره عنده ونهاه، فانتهىٰ.

ولما خرجَت الخوارجُ من الكوفة أتىٰ عليًا أصحابَه وشيعته فبايعوه وقالوا: نحن أولياءُ مَنْ واليتَ وأعداءُ مَنْ عادَيْتَ، فشرط لهم فيه سُنَّة رسول الله ﷺ، فجاءه ربيعة بن أبي شداد الخثعمي ـ وكان شهد معه الجمل وصفّين ومعه راية خثعم ـ فقال له: بايعْ على كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسول الله ﷺ، فقال ربيعة: على سنّة أبي بكر وعمر.

قال له عليّ: ويلك لو أنّ أبا بكر وعمر عملا بغير كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ لم يكونا على شيءٍ من الحقّ، فبايَعَه، فنظر إليه عليّ وقال: أَمَا والله لكأني بك وقد نفرتَ مع هذه الخوارج فقُتِلْتَ، وكأنّي بك وقد وطئتك الخيل بحوافرها، فقُتل يوم النهر مع خوارج البصرة.

وأمّا خوارج البصرة، فإنّهم اجتمعوا في خمسمائة رجل وجعلوا عليهم مسعر بن فدكي التميمي، فعلم بهم ابنُ عباس فاتبعهم أبا الأسود الدُؤلي، فلحقهم بالجسر الأكبر فتواقفوا حتى حجز بينهم الليل وأدلج مسعر بأصحابه وأقبل يعترض الناس وعلى مقدمته الأشرس بن عوف الشيباني، وسار حتى لحق بعبد الله بن وهب بالنهر، فلما خرجت الخوارج وهرب أبو موسى إلى مكّة وردَّ عليٌّ بن عباس إلى البصرة قام في الكوفة فخطبهم، فقال: «الحمد لله وإنْ أتىٰ الدهرُ بالخطب الفادح والحدثان الجليل، وأشهد أنْ لا إلـٰه إلّا الله وأنّ محمّدًا رسولُ الله. أمّا بعد، فإنّ المعصية تورثُ الحسرة وتعقب الندم. وقد كنتُ أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمري ونحلتكم رأيِي لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم إلّا ما أردتم، فكنتُ أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

أمَرْتُـهُـمُ أمْـرِي بـمُـنْـعَـرِجِ الـلّوَى ... فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إلّا ضُحَىٰ الغَدِ

ألَا إنّ هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حَكَمَيْن قد نبذا حُكْمَ القرآنَ وراءَ ظُهُورِهِما، وأحييا ما أمات القرآنُ، واتّبع كلُّ واحدٍ منهما هواه بغير هدًى مِنَ الله فحكما بغير حُجَّة بيِّنة، ولا سُنَّة ماضية، واختلفا في حكمهما، وكلاهما لم يرشد، فبرئ اللهُ منهما ورسولُه وصالح المؤمنين. استعدُّوا وتأهّبوا للمسير إلى الشام، وأصبحوا في معسكركم إنْ شاء الله يوم الاثنين».

ثم نزل وكتب إلى الخوارج بالنهر: «بسم الله الرحمـٰن الرحيم. مِنْ عبد الله عليّ أميرُ المؤمنين إلى زيد بن حصين، وعبد الله بن وهب ومَنْ معهما مِن الناس. أمّا بعد، فإنّ هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حَكَمين قد خالفا كتابَ اللهِ واتّبعا هَوَاهُمَا بغير هُدًى مِنَ الله فلم يعملا بالسُّنَّة، ولم ينفذا القرآن حَكَمًا فبرئ اللهُ منهما ورسوله والمؤمنون. فإذا بلغكم كتابي هذا فأقْبِلُوا إلينا فإنّا سائِرُون إلى عَدُوِّنا وعدوّكم ونحن على الأمرِ الأوّل الذي كنّا عليه. [والسلام]».

فكتبوا إليه: أمّا بعد، فإنك لم تغضب لربّك وإنما غضبتَ لنفسك، فإنْ شهدتَ على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلّا فقد نبذناك على سواء إنّ الله لا يحبُّ الخائنين.

فلما قرأ كتابهم أيِسَ منهم، ورأى أن يدعُهم ويمضي بالناس حتى يلقىٰ أهلَ الشام فيناجزهم، فقام في أهل الكوفة فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: أمّا بعد، فإنّه مَنْ ترك الجهادَ في الله وأدهن في أمره كان على شفا هلكةٍ إلّا أنْ يتداركه الله بنعمته،

فاتّقوا الله وقاتِلوا مَنْ حادَّ الله ورسولَه وحاوَلَ أنْ يُطفِئ نورَ الله، فقاتِلوا الخاطئين الضالّين القاسطين الذين ليسوا بقرّاء القرآن، ولا فقهاء في الدين، ولا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمر بأهلٍ في سابقةِ الإسلام. والله لو وُلُّوا عليكم لعَمِلُوا فيكم بأعمال كسرى وهِرَقل. تيسّروا للمسير إلى عدوِّكم مِنْ أهل المغرب وقد بعثنا إلى إخوانكم مِنْ أهل البصرة ليقدمُوا عليكم فإذا اجتمعتم شخصنا إنّ شاء الله ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وكتب إلى ابن عباس: «أمّا بعد، فإنّا خرجنا إلى معسكرنا بالنُّخَيْلَة وقد أجمعنا على المسير إلى عدوِّنا مِنْ أهل المغرب فأشخص إلى الناس حتى يأتيك رسولي، وأقِمْ حتى يأتيك أمري. والسلام عليك».

فقرأ ابن عباس الكتاب على الناس وندبهم مع الأحنف بن قيس، فشخص ألف وخمسمائة [فاستقلّهم عبد الله بن عباس]، فخطبهم وقال: «يا أهل البصرة أتاني كتابُ أمير المؤمنين فأمرتكم بالنفير إليه فلم يَشْخَصْ منكم إليه إلّا ألف وخمسمائة وأنتم ستون ألف مقاتلٍ سوىٰ أبنائكم وعبيدكم، ألَا انْفروا إليه مع جارية بن قدامة السّعديّ ولا يجعلنّ رجلٌ على نفسه سبيلاً، فإنّي مُوقِعٌ بكل مَنْ وجدته متخلّفًا عن دعوته عاصيًا لإمَامِهِ فلا يلومَنَّ رجلٌ إلّا نفسه».

فخرج جارية فاجتمع ألف ألف وسبعمائة فوافوا عليًّا وهم ثلاثة آلاف ومائتان، فجمع إليه رؤوس أهل الكوفة ورؤوس الأسباع ووجوه الناس، فحمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال: «يا أهل الكوفة أنتم إخواني وأنصاري وأعواني على الحقّ وأصحابي إلى جهاد المحلين بكم أضرب المدبر، وأرجو تمامَ طاعة المُقْبِل، وقد استنفرتُ أهلَ البصرة فأتاني منهم ثلاثة آلاف ومائتان فليكتُب لي رئيسُ كل قبيلة ما في عشيرته مِنَ المُقاتلة، وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال وعبدان عشيرته ومواليهم ويُرْفع ذلك إلينا».

فقام إليه سعيد بن قيس الهمداني، فقال: يا أمير المؤمنين سمعًا وطاعةً، أنا أوّل الناس أجاب ما طلبتَ، وقام معقل بن قيس، وعَدِيّ بن حاتم، وزياد بن خصفة، وحجر بن عديّ وأشراف الناس والقبائل فقالوا مثل ذلك، وكتبوا إليه ما طلب وأمروا أبناءهم وعبيدهم أنْ يخرجوا معهم ولا يتخلّف منهم متخلّف، فرفعوا إليه أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفًا من الأبناء ممن أدرك وثمانية آلاف مِنْ مواليهم وعبيدهم ـ وكان جميعُ أهل الكوفة خمسة وستين ألفًا سوى أهل البصرة وهم ثلاثة

آلاف ومائتا رجل ـ وكتب إلى سعد بن مسعود بالمدائن يأمره بإرسال مَنْ عنده مِنَ المقاتلة، وبلغ عليًا أنّ الناس يقولون: لو سارَ بنا إلى قتالِ هذه الحروريّة، فإذا فرغنا منهم توجّهنا إلى قتال المحلين.

فقال لهم: بلغني أنكم قلتم كيت وكيت وإنّ غير هٰؤلاء الخارجين أهمّ إلينا فدعوا ذِكْرهم، وسِيروا إلى قومٍ يقاتلونكم كيما يكونوا جبارينَ ملوكًا ويتّخذوا عبادَ الله خِوَلاً.

فناداه الناس: أنْ سِرْ بنا يا أمير المؤمنين حيثُ أحببتَ، وقام إليه صيفي بن فسيل[1] الشيباني، فقال: يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك نعادي مَنْ عاداك ونشايع مَنْ أناب إلى طاعتك، مَنْ كانوا وأينما كانوا، فإنّك إنْ شاء الله لن تؤتىٰ مِنْ قِلّةِ عددٍ وضَعْفِ نيّة أتباع.

قتال الخوارج

قيل: لما أقبلت الخارجةُ من البصرة حتى دَنَتْ من النهروان رأىٰ عصابة منهم رجلاً يسوقُ بامرأة على حمار فدعوه فانتهزوه فأفزعوه، وقالوا له: مَنْ أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ، فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم.

قال: لا رَوْع عليك حَدِّثْنا عن أبيك حديثًا سمعه من رسول الله ﷺ تنفعنا به.

فقال: حدَّثني أبي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «تكونُ فتنةٌ يموتُ فيها قلبُ الرجل كما يموتُ فيه بدنُهُ، يُمْسِي فيها مؤمنًا ويُصبح كافرًا، ويصبحُ كافرًا ويُمْسي مؤمنًا»، قالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقولُ في أبي بكر وعمر؟

فأثنى عليهما خيرًا. قالوا: ما تقول في عثمان في أوّل خلافته وفي آخرها؟

قال: إنّه كان محقًّا في أوّلها وفي آخرها، فقالوا: فما تقول في عليّ قبل التحكيم وبعده؟ قال: إنه أعلم بالله منكم، وأشدّ توقّيًا على دينه، وأنفذ بصيرة.

فقالوا: إنك تتبع الهوىٰ، وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها، والله لنقتلنّك قِتلة ما قتلناها أحدًا، فأخذوه وكتّفوه، ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حُبْلَى متم حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطتْ منه رطبة فأخذها أحدهم فتركها في فيه، فقال آخر: أخذتَها بغير حِلّها وبغير ثمن! فألقاها، ثم مرَّ بهم خنزير لأهل الذمّة فضربه

---

(١) صيفي بن فسيل ـ بالفاء ثم السين المهملة بفتح فكسر ـ هو الصحيح، وفي الأصل بالقاف (م).

أحدهم بسيفه فقالوا: هذا فسادٌ في الأرض، فلقي صاحب الخنزير فأرضاه، فلما رأىٰ ذلك منهم ابن خباب، قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما عليّ منكم مِنْ بأسٍ إنّي مسلم ما أحدثتُ في الإسلام حدثًا، ولقد أمّنتموني قلتم لا روع عليك، فأضجعوه، فذبحوه فسال دَمُهُ في الماء، وأقبلوا إلى المرأة فقالت: أنا امرأةٌ ألَا تتقون الله! فبقروا بطنَها، وقتلوا ثلاث نسوة من طيىء، وقتلوا أم سنان الصيداوية.

فلما بلغ عليًا قتلهم عبد الله بن خباب، واعتراضهم الناس بعثَ إليهم الحارث بن مُرّة العبديّ ليأتيهم وينظر ما بلغه عنهم ويكتب به إليه ولا يكتمه، فلما دنا منهم يسائلهم قتلوه، وأتى عليًا الخبرُ والناسُ معه فقالوا: يا أمير المؤمنين عَلام نَدَعُ هٰؤلاءِ وراءنا يخلفونا في عيالنا وأموالنا؟ سِرْ بنا إلى القوم فإذا فرغنا منهم سِرْنَا إلى عدوّنا من أهل الشام؟ وقام إليه الأشعث بن قيس وكلَّمه بمثل ذلك وكان الناس يرون أنّ الأشعث يرىٰ رأيهم لأنه كان يقول يوم صفّين: أنصفَنَا قومٌ يدعون إلى كتاب الله، فلما قال هذه المقالة عَلِمَ الناسُ أنه لم يكن يرى غير رأيهم فأجمع عليّ على ذلك، وخرج فعبر الجسر، وسار إليهم فلقيه مُنَجِّمٌ في مسيره فأشار عليه أنْ يسير وَقْتًا مِن النهار، فقال له: إنْ أنتَ سرتَ في غيره لقيتَ أنتَ وأصحابك ضرًا شديدًا. فخالفه عليّ وسار في الوقت الذي نهاه عنه، فلما فرغ مِنْ أهل النهر حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «لو سِرْنَا في الساعةِ التي أمرَ بها المنجم لقال الجُهَّالُ الذين لا يعلمون شيئًا «سار في الساعة التي أمر بها المنجم فظفر»»، وكان المنجم مسافر بن عفيف الأزديّ، فأرسل عليّ إلى أهل النهر أنْ ادفعوا إلينا قَتَلَة إخواننا منكم أقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكافٌّ عنكم حتى ألقىٰ أهلَ المغرب[1]، فلعلّ الله يُقبل بقلوبكم، ويردّكم إلى خيرٍ مما أنتم عليه مِن أمركم، فقالوا: كلّنا قتلهم وكلنا مستحلّ لدمائكم ودمائهم، وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة فقال لهم: عباد الله، أَخرِجوا إلينا طلبتنا منكم، وادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه، وعُودُوا بنا إلى قتالِ عدوّنا وعدوِّكم فإنكم ركبتم عظيمًا من الأمر تشهدون علينا بالشرك، وتسفكون دماءَ المسلمين.

فقال له عبد الله بن شجرة السلمي: إنّ الحق قد أضاءَ لنا فلسنا متابعيكم أو تأتونا بمثل عمر. فقال: ما نعلمه غير صاحبنا فهل تعلمونه فيكم؟ قالوا: لا، قال: نشدتكم الله في أنفسكم إنْ تهلكوها فإنّي لا أرىٰ الفتنة إلّا وقد غلبتْ عليكم.

---

(١) الطبري: أهل الشام.

وخطبهم أبو أيّوب الأنصاريّ، فقال: «عبادَ الله إنّا وإيّاكم على الحالِ الأُولىٰ التي كنّا عليها ليست بيننا وبينكم فُرْقَة فعلامَ تقاتلوننا»؟

فقالوا: إنّا لو تابعناكم اليوم حكّمتم غدًا.

قال: فإني أنشدكم الله أنْ تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في القابِل؟ وأتاهم عليّ فقال: أيّتها العصابة التي أخرجها عداوة المِرَاء واللّجاجة، وصَدَّها عن الحقّ الهوىٰ، وطمع بها النزق، وأصبحتْ في الخطب العظيم، إنّي نذيرٌ لكم أنْ تُصْبِحُوا تلعنكم الأُمّة وغدًا صرعىٰ بأثناء هذا الوادي، وبأهضامِ هذا الغائط بغير بيِّنة من ربّكم، ولا برهانٍ مبين. ألم تعلموا أنّي نهيتكم عن الحكومة، ونبّأتكم أنّها مكيدة، وأنّ القوم ليسوا بأصحاب دين فعصيتموني! فلما فعلتُ شرطتُ واستوثقتُ على الحَكَمَيْن أنْ يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أماتَ القرآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسُّنّة فنبذنا أمرهما، ونحن على الأمر الأوّل، فمِنْ أين أُتيتم؟

فقالوا: إنّا حَكَّمنا فلما حكمنا أثِمنا وكنا بذلك كافرين، وقد تُبْنا فإنْ تبتَ فنحن معك ومنك، وإنْ أبيتَ فإنّا مُنَابِذُوك على سواء.

فقال عليٌّ: «أصابكم حاطبٌ ولا بَقِيَ منكم وابر! أبعدَ إيماني برسول الله ﷺ وهجرتي معه، وجهادي في سبيل الله أشهدُ على نفسي بالكفر! لقد ضللتُ إذًا وما أنا مِن المهتدين»! ثم انصرف عنهم.

وقيل: إنه كان من كلامه لهم: «يا هٰؤلاء إنّ أنفسكم قد سوَّلتْ لكم فِرَاقي لهذه الحكومة التي أنتم بدأتموها وسألتموها وأنا لها كاره، وأنبأتكم أنّ القوم إنما طلبوها مكيدة ووهنًا فأبَيْتم عليّ إباء المخالفين، وعندتم عنود النكداء العاصين حتى صرفتُ رأيِي إلى رأيكم رأي معاشر والله أخفاء الهام، سفهاء الأحلام، فلم آتِ لا أبا لكم هَجرًا، والله ما ختلتكم عن أموركم، ولا أخفيتُ شيئًا من هذا الأمر عنكم، ولا أوطأتكم عشوة، ولا أدنت لكم الضرّاء وإنْ كان أمرنا لأمر المسلمين ظاهرًا فأجمع رأي ملئكم أن اختاروا رجلين فأخذنا عليهما أنْ يحكما بما في القرآن ولا يعدواه فتاها فتركا الحقّ وهما يبصرانه، وكان الجور هواهما، والثقة في أيدينا حين خالفا سبيل الحقّ، وأتيا بما لا يُعْرَف، فَبَيِّنُوا لنا بِمَ تستحلُّون قتالنا والخروجَ عن جماعتنا وتضعون أسيافكم على عواتقكم ثم تستعرضون الناس تضربون رقابهم؟ إنّ هذا لهو الخسران المبين، واللهِ لو قتلتم على هذا دجاجة لعظم عند الله قتلها، فكيف بالنفس التي قَتْلها عند الله حرام».

فتنادَوا: «لا تخاطبوهم، ولا تكلّموهم، وتهيّأوا للقاء الله. الرواح الرواح إلى الجنّة»، فعاد عليّ عنهم.

ثم إنّ الخوارج قصدوا جسر النهر ـ وكانوا غربة ـ فقال لعليّ أصحابُه: إنهم قد عبروا النهر، فقال: لن يعبروا فأرسلوا طليعة فعاد وأخبرهم أنهم عبروا النهر ـ وكان بينهم وبينه عطفة من النهر فلخوفِ الطليعة منهم لم يقربهم، فعاد فقال: إنّهم قد عبروا النهر ـ فقال عليٌّ: «والله ما عبروه، وإنّ مصارعَهم لدون الجسر. وواللهِ لا يُقتل منكم عشرة ولا يَسْلَم منهم عشرة».

وتقدّم عليّ إليهم فرآهم عند الجسر لم يعبروه وكان الناسُ قد شكُّوا في قوله، وارتاب به بعضهم، فلما رأوا الخوارج لم يعبروا كبّروا وأخبروا عليًّا بحالهم، فقال: «والله ما كذبت ولا كذبت»، ثم إنه عبّأ أصحابه فجعل على ميمنته حجر بن عدي، وعلى ميسرته شبث بن ربعي، أو معقل بن قيس الرياحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة ـ وهم سبعمائة أو ثمانمائة ـ قيس بن سعد بن عبادة، وعبّأت الخوارج فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي، وعلى الميسرة شريح بن أوفىٰ العبسيّ، وعلى خيلهم حمزة بن سنان الأسدي، وعلى رجالتهم حرقوص بن زهير السعدي.

وأعطى عليّ أبا أيوب الأنصاري راية الأمان، فناداهم أبو أيوب فقال: مَنْ جاء تحتَ هذه الراية فهو آمِنٌ، ومَنْ لم يقتل ولم يستعرض، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج مِنْ هذه الجماعة فهو آمن، لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سَفْكِ دمائكم.

فقال فروة بن نوفل الأشجعي: والله ما أدري على أيِّ شيء نُقاتِل عليًّا؟ أرى أنْ أنصرف حتى تتّضح لي بصيرتي في قتاله أو أُتابعه، فانصرف في خمسمائة فارس حتى نزل البندنيجين والدَّسْكرة، وخرجت طائفة أخرى متفرّقين فنزلوا الكوفة، وخرج إلى عليّ نحو مائة وكانوا أربعة آلاف فبقي مع عبد الله بن وهب ألف وثمانمائة، فزحفوا إلى عليٍّ وكان عليّ قد قال لأصحابه: كفّوا عنهم حتى يبدؤوكم فتنادوا: الرواح إلى الجنّة، وحملوا على الناس فافترقَتْ خيل عليّ فرقتين: فرقة نحو الميمنة، وفرقة نحو المَيْسرة، واستقبلت الرماة وجوهَهُم بالنبل وعطفت عليهم الخيل مِنَ الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجالُ بالرماح والسيوف فما لبثوا أنْ أناموهم، فلما رأى حمزة بن سنان الهلاك نادىٰ أصحابه: أن انزلوا، فذهبوا لينزلوا فلم يلبثوا أنْ حمل

عليهم الأسود بن قيس المرادي وجاءتهم الخيلُ من نحو عليّ فأهلكوا في ساعة، فكأنما قيل لهم: موتوا فماتوا.

وجاء أبو أيوب الأنصاري إلى عليّ فقال: يا أمير المؤمنين قتلتُ زيد بن حصين الطائي طعنته في صدره خرج السنان من ظهره، وقلت له: أَبْشِرْ يا عدوَّ اللهِ بالنار، فقال: ستعلمْ غدًا أيُّنا أولىٰ بها صِلِيًّا!

فقال له عليّ: وأولىٰ بها صليًّا.

وجاءه هانئ بن خطاب الأزدي، وزياد بن خصفة يحتجّان في قتل عبد الله بن وهب، فقال: كيف صنعتما؟

قالا: لما رأيناه عرفناه فابتدرناه وطعنّاه برمحينا، فقال: كلاكما قاتل.

وحمل جيش بن ربيعة الكناني على حرقوص بن زهير فقتله، وحمل عبد الله بن زحر الخولاني على عبد الله بن شجرة السلمي فقتله، ووقع شُرَيح بن أوفى إلى جانب جدار فقاتل عليه وكان جلّ مَنْ يقاتله همدان، فقال:

قَدْ عَلِمَتْ جَارِيَةٌ عَبْسِيَّهْ نَاعِمَةٌ فِي أَهْلِهَا مَكْفِيَّهْ أَنِّي سَأَحْمِي ثُلْمَتِي العَشِيَّهْ

فحمل عليه قيس بن معاوية فقطع رجله، فجعل يقاتلهم وهو يقول:

القَرْمُ يَحْمِي شَوْلَهُ مَعْقُولَا

فحمل عليه قيس أيضًا فقتله، فقال الناس:

اقْتَتَلَتْ هَمْدَانُ يَوْمًا وَرَجُلْ اقْتَتَلُوا مِنْ غَدْوَةٍ حَتَّىٰ الأُصُلْ
فَفَسَحَ اللهُ لِهَمْدَانَ الأَجَلْ[١]

مقتل ذي الثُّدَيَة

قد روى جماعةٌ أنَّ عليًّا كان يُحَدِّثُ أصحابه قبل ظهور الخوارج أنّ قومًا يخرجون يمرقون من الدين كما يمرق السَّهم من الرَّمِيَّة علامتُهم رجلٌ مخدج اليد سمعوا ذلك منه مرارًا، فلما خرج أهلُ النّهروان سار بهم إليهم عليّ وكان منه معهم ما كان، فلما فرغ أَمَرَ أصحابَه أنْ يلتمسوا المُخَدَّج فالتمسوه، فقال بعضهم: ما نجده، حتى قال بعضهم: ما هو فيهم، وهو يقول: «والله إنه لفيهم، واللهِ ما كذبت

(١) الذي في الطبري: ففتح الله لهمدان الرجل وهو أدلّ على قصد الشاعر من التنديد لهمدان.

ولا كذبت»، ثم إنه جاءَه رجلٌ فبشَّره فقال: يا أمير المؤمنين قد وجدناه. وقيل: بل خرج عليّ في طلبه قبل أنْ يُبَشِّره الرجلُ ومعه سليم بن ثُمامة الحنفي والريان بن صبرة، فوجدوه في حفرة على شاطئ النهر في خمسين قتيلاً، فلما استخرجه نظر إلى عضده فإذا لحمٌ مجتمع كثدي المرأة وحَلَمَة عليها شعرات سود، فإذا مُدَّت امتدت حتى تحاذِي يده الطولي ثم تُتْرَك فتعود إلى منكبيه.

فلما رآه قال: الله أكبر ما كذِبت ولا كذِّبت لولا أن تتكلوا عن العمل لأخبرتكم بما قصَّ الله على لسان نبيّه ﷺ لمن قاتلهم مستبصرًا في قتالهم عار، فللحَق الذي نحن عليه. وقال حين مرَّ بهم وهم صرعىٰ: بؤسًا لكم لقد ضرَّكم مَنْ غرَّكم. قالوا: يا أمير المؤمنين مَنْ غَرَّهم؟ قال: الشيطان وأنفس أمَّارة بالسوء غرَّتهم بالأماني، وزيَّنتْ لهم المعاصي، ونبَّأتهم أنهم ظاهرون. قيل: وأخذ ما في عسكرهم من شيءٍ، فأمّا السلاح والدوابّ وما شُهِرَ عليه فقسَّمه بين المسلمين، وأمّا المتاع والإماء والعبيد، فإنّه ردَّه على أهله حين قدم. وطاف عدي بن حاتم في القتلى على ابنه «طرفة» فدفنه، ودفن رجالٌ مِنَ المسلمين قتلاهم، فقال عليٌّ حين بلغه: أتقتلونهم ثم تدفنوهم! ارتحلوا. فارتحل الناسُ مِنْ أصحاب عليّ إلّا سبعة. وقيل: كانت الوقعة سنة ثمان وثلاثين، وكان فيمن قُتِلَ مِن أصحابه يزيد بن نويرة الأنصاري وله صُحبة وسابقة، وشهد له رسولُ الله ﷺ بالجنّة، وكان أوَّل مَنْ قُتِل.

٨٧ ـ يوم كربلاء[١]

كان معاويةُ بن أبي سفيان قد عَهِد إلى ابنه يزيد بالخلافة، بعد أن استشار في ذلك وفودَ الأمصار، فبايَعه الناسُ، ولم يتخلَّف عَنِ البَيْعَة إلّا نفرٌ قليل من أهل المدينة، وهم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزُّبَيْر وعبد الله بن عمر.

ولما تُوُفِّيَ معاوية لم يكن ليزيدَ هَمٌّ إلّا مُبايعة هؤلاء الثلاثة، وأرسل إلى الوليد بن عُتْبَة بن أبي سفيان أمير المدينة، يقول له: أمّا بعد، فخذ حُسينًا وعبد الله بن عمر وابن الزُّبير أخذًا ليس فيه رُخْصَة، حتى يُبايعوا، والسَّلام.

فلما أتى الوليدَ نَعْيُ معاوية فَظِع وكَبُرَ عليه، وأرسل إلى هٰؤلاء النَّفَر، فأمّا الحسينُ فجاءه، فلما عَرَض عليه البَيْعة وأخبرَه بموت معاوية استرجَع وترحَّم عليه، وقال: أمّا البيعة، فإنَّ مِثْلي لا يُبايع سِرًّا، ولا يُجْتَزَى بها مني سِرًّا، فإذا خرجتَ إلى

(١) في المحرم سنة ٦١هـ.

الناس ودعوتَهم إلى البيعة، ودعوتَنا معهم كان الأمر واحدًا. فقال له الوليد، وكان يحب العافية: انصرفْ، فانصرف.

وأمّا ابن الزُّبير فتركَ المدينة، وذهب إلى مكّة، وقال: إني عائذٌ بالبيت، ولم يكن يُصَلّي بصلاتهم، ولا يُفيض في الحجّ بإفاضتهم، وكان يقف هو وأصحابه ناحيةً. وخرج الحسين من بعده، وأخذ معه بنيه وإخوتَه وبني أخيه؛ إلّا محمّد ابن الحنفيّة فإنه أبَى الخروجَ معه، ونَصَحَه فلم يقبل نُصْحَه.

وأمّا ابنُ عمر فإنّه قال: إذا بايع الناسُ بايعتُ، فتركوه، وكانوا لا يتخوّفونه.

وبينما كان الحسينُ في طريقه من المدينة إلى مكّة لَقِيَه عبدُ الله بن مُطِيع، فقال له: جُعِلْتُ فداءك! أين تريد؟ قال: أمّا الآن فمكّة، وأمّا بعد، فإني أستخيرُ الله. قال: خارَ الله لك، وجعلنا فداءك! فإذا أتيت مكّةَ فإياك أن تقرُب الكوفةَ؛ فإنّها بلد مشؤومة، بها قُتِلَ أبوك، وخُذِلَ أخوك، الزَم الحَرَم، فإنك سيِّدُ العرب، لا يَعْدِل بك أهلُ الحجاز أحدًا، ويَتَدَاعَى إليك النّاسُ من كلّ جانب، لا تفارق الحرَم، فِداك عمّي وخالي! فوالله لَئِن هلكتَ لَنُسْتَرَقَّنَّ من بعدك.

وأقبل الحُسينُ حتى نزل مكّة، وأهلُها يختلفون إليه، ويأتونه. وكان ابنُ الزُّبَير بها، قد لَزِمَ جانب الكعبة، فهو قائم يصلّي عندها عامّة النهار، ويَطوف، ويأتي الحسين فيمن يأتيه، ولا يزال يشيرُ عليه بالرأي، وهو أثْقَلُ خلق الله على ابن الزُّبير؛ لأن أهل الحجاز لا يُبايِعونه، ما دام الحُسينُ باقيًا بالبلد.

ولمّا بلغ أهلَ الكوفة موتُ معاوية وامتناعُ الحسين وابن عمر وابن الزُّبير عن البَيْعة أرْجَفُوا[1] بيزيد، واجتمعتِ الشّيعة في منزل كبيرهم سليمان بن صُرَد، واتّفقوا على أن يكتبوا إلى الحُسين يستقدِمونه ليبايعوه، فكتبوا إليه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، سلامٌ عليك، فإنّا نحمدُ إليك الله الذي لا إلٰه إلّا هو. أمّا بعد، فالحمد لله الذي قَصَمَ عدوَّك الجبّار العنيد، الذي انْتَزَى على هذه الأُمّة، فابتَزَّها أمرها، وغَصَبها فَيْئَها، وتأمّر عليها بغيرِ رضًا منها، ثم قتل خِيَارَها، واستَبْقَى شِرَارَها، وإنه ليس علينا إمام، فأقْبِلْ لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ. والنعمان بن بَشير في قَصْر الإمارة، لسنا نجتمع معه في جُمُعة ولا عيدٍ، ولو بلغنا إقبالُك إلينا أخرجناه حتى نُلْحِقه بالشّام إن شاء الله تعالىٰ، والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته».

---

(١) أرجفوا به: خاضوا فيه.

وسيَّرُوا الكتاب مع عبد الله بن سَبُع الهَمْدَانِيّ وعبد الله بن وَأل، ثم كتبوا إليه كتابًا آخر، وسيَّروه بعد ليلتين، وكتب الناس معه نحوًا من مائة وخمسين صحيفة، ثم أرسلوا إليه رسولاً ثالثًا يحثّونه على المسير إليهم، ثم كتب إليه شِبْث بن رِبْعي وحجار بن أبجر وغيرُهما بنحو ذلك.

فكتَب إليهم الحسين عند اجتماع الكتب عنده: «أمّا بعد؛ فقد فهمتُ كلَّ الذي اقْتَصَصْتُمْ، وقد بعثتُ إليكم بأخي وابنَ عمّي وثقتي من أهل بيتي مُسلم بن عقِيل، وأمرتُه أن يَكْتُبَ إليَّ بحالكم وأمْركم ورأيكم، فإن كتبَ إليَّ أنه قد اجتمعَ رأيُ مَلَئِكم وذَوِي الحِجَا منكم على مثل ما قَدِمَتْ بهِ رُسُلكم أقدَم وَشِيكًا إن شاء الله؛ فلعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب، والقائم بالقسط، والدائن بدين الحق، والسّلام».

ثم دعا الحسينُ مُسلم بن عَقِيل، فسيَّرهُ إلى الكوفة، وأمره بتقوىٰ الله وكتمانِ أمره والتلطُّف، فإن رأى الناس مجتمعين عجل إليه بذلك.

فسار مسلم نحو المدينة، ولما دخلها صلّى في مسجد رسولِ الله ﷺ وودع أهله، واستأجر دليلَيْن من قَيْس، فأقبلا به، فضَلَّا الطريق، وعَطِشوا، فمات الدليلان. فكتب مسلم إلى الحسين: إني أقبلتُ إلى المدينة، واستأجرتُ دليلين، فضلَّا الطريق، واشتد عليهما العطش، فماتا، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء، فلم ننجُ إلا بحشاشة أنفسنا، وقد تطيّرتُ، فإن رأيتَ أعفيتني وبعثتَ غيري.

فكتب إليه الحسين: أما بعد؛ فقد خشيتُ ألّا يكون حَمَلك على الكتاب إلّا الجبْن، فامضِ لوجهك، والسلام.

فسار مُسلِم حتى أتى الكوفة، وأميرها يومئذ النّعمان بن بَشِير، فأقبلت إليه الشّيعة تختلف إليه، فكلّما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين، فيبكون، ويَعِدونه القتال والنُّصرة.

ولمّا بلغ ذلك النُّعمانَ بن بشير صعِد المنبر وقال: أما بعد، فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإنّ فيهما تهلِك الرجال، وتُسْفَك الدماء، وتُغْصَب الأموال ـ وكان النعمان حليمًا ناسِكًا يحبُّ العافية ـ ثم قال: إني لا أقاتل إلّا مَنْ يُقاتلني، ولا أثِبُ على مَن لا يَثِب عليّ، ولا أُنبِّهُ نائمَكم، ولا أتحرّشُ بكم، ولا آخذ بالقَرْف[1] والظِّنة والتُّهمَة، ولكنّكم إن أبديتم صفحتَكم، ونكثتُم بيعَتكم، وخالفتم إمامَكم، فوالله الذي

---

(١) القرف: الإيقاع.

لا إلٰه إلا هو؛ لأضربنَّكُمْ بسيفِي ما ثبت قائمه بيدِي، ولو لم يكن لي منكم نَاصِرٌ ولا مُعِين. أما إنّي أرجُو أن يكونَ مَن يعرف الحقّ منكم أكثرَ ممّن يُرْدِيه الباطل.

فقام إليه عبدُ الله بن مسلم الحَضْرميّ، من شيعة بني أميّة، وقال له: إنه لا يُصلِح ما ترى إلا الغَشْم، إنَّ هذا الذي أنت عليه رأي المُستضعفين، فقال: أكون من المستضعفين في طاعة الله أحبُّ إليّ مِنْ أن أكون من الأعزّين في معصية الله.

فكتب عبد الله بن مسلم إلى يزيد يُخبره بقدوم مُسلم بن عَقِيل الكوفة ومُبايعة الناس له، ويقول له: إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلًا قويًا يُنفذ أمرَك، ويعمَلُ مثل عملِك في عدوّك، فإن النّعمان رجل ضَعيف، أو هو يتضعَّف. وكان هو أول مَنْ كتب إليه. ثم كتب إليه عُمارة بن الوليد بن عُقْبة وعمرو بن سعد بن أبي وقّاص بنحو ذلك.

فلمّا اجتمعت الكتب عند يزيد دعا سَرْجون، مولى معاوية، فأقرأه الكتاب واستشاره فيمن يُوَلِّيه الكوفة ـ وكان يزيد عاتبًا على عبيد الله بن زياد ـ فقال له سرجون: أرأيت لو نُشِر لك معاوية كنت تأخذُ برأيه؟ قال: نعم، فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة، وقال: هذا رأي معاوية، ومات، وقد أمر بهذا الكتاب.

فأخذ برأيه، وجمع الكوفة والبصرة لعبيد الله، وكتب إليه بعهده، وأمره بطلب مُسلم بن عقيل وقتله أو نفيه.

فلمّا وصل كتابُه إلى عُبيد الله أمر بالتجهّز ليبرز من الغد ـ وكان الحسين قد كتب إلى أهل البصرة نسخةً واحدة إلى الأشراف، فكتب إلى مالك بن مِسْمع البكريّ، والأحنف بن قيس، والمنذر بن الجارود، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمر بن عبد الله بن معمر، يدعوهم إلى كتاب الله وسُنّة رسوله؛ فكلهم كتموا كتابه إلا المنذر بن الجارود؛ فإنه خاف أن يكون دسيسًا من ابن زياد، فأتاه بالرسول والكتاب، فضرب عنق الرسول، وخطب في الناس وقال: أما بعد، فوالله ما بي تُقرَن الصَّعْبة، وما يُقعْقَع لي بالشِّنَان، وإني لنِكْلٌ لمَن عاداني، وسَمٌّ لمَن حاربني، وأنصف القارةَ مَن راماها. يا أهل البصرة، إنَّ أمير المؤمنين قد ولّاني الكوفة وأنا إليها غادٍ بالغداة، وقد استخلفتُ عليكم أخي عثمان بن زياد، فإيّاكم والخلاف والإرجاف؛ فوالله لَئِن بلغني عن رجلٍ منكم خِلاف، لأقتلنّه وعريفَه ووليَّه، ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تستقيموا، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاق، وإني ابن زياد؛ أشبهته من بين مَنْ وطئ الحصى، فلم ينتزعني شَبَه خالٍ ولا عمٍّ.

ثم خرج من البَصْرة حتى دخل الكوفة وحدَه، فجعل يمرّ بالمجالس؛ فلا يشكون أنه الحسين، فيقولون: مرحبًا بك يا بن رسول الله! وهو لا يكلّمهم. وخرج إليه الناس من دُورهم، فساءه ما رأى منهم، وسمع النعمان، فأغلق عليه الباب؛ وهو لا يشكّ أنّه الحسين، وانتهى إليه عبيد الله ومعه الخَلْق يصيحون، فقال له النعمان: أنشدك الله، إلا تنحّيتَ عني؛ فوالله ما أنا بمسلمٍ إليك أمانتي، وما لي في قتالك من حاجة. فدنا منه عبيد الله، وقال له: افتحْ لا فتحت! فسَمِعها إنسانٌ خلفه، فرجع إلى الناس وقال لهم: إنه ابن زياد! وفتح له النعمان، وأغْلَقُوا الباب وتفرّق الناس.

وأصبح فجلس على المِنبَر، وقال: أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين ولّاني مِصْرَكم وثَغركم وفَيْئكم، وأمرني بإنصاف مَظْلومكم، وإعطاءِ محرومكم، وبالإحسان إلى سامعكم ومُطِيعكم، وبالشدّة على مُريبكم وعاصيكم، وأنا متّبعٌ فيكم أمره، ومنفذٌ فيكم عهدَه؛ فأنا لمحسنكم كالوالد البَرّ، ولمُطِيعكم كالأخ الشقيق، وسيفي وسوطي على مَنْ ترك أمري وخالَف عهدي، فليُبْقِ امرؤٌ على نفسه.

ثم نزل، وأخذ العرفاء والناسَ أخذًا شديدًا، وقال: اكتبوا إلى الغرباء ومَنْ فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومَنْ فيكم من الحروريّة وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشّقاق، فمن كتبهم لنا فبَرِئ، ومَنْ لم يكتُب لنا أحدًا فليضمن لنا مَنْ في عِرافته؛ ألّا يخالفنا فيهم مخالف، ولا يَبْغِي علينا منهم باغ؛ فمن لم يفعلْ بَرِئَتْ منه الذمّة، وحلالٌ لنا دَمُه ومالُه، وأيُّما عريف وُجِدَ في عِرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صُلِبَ على باب داره، وألغيتْ تلك العرافة من العطاء.

وسمع مسلم بن عَقِيل بمقالة عبيد الله، فخرج مِنْ دار المختار، وأتى دار هانئ بن عُرْوة المراديّ، فلمّا رآه هانئ كَرِه مكانه، فقال له مسلم: أتيتُك لتجيرَني وتُضيفني، فقال هانئ: لقد كلّفْتَني شططًا، ولولا دخولُك داري لأحببت أن تنصرف عنّي، غير أنه يأخذني من ذلك ذِمَام، ادخل.

ثم آواه، واختلفت الشّيعة إليه في دار هانئ، فدعا ابنُ زياد مولًى له، وأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وقال له: اطلب مُسلم بن عَقِيل وأصحابه، وألْقَهم، وأعطهم هذا المال، وأعْلِمْهم أنك منهم، واعْلَمْ أخبارَهم.

ففعل ذلك، وأتى مُسلم بن عَوْسجة الأسدي بالمسجد، فسمع الناس يقولون: هذا يُبايع للحسين ـ وهو يُصلّي، فلما فرغ من صلاته قال له: يا عبد الله، إني امرؤٌ من أهل الشام، أنعم الله عليه بحبِّ أهل هذا البيت، وهذه ثلاثة آلاف درهم، أردت

بها لقاءَ رجلٍ منهم بلغني أنه قَدِم الكوفة يُبايع لابن بنت رسول الله، وقد سمعت نفرًا يقولون: إنّك تعلم بأهلِ هذا البيت، وإنّي أتيتُك لتقبض المال، وتُدْخِلني على صاحبك أُبايعه، وإنْ شئتَ أخذت بَيْعتي له قبل لقائي إيّاه، فقال: لقد سرَّني لقاؤك إيّاي لتنال الّذي تحبّ، وينصر الله بك أهل نبيّه، وقد ساءني معرفةُ الناس هذا الأمر منّي قبل أن يتمّ مخافة هذا الطاغية وسطوته.

ثم أخذ بيعته والمواثيق المعظمة لَيناصحن ولَيكتمن، ثم أدخله على مُسلم بن عَقِيل، فأخذ بيعته وقبض ماله، وجعل يختلف إليهم، ويعلم أسرارَهم، وينقلها إلى ابن زياد.

وكان هانئ قد انقطع عن عُبيد الله بعُذْر المرض، فدعا عُبيد الله محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة وعمرو بن الحجّاج، وسألهم عن هانئ وانقطاعه، فقالوا: إنّه مريض؛ فقال: بلغني أنه يَجْلِس على باب داره، وقد شفي؛ فمُرُوه ألّا يدَع ما عليه في ذلك من الحقّ. فأتَوْه فقالوا له: إنّ الأمير قد سأل عنك، وقال: لو أعلم أنه شاكٍ لعُدْته، وقد بلغه أنّك تجلس على بابِ دارِك، وقد استبطأك والجفاءُ لا يحتمله السلطان، أقسمنا عليك لو ركبتَ معنا!

فلَبِس ثيابه، وركب معهم، فلمّا دنا من القصر أحسَّتْ نفسه بالشرّ، فقال لحسان بن أسماء بن خارجة: يا بن أخي، إنّي لهذا الرجل لخائف؛ فما ترى؟ فقال ما أتخوّف عليك شيئًا، فلا تجعل على نفسك سبيلاً، ولم يعلم أسماء مما كان شيئًا، وأمّا محمد بن الأشعث فإنّه عَلِم به.

ولما دخل القومُ على ابنِ زياد وهانئٌ معهم، قال ابن زياد: أتَتْ بِحائِنٍ[1] رِجْلاه، ثم أنشد:

أريـدُ حَـيـاتَـه ويُـريـدُ قَـتْـلي عـذيرَك من خليلِكَ من مُراد[2]

وكان ابن زياد مكرمًا له، فقال هانئ: وما ذاك؟ فقال: يا هانئ؛ ما هذه الأمور التي تُدَبَّرُ في دارِكَ لأمير المؤمنين والمسلمين؟ جئت بمسلم بن عَقِيل، فأدخلتَه في دارِك، وجمعت له السّلاح والرجال، وظننت أن ذلك يخفى عليّ. قال: ما فعلت. قال: بلى فعلت، وطال بينهما النّزاع، فدعا ابنُ زياد مولاه، ولمّا وقف بين يديه قال:

---

(١) حان الرجل: هلك، وهو مثل (اللسان ـ حين).

(٢) البيت لعمرو بن معديكرب (اللآلئ: ٦٤).

أتَعْرِف هذا؟ قال: نعم! وعَلِم هانئ عند ذلك أنّه كان عَيْنًا عليهم، فسُقِط في يده ساعة، ثم راجعتْه نفسه، فقال: اسْمَعْ مِنِّي وصدِّقني؛ فوالله لا أكذبك؛ والله ما دعوتُه، ولا علمتُ بشيءٍ من أمره، حتى رأيتُه جالسًا على بابي يسألني النّزولَ عليّ، فاستحييت من ردِّه، ولزمني من ذلك ذِمام، فأدخلته داري، وضفته، وقد كان من أمْرِهِ الّذي بلغك؛ فإن شئتَ أعطيتك الآن موثقًا تطمئنّ به، ورهينةً تكون في يديك، حتى أنطلق وأُخرجه من داري، وأعود إليك. فقال: لا والله، لا تفارقني أبدًا حتى تأتيَني به، قال: لا آتيك بضيفي تقتله أبدًا.

فلمّا كَثُرَ الكلام قام مسلم بن عمرو الباهليّ فقال: خَلِّني وإيّاه حتى أكلِّمه؛ لما رأى من لَجاجه، وأخذ هانئًا، وخلَا به ناحية من ابن زياد بحيث يراهما، فقال له: يا هانئ، أنشدك الله أن تَقْتُل نفسك، وتُدْخِلَ البلاء على نفسك، إنّ هذا الرجل ابن عمّ القوم، وليسوا بقاتليه ولا ضائريه، فادفَعْه إليه، فليس عليك بذلك مخزاة ولا مَنْقَصَة، إنما تدفعه إلى السلطان، قال: بلى والله؛ إن عليَّ في ذلك لَلْخِزْي والعار. أنا أدفع جاري وضيفي وأنا حيٌّ صحيح أسمعُ وأرى، شديدُ السّاعد، كثير الأعوان! والله لو لم أكن إلّا واحدًا ليس لي ناصر لم أدفعه حتى أموتَ دونه، فأخذه يناشده، وهو يقول: والله لا أدفعه إليه أبدًا.

فسمع ابنُ زياد ذلك، فقال: ادنوه منّي، فأدنوه منه؛ فقال: والله لتأتيَنّي به أو لأضربنّ عنقك! قال: إذَنْ والله تكثر البارقة حول دارك؛ وهو يرى أنّ عشيرته ستمنعه، فقال ابن زياد: أبالبارقة تخوِّفني! ثم قال: ادنُوه منّي، فأُدْنِيَ، فاستعرض وجهَه بالقضيب، ولم يزل يضرب أنفه وجبينه وخدَّه حتى كسر أنفه، وسيَّل الدماءَ على ثيابه، ونثَر لحم خدَّيه وجبينه على لحيته، حتى كُسِر القضيب. وضرب هانئ بيده إلى قائم سيف شرطيّ وجَبذه، فمُنِع منه؛ فقال له عبيد الله: أحروريّ سائر اليوم، أحْلَلْتَ بنفسك، قد حلّ لنا قتلُك؟ ثم أمر به فأُلقي في بيتٍ، وأُغلق عليه، فقام إليه أسماء بن خارجة وقال: أرسله يا غادر! أمرتَنا أن نجيئَك بالرجل، فلما أتيناك به هشمتَ وجهه، وسيَّلت دمه! فأمرَ به ابن زياد فحُبِس. وأمّا ابن الأشعث فقال: رَضِينا بما رأى الأمير، لنا كان أو علينا.

وأتى الخبرُ مُسلم بن عَقِيل، فنادى في أصحابه: يا منصور! وكان هذا شعارَهم، وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفًا، وحوله في الدور أربعة آلاف، فاجتمع إليه ناس كثير، فعبَّأهم، وأقبل إلى القصر فأحاط به، وامتلأ المسجد والسوق من الناس،

ولم يكن مع ابن زياد إلّا ثلاثون رجلاً من الشُّرَط، وعشرون رجلاً من الأشراف، وأهل بيته ومواليه.

فرأى ابن زياد أن يُعْمِل الحيلة، فدعا كثير بن شهاب الحارثيّ، وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مَذْحِج، فيسير ويخذّل الناس عن ابن عقيل ويخوّفهم، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كِنْدة وحضرموت، فيرفع رايةَ أمان لمن جاءه من الناس، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شُور، وشِبْث بن رِبعيّ، وترك وجوه الناس عنده استئناسًا بهم لقلّة عدد من معه.

وخرج أولٰئك النفر يخذّلون الناس، وأمر عبيد الله مَن عنده من الأشراف أن يشرفوا على الناس من القصر، فيُمَنُّوا أهلَ الطاعة، ويخوّفوا أهل المعصية، ففعلوا.

فلمّا سمع الناسُ مقالة أشْرَافِهِم أخذوا يتفرَّقون، حتى بقي ابنُ عَقِيل في المسجد في ثلاثين رجلاً، فلمّا رأى ذلك خرج متوجِّهًا نحو أبواب كِنْدَة، فلمّا خرج إلى الباب لم يبقَ معه أحد، فمضى في أزقَّة الكوفة لا يدري أين يذهب. ثم انتهى إلى باب امرأة من كِنْدة فسلّم عليها، وطلب الماء فسقَتْه، ثم جلس، فقالت له: يا عبد الله، ألم تشرب؟ قال: بلى! قالت: فاذهب إلى أهلك، فسكت، فقالت له ثلاثًا فلم يبرح، فقالت: سبحان الله! إني لا أُحِلُّ لك الجلوس على بابي، فقال لها: ليس لي في هذا المصر منزلٌ ولا عشيرة، فهل لك إليّ أجرٌ ومعروف؟ ولعلّي أكافئك به بعد اليوم. قالت: وما ذاك؟ قال: أنا مُسلم بن عَقِيل، كَذَبني هٰؤلاء القوم وغرُّوني. قالت: ادخل، فأدخلته بيتًا في دارِها، وعرضت عليه العشاء فلم يتعشَّ، وجاء ابنها بلال، فرآها تكثر الدخول في ذلك البيت، فقال لها: إنَّ لك لشأنًا في ذلك البيت! وسألها، فلم تخبره، فألحَّ عليها فأخبرته، واستكتمته وأخذت عليه الأيمان بذلك، فسكت.

أمّا ابنُ زياد فإنّه لما سمع الأصواتَ قال لأصحابه: انظروا هل تَرَوْن منهم أحدًا! فنظروا فلم يروا أحدًا، فنزل إلى المسجد قبل العَتَمة، وأجلس أصحابه حول المنبر، وأمر فنُودِي: بَرِئَت الذمّة من رجل من الشّرطة والعُرَفاء والمقاتلة صلّى العَتَمة إلّا في المسجد.

فامتلأ المسجد ثم صلّى بالناس، وقام فحَمِد الله ثم قال: أمّا بعد، فإن ابن عَقِيل السفيه الجاهل قد أتى ما رأيتم من الخلاف والشّقاق، فبرئت الذمَّة من رجلٍ وجدناه في داره، ومن أتانا به فله دِيَتُه، ثم أمرهم بالطاعة ولزومها.

ولمّا أصبح بلال ابن تلك العجوز التي آوت مُسلم بن عَقِيل أتى عَبْدَ الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، وأخبره بمكان مُسْلم بن عَقِيل، فأتى عبد الرحمٰن أباه وهو عند ابن زياد فأسرّ إليك بذلك، فأخبر به ابن زياد، فقال له ابن زياد: قُمْ فائتني به الساعة، وبعث معه عمرو بن عبيد الله بن عباس السلمي في سبعين من قيس، حتى أتوا الدّار التي فيها ابن عَقِيل، فلما سمع الأصوات عرف أنه قد أُتِي، فخرج إليهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار، ثم عادوا إليه فأخرجهم مرارًا، وضرب بُكير بن حمران فم مسلم فقطع شَفَتَه العُلْيا، وسقطت ثنِيَّتَاه، وضربه مسلم على رأسه وثَنَّى بأخرى، فلما رأوا ذلك أشرفوا على سطح البيت، وجعلوا يرمونه بالحجارة ويُلهبون النار في القَصَب ويلقونها عليه؛ فلما رأى ذلك خرج عليهم بسَيْفه، فقال له محمد بن الأشعث: لك الأمان فلا تقتل نفسَك، فأقبل يقاتلهم، فقال له محمد: إنك لا تُكَذَّب ولا تُخْدَع، إن القوم بنو عمّك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك ـ وكان قد أُثْخِنَ بالجراحة وعَجَزَ عن القتال، فأسند ظهره إلى حائط تلك الدار فأمَّنَه ابن الأشعث والناسُ غَيْرَ عمرو بن عبيد الله السّلمي، فإنّه قال: لا ناقةَ لي في هذا ولا جمل. وأتي ببغلة فحُمِل عليها، وانتزعوا سيفه فكأنّه أيِسَ من نفسه فدمعت عيناه، ثم قال: هذا أوّل الغَدْر. قال محمد: أرجو ألّا يكون عليك بأس، قال: أين أمانكم؟ ثم بكى، فقال له عمرو بن عبيد الله السُلمِيّ: مَنْ يطلب مثلَ الذي تطلب إذا نَزل به مثلُ الذي نزل بك لم يَبْكِ، فقال: ما أبكي لنفسي، ولكنّي أبكي لأهلي المنقلبين إليكم؛ أبكي للحسين وآل الحسين!!

ثم أُدْخِلَ إلى القَصْر، وتقدّم محمد بن الأشعث فأخبر عبيد الله بن زياد الخبر وبأمانِهِ له، فقال له عبيد الله: ما أنتَ والأمان! ما أرسلْناك لتؤمّنه، إنّما أرسلناك لتأتِيَنا به، فسكت محمد.

ثم إن مُسْلم بن عَقِيل رأى جَرَّةً فيها ماء بارد، فقال: اْسْقُونِي من هذا الماء، فقال له مُسْلِم بن عمرو الباهليّ: أتَراها؟ ما أبردها! والله لا تذوقُ منها قطرة حتى تذوقَ الحميم في نار جهنّم. فقال له ابن عَقِيل: مَنْ أنت؟ قال: أنا مسلم بن عمرو الباهليّ، فقال له ابن عَقِيل: لِأُمِّك الثُّكل! ما أجْفاك وأفظّك وأقسى قلبك وأغلظَك! أنت يا بن باهلة أوْلى بالحميم والخلود في نار جهنّم. ثم أُدخل على ابن زياد، فلم يسلّم عليه بالإمارة، فقال له الحَرَسي: ألَا تُسلّم على الأمير؟ فقال: إنْ كان يُريد قتلي فما سلامي عليه! وإن كان لا يريد قتلي فَلَيُكثُرَنَّ تسليمي عليه. فقال له ابن زياد:

لعمْري لتُقْتَلَنّ! فقال: كذلك؟ قال: نعم، قال: فدَعْنِي أُوصِ إلى بعض قومي! قال: افعل.

فقال لعمر بن سعد: إن بيني وبينك قَرابة ولي إليك حاجة - وهي سرٌّ - فلم يُمَكِّنه من ذكرها. فقال ابنُ زياد: لا تَمْتَنِعْ من حاجة ابن عمّك، فقام معه فقال: إنّ عليّ بالكوفة دَيْنًا استدَنْتُه منذ قدمت الكوفة، قدره سبعمائة درهم فاقْضِهِ عني، وانظر جُثّتي فاستوهِبْها من ابن زياد، فوَارِهَا، وابعث إلى الحسين مَنْ يَرُدُّه.

فقال عمرُ لابن زياد: إنه قال كذا كذا، فقال ابنُ زياد: إنه لا يخونُك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن؛ أمّا مالُك فهو لك، تصنع به ما شئت، وأمّا الحسين فإن لم يُرِدْنَا لم نرده، وإن أرادنا لم نكفّ عنه، وأمّا جُثّتُهُ فإنّا إذا قتلناه لا نُبالي ما صُنِعَ بها.

ثم قال ابن زياد لمسلم: يا بنَ عَقِيل، أتيتَ الناس وأمْرُهم جميع، وكلمتُهم واحدة، لِتُشَتِّتَ بينهم، وتفرّق كلمتهم! فقال: كلّا، ولكن أهل هذا المِصْر زعموا أنّ أباك قتل خيارَهم، وسفكَ دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتَيْناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حُكم الكتاب والسُّنّة، قال: وما أنت وذاك يا فاسق! ألم يكن يعمل بذلك فيهم إذْ أنت تشرب الخمر بالمدينة؟ قال: أنا أشرب الخمر! والله، إنّ الله يعلم أنك تعلم أنك غير صادق، وأني لست كما ذكرت، وأن أحقَّ الناس بشرب الخمر مَنْ يَلغ في دماء المسلمين، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلَها على الغضب والعداوة، وهو يلهو ويلعب؛ كأنه لم يصنع شيئًا! فقال له ابن زياد: قتلني الله إن لم أقتلْك قِتلة لم يُقتلها أحدٌ في الإسلام، قال: أما إنك أحقّ من أحْدَث في الإسلام حدثًا، إنك لا تدع سوء القِتْلة وقُبْح المثلة وخبث السِّيرة ولُؤْم الغلبة، ولا أحد من الناس أحقُّ بها منك. فشتمه ابن زياد وشتم الحسين وعليًا وعقيلًا، ثم أمر بابن عَقِيل فأُصعد فوق القصر، وضُرِبَتْ عنقه.

ولمّا أراد الحُسين المسير إلى الكوفة بكتب أهل العراق إليه أتاه عمر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام وهو بمكّة، فقال له: إنّي أتيتُك لحاجةٍ أريدُ ذكرها نصيحةً لك، فإنْ كنتَ ترى أنّك مستنصحي قلتُها وأدّيْتُ ما عليَّ من الحقّ فيها، وإنْ ظننتُ أنّك لا مستنصحي كففتُ عمّا أُريد. فقال له: قُلْ فوالله ما أسْتَغشك وما أظنُّك بشيءٍ من الهوىٰ.

قال له: قد بلغني أنّك تريدُ العراقَ، وإنّي مشفقٌ عليك، إنك تأتي بلدًا فيه عماله وأُمراؤه ومعهم بيوت المال، وإنّما الناسُ عبيدُ الدينار والدرهم فلا آمَنُ عليك

أنْ يُقاتِلك مَنْ وَعَدَكَ نصرَه ومَنْ أنتَ أحبّ إليه ممن يقاتلك معه. فقال له الحسين: جزاكَ اللهُ خيرًا يا بن عم، فقد علمتُ أنّك مشيتَ بنصح، وتكلّمتَ بعقلٍ، ومهما يُقض مِن أمرٍ يَكُنْ أخذتُ برأيك أو تركتُه، فأنتَ عندي أحمد مشير، وأنصح ناصح.

قال: وأتاه عبد الله بن عباس فقال له: قد أرجفَ الناسُ أنك سائرٌ إلى العراق، فبيِّنْ لي ما أنتَ صانع؟ فقال له: قد أجمعتُ السَّيْرَ في أحد يوميَّ هٰذين إنْ شاء الله تعالىٰ. فقال له ابن عباس: فإنّي أُعيذك بالله مِن ذلك، خبِّرْني رحمك الله أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوّهم؟ فإنْ كانوا فعلوا ذلك فسِرْ إليهم، وإنْ كانوا إنّما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهرٌ لهم، وعمّاله تجبي بلادهم، فإنّما دعوك إلى الحرب ولا آمَنُ عليك أنْ يغرّوك ويَكْذِبُوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا إليك فيكونوا أشدّ الناس عليك. فقال الحسين: فإنّي أستخيرُ الله وأنظرُ ما يكون.

فخرج ابن عباس وأتاه ابن الزُّبَيْر، فحدّثه ساعة ثم قال: ما أدري ما تَرْكُنا هٰؤلاء القوم وقد كَفَفْنَا عنهم ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم خَبِّرْني ما تريدُ أنْ تصنع؟ فقال الحسين: لقد حدّثتُ نفسي بإتياني الكوفة، ولقد كتبتُ إلى شيعتي بها، وأشراف الناس وأستخيرُ الله. فقال له ابن الزُّبَيْر: أمّا لو كان لي بها مثل شيعَتِك لما عدلتُ عنها. ثم خشيَ أنْ يتَّهمَه فقال له: أمّا إنك لو أقمتَ بالحجاز ثم أردتَ هذا الأمر هاهنا لما خالفنا عليك، وساعدناك، وبايعناك، ونصحنا لك. فقال له الحسين: إنّ أبي حدّثني أنّ لها كبشًا به تُسْتَحَلُّ حرمتها، فما أحبُّ أنْ أكون أنا ذلك ذلك الكبش. قال: فأقِمْ إنْ شئتَ وتوليني أنا الأمرَ فتُطاع ولا تعصى. قال: ولا أريد هذا أيضًا، ثم إنّهما أخفيا كلامهما فالتفتَ الحسين إلى مَنْ هناك وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا ندري، جعلنا الله فداءك! قال: إنّه يقول: أقِمْ في هذا المسجد أجمعُ لك الناس، ثمّ قال له الحسين: واللهِ لأن أُقتل خارجًا منها بشبر أحبّ إليّ مِنْ أنْ أُقتل فيها، ولأن أُقتل خارجًا منها بشبرَيْن أحبّ إليّ مِنْ أنْ أُقتل خارجًا منها بشبر، أحبّ إليّ من أن أُقتَل فيها، ولأن أُقتَل خارجًا منها بشبرَيْن أحبّ إليّ من أن أُقتَل خارجًا منها بشبر، وإيم الله لو كنتُ في حجر هامّة من هذا الهوامّ لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتَهم، واللهِ ليعتدُنّ عليّ كما اعتدت اليهودُ في السبت، فقام ابن الزُّبير فخرج من عنده، فقال الحسين: إنّ هذا ليس شيءٌ من الدُّنيا أحبُّ إليه مِنْ أن أخرج من الحجاز، وقد عَلِمَ أن الناسَ لا يعدلونه بي فودَّ أنّي خرجتُ حتى يخلو له.

قال: فلمّا كان مِن العَشِيّ أو مِن الغد أتاه ابن عباس، فقال: يا بن عمّ إنّي أتصبّر ولا أصبر إنّي أتخوّفُ عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال. إنّ أهلَ العراق قومُ غَدْرٍ فلا تقربنّهم. أقِمْ في هذا البلد فإنّك سيّد أهل الحجاز فإنْ كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فَاكْتُبْ إليهم فلينفوا عاملهم وعدوَّهم ثم اَقدمْ عليهم، فإن أبيتَ إلّا أنْ تخرج فسِرْ إلى اليمن فإنّ بها حصونًا وشعابًا وهي أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة، وأنتَ عن الناس في عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبثّ دعاتِك فإنّي أرجو أن يأتيَك عند ذلك الذي تحبّ في عافية.

فقال له الحسين: يا بن عمّ، إنّي لأعلم أنّك ناصحٌ مشفقٌ، وقد أزمعتُ وأجمعتُ المسيرَ. فقال له ابن عباس: فإنْ كنتَ سائرًا فلا تَسِرْ بنسائِك وصِبْيَتِك فإنّي لخائفُ أنْ تُقتل كما قُتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه، ثم قال له ابن عباس: لقد أقررتَ عينَ ابن الزبير بخروجِك من الحجاز وهو اليوم لا ينظرُ إليه أحدٌ معك، واللهِ الذي لا إله إلّا هو لو أعلم أنّي إنْ أخذتُ بشعرِك وناصيتِك حتى يجتمعَ علينا الناس أطعتني فأقمتَ لفعلتُ ذلك، ثم خرج ابنُ عباس مِنْ عنده فمرَّ بابن الزبير فقال: قرّتْ عينُك يا بنَ الزُّبير! ثم أنشد قائلًا:

يَـا لَكِ مِـنْ قُـنبـرة بـمَـعْـمَـر خَلَالَكِ الجوُّ فبيضِي واَصْفِري ونَقِّرِي ما شِئْتِ أنْ تُنَقِّرِي[1]

هذا الحسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز، وقيل: وكان الحسين يقول: واللهِ لا يَدَعُوني حتى يستخرجوا هذه العَلَقة مِنْ جوفي فإذا فعلوا سَلَّطَ اللهُ عليهم مَنْ يذلُّهم حتى يكونوا أذلّ مِنْ فرام المرأة، قال: و(الفرام) خرقة تجعلها المرأة في قُبُلِهَا إذا حاضت.

ثم خرج الحسين يوم التروية فاعترضه رُسُلُ عَمْرو بن سعيد بن العاص ـ وهو أمير على الحجاز ليزيد بن معاوية مع أخيه يحيى ـ يمنعونه فأبىٰ عليهم ومضىٰ، وتضاربوا بالسّياط، وامتنع الحُسَيْن وأصحابُه وساروا فمرُّوا بالتنعيم فرأى بها عيرًا قد أقْبلتْ من اليمن بُعِثَ بها بحير بن ريسان مِن اليمن إلى يزيد بن معاوية وكان عامله على اليمن وعلى العير الورس والحُلَل، فأخذها الحسين وقال لأصحاب الإبل: مَنْ أحبَّ منكم أن يمضي معنا إلى العراق أوفينا كراءه وأحسنَّا صحبته، ومَنْ أحبَّ أنْ

(١) ينسب هذا الرجز لطرفة (انظر ملحق ديوانه ١٩٣).

يفارقنا مِنْ مكاننا أعطيناه نصيبَه من الكِرَاء؛ فمن فارق منهم أعطاه حقَّه، ومَنْ سار معه أعطاه كراءه وكَسَاه ثم سار.

فلمّا انتهى إلى الصّفاح لَقِيَه الفَرَزْدَق الشاعر، فقال له: أعطاك الله سُؤْلَك وأَمَلَك فيما تحب، فقال له الحسين: بَيِّنْ لي خبرَ الناس خلفك. قال الخبيرَ: سألتَ قلوبُ الناسِ معك وسيوفهم مع بني أُميّة، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعلُ ما يشاء، فقال الحسين: صدقتَ، للهِ الأمرُ يفعلُ ما يشاء، وكل يوم ربّنا في شأن، إنْ نزل القضاءُ بما نحبُّ فنحمدُ الله على نعمائه وهو المستعان على أداءِ الشكر، وإنْ حالَ القضاءُ دونَ الرجاء فلم يعتدِ مَنْ كان الحقّ نيّته والتقوىٰ سريرته.

قال: وأدرك الحسين كتابَ عبد الله بن جعفر مع ابنيه عون ومحمد، وفيه: «أمّا بعد، فإني أسألك باللهِ لما انصرفتَ حين تقرأُ كتابي هذا فإنّي مشفقٌ عليك مِن هذا الوجهِ أنْ يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك. إنْ هلكتَ اليومَ طُفِئَ نورُ الأرض فإنّك عَلَمُ المهتدين، ورجاء المؤمنين، فلا تعجلْ بالسَّيْر فإنّي في أثر كتابي، والسّلام».

قيل: وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد [بن العاص] فقال له: أكتبْ للحسين كتابًا تجعل له الأمان فيه وتُمنّيه فيه البرّ والصِّلة وأسأله الرجوع، وكان عمرو عامل يزيد على مكّة، ففعل عمرو ذلك وأرسلَ الكتاب مع أخيه يحيىٰ بن سعيد ومع عبد الله بن جعفر فلحقاه وقرآ عليه الكتاب وجَهَدا أنْ يرجِعَ فلم يفعل، وكان مما اعتذر به إليهما أنْ قال: «إنّي رأيتُ رؤيا، رأيتُ فيها رسول الله ﷺ وأُمِرْتُ فيها بأمرٍ أنا ماضٍ له عليّ كان أوْ لي»، فقالا: ما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدّثتُ بها أحدًا، وما أنا محدِّثٌ بها أحدًا حتى ألقىٰ ربّي.

ولما بلغ ابن زياد مسير الحسين من مكة بعث الحصين بن نمير التميمي صاحب شرطته فنزل القادسية ونظم الخيل ما بين القادسية إلى حفان، وما بين القادسية إلى القطقطانة وإلى جبل لعلع، فلما بلغ الحسين الحاجر كتب إلى أهل الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداويّ يعرّفهم قدومه ويأمرهم بالجدّ في أمرهم، فلما انتهى قيس إلى القادسية أخذه الحصين فبعث به إلى ابن زياد، فقال له ابن زياد: أصعد القصر فسبّ الكذاب ابن الكذاب الحسين بن عليّ، فصعد قيس فحمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: «إنَّ هذا الحسين بن عليّ خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أنا رسولُه

إليكم، وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه»، ثم لعن ابن زياد، وأباه، واستغفر لعليّ، فأمر به ابن زياد فرمِيَ مِنْ أعلى القصر، فتقطّع فمات.

ثم أقبل الحسين يسير نحو الكوفة فانتهى إلى ماءٍ مِنْ مياه العرب فإذا عليه عبد الله بن مطيع فلمّا رآه قام إليه، فقال: بأبي أنت وأمي يا بن رسول الله ما أقدمك؟ فاحتمله فأنزله فأخبره الحسين، فقال له عبد الله: «أُذكِّرُكَ الله يا بن رسول الله وحُرمة الإسلام أنْ تُنتهك أنشدك الله في حُرمة قريش، أنشدك الله في حرمة العرب فوالله لَئِن طَلَبْتَ ما في أيدي بني أُميّة ليقتُلُنّك، ولَئِن قَتَلُوك لا يهابون بعدك أحدًا أبدًا، والله إنَّها لحرمة الإسلام [تُنتهك] وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعلْ، ولا تأْتِ الكوفة ولا تعرّض نفسك لبني أُميّة»، فأبىٰ إلّا أنْ يمضي.

وكان زهير بن القين البجليّ قد حجّ ـ وكان عثمانيًا ـ فلما عاد جمعهما الطريق، وكان يساير الحسين من مكّة إلّا أنه لا ينزل معه، فأستدعاه يومًا الحسين فشقَّ عليه ذلك ثم أجابه على كُرْه، فلما عاد مِنْ عنده نقل ثقله إلى ثقل الحسين، ثم قال لأصحابه: مَنْ أحبَّ منكم أنْ يتبعني وإلّا فإنّه آخرُ العهد، وسأحدّثكم حديثًا: غزونا بلنجر ففُتِحَ علينا وأصبنا غنائم ففرحنا وكان معنا سلمان الفارسي فقال لنا: «إذا أدركتم سيّدَ شباب أهلِ محمد فكونوا أشدَّ فرحًا بقتالِكم معه بما أصبتم اليوم من الغنائم»، فأمّا أنا فأستودعكم الله. ثم طلّق زوجَته وقال لها: ٱلحقي بأهلِك فإنّي لا أحبُّ أن يصيبَك في سببي إلّا خَيْر، ولَزِمَ الحسين حتى قُتِلَ معه.

وأتاه خَبَر قَتْل مسلم بن عَقيل بالثعلبية، فقال له بعض أصحابه: ننشدك الله إلّا رجعتَ مِنْ مكانك فإنّه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوّف عليك أنْ يكونوا عليك. فوثب بنو عقيل، وقالوا: والله لا نبرح حتى يدرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم. فقال الحسين: لا خَيْرَ في العيشِ بعدَ هٰؤلاء. فقال له بعض أصحابه: إنك واللهِ ما أنتَ مثل مسلم بن عقيل، ولو قدمتَ الكوفة لكان الناس إليك أسرع.

ثم ارتحلوا فانتهوا إلى زبالة، وكان لا يمرّ بماء[1] إلّا اتّبعه مَنْ عليه حتى انتهى إلى زبالة فأتاه خبر مَقْتَل أخيه مِن الرضاعة «عبد الله بن بقطر»، وكان سرحه إلى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقَتْلِه فأخذَتْه خيل الحصين فسيّره مِن القادسية

(١) الطبري: بأهل ماء.

إلى ابن زياد، فقال له: اصعد فوق القصر والْعَن الكذابَ ابن الكذّابَ ثم أنزل حتى أرىٰ فيك رأيي. فصعد فأعلمَ الناسَ بقدوم الحسين، ولعن ابن زياد وأباه فألقاه مِن القصر فتكسّرت عظامه وبقي به رَمَق، فأتاه رجلٌ يقال له: عبد الملك بن عمير اللخمي، فذبحه فلما عيب ذلك عليه قال: إنّما أردتُ أن أُرِيحَه، قال بعضهم: لم يكن الذي ذبحه عبد الملك بن عمير ولكنه رجل يشبه عبد الملك.

فلمّا أتى الحسين خبر قتل أخيه من الرّضاعة، ومسلم بن عقيل أَعْلَمَ الناسَ ذلك وقال: قد خَذَلَنا شِيعَتُنا فمن أحبَّ أنْ ينصرف فلينصرف ليس عليه مِنّا ذمام. فتفرَّقوا يمينًا وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه مِنْ مكّة، وإنما فعل ذلك لأنه عَلِمَ أنّ الأعراب ظنّوا أنه يأتي بلدًا قد استقامَتْ له طاعة أهله، فأراد أنْ يعلموا على مَ يقدُمُون عليه.

ثم سار حتى نزل بطن العقبة فلقيَه رجلٌ مِن العرب، فقال له: أنشدك الله لما انصرفتَ فوالله ما تقدمُ إلّا على الأسِنَّة وحَدِّ السيوف، إنّ هٰؤلاء الذي بعثوا إليك لو كانوا كَفُوك مؤنة القتال ووطأوا لك الأشياء فقَدِمَت عليهم لكان ذلك رأيًا، فأمّا على هذه الحال التي تذكرها فلا أرىٰ [لك] أنْ تفعل. فقال: إنّه لا يخفىٰ عليَّ ما ذكرتَ ولكن الله عزّ وجلّ لا يُغلب على أمره، ثم ارتحل منها.

وسار الحسين مِن شراف فلما انتصف النهار كَبَّرَ رجلٌ من أصحابه، فقال له: ممَّ كبَّرْتَ؟ قال: رأيتُ النخلَ، فقال رجلان من بني أسد: ما بهذه الأرض نخلةٌ قطّ. فقال الحسين: فما هو؟ فقالا: لا نراه إلّا هوادي الخيل، فقال: وأنا أيضًا أراه ذلك. وقال لهما: أما لنا ملجأ نلجأ إليه نجعله في ظهورِنا ونستقبلُ القومَ من وجهٍ واحد؟ فقالا: بلى هذا ذو حُسُم إلى جنبك تميلُ إليه عن يسارك فإنْ سَبَقْتَ القومَ إليه فهو كما تريد، فمال إليه فما كان بأسرع مِنْ أنْ طلعت الخيلُ وعدلوا إليهم فسبقهم الحسين إلى الجبل فنزل، وجاء القومُ وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي ثم اليربوعي فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه في نحو الظهيرة، فقال الحسين لأصحابه وفتيانه: اسقوا القومَ، ورشفوا الخيل ترشيفًا. ففعلوا، وكان مجيء الحر مِن القادسية أرسله الحصين بن نمير التميمي في هذه الألف يستقبل الحسين، فلم يزل مواقفًا الحسين حتى حضرتْ صلاةُ الظهر فأمر الحسين مؤذّنه بالأذان فأذّن، وخرج الحسين إليهم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيُّها الناس إنّها معذرة إلى الله وإليكم، إنّي لم آتِكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أنْ أقدم إلينا فليس لنا إمام، لعلّ الله أن يجعلنا بك

على الهدىٰ، فقد جئتُكم فإنْ تعطوني ما أطمئنُّ إليه من عهودكم أقدم مِصْرَكم، وإنْ لم تفعلوا أو كنتم بمقدمي كارِهين أنصرفتُ عنكم إلى المكان الذي أقبلتُ منه»، فسكتوا وقالوا للمؤذن: أقِمْ، فأقام، وقال الحسين للحرّ: أتريدُ أنْ تصلّي أنتَ بأصحابك؟ فقال: بل صَلِّ أنتَ ونصلّي بصلاتِك. فصلّىٰ بهم الحسين، ثم دخل واجتمع إليه أصحابُه وانصرف الحرّ إلى مكانه، ثم صلّىٰ بهم الحسينُ العصر ثم استقبلهم بوجهه فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «أمّا بعد، أيّها الناس فإنّكم إنْ تتقوا الله وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضىٰ لله، ونحن أهل البيت أولىٰ بولايةِ هذا الأمر من هٰؤلاء المدَّعِين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، فإنْ أنتم كرهتمونا وجهلتم حَقَّنا وكان رأيكم غير ما أتَتْني به كتبكم ورسلكم انصرفتُ عنكم».

فقال الحرّ: إنّا واللهِ ما ندري ما هذه الكتب والرّسل التي تذكر، فأخرجَ خرجين مملوءَيْنِ صحفًا فنَثَرَها بين أيديهم. فقال الحرّ: فإنّا لسنا مِن هؤلاءِ الذين كتبوا إليك، وقد أُمِرْنَا أنّا إذا نحن لقيناك أنْ لا نفارقَك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد. فقال الحسين: الموتُ أدنى إليك من ذلك، ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا، فمنعهم الحرّ من ذلك، فقال له الحسين: ثَكِلَتْكَ أُمُّك. ما تريد؟ قال له: أمَا والله لو غَيْرُكَ مِن العرب يقولها [لي] ما تركتُ أُمّه بالثكل كائنًا مَنْ كان، ولكني واللهِ ما لي إلى ذكرِ أُمّك من سبيل إلّا بأحسنِ ما يقدرُ عليه. فقال له الحسين: ما تريد؟ قال الحر: أُريدُ أن أنطلق بك إلى ابن زياد. قال الحسين: إذنْ واللهِ لا أتبعك. قال الحرّ: إذنْ والله لا أدَعُك، فترادًا الكلام [ثلاث مرات]، فقال له الحر: إنّي لم أؤمر بقتَالِك، وإنّما أُمِرْتُ أنْ لا أُفارقك حتى أقدمك الكوفة [فإذا أبيتَ] فخُذْ طريقًا لا تُدْخِلك الكوفة ولا تردّك إلى المدينة حتى أكتب إلى ابن زياد وتكتب أنتَ إلى يزيد أو إلى ابن زياد، فلعلّ الله أن يأتيَ بأمرٍ يرزقني فيه العافية مِنْ أن أُبتلىٰ بشيءٍ مِنْ أمرك.

فتياسر عن طريق العذيب، والقادسية والحرّ يسايره، ثم إنّ الحسين خَطَبهم فحمدَ الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «أيّها الناس إنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رأى سلطانًا جائرًا مستحلًا لحرمِ الله، ناكثًا لعهدِ الله، مخالفًا لسنّة رسول الله ﷺ يعمل في عبادِ الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر ما عليه بفعلٍ ولا قَوْلٍ كان حقًّا على الله أنْ يدخله مدخله»، ألَا وإنّ هٰؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمٰن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفَيْءِ، وأحلّوا حرام اللهِ، وحرّموا حلاله، وأنا أحقُّ مِنْ غيري، وقد أتتني كتبكم، ورسلكم ببيعتكم، وأنكم لا تسلموني، ولا تخذلوني فإنْ

أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن عليّ ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسي مع نفسكم، وأهلي مع أهْلِكم فلكم فِيَّ أُسوةٌ، وإنْ لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي، فلعمري ما هي لكم بنكير لقد فعلتموها بأبي، وأخي، وابن عمّي مسلم بن عقيل، والمغرور مَن اغترَّ بكم فحظَّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومَنْ نكث فإنّما ينكثُ على نفسه، وسيغني الله عنكم والسلام». فقال له الحرّ: إنّي أُذَكِّرك الله في نفسك فإنّي أشهدُ لَئِنْ قاتلتَ لتُقتلن، [فلئن قوتلتَ لتهلكن فيما أرىٰ]، فقال له الحسين: أبالموت تخوّفني! وهل يعدو بكم الخَطْبُ أنْ تقتلوني، وما أدري ما أقول لك ولكني أقول كما قال أخو الأوسيّ لابن عمّه ـ وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ ـ: أين تذهب فإنك مقتول؟ فقال:

سأَمْضِي ومَا بِالمَوْتِ عارٌ على الفتىٰ ... إذَا مَا نَوَىٰ خَيْرًا وجاهدَ مسلما
وواسَىٰ رِجَالاً صالحين بنَفْسِهِ ... وَخَالف مَثْبُورًا وفارَق مُجْرِمَا[1]
فإنْ عِشْتُ لم أندمْ وإنْ مِتُّ لم أُلَمْ ... كَفَى بِكَ ذُلاً أنْ تعيشَ وترغمَا

فلما سمع ذلك الحرّ تنحّىٰ عنه فكان يسير ناحية عنه حتى انتهى إلى عذيب الهجانات، كان به هجائن النعمان ترعىٰ هناك فنُسِب إليها، فإذا هو بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم يجنبون فرسًا لنافع بن هلال يقال له: «الكامل»، ومعهم دليلهم طَرِمَّاح بن عدي، فانتهوا إلى الحسين فأقبل إليهم الحرّ، وقال: إنّ هٰؤلاء النفر من أهل الكوفة وأنا حابسهم أو رادُّهم، فقال الحسين: لأمنعنّهم مما أمنعُ منه نفسي، إنّما هؤلاء أنصاري، وهم بمنزلة مَنْ جاء معي، فإن تممت على ما كان بيني وبينك وإلّا ناجزتُك.

فكفَّ الحرّ عنهم، فقال لهم الحسين: أخبروني خبرَ الناسِ خلفَكم، فقال له مجمع بن عبيد الله العامري ـ وهو أحدهم ـ: أمّا أشراف الناس فقد أُعْظِمَتْ رشوتهم، ومُلِئَتْ غرائرُهم فهم إلب واحد عليك، وأمّا سائر الناس بعدهم فإنّ قلوبهم تهوي إليك وسيوفهم غدًا مشهورة عليك.

وسألهم عن رسوله قيس بن مسهر فأخبروه بقتله، وما كان منه، فترقرقت عيناه بالدموع ولم يملك دمعته، ثم قرأ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟

(١) الطبري (٥/ ٤٠٤):
وآسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارق مثبورًا يغشّ ويرغما
والبيت الثالث غير موجود في الطبري.

تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٣]، اللّهمّ اجعل لنا ولهم الجنّة واَجمع بيننا وبينهم في مستقر «رحمتك»، وغائب مذخور ثوابك.

وقال له الطرماح بن عدي: والله ما أرىٰ معك كثير أحدٍ، ولو لم يقاتِلْك إلّا هٰؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفىٰ بهم، ولقد رأيتَ قبل خروجي من الكوفة بيوم ظهر الكوفة وفيه مِن الناس ما لم تَرَ عيناي جمعًا في صعيدٍ واحد أكثر منه قطّ ليسيروا إليك فأنشدك الله إنْ قدرتَ على أنْ تقدم إليهم شبرًا فاَفعل، فإن أردتَ أنْ تنزل بلدًا يمنعك الله به حتى ترىٰ رأيك ويستبين لك ما أنتَ صانع فسِرْ حتى أنزلك جبلنا أجأ فهو والله جبلٌ امتنعنا به من ملوك غسّان، وحمير، والنعمان بن المنذر، ومن الأحمر والأبيض، والله ما إنْ دخل علينا ذلٌّ قطّ فأسير معك حتى أنزلك [القرية] ثم تبعث إلى الرجال ممن بأجأ، وسلمى مِن طَيِّىء فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتى يأتيك طيىء رجالاً وركبانًا ثم أقِمْ فينا ما بدا لك فإنْ هاجك هَيْجٌ فأنا زعيمٌ لك بعشرين ألف طائِيّ يضربون بين يديك بأسيافهم، فوالله لا يوصَل إليك أبدًا وفيهم عَيْنٌ تطرف.

فقال له: جزاك الله وقومَك خيرًا إنه قد كان بيننا وبين هٰؤلاء القوم قولٌ لسنا نقدِر معه على الانصراف ولا ندري على ما تتصرف بنا وبهم الأمور، فودَّعه، وسار إلى أهله، ووعده أنْ يوصل الميرة إلى أهله ويعود إلى نَصْره ففعل، ثم عاد إلى الحسين فلمّا بلغ عذيب الهجانات لقيه خبر قتله فرجع إلى أهله.

ثم سار الحسين حتى بلغ قصر «بني مقاتل» [فنزل به] فرأى فسطاطًا مضروبًا، فقال: لمن هذا؟ فقيل: لعبيد الله بن الحرّ الجعفي، فقال: ادعوه لي. فلمّا أتاه الرسولُ يدعوه قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون والله ما خرجتُ من الكوفة إلّا كراهيةَ أنْ يدخُلَها الحسين وأنا بها، والله ما أريد أنْ أراه ولا يراني.

فعاد الرسولُ إلى الحسين فأخبره فلبس الحسين نعلَيْه ثم جاء فسلّم عليه ودعاه إلى نَصْرِهِ فأعاد عليه ابنُ الحرّ تلك المقالة، قال: فإلّا تنصرني فاتّق الله أنْ تكونَ ممن يقاتلنا، فوالله لا يسمع داعيتنا أحدٌ ثم لا ينصرنا إلّا هلك. فقال له: أمّا هذا فلا يكون أبدًا إنْ شاء الله تعالىٰ.

ثم قام الحسين إلى رحله ثم سار ليلاً ساعة فخفق برأسه خفقَة ثم انتبه وهو يقول: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين».

فأقبل إليه ابنه عليّ بن الحسين فقال: يا أبتِ جُعِلْتُ فداك ممَّ حمدتَ واسترجعتَ؟ قال: يا بنيّ إنّي خفقتُ [برأسي] خفقةً فعَنَّ لي فارسٌ على فرسٍ فقال: «القومُ يسيروا والمنايا تسيرُ إليهم»، فعلمتُ أنَّ أنفسَنا نُعيَتْ إلينا، فقال: يا أبتِ لا أَرَاكَ الله سوءًا، ألسنا على الحقّ؟ قال: بلىٰ والذي يرجع إليه العباد، قال: إذنْ لا نبالي أنْ نموت محقّين.

فقال له: جزاك الله من ولدٍ خيرًا ما جزىٰ ولدًا عن والده.

فلمّا أصبح نزل فصلّى ثم عجل الركوب فأخذ يتياسر بأصحابه يريد أنْ يفرِّقَهم، فأتىٰ الحرّ فردَّه وأصحابه فجعل إذا ردَّهم نحو الكوفة ردًّا شديدًا امتنعوا عليه وارتفعوا، فلم يزالوا يتياسرون حتى انتهوا إلى «نينوى» المكان الذي نزل به الحسين، فلما نزلوا إذا راكبٌ مقبلٌ مِن الكوفة فوقفوا ينتظرونه فسلَّم على الحرّ ولم يسلِّم على الحسين وأصحابه، ودفع إلى الحرّ كتابًا من ابن زياد فإذا فيه: «أمّا بعد فجعجع[1] بالحسين حين يبلغكَ كتابي ويقدم عليك رسولي فلا تنزله إلّا بالعراء في غير حصنٍ، وعلى غير ماء، وقد أمرتُ رسولي أنْ يَلْزَمَكَ فلا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري، والسلام».

فلما قرأ الكتاب قال لهم الحرّ: هذا كتاب الأمير يأمرني أنْ أُجعجع بكم في المكان الذي يأتيني فيه كتابه، وقد أمر رسوله أنْ لا يفارقني حتى أنفذ رأيَه وأمره، وأخذهم الحر بالنزل على غير ماء ولا في قرية، فقالوا: دَعْنا ننزل في نينوى، أو الغاضرية أو شفية. فقال: لا أستطيع، هذا الرجلُ قد بعث عينًا عليّ، فقال زهير بن القين للحسين: إنّه لا يكون والله بعد ما ترون إلّا ما هو أشدّ منه يا بن رسول الله وإنّ قتالَ هٰؤلاء الساعة أهون علينا مِنْ قتال مَنْ يأتينا مِنْ بعدهم، فلعمري ليأتينا مِنْ بعدهم ما لا قِبَلَ لنا به. فقال الحسين: ما كنتُ لأبدأهم بالقتال، فقال له زهير: سِرْ بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها فإنّها حصينة ـ وهي على شاطئ الفرات ـ فإنْ منعونا قاتلناهم فقتالهم أهون علينا مِن قتال مَنْ يجيء بعدهم، فقال الحسين: ما هي؟ قال: العقر، قال: اللّهمّ إنّي أعوذ بك مِن العقر، ثم نزل وذلك يوم الخميس الثاني من محرم سنة إحدى وستين.

فلمّا كان الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف، وكان سبب مسيره إليه أنّ عبيد الله بن زياد كان قد بعثه على أربعة آلاف إلى

---

(١) أي: ضيّق عليه المكان.

دستبى وكانت الديلم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، وكتب له عهده على الريّ فعسكر بالناس في حمام أعين، فلما كان من أمر الحسين ما كان دعا ابنُ زياد عمر بن سعد وقال له: سِرْ إلى الحسين فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرتَ إلى عملك. فاستعفاه فقال: نعم على أنْ تردَّ عهدنا، فلما قال له ذلك قال: أمهلني اليومَ حتى أنظرَ، فاستشار نصحاءَه فكلُّهم نهاه، وأتاه حمزة بن المغيرة بن شعبة ـ وهو ابن أخته ـ فقال: أُنشدك الله يا خالي أنْ لا تسير إلى الحسين فتأثم وتقطع رحمك، فوالله لأنْ تخرج من دنياك ومالِك وسلطانِ الأرضِ لو كان لك خيرٌ مِنْ أنْ تلقى الله بدم الحسين، فقال: أفعلْ وباتَ ليلته مفكّرًا في أمره فسمع وهو يقول:

أأتركُ ملكَ الريّ والريّ رغبة ... أم أرجع مذمومًا بقتل حُسَيْن
وفي قَتْلِهِ النارُ التي ليسَ دُونَها ... حجابٌ ومُلك الريّ قُرَّة عين

ثم أتىٰ زياد فقال له: إنّك وليتني هذا العمل، وسمع الناسُ به فإنْ رأيتَ أن تنفذَ لي ذلك فافعلْ، وابعثْ إلى الحسين مِنْ أشراف الكوفة مَنْ لستُ أغنى في الحرب منه، وسمّى أُناسًا. فقال له ابن زياد: لستُ أستأمرك فيمن أريد أنْ أبعثَ فإنْ سرتَ بجندِنا وإلّا فابعثْ إلينا بعهدنا. قال: فإنّي سائرٌ.

فأقبلَ في ذلك الجيش حتى نزل بالحسين، فلما نزل به بعث إليه رسولاً يسأله ما الذي جاء به؟ فقال الحسين: كَتَبَ إليَّ أهلُ مِصْرِكُم هذا أنْ أقدم عليهم فأمّا إذْ كرهوني فإنّي أنصرف عنهم، فكتب عمر إلى ابن زياد يعرّفه ذلك، فلما قرأ ابنُ زياد الكتاب قال:

الآن إذْ عَلِقَتْ مَخَالِبُنَا به ... يَرْجُو النجاةَ ولاتَ حينَ مَناصِ

ثم كتب إلى عمر يأمره أنْ يعرض على الحسين بيعة يزيد فإذا فعل ذلك رأينا رأينا، وأنْ يمنعه ومَنْ معه الماء، فأرسل عمر بن سعد عَمْرو بن الحجاج على خمسمائة فارس فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام، ونادى عبد الله بن أبي الحصين الأزديّ وعداده في بجيلة: «يا حُسَيْن: أمَا تنظر إلى الماء [كأنّه كبد السماء والله] لا تذوق منه قطرة حتى تموتَ عطشًا»، فقال الحسين: اللّهمّ اَقْتُلْهُ عطشًا، ولا تغفرْ له أبدًا. قال: فمرض فيما بعد فكان يشرب ماء القلّة ثم يقيء، ثم يعود فيشرب حتى يتغرغر ثم يقيء، ثم يشرب فما يروى، فما زال كذلك حتى مات.

فلما اشتدّ العطش على الحسين وأصحابه أمر أخاه العباس بن عليّ فسار في عشرين راجلاً يحملون القِرَب وثلاثين فارسًا فدنوا من الماء فقاتلوا عليه وملؤوا القِرَب وعادوا.

ثم بعث الحسين إلى عمر بن سعد عَمرو بن قرظة بن كعب الأنصاريّ أن ألْقِني الليلة بين عسكري وعسكرِك فخرج إليه عمر فاجتمعا وتحادثا طويلاً ثم انصرف كلُّ واحدٍ منهما إلى عسكره، وتحدّث الناسُ أنّ الحسين قال لعمر بن سعد: اخرج معي إلى يزيد بن معاوية ونَدَع العسكَرَيْن، فقال عمر: أخشىٰ أنْ تهدمَ داري، قال: أبنيها لك خيرًا منها. قال: تؤخذ ضياعي، قال: أعطيك خيرًا منها من مالي بالحجاز، فكره ذلك عمر وتحدّث الناسُ بذلك ولم يسمعوه.

وقيل: بل قال له: اختاروا مني واحدة من ثلاث: إمّا أن أرجعَ إلى المكان الذي أقبلتُ منه، وإمّا أنْ أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرىٰ فيما بيني وبينه رأيه، وإما أن تسيروا بي إلى أي ثغرٍ مِن ثغورِ المسلمين شئتم فأكون رجلاً من أهله لي ما لهم وعليّ ما عليهم.

وقد رُوِيَ عن عقبة بن سمعان أنه قال: صحبتُ الحسين من المدينة إلى مكّة ومن مكة إلى العراق ولم أفارقه حتىٰ قتل، وسمعت جميعَ مخاطباته الناسَ إلى يوم مقتله، فوالله ما أعطاهم ما يتذاكرُ به الناسَ مِن أنه يضعُ يده في يد يزيد، ولا أنْ يُسَيِّرُوه إلى ثغرٍ من ثغورِ المسلمين، ولكنه قال: دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلتُ منه، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظرَ إلى ما يصيرُ إليه أمرُ الناس، فلم يفعلوا.

ثم التقى الحسين وعمر بن سعد مرارًا ثلاثًا أو أربعًا، فكتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد: «أمّا بعد، فإنّ الله أطفأ النائرة، وجَمَعَ الكلمَة، وقد أعطاني الحسين أنْ يرجعَ إلى المكان الذي أقبلَ منه وأنْ نسيِّره إلى أي ثغر من الثغور شئنا، أو أنْ يأتيَ يزيد أمير المؤمنين فيضعَ يده في يدِهِ وفي هذا لكم رضًا وللأُمّة صلاح».

فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال: هذا كتابُ رجلٍ ناصح لأميره مشفقٌ على قومه، نعم قد قَبِلْتُ. فقام إليه شمر بن ذي الجوشن فقال: أتقبلُ هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك! والله لئن رحل مِن بلادك ولم يضع يده في يدك ليكوننَّ أولى بالقوّة والعِزَّة ولتكوننَّ أولى بالضعف والعجز، [فلا تُعْطِهِ هذه المنزلة فإنها مِن الوهن]،

ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه فإنْ عاقبتَ كنتَ ولي العقوبة وإنْ عفوتَ كان ذلك لك. والله لقد بلغني أنّ الحسين وعمر يتحدّثان عامَّةَ الليل بين العسكرين. فقال ابن زياد: نِعْمَ ما رأيتَ اُخرجْ بهذا الكتاب إلى عمر فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي، فإنْ فعلوا فليبعث بهم إليّ سلمًا، وإنْ أبوا فليقاتِلْهم، وإنْ فعل فاَسمَعْ له وأطِعْ، وإنْ أبىٰ فأنتَ الأميرُ عليه وعلى الناس واَضربْ عنقه وابعثْ إليّ برأسِهِ.

وكتب معه إلى عمر بن سعد: «أمّا بعد، فإنّي لم أبعثْكَ إلى الحسين لتكف عنه، ولا لتمنيه، ولا لتطاوله، ولا لتقعد له عندي شافعًا اُنظرْ فإنْ نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فاَبعثْ بهم إليّ سلمًا، وإنْ أبوا فازحفْ إليهم حتىٰ تقتلهم وتُمَثّل بهم فإنهم لذلك مستحقّون فإنْ قُتِلَ الحسين فأوطئ الخيلَ صَدْرَه وظَهْرَه فإنّه عاقٍ شاق قاطِع ظلوم، فإنْ أنت مضيتَ لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، وإنْ أنتَ أبيت فاعتزلْ جندنا، وخلِّ بين شمر وبين العسكر والسلام».

فلمّا أخذ شمر الكتاب كان معه عبد الله بن أبي المحل بن حزام عند ابن زياد وكانت عمّته أم البنين بنت حزام عند عليّ فولدت له العباس، وعبد الله، وجعفرًا، وعثمان، فقال لابن زياد: إنْ رأيتَ أنْ تكتبَ لبني أختنا أمانًا فاَفعلْ؛ فكتب لهم أمانًا فبعثَ به مع مولى له إليهم، فلما رأوا الكتاب قالوا: «لا حاجةَ لنا في أمانكم! أمانُ الله خيرٌ من أمان ابن سميّة».

فلما أتىٰ شمر بكتاب ابن زياد إلى عمر قال له: ما لَكَ ويلَكَ قبّح الله ما جئتَ به، والله إنّي لأظنُّك أنتَ ثنيته أنْ يقبَلَ ما كنتَ كتبت إليه به. أفسدتَ علينا أمرًا كنّا رجونا أنْ يصلحَ. والله لا يستسلم الحسين أبدًا، والله إنَّ نفسَ أبيه لبين جنبيه. فقال له شمر: ما أنتَ صانع؟ قال: أتولّىٰ ذلك، ونهض إليه عشيةَ الخميس لتسع مضين من المحرم، وجاء شمر فدعا العباس بن عليّ وإخوته فخرجوا إليه فقال: أنتم يا بني أختي آمنون، فقالوا له: لعنك الله ولعنَ أمانك، لَئِنْ كنتَ خالنا أتؤمّننا وابن رسول الله لا أمان له!

ثم ركب عُمر والناسُ معه بعد العصر والحسين جالس أمام بيته محتبيًا بسيفه إذْ خفق برأسه على ركبته وسمعتْ أختُه زينب الضجَّة فدنت منه فأيقظته فرفعَ رأسه، فقال: إنّي رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام فقال: إنّك تروح إلينا، قال: فلطمتْ أخته وجهها وقالت: يا ويلتاه، قال: ليس لك الويل يا أُخيّة اُسكتي رحمك الله. قال له

العباس أخوه: يا أخي أتاك القومُ فنهض، فقال: يا أخي أركبُ بنفسيٍ؟ فقال له العباس: بل أروح أنا؟ فقال: آركب أنت حتى تلقاهم فتقول: ما لكم وما بدا لكم؟ وتسألهم عمّا جاء بهم، فأتاهم في نحو عشرين فارسًا فيهم زهير بن القين فسألهم فقالوا: جاء [أمر] الأمير بكذا وكذا، قال: فلا تعجلوا حتى أرجعَ إلى أبي عبد الله فأعرضَ عليه ما ذكرتم، فوقفوا ورجع العباس إليه بالخبر ووقف أصحابُه يخاطبون القوم، ويذكرونهم الله فلما أخبره العباس بقولهم قال له الحسين: ارجعْ إليهم فإن استطعتَ أنْ تؤخِّرْهم إلى غدوةٍ لعلّنا نصلّي لربّنا هذه الليلة وندعوه ونستغفره فهو يعلم أنّي كنتُ أحبُّ الصلاة له، وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار. وأراد الحسين أيضًا أنْ يوصي أهله فرجع إليهم العباس وقال لهم: انصرفوا عنّا العشية حتى ننظر في هذا الأمر فإذا أصبحنا التقينا إنْ شاء الله، فإمّا رضيناه وإما رددناه. فقال عمر بن سعد: ما ترى يا شمر؟ قال: أنت الأمير، فأقبلَ على الناس فقال: ما تَرون؟ فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدي: سبحان الله، والله لو كان من الديلم ثم سألكم هذه المسألة لكان ينبغي أن تجيبوهم. وقال قيس بن الأشعث بن قيس: أجِبْهم لعمري ليصبحنّك بالقتال غدوة. فقال: لو أعلم أنْ يفعلوا ما أخّرتهم العشيّة، ثم رجع عنهم فجمع الحسين أصحابه بعد رجوع عمر فقال: «أُثني على الله أحسنَ الثناءِ وأحمده على السرّاءِ والضرّاءِ، اللّهمّ إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوّة، وجعلت لنا أسماعًا وأبصارًا وأفئدة، وعلّمتنا القرآن، وفقّهتنا في الدين، فاجعلنا لكَ من الشاكرين. أمّا بعد، فإني لا أعلم أصحابًا أوفىٰ ولا أخير من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ، ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعًا عني خيرًا. ألَا وإنّي لأظن يومنا مِنْ هؤلاء الأعداء غدًا وإنّي قد أذنتُ لكم جميعًا فانطلقوا في حلٍّ ليس عليكم مني ذمام، هذا الليلُ قد غشيكم فاتّخذوه وليأخذْ كل رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي فجزاكم الله جميعًا خيرًا ثم تفرّقوا في البلاد في سوادكم ومدائنكم حتى يُفرّجَ الله، فإنّ القومَ يطلبوني ولو أصابوني لَهَوْا عن طلب غيري»، فقال له إخوته، وأبناؤه، وأبناء إخوته، وأبناء عبد الله بن جعفر: لم نفعل هذا لنبقىٰ بعدك لا أرانا الله ذلك أبدًا، فقال الحسين: يا بني عقيل حسبكم من القتل بمسلم أذهبوا فقد أذِنْتُ لكم، قالوا: وما نقول للناس؟ نقول: تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نَرْم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضربْ بسيف ولا ندري ما صنعوا، لا والله لا نفعل، ولكنا نفديك بأنفسنا، وأموالنا، وأهلينا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبّح الله العيشَ بعدك.

وقام إليه مسلم بن عوسجة الأسدي فقال: أنحن نتخلّى عنك ولم نعذر إلى الله في أداءِ حقّك! أمَا والله لا أفارقك حتى أكْسِرَ في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، والله لو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك.

وتكلّم أصحابه بنحو هذا فجزاهم الله خيرًا، وسمعته أخته زينب تلك العشيّة وهو في خباءٍ له يقول وعنده حُوَى مولى أبي ذرّ الغفاريّ يعالج سيفه:

يـا دهـرُ أُفٍّ لـك مـن خـلـيـلِ كـم لـك بـالإشـراقِ والأَصـيـلِ
مِن صاحبٍ أو طالبٍ قَتيل والـدَّهـرُ لا يـقـنـعُ بـالـبَـدِيـل
وإنّـمـا الأمـرُ إلـى الـجـلـيـل وكـلُّ حَـيٍّ سَـالـكُ الـسـبـيـل

فأعادها مرّتين أو ثلاثًا فلما سمعته لم تملك نفسها أنْ وثبتْ تجرّ ثوبها حتى أنتهتْ إليه ونادتْ: «واثكلاه ليت الموت أعدمني الحياة اليوم، ماتت فاطمة أمي، وعليٌ أبي، وحسن أخي، يا خليفة الماضي وثمال الباقي»، فذهب فنظر إليها وقال: «يا أُخيّة لا يذهبن حلمك الشيطان»، قال: بأبي أنت وأمي استقلت نفسي لنفسك الفداء فردد غصّته وترقرقت عيناه ثم قال: لو ترك القطا [ليلًا] لنام؛ فلطمت وجهها وقالت: واويلتاه، أفتغصبك نفسك اغتصابًا فذلك أفرح لقلبي، وأشدّ على نفسي؛ ثم لطمت وجهها وشقّت جيبها وخرّت مغشية عليها. فقام إليها الحسين فصبَّ الماءَ على وجهها وقال: اتّقي الله وتعزّي بعزاء الله، واعلمي أنّ أهلَ الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، وأنَّ كل شيءٍ هالك إلّا وجه الله، أبي خيرٌ مني، وأمي خيرٌ مني، وأخي خيرٌ مني ولي ولهم ولكل مسلم برسولِ الله أسوة.

فعزّاها بهذا ونحوه وقال لها: يا أُخيّة إنّي أقسم عليك [فأبرّي قسمي] لا تَشُقّي عليَّ جيبًا، ولا تخمشي عليَّ وجهًا، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور إنْ أنا هلكت.

ثم خرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض وأن يدخلوا الأطناب بعضها في بعض ويكونوا بين يدي البيوت، فيستقبلوا القوم من وجهٍ واحد، والبيوت على أيمانهم وعن شمائلهم ومن ورائهم، فلمّا أمسوا قاموا الليل كلّه يصلون ويستغفرون ويتضرّعون ويدعون.

فلما صلّى عمر بن سعد الغداة يوم السبت ـ وقيل: الجمعة ـ يوم عاشوراء، خرج فيمن معه من الناس، وعبّأ الحسين أصحابه وصلّى بهم صلاة الغداة وكان معه

اثنان وثلاثون فارسًا وأربعون راجلًا، فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه، وحبيب بن مظاهر في ميسرتهم وأعطىٰ رايته العباس أخاه وجعلوا البيوت في ظهورهم، وأمر بحطب وقصب فأُلقي في مكان منخفض من ورائهم كأنه ساقية عملوه في ساعة من الليل لئلّا يؤتوا مِنْ ورائهم وأضرم نارًا فنفعهم ذلك، وجعل عمر بن سعد على ربع أهل المدينة عبد الله بن زهير الأزديّ، وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث بن قيس، وعلى ربع مذحج، وأسد عبد الرحمٰن بن أبي سبرة الجعفي، وعلى ربع تميم، وهمدان الحر بن يزيد الرياحي، فشهد هؤلاء كلّهم مقتل الحسين إلّا الحرّ بن يزيد فإنه عدل إلى الحسين وقُتِلَ معه.

وجعل عمر على ميمنته عمرو بن الحجاج الزبيدي، وعلى ميسرته شَمِر بن ذي الجوشن، وعلى الخيل عروة بن قيس الأحمسيّ، وعلى الرجال شبث بن ربعيّ اليربوعي التميميّ، وأعطى الراية دريدًا[1] مولاه، فلما دنوا من الحسين أمر فضرب له فسطاط، ثم أمر بمسك فميث في جفنة، ثم دخل الحسين فاستعمل النورة ووقف عبد الرحمٰن بن عبد ربّه، وبرير بن حصير الهمداني على باب الفسطاط وازدحما أيّهما يطلي بعده فيجعل يزيد يهازل عبد الرحمٰن فقال له: والله ما هذه بساعة باطل، فقال يزيد: والله إنّ قومي لقد علموا أني ما أحببتُ الباطل شابًا ولا كهلًا ولكني مستبشر بما نحن لاقون، والله ما بيننا وبين الحور العين إلّا أنْ يميلَ هؤلاء علينا بأسيافهم.

فلما فرغ الحسين دَخَلَا، ثم ركب الحسين دابّته ودعا بمصحف فوضعه أمامه، واقتتل أصحابه بين يديه فرفع يديه، ثم قال: «اللّهمّ أنت ثقتي في كل كربٍ ورجائي في كل شدّة، وأنت لي في كل أمرٍ نزل بي ثقة وعدّة كم مَنْ همٍّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت به العدوّ أنزلته بك وشكوته إليك، رغبةً إليك عمّن سواك ففرّجته وكشفته وكفيتنيه، فأنت وليُّ كل نعمةٍ وصاحبُ كل حسنةٍ ومنتهى كل رغبةٍ».

فلما رأى أصحاب عمر النار تلتهب في القصب نادى شمر الحسين تعجّلتَ النارَ في الدنيا قبل القيامة.

فعرفه الحسين، فقال: أنتَ أولى بها صليًا، ثم ركب الحسين راحلته وتقدّم إلى الناس ونادىٰ بصوتٍ عالٍ يسمعه كل الناس، فقال: «أيُّها الناس اسمعوا قولي

---

(١) الطبري: ذويدًا مولاه ـ بالذال المعجمة.

ولا تعجلوني حتى أعِظكم بما يجب لكم عليَّ وحتى أعتذر إليكم مِنْ مقدمي عليكم، فإنْ قبلتم عذري وصدقتم قولي وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليَّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون. إنَّ وليِّيَ الله الذي نَزَّلَ الكتابَ وهو يتولّى الصالحين».

قال: فلما سمع أخواته قوله بكين وصِحْنَ وارتفعت أصواتهن فأرسل إليهن أخاه العباس وابنه عليًا ليسكتاهنّ، وقال: «لعمري ليكثرن بكاؤهن»، فلما ذهبا قال: «لا يبعد ابن عباس»، وإنما قالها حين سمع بكاءَهُنَّ لأنّه كان نهاه أن يَخرج بهنّ معه.

فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمّد وعلى الملائكة والأنبياء، وقال ما لا يحصى كثرة فما سمع أبلغ منه، ثم قال:

«أمّا بعد، فانسبوني فأنظروا مَنْ أنا، ثم راجعوا أنفسكم فعاتِبوها، وانظروا هل يصلح ويحلّ لكم قتلي، وأنتهاك حرمتي؟ ألستُ ابن بنت نبيِّكم، وابن وصيِّه، وابن عمّه، وأولى المؤمنين بالله، والمصدق لرسوله! أوَ ليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي؟ أوَ ليس جعفر الشهيد الطيار في الجنّة عمي، أوَ لم يبلغكم قول مستفيضٌ أنّ رسول الله ﷺ قال لي ولأخي: «أنتما سيّدا شباب أهل الجنّة، وقرّة عين أهل السنة»، فإنْ صدقتموني بما أقول وهو الحقّ والله ما تعمّدتُ كذبًا مذ علمتُ أنّ الله يمقتُ عليه، وإنْ كذَّبتموني فإنّ فيكم مَنْ إنْ سألتموه عن ذلك أخبركم، سَلُوا جابر بن عبد الله، أو أبا سعيد، أو سهل بن سعد، أو زيد بن أرقم، أو أنسًا يخبروكم أنّهم سمعوه من رسول الله ﷺ، أمَا في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي؟»

فقال شمر ـ وهو يعبد الله على حرف ـ: إنْ كان يدري ما يقول، فقال له حبيب بن مطهر[1]: والله إني أراكَ تعبدُ الله على سبعين حرفًا، وإنَّ الله قد طبع على قلبك فلا تدري ما تقول، ثم قال الحسين: فإنْ كنتم في شكٍّ مما أقول أو تشكّون في أنّي ابن بنت نبيِّكم فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري منكم ولا من غيركم، أخبروني أتطلبوني بقتيلٍ منكم قتلتُه، أو بمالٍ لكم استهلكته، أو قصاص مِنْ جراحة! فلم يكلّموه، فنادىٰ: يا شبث بن رِبعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن

---

(١) الطبري: ابن مظاهر ـ وهكذا في كل موضع يأتي ذكر اسمه.

الأشعث، ويا زيد بن الحارث ألم تكتبوا إليّ في القدوم عليكم؟ قالوا: لم نفعل، ثم قال: بلىٰ [والله لقد] فعلتم؛ ثم قال: أيها الناس إذْ كرهتموني فدَعُوني أنصرف إلى مأمني من الأرض، قال: فقال له قيس بن الأشعث: أوَلَا تنزل على حُكم ابن عَمِّك ـ يعني ابن زياد ـ فإنّك لن ترىٰ إلّا ما تحب؟ فقال له الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عَقِيل؟ لا والله ولا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبد، عبادَ الله إني عذتُ بربّي وربكم أنْ ترجموني، أعوذُ بربي وربكم مِنْ كل متكبّرٍ لا يؤمنُ بيومِ الحساب.

ثم أناخ راحلته ونزل عنها، وخرج زهير بن القين على فرسٍ له في السلاح فقال: يا أهلَ الكوفة، نذار لكم من عذابِ الله نذار، إنّ حقًّا على المسلم نصيحة المسلم، ونحن حتى الآن إخوة على دينٍ واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، [وأنتم للنصيحة منّا أهل]، فإذا وقع السيفُ انقطعت العصمةُ وكنا نحن أمة وأنتم أمّة إنّ الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيّه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلى نصرهِ وخذلانِ الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا سوءًا يسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أمثالكم وقرّاءكم أمثال حُجر بن عدي وأصحابه، وهانئ بن عروة، وأشباهه. قال: فسبُّوه، وأثنوا على ابن زياد، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومَن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله بن زياد سلمًا. فقال لهم: يا عبادَ الله إن ولد فاطمة [رضوان الله عليها] أحقّ بالودّ والنصر من ابن سمية، فإن كنتم لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم خَلّوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية، فلعمري إنّ يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قَتل الحسين، فرماه شمر بسهم وقال: أسكتْ أسكت الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك. فقال زهير: يا ابن البوّال على عقبيه ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، وأبشر بالخزي يوم القيامة، والعذاب الأليم. فقال شمر: إنّ الله قاتِلك وصاحبك عن ساعة، قال: أفبالموت تخوّفني والله للموتُ معه أحبّ إليّ من الخلدِ معكم، ثم رفع صوته وقال: عبادَ الله لا يغرنّكم من دينكم هذا الجلف الجافي، فوالله لا تنال شفاعة محمد قومًا أهرقوا دماءَ ذرّيته، وأهل بيته، وقتلوا مَنْ نصرهم، وذَبّ عن حريمهم، فأمره الحسين فرجع.

ولما زحف عمر نحو الحسين أتاه الحرّ بن يزيد فقال له: أصلحك الله أمُقاتلٌ أنت هذا الرجل؟ قال له: أي أي والله قتالاً أيسره أنْ تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي.

قال: أفما لكم في واحدةٍ من الخصالِ التي عَرَضَ عليكم رِضًا؟ فقال عمر بن سعد: والله لو كان الأمر إليَّ لفعلتُ لكن أميرك قد أبى ذلك.

فأقبل يدنو نحو الحسين قليلاً قليلاً وأخذته رعدة، فقال له رجل من قومه يقال له المهاجر بن أوس: والله إنَّ أمرك لمريب، والله ما رأيتُ منك في موقفٍ قطّ مثل ما أراه الآن، ولو قيل: مَنْ أشجع أهل الكوفة؟ لما عدوتُك. فقال له: إني والله أُخَيِّرُ نفسي بين الجنّة والنار ولا أختارُ على الجنة شيئًا ولو قُطِّعْتُ وحُرِّقْتُ. ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين فقال له: جعلني الله فداك يا ابن رسول الله أنا صاحِبُك الذي حبستُك عن الرجوع، وسايرتُك في الطريق، وجعجعتُ بك في هذا المكان، ووالله [الذي لا إلٰه إلا هو] ما ظننتُ أن القوم يردّون عليك ما عرضتَ عليهم أبدًا ولا يبلغون منك هذه المنزلة أبدًا، فقلت في نفسي: لا أبالي أنْ أطيعَ القوم في بعض أمرهم ولا يرون أني خرجتُ من طاعتهم، وأمّا هم فيقبلون بعض ما تدعوهم إليه، ووالله لو ظننتُ أنهم لا يقبلونَها منك ما رَكِبْتُها منك، وإني قد جئتُك تائبًا مما كان مني إلى ربّي مُواسيًا لك بنفسي حتى أموت بين يديك أفترى ذلك توبة؟ قال: نعم، يتوبُ الله عليك ويغفر لك، وتقدّم الحرّ أمام أصحابه ثم قال: أيها القوم ألا تقبلون من الحسين خَصْلةً مِنْ هذه الخصال التي عَرَضَ عليكم فيعافيكم الله من حَرْبِهِ وقتاله؟ فقال عمر: لقد حرصتُ لو وجدتُ إلى ذلك سبيلاً.

فقال: «يا أهل الكوفة لأمِّكُم الهبل والعُبْر، أدعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه! وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه! أمسكتم بنفسه وأحطتم به ومنعتموه من التوجّه في بلادِ الله العريضة حتى يأمَن ويأمَن أهلُ بيته فأصبح كالأسير لا يملكُ لنفسه نفعًا ولا يدفع عنها ضُرًّا، ومنعتموه ومَنْ معه عن ماء الفرات الجاري يشربه اليهودي، والنصرانيّ، والمجوسيّ ويتمرّغ فيه خنازير السواد وكلابه وها هو وأهله قد صرعهم العطش! بئسما خلفتم محمدًا في ذريته لا سقاكم الله يومَ الظمأ إنْ لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه»، فرموه بالنَّبل فرجع حتى وقف أمام الحسين.

ثم قَدِمَ عمر بن سعد برايته وأخذ سهمًا فرمى به وقال: «اشهدوا لي أني أوّل رام» ثم رمى الناس، وبرز يسار مولى زياد، وسالم مولى عبيد الله وطلبا البراز فخرج إليهما عبد الله بن عمير الكلبيّ ـ وكان قد أتى الحسين من الكوفة وسارت معه امرأته ـ فقالا له: مَنْ أنت؟ فانتسب لهما فقالا: لا نعرفُك، ليخرج إلينا زهير بن القين، أو حبيب بن مطهر، أو برير بن خضير، وكان يسار أمام سالم، فقال له الكلبي: «يا ابن

الزانية وبك رغبة عن مبارزة أحدٍ من الناس! ولا يخرج إليك أحدٌ إلا وهو خير منك»، ثم حمل عليه فضربه بسيفه حتى برد فاشتغل به يضربه فحمل عليه سالم فلم يأبه له حتى غشيه فضربه فاتّقاه الكلبيّ بيده فأطار أصابع كفّه اليسرى، ثم مال عليه الكلبي فضربه حتى قتله، وأخذت امرأته عمودًا وكانت تسمى «أُم وهب»، وأقبلت نحو زوجها وهي تقول: «فداك أبي وأمي قاتِل دون الطيبين ذرية محمد»، فردَّها نحو النساء فامتنعتْ وقالت: لن أدعك دون أنْ أموت معك فناداها الحسين فقال: جُزيتُم مِنْ أهل بيت خيرًا ارجعي رَحِمَكِ الله، ليس الجهادُ إلى النساء فرجعت.

فزحف عمرو بن الحجاج في ميمنة عمر، فلمّا دنا من الحسين جثوا له على الرّكب وأشرعوا الرماح نحوهم، فلم تقدم خيولهم على الرماح، فذهبتْ الخيلُ لترجع فرشقوهم بالنّبل فصرعوا منهم رجالاً، وجرحوا آخرين، وتقدم رجلٌ منهم يقال له: «ابن حوزة» فقال: أفيكم الحُسَيْن؟ فلم يجبه أحد، فقالها ثلاثًا فقالوا: نعم، فما حاجتك؟ قال: يا حسين أبشرْ بالنار، قال له: كذبتَ بل أقدَمُ على ربٌ رحيم، وشفيع مُطاع، فمن أنت؟ قال: ابن حوزة.

فرفع الحسين يديه فقال: اللّهمّ حُزْه إلى النار، فغضب ابن حوزة فأقحم فرسه في نهرٍ بينهما فتعلقتْ قدمُه بالركاب وجالت به الفرس فسقط عنها فانقطعتْ فَخِذُه وساقُه وقدمه وبقي جنبه الآخر متعلقًا بالركاب يضرب به كل حجر وشجر حتى مات.

وكان مسروق بن وائل الحضرمي قد خرج معهم، وقال: لعلّي أُصيب رأسَ الحسين فأُصيبُ به منزلةً عند ابن زياد، فلما رأى ما صنع الله بابن حوزة بدعاء الحسين رجع وقال: «لقد رأيتُ مِن أهل هذا البيت شيئًا لا أقاتلهم أبدًا».

ونشب القتال، وخرج يزيد بن معقل حليف عبد القيس، فقال: يا برير بن خضير كيف ترى الله صنع بك؟ قال: والله لقد صنع بي خيرًا وصنع بك شرًا، فقال: كذبتَ وقبل اليوم ما كنتَ كذابًا، وأنا أشهدُ أنّك من الضالّين. فقال له ابن خضير: هل لك أن أباهلَك أن يلعنَ الله الكاذبَ، ويقتلَ المُبْطل ثم أخرج أُبارزك؟ فخرجا فتباهلا أنْ يلعنَ الله الكاذب، ويقتلَ المُحِقُّ المبطل، ثم تبارزا فاختلفا ضربتين فضرب يزيد بن معقل برير بن خضير فلم يضرّه شيئًا، وضربه ابن خضير ضربةً قدّتْ المغفر، وبلغتْ الدماغ، فسقط والسيفُ في رأسه، فحمل عليه «رضي بن منقذ العبديّ»، فاعتنق ابن خضير فاعتركا ساعة ثم إنّ ابن خضير قعد على صدره فحمل كعب بن جابر الأزدي عليه بالرمح فوضعه في ظهره حتى غَيَّبَ السنانَ فيه، فلما وجد مسَّ

الرمح نزل عن رضي فعضّ أنفه وقطع طرفه، وأقبل إليه كعب بن جابر فضربه بسيفه حتى قتله، وقام رضي ينفض التراب عن قِبائه، فلما رجع كعب قالت له امرأته: «أعنتَ على ابن فاطمة وقتلتَ بريرًا سَيِّدَ القرّاء! لا أُكلمك أبدًا».

وخرج عمرو بن قرظة الأنصاريّ وقاتل دون الحسين فقُتل، وكان أخوه مع عمر بن سعد فنادى: «يا حسين، يا كذاب ابن الكذاب أضْللتَ أخي وغررتَه حتى قتلتَه».

فقال: إنّ الله لم يضلّ أخاك بل هداه وأضلّك، قال: قتلني الله إنْ لم أقتلك أو أموت دونك فحمل، واعترضه نافع بن هلال المراديّ فطعنه فصرعه، فحمل أصحابه فاستنقذوه [فدُووِي بعدُ] فبَرَأ.

وقاتل الحرّ بن يزيد مع الحسين قتالاً شديدًا، وبرز إليه يزيد بن سفيان فقتله الحرّ، وقاتل نافع بن هلال مع الحسين أيضًا فبرز إليه مزاحم بن حريث فقتله نافع، فصاح عمرو بن الحجاج بالناس: أتدرونَ مَنْ تقاتلون؟ فرسان المصر قومًا مُستميتين لا يبرز إليهم منكم أحدٌ فإنهم قليل وقلّما يبقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم، يا أهل الكوفة الزموا طاعتكم وجماعتكم لا ترتابوا في قتل مَنْ مَرَقَ من الدّين وخالف الإمام. فقال عمر: الرأي ما رأيتَ، ومنع الناس من المبارزة، قال: وسمعه الحسين فقال: يا عمرو بن الحجاج أعليَّ تحرّضُ الناسَ؟! أنحنُ مرقنا من الدّين أم أنتم! والله لتعلمن لو قبضت أرواحكم ومُتُّم على أعمالكم أيّنا المارق؟.

ثم حمل عَمرو بن الحجاج على الحسين مِن نحو الفرات فاّضطربوا ساعةً فصُرِع مسلم بن عوسجة الأسديّ وانصرف عمرو، ومسلم صريع فمشى إليه الحسين وبه رَمَق فقال: رَحِمك الله يا مسلم بن عوسجة ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ودَنا منه حبيب بن مطهر وقال: عَزّ عليَّ مصرعُك أبشِر بالجنّة، ولولا أنّي أعلم أنّني في أثرك لاحِق بك لأحببتُ أنْ توصيني حتى أحفظك بما أنت له أهل.

فقال: أُوصيك بهذا رحمك الله. وأومأ بيده نحو الحسين أنْ تموت دونه فقال: أفعلُ، ثم مات مسلم، وصاحت جاريةٌ له فقالت: «يا ابن عوسجة»، فنادى أصحابُ عمرو: «قتلنا مسلمًا»، فقال شبث لبعض مَنْ حوله: ثكلتكم أمّهاتكم إنما تقتلون أنفسكم بأيديكم وتذلّون أنفسكم لغيركم أتفرحون بقتل مثل مسلم، أما والذي أسلمتُ

له لرُبَّ موقف له قد رأيتُه في المسلمين فقد رأيته يوم سلق أذربيجان قتل ستة من المشركين قبل أنْ تنام خيول المسلمين، أفيُقْتَلُ مثله وتفرحون؟

وكان من الذين قتلهم مسلم بن عبد الله الضبابي، وعبد الرحمٰن بن أبي خشكارة البجليّ.

وحمل شمر في الميسرة فثبتوا له، وحملوا على الحسين وأصحابه من كل جانب فقُتل الكلبيّ وقد قتل رجلين بعد الرجلين الأولين. وقاتل قتالاً شديدًا فقتله هانئ بن ثبيت الحضرمي، وبكير بن حي التيمي من تيم الله بن ثعلبة، وقاتل أصحاب الحسين قتالاً شديدًا وهم اثنان وثلاثون فارسًا، فلم تحمل على جانب من خيل الكوفة إلّا كشفته، فلما رأى ذلك عروة بن قيس ـ وهو على خيل الكوفة ـ بعث إلى عمر فقال: ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة! ابعث إليهم الرجال والرّماة. فقال لشبث بن ربعي: ألا تقدم إليهم؟ فقال: سبحان الله شيخ مضر وأهل المصر عامة تبعثه في الرماة! لم تجد لهذا غيري! ولم يزالوا يرون من شبث الكراهة للقتال حتى أنه كان يقول في إمارة مصعب: لا يعطي الله أهلَ هذا المصر خيرًا أبدًا، ولا يسددهم لرشد. ألا تعجبون أنّا قاتلنا مع عليّ بن أبي طالب ومع ابنه الحسن آل أبي سفيان خمس سنين ثم عَدَوْنا على ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتِله مع آل معاوية، وابن سُمَيَة الزانية، ضلال يا لك مِن ضلال!

فلما قال شبث ذلك دعا عمر بن سعد الحصين بن نمير، فبعث معه المجففة وخمسمائة من المرامية، فلما دنوا من الحسين وأصحابه رشقوهم بالنّبل، فلم يلبثوا أن عقروا خيولهم وصاروا رجالة كلهم، وقاتل الحرّ بن يزيد راجلًا قتالاً شديدًا فقاتلوهم إلى أن انتصف النهار أشد قتال خلقه الله لا يقدرون أن يأتوهم إلا من وجهٍ واحد لاجتماع مضاربهم، فلما رأى ذلك عمر أرسل رجالاً يقوّضون البيوت عن أيمانهم وشمائلهم ليحيطوا بهم، فكان النفر من أصحاب الحسين الثلاثة والأربعة يتخلّلون البيوت فيقتلون الرجل وهو يقوّض وينهب ويرمونه من قريب أو يعقرونه، فأمر به عمر بن سعد فأحرقت، فقال لهم الحسين: دعوهم فليحرقوها فإنّهم إذا أحرقوها لا يستطيعون أنْ يجوزوا إليكم منها، فكان كذلك.

وخرجت امرأة الكلبي [تمشي إلى زوجها] فجلستْ عند رأسه تمسح التراب عن وجهه وتقول: «هنيئًا لك الجنّة»، فأمر شمر غلامًا اسمه رستم فضرب رأسها بالعمود [فشدخه] فماتت مكانها.

وحمل شمر حتى بلغ فسطاط الحسين ونادى: عليَّ بالنار حتى أُحرق هذا البيت على أهله، فصاحت النساء وخرجْنَ، وصاح به الحسين: «أنت تحرق بيتي على أهلي أحرقَكَ الله بالنار».

فقال حميد بن مسلم لشمر: إنّ هذا لا يصلح تعذب بعذاب الله وتقتل الولدان والنساء! والله إنّ في قتل الرجال لَمَا يرضى به أميرُك. فلم يقبل منه، فجاءه شيث بن ربعيّ فنهاه فانتهى، وذهب لينصرف فحمل عليه زهير بن القين في عشرة فكشفهم عن البيوت وقتلوا أبا عزة الضبابيّ وكان من أصحاب شمر، وعطف الناسُ عليهم فكثروهم، وكانوا إذا قُتل منهم الرجل والرجلان يبين فيهم لقلّتهم، وإذا قُتل في أولئك لا يبين فيهم لكثرتهم.

ولما حضر وقت الصلاة قال أبو ثمامة الصائديّ للحسين: نفسي لنفسك الفداء أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، والله لا تُقتل حتى أُقْتَل دونك، وأحب أن ألقى ربي وقد صلّيتُ هذه الصلاة [التي قد دنا وقتُها] فرفع الحسينُ رأسَه وقال: ذكرتَ الصلاة جعلك الله من المصلّين الذّاكِرين، نعم هذا أول وقتها، ثم قال: سَلوهم أنْ يكفّوا عنا حتى نصلّي ففعلوا، فقال لهم الحصين: إنّها لا تُقبل.

فقال له حبيب بن مطهر: زعمتَ أنْ لا تُقبل الصلاة مِنْ آل رسولِ الله ﷺ وتُقْبل منك يا حمار، فحمل عليه الحصين وخرج إليه حبيب فضرب وجه فرسه بالسيف فشبّ فسقط عنه الحصين فاستنقذه أصحابُه، وقاتل حبيب قتالاً شديدًا فقَتَلَ رجلاً مِنْ بني تميم اسمه بديل بن صريم، وحمل عليه آخر من تميم فطعنه فذهب ليقوم فضربه الحصين على رأسه بالسيف، فوقع ونزل إليه التميميّ فاحتزّ رأسه، فقال له الحصين: أنا شريكك في قتله.

فقال الآخر: لا والله، فقال له الحصين: أعطنيه أعلقه في عنق فرسي كيما يرى الناسُ أنّي شركتُ في قتله، ثم خذه وأَمضِ به إلى ابن زياد فلا حاجة لي فيما تعطاه. ففعل، وجال به في الناس ثم دفعه إليه، فلما رجعوا إلى الكوفة أخذ الرأس وجعله في عنق فرسه ثم أقبل به إلى ابن زياد في القصر، فبصر به القاسم بن حبيب وقد راهق فأقبل مع الفارس لا يفارقه، فارتاب به الرجل فسأله عن حاله فأخبره وطلب الرأس ليدفنه فقال: إنّ الأمير لا يرضى أنْ يُدفن وأرجو أن يثيبني الأمير.

فقال له: لكن الله لا يثيبك إلّا أسوأ الثواب، ولم يزل يطلب غرة قاتل أبيه حتى كان زمان مصعب، وغزا مصعب باخميرا دخل القاسم عسكره فإذا قاتل أبيه في فسطاطِهِ، فدخل عليه نصف النهار فقتله.

فلما قتل حبيب هدّ ذلك الحسين، وقال عند ذلك: أحتسبُ حماة أصحابي، وحمل الحرّ وزهير بن القين فقاتلا قتالاً شديدًا، وكان إذا حمل أحدهما وغاص فيهم حمل الآخر حتى يخلّصه فَعَلَا ذلك ساعة، ثم إن رجاله حملتْ على الحرّ بن يزيد فقتلته، وقتل أبو ثمامة الصائدي ابن عمٍّ له كان عدوّه.

ثم صلّوا الظهر صلّى بهم الحسين صلاةَ الخوف، ثم اقتتلوا بعدَ الظهر فاشتدّ قتالهم، ووصلوا إلى الحسين فاستقدم الحنفيّ أمامه فاستهدف لهم يرمونه بالنبل وهو بين يديه حتى سقط، وقاتل زهير بن القيم قتالاً شديدًا، فحمل عليه كثير بن عبيد الله الشعبي ومهاجر بن أوس فقتلاه.

وكان نافع بن هلال البجلي قد كتب اسمه على فوق نبلة وكانت مسمومة فقتل بها اثني عشر رجلاً سوى مَن جرح، فضرب حتى كسرتْ عضداه وأُخذ أسيرًا فأخذه شمر بن ذي الجوشن فأتى به عمر بن سعد ـ والدم على وجهه ـ وهو يقول: لقد قتلتُ منكم اثني عشر رجلاً سوى مَنْ جَرَحْتُ ولو بقيتُ لي عضدٌ وساعد ما أسرتموني، فانتضى شمر سيفه ليقتله، فقال له رافع: والله لو كنتَ من المسلمين لعظم عليك أنْ تلقىٰ الله بدمائِنا، فالحمدُ لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه، فقتله شمر.

ثم حمل على أصحاب الحسين فلما رأوا أنهم قد كثروا وأنهم لا يقدرون أنْ يمنعوا الحسين ولا أنفسهم تنافسوا أن يُقْتَلُوا بين يديه، فجاء عبد الله وعبد الرحمٰن ابنا عروة الغِفَاريّان إليه فقالا: قد حازنا الناسُ إليك فجعلا يقاتِلان بين يديه، وأتاه الفتيان الجابريان وهما سيف بن الحارث بن سريع، ومالك بن عبد بن سريع وهما ابنا عمّ وأخوان لأمٍّ وهما يبكيان، فقال لهما: ما يبكيكما؟ إني لأرجو أنْ تكونوا عن ساعة قريري عين، فقالا: واللهِ ما على أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك، نراك قد أُحيطَ بك ولا نقدر أنْ نمنعك.

فقال: جزاكما الله جزاء المتّقين.

وجاء حنظلة بن أسعد الشبامي فوقف بين يدي الحسين وجعل ينادي: «يا قوم إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وعَادٍ وَثَمُودِ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ

وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ، يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ الله مِنْ عَاصِمٍ، وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»، يا قوم لا تقتلوا الحسين فيسحتكم الله بعذابٍ، وقد خابَ مَنِ افترىٰ.

فقال له الحسين: رحمك الله إنهم قد استوجبوا العذابَ حين ردُّوا ما دعوتهم إليه من الحقّ، ونهضوا ليستبيحوك وأصحابك فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين.

فسلَّم على الحسين وصلّى عليه، وعلى أهل بيته وتقدَّم وقاتل حتى قُتِل.

وتقدَّم الفَتَيان الجابريان فودَّعا الحسين، وقاتلا حتى قُتِلَا.

وجاء عابس بن أبي شبيب الشاكريّ وشوذب مولىٰ شاكر إلى الحسين فسلَّما عليه، وتقدَّما فقاتَلا فقُتِل شوذب، وأمّا عابس فطلب البراز فتحاماه الناس لشجاعته، فقال لهم عمر: ارموه بالحجارة فرموه من كل جانب، فلما رأى ذلك ألقىٰ درعه ومغفره وحمل على الناس فهزمهم بين يديه، ثم رجعوا عليه فقتلوه وادّعىٰ قتله جماعة.

وجاء الضحاك بن عبد الله المشرفي[1] إلى الحسين، فقال: يا بن رسول الله، قد علمتَ إني قلتُ لك إني أقاتلُ عنك ما رأيتُ مقاتلاً فإذا لم أرَ مقاتلاً فأنا في حِلٍّ من الانصراف، فقال له الحسين: صدقتَ، وكيف لك بالنجاة؟ إنْ قدرتَ عليك فأنت في حلٍّ. قال: فأقبلتُ إلى فرسي وكنتُ قد تركتُه في خباء حيث رأيتُ خيل أصحابنا تُعقر وقاتلتُ راجلاً وقتلتُ رجلين وقطعتُ يد آخر، ودعا إلى الحسين مرارًا قال: واستخرجتُ فرسي واستويتُ عليه، وحملتُ على عرض القوم فأفرجوا لي وتبعني منهم خمسة عشر رجلاً، ففُتُّهم وسَلِمْتُ.

وجثا أبو الشعثاء الكنديّ ـ وهو يزيد بن أبي زياد ـ بين يدي الحسين فرمىٰ بمائة سهم ما سقط منها خمسة أسهم، وكلما رمىٰ يقول له الحسين: «اللّهمّ سدِّدْ رمْيَتَه، واجعل ثوابه الجنّة». وكان يزيد هذا فيمن خرج مع عمر بن سعد فلمّا ردوا الشروط على الحسين عدل إليه فقاتل بين يديه وكان أوّل مَنْ قُتِل. وأمّا الصيداوي عمرو بن خالد، وجبار بن الحارث السلماني، وسعد مولى عمرو بن خالد، ومجمع بن عبيد الله العائذيّ، فإنّهم قاتلوا أوّل القتال، فلما وغلوا فيهم عطفوا إليهم فقطعوهم عن

---

(١) الطبري: المشرقي ـ بميم مكسورة وشين معجمة آخره قاف.

أصحابهم، فحمل العباس بن علي فاستنقذهم وقد جُرِحُوا فلما دنا منهم عدوَّهم حملوا عليهم فقاتلوا، فقتلوا في أوّل الأمرِ في مكانٍ واحد.

وكان آخر مَنْ بَقِيَ من أصحاب الحسين سويد بن أبي المطاع الخثعميّ.

وكان أوّل مَنْ قُتِل من آل بني أبي طالب يومئذٍ عليّ الأكبر بن الحسين وأمّه ليلىٰ بنت أبي مُرّة بن عروة بن مسعود الثقفية، وذلك أنّه حمل عليهم وهو يقول:

أَنَا عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ بْن عَلِيّ نحنُ وَرَبِّ الْبَيْتِ أَوْلَىٰ بالنبيّ
تَالله لَا يَحْكُمُ فِينَا ابن الدَّعِيّ

ففعل ذلك مرارًا فحمل عليه مرة بن منقذ العبدي فطعنه فصُرع، وقطعه الناس بسيوفهم، فلما رآه الحسين قال: «قَتَلَ اللهُ قومًا قتلوك يا بني ما أجرأهم على الله وعلى انتهاكِ حرمةِ الرسول، على الدنيا بعدك العفاء»، وأقبلَ الحسين إليه ومعه فتيانه فقال: «احملوا أخاكم»، فحملوه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتِلون أمامه، ثم إنّ عمرو بن صبيح الصدائي رمى عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهمٍ فوضع كَفَّه على جبهته فلم يستطع أنْ يحرِّكَهَا، ثم رماه بسهمٍ آخر فقتله.

وحمل الناسُ عليهم من كل جانب، فحمل عبد الله بن قطبة الطائي على عون بن عبد الله بن جعفر فقتله، وحمل عثمان بن خالد بن أسير الجهني، وبشر بن سوط الهمداني على عبد الرحمٰن بن عقيل بن أبي طالب فقتلاه، ورمى عبد الله بن عروة الخثعمي جعفر بن عقيل فقتله، ثم حمل القاسم بن الحسن بن عليّ وبيده السيف فحمل عليه عمرو بن سعد بن نفيل الأزديّ فضرب رأسه بالسيف فسقط القاسم إلى الأرض لوجهه وقال: «يا عمّاه»، فانقضَّ الحسينُ إليه كالصقر ثم شَدَّ شَدَّةَ لَيْثٍ أُغْضِبَ فضرب عَمْرًا بالسيف، فاتّقاه بيده فقطع يَدَهُ مِنَ المرفق فصاحَ، وحملت خيلُ الكوفة ليستنقذوا عَمْرًا فاستقبلته بصدورها وجالَتْ عليه فوطِئَتْه حتى مات.

وانجلت الغَبَرَة والحسينُ واقف على رأس القاسم وهو يفحص برجليه والحسين يقول:

«بُعْدًا لقومٍ قَتَلُوك، ومَنْ خَصْمُهُم يوم القيامة فيك جدك»، ثم قال: «عَزَّ واللهِ على عَمِّكَ أنْ تَدْعُوَه فلا يجيبك أو يجيبك ثم لا ينفعك صوتُه، والله هذا يومٌ كَثُرَ واتِرُه وقَلَّ نَاصِرُهُ».

ثم احتمله على صدره حتى ألقاه مع ابنه عليّ ومَنْ قُتِلَ معه مِن أهل بيته، ومكث الحسينُ طويلاً من النهار كلما انتهى إليه رجلٌ من الناس رجعَ وكَرِهَ أن يتولّى قَتْلَه وعِظَمَ إثمه، ثم إنّ رجلاً مِنْ كندة يقال له: «مالك بن النسير» أتاه فضربه على رأسِهِ بالسيف فقطع البرنس وأدمئ رأسه، وامتلأ البرنُس دمًا، فقال له الحسين: «لا أكلتَ بها ولا شربت، وحشرك الله مع الظالمين»، وألقى البرنس، ولبس القلنسوة، وأخذ الكنديّ البرنس فلما قَدِمَ على أهله أخذ البرنس يغسل الدم عنه، فقالت له امرأته: «أسلب ابن رسول الله تُدْخِلُ بيتي! أخرجه عني»، قال: فلم يزل ذلك الرجل فقيرًا بشَرٍّ حتى مات.

ودعا الحسين بابنه عبد الله وهو صغير فأجلسه في حجره فرماه رجلٌ من بني أسد فذبحه، فأخذ الحسين من دمه فصبّه في الأرض، ثم قال:

«رَبِّ إنْ تَكُنْ حَبَسْتَ عَنَّا النصرَ مِنَ السَّماءِ فاجعلْ ذلك لما هو خير، وانتقم مِنْ هٰؤلاء الظالمين».

ورمى عبد الله بن عقبة الغنوي أبا بكر بن الحسين بن علي بسهم، فَقَتَلَهُ.

وقال العباس بن عليّ لإخوته من أُمّه: عبد الله، وجعفر، وعثمان: «تقدّموا حتى أَرِثَكُمْ فإنّه لا ولد لكم»، ففعلوا فقُتِلُوا.

وحمل هانئ بن ثبيت الحضرميّ على عبد الله بن علي فقتله، ثم حمل على جعفر بن علي فقتله، ورمى خولي بن يزيد الأصبحي عثمان بن علي، ثم حمل عليه رجل من بني أبان بن دارم فقتله وجاء برأسه، ورمى رجلٌ من بني أبان أيضًا محمد بن عليّ بن أبي طالب فقتله، وجاء برأسه.

وخرج غلامٌ من خباءٍ من تلك الأخبية فأخذ بعودٍ من عيدانه وهو ينظر كأنه مذعور، فحمل عليه رجل قيل: إنه هانئ بن ثبيت الحضرميّ، فقتله.

واشتدّ عطش الحسين فدنا من الفرات ليشرب فرماه حصين بن نمير بسهم فوقع في فمه، فجعل يتلقّى الدم بيده ورمى به إلى السماء، ثم حمد الله وأثنى علّيه ثم قال:

«اللّهمّ أشكو إليك ما يُصْنَعُ بابنِ بنتِ نبيِّك، اللّهمّ أحْصِهِمْ عَدَدًا، واقْتُلْهُمْ بَدَدًا، ولا تُبْقِ منهم أحدًا».

وقيل: الذي رماه رجلٌ من بني أبان بن دارم فمكث ذلك الرجل يسيرًا ثم صبَّ الله عليه الظمأ فجعل لا يُرويٰ، فكان يروح عنه ويبرد له الماء فيه السكر وعساس فيها

اللبن، ويقول: أسقوني، فيُعطى القُلَّة أو العسّ فيشربه فإذا شربه اضطجع هنيهة ثم يقول: «أسقوني قتلني الظمأ»، فما لبث إلَّا يسيرًا حتى انقدتْ بطنه انقداد بطن البعير.

ثم إنّ شمر بن ذي الجوشن أقبل في نفرٍ نحوَ عشرة مِنْ رجالهم نحو منزل الحسين، فحالوا بينه وبين رحله، فقال لهم الحسين:

ويلكم إنْ لم يكن لكم دين ولا تخافون يوم المعاد فكونوا أحرارًا ذوي أحساب، أمنعوا رحلي وأهلي مِنْ طُغاتِكم وجُهَّالكم، فقالوا: ذلك لك يا بن فاطمة.

وأقدم عليه شمر برجاله منهم أبو الجنوب واسمه عبد الرحمٰن الجعفي، والقشعم بن نذير الجعفي[١]، وصالح بن وهب اليزني، وسنان بن أنس النخعي، وخوليّ بن يزيد الأصبحي، وجعل شمر يحرِّضهم على الحسين وهو يحمل عليهم فينكشفون عنه، ثم إنهم أحاطوا به وأقبل إلى الحسين غلامٌ من أهله فقام إلى جنبه، وقد أهوى بحر بن كعب بن تيم الله بن ثعلبة إلى الحسين بالسيف، فقال الغلام: «يا بن الخبيثة أتقتلُ عمّي؟» فضربه بالسيف فاتّقاه الغلام بيده فأطنَّها إلى الجلدة[٢]، فنادىٰ الغلام؛ «يا أُمّتاه»، فاعتنقه الحُسينُ وقال له: «يا بن أخي أصبرْ على ما نزلَ بك فإنّ الله يلحقك بآبائك الطاهرين الصالحين برسول الله ﷺ وعليّ، وحمزة، وجعفر، والحسن»

وقال الحسين: «اللّهمّ أمسك عنهم قطر السماء، وأمنعهم بركات الأرض، اللّهمّ فإنْ متعتهم إلى حين ففرِّقْهم فرقًا، واجعلهم طرائق قددًا، ولا ترضِ عنهم الولاة أبدًا، فإنهم دَعونَا لينصرونا فعدوا علينا فقتلونا».

ثم ضارب الرجالة حتى انكشفوا عنه.

ولما بَقِيَ الحسين في ثلاثة أو أربعة دعا بسراويل ففزره ونكثه لئلّا يسلبه، فقال بعضهم: لو لبستَ تحته التبان، قال: ذلك ثوب مَذَلَّة ولا ينبغي [لي] أنْ ألبسه، فلما قُتل سلبه بحر بن كعب، وكانت يداه في الشتاء تنضحان بالماء وفي الصيف تيبسان كأنهما عود.

وحمل الناسُ عليه عن يمينه وشماله، فحمل على الذين عن يمينه فتفرّقوا ثم حمل على الذين عن يساره فتفرّقوا، فما رُئِيَ مكثورٍ قطّ قد قُتل ولده، وأهل بيته،

---

(١) الطبري: والقشعم بن عمرو بن يزيد الجعفيّ.

(٢) الطبري: فاطنها إلّا الجلدة، فإذا يده معلقة.

وأصحابه أربط جأشًا منه، ولا أمضىٰ جنانًا ولا أجرًا مقدَمًا منه، إنْ كانت الرجالة لتنكشف عن يمينه وشماله انكشافَ المعزى إذا شَدَّ فيها الذئب، فبينما هو كذلك إذْ خرجت زينب وهي تقول: ليتَ السماء انطبقَتْ على الأرض ـ وقد دنا عمر بن سعد ـ فقالت: يا عمر أيُقْتَلُ أبو عبد الله وأنت تنظرُ [إليه]!

فدمعتْ عيناه حتى سالَتْ دموعه على خَدَّيْه ولحيته وصرف وجهه عنها.

وكان على الحسين جُبَّة من خُزٍّ وكان معتمًا مخضوبًا بالوسمة وقاتل راجلًا قتال الفارس الشجاع يتّقي الرمية، ويفترص العورة، ويشدّ على الخيل، وهو يقول:

أعلى قتلي تجتمعون! أمَا والله لا تَقْتُلُونَ بعدي عبدًا مِنْ عبادِ الله أسخط عليكم لقتله مني. وأيم الله إنّي لأرجو أن يكرمني الله بهوانِكم ثم ينتقمَ لي منكم من حيثُ لا تشعرون.

«أمَا والله لو قتلتموني لألقىٰ الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعفَ لكم العذابَ الأليم»، قال:

ومكث طويلًا من النهار ولو شاء الناسُ أن يقتلوه لقتلوه، ولكنهم كان يتّقي بعضُهم ببعض ويحبّ هؤلاء أنْ يكفيهم هؤلاء فنادىٰ شمر في الناس: وَيْحكم ماذا تنتظرون بالرجل! اقتلوه ثَكِلتكم أمّهاتُكم.

فحملوا عليه من كل جانب، فضرب زرعة بن شريك التميمي على كفِّه اليسرىٰ، وضرب أيضًا على عاتقه، ثم انصرفوا عنه وهو يقوم ويكبو، وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع، وقال لخولي بن يزيد الأصبحيّ: احتزَّ رأسه، فأراد أنْ يفعل فضعف وأرعد، فقال له سنان: فَتَّ الله عضدك، ونزل إليه فذبحه واحتزَّ رأسه فدفعه إلى خولي، وسُلِبَ الحسين ما كان عليه فأخذ سراويله بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وهي من خزٍّ فكان يسمّى بعده قيس قطيفة، وأخذ نعليه الأسود الأوديّ، وأخذ سيفه رجلٌ من دارم، ومال الناسُ على الفرش، والحلل، والإبل فانتهبوها، ونهبوا ثقله، ومتاعه، وما على النساء حتى إنْ كانت المرأةُ لتنتزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها.

ووُجِدَ بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية.

وأمّا سويد بن المطاع فكان قد صرع فوقع بين القتلىٰ مثخنًا بالجراحات، فسمعهم يقولون: (قُتِلَ الحسين)، فوجد خِفَّة فوثب ومعه سكين وكان سيفه قد أُخِذ

فقاتلهم بسكينه ساعة ثم قُتِل قَتَلَه عروة بن بطان الثعلبي، وزيد بن رقاد الجبنيّ، وكان آخرِ مَنْ قُتِل من أصحاب الحسين.

ثم انتهوا إلى عليّ بن الحسين زين العابدين، فأراد شمر قَتْلَه، فقال له حميد بن مسلم: سبحان الله أتقتل الصبيان؟ ـ وكان مريضًا ـ وجاء عمر بن سعد فقال: لا يدخلنّ بيت هذه النسوة أحدٌ، ولا يعرضنّ لهذا الغلام المريض، ومن أخذ من متاعهم شيئًا فليردّه، فلم يردّ أحدٌ شيئًا؛ فقال الناسُ لسنان بن أنس النخعي:

قتلتَ الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ! قتلتَ أعظم العرب خطرًا أراد يزيل ملك هؤلاء، فأْتِ أمراءك فاطلب ثوابَك منهم، فإنّهم لو أعطوك بيوت أموالهم في قتله كان قليلاً. فأقبل على فرسه وكان شجاعًا شاعرًا به لوثة حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد ثم نادىٰ بأعلى صوته:

أَوْقِـرْ ركـابـي فـضّـةً وذَهَـبـا ... إنّي قـتـلتُ الـسـيـدَ الـمـحـجَّـبـا

قـتـلتُ خـيـرَ الـنـاس أُمًّـا وأبـا ... وخـيـرَهـم إذْ يـنـسـبـون نَـسَـبـا

فقال عمر بن سعد: أشهد أنّك مجنون أدخلوه عليّ، فلما دخل حَذَفَه بالقضيب وقال: يا مجنون أتتكلم بهذا الكلام؟ والله لو سَمِعَكَ ابنُ زياد لضرب عنقك.

وأخذَ عمر بن سعد عقبةَ بن سمعان مولىٰ الرباب ابنة امرئ القيس الكلبيّة امرأة الحسين، فقال: ما أنت؟ فقال: أنا عبدٌ مملوك فخلّىٰ سبيله، فلم ينج منهم غيره، وغير المرقع بن ثمامة الأسدي، وكان قد نثر نبله فقاتل فجاء نفرٌ فأمّنوه فخرج إليهم، فلما أخبر ابن زياد خبره نفاه إلى الزارة، ثم نادىٰ عمر بن سعد في أصحابه: مَنْ ينتدب إلى الحسين فيوطئه فرسه، فانتدب عشرة منهم إسحاق بن حيوة الحضرمي ـ وهو الذي سلب قميص الحسين فبرص بعد ـ فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتى رَضُّوا ظهره وصدره.

وكان عدّة مَنْ قُتِل من أصحاب الحسين اثنين وسبعين رجلاً، ودفن الحسين وأصحابه أهل الغاضرية من بني أسد بعد قتلهم بيوم.

٨٨ ـ يوم الحرّة[١]

كان أول وقعة الحرة ما تقدم من خلع يزيد، فلما كان هذه السنة أخرج أهل المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان عامل يزيد وحصروا بني أُميّة بعد بيعتهم

(١) سنة ٦٣ من الهجرة.

عبد الله بن حنظلة، فاجتمع بنو أُميّة ومواليهم ومن يرىٰ رأيهم في ألف رجلٍ حتى نزلوا دارَ مروان بن الحكم، فكتبوا إلى يزيد يستغيثون به، فقدم الرسول إليه وهو جالس على كرسي وقد وضع قدميه في طشت فيه ماء لنقرس كان بهما قرأ الكتاب تمثل:

لقد بَدَّلُوا الحَكَم الذي في سَجِيَّتِي فَبَدَّلْتُ قَوْمِي غِلْظَةً بِلِيانِ

ثم قال: أَمَا يكون بنو أُمية ومواليهم ألف رجل؟ فقال الرسول: بلى والله وأكثر، قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعةً من نهار، فبعث إلى عمرو بن سعد فأقرأه الكتاب وأمره أن يسير إليهم في الناس، فقال: قد كنت ضبطت لك الأمور والبلاد، فأمّا الآن إذا صارت دماء قريش تُهرق بالصعيد فلا أُحبّ أن أتولّى ذلك، وبعث إلى عبيد الله بن زياد يأمره بالمسير إلى المدينة ومحاصرة ابن الزُّبير بمكّة، فقال: والله لا جَمَعْتُهُما للفاسق: قتل ابن رسول الله، وغزو الكعبة، ثم أرسل إليه يعتذر؛ فبعث إلى مسلم بن عقبة المرّي وهو الذي سمى مسرفًا وهو شيخ كبير مريض فأخبره الخبر، فقال: أمَا يكون بنو أُمية ألف رجل؟ فقال الرسول: بلى، قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعةً من النهار ليس هٰؤلاء بأهل أن يُنصروا، فإنهم الأذلّاء دعهم يا أمير المؤمنين حتى يجهدوا أنفسهم في جهادِ عدوِّهم ويتبيّن لك من يقاتل علىٰ طاعتك ومن يستسلم، قال: وَيْحك إنه لا خير في العيش بعدهم فأَخرج بالناس، وقيل: إن معاوية قال ليزيد: إن لك من أهل المدينة يومًا فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة فإنه رجل قد عرفت نصيحته، فلما خلع أهل المدينة أمر مسلمًا بالمسير إليهم فنادى في الناس بالتجهّز إلى الحجاز وأن يأخذوا عطاءهم ومعونة مائة دينار، فانتدب لذلك اثنا عشر ألفًا، وخرج يزيد يعرضهم وهو متقلّد سيفًا متنكب قوسًا عربية، وهو يقول:

أَبْلِغْ أبا بكرٍ إذا اللَّيلُ سَرَى وَهَبَطَ القَوْمُ على وادي القرى
أَجَمْعَ سكرانٍ من القوم ترى أم جَمْعَ يقظان نفى عنه الكرىٰ
يا عجبًا من ملحدٍ يا عجبا مخادعِ بالدينِ يعفو بالعرىٰ[1]

وسار الجيش وعليهم مسلم، فقال له يزيد: إن حدث بك حدثٌ فاستخلف الحصين بن نمير السكوني، وقال له: اُدْعُ القوم ثلاثًا فإن أجابوك وإلّا فقاتلهم فإذا

---

(١) في الطبري: «يقفو بالعرى»، وحذف هنا شطر بيت ذكر في الطبري وهو عشرون ألفًا بين كهل وفتى.

ظهرت عليهم فأبِحْها ثلاثًا، فكل ما فيها من مال أو دابّة أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفُفْ عن الناس وانظر علي بن الحسين فاكفُفْ عنه واستَوْصِ به خيرًا، فإنه لم يدخل مع الناس وإنه قد أتاني كتابه، وقد كان مروان بن الحكم كلَّم ابن عمر لما أخرج أهل المدينة عامل يزيد وبني أُمية في أن يغيب أهله عنده فلم يفعل، فكلّم علي بن الحسين فقال: إن لي حرمًا وحرمي يكون مع حرمك، فقال: أفعل؛ فبعث بامرأته وهي عائشة ابنة عثمان بن عفان وحرمه إلى عليّ بن الحسين فخرج عليٌّ بحرمه وحرم مروان إلى ينبع، وقيل: بل أرسل حرم مروان وأرسل معهم ابنه عبد الله بن عليّ إلى الطائف، ولما سمع عبد الملك بن مروان أن يزيد قد سيَّر الجنود إلى المدينة قال: ليتَ السماء وقعت على الأرض إعظامًا لذلك، ثم إنه ابتلي بعد ذلك بأن وجّه الحجاج فحصر مكة، ورمى الكعبة بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير.

وأمّا مسلم فإنه أقبل بالجيش فبلغ أهل المدينة خبرهم فاشتدّ حصارهم لبني أُمّية بدار مروان، وقالوا: والله لا نكفّ عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم أو تعطونا عهد الله وميثاقه أن لا تبغونا غائلة ولا تدلوا لنا على عورة ولا تظاهروا علينا عدوًّا، فنكفّ عنكم ونخرجكم عنّا، فعاهدوهم على ذلك فأخرجوهم من المدينة. وكان أهل المدينة قد جعلوا في كلّ منهلٍ بينهم وبين الشام زقًّا من قطران، فأرسل الله السماء عليهم فلم يستقوا بدلوٍ حتى وردوا المدينة، فلما أخرج أهل المدينة بني أُمية ساروا بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى، فدعا بعمرو بن عثمان بن عفان أوّل الناس فقال له: خبِّرني ما وراءك وأشِرْ عليَّ؟ فقال: لا أستطيع قد أخذ علينا العهود والمواثيق أن لا ندلّ على عورة ولا نظاهر عدوّنا، فانتهره وقال: والله لولا أنّك ابن عثمان لضربتُ عنقك، وأيم الله لا أقيلها قرشيًّا بعدك، فخرج إلى أصحابه فأخبرهم خبره، فقال مروان بن الحكم لابنه عبد الملك: ادخل قبلي لعله يجتزي بك عني، فدخل عبد الملك فقال: هات ما عندك، فقال: نعم أرى أن تسير بمن معك فإذا انتهيت إلى ذي نخلة نزلت فاستظلّ الناس في ظله فأكلوا من صقره فإذا أصبحت من الغد مضيت وتركتَ المدينة ذات اليسار، ثم درتَ بها حتى تأتيهم من قبل الحرّة مشرقًا، ثم تستقبل القوم فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها، ويرون من ائتلاق بيضكم وأسِنَّة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ما لا ترونه أنتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستَعِن الله عليهم، فقال له مسلم: لله أبوك أيّ امرئ ولد، ثم إن مروان دخل عليه فقال له: إيه، فقال:

أليس قد دخل عليك عبد الملك؟ قال: بلى، وأيُّ رجلٍ عبد الملك قلّما كلّمت من رجال قريش رجلاً شبيهًا به؟ فقال مروان: إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني، ثم إنه صار في كل مكانٍ يصنع ما أمر به عبد الملك، فجاءهم من قِبَل المشرق ثم دعاهم مسلم فقال: إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل وإني أكره إراقة دمائكم وإني أؤجلكم ثلاثًا فمن ارعوى وراجع الحقَّ قَبِلْنا منه وانصرفت عنكم وسرتُ إلى هذا المحل[1] الذي بمكّة، وإن أبيتم كنّا قد اعتذرنا إليكم؛ فلما مضت الثلاث قال: يا أهل المدينة ما تصنعون أتُسالمون أم تُحاربون؟ فقالوا: بل نحارب، فقال لهم: لا تفعلوا بل ادخلوا في الطاعة ونجعل جدنا وشوكتنا على أهل هذا الملحد الذي قد جمع إليه المرّاق والفسّاق من كل أوب - يعني ابن الزُّبَيْر - فقالوا له: يا أعداء الله لو أردتُم أن تجوزوا إليه ما تركناكم نحن قد نعلم أن تأتوا بيت الله الحرام، فتُخيفوا أهله وتُلحدوا فيه وتستحلّوا حرمته، لا والله لا نفعل.

وكان أهل المدينة قد اتّخذوا خندقًا وعليه جمعٌ منهم، وكان عليه عبد الرحمٰن بن زهير بن عبد عوف وهو ابن عمّ عبد الرحمٰن بن عوف، وكان عبد الله بن مطيع على ربعٍ آخر وهم قريش في جانب المدينة، وكان معقل بن سِنان الأشجعيّ - وهو من الصحابة - على ربعٍ آخر وهم المهاجرون، وكان أمير جماعتهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري في أعظم تلك الأرباع وهم الأنصار، وصمد مسلم فيمن معه فأقبل من ناحية الحرّة حتى ضرب فسطاطه على طريق الكوفة، وكان مريضًا، فأمر فوضع له كرسيّ بين الصفّيْن وقال: يا أهل الشام قاتِلوا عن أميركم أو دعوا، فأخذوا لا يقصدون ربعًا من تلك الأرباع إلّا هزموه، ثم وجّه الخيل نحو ابن الغسيل، فحمل عليهم ابن الغسيل فيمن معه فكشفهم فانتهوا إلى مسلم، فنهض في وجوههم بالرجال وصاح بهم فقاتلوا قتالاً شديدًا.

ثم إن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جاء إلى ابن الغسيل فقاتل معه في نحوٍ من عشرين فارسًا قتالاً حسنًا، ثم قال لابن الغسيل: من كان معك فارسًا فليأتني فليقف معي فإذا حملت فليحملوا، فوالله لا أنتهي حتى أبلغ مسلمًا فأقتله أو أُقْتَل دونه؛ ففعل ذلك وجمع الخيل إليه فحمل بهم الفضل على أهل الشام فانكشفوا، فقال لأصحابه: احملوا أخرى جُعِلْتُ فداءكم، فوالله لئن عاينت أميرهم لأقتلنَّه أو أُقتل دونه إنه ليس بعد الصَّبْر إلّا النصر، ثم حمل وحمل أصحابه

---

(١) في الطبري: «إلى هذا الملحد» يعني ابن الزبير.

فانفجرت خيل الشام عن مسلم بن عقبة ومعه نحو خمسمائة راجل جثاة على الرُّكَبْ، مشرعي الأسِنَّة نحو القوم.

ومضى الفضل كما هو نحو راية مسلم فضرب رأسه صاحبها فقطَّ المغفر، وفلق هامته، وخرَّ ميتًا، وقال: خذها مني وأنا ابن عبد المطلب، وظنّ أنه مسلم، فقال: قتلت طاغية القوم وربِّ الكعبة، فقال: أخطأت استك الحفرة، وإنما كان ذلك غلامًا روميًا، وكان شجاعًا، فأخذ مسلم رايته وحرَّض أهل الشام وقال: شدُّوا مع هذه الراية، فمشى برايته، وشدَّت تلك الرجال أمام الراية، فصرع الفضل بن عباس، فقتل - وما بينه وبين أطناب مسلم بن عقبة إلَّا نحو من عشرة أذرع - وقُتل معه زيد بن عبد الرحمٰن بن عوف، وأقبلت خيل مسلم ورجالته نحو ابن الغسيل، وهو يحرِّض أصحابه، ويذمّ أهل المدينة، ويقدم أصحابه إلى ابن الغسيل، فلم يقدم عليهم للرماح التي بأيديهم والسيوف، وكانت تتفرّق عنهم، فنادى مسلم الحصين بن نمير، وعبد الله بن عضاه الأشعري، وأمرهما أن ينزلا في جندهما، ففعلا وتقدَّما إليهم، فقال ابن الغسيل لأصحابه: إن عدوَّكم قد أصاب وجه القتال الذي كان ينبغي أن يقاتلكم به، وإني قد ظننت أن لا يلبثوا إلَّا ساعة حتى يفصل الله بينكم وبينهم، إما لكم وإمّا عليكم، أمَا إنكم أهل النّصرة ودار الهجرة، وما أظن ربّكم أصبح عن أهل بلدٍ من بلدان المسلمين بأرضىٰ منه عنكم ولا على أهل بلدٍ من بلدان العرب بأسخط منه على هٰؤلاء الذين يقاتلونكم، وإن لكلّ امرئٍ منكم ميتة وهو ميِّت بها لا محالة، ووالله ما ميتة أفضل من ميتة الشهادة وقد ساقها الله إليكم فاغتنموها. ثم دنا بعضهم من بعض، فأخذ أهل الشام يرمونهم بالنبل، فقال ابن الغسيل لأصحابه: عليهم تستهدفون لهم من أراد التعجيل إلى الجنّة فليلزم هذه الراية، فقام إليه كل مستميت، فنهض بعضهم إلى بعض فاقتتلوا أشدَّ قتالٍ رُؤِيَ لأهل هذا القتال، وأخذ ابن الغسيل يقدِّم بنيه واحدًا واحدًا حتى قُتِلوا بين يديه، وهو يضرب ويقول:

بُعْدًا لمن رامَ الفسادَ وطغىٰ وجانبَ الحقَّ وآياتِ الهدىٰ

لا يبعدُ الرَّحمٰنُ إلَّا من عصىٰ

ثم قُتِل، وقُتِلَ معه أخوه لأُمِّه محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، فقال: ما أُحبّ أن الديلم قتلوني مكان هٰؤلاء القوم؛ وقتل معه عبد الله بن زيد بن عاصم، ومحمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، فمرَّ به مروان بن الحكم فقال: رحمك الله ربَّ السارية، قد رأيتك تُطيل القيام في الصلاة إلى جنبها، وانهزم الناس وكان فيمن انهزم

محمد بن سعد بن أبي وقّاص بعدما أبلىٰ، وأباح مسلم المدينة ثلاثًا يقتلون الناس، ويأخذون المتاع والأموال، فأفزع ذلك مَنْ بها من الصحابة.

فخرج أبو سعيد الخدري حتى دخل في كهف الجبل، فتبعه رجلٌ من أهل الشام، فاقتحم عليه الغار فانتضىٰ أبو سعيد سيفه يُخوِّف به الشامي، فلم ينصرف عنه فعاد أبو سعيد وأغمد سيفه، وقال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾ [المائدة: الآية ٢٨]، فقال: مَنْ أنت؟ قال: أنا أبو سعيد الخدريّ، قال: صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، فتركه ومضىٰ.

وقيل: إن مسلمًا لما نزل بأهل المدينة خرج إليه أهلها بجموع كثيرة وهيئة حَسَنَة، فهابهم أهل الشام وكرهوا أن يُقاتلوهم، فلما رآهم مسلم، وكانَ شديد الوجع سبَّهم وذمَّهم وحرَّضهم، فقاتلوهم، فبينما الناس في قتالهم إذ سمعوا تكبيرًا من خلفهم في جوف المدينة، وكان سببه أن بني حارثة أدخلوا أهل الشام المدينة فانهزم الناس، فكان من أُصيب في الخندق أكثر ممن قُتِل، ودعا مسلم الناس إلى البَيْعة ليزيد على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء، فمن امتنع من ذلك قتله، وطلب الأمان ليزيد بن عبد الله بن ربيعة بن الأسود، ولمحمد بن أبي الجهم بن حذيفة، ولمعقل بن سِنان الأشجعي فأتىٰ بهم بعد الوقعة بيوم، فقال: بايِعوا على الشرط؛ فقال القرشيّان: نبايعك على كتاب الله وسنّة رسوله، فضرب أعناقهما، فقال مروان: سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا بأمان؟ فطعن بخاصرته بالقضيبَ، فقال: وأنت والله لو قلتَ بمقالتهما لقتلتك.

وجاء معقل بن سِنان فجلس مع القوم فدعا بشرابٍ ليسقى، فقال له مسلم: أيُّ الشرابِ أحبُّ إليك؟ قال: العسل، قال: اسقوه، فشرب حتى ارتوى فقال له: أرُويت؟ قال: نعم، قال: والله لا تشرب بعدها شُرْبة إلّا في نار جهنم، فقال: أنشدك الله والرحم، فقال له: أنت الذي لقيتني بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد فقلت: سِرْنا شهرًا ورجعنا شهرًا وأصبحت صفرًا، فنرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق ابن الفاسق ونبايع لرجلٍ من المهاجرين أو الأنصار فيم غطفان وأشجع من الخلق[1] والخلافة، إنّي آليت بيمين لا ألقاك في حربٍ أقدر منه على قتلك[2] إلّا فعلت، ثم أمر به فقُتِل؛ وأتى بيزيد بن وهب فقال له: بايع، قال: أُبايعك على الكتاب والسُّنَّة، قال: اقتلوه، قال: أنا أُبايعك، قال: لا والله فتكلّم فيه مروان لصهرٍ

(١) في الطبري: «من الخلع».
(٢) في الطبري: «أقدر فيه على ضرب عنقك».

كان بينهما فأمر بمروان فوُجِئَتْ أنفه[١] ثم قتل يزيد، ثم أتى مروان بعليّ بن الحسين فجاء يمشي بين مروان وابنه عبد الملك حتى جلس بينهما عنده، فدعا مروان بشرابٍ ليحترم[٢] بذلك فشرب منه يسيرًا ثم ناوله عليّ بن الحسين فلما وقع في يده، قال له مسلم: لا تشرب من شرابنا، فارتعد كفُّه ولم يأمَنْه على نفسه وأمسك القدح بكفِّه لا يشربه ولا يضعه، فقال له: أجئت تمشي بين هؤلاء لتأمن عندي؟ والله لو كان إليهما أمر لقتلتك ولكن أمير المؤمنين أوصاني بك وأخبرني أنك كاتبته فإن شئت فاشرب، فشرب ثم أجلسه معه على السرير ثم قال له: لعلّ أهلك فزعوا، قال: أي والله فأمر بدابّة[٣] فأسرجت له فحمله عليها فردَّه ولم يلزمه بالبيعة ليزيد على ما شرط على أهل المدينة، وأحضر عليّ بن عبد الله بن عباس ليبايع، فقال الحصين بن نمير السكوني: لا يبايع ابنَ أختنا إلَّا كبيعة عليّ بن الحسين، وكانت أُمّ علي بن عبد الله كندية، فقامت كندة مع الحصين فتركه مسلم، فقال عليٌّ:

أبـي الـعـبـاسُ قَـرْمُ بـنـي قـصـيٍّ ... وأخـوالـي الـمـلـوكُ بـنـو وَلِـيـعـهْ

هـمـوا منعوا ذماري يومَ جاءت ... كـتـائـبُ مـسـرفٍ وبـنـو الـلـكـيـعـهْ

أرادونـي الـتـي لا عـزَّ فـيـهـا ... فـحـالَتْ دونـهُ أيـدٍ سـريـعـهْ

يعني بقوله: مسرف مسلم بن عقبة، فإنه سمّي بعد وقعة الحرّة مسرفًا، وبنو وليعة بطن من كندة منهم أُمّه، واللّكيعة أُمّ أُمّه. وقيل: إن عمرو بن عثمان بن عفان لم يكن فيمن خرج من بني أُميّة فأتى به يومئذٍ إلى مسلم، فقال: يا أهل الشام تعرفون هذا؟ قالوا: لا، قال: هذا خبيث بن الطيّب، هذا عمرو بن عثمان، هي يا عمرو إذا ظهر أهل المدينة، قلت: أنا رجلٌ منكم وإن ظهر أهل الشام. قلت: أنا ابن أمير المؤمنين عثمان فأمر به فنتفت لحيته، ثم قال: يا أهل الشام إن أُمّ هذا كانت تدخل الجعل في فيها ثم تقول: يا أمير المؤمنين حاجيتك ما في فمي، وفي فمها ما شاهى وباهى[٤]، وكانت من دوس ثم خلّى سبيله، وكانت وقعة الحرّة لليلتين بقيتا من ذي الحجّة سنة ثلاث وستين.

قال محمد بن عمارة: قدمت الشام في تجارة، فقال لي رجل: من أين أنت؟ فقلت: من المدينة، فقال: خبيثة، فقلت: يسمّيها رسول الله ﷺ طيبة وتسميها خبيثة! فقال: إنّ لي ولها لشأنًا، لما خرج الناس إلى وقعة الحرّة رأيت في المنام أني قَتَلْتُ

(١) في الطبري: «فوجئت عنقه» وهي أوضح. (٢) في الطبري: «ليتحرم».
(٣) في الطبري: «فأمر بدابته». (٤) في الطبري: «ما ساءها وناءها».

رجلاً اسمه محمد أدخل بقتله النار، فاجتهدت في أني لا أسير معهم، فلم يقبل مني فسرت معهم ولم أقاتل حتى انقضت الوقعة، فمررت برجل في القتلى به رمق فقال: تنحّ يا كلب، فأنفت من كلامه وقتلته، ثم ذكرت رؤياي، فجئت برجل من أهل المدينة يتصفح القتلى، فلما رأى الرجل الذي قتلته قال: إنّا لله لا يدخل قاتل هذا الجنّة، قلت: ومن هذا؟ قال: هو محمد بن عمرو بن حزم وُلد على عهد رسول الله ﷺ فسمّاه محمدًا وكناه أبا عبد الملك، فأتيت أهله فعرضت عليهم أن يقتلوني، فلم يفعلوا وعرضت عليهم الدّية فلم يأخذوا.

وممّن قتل بالحَرّة عبد الله بن عاصم الأنصاري وليس بصاحب الأذان ذاك ابن زيد بن ثعلبة. وقتل أيضًا فيها عبيد الله بن موهب، ووهب بن عبد الله بن زمعة بن الأسود، وعبد الله بن عبد الرحمٰن بن حاطب، وزبير بن عبد الرحمٰن بن عوف، وعبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب[1].

٨٩ ـ يوم مرج راهط[2] وقتل الضحاك، والنعمان بن بشير

لما بايع الناس مروان سار من الجابية إلى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومعه ألف فارس، وكان قد استمدّ الضحاك النعمان بن بشير وهو على حمص فأمدّه بشرحبيل بن ذي الكِلَاع، واستمدّ أيضًا زفر بن الحارث ـ وهو على قنسرين ـ فأمدّه بأهل قنسرين، وأمدّه نائل بأهل فلسطين فاجتمعوا عنده، واجتمع على مروان كلب، وغسان، والسكاسك، والسكون، وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، وكان يزيد بن أبي الغمس الغسّاني مختفيًا بدمشق لم يشهد الجابية، فغلب على دمشق وأخرج عامل الضحاك بن قيس وغلب على الخزائن وبيت المال،

---

(١) قال ابن كثير في تاريخه: وأرسلت سعدى بنت عوف المرية إلى مسلم بن عقبة تقول له: أنا بنت عمّك فمُر أصحابك أن لا يتعرّضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا فقال لأصحابه: لا تبدؤوا إلا بأخذ إبلها أولاً. وجاءت امرأة فقالت: أنا مولاتك وابني في الأسارى، فقال: عجّلوه لها فضربت عنقه، وقال: أعطوها رأسه أما ترضين أن لا يقتل حتى تتكلمي في ابنك. ووقعوا على النساء حتى قيل: إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج، وجيء إلى مسلم بسعيد بن المسيّب فقال له: بايع، فقال: أبايع على سِيرة أبي بكر، وعمر. فأمر بضرب عنقه فشهد رجل أنه مجنون فخلّى سبيله. وسُئِلَ الزهري: كم كان القتلى يوم الحَرّة؟ قال: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ووجوه الموالي وممّن لا أعرف من حرّ وعبد وغيرهم عشرة آلاف.

(٢) سنة ٦٤ من الهجرة.

وبايع لمروان وأمدَّه بالأموال والرجال والسلاح، فكان أوَّل فتح على بني أُميّة، وتحارب مروان والضحاك بمرج راهط عشرين ليلة، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فقُتل الضحاك قتله دحية بن عبد الله وقُتِل معه ثمانون رجلاً من أشراف أهل الشام، وقتل أهل الشام مقتلة عظيمة، وقتلت قيس مقتلة لم يُقتل مثلها في موطنٍ قط، وكان فيمن قتل هانئ بن قبيصة النميري سيِّد قومه كان مع الضحاك قتله وازع بن ذؤالة الكلبي، فلما سقط جريحًا قال:

تعست ابن ذات النوف[1] أجهزْ على امرئ
يرىٰ الموتَ خيرًا من فرارٍ وألزما
ولا تتركني بالحشاشة إنّني
صبورٌ إذا ما النّكس مثلك أحجما

فعاد إليه وازع فقتله، وكانت الوقعة في المحرم سنة خمس وستّين، وقيل: بل كانت في آخر سنة أربع وستّين، ولما رأى مروان رأس الضحاك ساءه ذلك، وقال: الآن حين كبرت سنّي ودقّ عظمي وصرت في مثل طمّ[2] الحمار أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض، ولما انهزم الناس من المرج لحقوا بأجنادهم، فانتهى أهل حمص إليها وعليها النعمان بن بشير، فلما بلغه الخبر خرج هاربًا ليلاً ومعه امرأته نائلة بنت عمارة الكلبية وثقله وأولاده، فتحيَّر ليلته كلها وأصبح أهل حمص فطلبوه، وكان الذي طلبه عمرو بن الجلي[3] الكلاعي فقتله وردَّ أهله والرأس معه، وجاءت كلب من أهل حمص فأخذوا نائلة وولدها معها، ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين هرب منها فلحق بقرقيسيا وعليها عياض الحرسي كان يزيد ولّاه إيّاها، فطلب منه أن يدخل الحمام ويحلف له بالطلاق والعتاق على أنه لما يخرج من الحمام لا يقيم بها، فأذن له فدخلها فغلب عليها وتحصَّن بها ولم يدخل حمامها فاجتمعت إليه قيس، وهرب ناتل بن قيس الجذامي من فلسطين فلحق بابن الزبير بمكّة، واستعمل مروان بعده على فلسطين روح بن زنباع، واستوثق الشام لمروان واستعمل عمّاله عليها.

---

(١) النوف: ما تقطعه الخافضة من المرأة. (٢) ظمء، والمعنى: أن مدة بقائي قصيرة.
(٣) في الطبري: «عمرو بن الخلي» بالخاء المعجمة.

وقيل: إن عبيد الله بن زياد إنما جاء إلى بني أُميّة وهم بتدمر ومروان يريد أن يسير إلى ابن الزبير ليبايعه ويأخذ منه الأمان لبني أُميّة فردّه عن ذلك، وأمره أن يسير بأهل تدمر إلى الضحاك فيقاتله ووافقه عمرو بن سعيد، وأشار على مروان بأن يتزوج أمّ خالد بن يزيد ليسقط من أعين الناس، فتزوَّجها وهي فاختة ابنة أبي هشام بن عتبة، ثم جمع بني أُمية فبايعوه وبايعه أهل تدمر.

وسار إلى الضحاك في جمع عظيم، فخرج الضحاك إليه فتقاتلا فانهزم الضحاك ومن معه وقتل الضحّاك، وسار زُفر بن الحارث إلى قرقيسيا واجتمعتْ عليه قيس وصحبه في هزيمته إلى قرقيسيا شابان من بني سليم، فجاءت خيل مروان تطلبهم، فقال الشابّان لزفر: أنْجُ بنفسك فإنّا نحن نقتل فمضى زفر وتركهما فقُتِلا، وقال زفرٌ في ذلك:

أريني سلاحي لا أبا لكِ إنني
أرىٰ الحربَ لا تزدادُ إلّا تماديَا

أتانيَ عن مروان بالغيبِ أنه
مُقِيدٌ دَمِي أو قاطعٌ مِنْ لِسانيا

ففي العيشِ منجاةٌ وفي الأرض مَهْرَبٌ
إذا نحنُ رَفَعْنَا لهنَّ المثانيا

فلا تحسبوني إنْ تَغَيَّبْتُ غافلاً
ولا تَفْرَحُوا إن جِئْتُكُم بلقائيَا

فقد يَنْبُتُ المرعىٰ على دِمَنِ الثَّرَىٰ
له وَرَقٌ مِنْ تَحْتِهِ الشَّرُّ باديَا

وتمضي ولا يبقىٰ على الأرض دَمِنَةٌ
وتبقىٰ حزازات النفوسِ كما هِيَا

لعمري لقد أبْقَتْ وقيعةُ راهِطٍ
لحسَّان صدعًا بَيِّنًا متنائيا

فلم ترَ مني نبوَةً قبلَ هذه
فراري وتركي صاحبيَّ ورائِيَا

عـشـيَّـةَ أدعـو فـي الـقِـرَان فـلا أرىٰ
مـن الـنـاس إلَّا مَـنْ عَـلَيَّ ولا لِيَـا
أيـذهـبُ يـومٌ واحـدٌ إن أسـأتـه
بـصـالـحِ أيَّـامـي وحُـسْـنِ بـلائِيَـا
فـلا صُـلْحَ حـتـى تَـشْـحَـطَ الـخـيـلُ بـالـقَـنَـا
وتـثـأرَ مـن نـسـوانِ كـلـبٍ نـسـائِيَـا
ألَا لَيْـتَ شـعـري هـل تـصـيـبنَّ غـارتـي
تـنـوخًـا وَحَـيَّـيْ طَـيِّـىءٍ مـن شـقـائِيَـا

فأجابه جواس بن القعطل:

لعمري لقد أبْقَتْ وقيعةُ راهطٍ … على زُفَرٍ مُرًّا من الدَّاءِ باقِيَا
مقيمًا ثوىٰ بين الضُّلوع مَحَلُّهُ … وبين الحَشا أعيا الطبيبَ المداوِيَا
تُبَكِّي على قَتْلَى سليمٍ وعامرٍ … وذبيانَ معذورًا وتَبْكِي البواكِيَا
دعا بالسِّلاح ثم أحجمَ إذا رأىٰ … سيوفَ جنابٍ والطِّوالَ المذاكِيَا
عليها كأُسْدِ الغابِ فتيانُ نَجْدَةٍ … إذا شَرَعُوا نحوَ الطِّوالِ العَوَالِيَا

وقال عمرو بن الجلي الكلبي:

بكى زُفَرُ القيسيُّ من هُلْكِ قَوْمِهِ … بِعَبْرَةِ عَيْنٍ ما يَجِفُّ سُجُومُها
يُبَكِّي على قَتْلى أُصِيبَتْ بِرَاهِطٍ … تجاوِبُها هامُ القفارِ وبومُها
أبَحْنَا حِمى للحيِّ قيسٍ براهطٍ … ووَلَّتْ شلالا واستُبِيحَ حَرِيمُها
يُبَكِّيهِمُ حَرَّانَ تجري دموعُهُ … تُرَجِّي نزارًا أن تؤوبَ حُلُومُها
فمُتْ كمدًا أو عِشْ ذليلاً مُهَضَّمًا … بِحَسْرَةِ نفسٍ لا تنامُ هُمُومُها

في أبياتٍ.

٩٠ ـ يوم الجُفْرة[١]

سار عبد الملك بن مروان يريد مصعبًا، فقال له خالد بن عبد الله بن خالد بن أَسَيْد: إنْ وجَّهتني إلى البصرة وأتبعتني خيلاً يسيرة رجوت أن أغلب لك عليها،

(١) سنة ٧٠ من الهجرة. والجفرة، بضم أوّله وسكون ثانيه، آخره هاء، موضع بالبصرة.

فوجَّهه عبد الملك فقدمها مستخفيًا في خاصَّته حتى نزل على عمرو بن أصمع؛ وقيل: نزل على عليّ بن أصمع الباهلي، فأرسل عمرو إلى عباد بن الحُصين وهو على شرطة ابن معمر ـ وكان مصعب قد استخلفه على البصرة ـ ورجا ابن أصمع أن يبايعه عبّاد بن الحصين وقال له: إني قد أجرتُ خالدًا وأحببت أن تعلم ذلك لتكون ظهرًا لي، فوافاه الرسول حين نزل عن فرسه، فقال عبّاد: قُلْ له: والله لا أضع لبد فرسي حتى آتيك في الخيل، فقال ابن أصمع لخالد: إن عبادًا يأتينا الساعة، ولا أقدر أن أمنعك عنه، فعليك بمالك بن مسمع، فخرج خالد يركض وقد أخرج رجليه من الركابين حتى أتى مالكًا، فقال: أجِرْني، فأجاره، وأرسل إلى بكر بن وائل والأُزد، فكان أوّل راية أتَتْه راية بني يَشْكُر. وأقبل عبّاد في الخيل فتواقفوا، ولم يكن بينهم قتال، فلما كان الغد عدوا إلى جفرة نافع بن الحارث ومع خالد رجال من تميم منهم صعصعة بن معاوية، وعبد العزيز بن بشر، ومُرّة بن محكان وغيرهم، وكان أصحاب خالد جفرية ينتسبون إلى الجفرة وأصحاب ابن معمر زبيرية، وكان من أصحاب خالد عبيد الله بن أبي بكرة، وحمران بن أبان، والمغيرة بني المهلب، ومن الزُّبَيْرِيَّة قيس بن الهيثم السلميّ، ووجّه مصعب زُحَر بن قيس الجعفي مددًا لابن معمر في ألف، ووجّه عبد الملك عُبيد الله بن زياد بن ظبيان مددًا لخالد؛ فأرسل عبيد الله إلى البصرة من يأتيه بالخبر، فعاد إليه فأخبره بتفرّق القوم، فرجع إلى عبد الملك، فاقتتلوا أبعة وعشرين يومًا، وأصيبت عين مالك بن مَسْمَع، وضجر من الحرب، ومشَتْ بينهم السفراء، فاصطلحوا على أن يخرج خالد من البصرة، فأخرجه مالك، ثم لحق مالك بالنباج ـ وكان عبدُ الملك قد رجعَ إلى دمشق ـ فلم يكن لمصعب هِمّة إلّا البصرة، وطمع أن يُدرك بها خالدًا فوجده قد خرج، فسخط مصعب على ابن معمر وأحضر أصحاب خالد فشتمهم وسبّهم، فقال لعبيد الله بن أبي بكرة: يا ابن مسروح إنما أنت ابن كلبة تعاورَها الكلاب، فجاءت بأحمر وأصفر وأسود من كل كلب بما يشبّهه، وإنما كان أبوك عبدًا نزل إلى رسول الله ﷺ من حصن الطائف، ثم ادّعيتم أن أبا سفيان زنى بأمّكم، ووالله لَئِن بقيتُ لألحقنكم بنسبكم؛ ثم دعا حمران فقال له: إنما أنت ابن يهوديّة عِلْج نبطيّ سبيت من عين التمر. وقال للحكم بن المنذر بن الجارود، ولعبد الله بن فُضالة الزهراني، ولعليّ بن أصمع، ولعبد العزيز بن بشر وغيرهم، نحو هذا من التوبيخ والتقريع، وضربهم مائة مائة، وحلق رؤوسهم ولحاهم، وهدم دورهم، وصحرهم في الشمس ثلاثًا، وحملهم على طلاق نسائهم وجنّ أولادهم في البيوت، وطاف بهم في أقطار البصرة، وأحلفهم أن لا ينكحوا الحرائر، وهدم دار

مالك بن مسمع وأخذ ما فيها،فكان مما أخذ جارية ولدت له عمرو بن مصعب، وأقام مُصعب بالبصرة، ثم شخص إلى الكوفة، فلم يزل بها حتى خرج إلى حرب عبد الملك بن مروان.

٩١ ـ الحرب بين قيس وتغلب[١]

أمرُ مَرْج راهط وسار زفَر بنُ الحارثِ الكلائي إلى قَرْقيسيا على ما ذكرناه، وبايع عميرٌ مروانَ بن الحكم وفي نفسه ما فيها بسبب قَتْلِ قيسٍ بالمرج، فلما سيَّر مروان بن الحكم عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة والعراق كان عُمَيْرٌ معه فَلَقوا سليمانَ بن صُرَد بعين الوردة، وسار عبيد الله إلى قرقيسيا لقتال زُفَر فثبطه عُمَيْرٌ وأشار عليه بالمسير إلى الموصل قبلَ وُصُولِ جيش المختار إليها، فسار إليها ولقي إبراهيم بن الأشتر بالخازَرِ، فمالَ عُمَيْرٌ معه، فانهزم جيشُ عبيد الله، وقُتِل هو، فأتى عُمَيْرٌ قَرْقيسيا، وصار مع زفَر، فعجلا يطلبان كلبًا واليمانية بمن قُتِلوا من قيس، وكان مَعَهُمَا قومٌ من تغلب يقاتلون معهما ويدلّونهما، وشغل عبد الملك عنهما بمصعب، وتغلب عُمَيْرٌ على نَصِيبين.

ثم إنه ملَّ المقامَ بقرقيسيا فاستأمن إلى عبد الملك فآمنه، ثم غدر به فحبسه عند مولاه الريَّان، فسقاه عُمَيْرٌ ومن معه من الحرس خمرًا حتى أسكرهم، وتسلّق في السُلّم من حبال، وخرج من الحبس، وعاد إلى الجزيرة، ونزل على نهر البليخ بين حَرّان والرقَّة فاجتمعت إليه قَيْسٌ فكان يُغِيرُ بهم على كلب، واليمانية، وكان مَنْ معه يستأوون جواري تَغْلِب ويُسَخِّرُون مشايخَهُمْ من النصارى، فهاجَ ذلك بينهم شرًّا لم يبلغ الحرب، وذلك قَبْلَ مسير عبد الملك إلى مُصْعب وزُفَر؛ ثم إنَّ عُمَيْرًا أغارَ على كَلْبٍ ثُمَّ رجعَ فنزلَ على الخابور، وكانت منازلُ تغلب بين الخابور، والفرات، ودجلة، وكانت بحيث نَزَلَ عُمَير امرأة من تميم ناكحة في تغلب يقال لها أُمُ دُوَيْل، فأخذ غلامٌ من بني الحريش أصحاب عُمَيْر عيرًا مِنْ غَنَمِهَا، فشَكَتْ إلى عُمَيْر، فلم يمنع عنها، فأخذوا الباقي، فمانعهم قومٌ من تغلب، فقُتِلَ رجلٌ منهم يقال له مجاشع التغلبي، وجاء دُوَيْل فشكَتْ أُمُّه إليه، وكان فارسًا من فرسان تغلب، فسارَ في قومه، وجعل يُذَكِّرُهُمْ ما تصنعُ بهم قيسُ، ويشكو إليهم ما أُخِذَ من غنم أُمِّه، فاجتمعَ منهم جماعةٌ وأمَّرُوا عليهم شُعَيْث بن مليك التغلبيّ، وأغاروا على بني الحريش ومعهم قومٌ

---

(١) سنة ٧٠ من الهجرة.

من نُمَيْر فَقَتَل فيهم التغلبيّون واستاقوا ذَوْدًا لامرأةٍ منهم يقال لها أُمُ الهَيْثم، فمانعهم القيسيُّون فلم يقدروا على منعهم، فقال الأخطل:

فإن تسألونا بالحَرِيشِ فإنَّنا ... مُنِينا بنوكٍ مِنْهُمْ وفُجُورِ
غداةَ تحامَتْنا الحَرِيشُ كأنَّها ... كلابٌ بَدَتْ أنيابُها لهريرِ
وجاؤوا بجَمْعٍ ناصرِي أُمّ هَيْثَمٍ ... فما رجعوا من ذَوْدِهَا بِبَعِيرِ

٩٢ ـ يوم ماكسين(١)

لمّا استحكم الشرُّ بين قيس وتغلب، وعلى قيس عُمَيْرٌ، وعلى تغلب شُعَيْثٌ، غزا عُمَيْرٌ بني تغلب وجماعتهم بماكسين من الخابور فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وهي أوَّل وقعة لهم، فَقُتِلَ من بني تغلب خمسمائة، وقُتِلَ شُعَيْثٌ، وكانت رجله قُطِعَتْ فَقَاتَلَ حتى قُتِلَ، وهو يقولُ:

قد عَلِمَتْ قَيْسٌ ونحنُ نَعْلَمُ ... أنَّ الفَتَىٰ يُقْتَلُ وهو أَجْذَمُ

٩٣ ـ يوم الثرثار الأول

والثرثار(٢) نهر أصلُ منبعِهِ شرقي مدينة سنجار وبالقرب من قرية يقال لها سرق، ويفرغ في دجلة بين الكحيل ورأس الإبل من عمل الفرج، لما قُتِلَ بماكسين مَنْ ذكرنا، استمدَّت تغلب وحشدت واجتمعت إليها النَّمِرُ بن قاسط وأتاها المُشَجَّر بن الحارث الشيبانيّ، وكان من ساداتهم بالجزيرة، وأتاها عُبَيْدُ الله بن زياد بن ظبيان منجدًا لهم على قيس؛ فلذلك حقد عليه مُصعب بن الزُّبير حتى قتل أخاه النابي بن زياد، واستنجد عُمَيْرٌ تميمًا وأسدًا، فلم ينجده منهم أحد، فالتقوا على الثرثار وقد جعلتْ تغلبُ عليها بعد شُعَيْثٍ زياد بن هَوْبَر ويقال يزيد بن هوبر التغلبيّ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت قيس وقَتَلَتْ تغلبُ ومن معها منهم مقتلة عظيمة، وبقروا بطون ثلاثين امرأة من بني سليم، وقالت ليلى بنت الحارث التغلبية، وقيل: هي للأخطل:

لما رأونا والصليب طالعا ... ومارس جيش وسما ناقعا
والخيل لا تحمل إلّا دارعا ... والبيضُ في أيْمانِنا قواطِعَا
خلَّوْا لنا الثرثار والمَزَارِعَا ... وحِنْطةً طيسًا وكرمًا يَانِعَا

---

(١) بكسر الكاف بلد بالخابور.

(٢) وادٍ عظيم بالجزيرة، يصبّ في دجلة أسفل تكريت.

٩٤ ـ يوم الثرثار الثاني

ثم إنّ قيسًا تجمّعت واستمدّت واستعدّت وعليها عُمَيْرٌ بن الحباب، وأتاهم زُفَرُ بن الحارث من قَرْقِيسيا، وكان رئيس بني تغلب، والنَّمر ومن معهما ابن هوبر فالتقوا بالثرثار، واقتتلوا أشدّ قتال اقتتله الناس، وانهزمت بنو عامر وكانت على مُجَنِّبة قيس، وصبرت سليمُ وأعصرت حتى انهزمت تغلب ومن معها، وقتل ابنا عبد يشوع وغيرهما من أشراف تغلب، فقال عُمَيْرٌ بن الحباب:

فدًا لفوارس الثرثار نفسي ... وما جمَعْتُ مِنْ أهلٍ ومالِ
وولّت عامرٌ عنّا فأجْلَتْ ... وحَوْلي من ربيعة كالجبالِ
أُكافحهم بدُهم من سليم ... وأعصر كالمصاعيب النّهالِ

وقال زُفَر بن الحارث:

ألا من مبلِّغٍ عنّي عُمَيْرًا ... رِسالةَ ناصحٍ وعليه زاري
أنترك حيَّ ذي يمن وكلبا ... ونجعل جدُّنا بك في نِزار
كمعتمدٍ على إحدى يديه ... فخانته بوهنٍ وانكسارِ

٩٥ ـ يوم الفُدَيْن[1]

وأغار عُمَيْرُ بن الحباب على الفُدَين، وهي قرية على الحابور، وقَتَل مَنْ بها من بني تغلب فهزمهم، فقال نُفَيْع بن صفار المحاربي:

لو تسأل الأرضَ الفضاءَ عَلَيْكُمُ ... شهد الفُدَيْن بهلككُمْ والصور

والصُّور: قرية من الفُدَيْن.

٩٦ ـ يوم السُّكَيْر[2]

وهو على الخابور ويسمّى سكيرِ العباس، ثم اجتمعوا والتقوا بالسكير وعلى قيس عُمَيْر بن الحباب، وعلى تغلب والنَّمِر يزيد بن هَوْبر، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت تغلب والنَّمِر، وهرب عمير بن جندل، وهو من فرسان تغلب، فقال

(١) فُدَيْن بالتصغير وهو ما بين ماكسين وقرقيسيا.
(٢) تصغير السكر.

عمير بن الحباب:

وأفلتنا يومَ السُّكَيْر ابن جندل ... على سابحٍ عوجِ اللُّبان مُثابرِ
ونحن كررنا الخيلَ قُدْمًا شوازِبًا ... دقاقُ الهوادي داميات الدَّوائرِ

وقال ابن صفار:

صبَّحْناكم بِهِن على سكير ... ولاقيتم هناك الأقورينا

٩٧ - يوم المعارك

والمعارك بين الحضر والعتيق من أرض الموصل، اجتمعت تغلبُ بهذا المكان فالتقوا هم وقيس، فاقتتلوا به واشتدّ قتالهم، فانهزمت تغلب، وقال ابن صفار:

ولقد تركنا بالمعاركِ منكم ... والحضر والثرثار أجسادًا جثا

فيُقال: إن يوم المعارك والحضر واحد، هزموهم إلى الحضر وقتلوا منهم بشرًا كثيرًا، وقال بعضهم: هما يومان كانا لقيسٍ والله أعلم، والتقوا أيضًا بلبًى[1] فوق تكريت من أرض الموصل فتناصفوا، فقيسٌ تقول: كان الفضل لنا، وتغلب تقول: كان الفضلُ لنا.

٩٨ - يوم الشرعبية

ثم التقوا بالشَّرعَبية وعلى قيس عمير بن الحباب، وعلى تغلب وألفافها ابن هوبر، فكان بينهم قتالٌ شديدٌ قُتِل يومئذ عمار بن المهزم السلمي، وكان لتغلب على قيس، قال الأخطل:

ولقد بكىٰ الجحّافُ لما أَوْقَعَتْ ... بالشَّرْعَبِيَّة إذْ رأىٰ الأهوالَا

يعني: أوقعت الخيل، والشَّرعبيّة من بلاد تَغْلِب، والشرعبيّة أيضًا ببلاد مَنْبِجَ، فبعضهم يقول: إنّ هذه الوقعة كانت ببلاد مَنْبِجَ وذلك خطأ.

٩٩ - يَوْمُ البُلَيْخ

واجتمعت تغلب، وسارت إلى البليخ، وهناك عُمَيْرٌ في قيس، والبُلَيْخ نهرٌ بَيْنَ حَرَّان والرَّقَّة، فالتقَوْا وانهزمت تغلب، وكَثُر القتل فيها، وبُقِرت بطون النِّساء، كما

(١) بكسر أوّله وبالتنوين.

فعلوا يوم الثرثار؛ فقال ابن صفار:

زُرْقُ الرِّماحِ وَوَقْعُ كلِّ مهنّدٍ زَلْزَلْنَ قلبك بالبليخ فزالا

١٠٠ ـ يوم الحُشَّاك ومقتل عُمَيْرِ بن الحباب السُّلميّ وابن هوبر التغلبي

لما رأت تغلب إلحاح عُمَيْر بن الحباب عليها جمعت حاضرتها وباديتها، وساروا إلى الحَشَّاك، وهُوَ تَلٌّ قَرِيبٌ من الشَّرعبيَّة، وإلى جنبه بُراق، ودَلَفَ إليه عُمَيْر في قيس، ومعه زُفَرُ بن الحارث الكلائي وابنه الهُذَيْلُ بن زُفَر، وعلى تغلب ابن هوبر، واقتتلوا عند تل الحَشَّاك أشدَّ قتالٍ وأبرحه حتى جنَّ عليهم الليل، ثم تفرَّقوا، واقتتلوا من الغدِ إلى الليل ثم تحاجزوا، وأصبحت تغلب في اليوم الثالث فتعاقدوا أن لا يفرُّوا، فلما رأى عُمَيْرٌ جِدَّهم وأن نساءَهم معهم قال لقيس: «يا قوم أرىٰ لكم أن تنصرفوا عن هٰؤلاء فإنّهم مستقتلون، فإذا اطمأنّوا وساروا إلى سرحهم وَجَّهْنا إلى كلِّ قومٍ منهم من يُغِير عليهم»، فقال له عبد العزيز بن حاتم بن النُّعمان الباهلي: «قتلت فرسان قيس أمسِ وأوَّلَ أمسِ ثم ملى سَحْرَكَ وَجَبُنْتَ»، ويقال: إن عُيَيْنَة بن أسماء بن خارجة الفَزَاري قال له ذلك ـ وكان أتاه منجدًا ـ فغضب عُمَيْرٌ وقال: كأني بك وقد حَمِي الوغى أوَّل فارٌ، فنزل عُمَيْر وجعل يقاتل راجلاً، وهو يقول:

أنا عُمَيْرٌ وأبو المُغَلِّس قد أحبس القوم بضَنْكٍ فأحْبِسِ

وانهزَمَ زُفَرُ يومئذٍ، وهو اليوم الثالث، فلحق بقَرْقِيسيا، وذلك أنه بلغه أن عبد الملك بن مروان قد عزم على الحركة إليه بقرقيسيا فبادر للتأهُّب، وقيل: إنه آدّعى ذلك حين فرَّ اعتذارًا، وانهزمت قيس، وركبت تغلب ومن معها أكتافهم، وهم يقولون: أمَا تعلمون أن تغلبَ تغْلِبُ، وشدَّ على عُمَيْرٍ جميلُ بن قيسٍ من بني كَعْب بن زُهَيْر فقتله، وقيل: بل تقاوىٰ على عمير غلامان من بني تغلب فرمياه بالحجارة وقد أعيياه فأثخناه، وكرَّ عليه ابن هوبر فقتله، وأصابت ابن هوبر يومئذٍ جراحة، فلما انقضت الحرب أوصى بني تغلب بأن يُوَلُّوا أمرهم مراد بن عَلْقَمَة الزُّهيري، وقيل: خرج ابن هوبر في اليوم الثاني من أيَّامهم هذه الثلاثة وأوصى أنهم يولّون أمرَهم مرادًا ومات ليلته، وكان مراد رئيسهم في اليوم الثالث، فعبّأهم على راياتهم، وأمر كل بني أبٍ أن يجعلوا نساءهم خلفهم، فلما أبصرهم عمير قال ما

تقدم ذكره؛ قال الشاعر:

أرقْتُ بأثناءِ الفراتِ وشفَّني نوائحُ أبكاها قتيلُ ابن هوبر
ولم تظلمي أن نحتِ أُمَّ مُغَلِّسٍ قتيل النصارى في نوائحَ حُسَّرِ

وقال بعض الشعراء ينكر قتل ابن هوبر عُمَيْرًا:

وإنَّ عُمَيْرًا يومَ لاقَتْهُ تغلبُ قتيلُ جميلٍ لا قتيلَ ابن هوبرِ

وكَثُر القتل يومئذ في بني سُلَيم، وغنيّ خاصة، وقُتِل من قيسٍ أيضًا يومئذ بشر كثير، وبعثت بنو تغلب رأس عُمَيْر بن الحباب إلى عبد الملك بن مروان بدمشق فأعطى الوفد وكساهم، فلما صالح عبد الملك زُفَر بن الحارث واجتمع الناس عليه، قال الأخطل:

بني أُميّة قد ناضلتُ دُونَكُمُ
أبناءَ قومٍ هم آوَوْا وَهُمْ نَصَرُوا
وقيسَ عَيْلانَ حتى أقبلوا رقصًا
فبايَعُوا لك قسرًا بعد ما قهروا
ضَجُّوا من الحربِ إذ عَضَّتْ غَوارِبَهُمْ
وقيسُ عيلان من أخلافِها ضَجِرُوا

في أبياتٍ كثيرة؛ فلما قُتِلَ عُمَيْر بن الحباب وقف رجلٌ على أسماء بن خارجة الفزاري بالكوفة، فقال: قَتلتْ بنو تغلب عُمَيْر بن الحباب، فقال: لا بأس إنما قتل الرجل في ديار القوم مقبلاً غيرَ مُدْبِر، ثم قال:

يدي رهنٌ على سليم بغارة تشيبُ لها أصداغُ بكرِ بن وائلِ
وتترك أولادَ الفدوكس عالةً يتامىٰ أيامىٰ نهزةً للقبائلِ

١٠١ - يوم الكُحَيْل

وَهُوَ من أرضِ المَوْصِل في جانب دجلة الغربيّ، وسببه أنّه لما قُتِلَ عُمَيْر بن الحباب السلميّ أتى تميم بن عُمَيْر زُفَر بن الحارث فسأله أن يطلب له بثأره، فامتنع، فقال الهُذيل بن زفر لأبيه: والله لَئِن ظفرت بهم تغلب إن ذلك لعارٌ عليك، ولئن ظفروا بتغلب وقد خذلتهم إن ذلك لأشدُّ، فاستخلف زُفَر على قَرْقيسيا أخاه أوس بن

الحارث، وعزم على أن يُغير على بني تغلب ويغزوهم، فوجَّه خيلاً إلى بني فدوكس - بطن من تغلب - فَقُتِلَ رجالُهُمْ واستبيحتْ أموالهم ونساؤهم حتى لم يبقَ غيرُ امرأة واحدة استجارت فأجارها يزيد بن حمران، ووجَّه زُفَر بن الحارث ابنه الهُذَيْل في جيشٍ إلى بني كعب بن زهير فقتل فيهم قَتْلاً ذريعًا، وبعث زُفَر أيضًا مسلم بن ربيعة العقيلي إلى قوم تغلب مجتمعين فأكثر فيهم القتل، ثم قصد زُفَر لبني تغلب وقد اجتمعوا بالعقيق من أرض الموصل، فلما أحسَّتْ به ارتحلت تريد عُبُور دجلة، فلما صارت بالكُحَيْل لحقهم زُفَر في القيسيَّة فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وترجَّل أصحابُ زُفَر أجمعون، وبقي زُفَر على بغلَ له، فقتلوهم ليلتهم، وبقَرُوا بطون نساءٍ منهم، وغَرِقَ في دجلة أكثر ممّن قُتِلَ بالسيف، فأتى فلَّهم لِبّى فوجَّه زُفَر ابنه الهذيل فأوقع بهم إلّا من عَبَرَ فنجا، وأسر زُفَر منهم مائتين فقتلهم صَبْرًا، فقال زُفَر:

ألَا يا عينُ بكِّي بانسكابِ	وبكّي عاصمًا وابنَ الحبابِ
فإن تَكُ تغلبٌ قَتَلَتْ عُمَيْرا	ورهطًا من غَنِيٍّ في الحرابِ
فقد أفنىٰ بني جُشَمِ بن بَكْرٍ	ونمرهم فوارسُ من كلابِ
قَتَلْنا منهمُ مائتينِ صَبْرًا	وما عدلوا عُمَيْرَ بن الحبابِ

وقال ابنُ صفّار المحاربيّ:

ألَمْ ترَ حَرْبنا تركَتْ حبيبًا	مُحالِفَها المذلَّةُ والصَّغارُ
وقد كانوا أُولي عزٍّ فأضحوا	وليس لهم من الذُّلِّ انتصارُ

وأسرَ القطامي التغلبيّ في يومٍ من أيّامهم، وأخذ ماله، فقام زُفَر بأمره حتى ردَّ عليه ماله ووصله، فقال فيه:

إني وإنْ كان قومي ليس بينهم	وبين قومِكَ إلّا ضربةَ الهادي
مثنٍ عليك بما أوليت من حسنٍ	وقد تعرّض لي من مقتل بادي

(حُبَيب): الذي في الشِّعر هو بضم الحاء المهملة وفتح الباء الموحدة، وهو في نسب بني تغلب.

١٠٢ - يوم البشر

فلما استقرَّ الأمرُ لعبد الملك واجتمع المسلمون عليه قدم عليه الأخطل الشاعر التغلبيّ وعنده الجحّافُ بنُ حكيم السليميّ، فقال له عبد الملك: أتعرف هذا يا

أخطل؟ قال: نعم هذا الذي أقول فيه:

أَلَا سائلِ الجحافَ هل هو ثائرٌ بقتلى أصيبت من سُلَيْمٍ وعامرِ

وأنشدَ القصيدة حتى فرغ منها، وكان الجحّافُ يأكلُ رُطَبًا فجعل النوى يتساقط من يده غيظًا، وأجابه وقال:

بلى سوف نبكيهم بكل مُهنّد وننعى عميرًا بالرماحِ الشواجرِ

ثم قال: يا ابن النصرانيّة ما كنت أظنُّ أن تجترئ عليَّ بمثل هذا، فأرعد الأخطل من خوفه، ثم قام إلى عبد الملك، وأمسك بذيله، وقال: هذا مقام العائذ بك وأنا لك جار، ثم قام الجحّاف ومشى وهو يجرُّ ثوبه ولا يعقل به، فتلطّف لبعض كتاب الديوان حتى اختلق له عهدًا على صدقات تغلب، وبكر بالجزيرة، وقال لأصحابه: إن أمير المؤمنين قد ولّاني هذه الصدقات، فمن أراد اللّحاق بي فليفعل، ثم سار حتى أتى رصافة هشام، فأعلم أصحابه ما كان من الأخطل إليه، وأنه افتعل كتابًا، وأنه ليس بوالٍ، فمن كان أحبّ أن يغسل عني العار وعن نفسي فليصحبني فإني قد أقسمتُ أن لا أغسل رأسي حتى أوقع في بني تغلب، فرجعوا عنه غير ثلاثمائة قالوا له: نموت بموتك ونحيا بحياتك، فسار ليلته حتى صبح الرحوب ـ وهو ماء لبني جُشَم بن بكر من تغلب ـ فصادف عليه جماعةً عظيمةً منهم، فقتل فيهم مقتلة عظيمة، وأسر الأخطل وعليه عباءة وسخة فظنّه الذي أسره عبدًا، فسأله من هو؟ فقال: عبد، فأطلقه، فرمى بنفسه في جبٍّ، وخاف إن رآه من يعرفه أن يقتله، فلما انصرف الجحّاف خرج من الجبّ، وأسرف الجحّاف في القتل، وبقر البطون عن الأجنّة، وفعل أمرًا عظيمًا؛ فلما عاد عنهم قدم الأخطل على عبد الملك، فأنشده قوله:

لقد أوقع الجحّاف بالبشر وَقْعَةً إلى الله منها المشتكى والمعوَّلُ

فهرب الجحّافُ فطلبه عبد الملك، فلحق ببلاد الروم، وقال بعد وقعة البشر يخاطب الأخطل:

أبا مالكٍ هل لُمْتني أو حَضَضْتَني على القَتْلِ أم هل لامَنِي كلُّ لائِمِ
أَلَمْ أُفْنِكُمْ قَتْلاً وَأَجْدَعْ أُنوفَكُمْ بفتيانِ قيسٍ والسيوفِ الصَّوارمِ
بكلّ فتًى ينعىٰ عُمَيْرًا بسيفِهِ إذا اعتصمَتْ أيمانُهُمْ بالقوائِمِ

فإن تطردوني تطردوني وقد جرىٰ بِيَ الورد يومًا في دماءِ الأراقم[١]
نكحت بسيفي في زُهَيْرٍ ومالكٍ نكاح اغتصابٍ لا نكاح دراهمِ

في أبياتٍ؛ ولم يزل الجحّاف يتردّد في بلاد الروم من طرابزندة إلى قاليقلا، وبعث إلى بطانة عبد الملك من قيس حتى أخذوا له الأمان فأمّنه عبد الملك، فقدم عليه، فألزمه ديات من قتل، وأخذ منه الكفلاء وسعىٰ فيها، فأتى الحجّاج من الشام فطلب منه، فقال له: متى عهدتني خائنًا؟ فقال له: ولكنك سيّد قومك ولك عمالة واسعة، فقال: لقد ألهمت الصِّدق، فأعطاه مائة ألف درهم وجمع الديات فأوصلها، ثم تنسَّك بعدُ وصَلُح ومضى حاجًّا فتعلّق بأستار الكعبة، وجعل ينادي: اللّهمّ اغفر لي وما أظنّك تفعل، فسمعه محمد ابن الحنفية فقال: يا شيخ قنوطك شرّ من ذنبك، وقيل: إن سبب عوده كان أن الجحّاف أكرمه ملك الروم وقرّبه وعرض عليه النصرانية ويعطيه ما شاء، فقال: ما أتيتك رغبةً عن الإسلام، ولقِـيَ الروم تلك السنة عساكر المسلمين صائفة فانهزم المسلمون، وأخبروا عبد الملك أنّهم هزمهم الجحّاف، فأرسل إليه عبد الملك يُؤمّنه، فسار وقصد البشر وبه حيّ من بشر، وقد لبس أكفانه وقال: قد جئت إليكم أعطي القود من نفسي، وأراد شبابهم قتله فنهاهم شيوخهم، فغفر عنه وحجّ؛ فسمعه عبد الله بن عمر وهو يطوف ويقول: اللّهمّ اغفر لي وما أظنّك تفعل، فقال ابن عمر: لو كنت الجحّاف ما زدت على هذا، قال: فأنا الجحّاف.

١٠٣ ـ يوم الزاوية[٢]

اقتتل عسكر الحجّاج وعسكر عبد الرحمٰن بن الأشعث قتالاً شديدًا، فتزاحفوا في المحرم عدّة دفعات، فلما كان ذات يوم في آخر المحرم اشتدَّ قتالهم، فانهزم أصحاب الحجاج حتى انتهوا إليه وقاتلوا على خنادقهم، ثم إنهم تزاحفوا آخر يوم من المحرم، فجال أصحاب الحجّاج وتقوّص صفُّهم، فجثىٰ الحجاج على ركبتيه وقال: لله درّ مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وعزم على أنه لا يفرُّ، فحمل سفيان بن الأبرد الكلبي على المَيْمنة التي لعبد الرحمٰن فهزمها وانهزم أهل العراق، وأقبلوا نحو الكوفة مع عبد الرحمٰن وقُتل منهم خلقٌ كثير منهم عقبة بن عبد الغافر الأزدي وجماعة من القرَّاء قتلوا ربضةً واحدة معه، ولما بلغ عبد الرحمٰن الكوفة تبعه أهل القوّة وأصحاب الخيل من أهل البصرة، واجتمع من بَقِـيَ في البصرة مع

(١) الورد: الفرسي الذي لونه الحمرة.
(٢) في المحرم سنة ٨٢ من الهجرة.

عبد الرحمٰن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب فبايعوه فقاتل بهم الحجّاج خمس ليالٍ أشدَّ قتالٍ رآه الناس، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث وتبعه طائفة من أهل البصرة، وقُتل منهم طُفَيْل بن عامر بن واثلة، فقال أبوه يرثيه وهو من الصحابة:

خَلَّى طُفَيْلٌ عَلَيَّ الهَمَّ فانشَعَبَا ... وهَدَّ ذلك رُكْنِي هَدَّةً عَجَبَا
مهما نَسيتُ فَلا أنْسَاهُ إذْ حَدَقَتْ ... بِهِ الأَسِنَّةُ مَقْتُولاً ومُنْسَلِبَا
وَأَخْطَأتْنِي المَنَايَا لا تُطَالِعُنِي ... حتى كَبِرْتُ ولم يَتْرُكْنَ لِي نَسَبَا
وكنتُ بعد طُفَيْلٍ كالَّتي نَضَبَتْ ... عَنْهَا السيولُ وغاضَ الماءُ أنْصَبَا

وهي أبياتٌ عدَّة، وهذه الوقعة تسمى يوم الزاوية.

فأقام الحجاج أول صفر واستعمل على البصرة الحكم بن أيوب الثقفي، وسار عبد الرحمٰن إلى الكوفة، وقد كان الحجاج استعمل عليها عند مسيره إلى البصرة عبد الرحمٰن بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عامر الحضرمي حليف بني أُمية، فقصده مطر بن ناجية اليربوعي، فتحصَّن منه ابن الحضرمي في القصر، ووثب أهل الكوفة مع مطر، فأخرج ابن الحضرمي ومن معه من أهل الشام، وكانوا أربعة آلاف واستولى مطر على القصر واجتمع الناس وفرَّق فيهم مائتي درهم، مائتي درهم، فلما وصل ابن الأشعث إلى الكوفة كان مطر بالقصر، فخرج أهل الكوفة يستقبلونه، ودخل الكوفة وقد سبق إليه همدان فكانوا حوله، فأتى القصر فمنعه مطر بن ناجية ومعه جماعة من بني تميم، فأصعد عبد الرحمٰن الناس في السلاليم إلى القصر فأخذوه، فأُتِيَ عبد الرحمٰن بمطر بن ناجية فحبسه ثم أطلقه وصار معه، فلما استقرّ عبد الرحمٰن بالكوفة اجتمع إليه الناس وقصده أهل البصرة، منهم عبد الرحمٰن بن العباس بن ربيعة الهاشمي بعد قتاله الحجاج بالبصرة، وقتل الحجاج يوم الزاوية بعد الهزيمة أحد عشر ألفًا خدعهم بالأمان، وأمر مناديًا فنادىٰ: لا أمان لفلان بن فلان، فسمّى رجالاً، فقال العامّة: قد أمَّن الناس، فحضروا عنده فأمر بهم فقُتِلُوا.

١٠٤ - يوم دير الجماجم(١)

كان سببها أنّ الحجاج سار من البصرة إلى الكوفة لقتال عبد الرحمٰن بن محمد فنزل دير قرّة، وخرج عبد الرحمٰن من الكوفة فنزل دير الجماجم، فقال الحجّاج: إن

(١) في شعبان من سنة ٨٢ من الهجرة.

عبد الرحمٰن نزل دير الجماجم ونزل دير القُرَّة، أما تزجر الطير، واجتمع إلى عبد الرحمٰن أهل الكوفة، وأهل البصرة، والقرّاء، وأهل الثغور، والمسالح بدَيْر الجماجم؛ فاجتمعوا على حرب الحجاج لبغضه، وكانوا مائة ألف ممّن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم، وجاءت الحجاج أيضًا أمداد من الشام قبل نزوله بدَيْر قُرَّة، وخَنْدَقَ كلٌّ منهما على نفسه، فكان الناس يقتتلون كل يوم ولا يزال أحدهما يُدني خندقه من الآخر، ثم إن عبد الملك وأهل الشام قالوا: إن كان يرضى أهل العراق بنزع الحجاج عنهم نزعناه، فإن عزله أيسر من حربهم ونحقن بذلك الدماء، فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان، وكان محمد بأرض الموصل إلى الحجاج في جندٍ كثيف، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وأن يجريا عليهم أعطياتهم كما يجري على أهل الشام، وأن ينزل عبد الرحمٰن بن محمد أيَّ بلدٍ شاء من بلد العراق، فإذا نزل كان واليًا عليه ما دام حيًّا وعبد الملك خليفة، فإنْ أجاب أهل العراق إلى ذلك عزلا الحجاج عنها وصار محمد بن مروان أمير العراق، وإن أبىٰ أهل العراق قبول ذلك فالحجاج أمير الجماعة ووالي القتال ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته، ولمْ يأتِ الحجاج أمرٌ قطُّ كان أشدَّ عليه ولا أوجع لقلبه من ذلك، فخاف أن يقبل أهل العراق عزله، فيعزل عنها.

فكتب إلى عبد الملك: والله لو أعطيت أهل العراق نزعي لم يلبثوا إلّا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلّا جراءة عليك، أَلَمْ تَرَ ويبلغك وثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان وسؤالهم نزع سعيد بن العاص فلما نزعه لم تتمّ لهم السنة حتى ساروا إلى عثمان فقتلوه، وإن الحديد بالحديد يفلح؛ فأبىٰ عبد الملك إلّا عرض عزله على أهل العراق، فلما اجتمع عبد الله ومحمد مع الحجاج خرج عبد الله بن عبد الملك وقال: يا أهل العراق أنا ابن أمير المؤمنين، وهو يعطيكم كذا وكذا، وخرج محمد بن مروان وقال: أنا رسول أمير المؤمنين وهو يعرض عليكم كذا وكذا فذكر هذه الخصال، فقالوا: نرجع العشيّة، فرجعوا واجتمع أهل العراق عند ابن الأشعث فقال لهم: قد أعطيتم أمر انتهازكم اليوم إيّاه فرصة وإنكم اليوم على النِّصف فإن كانوا اعتدوا عليكم بيوم الزاوية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر، فاقبلوا ما عَرَضُوا عليكم وأنتم أعزّاء أقوياء لقوم هم لكم هائبون وأنتم لهم منتقضون، فوالله لا زلتم عليهم جرآء وعندهم أعزّاء أبدًا ما بقيتم إن أنتم قَبِلْتُمْ، فوثب الناس من كلِّ جانب، فقالوا: إن الله قد أهلكهم، فأصبحوا في الضَّنك والمجاعة والقلّة والذلّة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرّخيص والمادة القريبة، لا والله لا نقبل وأعادوا خلعه ثانية،

وكان أوّل من قام بخلعه بدير الجماجم عبد الله بن ذؤاب السلمي، وعمير بن تيجان، وكان اجتماعهم على خلعه بالجماجم أجمع من خلعهم إيّاه بفارس، فقال عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان للحجّاج: شأنك بعسكرك وجندك واعمل برأيك، فإنّا قد أُمِرْنا أن نسمع لك ونُطِيع، فقال: قد قلت: إنه لا يراد بهذا الأمر غيركم فكانا يسلمان عليه بالإمرة ويسلّم عليهما بالإمرة، فلما اجتمع أهل العراق بالجماجم على خلع عبد الملك، قال عبد الرحمٰن: ألا إنّ بني مروان يعيرون بالزرقاء، والله ما لهم نسب أصحُ منه إلّا أن بني العاص أعلاج من أهل صفورية، فإن يكن هذا الأمر من قريش فمني تقويت بيضة قريش، وإن يكُ في العرب فأنا ابن الأشعث، ومدَّ بها صوته يسمع الناس، وبرزوا للقتال فجعل الحجاج على ميمنته عبد الرحمٰن بن سليم الكلبي، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللّخمي، وعلى خيله سفيان بن الأبرد الكلبي، وعلى رجاله عبد الله بن خبيب الحكمي، وجعل عبد الرحمٰن بن محمد على ميمنته الحجاج بن حارثة الخثعميّ، وعلى ميسرته الأبرد بن قرّة التميمي، وعلى خيله عبد الرحمٰن بن العباس بن ربيعة الهاشمي، وعلى رجاله محمد بن سعد بن أبي وقّاص، وعلى مجنبته عبد الله بن رزام الحارثي، وجعل على القرّاء جبلة بن زحر بن قيس الجعفيّ، وفيهم سعيد بن جبير، وعامر الشعبيّ، وأبو البختري الطائيّ، وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى، ثم أخذوا يتزاحفون كل يوم ويقتتلون وأهل العراق تأتيهم موادهم من الكوفة وسوادها وهم في خصب وأهل الشام في ضنكٍ، وقد غلت عليهم الأسعار، وفُقِدَ عندهم اللحم كأنهم في حصار، وهم على ذلك يغادون القتال ويراوحون، فلما كان اليوم الذي قتل فيه جبلة بن زحر بن قيس وكانت كتيبته تدعىٰ القراء تحمل عليهم فلا يبرحون، وكانوا قد عرفوا ذلك وكان فيهم كميل بن زياد ـ وكان رجلًا ركينًا ـ فخرجوا ذات يوم كما كانوا يخرجون وعبّأ الحجاج صفوفه، وعبّأ عبد الرحمٰن أصحابه، وعبّأ الحجاج لكتيبة القرّاء ثلاث كتائب وبعث عليها الجراح بن عبد الله الحكمي، فأقبلوا نحوهم فحملوا على القرّاء ثلاث حملات كل كتيبة تحمل حملة، فلم يبرحوا وصبروا.

فلمّا حملت كتائب الحجاج الثلاث على القرّاء من أصحاب عبد الرحمٰن وعليهم جبلة بن زَحَر نادى جبلة: يا عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، يا معشر القراء إن الفرار ليس أحد بأقبح به منكم، إني سمعت عليّ بن أبي طالب رفع الله درجته في الصالحين وأتاه ثواب الصادقين والشهداء يقول يوم لقينا أهل الشام: أيُها المؤمنون إنه من رأى عدوانًا يعمل به ومنكرًا يُدعى إليه فأنكره عليه بقلبه فقد سَلِم وبرئ، ومن

أنكره بلسانه فقد أجسر، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمةَ الله هي العليا وكلمة الظالمين السفلىٰ، فذلك الذي أصاب سبل الهدى ونوَّر قلبه باليقين، فقاتلوا هؤلاء المحلّين المحدثين المبتدعين الذين جهلوا الحقّ فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه، وقال أبو البختري: أيُّها الناس قاتلوهم على دينكم ودنياكم، فوالله لَئِن ظهروا عليكم ليفسدنّ عليكم دينكم وليغلبن على دنياكم، فقال الشعبيّ: أيّها الناس قاتلوهم ولا يأخذكم حرج من قتالهم، والله ما أعلم على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أجور في حكم منهم، وقال سعيد بن جبير نحو ذلك، وقال جبلة: احملوا عليهم حملة صادقة ولاَ تردُّوا وجوهكم عنهم حتى تواقعوا صفَّهم، فحملوا عليهم حملة صادقة فضربوا الكتائب حتى أزالوها وفرّقوها وتقدّموا حتى واقعوا صفَّهم فأزالوه عن مكانه، ثم رجعوا فوجدوا جبلة بن زَحَر قتيلاً لا يدرون كيف قُتِل.

وكان سبب قَتله أن أصحابه لمّا حملوا على أهل الشام ففرّقوهم فوقف لأصحابه ليرجعوا إليه، فافترقت فرقة من أهل الشام فوقفت ناحية، فلمّا رأوا أصحاب جبلة قد تقدّموا قال بعضهم لبعض: هذا جبلة احملوا عليه ما دام أصحابه مشاغيل بالقتال، فحملوا عليه فلم يوَلِ لكنه حمل عليهم فقتلوه، وكان الذي قتله الوليد بن نحيت الكلبي وجيء برأسه إلى الحجاج فبشَّر أصحابه بذلك، فلما رجع أصحاب جبلة ورأوه قتيلاً سقط في أيديهم وتنازعوه بينهم، فقال لهم أبو البختري: لا يظهرنّ عليكم قتل جبلة إنما كان كرجل منكم أتته منيّته، فلم يكن ليتقدم ولا يتأخّر، وظهر الفشل في القرّاء وناداهم أهل الشام: يا أعداء الله قد هَلَكْتُم وقُتِل طاغيتكم، وقدم عليهم بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ ففرحوا به وقالوا: تقدم مقام جبلة، وكان قدومه من الريّ، فلما أتى عبد الرحمٰن جعله على ربيعة وكان شجاعًا، فقاتل يومًا فدخل عسكر الحجاج فأخذ أصحابه ثلاثين امرأة فأطلقهن، فقال الحجّاج: منعوا نساءهم لو لم يردّوهن لسُبِيَتْ نساءهم إذا ظهرت عليهم، وخرج عبد الرحمٰن بن عوف الرواسي أبو حميد فدعا إلى المبارزة فخرج إليه رجلٌ من أهل الشام فتضاربا، فقال كلّ واحدٍ منهما: أنا الغلام الكلابي، فقال كل واحد منهما لصاحبه: من أنت؟ وإذا هما ابنا عَمّ فتحاجزا، وخرج عبد الله بن رزام الحارثي فطلب المبارزة فخرج إليه رجلٌ من عسكر الحجاج فقتله ثم فعل ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع خرج فقالوا: جاء لا جاء الله به، فطلب المبارزة، فقال الحجاج للجراح: اُخرج إليه، فخرج إليه فقال له عبد الله - وكان له صديقًا -: وَيْحك يا جراح ما أخرجك؟ قال: ابْتُليتُ بك، قال: فهل لك في خيرٍ؟ الجراح: ما هو؟ قال عبدالله: أنهزم لك وترجع إلى الحجاج وقد أحسنت

عنده وحمدك، وأما أنا فأحتمل مقالة الناس في انهزامي حسبًا لسلامتك، فإني لا أُحبّ قتل مثلك من قومي، قال: افعل، فحمل الجراح على عبد الله فاستطرد له عبد الله وحمل عليه الجراح بجدٍّ يريد قتله فصاح لعبد الله غلامه وكان ناحية معه ماء ليشربه وقال له: يا سيدي إن الرجل يريد قتلك، فعطف عبد الله على الجراح فضربه بعمودٍ على رأسه فصرعه، وقال له: يا جراح بئسما جزيتني أردت بك العافية وأردت قتلي، انطلق فقد تركتك للقرابة والعشيرة.

وكان سعيد بن جبير وأبو البختري الطائي يحملان على أهل الشام بعد قتل جبلة بن زُحَر حتى يخالطوهم، وكانت مدّة الحرب مائة يوم وثلاثة أيام؛ لأنه كان نزولهم بالجماجم لثلاثة مَضَتْ من ربيع الأول، وكانت الهزيمة لأربع عشرة مَضَيْن من جمادىٰ الآخرة، فلما كان يوم الهزيمة اقتتلوا أشدّ قتالٍ واستظهر أصحاب عبد الرحمٰن على أصحاب الحجاج واستعملوا عليهم وهم آمنون أن يهزموا؛ فبينا هم كذلك إذ حمل سفيان بن الأبرد وهو في ميمنة الحجاج على الأبرد بن قرّة التميمي وهو على ميسرة عبد الرحمٰن، فانهزم الأبرد بن قرّة من غير قتالٍ يذكر، فظنّ الناس أنه قد كان صولح على أن ينهزم بالناس، فلما انهزم تقوّضت الصفوف من نحوه وركب الناس بعضهم بعضًا، وصعد عبد الرحمٰن المنبر ينادي الناس: إليّ عباد الله، فاجتمع إليه جماعة فثبت حتى دنا منه أهل الشام فقاتل من معه، ودخل أهل الشام العسكر فأتاه عبد الله بن يزيد بن المفضل الأزدي، فقال له: انزل، فإنّي أخاف عليك أن تؤسر ولعلّك إن انصرفت أن تجمع لهم جمعًا يهلكهم الله به، فنزل هو ومن معه لا يلوون على شيء.

ثم رجع الحجاج إلى الكوفة وعاد محمد بن مروان إلى الموصل، وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام، وأخذ الحجاج يبايع الناس، وكان لا يبايع أحدًا إلّا قال له: أشهد أنك كفرت، فإن قال: نعم، بايعه وإلا قتله، فأتاه رجل من خثعم وكان معتزلاً للناس جميعًا فسأله عن حالِهِ فأخبره باعتزاله، فقال له: أنت متربّص أتشهد أنك كافر؟ قال: بِئْسَ الرجل أنا أعبد الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر، قال: إذًا أقتلك، قال: وإن قتلتني فقتله ولم يبقِ أحد من أهل الشام والعراق إلّا رَحِمَه، ثم دعا بكميل بن زياد فقال له: أنت المقتص من أمير المؤمنين عثمان قد كنتُ أحبّ إليَّ من أن أجد عليك سبيلاً، قال: على أيّنا أنت أشدّ غضبًا عليه حين أقاد من نفسه أم عليَّ حين عفوت عنه؟ ثم قال: أيّها الرجل من ثقيف لا تصرف عليّ بنابك ولا تكشر عليّ كالذئب، والله ما بقي من عمري إلا ظمء الحمار، اقضِ ما أنت قاضٍ، فإن الموعد

الله وبعد القتل الحساب، قال الحجاج: فإن الحجة عليك، قال: ذلك إذا كان القضاء إليك، فأمر به فقتل، وكان خصيصًا بأمير المؤمنين، وأُتي بآخر من بعده فقال له الحجاج: أرى رجلاً ما أظنّه يشهد على نفسه بالكفر، فقال له الرجل: أتخادعني عن نفسي؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذي الأوتاد، فضحك منه الرجل وخلّى سبيله، وأقام بالكوفة شهرًا وأنزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة أنزلهم الحجاج فيها مع أهلها وهو أوّل من أنزل الجند في بيوت غيرهم وهو إلى الآن لا سيما في بلاد العجم، ومن سنَّ سنّة سيّئة كان عليه وزرها ووِزْر من عَمِل بها إلى يوم القيامة.

١٠٥ ـ يوم مسكن

ولمّا انهزم عبد الرحمٰن أتىٰ البصرة واجتمع إليه من المنهزمين جمعٌ كثير، وكان فيهم عبيد الله بن عبد الرحمٰن بن سَمُرة بن حبيب بن عبد شمس القرشيّ، وكان بالمدائن محمد بن سعد بن أبي وقّاص، فسار إليه الحجّاج فلحق ابن سعد بعبد الرحمٰن، وسار عبد الرحمٰن نحو الحجاج ومعه جمعٌ كثير فيهم بسطام بن مصقلة بن هُبَيْرة الشيباني وقد بايعه خلقٌ كثير على الموت، فاجتمعوا بمسكن وخندق عبد الرحمٰن على أصحابه وجعل القتال من وجهٍ واحد، وقدم عليه خالد بن جرير بن عبد الله من خراسان في ناسٍ من بعث الكوفة، فاقتتلوا خمسةَ عشر يومًا من شعبان أشدّ قتال، فقتل زياد بن غنم القيني وكان على مسالح الحجاج، فهدَّه ذلك وهدَّ أصحابه، وبات الحجاج يحرّض أصحابه، ولما أصبحوا باكروا القتال، فاقتتلوا أشدّ قتالٍ كان بينهم، فانكشفت خيل سفيان بن الأبرد، فأمر الحجاج عبد الملك بن المهلّب فحمل على أصحاب عبد الرحمٰن وحمل أصحاب الحجاج من كل جانب فانهزم عبد الرحمٰن وأصحابه، وقُتِل عبد الرحمٰن بن أبي ليلى الفقيه، وأبو البحتري الطائي، ومشى بسطام بن مصقلة بن هبيرة في أربعة آلاف فارس من شجعان أهل الكوفة والبصرة، فكسروا جفون سيوفهم وحثّ أصحابه على القتال فحملوا على أهل الشام فكشفوهم مرارًا، فدعا الحجاج الرُّماة فرموهم وأحاط بهم الناس فقتلوا إلّا قليلاً، ومضى ابن الأشعث نحو سجستان.

وقد قيل في هزيمة عبد الرحمٰن بمسكن غير هذا، والذي قيل: إنه اجتمع هو والحجاج بمسكن وكان عسكر ابن الأشعث والحجاج بين دجلة والسِّيب والكرخ، فاقتتلوا شهرًا ودونه فأتى شيخ فدلَّ الحجاج على طريقٍ من وراء الكرخ في أجمَّة

وضحضاح من الماء فأرسل معه أربعة آلاف، وقال لقائدهم: إنْ صدق فأعطه ألف درهم، فإن كذب فاقتله، فسار بهم؛ ثم إن الحجاج قاتل أصحاب عبد الرحمٰن فانهزم الحجاج فعبر السيب ورجع ابن الأشعث إلى عسكره آمنًا ونهب عسكر الحجاج فأمنوا وألقوا السلاح، فلم يشعروا نصف اللّيل إلّا والسيف يأخذهم من تلك السرية، فغرق من أصحاب عبد الرحمٰن أكثر ممن قُتِل، ورجع الحجاج في عسكره على الصوت فقتلوا من وجدوا، فكان عدّة مَنْ قُتِل أربعة آلاف منهم عبد الله بن شداد بن الهاد، وبسطام بن مصقلة، وعمرو بن ضبيعة الرّقاشي، وبشر بن المنذر بن الجارود وغيرهم.

١٠٦ ـ يوم حطين(١)

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر(٢)، فركبوا وتقدموا إلى الفرنج، فركب الفرنج، ودنا بعضهم من بعض إلّا أن الفرنج قد اشتدّ بهم العطش، وانخذلوا، فاقتتلوا واشتدّ القتال، وصبر الفريقان، ورمىٰ جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر، فقتلوا من خيول الفرنج كثيرًا هذا القتال بينهم، والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم، وهم يقاتلون سائرين نحو طبريّة لعلهم يردون الماء، فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدَّهم عن مُرادهم، ووقف بالعسكر في وجوههم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرِّضهم، ويأمرهم بما يصلحهم، وينهاهم عمّا يضرّهم، والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه، فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صفّ الفرنج فقاتل قتالاً عجب منه الناس، ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه، فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار، وقتلوا منهم كثيرًا، فلمّا رأى القمّص شدَّة الأمر علم أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين، فاتّق هو وجماعة وحمل على من يَليهم وكان المقدم من المسلمين في تلك الناحية تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب علم أنه لا سبب إلّا الوقوف في وجوههم، فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقًا يخرجون منه، وكان بعض المتطوّعة قد ألقى في تلك الأرض نارًا، وكان الحشيش كثيرًا، فاحترق وكانت الريح، فحملت حرّ النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش وحرُّ الزمان وحرّ النار والدخان وحرّ القتال، فلمّا انهزم القمّص سقط

(١) سنة ٥٨٣ من الهجرة، وهو بين السلطان صلاح الدين الأيوبي والصليبيين.

(٢) من سنة ٥٨٣ من الهجرة.

في أيديهم، وكادوا يستسلمون ثم علموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلّا الإقدام عليه، فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم، إلّا أن الفرنج لا يحملون حملة، فيرجعون إلّا وقد قتل منهم، فوهنوا لذلك وهنًا عظيمًا، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها فارتفع من بَقِي من الفرنج إلى تلٍّ بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به، فاشتدّ القتال عليهم من سائر الجهات، ومنعوهم عمّا أرادوا، ولم يتمكّنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير، وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمّونه صليب الصلبوت، ويذكرون أنَّ فيه قطعة من الخشبة التي صُلِبَ عليها المسيح عليه السلام بزعمهم، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك، هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم، فبقي الملك على التلّ في مقدار مائة وخمسين فارسًا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين.

فحُكِيَ لي عن الملك الأفضل ولد صلاح الدين، قال: كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التلّ في تلك الجماعة حملوا حملةً منكرةً على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي، قال: فنظرت إليه وقد علته كآبة واربدَّ لونه وأمسك بلحيته وتقدَّم وهو يصيح: كذب الشيطان، قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التلّ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي هزمناهم، فعاد الفرنج، فحملوا حملة ثانية مثل الأولى وألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أوّلاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتلّ، فصحت أنا أيضًا: هزمناهم، فالتفت والدي إليَّ وقال: اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي وإذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكرًا لله تعالىٰ، فبكىٰ من فرحه.

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشًا، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقًا، فنزلوا عن دوابّهم وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمةَ الملك، وأسروهم عن بَكْرة أبيهم، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرباط صاحب الكرك، ولم يكن في الفرنج أشدّ منه عداوةً للمسلمين، وأسروا أيضًا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية، وكان من أعظم الفرنج شأنًا، وأسروا أيضًا جماعةً من الداوية، وجماعةً من الإسبتارية، وكَثُر القتل والأسر فيهم، فكان من يرىٰ القتلى لا

يظنّ أنهم أسروا واحدًا، ومن يرى الأسرىٰ لا يظنّ أنهم قتلوا واحدًا، وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الوقعة.

فلمّا فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فسقاه ماءً مثلوجًا، فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك، فشرب، فقال صلاح الدين: إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني، ثم كلّم البرنس وقرّعه بذنوبه وعدّد عليه عوراته، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته، وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرتُ به، إحداهما لما أراد المسير إلى مكّة والمدينة، والثانية لما أخذ القفل غدرًا، فلما قتله وسُحِبَ وأُخْرِج، ارتعدت فرائص الملك، فسَكَّن جأشه وأمّنه، وأمّا القمص صاحب طرابلس، فإنه لما نجا من المعركة ـ كما ذكرناه ـ وصل إلى صور، ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلّا أيامًا قلائل حتى مات غيظًا وحنقًا مما جرى على الفرنج خاصة، وعلى دين النصرانية عامّة.

١٠٧ ـ يوم فتح بيت المقدس[١]

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد على ما تقدّم، وكان قد أرسل إلى مصر أخرج الأسطول الذي بها في جمعٍ من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب، وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة، فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج، كلما رأوا لهم مركبًا غنموه وشانيًا أخذوه، فحين وصل الأسطول وخلا سرّه من تلك الناحية سار عن عسقلان إلى البيت المقدّس، وكان به البطرك المعظّم عندهم وهو أعظم شأنًا من ملكهم، وبه أيضًا باليان بن بيرزان صاحب الرملة، وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، وبه أيضًا من خلص أيضًا من فرسانهم من حطين، وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي عسقلان وغيرها، فاجتمع به كثيرٌ من الخلق كلهم يرىٰ الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدّس، ويأخذوه منهم، ويرىٰ أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه، وحصّنوه تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلاً، وصعدوا على سوره بحدّهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذبّ عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين

(١) سنة ٥٨٣ من الهجرة، وهو اليوم الذي حرّر فيه السلطان صلاح الدين الأيوبي القدس الشريف من أيدي الصليبيّين.

العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم، ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنوّ منه والنزول عليه، ولما قَرُبَ صلاح الدين منه تقدّم أمير في جماعة من أصحابه غير محتاط ولا حَذِر، فلقيَهُ جمعٌ من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يَزَكًا، فقاتلوه وقاتلهم، فقتلوه وقتلوا جماعةً ممن معه، فأهمَّ المسلمين قتله، وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب، فلمّا نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم، وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلّوا به على كثرة الجمع.

وبقي صلاح الدين خمسة أيّام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله؛ لأنه في غاية الحصانة والامتناع، فلم يجد عليه موضع قتال إلّا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون، فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها، ونصب تلك الليلة المنجنيقات، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمىٰ بها، ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها، وقوتلوا أشدَّ قتالٍ رآه أحد من الناس كلُّ واحدٍ من الفريقين يرى ذلك دينًا وحتمًا واجبًا، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويزجرون ولا ينزجرون، وكان خيّالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون، فيُقتل من الفريقين، وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك، وهو من أكابر الأمراء، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم فقتل إلى رحمة الله تعالىٰ، وكان محبوبًا إلى الخاص والعام، فلما رأى المسلمون مصرعه عَظُم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم، فحملوا حملةَ رجلٍ واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم، فأدخلوهم بلدهم، ووصل المسلمون إلى الخَندق، فجاوزوه والتصقوا إلى السور، فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ليتمكّن المسلمون من النقب، ولما نقبوه حشوه بما جرت به العادة، فلما رأى الفرنج شدّة قتال المسلمين، وتحكُّم الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويَذرون، فاتّفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم البيت المقدّس إلى صلاح الدين، فأرسلوا جماعةً من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان، فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم، وقال: لا أفعل بكم إلّا كما فعلتم بأهله حين مَلَكْتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسَّبي وجزاء السيّئة بمثلها، فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره، فأُجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب في الأمان، وسأل فيه

فلم يجبه إلى ذلك، واستعطفه فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم يرحمه، فلما أيِسَ من ذلك، قال له: أيُها السلطان، اعلم أننا في هذه المدينة في خلقٍ كثير لا يعلمهم إلّا الله تعالىٰ وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنًّا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا الموت لا بدَّ منه، فوالله لنقتلنّ أبناءنا ونساءنا ونُحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها دينارًا واحدًا ولا درهمًا ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من الموضع، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابّة ولا حيوانًا إلّا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلّنا قاتلناكم قتالَ من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذٍ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزّاء أو نظفر كرامًا.

فاستشار صلاح الدين أصحابه، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أيِّ شيء تنجلي، ونحسب أنهم أسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقرّ بيننا وبينهم، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج، فاستقرَّ أن يُؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغنيّ والفقير، ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين، وتَزِن المرأة خمسة دنانير، فمن أدّى ذلك إلى أربعين يومًا فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يومًا عنه ولم يؤدِّ ما عليه فقد صار مملوكًا، فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، فأجيب إلى ذلك وسُلّمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وكان يومًا مشهودًا ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره، ورتّب صلاح الدين على أبواب البلد في كلِّ باب أمينًا من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقرّ عليهم، فاستعملوا الخيانة ولم يؤدّوا فيه أمانة، واقتسم الأمناء الأموال، وتفرّقت أيدي سبا ولو أدّيت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعمَّ الناس، فإنّه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل، سوى من يتبعهم من النساء والولدان، ولا يعجب السامع من ذلك، فإن البلد كبير، واجتمع إليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والداروم والرّملة وغزّة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي، ومن الدليل على كثرة الخلق أن أكثرهم وزن ما استقرّ من القطيعة، وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار، وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي، وأخذ أسيرًا ستة عشرة ألف آدمي ما بين رجل وامرأة وصبيّ هذا بالضبط واليقين،

ثم إن جماعة من الأمراء ادَّعى كلُّ واحدٍ منهم أن جماعةً من رعيَّة إقطاعه مقيمون بالبيت المقدّس، فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم.

وكان جماعة من الأُمراء يلبسون الفرنج زيّ الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرَّروها، واستوهب جماعة من صلاح الدين عددًا من الفرنج فوهبهم لها، فأخذوا قطيعتهم، وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلَّا القليل، وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم، وقد ترهّبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلقٌ كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيءٌ عظيم، فطلبت الأملن لنفسها ومَنْ معها فأمَّنها وسيَّرها، وكذلك أيضًا أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها كان يقوم بالملك، وأطلق مالها وحشمها واستأذنته في المسير إلى زوجها، وكان حينئذ محبوسًا بقلعة نابلس، فأذن لها، فأتَتْه وأقامت عنده وأتته أيضًا امرأة للبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين، فشفعت في ولدٍ لها مأسور، فقال لها صلاح الدين: إن سلمت الكرك أطلقته، فسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه، فلم يطلق ولدها، ولكنه أطلق ما لها ومن تَبِعها، وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والأقصى وقمامة وغيرها ما لا يعلمه إلَّا الله تعالىٰ، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح الدين، فقيل له: ليأخذ ما معه يقوّي به المسلمين، فقال: لا أغدر به، ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير، وسيَّر الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور، وكان على رأس قبّة الصخرة صليب كبير مذهّب، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلّق جماعةٌ منهم إلى أعلى القبّة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلّهم صوتًا واحدًا من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج، أمّا المسلمون فكبّروا فرحًا، وأمّا الفرنج فصاحوا تفجّعًا وتوجّعًا، فسمع الناس صيحةً كادت الأرض أن تَميدَ بهم لعظمها وشدَّتها.

فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى حالها القديم، فإن الداوية بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هري ومستراح وغير ذلك، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم، فأُعيد إلى الأوّل، وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار، والأنجاس، ففعل ذلك أجمع، ولما كان الجمعة الأخرى رابع شعبان صلّى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين، وصلّى في قبة الصخرة، وكان الخطيب والإمام محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق، ثم

رتَّب فيه صلاح الدين خطيبًا وإمامًا برسم الصلوات الخمس، وأمر أن يعمل له منبر، فقيل له: إن نور الدين محمودًا كان قد عمل بحلب منبرًا أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجّارون في عدَّة سنين لم يعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره، فحُمل من حلب ونصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة، وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله؛ ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدَّم بعمارة المسجد الأقصى، واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه، فأحضروا من الرخام الذي لا يوجد، ومن الفصّ المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون إليه قد ادّخر على طول السنين، فشرعوا في عمارته، ومحوا ما كان في تلك الأبنية من الصورة، وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة، وغيَّبوها فأمر بكشفها، وكان سبب تغطيتها بالفرش أن القسِّيسين باعوا كثيرًا منها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة، يشترونه بوزنه ذهبًا رجاء بركتها، وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة، ويجعل في مذبحها، فخاف بعض ملوكهم أن تفنى فأمر بها ففرش فوقها حفظًا لها، فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيِّدة، ورتَّب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة؛ فعاد الإسلام هناك غضًّا طريًّا، وهذه المكرمة من فتح البيت المقدّس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخرًا وشرفًا، وأمّا الفرنج من أهله فإنهم أقاموا وشرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم، وما لا يطيقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الثمن، فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج، فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكِّنهم من المقام في مساكنهم، ويأخذ منهم الجزية، فأجابهم إلى ذلك فاستقرّوا! فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج، وترك الفرنج أيضًا أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الأسرّة والصناديق والبنيات وغير ذلك، وتركوا أيضًا من الرّخام الذي لا يوجد مثله من الأساطين والألواح والفصّ وغيره شيئًا كثيرًا، ثم ساروا.



فهرس المحتويات

القسم الأول

أيام العرب في الجاهلية

القسم الثاني
أيام العرب في الإسلام

طبع في مطابع دار الكتب العلمية
جسر المطار - سنتر الساحل التجاري
هاتف: ٨٤٨٤٨٧ - ٨٤٨٤٨٦ - ١ ٩٦١ +
بيروت - لبنان